سلفادور دالي

الحياة السرية

ترجمة : متيم الضايع

دار الحوار

الكتاب: الحياة السرية
المؤلف: سلفادور دالي
المترجم: متيم الضايع
الطبعة الأولى: 2016/1
حقوق الطبع محفوظة ©دار الحوار للنشر والتوزيع

هذه هي الترجمة العربية للكتاب الانكليزي:

THE SECRET LIFE

By:

SALVADOR DALI

ISBN: 978-9933-477-92-9

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
اللاذقية، سورية، ص. ب 1018
هاتف وفاكس: 339 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

سلفادور دالي

الحياة السِّريَّة

ترجمة: متيّم الضايع

دار الحوار

المحتويات

القسم الأول: 15

الصورة الشخصية القصصية 17

ذاكرة داخل الرحم 41

ولادة سيلفادور دالي 49

الذاكرة الطفولية الزائفة 52

الذاكرة الطفولية الحقيقية 87

قصة العكاز وقطاف أزهار الزيزفون 127

القسم الثاني: 155

المراهقة، الجراد، الطرد من المدرسة. نهاية الحرب الأوروبية. 157

دراسات فلسفية، الحب غير المُنجز، التجارب التقنية. "مرحلة الحصى"، نهاية العلاقة عاطفية، وموت الأم. 188

فترة التدريب المجيدة، موافقة الأب على العمل في الفن، امتحان القبول، الفصل من كلية الفنون الجميلة في مدريد، التأنق والسجن. 206

العودة إلى مدريد، الطرد من مدرسة الفنون الجميلة، الرحلة إلى باريس، اللقاء ب غالا، بدايات. 271

حكاية التمثال الشمعي وأنف السكر. 320

القسم الثالث: 343

بدايات في المجتمع، الخيزرانات، الأرستقراطية 345

معركتي، مشاركتي ومنصبي في الثورة السريالية، "الموضوع السريالي" مقابل "الحلم المسرود"، نشاط الارتياب النقدي مقابل "التلقائية". 381

مجد بين الأسنان وألم بين الساقين، غالا تكتشف كلاسيكية روحي وتلهمها. 456

التحوّل، الموت، البعث. 465

فلورنسا، ميونخ، مونت كارلو، بونويت تيللر، الحرب الأوروبية الجديدة، العودة إلى إسبانيا، ليشبونة، اكتشاف آلة تصوير الفكر، نظرية نشأة الكون، الانتصار الخالد لأوراق نبات الأقينثا، عصر النهضة. 488

الخاتمة 526

تمهيد:

في السادسة من عمري أردت أن أكون طباخاً، وأردت في السابعة أن أكون نابليون. ولا يزال طموحي يزداد باطراد منذ ذلك الحين.

لقد استشهد (ستاندال) في مكان ما بملاحظة لأميرة إيطالية كانت تتناول الآيس كريم بمتعة كبيرة في ليلة حارة، حيث قالت: "أليس من المؤسف أن هذا ليس إثماً؟". عندما كنت في السادسة، كان تناول أي طعام في المطبخ إثماً. وكان دخولي إلى ذلك الجزء من البيت، أحد الأمور القليلة التي يصفها والداي بالمحرمات. كنت أحوم حول المكان لساعات ولعابي يسيل، حتى أجد فرصة أتسلل فيها إلى ذلك المكان الساحر، وبينما كانت الخادمات يقفن بابتهاج ويصرخن، كنت أخطف قطعة لحم نيءٍ أو فطراً مشروماً أكاد أختنق بها، لكنني كنت أشعر بطعم مدهش مُسكرٍ لا يمكن أن يمنحني إياه سوى الخوف والإحساس بالذنب.

بعيداً عن حرمة المطبخ، كان مسموحاً لي بأن أقوم بكل شيء أريده. وقد كنت أبلل فراشي حتى أصبحت في الثامنة من عمري لمجرّد إحساس بمتعة ذلك. كنت الملك المطلق في البيت، وليس هناك ما هو جيد بما يكفي بالنسبة لي، وكان والداي يبجلانني. وحصلت في يوم (احتفال الملوك)، من بين الكثير من الهدايا، على زيّ ملكي متألق — تاج ذهبي مرصّع بأحجار كريمة، وعباءة من فرو القاقم — وقد عشت منذ ذلك الحين متخفياً بهذا الزي بشكل دائم تقريباً. وعندما كانت الخادمات يطاردنني، كنت أقف في الرواق المظلم متشبثاً ببقعة واحدة — مرتدياً زيي الملكي وصولجاني في إحدى يدي وخفي الجلدي باليد

الأخرى – مرتعشاً من الغضب وتسيطر عليّ رغبة عارمة بأن أوجّه للخادمات ضربة قوية. وكان ذلك قبل ساعة ظهيرة يوم صيفي حار جداً. وخلف باب المطبخ المفتوح جزئياً، كنت أسمع صراخ النساء العنيفات بأيديهن المحمرة، وألمح أردافهن الثقيلة وشعورهن المنسدلة على ظهورهن. وفي خضمّ هذا المزيج من النساء المتسخات والعنب المتناثر، والزيت المغلي والأرانب المسلوخة، والأظافر المتسخة بالمايونيز، والكلى وتغريد طيور الكناري – من خلال هذا المزيج الثقيل كله، والرائحة الافتتاحية التي لا يمكن قياسها، كانت تقدّم لي وجبة تمتزج برائحة لاذعة تشبه رائحة حصان. بياض بيض مخفوق تسقط عليه أشعة الشمس بعد أن تعبر دوّامة من الدخان والذباب، وتتألق كالزبد المتشكل على أفواه أحصنة تلهث وسط الغبار، وتُلسعٍ بطريقة دموية كي تجثو على أقدامها. وكما أسلفت، كنت طفلاً مدللاً.

توفي أخي في السابعة من عمره بسبب التهاب السحايا، وذلك قبل ولادتي بسنوات ثلاث. وقد وضع هذا الحادث والدي في حالة إحباط شديدة، ولم يجدا العزاء حتى جئت إلى هذا العالم. كنت وأخي متشابهين كقطرتي ماء، لكننا كنا مختلفين في أسلوب التفكير. ومثلي تماماً كانت تبدو على محياه ملامح عبقرية لا لبس فيها[1]. لقد أظهر ملامح تدل على النضج المبكر لكنها كانت مغطاة بمسحة من كآبة، وقد تميز بذكاء لا يوصف. وأنا من الجهة الأخرى، كنت أقل ذكاء بكثير لكنني تأملت بكل شيءٍ. كان عليّ أن أصبح بامتياز، النموذج الأولي للشخص المتخلف جداً، "المنحرف بعدة أشكال"، محافظاً على كل ذكريات الفردوس المثير للشهوة الجنسية للرضيع دون أن تمس تقريباً:

[1] منذ عام 1929، كان لدي إدراك حادّ لعبقريتي، وأعترف بأن هذه القناعة التي كانت متجذرة في عقلي أكثر من أي وقت مضى، لم تُثر في داخلي أية مشاعر من النوع الذي يسمى (التسامي)، ومع ذلك، يجب أن أعترف أنها كانت تمنحني شعوراً ممتعاً جداً في بعض الأحيان.

لقد تمسكت بالمتعة والحماسة الأنانية بلا حدود، وكنت أصبح شخصاً خطيراً لدى أي استفزاز بسيط. وفي إحدى الأمسيات، جرحت وجنة مربيتي بدبوس مع أنني كنت مولعاً بها وقد فعلت ذلك لمجرّد أن المتجر الذي أخذتني إليه لشراء قطع السكّر التي أحبها كان مغلقاً. وبكلمات أخرى، كنتُ قاسياً. وربما كان أخي هو الإصدار الأول عني، لكنه كان مستغرقاً جداً في المطلق.

نحن نعرف اليوم أن الشكل يكون دوماً نتاج عملية تحققّية للمادة — ردّة فعل معينة للمادة عندما تخضع لقوى خارجية هائلة تخنقها من الجوانب كلها، وتضغطها وترخيها، وتُنتج فيه انتفاخات تنبعث من حياتها إلى الحدود المتقنة للمحيط الدقيق لأصالة ردّة فعلها الخاصة. كم من المرات مُحقت مادة طُبّقت عليها قوة كبيرة جداً، في حين أن مادة أخرى، حاولت أن تقوم فقط بما تستطيع، وتكيّفت مع متعة قولبة نفسها بأن تتقلص بطريقتها قبل أن يصبح الفضاء الخارجي الاستبدادي قادراً على أن يعطيها الشكل الأصلي للحياة على طريقته هو!

ما هو الشيء الأكثر خفة وخيالية وحرية بكل مظاهره من الإزهار الشجري للعقيق! ومع ذلك فهو ينجم عن أشرس قيود البيئة الغروية، حبيساً في أقسى أنواع البنى التحققيّة، ويخضع لجميع أنواع الضغط القاسي والاختناق الأخلاقي، بحيث تكون نعومته وهوائيته وتشعبه الزخرفي، كما يبدو، مجرّد آثار لبحث ميئوس منه للهروب من عذابات موته، واللهاث الأخير لقطعة من مادة لن تستسلم قبل أن تصل إلى الحياة النباتية القصوى للحلم المعدني. ومن هنا فإن حالة العقيق ليست حالة نبات تحول إلى معدن، وهي ليست نباتاً وقع في قبضة المعدن وابتلعه، بل على العكس تماماً، لدينا هنا بالفعل شبح طيفي لنبات، ولتشجره وهلوسته المميتة: النهاية والشكل المتعلق بالتحققية، وبقيود العالم المعدني القاسية التي لا ترحم.

وهكذا تكون الوردة أيضاً! تنمو كل وردة في سجن! ومن وجهة النظر الجمالية فإن الحرية لا شكل لها. من المعروف الآن، ومن خلال النتائج الجديدة لعلم التشكّل (يعود المجد لغوته لاختراعه هذه الكلمة الهامة، الكلمة كانت ستُعجب ليوناردو!) أنه غالباً ما يكون، بالضبط، ميولاً فوضوية غير متجانسة، تقدّم أعظم تعقيدات التناقضات التي تقود إلى السيطرة المطلقة لأكثر التسلسلات الهرمية الصارمة للشكل.

ومع أن الرجال أحاديو الاتجاه، فقد كانت العقول ذات الاتجاه الواحد تحترق بنار محاكم التفتيش المقدسة، أما العقول الفوضوية متعددة الأشكال — لأنها كانت هكذا بالضبط — فقد وجدت في ضوء تلك النيران إزهار تشكّلها الروحاني الفرداني الأقصى. وكما أسلفت، كان أخي يمتلك أحد أنواع الذكاء التي لا تُضاهى، ذات الاتجاه الواحد والتفكير الثابت، والتي يستنزفها الشكل أو يعيقها. في حين كنتُ أنا المنحرف المتعدد الأشكال والفوضوي. ومع الإمكانية الهائلة للحركة، فكرت بكل عناصر الوعي كما لو أنها كانت حلويات، وكل الحلويات كما لو أنها عناصر متجسدة للوعي. لقد توافق كل شيء معي ولم يغيرني شيء. وكنت طرياً وجباناً ومرناً. وكانت البيئة الغروية لعقلي تجد في صرامة التفكير الإسباني المشابه لمحاكم التفتيش، الشكل النهائي للدموية والمكر، والعقيق المتشجر لعبقريتي الغريبة. لقد عمّدني والداي باسم أخي — سيلفادور — وكان مقدراً لي كما يدل اسمي، شيء ليس أقل من إنقاذ الرسم من هاوية الفن الحديث، وأن أقوم بهذا في حقبة الكوارث الميكانيكية والعادية التي كانت لنا فيها محنة العيش وشرفه. ولو نظرت نحو الماضي، فستبدو لي كائنات مثل (رفائيل) وكأنها آلهة حقيقية. وربما أكون اليوم الشخص الوحيد الذي يعرف لماذا سيكون من المستحيل من الآن فصاعداً أن نقارب روعة الأشكال الرفائيلية حتى من بعيد. ويبدو عملي الشخصي بالنسبة لي كارثة

كبيرة، لأنني كنت أودّ لو أنني عشت في عصر لا حاجة فيه للحفاظ على شيء! لكن إنْ حوّلت نظري نحو الحاضر، مع أنني لا أستهين بذكائي الاستثنائي الخاص جداً — نعم، سأكرر هذا مئة مرة — فأنا لا أقبل، ولا من أجل أي شيء في العالم، أن أبدّل موقعي مع أي شخص معاصر لي في العالم، أياً كان هذا الشخص. لكن القارئ حاد الذهن سوف يكتشف مسبقاً ومن دون صعوبات، أن التواضع ليس من شيمي.

Tabernacle.

ثم وصلت شخصية واحدة فريدة إلى سوية حياة يمكن مقارنة صورتها بالمثاليات الصافية لعصر النهضة، واتفق على أن تكون هذه الشخصية تحديداً زوجتي (غالا) التي كانت لي معجزة اختيارها. إنها مصوغة من تلك المواقف السريعة العابرة، والملامح الوجهية المشابهة للسمفونية التاسعة، والتي من خلال عكسها للطابع المعماري للروح المثالية، تصبح متبلورة فوق خطوط شاطئ الجسد تحديداً، وعلى سطح هذا الجلد، وفي زبد بحر التسلسل الهرمي لحياتها الخاصة التي تمت تنقيتها بنسائم الأحاسيس الرقيقة، وتم تصليبها وتنظيمها لتصبح هندسة معمارية من لحمٍ ودم. ولهذه الأسباب مجتمعة، أستطيع أن أقول إن مقام غالا يشبه تماماً " Il Tempietto di Bramante" قرب كنيسة سان بيترو في مونتوريو في روما، لأنه، ومثل ستاندال في الفاتيكان، أستطيع أيضاً أن أقيس الأعمدة النحيلة لكبريائها، والرقة وأعمدة الدرابزين الجامحة لطفولتها، والدرجات السماوية لابتسامتها. وهكذا، وبينما أراقبها من طرف عيني خلال الساعات الطويلة التي أمضيتها واقفاً أمام لوح الرسم، أقول لنفسي إنها رُسِمَت بشكل متقن، كأنها لوحة لرفائيل أو فيمير. كما تبدو الكائنات حولنا كما لو أنها لم تنتهِ بعد، وقد رُسمت بشكل

سيئ! أو بالأحرى، هي تبدو مثل تلك الرسومات الكاريكاتورية القذرة التي تم رسمها بسرعة على مصطبة مقهى، على أيدي رجال لديهم كروش تهتز بسبب الجوع.

لقد قلت إنني أردت في السابعة أن أكون نابليون، ولا بدّ أن أشرح ذلك. ففي الطابق الثالث من منزلنا، عاشت عائلة أرجنتينية تسمى (ماتان) وكانت (أورسوليتا) إحدى بناتها مشهورة بجمالها. وقد قيل في الأساطير الكاتالونية المتناقلة شفهياً للعام 1900 إنه تم اختيارها من قِبَل (أيوجينيو دورس) كنموذج للمرأة الكاتالونية، في كتابه (لا بين بلانَتادا – La Ben Plantada) أو (المزروعة جيداً).

ما إن تجاوزت السابعة من عمري بقليل، حتى بدأت الجاذبية الجنسية الاجتماعية القوية للطابق الثالث تمارس سلطتها علي. وفي الفجر القائظ للصيف المبكر، كنت أتوقف أحياناً عن المتعة الخارقة لشرب الماء من صنبور الشرفة (عطش مبهج جداً، قلبي ينبض بسرعة) عندما أسمع صوتاً خفيضاً لباب شرفة الطابق الثالث يجعلني آمل أن يُفتح. لقد كنت مبجّلاً في الطابق الثالث كما كنت في منزلي. وهناك، وحوالي الساعة السادسة من كل يوم، وحول الطاولة الضخمة في غرفة الاستقبال، تجلس مجموعة من مخلوقات ساحرة باللكنة الأرجنتينية لملائكة تشرب "المتة" [1] التي تُقدّم مع مصاصة فضية تنتقل من فم إلى آخر. لقد أربكني هذا الاختلاط الفموي بشكل مميز، وولّد في داخلي دوامات اضطراب عقلي بزغت منه الأضواء الزرقاء لألماسات الغيرة. وأردت بدوري أن أرشف ذاك السائل الفاتر الذي كان أحلى من العسل بالنسبة لي، وذلك العسل الذي كان معروفاً بأنه أحلى من الدم ذاته – كان دمي حاضراً دائماً بالنسبة لأمي. لقد كان ثباتي الاجتماعي مختوماً دوماً بطريق النصر المؤكد للمنطقة المثيرة للشهوة الجنسية المرتبطة بفمي.

---

[1] المتة: هي الشاي الأرجنتيني.

لقد أردت أن أرشف سائل نابليون! لأن نابليون كان موجوداً أيضاً هناك في غرفة استقبال الطابق الثالث. كانت صورته في مركز دائرة متألقة متعددة الألوان تزخرف إحدى نهايات برميل قصديري. وكان ذلك البرميل ملوناً ليبدو كقطعة خشب ويحتوي على المادة الشهوانية "المتة". وكانت المتة توضع بتكلّف في وسط الطاولة تماماً. كانت صورة نابليون المنسوخة على كوب المتة تعني كل شيء بالنسبة لي. ولسنوات طويلة، كانت وضعية الفخر الأولمبي والعري الأبيض القابل للأكل لبطنه الناعم، واللحم المحموم الوردي لتلك الوجنات الإمبراطورية، والسواد المطلق اللحني غير اللائق المحيط بكراهيته، كان كل ذلك يتطابق تماماً مع النموذج الذي اخترته لنفسي، الملك.

كان الناس يغنون في ذلك الوقت الأغنية الحيوية التالية:

نابليون في المباراة النهائية

إنه باقة ورد ضخمة

صورة نابليون الصغيرة تلك، قد استحوذت فعلياً على نواة ملامح روحي التي لا تزال غير موجودة، مثل صفار بيضة يقلى في مقلاة (من دون مقلاة، ومع ذلك يكون سلفاً في مركز المقلاة).

وهكذا أسست تسلسلاً هرمياً خلال تلك السنة. وبعد رغبتي بأن أكون طاهياً، أيقظتُ شخصية نابليون تحديداً من خلال زيي اللاشخصي الخاص بملك مُبهم. وقد اتخذت المسرّات المغذية السرّية الشكل الهندسي "لوعاء خبز القربان" الصغير — الكأس الذي يحتوي "المتة". وقد أثيرت الأحاسيس الأيروتيكية المحتشدة عبر الرؤية المشوشة لمخلوقات أنصاف نساء وأنصاف أحصنة تسكنً المطبخ في الأسفل، والتي أفسحت الطريق للاتي يسكنّ غرفة الاستقبال في الطابق الثالث، وتحتها صورة هادئة لسيدة حقيقية هي أرسوليتا ماتاز، موديل 1900 الأولي للجمال.

سأشرح لاحقاً العديد من آليات التفكير التي ابتكرتها وأصفها بدقة. كانت تقوم إحداها على فكرة روعة "نابليون القابل للأكل"، والتي أدركت فيها بشكل مادي ذينك الشبحين الجوهريين لطفولتي المبكرة — الهذيان الفموي المغذي، والاستعمار الروحاني الأعمى. وعندها سيكون واضحاً كضوء النهار، لماذا تكون خمسون كأساً مليئة بالحليب الفاتر معلقة على كرسي هزاز، مشابهة تماماً بالنسبة لعقلي، لفخذي نابليون المكتنزين؟ وبما أنه ممن الممكن لهذا الأمر أن يصبح حقيقة بالنسبة لكل شخص، وبما أنه هناك مزايا مختلفة لأن تكون قادراً على أن تنظر للأشياء بهذه الطريقة، فسوف أشرح في هذا الكتاب الحساس، هذا الأمر، بالإضافة إلى الكثير من الألغاز الأخرى، وحتى الأكثر غرابة منها ولا تقل عنها دقة. وهناك على الأقل شيء واحد مؤكد: كل شيء أقوله هنا، كل شيء بالمطلق أقوله في هذا الكتاب، هو تماماً خطئي الشخصي.

القسم الأول

الفصل الأول

الصورة الشخصية القصصية

أنا أعرف ما أتناول من طعام
أنا لا أعرف ما أفعل.

لحسن الحظ، أنا لست أحد تلك الكائنات التي تميل عندما تبتسم إلى عرض بقايا السبانخ المريعة المخزية العالقة في أسنانها مهما كانت صغيرة. ولا يعود ذلك إلى أنني أغسل أسناني أكثر من الآخرين، بل يعود لحقيقة مطلقة أكثر بكثير، وهي أنني لا أتناول السبانخ. لقد حدث أن تعلّقت بها كما تعلّقت أكثر أو أقل، بكل شيء يرتبط بالطعام، وبالقيم الجوهرية للنظام الأخلاقي والجمالي. وبالطبع، كان حارس الاشمئزاز دوماً في اليد، يقظاً ومليئاً بالعناية المفرطة، ومنتبهاً بشكل رسمي للخيارات المحددة لطعامي.

أحب فقط أن أتناول الأشياء ذات الأشكال المحددة التي يمكن للذكاء أن يستوعبها. وأمقت السبانخ بسبب شكلها غير المرتب إطلاقاً، لدرجة أنني مقتنع تماماً، ولا أتردد لحظة في أن أقول: ليس هناك شيء صالح للأكل ونبيل في هذا الطعام سوى الرمل.

إن الشيء المعاكس تماماً للسبانخ هو "المدرعات". ولهذا أحب أن أتناول "المدرعات"، وخاصة الأنواع الصغيرة منها، وأعني تحديداً، الحيوانات البحرية الصدفية كلها. وبفضل دروعها التي تشكّل هيكلاً عظمياً خارجياً في الواقع، كان هذا تحقيقاً مادياً لفكرة على مستوى

عال من الذكاء والأصالة، وهي تتعلق بأن تكون الممارسة العامة أن يرتدي المرء عظامه من الخارج بدلاً من أن تكون في الداخل.

هكذا تكون القشريات قادرة "بأسلحتها التشريحية" على حماية الهيجان المغذي الطري لأحشائها، والمحمي ضد كل أنواع الانتهاكات، والمُحاط في وعاء مهيب ضيّق، يجعله غير متاح إلا لأرقى أشكال الغزو وهي الحرب النبيلة لإزالة القشرة: وذلك في الحنك. كم هو رائع سحق جمجمة طائر صغير[1]! كيف يمكن لشخص أن يأكل الأدمغة بطريقة أخرى! إن الطيور الصغيرة تشبه الأسماك الصدفية بشكل كبير. إنها تلبس دروعها إن جاز التعبير، وتتورّد ببشرتها. وعلى أية حال فقد رسم (باولو أوتشيللو) درعاً يشبه (طائر الأورتولان) الصغير، وفعل هذا بجمال جدير بالطائر الحقيقي، والذي سمّي باسمه.

قيل غالباً إن أكثر أعضاء الإنسان فلسفية هي فكاه. وبالفعل، ما هو الشيء الأكثر فلسفية من اللحظة التي تمتص فيها ببطء نخاع عظم يسحقه العناق المدمّر النهائي لأضراسك، ويخولك بأن تعتقد أنك انتزعت السيطرة على الوضع؟ – لأنه في تلك اللحظة السامية من وصولك إلى نخاع أي شيء، تكتشف نكهة الحقيقة تحديداً، وتكتشف الحقيقة العارية الطرية تنبثق من بئر العظم الذي تطبق عليه بين أسنانك.

ما إن تتغلّب على العراقيل بفضل الطعام الذي يحترم ذاته "الذي يحافظ على شكله"، حتى ترى أنه ما من شيء يمكنه أن يحظى بالتقدير ليصبح مرغوباً كالرشاقة والطراوة والارتعاش والغموض، سواء أكان عين سمكة مصقولة ولزجة، أو مخيخاً لزجاً لطائر، أو نخاعاً أشبه بسائل منوي لعظم أو الفيضان اللزج للمحار[2]. وسوف أُسأل من

---

[1] يوقظ الطائر في الأنسان دوماً طيران ملائكة قسوته اللاحمة. إن (ديلا بورتا) في كتاب (السحر الطبيعي)، يعطي وصفة لطبخ الديك الرومي دون أن تقتله، ويشرح كيفية تحقيق هذه الكياسة الأسمى: أي أن تجعل من الممكن أن تأكه مطبوخاً وحياً في آن معاً.

[2] لقد رفضت دوماً أن أتناول المحار الذي يكون بلا شكل عندما ينفصل عن الصدفة التي تحويه ويقدّم في أطباق الحساء، رغم أنها الأفضل في العالم.

دون شك: في تلك الحالات، هل تحب جبنة (الكاميمبيرت)؟ هل تحافظ هذه الجبنة على شكلها؟ وسوف أجيب بأنني أعشق هذه الجبنة بالضبط لأنها عندما تختمر وتبدأ بالسيلان، فهي تشبه تماماً ساعاتي الناعمة المشهورة وتتخذ شكلها، وهي مشرّفة لأنها إعداد صناعي في شكلها الأصلي. وسأضيف أنه إن نجح شخص ما في صناعة هذه الجبنة على شكل السبانخ، فمن المرجّح أنني لن أحبها أيضاً.

لكن لا تنسَ هذا: إن دجاجة مطهوّة بالبراندي الفاخر، تُقدّم بأحشائها وبرازها بأفضل طقوس المطاعم الباريسية الفخمة، ستمثّل لي دوماً في هذا المجال المحدد من الطعام، الرمز الأكثر دقّة للتمدن الحقيقي. وكم هو جميل أن تنظر إلى دجاجة تستلقي عارية في الطبق! إن شكلها التشريحي يمثّل الكمال الرفائيلي إن جاز التعبير.

وهكذا فأنا أعرف بشكل جيد جداً ما أريد أن أتناول من طعام! وأكون كلي دهشة لمراقبتي الاعتيادية للمخلوقات من حولي وهي تتناول أي شيء يتماشى مع الحاجات الضرورية.

ومع أنني كنت أعرف تماماً وببعد نظر، ما أرغب بأن أحصل عليه بأحاسيسي، فلم يكن الأمر مشابهاً بالنسبة إلى مشاعري الخفيفة الهشّة كفقاعات الصابون. لأنه وبشكل عام، لم أستطع يوماً أن أتوقّع المسار الهستيري الغريب لسلوكي، أو بالحد الأدنى، النتيجة النهائية لتصرفاتي التي أكون الشاهد الأول المندهش بها، والتي تصبح في ذروتها على شكل كرات رصاصية ثقيلة وكارثية. ويبدو الأمر كما لو أنه في كل مرة أضاعت فيها واحدة من فقاعات مشاعري المتقزحة اللون مسار حياتها سريعة الزوال، ووصلت بأعجوبة إلى الأرض — وصلت إلى الواقع — وتحوّلت في تلك اللحظة إلى تصرّف مهم، تغيّرت فجأة من شيء شفاف وأثيري إلى شيء كامد معدني يتوعّد مثل قنبلة. ولا يمكن لشيء أن يضيء هذا الجانب أكثر من أنواع القصص التي سترد لاحقاً،

والتي اخترتها لهذا الفصل دون ترتيب زمني يتعلّق بالمسار الزمني لحياتي. وعندما تكون هذه القصص أصيلة جدا، وتروى بصراحة كما هي، فإنها تطرح ألوانها وملامحها مع ضمانات لا لبس فيها بأنها جوهرية وأساسية لأية محاولة صادقة للتصوير الذاتي. وأنا أعرف أنها كانت أسراراً ممنوعة عن الكثيرين. وفكرتي الثابتة في هذا الكتاب هي أن أقتل ما أستطيع قتله من تلك الأسرار، وأن أقتلها بيدي!

1

كنت في الخامسة من عمري، وكان الفصل ربيعاً في قرية كامبرليز في برشلونة. وكنت أتمشى في الريف مع شخص أصغر مني، له شعر مجعد أشقر جداً، وكنت قد عرفته منذ فترة قصيرة. وكنت أسير على قدميّ بينما كان يركب دراجة، وكنت أدفعه بيدي المتكئة على ظهره.

وصلنا إلى جسر قيد الإنشاء ولم يكن محمياً بدرابزين من أي نوع. وفجأة، وكما تخطر على بالي معظم أفكاري، نظرت خلفي لأتأكد من عدم وجود مراقب لنا، ودفعت الطفل بضربة قوية من فوق الجسر. وهوى على بعض الصخور تحتنا بخمسة عشر قدماً. ثم أسرعت إلى البيت لأعلن النبأ.

وطوال فترة بعض الظهر، كانت الأواني الملطخة بالدم تخرج من غرفة الطفل، وكان رأسه مصاباً بشكل سيئ، وكان عليه أن يبقى في سريره لمدة أسبوع. لقد وضعتني الحركة المستمرة والاضطراب العام الذي عم البيت في حالة هلوسة لذيذة. كما أنني بدأت أتناول الكرز في الردهة الصغيرة جالساً على مقعد هزاز تزينه أشرطة الكروشية المزخرفة وتغطي ظهره وذراعيه ووسادة مقعده، وكانت الأشرطة أيضاً مزخرفة بحبات الكرز النافرة الفخمة. وكانت الردهة مطلّة على الصالة حيث استطعت أن أراقب كل شيء. وكان الظلام دامساً تقريباً بسبب إغلاق مصاريع النافذة للحماية من الحرارة الخانقة. لكن أشعة الشمس كانت تسقط

عليها لتضيء عقداً في الخشب وتحولها إلى لون أحمر متقد كأذنين مضاءتين من الخلف. ولا أتذكر الآن أي إحساس بالذنب حول هذا الحادث. وأتذكر في تلك الليلة، متعتي بجمال كل ورقة عشب كانت في طريقي بينما كنت أمارس عادة المشي وحدي.

2

في السادسة من عمري، وفي غرفة الاستقبال المليئة بالضيوف في بيتنا، كان الجميع يتحدثون عن المذنّب الشهير الذي سنتمكن من رؤيته هذه الليلة إن لم يكن الطقس غائماً. وقال أحدهم إنه من الممكن أن يلامس ذيل المذنّب سطح الأرض وحينها سينتهي العالم. على الرغم من السخرية التي اعتلت معظم الوجوه، فقد كنت أسير حالة الخوف المتنامي. وفجأة، برز شخص من العاملين في مكتب والدي في مدخل غرفة الاستقبال معلناً عن إمكانية رؤية المذنب من الشرفة. وهرع الجميع إلى السلالم، وبقيت وحدي جالساً على الأرض مشلولاً من الخوف. ثم استجمعت بعض الشجاعة وانطلقت نحو الشرفة. وبينما كنت أعبر الصالة، لمحت أختي ذات السنوات الثلاث، تحبو عبر المدخل. وتوقفت متردداً لحظة ثم رفستها بقوة على رأسها كما لو كانت كرة، ثم تابعت طريقي نحو الشرفة مغموراً "بمتعة لذيذة" ناتجة عن هذا التصرّف الهمجي. لكن والدي الذي كان يقف خلفي، قبض عليّ وأخذني إلى مكتبه حيث بقيت سجيناً هناك حتى موعد العشاء.

لقد بقيت حادثة عدم السماح لي برؤية المذنب محفوظة في ذاكرتي كإحدى أصعب إحباطات حياتي. وقد صرخت بطريقة غاضبة جعلتني أفقد صوتي تماماً. ونظراً للخوف الذي اعترى والديَّ حينها، تعلمتُ أن أمارس هذه الخدعة لدى حدوث أدنى استفزاز. وفي مناسبة أخرى، ولدى اختناقي بحسكة سمكة أثناء تناول الطعام، نهض والدي الذي لم يستطع أن يحتمل أمراً كهذا، وغادر الغرفة مطبقاً يديه على رأسه. وفي

مناسبات لاحقة، قمت بمحاكاة حالة السعال، وحالة التشنجات الهستيرية التي ترافقت مع ذلك الاختناق بغية مراقبة ردّة فعل والدي، وإثارة حالة الغيظ لديه، والاستئثار بالاهتمام الشخصي.

وفي الفترة ذاتها تقريباً، وبعد ظهر أحد الأيام، أتى الطبيب إلى المنزل ليثقب شحمتي أذني أختي. وبسبب الشعور اللطيف لدي نحوها، والذي نما منذ أن رفستها، فقد كان ثقب أذنيها بالنسبة لي تصرّفاً عنيفاً قاسياً أردتُ إيقافه مهما كلّف الثمن.

وانتظرت حتى جلس الطبيب وبدأ يعد نظاراته ليبدأ العملية، واقتحمت الغرفة ملوّحاً بحزامي الجلدي وضربت الطبيب على وجهه وكسرت نظاراته. وأطلق الطبيب العجوز جداً صرخة تنّم عن ألم شديد، وسقط على الأرض عندما دخل والدي إلى الصالة.

صرخ بصوت ملطّف جداً كما لو أنه صوت عندليب يخترقه نشيج. "أنا لم أعتقد أبداً أنه يفعل شيئاً كهذا، لقد كنت مولعاً به". ومنذ ذلك الحين، أردت أن أكون مريضاً فقط كي أرى وجه ذلك العجوز الضئيل الذي جعلته يبكي.

3

بالعودة إلى قرية كامبرليز والخامسة من عمري. كنت أتمشى مع ثلاث نساء جميلات بالغات. وبدت إحداهن بشكل خاص جميلة بشكل ساحر. كانت تمسكني بيدي مرتدية قبّعة كبيرة لها حجاب أبيض يغطي وجهها، مما جعلها تتحرك بحيوية. ثم وصلنا إلى منطقة منعزلة، وعندئذٍ بدأن يتهامسن ويضحكن إحداهنّ مع الأخرى بطريقة غامضة ملتبسة. أصبحت مضطرباً وساد لدي شعور بالغيرة عندما لمحت منهن إصراراً على أن أبتعد وألعب وحدي. وأخيراً تركتهن وحدهن، فقط كي أجد نقطة مناسبة أستطيع من خلالها أن أتلصص عليهن. وفجأة رأيتهن يتخذن وضعيات غريبة.

كانت المرأة الأجمل تقف في المركز بينما تراقبها الفتاتان من مسافة قصيرة وهما تتحدثان. وبنظرة كبرياء غريبة، ورأس منخفض قليلاً وساقين ممتدتين بصلابة، ويداها متكئتان على وركيها بنعومة، رفعت تنورتها بشكل غير ملحوظ، وبدا ثباتها يكشف لي توقعات عن شيء يوشك أن يحدث. ثم ساد صمت خانق لنصف دقيقة، وسمعت فجأة صوت سائل قوي يحفر الأرض، وتشكّلت بركة رغوية بين قدميها. لقد تشربت الأرض السائل جزئياً بينما انتشر الباقي على شكل أفاعٍ نحيلة تضاعفت بسرعة كبيرة لدرجة، ولم يفلت حذاؤها من تلك الأفاعي رغم محاولاتها الحثيثة كي تبعد قدميها بعيداً. كما ظهرت بقع رمادية على فردتي حذائها اللتين أصبحتا كورقة ملطّخة.

وبتركيزها على ما كانت تفعله، لم تلاحظ الفتاة الجميلة نظراتي المشلولة، لكنها عندما رفعت رأسها ووجدت نفسها تنظر في وجهي تماماً، رمتني بابتسامة ساخرة ونظرة تنمّ عن عذوبة لا تُنسى، بدت لي مربكة تماماً من خلف حجابها. وفي اللحظة ذاتها تقريباً، أومأت إلى صديقتيها بتعبير كأنه يقول: "لم يعد بإمكاني أن أتوقف الآن، لقد تأخر الوقت على ذلك". وانفجرت الصديقتان بالضحك، وساد الصمت مجدداً. لكنني فهمت فوراً هذه المرة، وكان قلبي ينبض بشدة. وفي اللحظة ذاتها أيضاً، صدمَ الأرض شلالان آخران. ولم أشح بوجهي عنهن، بل وجهتهما تماماً وثبتهما على اتساعهما على تينك العينين خلف الحجاب. لقد ارتسم الخجل الشديد على وجهي مترافقاً مع مدّ دمي المجنون وجزره، بينما ذاب في الشفق أخر لون قرمزي لضوء الشمس المشرفة على المغيب، ودوّت على تلك الأرض المتكلسة صدمات قوية نفيسة حبيسة لثلاثة سوائل مقذوفة، كثلاثة طبول تقبع تحت شلال من الأحجار الكريمة في حالة من الفوران.

هبط الليل وبدأنا رحلة العودة، رفضت أن أعطي يدي لأي من الشابات الثلاث. وتبعتهن على مسافة قصيرة وقلبي يتمزّق ما بين المتعة

والاستياء. وكنت أحمل في يدي دودة متوهجة كنت قد التقطتها عن الطريق، وكنت أفتح يدي رويداً رويداً من وقت لآخر كي أراقب توهجها. لقد أبقيت يدي مطبقة بعناية بحيث بدأت الرطوبة ترشح منها وتقطر، وكنت أنقل دودتي من يد إلى يد كي أحافظ عليها من البلل. وقد سقطت من يدي عدة مرات أثناء هذه العملية، وكان عليّ أن أبحث عنها في ذلك الغبار الأبيض الذي يغمره ضوء القمر ملقياً عليه مسحة شحوب. وعندما انحنيت في إحدى المرات، سقطت قطرة عرق من رأسي وشكّلت فتحة في الغبار، وجعلني هذا المشهد أرتجف. وشعرت بنفسي أرتعش في جسد إوزة. لكنني التقطت دودتي وركضت نحو النساء اللواتي تركنني خلفهن بمسافة كبيرة، متأثراً بخوف مفاجئ. لقد كنّ بانتظاري، وأعطتني المرأة ذات الحجاب يدها بحالة من الزهو لكنني سرت قريباً منها دون أن أدعها تمسك يدي.

وعندما وصلنا إلى البيت تقريباً، جاء ابن عمي ذو السنوات العشرين لمقابلتنا. ولقد كان يحمل بندقية صيد تتدلّى عن كتفه بينما ارتفعت يده الأخرى ليرينا شيئاً ما. وبينما كان يقترب، رأينا أن هذا الشيء كان عبارة عن خفاش صغير معلّق من أذنيه، كان قد أصابه بطلقة في جناحه. وعندما دخلنا إلى البيت، وضعه في دلو صغير وجعلني أشهد ذلك عندما أدرك رغبتي القوية بأن يصبح الخفاش لي. وبعدها أسرعت إلى غرفة الغسيل التي كانت مكاني المفضّل. لقد كنت أحتفظ بغرفة الغسيل بكوب أضع تحته بعض الخنافس فوق وسادة من أوراق النعناع التي تعطي وميضاً أخضر معدنياً. ووضعت دودتي داخل الكوب ووضعت الكوب في الدلو حيث كان الخفاش ساكناً تقريباً. وأمضيت ساعة غفوة عميقة هناك قبل موعد العشاء. وذكرت أنني تكلمت بصوت عالٍ إلى خفاشي الذي أحببته حينها أكثر من أي شيء في العالم، والذي قبّلته عدة مرات وعلى رأسه تحديداً.

وفي صباح اليوم التالي كان ينتظرني مشهد مرعب. فعندما عدت إلى غرفة الغسيل، وجدت الكوب مقلوباً وقد ماتت الخنافس وبقي الخفاش نصف حي، ينتفض بقوه ويعلوه سرب نمل هائج، ويعرض وجهه الصغير المعذب أسناناً تشبه أسنان عجوز شمطاء. وحينها فقط، لمحت الشابّة ذات الحجاب تعبر على بعد خطوات مني، وقد توقفت لتفتح بوابة الحديقة. ومن دون أي تفكير، وجدت نفسي ألتقط حجراً كبيراً وأقذفها به بما لدي من قوة، وقد سيطرت عليّ كراهية شديدة نحوها كما لو أنها المسؤولة عن وضع خفاشي. ومع أن الحجر أخطأ هدفه، إلا أن أنينه القريب جعلها تلتفت حولها. ثم نظرت إليّ نظرة مليئة باهتمام أمومي. بينما وقفت مرتعشاً وتسيطر علي مشاعر لا يمكن وصفها، وكان الخجل أكثرها سطوعاً.

وفجأة تصرّفت بشكل غير مفهوم جعل المرأة تطلق صرخة رعب حادة. وبحركة خاطفة، التقطت الخفاش الذي يدبّ عليه النمل وقربته من فمي مدفوعاً بمشاعر شفقة عنيفة، لكنني لم أقبّله كما اعتقدت أنني سأفعل، بل قضمته بقوة بفكيّ بحيث بدا وكأنه انقسم إلى نصفين. وبفورة من الاشمئزاز، رفست الخفاش إلى غرفة الغسيل وهربت. كان الماء البرّاق في غرفة الغسيل مبقعاً بحبات التين السوداء الناضجة التي سقطت من الشجرة التي تظللها. وعندما عدت واقتربت بضع خطوات من المكان، امتلأت عيناي بالدموع، حيث لم أستطع أن أميّز جسد الخفاش الأسود الصغير عن حبات التين السوداء الطافية الأخرى. وبعد هذه الحادثة، لم تتملكني أية رغبة بأن أقترب من غرفة الغسيل. وحتى يومنا هذا، عندما تذكرني أية بقع سوداء بهذا المكان وما فيه من حبات تين، وبمجرى الماء الذي غرق فيه خفاشي، تسري خلجات باردة في ظهري.

4

كنت في السادسة عشرة من عمري وكان ذلك في مدرسة الأخوة ماريست في فيغويراس، حيث خرجنا من قاعات الدراسة إلى ساحة الاستجمام قرب درجٍ حجري عمودي تقريباً. وفي إحدى الأمسيات، ودون أي مبرر إطلاقاً، خطر بذهني أن أرمي نفسي من أعلى تلك الدرجات. لقد كنت مستعداً تماماً لأقوم بذلك عندما داهمني الخوف في اللحظة الأخيرة وأعادني عن قراري. وعلى أية حال، كانت الفكرة تطاردني، وكنت أنوي سراً أن أفعلها في اليوم التالي. لكنني لم أستطع أن أتراجع في ذلك اليوم حيث وقف زملائي كلهم في لحظة نزولي، وقمت بقفزة رائعة في الهواء، واستقريت على الدرجات، ثم وثبت كامل المسافة إلى الأسفل. واصطدمت بعنف وتشكلت رضوض في كل مكان، لكن متعة هائلة لا يمكن تفسيرها جعلت الألم ثانوياً تماماً. وكان وَقعُ الحدث هائلاً جداً على الرفاق الآخرين الذين أتوا مسرعين لمساعدتي، ووضعوا المناديل المبللة على جبهتي.

لقد كنت في ذلك الوقت جباناً جداً، وكان أدنى قدرٍ من الانتباه يملؤني خجلاً، وكنت قد أمضيت وقتي كله متوارياً منعزلاً، لكن هذا الحشد من الناس حولي، سبب لي شعوراً غريباً. وبعد أربعة أيام، أعدتُ المشهد ذاته لكنني قفزت في هذه المرة من أعلى الدرج، كان ذلك خلال فترة الاستراحة الثانية حيث النشاط في الساحة في حدوده القصوى. حتى أنني انتظرت أن يكون (المشرف الأعلى) في الخارج أيضاً. لقد كان تأثير قفزتي أعظم من المرة الأولى: أطلقتُ صيحة مدوية قبيل القفزة جعلت كل من في الساحة يلتفت نحوي. كانت متعتي عظيمة وكان الألم الناتج عنها تافهاً. لقد كان الحثّ على الاستمرار واضحاً جداً وقد كررت تلك القفزة من فترة لأخرى. وكانت تحدث توقعات هائلة في كل مرة أوشك فيها أن أقفز. هل سيلقي بنفسه أم لا؟

وما هي المتعة التي كانت تصلني أثناء نزولي الهادئ الطبيعي، عندما أرى مئات الأعين وهي تلتهمني بنفاد صبر؟

سوف أتذكر ما حييت مساءً ممطراً معيناً من أمسيات تشرين الأول، وكنت أوشك أن أنزل الدرج. لقد كانت الساحة تعبق برائحة الأرض الرطبة المختلطة برائحة الأزهار، كما اتشحت السماء باللون الناري بتأثير الشمس المشرفة على المغيب، واحتشدت غيوم هائلة واتخذت شكل فهد مرقّط عنيف، وصور لنابليون، ومراكب شراعية تتحرك بشكل عشوائي. وكان وجهي المقلوب مضاءً بآلاف أضواء التمجيد. وهنا، نزلت الدرجات خطوة خطوة، مع حركة بطيئة لنشوة عمياء، بحيث هبط على الساحة صمت مفاجئ أوقف زوابع الصراخ في ساحة المدرسة. لم أكن في تلك اللحظة لأستبدل مكاني حتى مع الإله.

5

في الثانية والعشرين من عمري، كنت أتابع دراستي في كلية الفنون الجميلة في مدريد، وتدفعني رغبة مستمرة منظمة وبأي ثمن كان، لأن أفعل عكس ما يقوم به أي شخص آخر، فأتجه إلى التطرّف الذي سرعان ما يصبح "شهرة في سوء السمعة" في الحلقة الفنية. وفي حصة الرسم، كان لدينا وظيفة أن نرسم تمثالاً قوطياً للعذراء، منقولاً عن تمثالها مباشرة. وقبل أن نخرج من القاعة كرر البروفسور وألحّ على أن نرسم "ما نراه".

وعلى الفور، وفي نوبة غموض مسعور، ذهبت لأرسم بمكر، وبأدق التفاصيل، كفتي ميزان كنت قد نسختها من الكتالوك. وقد اعتقدوا فعلاً في تلك اللحظة أنني مجنون. وفي نهاية الأسبوع، أتى البروفسور لتقييم سير العمل والإدلاء بتعليقه عليه. وتوقف بجمود أمام لوحة كفتي الميزان بينما اجتمع بقية التلاميذ حولنا.

وعندئذٍ غامرتُ بصوت خجول لم يكن ينقصه الحزم: "ربما رأيتَ العذراء مثل الآخرين جميعهم، لكنني أرى كفتي ميزان[1]".

6

لا زلنا في مدرسة الفنون الجميلة.

تم تكليفنا برسم صورة زيتية أصلية لنيل جائزة في صف الرسم. وقد راهنتُ بأني سأنال الجائزة عبر رسم صورة دون أن تلمس فرشاتي لوح الرسم. لقد نفّذت في الواقع ذلك بنثر بقع الألوان من علٍ على مسافة متر واحد، ونجحت في أن أجعل الصورة "المنقطّة" دقيقة جدا في تصميمها وألوانها بحيث نلت الجائزة.

7

وصلت في السنة التالية إلى امتحاني في تاريخ الفن.

كنت متلهفاً لأن أكون لامعاً قدر الإمكان. وكنت مستعداً بشكل رائع. ثم نهضت إلى المنصة حيث يجلس أعضاء لجنة التحكيم الثلاثة، وتم اختيار موضوع فحصي الشفهي بالقرعة. كان حظي لا يُصدّق: لقد كان الموضوع الذي أفضّل أن أعالجه تماماً. لكن فجأة، غمرني شعور بالبلادة لا يمكن مقاومته، ومن دون تردد تقريباً، ولكي تُصاب اللجنة والناس الذين يملؤون القاعة بالذهول، نهضت وأعلنت التالي:

"أنا آسف جداً، لكنني أكثر ذكاءً بما لا يقاس، من أولئك البروفسورات الثلاثة، وبناء عليه، أرفض أن يقيموني. أنا أعرف هذا الموضوع أكثر منهم بكثير".

---

[1] فقط في كتابة هذه الحادثة التي كنت مصدوماً بالرابطة الواضحة حتى لو لم تكن سوى تداعٍ للأفكار، بين العذراء والميزان في إشارات إلى الأبراج. والأكثر من ذلك، وكما تظهر الآن في ذاكرتي، كانت العذراء تقف على "قبّة سماوية". لذلك لم يكن هذا الإرباك إلا توقعاً، التحقق الأول للفلسفة "الداليّة" المستقبلي في الرسم، وهذا يعني التجسيد المفاجئ للصورة المقترحة، السلطة الصنمية للوجود الجسدي للأطياف الافتراضية التي تتسم بكل سمات الواقعية التي تنتمي إلى العناصر الملموسة.

وكنتيجة لذلك، تمت إحالتي إلى المجلس التأديبي، وتم طردي من المدرسة. وكانت تلك الحادثة نهاية عملي الأكاديمي.

8

كنت في التاسعة والعشرين من عمري، وكان الفصل صيفاً في (كاداكيس). كنتُ أتودد إلى (غالا)، وكنا نتناول الغداء مع بعض الأصدقاء على شاطئ البحر تحت عرائش الكرمة التي يعلوها نحلٌ يطنّ في الأذان ويصمّها. كنت في ذروة سعادتي على الرغم من أنني احتملت الثقل الكبير للحب المولود حديثاً والذي يطبق على عنقي مثل إخطبوط حقيقي من الذهب الخالص يتألق بآلاف أحجار الغمّ النفيسة. لقد أكلت للتو أربعة سرطانات بحر مشوية وشربت القليل من النبيذ — أحد أنواع النبيذ المحلي المتواضع، لكنه يستحق أن يكون أحد أهم أسرار منطقة البحر المتوسط، لأن لديها تلك الباقة الفريدة التي يمكن للمرء فيها أن يكتشف الطعم الواخز الحساس للدموع، إلى جانب تلك الكمية الكبيرة من اللا واقعية.

كان الوقت متأخراً جداً عندما انتهينا من طعامنا، وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق. كنت عاري القدمين، واستمرّت إحدى فتيات مجموعتنا التي كانت مُعجبة بي لبعض الوقت، بتعليقاتها حول جمال قدميّ. كان ذلك صحيحاً لدرجة أنني وجدتُ إصرارها على هذه المسألة نوعاً من الغباء. وكانت الفتاة تجلس على الأرض، وتلقي رأسها بخفة على ركبتي. وفجأة، وضعتْ يدها على إحدى قدمي، وبدأت مداعبة غير محسوسة تقريباً بأصابعها المرتعشة. وعندئذٍ انتفضت، وخيّمت على عقلي أحاسيس غريبة جداً من الغيرة على نفسي كما لو أنني أصبحت أنا نفسي (غالا). ومن ثم دفعت الفتاة المُعجبة بعيداً عني وطرحتها أرضاً ودست عليها بكل ما أستطيع، حتى أبعدوها عن متناول يدي وهي تنزف.

9

يبدو أنني أميل إلى الانحراف المشاكس سواء أكنت أريد ذلك أم لا.

كنت في الثالثة والثلاثين من عمري. وتلقيت في أحد أيامي في باريس مكالمة هاتفية من طبيب نفسي شاب لامع. وكان ذلك الطبيب قد قرأ للتو مقالة عني في مجلة (Le Minotaure – لي مينوتور) حول (The Inner Mechanism of Paranoiac Activity – الآلية الداخلية للنشاط "البارانويائي"). لقد هنأني وعبّر عن دهشته بدقة معلوماتي التي كان يُساء فهمها كثيراً حول هذا الموضوع بشكل عام. كما عبّر عن رغبته بأن يقابلني لنتحدث عن هذا الموضوع كله، واتفقنا على اللقاء في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم تحديداً في غرفتي في (ريو جاوغيست). وأمضيت وقت بعد الظهر بالكامل في حالة من الإثارة المفرطة حول توقعات لقائنا، وحاولت أن أخطط سلفاً لمسار محادثتنا. لقد كانت أفكاري تُعتَبَر نزوية متناقضة — مشوبة بالعبقرية، للتأكيد فقط – حتى من قِبَل أقرب الأصدقاء في المجموعة السريالية، لكنني شعرت بالزهو أخيراً لأَنها أصبحت محط اهتمام جديّ في الوسط العلمي بشكل مباشر. ومن هنا فقد كنت مرتبكاً لأن كل شيء يتعلق بالتبادل الأولي للأفكار فيما بيننا يجب أن يكون طبيعياً تماماً وجدياً. وبينما كنت أنتظر وصول الطبيب النفسي الشاب، تابعت عملي على لوحة وجهية لـ (فيكومتيس دي نوايليس) التي كنت أرسمها غيباً، والتي أصبحت خطيبها فيما بعد. وقد تم تنفيذ هذه اللوحة على النحاس مباشرة. كان المعدن المصقول بعناية يسبب انعكاسات كالمرآة، وهذا ما جعل من الصعب عليّ أن أرى الرسم بوضوح. ولاحظت، كما كان من قبل، أن من الأسهل رؤية ما كنت أقوم به عندما تكون الانعكاسات أكثر لمعاناً. وفي الحال، ألصقت قطعة ورق بيضاء مربعة بطول نصف إنش على طرف أنفي. وجعلتْ انعكاساتُها رسمَ الأجزاء التي أعمل عليها مرئية بشكل مثالي.

دقت الساعة السادسة — الوقت المحدد للقائنا — ودق جرس الباب. بسرعة أبعدت اللوحة النحاسية، ودخل (جاكويز لاكان)، ودخلنا فوراً في نقاش تقني عالي المستوى. لقد كنا متفاجئين لاكتشافنا أن وجهتي نظرنا كانتا متعاكستين بالقدر نفسه وللأسباب ذاتها، بينما تم قبول النظريات البنيوية بالإجماع. لقد تناقشنا لساعتين باضطراب جدلي مستمر، وغادر بعدها مع وعود بالمحافظة على التواصل المستمر، وعلى اللقاء من حين لآخر. وبعد مغادرته، عبرتُ الغرفة جيئة وذهاباً محاولاً أن أستعيد مسار محادثتنا، وأعمل على تقييم أكثر موضوعية للنقاط التي ربما يكون فيها لاختلافاتنا معنىً حقيقي. لكنني بدلاً من ذلك، ازددت حيرة بسبب الطريقة المزعجة التي كان ينظر بها الطبيب من وقت لآخر إلى وجهي. وقد بدا الأمر كما لو أن جرثومة غريبة لابتسامة غريبة فضولية تنفذ من ملامحه.

هل كان يدرس باهتمام التأثيرات المتشنجة على التشكيل الوجهي للأفكار التي تهيّج روحي؟

لقد اكتشفت جواب اللغز عندما ذهبت لأغسل يديَّ (هذه المصادفة هي اللحظة التي يرى المرء فيها عادة كل أنواع الأسئلة بأعظم وضوح). لكن في هذه المرة، وصل الجواب إلي عبر صورتي في المرآة. كنت قد نسيت أن أزيل المربع المصنوع من الورق الأبيض عن طرف أنفي! ولمدة ساعتين، كنتُ قد ناقشت أعظم قضايا الطبيعة الفائقة بأقصى درجات الموضوعية ونبرة الصوت الرصينة دون أن أكون مدركاً للزخرفة المحرجة الموجودة على أنفي. أي هزليّ يمكنه أن يلعب هذا الدور إلى النهاية؟

10

كنت في الثالثة والعشرين من عمري وكنتُ أعيش في منزل والديَّ في فيغوراس. كنت مُلهماً، وأعمل على رسم تكعيبي ضخم في مرسمي، وكنت قد فقدت حزام مريلة العمل التي استمرّت بإعاقة حركاتي. وبمحاولتي

الوصول إلى أقرب شيء تطاله يدي، التقطت سلكاً كهربائياً ممدوداً على الأرض، ولففته بنفاد صبر حول خصري، كان في نهاية السلك مصباح صغير. ودون رغبة مني بإهدار الوقت بالنظر أبعد، وبما أن المصباح لم يكن ثقيلاً جداً، استخدمته كإبزيم لربط نهايتي حزامي المُرتجل معاً.

كنت منغمساً بعمق في عملي عندما دخلت أختي لتعلن أن هناك أشخاصاً مهمين في غرفة الجلوس يريدون مقابلتي. لقد كانت سمعتي في تلك الفترة سيئة جداً في كاتالونيا، وكان تأثير لوحاتي على سوء السمعة هذا أقل بكثير من تأثير الكوارث العديدة التي حدثت معي دون قصد. انتزعت نفسي بلطافة من عملي ودخلت غرفة الجلوس. أدركت فوراً نظرات استهجان والديّ بسبب مريلتي الملطخة بالألوان، لكن أحداً لم يلاحظ حتى هذه اللحظة المصباح المتدلي خلفي، وعلى مؤخرتي تحديداً. ثم جلست بعد مداخلة مهذبة، أعصر المصباح خلف الكرسي مما تسبب بانفجاره كقنبلة. يبدو أن خطراً موضوعياً ملازماً وغير متوقع، قد ميّز حياتي ليجعل الأحداث العادية الطبيعية عنيفة واستثنائية وجديرة بأن تُذكر.

11

في العام 1928، كنتُ أقدّم محاضرة عن الفن الحديث في بلدتي الأم في فيغوراس، يحضرها رئيس البلدية مترئساً الاجتماع، وعدد من أصحاب الذوات وبقية الحضور. واحتشد عدد غير عادي من الناس ليستمعوا إلي. وصلت إلى نهاية محاضرتي التي تلاها بوضوح حالة من الإرباك المهذب، ولم تكن هناك أية إشارة على أن الحضور قد استوعبوا أن فقرتي الأخيرة كانت تدلّ على نهاية المحاضرة. وفي نوبة غضب مفاجئ، صرخت بأعلى صوتي:

"سيداتي سادتي، المحاضرة **انتهت**!"

في هذه اللحظة تماماً توفي رئيس البلدية الشعبي المحبوب من البلدة كلها. ولم يكن بالإمكان وصف الشعور، وكان للحادث صدى قوي. لقد

ادعت المجلات الهزلية أن الشناعة التي عبّرت عنها في مسار محاضرتي هي ما أدى إلى موته. وبكل بساطة، كانت حالة موت مفاجئ — ذبحة صدرية كما أظن — وقد جاء سوء الحظ في نهاية محاضرتي تماماً.

12

في عام 1937 كان عليّ أن ألقي محاضرة في برشلونة بعنوان: "السريالي ولغز طاولة السرير الاستثنائي". كانت قد اندلعت ثورة الفوضويين في اليوم المقرر للمحاضرة. لقد بقي جزء من الناس الذين أتوا لحضور محاضرتي على الرغم من الحدث الكبير سجناء في المبنى، لأنه كان من الضروري إغلاق الأبواب المعدنية التي تُفضي إلى الشارع تفادياً لإطلاق النار. كما تمكنا من سماع انفجار قنابل (F. A. I)[1] بشكل متقطع.

13

عندما وصلت إلى (تورين) في اليوم الأول من رحلتي إلى إيطاليا، أعتمت السماء بسبب عرض جوي مذهل. وكان في الشارع عرض عسكري بالمشاعل: لقد تم إعلان الحرب في أثيوبيا.

14

في محاضرة أخرى في برشلونة. احترق المسرح في الصباح الذي كان مقرراً أن ألقي محاضرتي به. وتم إخماد الحريق بسرعة، لكن الحريق كان أكثر من كافٍ ليمنح الحماس لمحاضرة المساء.

15

وفي محاضرة أخرى وفي برشلونة أيضاً، كان الطبيب ذو اللحية البيضاء قد وقع أسير نوبة جنون وحاول أن يقتلني. واحتاج الأمر إلى تدخّل بعض الأشخاص لتهدئته وإخراجه من القاعة.

16

---

[1] الاتحاد الفوضوي الفيبيري.

في عام 1931 في باريس، وأثناء عرض الفيلم السريالي (لا إيج دور)، الـذي تعاونـت فيـه مـع جماعـة (بونويـل – Bunuel)، و(Camelots du Roi – أتباع الملـك)، وقمنـا بإلقـاء عبـوات الحـبر على الشاشة، وأطلقنا النار من المسدسات في الهـواء، وهاجمنـا الحشـد بـالهراوات، وحطمنـا معـرض اللوحـات السـريالية المعروضـة في بهـو المسـرح. وبمـا أن هـذا كـان أحـد أعظـم الأحـداث الباريسية في تلـك الحقبة، فسوف أتحـدث عنـه بالتفصيل في مكانـه المناسـب مـن هـذا الكتاب.

17

ومـرة أخـرى في السادسـة مـن عمـري، وفي طريقـي إلى برشـلونة مـع والـديَّ، توقفنـا لمـدة طويلـة في منتصـف الطريـق في محطـة (إل إيمبـالم). ونزلنا. وقال والدي: "أترى كيف يبيعون لفات السندويش هناك، دعنا نرَ إن كنت ذكياً بما يكفي لتشتري واحدة. اذهب واشـتر واحـدة، لكـنني لا أريدها من النوع الذي يحتوي على عجّة البيض، أنا أَريد اللفةِ وحسب".

ثم ذهبت وأحضرت اللفة، فشـحب وجهـه وصـرخ قـائلاً: "لكنهـا تحتوي عجّة البيض".

"نعم، لكنك قلت لي إنك تريد اللفة فقط. ولهـذا فقـد رميـت عجّـة البيض".

"أين رميتها؟"

"على الأرض".

18

في العام 1936، في بـاريس، في شـقتنا رقـم 7 (شـارع بكوريـل – Rue Becquerel) قـرب (القلـب المقـدس – Sacre-Coeur)، كانت غالا تستعد لعملية جراحية في الصباح التـالي، وكـان عليهـا أن تمضي الليل في المستشفى من أجل الفحوصات التحضيرية. علـى الـرغم

من أن العملية خطيرة جداً، تألقت غالا بحيويتها وشجاعتها التي لا تنضب، ولم تشعر بأي قلق أبداً، كما أمضينا فترة بعد الظهر كلها في بناء موضوعين سرياليين. لقد كانت سعيدة مثل طفل: وبحركات منحنية ناعمة تذكّر (بشخصيات كارباسيو – Carpaccio's figures) كانت تجمع مجموعة مذهلة من مواد عرّضتها لبضع ارتجاجات ميكانيكية عنيفة. أدركت لاحقاً أن هذا الموضوع كان مليئاً بالتلميحات غير الواعية لعمليتها الوشيكة. وكان طابعها البيولوجي واضحاً: أغشية جاهزة لكي تمزّق بالحركة الإيقاعية لهوائي معدني دقيق مثل المعدات الجراحية، ووعاء مليء بالطحين يعمل كماصّ صدمة لنهدي امرأة، مثبّت بحيث يصطدما به.... وكان هناك ريش ديك يبرز من الحلمتين ويعمل على تخفيف الأثر الذي سيُترك على الطحين.

في غضون ذلك، كنت أركب "شيئاً" أسميته "الساعة التنويمية". وقد تألفت هذه الساعة من رغيف خبز فرنسي ضخم يرتكز على قاعدة فخمة جداً. وخلف الرغيف، قمت بتثبيت نسق من اثنتي عشرة عبوة حبر، مليئة بحبر "البجع"، وفي كل عبوة قلم من لون مختلف. وكنت متحمساً جداً للأثر الذي أنتجه التصميم. وعندما حل المساء، أنهت غالا موضوعها وقررنا أن نأخذه إلى "أندريه بريتون" لنريه له قبل أن نذهب إلى المستشفى. (لقد كان العمل على هذا النوع من المواضيع سائداً، وكان حينها في ذروته في الحلقات السريالية). وبشكل سريع، نقلنا موضوع غالا إلى التاكسي، لكننا لم نتخطَ مسافة قصيرة حتى تسبب توقف مفاجئ بانهيار الموضوع الذي كنا نحمله بحذر شديد، وتحطم العمل إلى أجزاء تناثرت على أرضية السيارة ومقاعدها. والأسوأ من هذا كله أن الوعاء الذي كان يحتوي على كمية لا بأس بها من الطحين، انقلب مع الأشياء الأخرى. لقد أصبحنا مغمورين بالطحين الذي حاولنا أن نجمع بعضاً منه عن أرضية السيارة لكنه كان قد اتسخ.

وكان السائق من وقت لآخر ينظر إلينا وللحالة المزرية التي أصبحنا عليها، وتظهر على محياه ملامح شفقة عميقة وحيرة. ثم توقفنا قرب بقالية لنشتري كمية أخرى من الطحين.

لقد جعلتنا تلك الأحداث ننسى أمر المستشفى الذي وصلنا إليه في وقت متأخر جداً. وبدا ظهورنا في فنائه المبقع باللون البنفسجي ولون الشفق غريباً ومقلقاً، لقد عرفنا ذلك من الأثر الذي رأيناه على وجوه الممرضات اللواتي جئن لمقابلتنا. بقينا ننفض الغبار عنا، وكانت مع كل هزّة ترتفع غيمة من الطحين، وبالأخص مني أنا الذي كنت مغمورا به حتى شعري. بالنسبة لموظفي المستشفى، كان خروج زوج من سيارة أجرة تقليدية، مع زوجته التي تحتاج إلى عملية خطيرة، بثياب مُشبعة بالطحين، أشبه بشيء من المزاح والهزل. وربما يبقى هذا الأمر بالنسبة إلى ممرضات المستشفى في عيادة (رو ميشال) لغزاً عصياً لا يكشفه سوى صدفة محتملة لقراءة هذه الأسطر.

ثم تركت غالا في المستشفى وأسرعت عائداً إلى البيت. وتابعت من وقت لآخر، وبشكل متزايد، بحالة من الذهول، عملية التخلّص من الطحين العالق بثيابي بعناد. كما تناولت عشائي المؤلف من بعض المحار والحمام المشوي الذي التهمته بشهيّة ممتازة. وبعد ثلاثة أكواب من القهوة، عدت للعمل على الموضوع الذي كنت قد بدأته بعد الظهر. وكأمر واقع، كنت متعلقاً بتلك اللحظات طوال المدة التي غادرت بها، وعملت فترة إعاقة نقل غالا إلى المستشفى فقط على رفع التوقعات وزيادة بهجتها. كنت متفاجئاً بلامبالاتي المطلقة تقريباً بعملية زوجتي التي ستتم في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. لكنني اكتشفت أنني لست قادراً، حتى مع بذل القليل من الجهد، أن أقرّب نفسي من الشعور بأدنى قدر من التوتر أو العاطفة. إن هذه اللامبالاة الكاملة نحو كائن آمنت بأنني أعشقه، طرحت أمام ذكائي مشكلة فلسفية وأخلاقية

مثيرة للاهتمام بشكل كبير، اكتشفت عبرها أن من المستحيل أن أمنح اهتمامي بسرعة.

وبالفعل شعرت بنفسي مُلهماً، شعرتُ بأنني مُلهم كموسيقي: أفكار جديدة تطلق شرارتها الأولى في أعماق مخيلتي. ثم أضفت إلى رغيف خبزي ستين صورة من عبوات الحبر مع أقلامها، ورسمتها على التوالي بالألوان المائية على مربعات ورقية صغيرة، علقتها بستين سلسلة تحت الرغيف. وأرجحت نسمات الشارع الدافئة الصور إلى الأمام والخلف. لقد فكرت ملياً بالمظهر العبثي الواقعي جداً لموضوعي بنشوة صميمية. بقيت منهمكاً في موضوعي لوقت طويل، وذهبت أخيراً إلى سريري في الساعة الثانية صباحاً، وغرقت في نوم هانئ ببراءة ملاك. لكنني استيقظت في الساعة الخامسة مثل شيطان. جعلني الغم الهائل الذي لم أشعر به مسبقاً أتشبث بالسرير. وبحركات بطيئة مؤلمة بدت وكأنها استمرت ألفي سنة، أبعدت الأغطية التي كانت تخنقني. لقد كنت غارقاً بعَرَق الندم الذي يشبه حبات الندى التي تشكّلت على المشاهد الطبيعية لروح الإنسان منذ الومضات الأولى لفجر الأخلاق. كان النهار يخيط السماء، وكانت الأغنية المحمومة الهائجة للطيور التي استيقظت فجأة، تنقر، إن جاز التعبير، في بؤبؤي عينيّ فتحة سوء الحظ، وتصمّ أذنيّ وتشنّج قلبي بالتوتر، وتنسج شبكة من البراعم التي تنضح بنسغ الربيع.

غالا، غالوشكا، غالوشيكينيتا! تتدفق دموع حارقة من عيني بشكل أخرق في البداية، مع ألام المخاض وتشنجاته. وتتدفق الآن — مع حتمية الموكب المندفع وتهوره — مع اللهفة على المحبوبة المرئية في الصورة الجانبية جالسة في عربة اليأس المرصعة بالجواهر، مدفوعة إلى الأمام بزهو الانتصار. وفي كل مرة تهدأ الدموع في عيني، تظهر أمامي رؤية لحظية لها — غالا متكئة على شجرة زيتون في كاداكيس وتلوح لي، تتوقف غالا في وقت متأخر من فصل الصيف لتلتقط حجر ميكا

ساطعاً من بين الصخور في (كاب كريوس)، غالا تسبح بعيداً بحيث أستطيع فقط أن أميّز ابتسامة وجهها الصغير — وتكون تلك الصور العابرة كافية لتستحضر بضغطها المؤلم سيل دموع جديدة، كما لو أن الآلية القاسية للشعور تضغط على الحاجز العضلي لمحجريّ عيني عاصرة حتى آخر قطرة، كل رؤية من الرؤى الساطعة لحبي المختبئ في عُصارة الأسيد الليموني الشاحب للذاكرة.

وعندئذٍ أسرعت إلى المستشفى كممسوس، وتمسّكت بثوب الجراح بمشهد خوفٍ حيواني، ولدرجة تعامل معي فيها بتحفظ استثنائي كما لو كنت أنا المريض. وبقيت في حالة مستمرة من البكاء لمدة أسبوع تقريباً، وكنت أنوح في أي ظرف أجد نفسي فيه وسط الدهشة الكاملة لأقرب الأصدقاء السرياليين. ثم جاء يوم الأحد وتجاوزت غالا مرحلة الخطر نهائياً، وابتعدت ساعة الموت بملابس العيد باحترام على أطراف أصابعها. كانت غالوشكا تبتسم، واستطعت أخيراً أن أمسك يدها وأضغطها على وجنتي. وبرقّة فكرت: "أستطيع بعد هذا كله أن أقتلك".

19

تشبه رحلاتي الثلاث إلى فيينا قطرات الماء الثلاث التي تفتقد الانعكاس الذي يجعلها تلمع. وفي هذه الرحلات الثلاث، فعلتُ الأشياء ذاتها: في الصباح أذهب كي أرى مجموعة (فيرمين في كزيمين)، وفي المساء لا أذهب لزيارة (فرويد) لأنني عرفت أنه خارج المدينة لأسباب صحية.

أتذكر بحزن لطيف قضاء فترات بعد الظهر في التجول العشوائي في طرقات عاصمة النمسا القديمة. كما كان لكعكة الشوكولا التي أتناولها بسرعة خلال الاستراحات القصيرة، بين زيارة متجر تحف قديمة وآخر، مذاق مرّ بعض الشيء بسبب التحف التي رأيتها والسخرية من الاجتماع الذي لم يحدث. وفي المساء، أعقد محادثة طويلة مرهقة

تخيّلية مع (فرويد)، حتى إنه جاء معي إلى البيت وأمضى الليل كله متشبثاً بستائر غرفتي في فندق (ساشر).

وبعد عدة سنوات من محاولاتي غير الفعّالة لمقابلة فرويد، قمت برحلة لتذوّق الطعام في منطقة (سينز في فرنسا)، وابتدأنا عشاءنا بأفضل الأطباق لدي، ألا وهو الحلزون. ثم تحوّلت المحادثة نحو (إدغار ألان بو)، وهو موضوع شيّق جداً أثناء تذوّق الحلزون، كان الحوار محصوراً بالكتاب المنشور مؤخراً لأميرة اليونان (ماري بونابرت)، وهو دراسة تحليلية نفسية عن (إدغار ألان بو). كانت المفاجأة أنني رأيت صورة للبروفسور فرويد على الصفحة الأمامية لصحيفة كان يقرؤها الشخص الذي يجلس إلى جانبي. وعلى الفور، أمسكت صحيفة أُحضِرَت إليّ وقرأت فيها أن فرويد المنفي قد وصل للتو إلى باريس. لم نكن قد شُفينا بعد من أثر هذا الخبر حتى أطلقت صيحة مدوية. لقد اكتشفت في تلك اللحظة فقط السرّ المورفولوجي لفرويد! إن جمجمته عبارة عن حلزون! إن دماغه حلزوني الشكل — ويمكن استخراجه بواسطة إبرة! لقد كان لهذا الاكتشاف أثر كبير على اللوحة التي رسمتها بوجوده، وقبل سنة من موته.

كانت جمجمة رفائيل على العكس تماماً من جمجمة فرويد، إنها تتكون من ثمانية أضلاع، وتشبه الحجر الكريم المصقول، وهذا الدماغ يشبه العروق الموجودة في الحجر. وتشبه جمجمة ليوناردو حبات الجوز التي يسحقها المرء: بمعنى أخر، إنه يبدو مشابهاً لعقل حقيقي.

وكان لي أن أقابل فرويد في النهاية في لندن، كنت بمرافقة الكاتب (ستيفن زويغ) والشاعر (إدوارد جميس). وبينما كنت أجتاز حديقة منزله، رأيت دراجة تستند إلى الجدار، ويوجد على مقعدها زجاجة مطاطية حمراء مليئة بالماء ومعلقة بشريط، وعلى جهتها الخلفية سار حلزون! لقد بدا لي هذا التنوع في منزل فرويد غريباً ولا يمكن تفسيره.

وبعكس ما كنت آمل، لم نتحدث إلا قليلاً لكن أحدنا التهم الآخر بعينيه. ولم يعرف فرويد أي شيء عني باستثناء لوحاتي التي أعجبته. لكن وبشكل مفاجئ، تملكتني نزوة محاولة أن أظهر في عينيه كملك "العقلانية الكونية" المتأنق، وعرفت لاحقاً أن الأثر الذي تركته كان معاكساً تماماً لما رغبت به.

وقبيل مغادرتنا ذهبت لأعطيه مجلة تحتوي مقالة كتبتها عن "البارانويا". وبناء عليه فتحت المجلة على الصفحة المناسبة، ورجوته أن يقرأها إن كان لديه وقت. استمر فرويد بالتحديق بي دون أن يعطي أدنى اهتمام لمجلتي. وفي محاولة لإثارة اهتمامه، شرحت له بأنها ليست هجوماً سريالياً، بل هي بالفعل مقالة علمية طموحة، وكررت العنوان مشيراً بإصبعي في الوقت نفسه إلى هذا الأمر. أمام لامبالاته الهادئة، أصبح صوتي أكثر حدة وإلحاحاً بشكل لا إرادي. وحينها، ومع استمراره بالتحديق بي بثبات بدا وكأن كل كيانه يتجمع فيه، وقال موجهاً حديثه إلى (ستيفن زويغ): "أنا لم أرَ مثالاً أكثر كمالاً من هذا المثال عن الإسبان. يا له من متعصّب!"

الفصل الثاني

ذاكرة داخل الرحم

أفترض أن قرائي لا يتذكرون أبداً، أو أنهم يتذكرون بشكل مبهم جداً، الفترة الأكثر أهمية في وجودهم، والتي سبقت ولادتهم، وتشربت في أرحام أمهاتهم. لكن بالنسبة لي شخصياً، فأنا أتذكر هذه الفترة كما لو أنها كانت البارحة. ولهذا عزمت على أن أبدأ كتاب "حياتي السرية" ببدايته الفعلية والأصلية، وأعني بذلك، بالذكريات السلسة النادرة التي اختزنتها من حياتي داخل الرحم، والتي ستكون بدون شك، الأولى من نوعها في العالم، التي ترى الضوء وتُوصف بشكل منهجي[1] منذ بداية التاريخ الأدبي.

وبقيامي بذلك، أكون واثقاً من تحريض أشباح الذكريات المشابهة التي ستبدأ بشكل خجول بالسكن في ذاكرة قرائي، أو على الأقل، تركز في عقولهم بعض المشاعر والصور والانطباعات التي لا يمكن وصفها، والأمزجة والحالات الواقعية التي ستصبح تدريجياً مندمجة في ظلال ذكرياتهم عن حياة ما قبل الولادة. حول هذا الموضوع، هناك كتاب للدكتور (أوتو رانك – Otto Rank) بعنوان (رض الولادة – The

[1] أثناء الانغماس في ترجمة كتابي، لفت السيد تشيفالير - مترجم الكتاب إلى اللغة الإنكليزية - انتباهي إلى قسم آخر من ذاكرة "داخل الرحم"، وقد تم اكتشافه من صديقه السيد (فلاديمير بوزنر) في ذاكرة كازانوفا.

Traumatism of Birth)، لا يسعه إلا أن ينير القارئ الفضولي الذي يرغب بمقاربة هذه المسألة بشكل علمي أكثر. وعليّ أن أوضح من جهتي أن ذكرياتي الشخصية عن فترة الحياة المفضّلة الاستثنائية في الرحم، تعزز كل نقطة في فرضية الدكتور (أوتو رانك)، وخاصة الجانب الأكثر عمومية منها، الذي يربط ويحدد ما يُسمى فترة داخل الرحم بالفردوس، ويربط الولادة – رضّ الولادة – مع أسطورتي الحاسمة جدا في حياة الإنسان، عن "الفردوس المفقود".

وبالفعل، إن سألتني كيف كان "الوضع هناك"، فسوف أجيب على الفور: "كان سماوياً، كان فردوساً". لكن كيف كان ذلك الفردوس؟ لا تخف، لن تفتقد للتفاصيل. لكن دعني أبدأ بتوصيف عام قصير: كان لون فردوس داخل الرحم بلون الجحيم، بمعنى أنه كان أحمر، برتقالياً، أصفر، ومائلاً إلى الزرقة، لون اللهب، النيران، وفوق كل هذا كان ناعماً، ثابتاً، دافئاً، متناسقاً، مزدوجاً ودبقاً. وسلفاً في ذلك الوقت، كانت المتعة كلها والسحر كله في عينيّ، وكان المشهد الأكثر روعة وإدهاشاً هو منظر بيضتين مقليتين في مقلاة، بدون المقلاة. ربما إلى هذا الأمر يعود كل هذا الاضطراب والشعور الذي شعرت به لباقي حياتي في حضور هذه الصورة المهلوسة. مشهد البيضتين المقليتين في مقلاة، وبدون المقلاة، الذي رأيته قبل ولادتي، كان عظيماً وفوسفورياً ومفصلاً جداً في طيات بياضها الشاحب الموشى بالأزرق كلها. يقترب مشهد البيضتين مني ويتراجع، يتحرك نحو اليمين، ونحو اليسار، إلى الأعلى وإلى الأسفل. ويحقق التقزح اللوني وكثافة نيران عرق اللؤلؤ، فقط كي يتقلّص ويتلاشى في النهاية. إن حقيقة أنني لا أزال اليوم قادراً على إعادة إنتاج صورة كهذه بشكل إرادي، على الرغم من أنها أضعف بكثير، وأقصر من سحر تلك الفترة وعظمتها، عبر تعريض بؤبؤي عيني إلى ضغط قوي من أصابعي، يجعلني أفسّر هذا الصورة الصاعقة

للبيضتين على أنها صورة مضيئة وهمية[1]، تنبعث في ضغوط مماثلة: ذلك الذي ينتج عندما تُطبق قبضتا يدي على محجري عيني اللذين هما خاصيتا الوضع الجنيني. إنها لعبة شائعة بين جميع الأطفال، يضغطون فيها على أعينهم كي يروا حلقات من الألوان "وتسمى أحياناً ملائكة". يقوم الطفل حينها بالسعي لإنتاج ذكريات مرئية عن مرحلته الجنينية ضاغطاً على عينيه اللتين تشعران بالحنين سلفاً حتى يشعر بالألم، كي يستخلص منهما الأضواء والألوان التي تاق إليها، وليرى ثانية بشكل تقريبي، الهالة السماوية للملائكة الطيفية المُدركة في فردوسه المفقود.

يبدو صحيحاً بشكل متزايد بالنسبة لي أن حياة الإنسان التخيلية كلها تميل إلى أن يُعاد بناؤها رمزياً عبر أكثر الحالات والصور تطابقاً، والتي تُستهلّ بالحالة الفردوسية، بشكل خاص، للتغلّب على "رضّ الولادة" المرعب الذي يطردنا من الفردوس، مروراً على عجل بتلك الحماية المثالية والبيئة المغلقة، إلى كل تلك المخاطر المرعبة الناجمة عن العالم الجديد الواقعي، مع الظاهرة الملازمة للاختناق والضغط والعمى الناجم عن الضوء الخارجي المفاجئ، والخشونة الهمجية لواقعية العالم الذي سيبقى منقوشاً في العقل تحت إشارات الألم والذهول والامتعاض.

يبدو الأمر وكأنه غالباً ما يتم التعبير عن رغبة الموت من خلال دافع استبدادي دائم للعودة إلى المكان الذي أتينا منه، والانتحاريون بشكل عام هم أولئك غير القادرين على أن يتغلّبوا على "رضّ الولادة"، والذين يقررون أن يعودوا إلى بيت الموت حتى لو كانوا ضمن وسط اجتماعي رائع، وكانت جميع الشموع تتألق في غرفة الاستقبال. بالطريقة نفسها، فإن الإنسان الذي يموت برصاصة على أرض المعركة وصرخة "يا أمي!" على شفتيه، يعبّر بشراسة عن تلك الرغبة بالولادة مرة أخرى، بشكل

[1] صورة مضيئة وهمية: إحساس مضيء ينتج عن الضغط على العين عند إغلاق الجفنين.

معكوس، وأن يعود إلى المكان الذي أتى منه. ولا شيء أفضل تفسيراً لكل هذا من عادات الدفن لدى بعض القبائل التي تدفن موتاها بشكل ملتو مقوّس، بالطريقة التي يتخذها الجنين ذاتها.

لَكن من دون الحاجة إلى هذه التجربة الحاسمة عن ساعة الموت، يستعيد الإنسان من وقت لآخر أثناء نومه، شيئاً من ذلك الموت الزائف، شيئاً من تلك الحالة الفردوسية التي يحاول أن يستحوذ عليها بتفاصيلها الدقيقة. إن وضعيات الأشخاص النائمين هي الأكثر وضوحاً في هذا الصدد: وفي حالتي الشخصية، فإن الوضعيات التي أتخذها ما قبل النوم، لا تعرض فقط الخاصية التكوّرية، بل هي تشكّل أيضاً تمثيلاً إيمائياً حقيقياً يتألف من إيماءات بسيطة، وتقلصات خفيفة في الوجه، وتغيرات في الوضعيات ليست إلا "رقصة باليه" سرّية تطلبها شعائر طقسية تقريباً، تبدأ بتسليم جسد المرء وروحه إلى نيرفانا النوم المؤقتة التي ندخل من خلالها إلى شظايا فقدان الفردوس الثمينة. قبل النوم، أتكوّر بوضعية الجنين، ويطبق كل إبهام على بقية الأصابع ويشدّ حتى الألم، مع وجود حاجة ماسة لأن أشعر بظهري يلتصق بمشيمة أغطية السرير الرمزية التي أحاول من خلالها وبجهود متلاحقة تقترب من الكمال، أن أجعل أغطية السرير تأخذ شكل الجزء الخلفي من جسدي بغضّ النظر عن درجة الحرارة. وبالتالي فإن عليّ أن أتدثّر بهذه الطريقة حتى في الأيام الأشد حرارة، لكن أغطيتي تكون خفيفة جداً. ويجب أن تنتهي وضعيتي كشخص نائم بدقة صارمة. كمثال على ذلك، من الضروري أن تكون أصابع قدمي مائلة أكثر إلى اليمين، أو إلى اليسار، ويجب أن تكون شفتي العليا ملاصقة للوسادة بشكل خفيف جداً، كي يحصل ملاك النوم على حقه بالسيطرة الكاملة عليّ، وعندما يحظى بي، يختفي جسدي تدريجياً ويصبح متمركزاً، بمعنى أنه يصبح بكامله في رأسي، ويجتاحه ويرمي بكل ثقله فيه.

إن هذا التمثيل التصويري عن نفسي، يقارب ذاكرتي عن شخصي داخل الرحم، والذي ربما أعرّفه كما يلي: وزن معين يحيط باستدارتين – عيناي على الأرجح. لقد تخيّلت غالباً واستحضرت مسخ النوم كرأس ثقيل جداً وهائل، مع بقايا ذاكرة تشبه خيطاً مفرداً عن باقي الجسد الذي تتم المحافظة على توازنه بشكل مذهل عبر عكازات الواقع المُضاعفة، التي بفضلها، نبقى بمعنى ما معلقين فوق الأرض أثناء النوم. وغالباً ما تنهار تلك العكازات و"نسقط". وبالتأكيد، معظم قرائي قد اختبروا الشعور العنيف بالسقوط في الفراغ في اللحظة التي يغرقون فيها تماماً بالنوم، ويستيقظون عندما تبدأ قلوبهم تنبض بقوة بسبب خوف رهيب. ربما تكون متأكداً أن هذه الحالة هي استذكار قاس وخشن للولادة، وبهذا، تعيد بناء إحساس مُبهر (يسبب الدوخة) يتعلّق بلحظة الطرد إلى الخارج تحديداً. وتعيد مرحلة ما قبل النوم، ذكرى ما قبل الولادة.

وبفضل فرويد تعلمنا الأهمية الرمزية المشحونة بالمعنى الإيروتيكي المحدد الذي يسم كل ما يتعلق بالطيران، منشأه[1] بشكل خاص. وبالتأكيد، ليس هناك ما هو أوضح من الأهمية الفردوسية لأحلام "الطيران"[2] التي تخفي في المثيولوجيا اللاواعية لعصرنا، الأوهام المسعورة الصبيانية "لغزو السماء وغزو الجنة"، متجسدة في الطابع اليهودي المسيحي للإيديولوجيات الأولية (التي تحل فيها الطائرة محل الألوهية الجديدة)، وبالطريقة التي كنا قد درسناها ذاتها في (ما قبل حلم الفردانية)، يفشل الخوف في إيقاظنا في البداية – مثل التذكّر المؤلم

[1] إن انشغالات ليوناردو دافنشي في هذا الصدد (التي تجلّت في آلاته الطائرة) هي أكثر فائدة من وجهة النظر النفسية.

[2] رمز الانتصاب الجنسي بالتناقض مع هذه الظاهرة يظهر في قوانين الجاذبية: إن العصفور هو مرادف شعبي متكرر للعضو الذكري، القضيب المجنّح في العصور القديمة – بيغاسوس، سلم يعقوب، الملائكة، آمور والنفس، وإلى ما هنالك.

القاسي للحظة ولادتنا – بحيث نجد في (ما قبل الحلم يومنا الحاضر) أولئك المظليون الذين أؤكد دون أي خوف من أن أكون مخطئاً، أنهم ليسوا إلا هطول مطر حقيقي من الأطفال حديثي الولادة القادمين من الجنة، حرّضتهم حرب عام 1914، وليسوا إلا فشل كل أولئك الذين لا يستطيعون أن يتغلبوا على الصدمة المرعبة لولادتهم الأولى، ويحاولون بيأس أن يلقوا بأنفسهم في الفراغ برغبة طفولية بأن يولدوا مهما كلف الثمن، "وبطريقة أخرى"، يبقى الجميع مرتبطين بالحبل السرّي الذي يبقيهم معلقين بالمشيمة الحريرية للمظلة الأمومية. إن خدعة المظلة هي من الطبيعة التي تستخدمها الحيوانات (الجرابية – كالكنغر) ذاتها. وفي الواقع، يعمل جيب حيوان الكنغر كماصّ صدمات بالنسبة للانتقال الفظّ للولادة التي يُطرد المرء عبرها من الجنة بقساوة.

إن القناطير الجرابية التي اخترعها مؤخراً سيلفادور دالي، لها أيضاً معنى (مظلات الولادة) هذه – "parabirths– مظلات الولادة" – لأنه وبفضل "الثقوب"[1] التي يملكها القنطور وسط معدته، يستطيع الأبناء أن يدخلوا ويخرجوا من أمهاتهم وفردوسهم على راحتهم، وهذا ليتمكنوا من الاعتياد على الواقع البيئي بشكل عام، بينما يواسون أنفسهم تدريجياً على الذكرى غير الواعية لكنها المنقوشة في أرواحهم مع فردوس ما قبل الولادة المفقود الرائع الذي يمكن للموت فقط أن يعيده إليهم جزئياً.

إن للخطر الخارجي[2] فضلاً في حثّ أوهام ذاكرتنا عن داخل الرحم وتعزيزها. أتذكر عندما كنت صغيراً، ولدى وصول عواصف الصيف

---

[1] سألتني سيدة أثناء معرضي الأخير: "لماذا توجد هذه الثقوب في معدات قنطوراتك؟" وأجبتها كما يلي: "إنه مطابق تماماً للمظلة، لكنه أقل خطورة". وهذا، كما كان متوقعاً، تم تلقيه بصخب كبير كشيء غامض، لكنني مقتنع أن القارئ الذي يقرأ السطور السابقة بانتباه، سوف يحاكم إجابتي بطريقة مختلفة، بينما يفهم بسهولة أنها لم تكن إجابة غريبة كما تبدو.

[2] لقد وضعت الحرب الحالية أمامي أمثلة متعددة مدهشة عن هذا الموضوع: أثناء التحذيرات من الغارات الجوية في باريس، كنت أرسم الناس الذين يتخذون وضعيات متكورة تشبه وضع الجنين

الهوجاء، كنت أركض بشكل محموم مع الأطفال الآخرين ونختبئ كجسد واحد تحت طاولة مغطاة بالملابس، أو نقوم على عجل ببناء أكواخ من الكراسي والبطانيات والتي يقصد بها إخفاء ألعابنا وحمايتها. يا للمتعة التي كنا نحظى بها لدى سماعنا المطر والرعد في الخارج؟ يا للذاكرة اللذيذة لألعابنا؟ الجميع يتكورون هناك. كنا نحب أن نأكل الحلويات هناك، وأن نشرب الماء المحلى الساخن، وكان الجميع يحاولون أن يصدّقوا حينها أن حياتنا ترشح إلى عالم آخر. لقد أسميت لعبة الطقس العاصف تلك "اللعب في صناعة الكهوف" أو " Playing at Padre Patufet"، وهذا هو سبب التسمية الأخيرة: إن " Padre Patufet" كان في الأزمنة الغابرة بطل الطفولة الأكثر شعبية في كاتالونيا، لقد كان صغيراً جداً بحيث أنه ضاع في أحد الأيام في الريف. لقد ابتلعه الثور كي يحميه. وبحث عنه أبواه في كل مكان وهما يناديان، "Patufet, Patufet" أين أنت؟" وكانا يسمعان صوته قائلاً: "أنا في معدة الثور حيث لا يوجد ثلج ولا مطر!"

في كهوف معدة الثور الزائفة المبنية من التوتر الكهربائي للأيام العاصفة، أعادت مخيّلة "Patufet" الخاصة بي، بناء أكثر الصور المنسجمة مع ذكرياتي قبل الولادة بطريقة لا لبس فيها. إن هذه الصور التي كان لها عظيم الأثر على حياتي، كانت تحدث دوماً كنتيجة للعبة غامضة تتشكل كما يلي: أحبو على أطرافي الأربعة بطريقة تلامس يداي فيها ركبتي، ثم أترك رأسي يتدلّى بتأثير ثقله الذاتي بينما أقوم بأرجحته بالاتجاهات كلها مثل البندول، وهذا كي أجعل دمي كله

أثناء وجودهم في الملاجئ. وهناك، كان الخطر الخارجي يتضاعف بشكل كبير بسبب استعادة ذكريات "داخل الرحم" الكامنة في الظلام، وبسبب أبعاد الملاجئ واتجاهاتها وما إلى ذلك. إن الناس يذهبون غالباً للنوم بسعادة مليئة بالنشوة، وبوهم سرّي تفضحه ابتسامات تناسب حالة من الرضا لا يمكن إطلاقاً أن يبررها المنطق، إذا لم يعترف المرء بحضور نشاطات سرّية تميزها تمثيلات اللاوعي.

يتدفق فيه. وأكرر تلك التجربة حتى أصل إلى حالة الدوار، وبعدها، دون أن أغمض عيني، ومن الظلام الدامس (أكثر ظلمة من أي شيء يمكن للمرء أن يراه في الظلمة الحقيقية)، أرى حلقات فوسفورية تنبثق، وأشكّل فيها البيضتين المقليتين من دون مقلاة المشهورتين اللتين ذكرتهما في هذه الصفحات. هاتان البيضتان الناريتان اللتان تندفعان في النهاية بجميع الاتجاهات، إن ليونتهما المفرطة والقدرة على تكييف ذاتيهما بكافة الأشكال، تبدو وكأنهما تكبران مع ازدياد رغبتي برؤيتهما، تقعانِ وتلتفان وتنبسطان وتتكوران وتنضغطان في أكثر الاتجاهات تناقضاً. ويبدو هذا رائعاً ومبهجاً بالنسبة لي، وقد أردت أن يكون كل شيء *"مشابها لتلك الحالة دائما"*.

لقد أصبحت الأدوات الميكانيكية أسوأ عدو لي، أما بالنسبة للساعات، فيجب أن تكون ناعمة أو لا تكون على الإطلاق!

الفصل الثالث

ولادة سيلفادور دالي

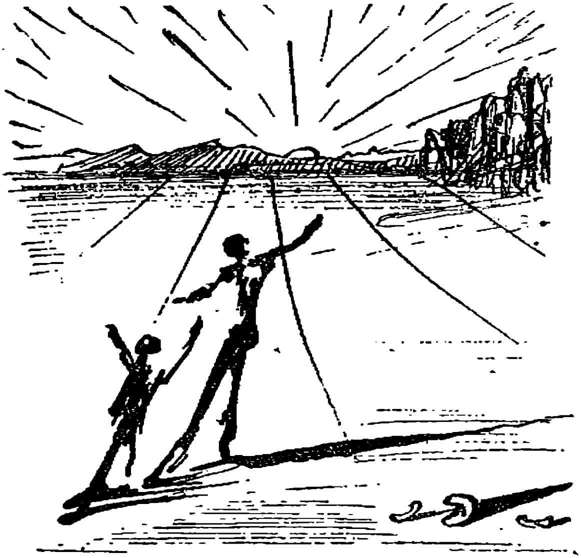

في بلدة (فيغويراس) وفي الساعة الحادية عشرة من اليوم الثالث عشر من شهر مايو – أيار من العام 1904، الدون سيلفادور دالي واي غوسي، متزوج، من أبناء (كاداكيس) من مقاطعة (جيرونا)، 41 عاماً،

كاتب العدل المقيم في هذه البلدة في 20 كالا دي مونوريول، ظهر أمام (سنيور ميغيل كواس كوينتانا)، القارئ المعروف والقاضي المحلي للبلدة، ومع سكرتيرته (دي فرانشيسكو سالا واي سابريا)، لتسجيل ولادة طفل في السجلات المدنية، وليصبح هذا الأمر معروفاً للقاضي الآنف الذكر، صرّح:

لقد وُلِدَ الطفل المذكور في منزله في الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة في اليوم الحادي عشر من شهر (مايو — أيار الحالي، وسوف يُمنح اسم (سيلفادور فيليب واي جاسينتو)، وهو الابن الشرعي له ولزوجته (دونا فيليبا دوم دومينش، ذات الأعوام الثلاثين، من سكان برشلونة والقاطنة في العنوان المذكور سابقاً. كما أن جدّيه لأبيه: (دون غالو دالي فيناس)، من سكان (كاداكيس)، وهو متوفى، و(دونا تيريزا غوسي مارسو، من سكان (روساس). وجديه لأمه هما: (دونا ماريا فيريز سادورن) و (دون أنسيلمو دومينك سيرا) من سكان برشلونة.

وكان الشهود: (دون جوسيه ميرسادر) من سكان بيسبال، من مقاطعة (بروفينس) في جيرونا، الدباغ المقيم في هذه البلدة، في 20 كالزادا دي لوس منغيس، إضافة إلى دون إيميلو بايغ، من سكان هذه البلدة، الموسيقي، المقيم في 5 كاليز دي بيرلادا، وكلاهما وصلا إلى سن البلوغ.

فلتقرع الأجراس! ودع الفلاح الكادح ينتصب للحظة، ويقوّم الانحناء القاسي المجهول لظهره، والمقوس على التربة مثل غصن شجرة زيتون تلويه الرياح الشمالية، ودع تلك الوجنات التي جعّدتها أخاديد الأرض العميقة تستقرّ في راحة يده المتصلبة، في حالة من الاسترخاء اللحظي التأملي النبيل.

انظر! لقد وُلِدَ سيلفادور دالي للتو! ليس هناك من ريح تهب ولا يوجد غيمة واحدة في سماء مايو – أيار. كما أن البحر المتوسط ساكن،

ويستطيع المرء أن يحصي على سطحه الناعم كظهر سمكة، لمعان سبعة موازين فضية أو ثمانية ليس أكثر، وهذا أفضل بكثير! لأن سيلفادور دالي لا يرغب بأكثر من ذلك!

لا بدّ أنه كان صباحاً كهذا عندما رست سفن الإغريق والفينيقيين في خلجان (روساس و أمبورياس) لتعدّ سرير الحضارة، والملاءات البيضاء النظيفة المسرحية لولادتي، وقد أعدّوا كل شيء في وسط سهل (أمبوردان)، وهو المنظر الطبيعي الأكثر تماسكاً وموضوعية من بين المناظر الطبيعية في العالم كله.

دع أيضاً صياد السمك في (كاب كريوس) يزلق مجذافيه تحت قدميه، محافظاً على سكونهما. بينما يقطر الماء منهما، دعه يبصق عقب سيجاره المرّ الذي مضغه مئة مرة في البحر، وليمسح بطرف كمه قطرات العسل التي كانت تتشكّل للحظات في زاوية عينه، وبعدئذٍ فلينظر باتجاهي!

وأنت أيضاً يا (نرسيس مونتوريول)، الابن الشهير لـ (فيغويراس)، مخترع الغواصة وبانيها، ارفع عينيك الرماديتين المليئتين بالغشاوة نحوي. انظر إلي!

ألا ترى أي شيء؟ وأنتم جميعاً – ألا ترون أي شيء أيضاً؟ فقط...

في منزل (كال دي مونتوريول)، هناك طفل حديث الولادة تتم مراقبته عن قرب، وبحب غير محدود من قِبَلِ والديه، يثيرا ضطرابا داخلياً خفيفاً وغير مألوف.

جميعكم تعساء! تذكروا جيداً ما أوشك أن أقوله لكم: لن يكون الأمر كذلك يوم أموت!

الفصل الرابع

ذاكرة الطفولة المزيفة

في السابعة من عمري، قرر والدي أن يأخذني إلى المدرسة، وكان عليه أن يلجأ إلى القوة. بجهد جهيد، سحبني من يدي طوال الطريق، حيث أثرت صخباً جعل أصحاب المحلات يقفون على جانبي الطريق ليراقبوا المشهد. كان والدي في ذلك الوقت قد نجح في تعليمي أمرين اثنين هما: الحروف الهجائية، وكتابة اسمي. وفي نهاية عامي الأول في المدرسة، اكتشف بحالة من الذهول أنني قد نسيت هذين الأمرين بشكل كامل.

كان ذلك فشلي المطلق. وقد فعل أستاذي ما في وسعه ليصل إلى هذه النتيجة — أو بالأحرى، لم يفعل أي شيء أبدا، لأنه كان يأتي إلى المدرسة كي ينام باستمرار تقريباً. لقد كان اسم أستاذ المدرسة (السنيور ترايت)، وهي كلمة تشابه في كاتالونيا اسم "عجة البيض"، وكان بالفعل شخصية خيالية بكل معنى الكلمة. كانت لحيته البيضاء تنقسم إلى ضفيرتين متناظرتين طويلتين جداً، تتدليان تحت ركبتيه عندما يجلس. وكان اللون العاجي لتلك اللحية مبقّعاً ببقع صفراء تعطي ظلالاً بنية تشبه صدأ النحاس الذي يظهر على أظافر المدخنين وأطراف أصابعهم، وتظهر كذلك على مفاتيح بعض آلات البيانو، التي لم تدخّن بالطبع طوال حياتها.

كذلك كان السنيور ترايت، فهو لم يدخن أيضاً، وكانت البقع تتداخل أثناء نومه. لكنه كان يستعيض عن التدخين (بالاستنشاق). كان في كل صحوة قصيرة يستنشق مادة عطرية تجعله يعطس بشدة، وتجعل منديله الضخم، الذي يصعب عليه أن يستبدله، يلمع ببقع صدئة. وكان وجهه وسيماً جداً من النمط "الخاص بتولستوي" ومطعّماً بشيء من ملامح "ليوناردو". وكانت عيناه الزرقاوان لامعتين جداً ومسكونتين بالتأكيد بالأحلام وكميات وافرة من الشعر، ولم يكن يهتم بلباسه ولا برائحة جسده الكريهة، كان من وقت لآخر يرتدي قبعة بحيث يبدو شكله النهائي غريباً عن المنطقة. لكن مع مظهره المهيب، كان يسمح لنفسه بأي شيء: لقد عاش مُحاطاً بهالة ذكاء أسطورية جعلته شخصاً منيعاً، ومن حينها فصاعداً، كان يبتعد في نزهة يوم الأحد، ويعود بعربته المحملة ببعض التحف كالنوافذ القوطية وبعض القطع المعمارية الأخرى التي يسرقها من الكنائس الريفية، أو التي اشتراها مقابل لا شيء تقريباً. لكنه اكتشف مرة عاصمة الفن الرمانيسكي التي تجسدت بالنسبة له في برج الجرس. وقرر السنيور ترايت أن يشقّ طريقه إليها ليلاً ويحرره من الجدار. لقد حفر بقوة حتى انهار جزء من البرج. تستطيع أن تتخيل سقوط جرسين ضخمين على سقف بيت مجاور تاركاً حفرة هائلة. وبينما استوعب القرويون ما حدث، كان السنيور ترايت في طريق العودة منطلقاً بسرعة هائلة، وعلى الرغم من أنه لم ينجُ من بعض الصخور المتساقطة، ومع أن الحادثة أثارت السكان في فيغوراس، فقد عززت مجده من جهة أخرى لأنه أصبح بشكل ما أحد ضحايا حبّ الفن. وما كان مثبتاً في هذه الحكاية أن السنيور كان يبني فيلا غريبة الشكل في الجوار، وقد جمع فيها مجموعته الأثرية غير المتجانسة التي اقتناها من سرقات يوم الأحد، التي يُفترض أنها شكل مَرَضي مزمن من أشكال التدمير الحقيقي للكنوز الموجودة في الريف.

لماذا اختار والداي مدرسة فيها أستاذ رائع كالسنيور ترايت؟ لقد كان والدي مفكراً حراً وكان قد نشأ في برشلونة العاطفية، برشلونة "Clave Choirs"[1]، برشلونة الفوضويين ومحاكمة (فيرير)[2]، وقد جعلها مسألة مبدأ ألا يضعني في مدارس مسيحية أو أي من مدارس الأخوة المريميين التي كانت تناسب الناس من مرتبتنا الاجتماعية. وعلى الرغم من أنه كان كاتب عدل، وأحد أكثر الرجال المحترمين في البلدة، فقد أصرّ على أن يضعني في مدرسة اشتراكية — مدرسة السنيور ترايت. وقد اُعتُبر هذا الموقف شاذاً جداً، لكنه كان مبرراً نوعاً ما بسبب الهيبة الأسطورية للسنيور ترايت الذي لم يكن لأي شخص من معارف أهلي أية تجربة شخصية بمواهبه التربوية، حيث كانوا كلهم يضعون أولادهم في مكان آخر.

وهكذا فقد أنهيت عامي الدراسي الأول وأنا أعيش مع أفقر الناس في البلدة، وكان هذا مهماً جداً كما أظن، من أجل تنمية ميولي الطبيعية نحو جنون العظمة. بالتأكيد، اعتدت أكثر على أن أعتبر نفسي طفلاً غنياً، وشيئاً نفيساً شهياً مختلفاً بالمطلق عن جميع الأطفال الجلفين رثّي الثياب المحيطين بي. لقد كنت الطفل الوحيد الذي يُحضر معه الحليب الساخن مع الكاكاو، مخزناً في عبوة حافظة للحرارة، وملفوفة بقطعة قماش مطرزة عليها أحرف اسمي الأولى. وكنت الوحيد الذي لديه ضمادة معقمة توضع على أبسط خدش، والوحيد الذي يرتدي بذلة بحار مع شارة مطرزة بخيوط ذهبية سميكة على أكمامها ونجوم على قبعتها، وكنت الوحيد الذي لديه شعر مسرّح مئات المرات ويعبق برائحة عطرة مثيرة لقلق الأطفال الآخرين الذين

---

[1] جوزيه أنسيلمو كلافيه، الموسيقي الكاتالوني، ومؤسس مجتمعات الكورال في برشلونة التي تطورت إلى معاهد موسيقية مهمة.

[2] المحاكمة الشهيرة ضد الفوضويين.

كانوا يأتون إلي واحداً بعد الآخر ليتنشقوا رائحة رأسي الثري. والأهم من ذلك أنني كنت الوحيد الذي لديه حذاء ملمع بشكل جيد وفيه أزرار من الفضة.

وفي كل مرة يُثقب فيها أحد أحذيَتي، يتحوّل إلى فرصة للصراع على ملكيته بين زملاء المدرسة الذي كانوا رغم الشتاء القاسي، يذهبون حُفاة الأقدام أو منتعلين حذاء قماشياً سيئاً مثقوباً لا يناسب مقاس أقدامهم. وفوق كل ذلك وبشكل خاص، كنت الوحيد الذي لا يرغب باللعب أو بالتحدث إلى أي شخص. واعتبرني الزملاء شخصاً منعزلاً جداً ولم يكونوا يقتربون مني إلا بتحفظ، وذلك ليظهروا إعجابهم بمنديل الدانتيل المزهّر الذي يزين جيبي، أو عصاة الخيزران المرنة الناعمة المزخرفة برؤوس كلاب فضية على قبضتها.

ما الذي فعلته إذن خلال عامي الأول في تلك المدرسة البائسة؟ لقد سلّى التلاميذ أنفسهم بصمتي الانعزالي، وكانوا دوماً في حالة من الاضطراب والهيجان المستمر وبدا المشهد بالنسبة لي غامضاً تماماً. لقد

صرخوا ولعبوا وتصارعوا وضحكوا، متسارعين بشراهة كياناتهم الغامضة لتمزيق قطع الجسد الحي بأسنانهم وأظافرهم، عارضين جنونهم العام الموروث الذي يرقد في كل نموذجٍ حي يتمتع بالصحة، والذي يمثل التغذية الطبيعية المناسبة للتطور الحيواني العملي "لمبدأ الفعل". كم كنت بعيداً عن تطور "مبدأ الفعل العملي" هذا — وقد كنت موجّهاً في الواقع إلى القطب المعاكس: كنت أعرف في كل يوم عن كيفية القيام بأمر ما، أقلّ مما كنت أعرفه في اليوم السابق! كما أعجبتني ببراعة تلك الكائنات الصغيرة التي تملكها شيطان الحيل فكانت تستطيع أن تظهر رؤوس أقلام الرصاص المكسورة بأظافرها الصغيرة! وتستطيع صناعة عقدة من ثني قطعة ورقٍ! وتستطيع بسرعة وبراعة أن تفك ربطة الحذاء القماشي المعقدة جداً، ومع كل هذا، كنتُ أستطيع أن أبقى حبيساً في غرفةٍ طوال فترة بعد الظهر دون أن أعرف كيف أدير مقبض الباب كي أخرجٍ. وكنت أضيع حالما أدخل أي منزل، حتى تلك المنازل التي كنت متآلفاً معها. ولم أكن أستطيع أن أتصرّف من تلقاء ذاتي لأخلع ملابسي البحرية التي علقت برأسي، كما أقنعتني بعض التجارب على هذا التمرين باحتمال خطر الموت اختناقاً. لقد كان "الفعل العملي" عدوّي، وأصبحت كائنات العالم الخارجي تزيدني رعباً بشكل يومي.

وكان السنيور ترايت أيضاً، يجلس على منصته الخشبية، وينسج سلسلة غفواته بوعي أكثر تجانساً مع النبات، وإن حدث في لحظة ما، وبدت أحلامه وكأنها تهزّه بلطف قصبة تنحني أمام الريح، فهو يبدو في لحظة أخرى ثقيلاً كجذع شجرة. كان يستفيد من صحوته القصيرة ليستنشق مادته العطرية، ويعاقب الذين يتجاوزون الحد المسموح للضوضاء بشدّ آذانهم حتى الاحمرار، والذين إما أثناء حرب تصويب البصاق التي يتقنونها، أو مع إشعالهم النار في الكتب لشيّ ثمار

الكستناء، يتمكنون من توقّع لحظة استيقاظه الطبيعي عبر ملاحظة ارتعاشات جسده المقيت.

وأكرر الآن، ما الذي فعلته إذن خلال عامي الأول في مدرسة الولاية البائسة تلك؟ قمت بشيء واحد فقط، وفعلته بلهفة يائسة: لقد نسجت "ذاكرة زائفة". إن الفرق بين الذاكرة الزائفة والحقيقية مطابق تماماً للفرق بين الجواهر: إن الزائفة منها هي التي تبدو حقيقية ومتألقة أكثر. أتذكر الآن عن تلك الحقبة مشهداً لا بدّ أن يُعتبر باحتماله المستحيل أول ذكرى زائفة. كنت أنظر إلى طفل عار يستحم ولا أتذكر إن كان ذكراً أم أنثى، لكنني لاحظت على إحدى أليتيه حشداً مريعاً من النمل بدا وكأنه ثابت في فتحة بحجم برتقالة. كان الطفل أثناء استحمامه يستدير ببطنه المرتفع، واعتقدت حينها أن النمل سوف يُسحق. ثم عاد الطفل بعدها إلى وضعه الطبيعي. وسيطر علي فضول هائل كي أرى النمل مرة أخرى، لكنني تفاجأت بأنه لم يعد موجوداً، كما لم يعد هناك وجود للفتحة. إن هذه الذكرى الزائفة واضحة جداً، على الرغم من أنني لا أستطيع تحديد موقعها الزمني والمكاني.

ومن جهة أخرى، أنا واثق تماماً من أنها كانت بين السابعة والثامنة من عمري، عندما كنت في مدرسة السنيور ترايت، أنسى الحروف الهجائية وطريقة كتابة اسمي، وحيث بدأ النمو القوي لسطوة الخيال والأسطورة يختلط بشكل مستبدّ مسيطر مع عيش كل لحظة، بحيث أصبح من الصعب عليّ لاحقاً أن أعرف أين تبدأ الحقيقة وأين ينتهي التخيّل.

لقد راكمت ذاكرتي محتوياتها كلها ككتلة متجانسة واحدة، بحيث يمكن فقط لدراسة موضوعية ناقدة لأحداث معينة سخيفة جداً أو مستحيلة بشكل واضح، أن تلزمني بأن أعتبرها ذكريات زائفة بالفعل. وكمثال على ذلك، عندما ترتبط ذكرياتي بأمور تحدث في روسيا، فأنا

مُضطر لأن أصنفها كأحداث زائفة لأني لم أدخل ذلك البلد في حياتي كلها. وبالتأكيد، يعود بعض من ذكرياتي الزائفة إلى روسيا.

إن السنيور ترايت هو من كشف لي أول صورة عن روسيا، وحدث الأمر كما يلي:

بعد انتهاء اليوم الدراسي المزعوم، كان السنيور ترايت يأخذني أحياناً إلى شقته الخاصة. وقد بقي هذا المكان بالنسبة لي، المكان الأكثر غموضاً من بين جميع الأماكن التي لا تزال تتزاحم في ذاكرتي. ولا بدّ أنها كانت تشبه الغرفة التي كان (فاوست) يعمل فيها. كان على رفوف خزانتها الضخمة المقسّمة إلى أجزاء كثيرة، مجلدات ضخمة يكسوها الغبار وتتبادل مواقعها مع أشياء أخرى منوعة وغير متجانسة. وكان بعض تلك الأشياء مغطى بالملابس كلياً أو جزئياً، بحيث تعرض أحياناً جزءاً من تعقيداتها الغامضة التي كانت غالباً مجرّد تفاصيل ضرورية لانطلاق "تفسيراتي الخيالية" المشابهة لانطلاق الخيول العربية[1] المستعدّة دوماً، والممسكة نفسها بنفاد صبر محموم، ومنتظرة لسعة من المهماز الفضي لهوسي بالكذب، لحث خاصرتها الدامية المصابة بالكدمات كي تتدافع في سباق جامح.

كان (سنيور ترايت) يجلسني على ركبتيه[2] ويمسّد ذقني الناعمة اللامعة بشكل أخرق، ويمسكها بإبهامه الكبير وأصابع يده الأربعة ذات الجلد الباهت الشبيه بحبة البطاطا ورائحتها ولونها وحرارتها وخشونتها بعد أن لوحتها الشمس وجعدتها وأصابتها بالقليل من العفن.

وكان دوماً يبدأ حديثه معي قائلاً:

---

[1] إن نسبي العربي الموجود في شجرة عائلتي والذي يعود إلى زمن (سيرفانتس) كان مؤكداً تقريباً.

[2] وفي الفترة نفسها تقريباً في روسيا، وفي منطقة تسمى "Lighted Glade – الفسحة المشتعلة"، بلد تولستوي، كان هناك طفلة أخرى وهي زوجتي غالوشكا، تجلس في حضن (حبة بطاطا) أخرى تتجسد في عينة أخرى من الأشخاص الأرضيين، وهو عجوز عالم خشن – هو الكونت ليو تولستوي.

"والآن سأريك شيئاً لم تره أبداً".

ثم يختفي في الغرفة المظلمة ويعود فوراً بمسبحة عملاقة يحملها بصعوبة على كتفيه، وتتدلى على طول جسده المنحني، وتزحف خلفه على الأرض بطول مترين، مصدرة ضجيجاً جهنمياً وموجة من الغبار.

"زوجتي، حفظها الله! طلبت مني أن أحضر لها مسبحة كهدية من رحلتي إلى القدس. وقد أحضرت لها هذه المسبحة التي تُعتبر الأكبر في العالم، إضافة إلى أنها صُنِعَت من خشب الزيتون الأصيل الموجود في جبل الزيتون".

Méphistophélès.

وما إن ينهي كلامه حتى يضحك بمكر.

وأحضر في إحدى المرات صندوقاً كبيراً مصنوعاً من خشب الماهوغاني ومبطناً بالحرير العقيقي الأحمر، وأخرج منه تمثالاً صغيراً لـ (مفستوفيليس) ملوناً بالأحمر الرائع ولامعاً كسمكة خرجت من الماء للتو، وأضاء اختراعاً مبتكراً على شكل رمح ثلاثي الشعب لوّح به الشيطان بذراعه المهددة، فارتفعت حزمة ألعاب نارية متعددة الألوان إلى السقف بينما كان السنيور ترايت في الظلام الدامس تقريباً، يمسّد لحيته الهائلة، ويراقب بشكل أبوي آثار دهشتي.

كما كان في غرفته أيضاً ضفدع جاف يتدلّى من طرفي خيط ممازحاً اسم "La meve pubilla" أي (أهلي، أناسي، شعبي)، ويسميه أحياناً أخرى "راقصتي". وكان مغرماً بأن يقول:

"كل ما عليّ أن أفعله مع هذا الضفدع هو أن أنظر إليه لأعرف كيف سيكون حال الطقس".

في كل يومٍ، كنت أجد الضفدع منكمشاً في وضعية مختلفة. وقد منحني شعوراً مَرَضياً لا يمكن تحديده بالإضافة إلى جاذبيته التي لا تُقاوم، لأنه كان من المستحيل عليّ تقريباً أن أرفع عينيّ عن هذا الشيء الصغير البغيض. وبالإضافة إلى المسبحة العملاقة، ومفيستوفيليس الألعاب النارية والضفدع المعلّق، كان هناك كمية كبيرة من الأشياء التي ربما كانت معدات شخصية طبية عذّبني استخدامها غير المعروف، بسبب الغموض العنيد لأشكالها الواضحة. لكنه امتلك أيضاً صندوقاً لا يمكن مقاومة سحره، وكان العنصر الموضوع الأساسي لكل نشواتي. لقد كان مسرحاً بصرياً زودني بأضخم كمية من أوهام طفولتي. ولم أكن قادراً أبداً أن أحدد ما كان يشبه ذلك الصندوق. وكما أتذكر، يرى المرء أي شيء كما لو أنه مليء بماء يتلون تدريجياً بألوان قوس قزح. كانت الصور ذاتها مؤطرة ومنقطة بثقوب ملونة بحيث تنتقل الأضواء بين ثقب وآخر بطريقة غامضة، يمكن مقارنتها فقط مع التغيرات الشكلية لما يسمّى الصور "التنويمية" التي تظهر لنا في حالة "نصف النوم". لقد رأيت في مسرح السنيور ترايت الرائع، الصور التي أثارتني بعمق كبير لما تبقى من حياتي. وقد أصبحت صورة الفتاة الروسية الصغيرة التي عشقتها فوراً، منقوشة بالطريقة القاسية التي يتركها حمض النتريك في كل قالب من القوالب التكوينية لجسدي الطفولي وروحي، وبطريقة متكاملة من السطح الشفاف لبؤبؤي عينيّ البلوريين وطاقتي الجنسية، إلى الهمهمة الرقيقة "لعناق يرقة" تنام مختبئة خلف الحماية الحريرية للجلد المخدد الوردي لرؤوس أصابعي الرقيقة. لقد بدت الفتاة الروسية أمامي مكسوّة بالفرو الأبيض ومحشورة بعمق في مزلجة تتبعها ذئاب بعيون فوسفورية. تنظر الفتاة إليّ بثبات، وتغمّ قلبي ملامح الكبرياء

المثير للرعب. كانت خياشيمها حيّة كنظراتها التي تضفي عليها شيئاً من النظرة الجامحة لحيوان غابة صغير. لقد أضافت هذه الحيوية المفرطة تبايناً حركياً إلى حلاوة وسكون جعلهما الوجه البيضاوي، وبعض الميزات الأخرى، يتوافقان بشكل عجائبي مع لوحة "مادونا" التي رسمها رافائيل. هل كانت تلك الفتاة "غالا"؟ أنا متأكد من ذلك.

وفي مسرح السنيور ترايت، رأيت سلسلة مناظر روسيا كلها، وسأبقى مندهشاً أمام سراب تلك القباب الرائعة ومناظر فرو القاقم التي "سمعتْ" فيها عيناي، إن جاز التعبير، طقطقة نار الشرق الثمينة كلها تحت كل رقاقة ثلج. لقد تطابقت مناظر هذا البلد الأبيض البعيد تماماً مع رغبتي المَرَضية بثقل وواقع افتراضي "خارق بالمطلق"، على حساب طرقات فيغوراس التي تفقد شيئاً من روحها كل يوم.

والأهم من ذلك، وكما في كل مناسبة في حياتي، عندما أرغب بشيء ما بإصرار شغوف، بحيث يحوم في وعيي توقّع غامض لكنه مكثف، كان يتجسد: لقد تساقط الثلج. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها هذه الظواهر. عندما استيقظت، بدت فيغوراس والريف كله أمامي مغطى بذلك الكفن النموذجي الذي يُدفن تحته الواقع اليومي بالتأكيد، بدا هذا وكأنه يعود إلى السحر الاستبدادي الوحيد الفريد لرغبتي. لم أشعر بأدنى قدر من الدهشة لأنني قد توقعت هذا التحوّل باهتمام كبير وتخيلته. لكن منذ تلك اللحظة، سيطرت عليّ نشوة هادئة، وعشت الأحداث الخارقة التي كان يتبعها نوع من أحلام يقظة مستمرة تقريباً.

توقف الثلج في منتصف الصباح تقريباً. تركت زجاج النافذة المكسو بغبش ضبابي والذي أبقيت رأسي متكئاً عليه طوال الفترة كلها، كي أذهبَ للسير مع أمي وأختي. بدت لي كل وطأة قدم على الثلج وكأنها معجزة، ولهذا كنت غاضباً قليلاً من حركة السير التي استمرت بشكلها

المعتاد، وشكّلت بقعاً فوق بياض الطرقات – لم أكن أريد لأحد غيري أن يمتلك حقّ ملامسة الجليد.

وعندما وصلنا إلى الضواحي أصبح البياض كاملاً. سرنا عبر غابة صغيرة وسرعان ما وصلنا إلى فسحة، فوقفت ساكناً أمام هذا المدى النقي. لكنني توقفت بشكل خاص بسبب شيء كروي صغير بني اللون موجود في مركز الفسحة. كان عبارة عن بذرة ثمرة شجرة الدلب تحتوي شقاً صغيراً بغلافها الخارجي. استطعت من خلال الشق أن أميّز الاصفرار الموجود في الداخل دون أن يكون واضحاً تماماً. وفجأة بزغت الشمس من بين الغيوم وأصبح كل شيء مضيئاً بكثافة. بقيت عيناي مركزتين على البذرة التي ألقت ظلها الأزرق على الثلج. إنها صفراء في الأسفل، خاصة، بدت وكأنها اتقدت وأصبحت "على قيد الحياة". واختلط انبهاري المفاجئ مع عواطف جياشة ملأت عيني بالدموع. ثم تقدمت والتقطتها بعناية ولطف وقبّلتها مكان الإصابة بحنان شخص يدين لشيء حيّ يعاني ويعتزّ به. ثم مسحتها بمنديلي وقلت لأختي:

"لقد وجدت قرداً قزماً لكنني لا أريد أن أريك إياه!"

لقد استطعت أن أشعر به يتحرك داخل منديلي! وقادتني عاطفة تفوق كل شيء آخر نحو بقعة مفردة: إنها "النافورة المكتشفة". كان عليّ أن أصرّ بقوة عنادي المستبد الذي لا يتزعزع على فرض الاتجاه الذي نسير فيه نحو هذه البقعة. وعندما وصلنا إليها تقريباً (كانت النافورة المكتشفة من جانب واحد فقط، وعلى المرء أن ينزل بضع خطوات ثم يتجه يميناً)، قابلت والدتي بعض الأصدقاء وقالت لي:

"اذهب والعب وحدك لبعض الوقت. اذهب إلى النافورة، لكن حذار أن تؤذي نفسك. سوف أنتظرك هنا".

أفسح الأصدقاء لوالدتي مكاناً على المقعد الحجري الذي كان منذ لحظة مغطى بالثلج، وكان لا يزال رطباً. نظرت بطريقة مزدرية شرسة نحو أولئك

الأصدقاء الذين تجرؤوا أن يقدموا "مكاناً كهذا" لوالدتي والتي لا أستطيع أن أتخيّل لها سوى أكثر الأماكن المُنتقاة بشكل استثنائي راحة، ثم شعرت بالكثير من الرضا لحقيقة أن والدتي لم تجلس، لكنها بقيت واقفة بذريعة أنها ستكون قادرة على مراقبتي بسهولة. نزلت بضع خطوات واتجهت يميناً: وكانت هناك! — الفتاة الروسية الصغيرة التي كنت قد رأيتها في مسرح السنيور ترايت السحري. سوف أسميها (غالوشكا)، وهو صيغة التصغير لاسم زوجتي، هذا بسبب الاعتقاد المتجذّر عميقاً في عقلي بأن صورة الأنثى ذاتها قد تكررت طوال فترة حياتي العاطفية، بحيث أن تلك الصورة لم تفارقني أبداً، وكانت تغذي ذاكرتي الحقيقية والزائفة دوماً. كانت غالوشكا تجلس أمامي على مقعد حجري، بالطريقة ذاتها التي كانت في مشهد المزلجة، وبدت كأنها تنظر إلي لفترة طويلة. وفي اللحظة التي رأيتها فيها، التفت إلى الخلف بشكل غريزي. كان قلبي ينبض بقوة حتى اعتقدت بأنه سيخرج من فمي. كما بدأت البذرة الكروية تنبض في يدي، معززة شعوري بأنها كانت "على قيد الحياة".

رأتني والدتي أثناء عودتي ولاحظت اضطرابي فصاحت:

"ماذا يوجد هناك عند النافورة؟" ثم أوضحت لأصدقائها:

"انظروا كم هو متقلّب: لم يفعل شيئاً طوال اليوم سوى الإلحاح على أن يأتي إلى النافورة، والآن بعد أن وصلنا إليها، لم يعد يريد أن يذهب إليها أبداً".

قلت إنني نسيت منديلي، وبرؤية أن أمي كانت تنظر إلى المنديل الذي أحمله في يدي أضفت:

"أنا أستخدم هذا المنديل لأغطي به قردي، وأريد منديلاً آخر لأنفي".

مسحت والدتي أنفي بمنديلها وذهبتُ من جديد. حاولتُ هذه المرة أن أنزل إلى النافورة من الاتجاه المعاكس، وذلك كي أستطيع أن أرى

غالوشكا من الخلف دون أن تستطيع رؤيتي. ولأقوم بذلك، كان عليّ أن أتسلق أجمة شجيرات متشابكة. علقت والدتي كالعادة:

"إنه يفعل دوماً عكس ما يفعله الآخرون — إن النزول المتدرج كان أسهل بكثير بالنسبة له!"

وعلى أطرافي الأربعة زحفت إلى أعلى الأجمة، ورأيت غالوشكا من الخلف. هذا طمأنني على واقعيتها، لأنني كنت مقتنعاً تقريباً بأنها لن تعود موجودة لدى عودتي. كما أن المظهر الخلفي لوقفتها، شلّني من جديد، لكنني لم أتراجع في هذه المرة — لقد ركعت على الثلج لتأكيد قراري في البقاء، ولكي أخفي نفسي خلف جذع شجرة زيتون هرمة. تزامنت حركتي مع حركة رجل ينحني ليملأ إبريق ماء من النافورة. وبينما كان يتردد صوت تدفق الماء داخل الإبريق، كان لدي انطباع "مذهل"[1]: بدا لي وكأنني عشت "زمناً أبدياً" ابتعدت فيه العواطف والأفكار الدقيقة كلها عني، وأصبحت كالتمثال التوراتي المصنوع من الملح. لكن على الرغم من أن عقلي كان غائباً كما يبدو، فقد رأيت وسمعت حدّة لم أختبرها من قبل. كان لخيال غالوشكا على الخلفية الثلجية ملامح تشبه في دقتها الغريبة الشرسة ثقب القفل. وكان باستطاعتي أن أسمع أضعف صوت من المحادثة التي تدور بين والدتي وأصدقائها رغم المسافة التي تفصلني عنهم.

وفي اللحظة التي امتلأ فيها الإبريق، بلغ افتتاني الغريب نهايته فوراً. واستأنف الزمن الذي كان معلّقاً حتى هذه اللحظة صلاحيته المعتادة وحدوده الطبيعية. نهضت مجدداً كما لو أنني شُفيت من خجلي. كانت ركبتاي مخدرتين من تلامسهما الطويل مع الثلج، وشعرت بإحساس جديد كما لو أنه "خفّة"، دون أن أعرف إن كان

---

[1] أخبرني بيكاسو في أحد الأيام عن انطباع مشابه كان قد هاجمه بعنف. في قصره في باريس، نزل إلى النافورة وملأ إبريقه بالماء، وقد كان ضوء القمر ساحراً. وخلال الوقت اللازم ليملأ الإبريق، كان لديه انطباع عن "عيش عدة سنوات" دون الحفاظ على أية ذاكرة دقيقة عنها.

مصدره إحساس الوقوع في الحب أو ذلك الخدر في ركبتي. وحينها هاجمتني فكرة جديدة: كنت أريد أن أنزل وأقبّل غالوشكا على رأسها من الخلف قدر استطاعتي. لكن بدلاً من تحقيق هذه الرغبة، سحبتُ بسرعة سكيناً صغيراً من جيبي، وقررت أن أنفذ فكرة أخرى بدلاً من القبلة — الفكرة التي كانت تداعبني سلفاً أثناء مجيئي إلى هذا المكان: أن أقوم بتقشير البذرة الكروية بشكل كامل بحيث تصبح ناعمة بالكامل، ثم أقدمها هدية إلى غالوشكا.

لكنني لم أحظَ بالوقت الكافي كي أبدأ عمليتي حتى نهضت الفتاة المعشوقة وأسرعت إلى النافورة لتملأ إبريقها الصغير. واندفعتُ إلى المقعد الحجري لأترك هديتي كما هي على صحيفة موجودة على المقعد. لكن الخجل داهمني مرة أخرى فأخفيت الكرة تحت الصحيفة. وأصبح أملي المفاجئ، وإمكانية أن تعود الفتاة الصغيرة وتجلس على الصحيفة التي تخفي الكرة الصغيرة، شيئاً مزعجاً بالنسبة لي، وبدا أن الارتعاش لا يريد أن يفارقني. ثم جاءت والدتي لتأخذني، وكانت تناديني منذ مدة لكنني لم أسمعها على الأغلب. ثم لفت رقبتي وصدري بوشاح كبير خشية الإصابة بنزلة برد، وبدا أنها كانت مذعورة. وعندما حاولت أن أتكلم، اصطكت أسناني. لقد لحقتها في البداية، وأمسكت يدها مذهولاً مستسلماً رغم الحزن الذي ينهش أحشائي أسفاً على مغادرة هذه البقعة في هذه اللحظة تحديداً.

لكن قصة كرتي الصغيرة الحبيبة كانت قد بدأت للتو. استمع بصبر إلى ما يتعلّق بالظروف الدرامية المدهشة التي أحاطت بالمواجهة الجديدة مع معبودتي التي نسجها هذياني. إنه يستحق بالفعل بعضاً من وقتك.

اختفى الثلج واختفى معه سحر تغيّر مظهر البلدة والمناظر التي رافقت تلك الأيام الثلاثة الاستثنائية التي لم أذهب فيها إلى المدرسة، والتي عشت خلالها نوعاً من أحلام اليقظة — من ضمنها المغامرات التي تم توصيفها بحماسة ودقة. وقد بدت العودة إلى الرتابة المنوّمة

لمدرسة السنيور ترايت مقبولة بالنسبة لي كاستراحة بعد تلك التقلّبات كلها، لكن في الوقت نفسه، آلمتني العودة إلى الواقع بسبب ولادة حزن جديد شعرت بأنه سيشفى ببطء، حيث أدى فقداني لقردي القزم، كرتي الحبيبة الصغيرة، إلى إثارة مشاعري إلى الحد الأقصى.

ولم يعزْني في تلك الفترة سوى الحواف غير المنتظمة للبقع بنية اللون التي كانت تشوّه السقف المقبب العظيم الذي يحمي الجدران الأربعة البائسة للصف. وفي مسار أفكاري الخيالية المُرهقة التي لا تنتهي، كانت عيناي تتابعان بلا كلل، عدم الانتظام الغامض لتلك الصور الظلية العفنة، فأرى شخصيات حقيقية مفصّلة تنبثق من تلك الفوضى التي تفتقد الشكل كصور غيوم متماسكة منحتها الحرارة دقّة متزايدة.

ومع بعض الجهد المبذول من يوم لآخر، نجحت باستعادة كل صورة من تلك الصور التي رأيتها في اليوم السابق وكنت أتابع حينها صقل هلوستي. وعندما تصبح إحدى الصور المكتشفة مألوفة جداً بسبب العادة، تفقد اهتمامها الانفعالي تدريجياً وتتحول فوراً إلى "شيء آخر"، بحيث تقدم الذريعة الرسمية ذاتها، وبالجاهزية نفسها، ليتم تفسيرها بشكل متعاقب بالتشكيلات الأكثر تنوعاً وتبايناً، ويستمرّ هذا إلى ما لا نهاية.

كان الشيء المدهش في هذه الظواهر (التي أصبحت فيما بعد حجر الأساس في حسي الجمالي المستقبلي) أنني من خلال رؤية إحدى هذه الصور، أستطيع دوماً بعدها أن أراها مرة أخرى بإملاء بسيط من رغبتي، وليس في شكلها الأصلي فقط بل مصححة دائماً على الأغلب، وفيها إضافات بالطريقة التي تجعل التحسّن الذي طرأ عليها تلقائياً وآلياً.

أصبحت المزلجة التي كانت تستخدمها غالوشكا منظراً بانورامياً لروسيا بقبابها الشامخة التي ستتحول إلى وجه السنيور ترايت المخدّر الملتحي، والذي سيتحول بدوره إلى معركة عنيفة لذئاب تم تجويعها بشدة وسط صفاء غابة عذراء، وهكذا تحولت البقع إلى موكب من

الظهورات المتجددة دوماً والتي تعمل كخلفية توضيحية للمسار الحالم الغزير لمخيلتي العنيفة، التي تُسقط ذاتها على الجدار بالطاقة القصوى لتجسدها المضيء، كان هذا كله كما لو أن رأسي تحوّل إلى عارض صور متحركة حقيقي، أستطيع بفضله أن أرى انفعالاتي الداخلية ظاهرة أمام عيني اللتين أذهلتهما تلك البقعة الهلوسية العظيمة لمزراب شكّله ذوبان ثلوج كرتي الخيالية في السرداب الذي يهدد بالخراب، والذي يحمي أحلام السنيور ترايت وأحلامي في المنحنيات العفنة لجدرانه السميكة.

في إحدى الليالي، وبينما كنت مستغرقاً أكثر من العادة في التأمل في بقع الرطوبة، شعرت بيدين رقيقتين تلامسان كتفي. قفزت وابتلعت لعابي بطريقة خاطئة وسعلت بشدة. وأسعدني هذا السعال لأنه برر إثارتي وجعلها غير ملحوظة. كما تورّد وجهي خجلاً عندما عرفت أن الطفل الذي كان خلفي هو (باخوس).

كان أطول مني بكثير، وكان لقبه باخوس بسبب ملابسه المتطرّفة التي تحتوي على عدد مبالغ فيه من الجيوب – كانت الجيوب في كاتالونيا تسمّى باخوس. لفترة طويلة، كنت أراه الأكثر وسامة بين الأولاد، ولم أكن أتجرأ على النظر إليه إلا متلصصاً، لكن في كل مرّة تتقاطع فيها نظراتنا صدفة، أشعر بأن الدم يتجمد في عروقي. لقد كنت مُغرماً به بدون أي شك لأن ما من شيء آخر يمكنه أن يبرر الاضطراب الذي يسببه حضوره، ناهيك عن المكان الذي اتخذته صورته لفترة ما في أحلام يقظتي، حيث تختلط صورته بصورة غالوشكا حيناً، وتكون على النقيض منها حيناً آخر.

لم أكن متأكداً مما قاله باخوس لي بسبب الدوخة التي ملأت أذنيّ بذلك الطنين المبهج، الذي كانت وظيفته أن يطمس أصوات العالم المحيط كلها كي تسمع صوت نبضات قلبك المتسارعة بوضوح أشد.

بالتأكيد أصبح باخوس صديقي الوحيد فوراً، وكنا في كل مرة ننفصل فيها، نتبادل قبلة طويلة على الفم.

إنه الوحيد الذي شعرت بأنني قادر أن أبوح له بسرّي عن القرد القزم. وقد صدّق أو تظاهر بأنه يصدّق ذلك، وهو يعبّر عن اهتمامه بقصتي. كما ذهبنا في مناسبات عديدة إلى النافورة المكتشفة، لنحاول مرة أخرى "مطاردة" قردي القزم، كرتي الصغيرة المحبوبة التي تظهر في مخيلتي الآن متمتعة بأكثر السمات دقة للكائن الحي الصغير الحقيقي.

كان شعره أشقر (أحضرت إلى البيت خصلة من شعره، واحتفظت بها كشيء ثمين بين صفحات كتاب، كانت تبدو لي كأنها خيوط من ذهب خالص)، وعيناه زرقاوين لامعتين، وكان لحمه الوردي الفاتح يتباين بشدة مع شحوبي الزيتوني التأملي، الذي بدت تحوم حوله ظلال طائر التهاب السحايا الأسود الذي قتل أخي سابقاً.

لقد بدا بالنسبة لي جميلاً كفتاة صغيرة، مع أن ركبتيه المكتنزتين جداً قد منحتاني شعوراً بالارتباك، وكذلك فعلت أليتاه المشدودتان بقوة في بنطاله الضيق بشكل لا يُطاق. مع ذلك، وعلى الرغم من ارتباكي، كان يدفعني فضول هائل لأنظر إلى البنطال الشفاف في كل مرة تهدد فيها حركة قوية بأن تمزقه.

أخبرته مرة بمشاعري نحو غالوشكا، وكانت ردّة فعله خالية تماماً من الغيرة، كما كان موقفه منها مشابهاً لموقفه من كرتي الصغيرة، وكان مثلي تماماً يقدرها ويقدر غالوشكا.

وتحدثنا باستمرار عن هذين المخلوقين الهذيانيين بينما كان أحدنا يعانق الآخر بذراعيه الملاطفتين، لكننا كنا نستبقي قبلاتنا للنهاية، إلى لحظة ابتعاد أحدنا عن الآخر تحديداً.

كنا ننتظر تلك اللحظة السعيدة بمشاعر متنامية نحاول أن نثيرها إلى حدها الأقصى بمؤامرة ضمنية من دردشاتنا الطويلة. وأصبح كل شيء بالنسبة لي: بدأت أقدّم له هدايا من أعزّ ألعابي وأكثرها قيمة، حيث تسرّبت تدريجياً من منزلي لتعزيز قيمة حضوري لديه، وقد كدّسها هو

بجشع متنام. وعندما انتهت ألعابي بدأت أتطاول على أشياء أخرى في البيت مبتدئاً بغليون والدي والميدالية الفضية المزخرفة التي فاز بها والدي في مؤتمر "لغة الإسبرانتو". كما أحضرت في اليوم التالي الكنار البورسلاني الأجمل زخرفة في غرفة المعيشة. لكن باخوس، وقد اعتاد بسرعة على عروضي السخية، بدأ يبتزّني. وبالتالي أحضرت له في أحد الأيام وعاء الحساء الصيني الكبير الذي كنت أراه شاعرياً بشكل مذهل – كان مزيناً بصورة سنونوتين ملونتين بالأزرق الرمادي أثناء تحليقهما.

لكن والدته عالجت مشكلة الهدايا الكثيرة التي تجاوزت الحدّ المسموح ليمرّ دون أن يلفت انتباهها وأعادتها إلى والدتي التي فهمت حينها سبب الاختفاء غير المبرر للكثير من الأشياء التي انسلت من بيتنا بطريقة متسارعة. كنت مستاءً بشدة ومغتاظاً بسبب توقف تقديم الهدايا، ثم بكيت بمرارة وصرخت: "أنا أحب باخوس، أحب باخوس!"

وواستني والدتي برقتها الملائكية قدر استطاعتها، ثم أعطتني ألبوماً فاخراً ألصقنا فيه مئات الصور، وأصبح باستطاعتي أن أهديه لصديقي وحبيبي. كما رسمت لوحات مذهلة لحيوانات رائعة، ولونتها بألوان خشبية وألصقتها حتى أصبحت بحجم كتاب صغير يُفتَح على شكل آلة الأوكورديون. وكانت أيضاً هدية أخرى لصديقي باخوس!

لكن ازدياد الفاصل الزمني بين الهدايا، وتناقص قيمتها المادية، جعل سلوك باخوس معي أكثر برودة، وبدأ يلعب مع الأطفال الآخرين ولا يترك لي سوى فترات قصيرة بين ألعابه المشاغبة. وشعرت أنني أفقد الحلاوة السابقة لشخص مقرّب مني إلى الأبد، وكان يبدو في كل استراحة وكأنه ممسوس بموجة عنيفة من ألعابه الصاخبة لأقصى حد ممكن. لقد بدت الطاقة المتنامية لبنيته الصحية الوافرة وكأنها لم تعد قادرة على أن تبقى داخل جسده المحدود الناعم جداً، والذي كانت تشنجه أدنى إثارة، وتجعله يحتقن بالدم بشكل كريه. كان يقترب مني لأدنى سبب ممكن،

ويدفعني أو يسحبني من يدي كي أركض معه. تظاهرت في إحدى الأمسيات بأنني أعيد استكشاف كرتي الصغيرة، قردي القزم! واعتقدت أنني ربما أستطيع بهذه الحيلة أن أستعيد اهتمامه. وبالتأكيد، أصرّ على أن أريه قردي ورافقني إلى مدخل بيتي ثم اختبأنا خلف الباب الكبير قرب الدرج حيث كان الظلام دامساً. وبعناية كبيرة، وبأيدٍ مرتجفة، فككت كرتي التي التقطتها بالصدفة من الطريق واحتفظت بها مخبأة في منديل.

بحركة قاسية، سحب الكرة والمنديل من يدي. كان أقوى مني بكثير ولم أكن أستطيع مقاومته أبداً. ثم رفع الكرة بإيماءة ساخرة مقيتة وخرج إلى الشارع. وعندئذٍ قذف الكرة في الهواء بأقصى ما يستطيع. ولم أبذل أي جهد كي أذهب والتقطها، لأنني عرفت بشكل مؤكد أنها لم تكن كرتي "الحمراء". ومنذ ذلك الحين أصبح باخوس عدوي. وانصرف إلى البصاق المتكرر في الهواء باتجاهي. ابتلعت لعابي وذهبت إلى غرفتي باكياً. سوف أريه!

كنت مقتنعاً أنني في روسيا على الرغم من عدم وجود ثلج. ولم يدهشني غياب هذه الظاهرة التي بدت حتى تلك اللحظة وكأنها تصف جميع المشاهد التي كانت لدي عن ذلك البلد. لا بدّ أن الوقت كان حوالي نهاية بعد ظهر يوم صيفي حار، لأنهم كانوا يرشقون الماء في جادة المنتزه الكبير المركزية حيث يحتشد المهتمّون بالموضة، ويصطفّ العنصر الأنثوي الطاغي فيها على الجانبين، جالسات ببطء ومشقّة في متاعة معقّدة من الكراسي لمشاهدة لمشاهدة العرض العسكري المقرر.

أبراج وقباب متعددة الألوان[1]، (كتلك التي رأيتها في مسرح السنيور ترايت)، تنبثق من حشد الأشجار العظيمة القاتمة، التي تتألق بقممها وزخرفاتها اللامعة في أشعة الشمس التي تميل تدريجياً وتتجه نحو المغيب.

---

[1] تلك القباب متعددة الألوان التي تتطابق مع روسيا في ذكرياتي الزائفة، أو على الأقل مع الأوهام التي لدي عن ذلك البلد، بفضل مسرح السنيور ترايت (ما لم يكن هو أيضاً من ذكرياتي الزائفة).

على المنصة التي بدت حجرية بكاملها بدأت اليد العسكرية تضبط آلاتها الموسيقية، وأصدرت الآلات النحاسية ومضات متعددة متقطعة تسبب العمى، كتلك الخاصة بوعاء القربان المقدّس.

وسلفاً يسمع المرء صيحة ملاحظات تمهيدية متباينة، ثم تتقطع الصيحة وتختفي، لكن تلك الصيحة باندفاعها الهادر، تستفزّ لديك توقعات باحتمال البدء الفوري للموسيقى التي تعد تستطيع أن تتأخر كثيراً.

وإن طال أمد هذا التوقع المتلهف إلى أجل غير مسمى، فإن "الحلاوة اللاذعة" التي يحثّها كل صوت حاد جديد، إضافة إلى عذاب تكرارها الدقيق بشكل مرعب، تهدف إلى الإبقاء على كل قلب في حالة من الترقب المتزايد على حافة التبلور العظيم لصمت بعد الظهر الذي يبدأ بالتشكّل كحالة من عدم الراحة تنتشر داخل الحشود.

وإن فاحت في هذه اللحظة هبات من رائحة أشجار الزيزفون لتزيد من معاناتك، فسوف تقدّر أن ما كان مجرّد مسّ من دوخة، سيصل إلى مرحلة الغثيان، وأن عينيك ستجبران على أن تظهرا بياضهما.

في حالتي هذه، وفي السن الذي حدث فيه هذا، كانت حالة إرباكي العقلي تصل إلى حد أن يُغمى علي، وينتهي الأمر دوماً برغبة مفاجئة قوية بالتبوّل تبلغ ذروتها لحظة وصول أول ثنائي يرقص الفلامينغو ممزقاً توهّج الليل إلى أشلاء دموية. وفي طرف عيني، تحرقني دمعة لا يمكن كبحها، وتبدو كما لو أنها هي ذاتها بحرارتها وعدم القدرة على كبحها ما تبلل بنطالي في اللحظة ذاتها. وفي ذلك اليوم، كان الإحساس الذي سيطر عليّ حالما أصدرت الأبواق العسكرية علامتها الموسيقية العسكرية الأولى مضاعفاً، بسبب اكتشافي المفاجئ لوجود غالوشكا.

يجب أن تقع بكافة الاحتمالات في منتزه (غويل دي غودي) في برشلونة، البقعة المكونة في معظمها من حجارة معمارية وقطع آجر الملونة بشكل صاخب. لقد أنجزت مهرجاناً في الهواء الطلق هناك. أو، من الممكن أن مخيلتي قد خلطت الاحتفال العسكري الذي أُقيم في قلعة محصنة في (فيغوراس) مع جلوسي المثالي الرائع في منتزه (غويل).

كانت تنتظر وصول الموكب على مقعدها في الجهة المقابلة من جادّة المنتزه على بعد لا يتجاوز عشرة أمتار.

كنت متأكداً من أنها بدورها اكتشفت وجودي في الحشد. وبسبب الخجل الذي لم أستطع السيطرة عليه، اختبأت فوراً خلف ممرضة سمينة تجلس على الأرض، فوفرت لي سمنتها ملاذاً من نظرة لا يمكن احتمالها.

شعرت بنفسي متفاجئاً ومذهولاً بصدمة اللقاء غير المتوقع، الصدمة التي ضخمتها التأثيرات الصوتية للموسيقى إلى الحد الأقصى. بدا كل شيء يذوب ويتلاشى من حولي، وكان عليّ أن أحني رأسي الصغير خلف ظهر المرضة المتبلّد الشعور، ومتراس رغبتي.

أغلقت عيني. وعندما فتحتهما كانتا مثبتتين على الذراع العاري لسيدة تجلس إلى جانبي وترفع ببطء شديد كوب الشوكولا إلى شفتيها. إن الإحساس الغريب بالعدم، الذي بدا وكأنه يغمرني أكثر وأكثر، شكّل تبايناً حياً للحِدة التي لاحظت فيها أدقّ تفاصيل الجلد على معصم السيدة. وبدا الأمر كما لو أن عينيّ أصبحتا عدستين مكبرتين تتفحصان قدرتهما العالية في حقل رؤية محدود جداً، لكنهما تمتعتا بميزات صلابة استثنائية. وكان كل هذا على حساب باقي العالم الذي يصبح مطموساً بالغياب الكامل، وممتزجاً، إن جاز التعبير، بالموسيقى التي ملأت الجميع.

لقد تكررت ظواهر الرؤية المبالغ فيها تلك، في ظروف متنوعة من مسار حياتي، لكنها كانت دوماً نتيجة للذهول الذي تحثّه عاطفة قوية جداً تسيطر عليّ على حين غرّة. ففي عام 1936، وبين مئات الملفات المصورة التي كنت أختارها في متجر في (رو دي سين) في باريس، صادفت صورة أذهلتني: إنها تُظهر امرأة ترفع كوبها إلى شفتيها. لقد عرفتها فوراً، لأنها تتوافق تماماً مع الصورة الموجودة في ذاكرتي. وكان انطباعي حول "المرئي مسبقاً" مثيراً لمشاعري بحيث طاردتني الصورة عدة أيام مقتنعاً بأنها الصورة ذاتها التي رأيتها بتلك الدقة والغرابة

العظيمتين لطفل، والتي لا تزال حتى يومنا هذا تبرز بتفاصيلها الفوتوغرافية الدقيقة من خلال الغشاوة الضبابية لأقصى ذكرياتي الزائفة بعداً، ممزوجة بصور مضيئة.

ألصقت نفسي أكثر وأكثر بالعطاء السخي والواقي بشكل غير واعٍ لظهر المرضة التي بدا تنفسها الإيقاعي بالنسبة لي قادماً من البحر، وقد جعلني أفكر بشواطئ كاداكيس المهجورة ....

لقد أصبحت وجنتي المسحوقة على لباسها الرسمي الأبيض الممتدّ فوق الفيض الدافئ لجسدها المغذي، مليئة بأسراب النمل التي حثّتها أفكاري الخيالية الحالمة الطويلة. ولم أرغب في تلك اللحظة إلا أن يهبط الظلام بالسرعة الممكنة!

وفي لحظة الشفق، وفي تلك العتمة المتنامية، لم أعد أشعر بالخجل. وكنت أستطيع عندئذٍ أن أنظر في عيني غالوشكا دون أن تراني متورداً.

وكنت في كل مرة أسترق فيها نظرة عابرة من غالوشكا لأمنح نفسي بهجة ديمومة حضورها، أواجه عينيها الحادتين تحدّقان بي. كنت أختبئ على الفور، لكن ومع كل تلاق جديد مع نظرتها النفاذة، يبدو لي وكأن نظرتها تستطيع بمعجزة قوتها المعبّرة أن تنفذ من خلال جسد المرضة التي كانت تفقد كيانها الجسدي بين لحظة وأخرى، كما لو أن نافذة حقيقية فُتِحَت في جسدها تاركة جسدي عرضة لذلك النشاط الشره لتلك المعشوقة على الرغم من النظرة المضنية بشكل قاتل. لقد أصبح هذا الإحساس أكثر حدّة ووصل إلى درجة الوهم الهذياني. وقد رأيت في الواقع نافذة حقيقية في جسد المرضة. وحتى من خلال هذه الفتحة الجنونية من الوجهتين المادية والحقيقية، لم أعد أرى الحشد الذي لا بدّ أنه كان موجوداً، ولا بدّ أن تكون غالوشكا جالسة على مقعدها في وسطه وتنظر باتجاهي. بل على العكس من ذلك، فمن خلال النافذة المفتوحة في ظهر المرضة، ميّزت فقط الشاطئ الفسيح المهجور تماماً والمضاء بأشعة الكآبة للشمس التي تغرب.

عدت فجأة إلى الواقع مصدوماً بمشهد مريع: لم تعد الممرضة أمامي بل أصبح مكانها أحد خيول الموكب، وقد انزلق وسقط على الأرض. بصعوبة شديدة، كان لدي الوقت الكافي كي أنسحب وأستند إلى الجدار متفادياً الإصابة. وكنتُ أثناء كل خلجة من خلجاته، مرتعباً من أن يسحقني بضربة من إحدى قوائمه الغاضبة. وقد انغرس أحد القضبان المعدنية للعربة في خاصرته وانبثق دم كثيف في كل الاتجاهات كنافورة ماء تبعثر الريح رذاذها.

ثم اقترب جنديان ضعيفا البنية منه وحاول الأول أن يبقي رأسه ثابتاً، بينما قرّب الآخر سكيناً صغيرة من نحره. وبعدها، وبدفعة قوية من يديه الاثنتين، وصل نصل سلاحه إلى مُبتغاه.

ارتعش الحصان رعشته الأخيرة وأصبح ساكناً، ثم رفع إحدى قوائمه المتصلبة وأشار إلى السماء التي بدأت بعض النجوم تتألق فيها. وعبر جادّة المنتزه، بدأت غالوشكا تومئ إلي بيدها بحيوية، ورأيت بوضوح شيئاً بنياً في قبضة يدها المتجهة نحوي. لم أصدق هذه المعجزة الجديدة رغم أنها كانت حقيقية، كانت تريني كرة بذرة شجرة الدلب خاصتي! كرتي الحبيبة التي فقدتها قرب "النافورة المكتشفة"![1] ثم أخفضت عينيّ غارقاً بحالة من الارتباك. وتخضّبت ملابس البحارة البيضاء التي أرتديها باللون الأزرق بتأثير الشفق الذي يزداد عمقاً، وكل ما كان يلمع من رشقات الدم الصغيرة غير المرئية تقريباً، والتي وصلت إلى قدمي من رأس الحصان.

خدشت البقع بظفري، وكان الدم جافاً تماماً. وأثار الهواء الدافئ الثقيل بعنف شعوري بالعطش. وقد جعلتني الإثارة الناتجة عن المشهد

---

[1] في الوقت الذي اخترت فيه هوسي الهذياناتي حول هذه الكرة، أسقطت غالوشكا في موسكو شغفها كله على هوس آخر، لكنه كان من نموذج آخر. لقد كان صندوقاً صغيراً فيه أعواد ثقاب يمكن أن ترى على واجهته الخلفية صورة براقة بألوان تمثّل كاتدرائية في فلورنسا حيث كانت غالوشكا هناك في رحلة قصيرة مع والدها.

وفي كل مرة رغبت فيها أن تواسي نفسها على رغبتها المفرطة بالعودة إلى إيطاليا، كانت تشعل واحداً من أعواد ثقابها الثمينة جداً.

السابق العنيف الخارق القاسي أغرق في حيرة لا تُحتمل، وضاعفها إحساسي الجديد بالارتياح لنظرات غالوشكا التي تومئ لي بيدها، مما جعلني أشعر أن من الضروري أن أتخلص من هذا الوضع بمبادرة بطولية وغامضة تماماً: انحنيت على وجه الحصان الضخم وقبّلته من كل قلبي على أسنانه البارزة من فمه نصف المفتوح المقطّب بتشنجات الموت. ثم اجتزت الجسد الميت برشاقة وركضت عبر المسافة التي تفصلني عن غالوشكا. لقد اتجهت نحوها مباشرة، لكنني ما أن أصبحت على بعد متر واحد منها، حتى داهمتني دفقة خجل أقوى بكثير من سابقاتها وأزاحتني بعيداً عن هدفي.

ثم دخلت وسط الحشد منتظراً بنفاد صبر مسعور أن يهبط الظلام، ابتغاء خطة جديدة للوصول إلى ما كنت قد فكرت به للتو.

لكن غالوشكا اقتربت من تلقاء ذاتها هذه المرة، وحاولت أن أهرب منها لكنها كانت قريبة جداً.

كنت مغتاظاً بشدة لأنني لم أعد قادراً على إخفاء خجلي، ومع ذلك فقد أخفيت وجهي بقبعة البحار التي كنت أرتديها معتقداً أنني بقيامي بهذا، سأخنق نفسي برائحة البنفسج التي نُقِعت فيها. أُصِبت بشيء من الهيجان والسخط، واستطعت أن أشعر بجسد غالوشكا يحتك بملابسي. وعندئذٍ ومن دون أن أنظر نحوها، ركلتها بكل ما لدي من قوة. وأطلقت صرخة قوية ووضعت يديها على ركبتي. ثم رأيتها تعرج وتتجه إلى مقعد في نهاية المنتزه بين نسق المقاعد الأخير والجدار المغطى بعرائش اللبلاب. وسرعان ما أصبحنا جالسيْن وجهاً لوجه، وتضغط الركبة الناعمة الباردة لأحدنا على ركبة الآخر، وقد أعاقتنا أنفاسنا المتسارعة عن نطق كلمة واحدة.

يرتفع منحدر من المكان الذي جلسنا فيه ويتصل بالممشى المرتفع. يتسلق المنحدر بعض الأطفال ثم يندفعون على دراجاتهم بسرعة جنونية.

وبسبب الضجيج المهدد الذي يتجه نحونا تدريجياً، بدأ أحدنا يقترب من الآخر شيئاً فشيئاً. لكن أكثر ما أزعجني من بين هؤلاء الصبية المشاغبين، وجه باخوس الأحمر المتصبب عرقاً! وقد شعرت بكراهية قاتلة نحوه، وبدا وكأنه يبادلني الشعور ذاته. بعد ذلك، اندفع نحوي بدراجته وألقى بنفسه على مقعدي معززاً هذا التصرف بضحكة وصرخة ضعيفة نسبياً. حاولنا أنا وغالوشكا أن نتمترس بين الجدار وجذع شجرة اللبلاب الضخمة. فاستطاعت بذلك أن تحمي نفسها من تلك الضربات الوحشية، بينما بقيت أنا المحمي جزئياً، معرضاً لاعتداءاته الحاقدة التي كان يكررها كل فترة في سباق محموم يهدف إلى الاصطدام بي بإصرار ممنهج متنام. كانت الفترة التي يبتعد فيها تُعتَبَر بالنسبة لي ولغالوشكا فسحة من الجنة، وكنا نستغلّ تلك الفرصة لنغوص من جديد في كآبة نظراتنا العذبة بلا حدود، متشاركين في اتحاد لا يمكن تفسيره، حيث تتولد فيه المشاعر الأكثر تنوعاً، وتنصهر على عتبات روحينا في سلسلة من الابتهاجات السماوية التي لا تنكسر. وكانت كل مقاطعة مفاجئة جديدة لرومانسيتنا، يسببها هجوم باخوس على دراجته، تزيد من نقاوة عواطفنا وتأملنا المنتشي، وتضاعف احتمال الخطر المؤلم المبهج معاً.

كما لو أن غالوشكا بدأت تعبث بالسلسلة الدقيقة التي كانت ترتديها حول عنقها، وسرعان ما بدت لي وكأنها تريد أن تشير بإيماءات من غنجها الشغوف الخبيث، إلى شيء ثمين معلّق في نهاية تلك السلسلة.

بالتأكيد كان تحت بلوزتها شيء ضخم بما يكفي لتعرف ما هو، وسيرتفع هذا الشيء نحو الجلد الحساس الأبيض فوق خط العنق المنخفض الذي بقيت عيناي مثبتتين عليه، آملاً رؤية ما فهمت أنني موعود برؤيته. لكنه لم يأتِ، لأن غالوشكا التي تتظاهر بأن حركاتها لا إرادية، تركت السلسلة تنزلق مجدداً في بلوزتها برشاقة أفعى. وكررت لعبتها مرة تلو أخرى، واعتمدت هذه المرة على أسنانها كي تسحب السلسلة رافعة رأسها

ببطء بحيث يبزغ الشيء المعلّق في طرف السلسلة من بئر نهديها ويصبح على حافة البلوزة تماماً. وفي لحظة الذروة هذه، وبينما تحمل السلسلة بين أسنانها المطبقة، قالت لي "أغلق عينيك!". وأطعت الأمر وأنا أعرف في سرّي ما سأراه عندما أفتحهما. لقد كانت كرة هذياناتي الحبيبة! قردي القزم! معلقة في طرف السلسلة مع حفنة من الميداليات الأخرى، لكن غالوشكا تركته ينزلق في بلوزتها كردّة فعل غريزية على محاولتي أن أحصل عليه. ومرة أخرى طلبت مني أن أغلق عينيّ بقوة أكبر. وأطعت الأمر وضغطتهما لدرجة شعرت فيها بالألم، كما ارتعشت مثل ورقة شجر بينما كانت تمسك يدي وتسحبها بحزم نحو صدرها وتزلقها تحت نهديها على الرغم من مقاومتي العنيدة. وشعرت بزر بلوزتها يتحرر من مكانه وبدأت يدي التي تخدّرت بسبب الدوار الذي حرّضه دفء جسدها الناعم جداً، تعطي إيماءات بطيئة ثقيلة خرقاء كسحلية تشعر بالنعاس.

وأخيراً أمسكت قبضة من الميداليات الدافئة واستطعت من بينها أن أشعر بوجود كرتي الصلبة التي لا يمكن أن أخطئها، والتي كنت أتوق لها.

لم أكن قد حظيت بالوقت الكافي لأتذوق معجزة الإمساك بكرتي حتى وصلني الضجيج الصاخب لصاعقة باخوس مجدداً، مما جعلني أغلق عينيّ بشدة متشنجاً من الغضب هذه المرة.

أوقعتني الصدمة عن مقعدي، ووجدت نفسي على الأرض إلى جانب غالوشكا التي كانت تجثو على أطرافها الأربعة، وأثناء سقوطي، قطعت السلسلة التي تركت أثراً عميقاً على عنقها الذي استطعت أن أرى بياضه والآثار التي تركتها السلسلة عليه تتلاشى تدريجياً.

تظاهرت بأني أبحث عن الكرة وحفنة الميداليات تحت المقاعد، لكن نظرتها الاستفهامية أوضحت لي أنها فهمت خدعتي فأعطيتها كنزي الذي احتفظت به حتى تلك اللحظة في ثنية طوق لباسي البحري الذي كنت أمسكه بقوة بيدي.

ثم ابتعدت عني وجلست على الأرض قرب شجرة كبيرة، مكونة اعتقاداً لدي بأنها كانت تداعب كرتي بنظرة اختلط فيها الخبث مع أكثر مداهنات الأمومة نقاء.

وبسبب إنهاكي وشعوري بالخزي بسبب كل ما حدث، بقيت متكئاً على مرفقي على مقعد تتراكم عليه ملابس وإكسسوارات تعود إلى سيدتين جميلتين جداً تجلسان إلى جانبي، وكانتا تضحكان بابتهاج وتثرثران مع جندي كان يتملّق إحداهما بالتأكيد. وعلى الكرسي نفسها، كانت قبعة الجندي الحمراء اللامعة، مثنية عدة مرات وتخفي تحتها سيفه الذي ينبثق جزئياً من كومة أشياء أخرى غير متجانسة، ويتباهى بمقبضه المتألّق الذي لفت انتباهي بشكل مذهل رغماً عني.

وحينها خطرت بذهني فكرة انتقام فظيعة، كما داهمتني الفكرة بقوة شعرتُ من خلالها بأن لا شيء في العالم يستطيع أن يثنيني عن تنفيذها. تحت تأثير الثبات والهدوء الذي يميز الأحكام التي لا تقبل النقض، ومن دون أدنى أثر لعاطفة واضحة، التفتُ نحو قمة المنحدر لأنظر إلى باخوس الذي كان قد وصل لتوه ساحباً دراجته خلفه متألماً.

وباللحظة ذاتها، انزلقت يدي لتصل إلى مقبض السيف محاولاً أن أستلّه تدريجياً. وانزلق السيف من غمده بنعومة ممتثلاً لحركاتي، وبنظرة ماكرة رأيت جزءاً من نصله الحاد يلمع. سوف يؤدي الغرض! وسوف أعاقب باخوس بشكل مريع!

ولكي أنجح في تحقيق ما عزمتُ عليه، سيكون من الضروري أن أتصرّف بتدبير وحذر بحيث يمكن لشغفي بالانتقام ممزوجاً بنوبة الغيرة التي أسيطر عليها، أن يجعلا الأمر ممكناً. ولإتمام عقوبتي بصرامة قصوى، عليّ أن أسحب السيف بكامله وأخفيه تحت ملابسي دون أن يراني أحد. كما يجب أن تتم هذه العملية التمهيدية من دون ملاحظة أي شخص وخاصة غالوشكا التي ستشعر بالرعب إن اكتشفت خطتي.

لقد كانت الشخص الأخير الذي أردت له أن يكشف أقل نية لدي بما يخص قراري القاسي، وكان هذا هو الشيء الأكثر صعوبة لأنها لم ترفع عينيها عني ولا للحظة واحدة.

وبعد أن أنجح بحمل هذا السلاح العاري بسهولة، سيبقى عليّ أن أستغلّ اللحظة المناسبة قبل اندفاع باخوس، كي أضع السيف بين مقعدين بطريقة أجرحه فيها بشكل قاس. كان الليل قد أرخى ظلاله، ولم يعد بإمكان باخوس، بسرعتة المتزايدة على المنحدر، وذلك الظلام الدامس، أن يدرك العائق القاتل أمامه. وحتى إن لمح لمعان السيف في لحظة ما في الظلام، فلن يكون قادراً على التوقف في اللحظة الأخيرة، سيكون الوقت قد تأخر جداً!

لكنني أدركت أنه من أجل استكمال خطتي الدموية بشكل سليم، علي أولاً أن أصرف انتباه غالوشكا المستغرقة جداً بالنظر إلي، وتستطيع أن تلاحظ أي حركة من حركاتي. ولهذ فقد انحنيت من جديد، وحبوت على أطرافي الأربعة، كما لو أنني انحنيت لألتقط كرتي مهما كلّف الثمن.

وتحت وقع مفاجأتها بموقفي الحازم، وضعت غالوشكا بسرعة مقعداً فيما بيننا، فأضرم هذا العائق رغبتي الحقيقية من جديد. ثم أدخلت رأسي وجذعي بين قضبان المقعد متظاهراً بأنني سأعبر من خلالهما، لكنني شعرت فوراً بأنني سجين في هذا الهيكل المعدني الذي أصبح فجأة فخّاً حقيقياً مؤلماً.

مع ذلك فقد بدت لي تلك الأنشودة الريفية في الظلام الدامس تحت المقاعد ممتعة أكثر وأكثر، على الرغم من تزايد إحساسي بعدم الراحة في سجني، كنت أرغب أن أعيش باقي أيامي في هذه المتاهة الخطيرة المربكة التي أثارت رغبتي إلى هذا الحد. وكنت أخشى أن تأتي اللحظة التي تصل فيه رومانسيتنا غير المشبعة إلى نهايتها.

غلوشكا، المرئية وغير المرئية، الغامضة بكل تفاصيلها والدقيقة في تعابيرها بالإجمال، والمخضّبة بومضات شيطانية مثيرة للقلق، أصبحت الآن هيئة روحانية لا مادية بسبب طمس كل التفاصيل التي عرضتها أمامي، غمزة صغيرة من ابتسامتها وغمزة من مرفقيها أو ركبتيها، قد التهمتهما النعومة الخارقة للظلال الليلية، والتي سمعتُ في أعماقها، ومن خلال أصوات الموسيقى، الصداح الملحّ المنعزل لبومة. وخلال الفواصل بين مقطوعة موسيقية وأخرى، يزداد الخجل لدينا فجأة. وعندها كنا نستمع إلى الصوت المنخفض لوقع خطوات تدبّ على الرمل الرطب الذي أصبح صاخباً أكثر من أشدّ أنّات الآلات الموسيقية حدة وصوتاً، والتي تفتتح بدورها السوداوية الجديدة دوماً لألحان جديدة، وتذيب خجلنا بالجرأة التي تزداد عنفاً لجهودنا الاستعراضية التي لا لبس فيها. غالوشكا، وبذريعة إخفاء كرتي وإظهارها، انتهت بحلّ أزرار قميصها بالكامل، وأصبح شعرها أشعث بسبب لفتاتها المتشنجة التي شكّلت قناعاً على وجهها، حيث تمكنتُ أن أتخيل بعضاً من الرضاب اللامع على الثغر المفتوح جزئياً بشكل شهي من خلال التنفس الذي زادته حالتها العاطفية الغريبة من لحظة للحظة. أما بالنسبة لي، فقط أفلحت جهودي أخيراً في تقريبي بضع سنتمترات بين القطبان للوصول إلى غالوشكا بينما كنت أسحب الكرسي باتجاهها. وعصرت القضبان جانبيّ بشكل مؤلم بسبب تعريتهما بانزلاق بلوزة البحار التي أرتديها.

ثم مدّت غالوشكا كرتي المحبوبة بحنان رائع حتى لامست شفتي، ثم سحبتها بحذر بينما بذلتُ جهداً مؤلماً آخر لأتقدم نحو الأمام قليلاً، وأصابني ألم حارق بسبب الدم الذي نزف من عظم وركي. وعندما أوشكت شفتاي أن تلامسا الكرة مجدداً سحبتها غالوشكا مرة أخرى! وبنظرة قاسية جعلت عيناي تفيضان بالدموع. لقد بقيت ثابتة في تلك

اللحظة في حالة جمود مطلق تقريباً. لكن طيف ابتسامتها الخبيثة لم يتلاشَ عن ثغرها، بل على العكس تماماً. لقد بدت مستقرّة على هذه الحالة ومدّعية أن السموّ يكمن في الشكل البيضوي لوجهها المعشوق.

على أية حال، وعلى الرغم من مظهرها المعبّر عن الجمود، إلا أنه يمكن للمرء أن يقول إنه كان بالإمكان إفسادها بسرعة. ومن دون أي شيء خارجي يعيق نظرتها الساخرة، رأيت ابتسامة النصر المستمرة تخبو بسرعة يمكننا أن نقارنها مع الصور المتحركة المتسارعة للتفتح سريع الزوال لزهرة.

بقيت غالوشكا على هذه الحالة والكرة تتدلّى من يدها. هي لم تكن تريد أن تسحبها ولا تريد أيضاً أن تقربها بأية طريقة. لقد عرفتها. وقد قرأت في نظرتها الثابتة يقين وعد، لكن من أجل هذا كان عليّ أن أتقدم أكثر.

وتمددت إلى الأمام بنشاط وجنون ورغبة، وبقوة نوبة عنيفة خارقة نجحت أخيراً في قضم قبضة الميداليات التي كانت كرتي معلّقة بينها.

في هذه اللحظة، شعرت بيد غالوشكا الصغيرة تنكمش كمخالب مشدودة لطائر صغير، تحتضن الكتلة الصغيرة، وتضغط بعنف، بل حتى بشراسة، عليٍ فمي النهم الذي اختلط مع الميداليات المشابهة للسكاكين، وشعرت فورا ببداية ذلك الطعم المعدني الحاد اللاذع الدموي للثتي الجريحة.

وفجأة، حدثت هزّة جديدة غير متوقعة وأكثر وحشية من سابقتها - لأن أحاسيسي التي وصلت إلى ذروتها، أصمّتني تماماً عن وصول باخوس - وارتطم رأسي بالأرض، انسلخت وجنتي على الرمل، وبدا جسدي العالق بين قضبان الكرسي وكأنه ينقسم إلى حزأين، أطلقت صرخة تنم عن الألم، ثم رفعت رأسي بشراسة نحو باخوس الذي أصبح وجهه الوردي فوقي تماماً، وكان يشعّ غيرة ويفيض بشاعة كعرف الديك.

ثم ابتعد عني وكان يوشك أن يتسلّق المنحدر مرة أخرى عندما استدار فجأة ورفس الأرض باحتقار مطلقاً غيمة من الغبار أعمتني

للحظة، وانطلق من جديد. كما تلقّت غالوشكا أيضاً صدمة من مقعدي وسقطت على بعد متر واحد مني.

وبدا أن هناك كدمة في وسط جبينها تماماً. وقد استرخت تماماً لتشعر بتلك البقعة المؤلمة، مذهولة بالضجّة الحالية. ومن خلال الوضعية المهملة لساقيها نصف المتباعدتين، والتي لم تعد تعرف أي حياء، اكتشفت للمرة الأولى أنها لم تكن تلبس سروالاً.

غمر ظل ناعم كالحلم الجزء الأعلى من فخذيها اللذين كانا غارقين في عتمة تنورتها البيضاء القصيرة، وعلى الرغم من العتمة التي تلاشت تفاصيلها فيها، شعرت أنها كانت عارية.

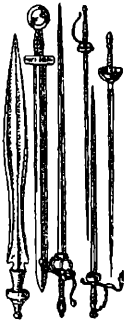

Épées

ثم ابتسمت إلي ونهضتُ، وكان انتقامي من يتخذ القرار هذه المرة.

ذهبت وجلست على المقعد القريب من السيف المحشور بين إكسسوارات السيدتين اللتين تابع الجندي الحديث معهما بينما استمرّ بتحديقه في عيني إحداهما. والسيدة الأخرى التي تظاهرت بأنها لا تعيرهما أي انتباه، كانت توجّه انتباهها إلى مكان آخر، متدخلة في المحادثة بملاحظات سريعة لا علاقة لها بالموضوع. كانت ترتسم على وجهها ابتسامة تواطؤ خبيث بدت مربكة جداً بالنسبة لي. ومن وقت لآخر ومن دون أسباب واضحة، كانت تلقي رأسها كثيف الشعر إلى الخلف، وتبتسم حينها ابتسامة تكشف عن أسنانها للجندي الذي كان في الوقت ذاته يمنحها نظرات الامتنان المهذبة كلما سنحت الفرصة.

اغتنمت لهو هذه اللعبة العاطفية التي أبقت الكائنات الثلاثة معلقين أحدهم بالآخر لأشق طريقي عبر سلسلة من الحركات الانسيابية نحو السيف، دون أن يلاحظوا وجودي.

كان عليّ أن أقوم بذلك كي أصل إلى السيف من المكان الذي أراه، لأني لا أستطيع أن أغير موضعي دون المخاطرة بفقدان رؤية غالوشكا. وبخطوات بطيئة متوالية، سحبت سلاح انتقامي الوشيك من باخوس.

وأخذت الحيطة أثناء لف منديلي حول يدي كي لا أجرح نفسي. وخبأت السيف خلف ظهري باضطراب خفيف لا يلغي تصميمي، واستخدمت قبعتي لأمنع غالوشكا من رؤية المقبض الظاهر من الجهة الأخرى من جسدي.

وبعد تلك العملية الأولى التي مكنتني من سحب السيف دون أن يراني أي شخص، أعدته بحذر تحت الأشياء التي كان بينها أصلاً، لكنه الآن خارج غمده ويشير إلى الاتجاه الصحيح. ولم يبقَ عليّ إلا أن أضعه كما أرغب بحيث يعترض هبوط باخوس في اللحظة المناسبة.

لكن عمليتي لم تُنجز تماماً حتى الآن. لقد سيطرت على عقلي حمى هائلة من الحسابات الدقيقة عندما شعرت بأن لحظة الإنجاز الحاسمة قد اقتربت. ثم ضاعفت كثافة نظراتي العاطفية نحو غالوشكا لتبقى ثابتة في مكانها. وكانت قد بقيت جاثمة في مكانها بعد الصدمة التي تلقتها في جبينها، ونجحت نظرتي المحمومة المعززة بالسطوة في الإبقاء عليها مشلولة، مما ولّد لدي شعوراً أكبر وأكبر بأنني المعلم المُطلق بينما كانت اللحظات تمر.

ودون أن أتحرك مليمتراً واحداً، انتظرت هبوط باخوس الوشيك. وعلى عكس كل التوقعات، وعلى الرغم من أنه أتى بالسرعة المذهلة ذاتها كالعادة، لم يقترب مني ليصدمني في هذه المرة، بل ترجّل عن دراجته وذهب إلى شجرة الدلب، ودون أن يتجرأ على النظر إليّ قال لي: "أين هي؟" ولم أجب. لقد عرف تماماً. ذهب خلف شجرة الدلب ووقف مدة طويلة ينظر بغباء إلى غالوشكا.

ودون أن تغير وضعيتها، وبينما كانت نظراتها تنصبّ عليّ، بدت وكأنها لا تراه.

وأخيرا قال باخوس لغالوشكا: "إن أريتني قرد دالي القزم فلن أفعل هذا مجدداً". وارتجفت وضغطت كرتي المحبوبة مع حفنة الميداليات على صدرها. وقال باخوس حينها: "لنلعب إذن!" فأجبته أنا "نلعب بماذا؟". فالتفت نحوي وقال بنظرة بغيضة من العرفان بالجميل لأنه افترض من سؤالي أنني سامحته، وكأنه يشعر بالفرح المتداخل مع خوف شخص متملق: "دعونا نحن الثلاثة نلعب لعبة الشرطة والحرامي!" وقلت له: "نعم، دعنا نلعب!" وبينما كنت أضغط قبضة يده بإحدى يديّ، كنت أضغط قبضة السيف باليد الأخرى. وسأل باخوس: "من سيبدأ؟" وقلت "الأطول بيننا". ووافق باخوس على هذا الشرط السخيف، لأنه كان أطول مني بشكل واضح.

قمنا بقياس أطوالنا على جذع شجرة الدلب، ووضعنا علامات تشير إلى أطوالنا باستخدام حصاة.

إذن، كان هو من عليه أن يبدأ ويتسلّق المنحدر ببطء كي يفسح المجال لي ولغالوشكا كي نختبئ.

وعندما وصل إلى القمة، كان عليه أن يندفع إلى الأسفل بسرعته القصوى على دراجته، وقد تحديته أن يقوم بذلك أسرع مما فعله في المرات السابقة، مستفزاً الجسد الحي المكتظ لكبريائه بيقين لا يخطئ.

رأيت باخوس ينطلق بلا مبالاة، يسحب دراجته خلفه ويتسلق المنحدر الذي يُفترض أن يكون قاتلاً بالنسبة له. وفي كل نظرة ماكرة أتطلع بها باتجاهه، أشاهد حجم أليتيه تتناقصان تدريجياً بحركاتهما الخرقاء التي يحدّها بنطاله المشدود بقوة. لقد نمت كراهيتي نحو محبوبي السابق مع كل خطوة من خطواته الخرقاء التي استطعت في تعاقبها المبهج المقيت أن أقرأ الإحياء التدريجي لضميره الصالح، بعد أن هدأت مياه الندم المضطربة لمصالحتي المنافقة الفاسدة.

خطر بذهني قول مأثور لـ (فيليب الثاني)، الذي قال مرة لخادمه: "ألبسني ببطء لأنني مستعجل".

وقد أسرعت من دون تردد كي أضع اللمسات الأخيرة التي لا غنى عنها "لنهاية" اللوحة المتألقة لإبداعي الدموي الوشيك، الذي كانت تغطيه جميع القوى المستحضرة لمخيلتي الإمبراطورية.

استغرقت في حساب دقيق استدعيت لأجله طاقات إخفائي القصوى بحيث أن غالوشكا استمرت بتصديق أنني مُشبع بالنشوة المصطنعة لتأملاتي، بينما كنت في الواقع مستحوذاً ببرود بحساب طول باخوس من العلامة التي سجلها على شجرة الدلب، آخذاً في الحسبان ارتفاع الدراجة التقديري، بغية التعرف على ارتفاع حلقه كي أستطيع توجيه سيفي بشكل دقيق وحاسم.

وكان عليّ أن أطمئن على مقاومة الكراسي التي وضعتها كركائز للسيف الذي وضعته كالجسر بينهما. ومن أجل هذا، جمعت المزيد من الكراسي وأوقفتها كدرع واق مما ضاعف الفعالية المخيفة لفخّي.

وقلت لغالوشكا: "إن باخوس قادم!" فجاءت إلي بسرعة كبيرة بحيث لم يكن لدي الوقت الكافي لأستكمل عملي الحاسم. وألقيت نظرة غاضبة على ذروة المنحدر حيث كان باخوس قد وصل للتو، وأصبح مستعداً لهبوطه السريع.

ثم ضغطت غالوشكا إلى صدري برغبة استبدادية، وأمرتها بألا تنظر. ثم وضعت السيف بين قضبان كرسيين، وكانت اللمحة الأخيرة مطمئنة لي ولمهمتي. لقد كان السلاح غير مرئي تقريباً وكان يلمع بشكل خفيف في الليل مع كل نبل العدالة البارد وغير الإنساني.

نستطيع الآن أن نسمع ضجيج دراجة باخوس وقد انطلق في هبوطه المجنون. علينا أن نهرب! لقد جذبت غالوشكا من يدها في مطاردة مسعورة خلال الحشد. وكافحنا كفراشات عمياء ضد تيار الحشد الذي كان في هذه اللحظة يبطئ من إيقاعه.

اقتربت أخر رقصة فلامينغو تم تنفيذها من دون استعداد، من نهايتها. توقفنا للحظة في النقطة التي مات فيها الحصان عند غروب

الشمس، ورأيت على الإسفلت بقعة دم هائلة الحجم على شكل طائر أسود بأجنحة ممدودة.

وفجأة أصبح الطقس بارداً، وبدأنا نرتجف بسبب العرق الذي كان ينساب منا. كنا قذرين بشكل لا يوصف، وكانت ملابسنا ممزقة بالكامل.

استطعت أن أشعر بقلبي ينبض من خلال الجرح الحارق في خدي المسلوخ الجلد. ولمست رأسي المليء بالانتفاخات، والتي سببت لي ألماً مقبولاً حلواً. كانت غالوشكا غاضبة، وكان تخثر الدم على جبينها يظهر الآن محاطاً بهالة زرقاء بنفسجية.

وباخوس؟ أين كان دمه؟ أغلقت عينيّ.

الفصل الخامس

ذاكرة الطفولة الحقيقية

أغلقت عيني ووجّهت عقلي إلى ذاكرتي الأكثر بعداً ليعود لـي بـأول صورة تظهر بأكثر الطرق عفوية، وبأقصـى حيويـة ممكنـة، وذلـك كـي أجعلها الصورة الابتدائية الأولى لذاكرتي الحقيقية. أرى...

أرى شجرتي سرو كبيرتين بالارتفاع ذاته تقريباً. الأولى التي إلى اليسـار هي الأقصر، تميل ذروتها بنعومة نحـو الشجرة اليمينيـة العموديـة بشـكل لافت. أرى هاتين الشـجرتين مـن خـلال نافـذة صـفي في مدرسـة الأخـوة المسيحيين في فيغوراس، المدرسة التي يُفترض أنها تلـت تجـربتي التربويـة

المؤذية في مدرسة السنيور ترايت. وكانت النافذة التي أنظر من خلال إطارها تُفتَح بعد الظهر فقط، لكنني من حينها فصاعداً، كنت أستغرق في تأمل تغيرات الضوء على تينك الشجرتين، والذي يرتفع بالتوازي معه، الظل المتموج قليلاً لبناء مدرستنا ذات الخطوط المستقيمة. وفي لحظة معينة، وقبل غروب الشمس مباشرة، تظهر القمة المدببة لشجرة السرو التي إلى اليمين متألقة بشدة بالأحمر الداكن كما لو أنها غُمِرت بالنبيذ، بينما الأخرى التي إلى اليسار، والتي أصبحت بكاملها في الظل، تظهر لي سوداء قاتمة. عندها كنا نسمع أجراس القداس، وكان الصف يقف كله، وكنا نردد الصلاة التي يتلوها المشرف برأس منحن ويدين متصالبتين أمامه.

تبدو الشجرتان في فترة بعد الظهر وكأنهما تذبلان وتحترقان في السماء كشعلتين داكنتين. وكانتا بالنسبة لي الساعة التي لا تخطئ والتي أصبحت بواسطتها مدركاً بطريقة ما لإيقاع الأحداث الرتيب في الصف، لأنه، وكما كانت الحالة في مدرسة السنيور ترايت، كنت غائباً بالكامل عن ذلك الصف الجديد، حيث إنه، بعيداً عن السماح لي بالاستمتاع بميزة النوم المبارك للسنيور ترايت العزيزة على قلبي، أصبح لدي الآن الوقت الكافي لأتغلب على المقاومة التي يُظهرها الأخوة في المدرسة المسيحية بحماس لا مثيل له، وعلى الحيل والاستراتيجيات التي يمارسونها التماساً لانتباهي وجذبه. لكن ذلك لم يُبرز سوى مقدرتي على إبادة عالمي الخارجي: لم أكن أريد من أي شخص أن يلمسني أو يتحدث إلي أو "يعرقل" ما كان يدور في رأسي. لقد عشتُ أحلام اليقظة التي بدأتها في مدرستي الأولى بالكثافة القصوى، لكن شعوري بأن تلك الأشياء معرضة للخطر، جعلني أتمسك بها بطريقة دراماتيكية أكثر، غارساً أظافري بها كما لو أنها لوح إنقاذ.

بعد انتهاء القداس، تغمر الظلمة شجرتي السرو. لكن حتى إن اختفت ملامحهما الخارجية في ظلمة الليل، يبقى الحضور الساكن

لشخصيتيهما اللامرئيتين راسخاً، وتستمر مغناطيسية مكانهما بتحريك رأسي المليء بالأحلام نحوهما من وقت لآخر، مع أنني لا أستطيع أن أراهما. وبعد انتهاء القداس، وفي اللحظة التي تسودّ النافذة فيها بسبب العتمة، يُضاء الممر المؤدي إلى قاعة الصف، عندئذٍ، ومن خلال الزجاج الموجود على الباب، أستطيع أن أراقب اللوحات الزيتية التي تزيّن الممر وتغطي كامل الجدران. وأستطيع من مقعدي تحديداً أن أرى اثنتين منها فقط بشكل مباشر: تجسّد الأولى رأس ثعلب يطلّ من كهف ويحمل إوزة تتدلّى من فكيه. والثانية كانت نسخة عن (Millet's Angelus)[1]. لقد سببت اللوحة في داخلي اضطراباً غامضاً قوياً لدرجة أن ذكرى هاتين الهيئتين الساكنتين لاحقتني لسنوات طويلة بشعور دائم من عدم الارتياح يثيره حضورهما المستمر والمبهم. لكن عدم الارتياح هذا لم يكن "كل شيء". فعلى الرغم من هذه المشاعر التي أثارتها (لوحة أنجيلوس) في داخلي، كان لدي إحساس بكوني تحت حمايتها إلى حدّ ما، وسطعت في أعماقي متعة سريّة مثل نصل سكين فضي صغير يلمع تحت أشعة الشمس.

خلال مساءات هذا الشتاء الطويل، وبينما انتظرت صوت الجرس لإعلان انتهاء اليوم الدراسي، كانت مخيلتي تحت الحراسة المستمرّة لخمسة حرّاس يجمعهم الخوف والإخلاص والسموّ: في الخارج وإلى يساري، شجرتا السرو. وإلى يميني الصورتان الظليتان لـ (لوحة

[1] تلك اللوحة التي تركت انطباعاً عميقاً في داخلي كطفل، اختفت تماماً من مخيلتي لسنوات، بمعنى أن صورتها توقفت عن ترك الأثر نفسه عليّ. لكن بشكل مفاجئ في العام 1929، وأثناء مشاهدتي للوحة مستنسخة عن لوحة (أنجيلوس) مرة أخرى، أُصِبتُ بالاضطراب العنيف والإزعاج العاطفي الأصلي ذاته. وتعهدت أن أجري تحليلاً منهجياً "للظواهر" التي بدأت تحدث حول اللوحة المشار إليها، والتي فرضت عليّ شخصية هوسية بشكل واضح. وبعد أن تم استخدام هذه اللوحة من نواحٍ مختلفة جداً، كعناصر ولوحات وقصائد وما إلى ذلك. كتبت في النهاية مقالة عن التفسير المرعب عنوانها، (the tragic myth of millet's Angelus – الأسطورة التراجيدية للوحة (أنجيلوس التي رسمها مايليت)، كتاب سرعان ما تم نشره وأنا أعتبره أحد المراجع الأساسية في الفلسفة الدالية.

أنجيلوس). وأمامي الإله متجسداً بشخص يسوع المسيح — أصفر، مصلوباً على صليب خشبي أسود ينتصب على طاولة الأخوة. وكان لدى المخلّص جرحان مريعان، واحد على كل ركبةٍ من ركبتيه، تمت محاكاتهما بشكل رائع بواسطة طلاء لامع جداً يكشف العظم عبر الجسد. وكانت قدما يسوع متسختين بالرمادي المقزز الذي أنتجته الملامسة اليومية لأصابع الأطفال، لأنه وبعد تقبيل يد المشرف الكثيفة الشعر، وقبل أن نؤدي إشارة الصليب على صدرنا قبيل مغادرتنا، على كل واحد منا أن يلمس قدمي يسوع المصلوب بأصابعه الملوثة بالحبر.

لاحظ الأخوة في المدرسة المسيحية استغراقي في النظر إلى الخارج. وقد كنت الوحيد الذي تمنحه النافذة تلك الطاقة السحرية المطلقة. ولهذا، فقد نقلوني من مكاني وحرموني من رؤية شجرتي السرو. لكنني تابعت النظر نحوهما بعناد، وكنت أشعر تماماً بالبقعة التي تقعان فيها كما لو أن رغبتي المكثفة منحت عيني القدرة على اختراق الجدران، وأخيراً كنت قادراً بجهودي التخيّلية على أن أعيد بناء كل شيء وفقاً لتوقيت الساعة التي نكون فيها الآن من يومنا، وأصبحت أعرف الوقت من مجريات الأحداث في الصف. كنت أقول لنفسي، "نوشك الآن أن نبدأ درس التعليم الشفهي، ولا بدّ أن تكون الظلال على الشجرة اليمينية قد وصلت إلى البقعة المحترقة من غصنها الجاف الذي تتدلّى منه قطعة قماش بيضاء. ولا بدّ أن تكون جبال البيرينيه بنفسجية اللون، وأن نافذة فيلا بيرتران البعيدة، كما لاحظتها منذ أيام، تشعّ الآن". كما أن وميض الضوء سيتألق فجأة مع واقع الألماس الناري للظلمة المميتة المتكونة في عقلي بسبب عذاب منعي من رؤية سهل (أمباردان) المحبب إلي، والذي شكّلت تضاريسه الفريدة وحيويته المطلقة، الفلسفة الكاملة للمناظر الطبيعية الداليّة.

وسرعان ما أدركت أن نقلي للجلوس خارج مشهد النافذة لم يكن له الأثر الذي كان متوقعاً أن يكون. بل على العكس تماماً، لقد حافظت تماماً على عدم اهتمامي متشبثاً بمتعتي التي بدأت تلهمني.

أثناء تناولنا الغداء في أحد الأيام، خلق والدي حالة رعب عام، عندما قرأ بصوت عال تقريراً من أساتذتي، يشيرون فيه إلى لطفي وانضباطي المثالي، ويذكرون باستحسان أنني أمضي فترات استراحتي بعيداً عن الألعاب الصاخبة سارحاً متأملاً في لوحة ملونة (أنا أعرف أي لوحة منها)[1] موجودة على غلاف قطعة شوكولا. لكنهم استنتجوا بقولهم هذا: أنني أقع تحت سيطرة نوع من الكسل العقلي المتجذر عميقاً بحيث من المستحيل تقريباً أن أنجز أي تقدم في دراستي". وأتذكر أن والدتي قد بكت في تلك الليلة. والحقيقة أنني وبعد سنة إضافية في المدرسة، لم أتعلّم حتى خمس ما تعلّمه زملائي في تلك الفترة. وقد أُجبرتُ على أن أبقى في الصف ذاته إلى أجل غير مسمى، بينما تقدم الآخرون في سُعار تنافسي مجنون لتحقيق درجات جديدة على سلّم التسلسل الهرمي اللزج والزلِق. وأصبحت عزلتي أشبه بفكرة ثابتة منهجية حيث تظاهرت بأنني لا أعرف حتى الأشياء التي أصبحت أخيراً، وبشكل تدريجي ورغم أنفي، مندمجة في عقلي. وكمثال على ذلك، بقيت أكتب بلا مبالاة على صفحة تنتشر عليها البقع والحروف غير المرتبة بشكل يدعو للحيرة. وكنت أفعل ذلك لغاية معينة وهي أنني كنت أعرف فعلاً كيف أفعل هذه الأمور بشكل جيد.

وفي يوم ما وعندما تلقيت مفكّرة ذات أوراق حريرية ناعمة جداً، اكتشفت فجأة متعة الكتابة بصورة صحيحة. وبقلب ينبض، وبعد أن بللت رأس القلم بلعابي بضع ثوانٍ، شرعت بإنشاء أعجوبة من الانتظام

[1] الصورة المتدينة التي تمثل استشهاد المكابيين. (والمكابيون: هم أتباع عائلة الزعيم اليهودي يهوذا المكابي الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد). المترجم.

والأناقة حائزاً على جائزة فن الخط، كما تم وضع الأوراق التي كتبت عليها في إطارات يغطيها الزجاج.

لكن الدهشة التي نتجت عن التغير العجيب المفاجئ لخط يدي، دفعتني في طريق الغموض والمحاكاة الذي كان وسيلتي الأولى نحو "التواصل الاجتماعي". ولكي أتجنّب الترتيل عندما أشعر أن المشرف سيطلبه مني حتماً خلال الدرس، قفزت من مكاني وألقيت كتابي الذي تظاهرت لساعة سابقة بأنني أدرسه باهتمام عميق مع أنني لم أقرأ سطراً واحداً منه في الواقع.

وبعد هذا التصرّف الذي بدا وكأنه صادر عن قرار لا يتزعزع، وقفت على المقعد، وجعلت نفسي كما لو أني مُصاب بالذعر، ورفعت ذراعيّ متظاهرا بأنني أحمي نفسي من خطر مرئي ما، واستلقيت على مقعدي، وحشرت رأسي بين يدي، بشكل أُظهر فيه أنني أرتعش من الخوف. وحصلت من هذه الحركة الإيمائية على إذَن يسمح لي بأن أخرج إلى الحديقة كي أتمشى. وعندما عدت إلى صفي، قدّموا لي شاي الأعشاب الساخن الذي تفوح منه رائحة قطرات زيت الصنوبر. وتم إبلاغ أهلي بظاهرة هلوستي الزائفة، ولا بدّ أنهم تلقوا نصيحة من إدارة المدرسة بمضاعفة الاهتمام الخاص بشخصيتي. وهكذا، فقد أحاط أيامي في المدرسة جو من الاهتمام الاستثنائي وكفّ المشرفون كلهم عن محاولات تعليمي أي شيء.

وكنت فوق كل ذلك، أذهب إلى الطبيب بشكل متكرر (إنه الطبيب نفسه الذي كسرت نظارتيه قبل عدة سنوات عندما أراد أن يثقب حلمتي أذني أختي). وفي ذلك الوقت كنت أتعرّض لنوبات دوار حقيقية بعد أن أركض بسرعة كبيرة على الأدراج صعوداً أو هبوطاً. كان لدي رُعاف متكرر، وكنت بشكل دوري، أُحتجز في سريري بسبب الخنّاق. وهذا يتخذ المسار ذاته دائماً: يوم من الحمى وأسبوع من النقاهة مع حرارة مرتفعة بشكل طفيف فقط. وخلال هذا الوقت، أقوم

بوظائفي الطبيعية في غرفتي، وتُحرق أوراق نبات (الأرمينيا) المخضّبة بالأرجواني والعابقة بالبخور لإزالة الرائحة السيئة، وعندما تنفد أوراق البخور، يتم إحراق السكر الذي كان ألذّ بكثير. وكنت أحب أن أُصاب بالخناق! وكنت أتطلّع بفارغ الصبر إلى تكراره — أي فردوس كنت فيه أثناء النقاهة! كانت (لوسيا) ممرضتي العجوز، تأتي وتبقيني برفقتها طوال فترة بعد الظهر، وكانت تأتي جدتي وتعمل في الحياكة قرب نافذة غرفتي: ووالدتي ذاتها كانت تأتي مع معارفها الزائرين إلى غرفتي، وكنت أستمع إلى قصص لوسيا بإحدى أذني، وأنصت بالأذن الأخرى لطقطقة المدفأة المشتعلة الكثيرة الحطب وأحاديثها. وإن حدث وارتفعت حرارتي بشكل طفيف، يختلط كل ذلك بنوع من الواقع الضبابي الذي يهدهد قلبي ويخدّر رأسي، وتبدأ خلاله، بحسب أغنية لوسيا، تلك الملائكة المجنحة البيضاء بالومض أمامي بروعة مرهقة.

كانت لوسيا وجدتي بشعرهما الأبيض وبشرتهما التي لم أر مثلها نعومة وتجعيداً في حياتي، من أكثر النساء العجائز أناقة. وكانت الأولى ضخمة الجثة وتبدو مثل (البابا)، بينما كانت جدتي نحيلة مشابهة لبكرة خيوط بيضاء صغيرة. أنا أعشق العجائز! أي تباين كان بين مخلوقتي "الحكايات الخرافية" هاتين، بين هذا الجسد المشابه "للورق النفيس" الذي كان مكتوباً عليه مخطوطات حياتهما الكاملة المطموسة، وبين أجساد زملاء الدراسة الجافة الحديثة الصناعة اللاواعية واللا مبالية، والتي لم تعد تتذكر أبداً أنها قد أصبحت هرمة منذ أن كانت في مرحلتها الجنينية. ومن جهة أخرى فقد تعلّم الكبار بالسن مرة أخرى كيف يصبحون عجائز من خلال تجربتهم الشخصية، والأهم من ذلك أنهم يتذكرون كيف كانوا أطفالاً.

لقد أصبحت، لقد كنتُ وتابعت عيش حياتي مجسداً "مناهضة الفاوستية". كما أنني عشقتُ كطفل، تلك الهيبة النبيلة لكبار السن،

ووهبت جسدي كله ليكبر على الفور ويصبح مثلهم! لقد كنتُ "مناهضاً لفاوست". تعيس هو من اكتسب العلم الأسمى لكبار السن، وباع روحه كي لا يتجعّد جبينه، واسترد الشباب اللاواعي لجسده! دع متاهة التجاعيد تفتح طريقها في جبيني بالحديد الأحمر الحالي لحياتي الشخصية، دع شعري يشيب، ودع خطوتي تصبح مترددة، بشرط أن أستطيع أن أحافظ على ذكاء روحي — دع روح طفولتي غير المتشكلة تتولى الشكل الجمالي والعقلي للبناء المعماري بينما هي تكبر، دعني أتعلم كل شيء لا يستطيع أي شخص آخر أن يعلمني إياه، ودعني أتعلّم ما تستطيع الحياة وحدها أن تنقشه بعمق في جلدي! كان الحيوان الناعم الجلد لطفولتي بغيضاً بالنسبة لي، وكنت أرغب بأن أخدشه بقدميّ المزودتين بكعبين معدنيين مصقولين. لأنه وفي عقلي، لم تكن الرغبة والعلم إلا شيئاً واحداً مفرداً ومميزاً، وقد عرفت سلفاً أن تآكل الجسد وتراجعه هو فقط ما يقربني من التنوير والبعث. في كل من تجاعيد لوسيا أو جدتي، أقرأ قوة تلك المعرفة الحدسية التي تعمل المحصّلة المؤلمة للمتع المختبرة على إيصالها إلى السطح، والتي كانت سلفاً قوة جراثيم الشيخوخة المبكرة التي تجعّد بشرة الجنين، القوة التي لا يُسبر غورها، القوة العربيدية الباطنية لـ "مينيرفا"، القوة التي تجدل مئات محاليق براعم كبار السن على عرائش الكرمة الفتية التي سرعان ما تطمس ضحكة ديمومة شباب الطفل الذكي ووجهه المعوق خلقياً.

وللتأكيد، أنا لم أحرز تقدماً في تسلّق سلّم مادة الرياضيات المؤلم، ولم أنجح في الحسابات المرهقة المريضة لعملية الضرب. ومن جهة أخرى، أنا، سيلفادرو دالي، في التاسعة من العمر، لم أكتشف فقط ظاهرة "التنكر البيئي"[1]، بل اكتشفت أيضاً النظرية الكاملة العامة لتوصيفها!

---

[1] التنكر البيني أو المحاكاة: التشابه الذي تتخذه كائنات حية معينة، إما مع البينة التي تجد نفسها فيها، أو مع نوع آخر أكثر حماية أو لتلك التي تعيش على حسابها.

في ذلك الصيف في كاداكيس، كنت أراقب صنفاً من النباتات التي تنمو بكثرة على الشاطئ. وإن كنت ترى تلك النباتات من مسافة قصيرة، تجد أنها تتألف من وريقات صغيرة غير منتظمة تستند على جذع ناعم جداً بحيث يحركها أقل هبوب للريح ويجعلها ترتعش باستمرار. وفي يوم ما، صدمتني رؤية بعضها تتحرك باستقلالية عن الباقي، وذُهلت عندما أدركت أنها مشت! وعندئذٍ، عزلت (الحشرة الورقة) الصغيرة الغريبة عن الباقي لأراقبها في أوقات الفراغ وأتفحصها بدقة. وبرؤيتها من الخلف، كان من المستحيل أن تميزها عن الأوراق التي تعيش بينها، لكن إن قَلَبها المرء على بطنها، لا يظهر هناك أي اختلاف عن أية بتلة من البتلات الأخرى، باستثناء أرجلها التي بدت دقيقة بشكل غير عادي، وغير المرئية بالحالة الطبيعية. لقد شكّل اكتشاف هذه الحشرة انطباعاً متطرفاً لدي، لأنني اقتنعت بأنني اكتشفت واحداً من أكثر أسرار الطبيعة غموضاً وسحراً[1]. وليس هناك أدنى شك بأن اكتشاف هذا "التنكر البيئي" الحساس، قد أثّر من حينها فصاعداً على بلورة الصور الرُهابية غير المرئية التي سكنت لوحاتي كلها بحضورها الوهمي. وبسبب غروري الناتج عن اكتشافي ونشوتي، فقد استخدمته من أجل الإبهار. وقد أعلنت أنه بفضل سحري الخاص، اكتسبت القدرة على إحياء ما هو ليس حياً. ثم أخذت ورقة من أوراق النبتة واستبدلتها بـ (الورقة الحشرة) بخفة يدي، ووضعتها على طاولة غرفة الطعام، وبدأت أضرب على الطاولة بحجر دائري أحضرته معي كأداة لها قوة سحرية توشك أن تهب الحياة لتلك الورقة.

واعتقد الجميع في بداية العملية أنها تتحرك بسبب الاهتزاز الذي اصطنعته حولها. لكنني بدأت حينها بتخفيض كثافة الضربات حتى

---

[1] يمكن مقارنة الصورة غير المرئية لفولتير من جميع النواحي بمحاكاة المحيط التي تقوم بها "الحشرة الورقة" وتجعلها غير مرئية بسبب التشابه والالتباس بين الشخصية والخلفية.

وصلت إلى نقرات خفيفة لا تؤثر على "الحشرة الورقة" الصغيرة التي كانت مستقلة ومتمايزة بشكل واضح.

ثم توقفتُ عن النقر على الطاولة، فأطلق الناس صيحة إعجاب وذهول لأنهم شاهدوا الورقة تتحرك فعلاً. كما قمت بالتجربة مراراً، وخاصة أمام الصيادين. وارتبك كل من كان متآلفاً مع النباتات في تلك المنطقة إلا أن أحداً لم يلاحظ الظاهرة التي اكتشفتها على الرغم من انتشار هذا النوع من النباتات. وبعدها بوقت طويل، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عام 1914، ورأيت أول سفن مموهة تعبر أفق كوداكويز، دوّنت في مفكرتي انطباعاتي الشخصية وتذكري لشيء ما كما يلي— "لقد وجدت اليوم تفسيراً لـ (morros de con)[1]— لأن هذا هو ما أسميت به (حشرتي الورقة) عندما رأيت قافلة السفن المموهة البائسة تعبر. من أي شيء كانت تحمي حشرتي نفسها عندما تبنّت هذا النوع من التمويه والتخفي؟"

لقد كان التخفي أحد أهم الأمور التي أشعر بالشغف نحوها عندما كنت طفلاً. وكما هطل الثلج في اليوم الذي رغبت فيه أن يتحوّل المشهد في فيغوراس إلى مشهد مشابه في روسيا، حدث في يوم ما، وعندما كنت أتوق إلى أن أشيخ بسرعة، أن تلقيت هدية من أحد أعمامي في برشلونة، وكانت عبارة عن رداء ملكي من فرو القاقم وصولجان ذهبي وتاج يتدلّى منه شعرٌ أبيض مستعار كثيف ومهيب .

ونظرت إلى نفسي في تلك الليلة في المرآة وكان الرداء معلقاً على كتفي بينما كان باقي جسدي عارياً تماماً. ثم دفعت أعضائي الجنسية إلى الخلف وحشرتها بين فخذي لأبدو مشابهاً للفتيات قدر الإمكان. وكنت

[1] إن لهذا الاسم مضموناً إباحياً عالياً جداً في كاتالونيا ومن المستحيل أن تتم ترجمته. إنه يدل على جزء من الأعضاء الجنسية للمرأة، ويستخدمه الصيادون والفلاحون للإشارة إلى شخص أو شيء خبيث وماكر بشكل غير طبيعي.

في تلك الفترة معجباً بالفعل بأشياء ثلاثة: الضعف، الشيخوخة، والترف. لكن فوق هذه الأشياء الثلاثة الممثلة "للأنا" كان "الشعور الاستبدادي بالعزلة المطلقة" يُطبق علي بقوة هائلة مترافقة دوماً مع مشاعر أخرى تعمل كإطار خارجي طقسي له، وأعني هنا — إحساس "السموّ"، ورغبة البقاء في "الذروة".

تسأل والدتي أحياناً: "ما الذي ترغب به يا حبيبي؟ ما الذي تريده؟ وأنا أعرف ما كنت أريده. كنت أريد إحدى غرف الغسيل الموجودة على سقف المنزل، والمفتوحة على شرفة كبيرة، والتي لم تعد تُستخدم كغرفة غسيل بل كانت مستودعاً وحسب. وقد حصلت عليها يوماً، وسُمِحَ لي باستخدامها كمرسم. وقد أخرجت الخادمات كل شيء منها ووضعنه قرب قنّ الدجاج. وفي اليوم التالي، امتلكت غرفة الغسيل الصغيرة التي يحتلّ حوضها الإسمنتي فراغها بأكمله تقريباً باستثناء منطقة ضيقة مخصصة لوقوف المرأة التي تغسل. لكن المساحة الصغيرة لأول مرسم لي يتوافق تماماً مع متع ذكريات داخل الرحم، التي وصفتها في مذكراتي عن تلك الفترة.

ثم أثثت الغرفة على الشكل التالي: وضعت كرسياً في وسط الحوض الاسمنتي، ووضعت اللوح الخشبي العمودي (كان موجوداً لحماية ملابس المرأة التي تغسل من الماء) بشكل أفقي في أعلى الحوض بحيث يغطيه جزئياً. وكان هذا طاولة عملي! وأحياناً، في الأيام الحارة جداً، كنت أخلع ملابسي وأفتح صنبور الماء القادم من خزان علوي معرض لأشعة الشمس، فيغمرني الماء حتى الخصر. وقد تركت المساحة الفارغة كلها ما بين حوض الغسيل والجدار من أجل ترتيب الأشياء الأكثر غرابة، وقد أصبحت الجدران مغطاة بلوحات رسمتها على أغطية صناديق القبعات المصنوعة من الخشب الطري التي كنت أسرقها من متجر عمتي كاتلينا. وكانت اللوحتان الزيتيتان اللتان وضعتهما في

الحوض: الأولى تمثل مشهد "لقاء يوسف مع أخوته"، وكانت من مخيلتي بالكامل أما الثانية فكانت إلى حدّ كبير، مسروقة من صورة موجودة في ملخّص كتاب "الإلياذة" الملون الصغير، وتُظهر (هيلين)[1] طروادة بمقطع جانبي تنظر في الأفق. كان العنوان "وكان قلب هيلين النائم مليئاً بالذكريات.." في هذه اللوحة (التي حلمت بصفقة رائعة بشأنها)، وعلى حافة الأفق تقريباً، رسمت برجاً عالياً جداً تعلو ذروته شخصية نحيلة جداً. كنت أنا بالتأكيد! وإلى جانب تلك اللوحات، كان هناك أشياء أخرى مثّلت سلفاً أجنّة لتلك العناصر السريالية التي اختُرعت لاحقاً في العام 1929 في باريس. كما أنجزت في تلك الفترة نسخة من منحوتة (فينوس ميلو – Venus of Milo) من الصلصال. وقد حصلت من محاولتي الأولى هذه في النحت، على متعة إثارة جنسية رائعة وواضحة. وقد أحضرت إلى مرسمي مجموعة "Art Govens" الفنية كلها. كما كان للكتب المصورة الصغيرة التي كان والدي يهديها لي من وقت لآخر الأثر الكبير الحاسم في حياتي. وقد عرفت عن ظهر قلب، جميع لوحات تاريخ الفن التي كانت مألوفة لي منذ نعومة أظفاري، لأنني كنت أمضي وقتي كله في تأملها. كما جذبتني صور العُراة قبل كل شيء، وبدت لي لوحة دومينيك إنغريس "العمر الذهبي:، اللوحة الأكثر جمالاً في العالم، كما وقعت في غرام الفتيات العاريات اللواتي يمثلن النافورة.

[1] كان يُفترض أن يكون هذا اسم زوجتي.

١- **ذكريات داخل الرحم**

- لوحة "الحمام التركي" التي رسمها دومينيك إنغريس هي انطباع بارز لأواع لفردوس داخل الرحم.
- صورة دالي بوضعية النوم داخل إطار بيضة. المصور: إف. هالسمان.
- "عائلة القناطير الجرابية" التي رسمها دالي في العام ١٩٤٢، يمكن للأطفال أن يخرجوا من الجيب ويعودوا إليه، فردوس الرحم الأمومي.

معظم اللوحات ذات الشكل الدائري تسيطر عليها عناصر الوعي لفردوس داخل الرحم.

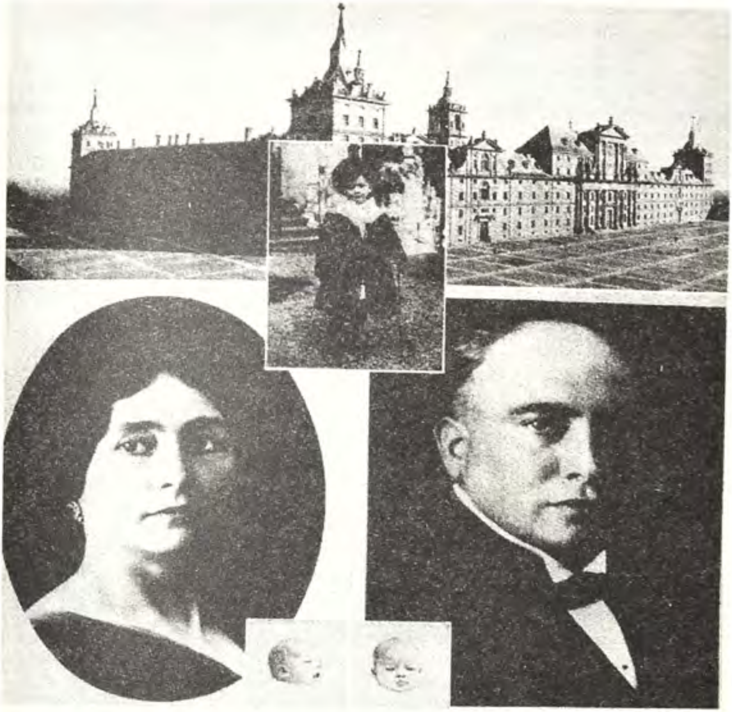

ميراث العائلة

- دير (إل إيسوريال): لقد ترك جماله المعماري أثراً كبيراً على عقل دالي الطفل.
- صورة دالي الطفل إلى جانب السيد بيتشوت. وفيليب دومينيك، ووالدة سيلفادور دالي.
- سيلفادور دالي كوزي، والد سيلفادور دالي.
- دومينيك سيلفادور دالي كرضيع.

إن ذكرت كل ما عشته في حوض الغسيل فلن أنتهي أبداً، لكن هناك شيء واحد مؤكد وهو أن أول رشة ملح، وأول رشة فلفل لفكاهتي قد خُلِقت في هذا المكان. وقد بدأت بالفعل باختبار نفسي ومراقبتها بينما تترافق غمزات عيني الحسية، بابتسامة خبيثة باهتة، وكنت مدركاً

بشكل غامض ومرتبك أنني سأصبح عبقرياً. أوه يا سيلفادور دالي! أنت تعرف هذا الآن! إن لعبت دور العبقرية فسوف تصبح عبقرياً!

لم يتعب والداي من الإجابة على سؤال ثابت كان أصدقاؤهما يسألونه أثناء زيارتهما: "وسيلفادور؟" "سيلفادور صعد إلى السطح. هو يقول إنه أسس ستوديو للرسم في غرفة الغسيل! وهو يمضي فيه الساعات والساعات لوحده!" "في الأعلى!" كانت تلك العبارة الأكثر روعة! وكانت حياتي كلها محددة بين هاتين الفكرتين المتعارضتين، الأعلى والأسفل. ومنذ طفولتي المبكرة سعيت بيأس لأكون في "الأعلى". لقد وصلت إلى الأعلى، وبما أنني الآن في الأعلى فسوف أبقى في الأعلى حتى أموت.

لطالما شعرت بالارتباك الأخلاقي أمام أسماء المجهولين في المقابر، تلك الأسماء المنقوشة بشكل متناظر لا يمكن العثور عليه هناك.

كم هو ساحر أن تكون قادراً على الهروب من غرفة معيشة الأهل وتركض بجنون على الدرج المؤدي إلى سطح المنزل، وعندما أصل إلى هناك، أغلق باب غرفتي خلفي وأشعر بحصانة ملجأ عزلتي ومِنعته. وما إن أصل إلى السطح، حتى أشعر بنفسي أنني أصبح من جديد فريداً من نوعي. إن المشهد البانورامي الممتد تحت قدمي لمدينة فيغوراس، يساعد بطريقة ملائمة لمحاكاة الغرور والطموح اللامحدودين لمخيلتي المسيطرة. لقد كان منزل والديّ أحد أعلى المنازل في البلدة. والمشهد البانورامي الممتد حتى (باي روزاس) بدا وكأنه يخضع لي ويعتمد على نظرتي. كنت أستطيع أيضاً أن أرى خروج طالبات (كلية الأخوات الفرنسيات)، أولئك الفتيات الصغيرات اللواتي جعلنني أشعر بالخجل عندما مررت بهنّ في الطريق، واللواتي لا أشعر بالرهبة منهن الآن، حتى ولو كن يقفن أمامي وينظرن مباشرة إلي.

كان هناك لحظات أتوق فيها بمرارة كي أخرج من غرفتي وأدخل الشوارع، وأشارك في الاختلاط المربك المثير للشهوة الجنسية لألعاب

الليل. وكنت أسمع صيحات الفرح من الأطفال الآخـرين، والمجهـولين والأغبياء والبشعين والوسـيمين، ومـن الصـبيان أيضـاً والفتيـات بشـكل خاص، تصل إلي من الأسفل، وتتثبت بإحكام مثل سهم في وسط اللحم الحار لصدري الذي يحتوي على كبرياء هائلة. لكن لا! لا! ومرة أخرى لا! ولا لأي شيء في العالم! أنـا سـيلفادور، أعـرف أن علـيّ أن أبقـى هناك، جالساً في الباطن الرطب لحوض الغسيل، وأعـرف أنـني الطفـل الأكثـر عزلـة، محاطـاً فقـط بالكائنـات الخرافيـة المتقلبـة السـاخطة لشخصيتي المحرّمة. وبالإضافة لذلك، كنت عجوزاً سلفاً! ولأؤكد ذلـك لنفسي، كنت أضع قسرياً ذلك التاج الملكي مع الشعر المستعار الأبـيض على رأسي، والذي نقش في جبـيني خدشـاً أحمـر دمويـاً، لأنـني لـن أعترف بأن رأسي كان يكبر!

وكنت أخرج مـن غـرفتي مـع ظهـور الشـفق، كانـت تلـك لحظـتي المفضـلة! ويتـداخل طـيران السـنونو السـاكن النـاعم مـع طـيران حـرج متذبذب لخصم آخر – طيران الخفافيش. علاوة على ذلك، كنت أنتظر طويلاً من أجل اللحظة التي أخلع فيها تاجي الذي أصبح ضيقاً جـداً، ويسبب لي ألماً قد يصل إلى حدّ الصداع الحقيقي الذي لا يـرحم. أسـير جيئة وذهاباً على طول الشرفة وأقول لنفسي: "قليلاً بعد!" محـاولاً أن أطيل فترة تأملاتي بـبعض الأفكـار السـامية. وفي تلـك اللحظـات الـتي أستاء فيها من الألم، كنت ألقي خطاباً بصوت عـال باسـتخدام طريقـة الإلقاء الطنانة، بحيث أصبح مشبعاً بحنان شغوف رائع نحو ذاتي [1].

---

[1] وبعد ذلك، أدركت أنني كنت أقف في محاضراتي كلها بشكل تلتوي فيه قدمي وتؤلمني، وبحيث يمكن أن يتفاقم الألم حسب إرادتي. وفي إحدى المرات، وعندما تزامن هذا الالتواء المميز مع ارتدائي حذاء ضيقاً بطريقة مؤلمة، وصلت بلاغتي إلى ذروتها. في حالتي الخاصة يعزز الألم المادي الفيزيائي بلاغتي، ومن هنا فإن ألم الأسنان غالباً ما يطلق العنان بداخلي لفورة خطابية.

لحقت خطبي إحداها الأخرى بطريقة أوتوماتيكية نقية، وكانت كلماتي في أغلب الأحيان مناسبة لتيار أفكاري. وبدت الأخيرة بالنسبة لي تحقق ذروة سامية، كنت منفعلاً باكتشافي في كل ثانية، وبإلهام شديد جداً، وبشكل لا يقبل الخطأ، سرّ كل شيء وأصله ومصيره. ثم أضاءت المدينة أنوارها تدريجياً، وأثارتني الأغنية الإيقاعية الرتيبة للصراصير والضفادع عاطفياً، وسمت بذكريات الربيع السابق الكئيبة فوق الشفق الحالي. لم يؤدِ الظهور المفاجئ للقمر إلا إلى زيادة نشوتي لحدها الأقصى، فوصل اضطراب جنون عظمتي إلى سوية أنانية هذيانية شعرت معها بأنني ارتقيت ذرا النجوم التي لا يمكن الوصول إليها، كما حققت نرجسيتي نسباً قاربت سوية الخيالات الكونية. وبلحظة كهذه، تدفّق فيض من الدمع الذكي الهادئ واسترضى روحي. وشعرت لبعض الوقت أن في يدي المنقبضة شيئاً صغيراً رطباً وغريباً. نظرت مذهولاً: لقد كان عضوي.

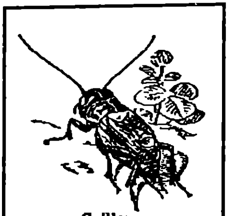
Grillon.

وأخيراً نزعت تاجي وفركت بشيء من المتعة، الألم السريع الخفيف الناتج عن الكدمة التي سببها التاج بعناقه الطويل لجبهتي. ومع أنني لم أكن أشعر بالجوع فقد نزلت إلى غرفة الطعام منهكاً، وبدوت مريضاً جداً لدرجة أرعبت والديّ. نظرت إلي والدتي متسائلة. "لماذا لست جائعاً؟ ما الذي يريده حبيبي؟ لا أستطيع أن أحتمل النظر إلى حبيبي! إنه شاحب، إنه أخضر!"

Grenouille.

أخضر أم لست أخضر، أريد أن أصعد إلى السطح كلما سنحت الفرصة، وفي يوم ما صعدت إلى سقف الغرفة الصغيرة، وشعرت بالدوار للمرة الأولى في حياتي عندما أدركت

أن ما من شيء يقف بيني وبين الفضاء الفارغ. واضطررت للبقاء للحظات منبطحاً على بطني وعيناي مغلقتان لأقاوم الجاذبية التي لا تُقهر تقريباً، والتي شعرت بأنها تسحبني نحو الهاوية.

ومن حينها فصاعداً، لم أكرر هذه التجربة أبداً. لكن جلساتي الطويلة داخل حوض الغسيل كانت تزيد من إحساس الدوار الذي شعرت به يقبع فوق رأسي ولا يحميني منه سوى سقف غرفة الغسيل، بينما يقوّي في الوقت نفسه، وبنموذج مَلَكي، الإدراك المترنح لارتفاع عرشي الإسمنتي الذي شعرت بأنه أعلى من أي شيء آخر منذ تجربتي مع الدوار.

ما هو العالي؟ العالي هو الوضع المعاكس تماما للمنخفض: يكون لديك تعريف محدد واضح للشعور بالدوار! وما هو المنخفض؟ المنخفض: هو الفوضى، الحشود، الاختلاط، الطفل، الحالة المشتركة لحماقة الإنسان المبهمة، الفوضى، المنخفض هو اليسار. وإلى اليمين في الأعلى، يجد المرء الحكومة المَلَكية، القباب، التسلسل الهرمي، يجد العمارة ويجد "الملاك". لقد سعى جميع الشعراء إلى شيء واحد فقط: الملاك. لكن رذيلة سلبيتهم الفكرية قد أبركتهم وحرفت أذواقهم وحوّلتهم لملائكة أشرار. وإن كان صحيحاً دوماً أن روح الشرّ التي تحرك ملائكة (الشعر الريبودي والمالدوري)، فهذا يرجع إلى الحقيقية الوحيدة الفريدة التي تقوم على عدم التأقلم مع الواقع، وهذا من طبيعة الشعراء. أما الرسامون من جهة أخرى، وبما أن أقدامهم أكثر ثباتاً على الأرض، فهم ليسوا بحاجة لكي يتلمّسوا طريقهم في العمى، ومع امتلاكهم وسيلة الإلهام الأسمى بكثير من التي لدى الشعراء — أعني العين — فهم لا يحتاجون إلى الاستعانة بتشوهات الانهيار العقلي الذي لا بدّ أن يقع الشعراء فيه. ولهذا السبب فإن الرسامين هم فقط القادرون، وسيكونون قادرين على أن يظهروا لك الملائكة الحقيقية والآلهة الحقيقية، كما فعل رفائيل بواقعية كبيرة وإحساس جيد من

أعالي ذراه الأوليمبية الإمبراطورية لعبقريته السماوية. وكما بالنسبة لي، كلما أصبحت هذيانياً أكثر أصبحت عيناي أكثر إدراكاً.

وهكذا، لتلخيص ما قلته، كنت هناك في بداية التاسعة من عمري، كنت الطفل الملك، ولدي رعاف دائم، وأجلس دائماً في حوض الغسيل على سطح المنزل، في الذروة! أما في الأسفل، فهناك الجسد البيولوجي والأنوف المشعرة. هناك المايونيز، وأرواح المَطهر، هنا الأطفال البلهاء الذين تعلّموا أي شيء تريده، وهناك السمك المسلوق، إلخ، إلخ. وبالنسبة لي، لن أنزل شارع الأرواح مرة أخرى لأتعلّم أي شيء كان. لقد كنت مجنوناً منذ سنوات مضت، فلماذا إذن أتعلم هذا الهجاء المربك مرة أخرى بعد أن نسيته منذ ألفي سنة مضت[1]!

لقد كنت مثابراً ولا زلت. وازداد هوسي بالانعزال بشكل مَرَضي، وأصبح توقي كي أصعد إلى السطح شديداً جداً بحيث أصبح من الصعب علي الاستقرار في مقعدي بعد تناول الطعم، وكنت أذهب إلى الحمام عدة مرات لأنظر إلى نفسي بذريعة وجود ألم في المعدة. لكن لم يكن لي أي هدف من هذه التصرّفات سوى الانعزال للحظات مما يخفف عذاب بقائي منتظراً موعد انتهاء الغداء للسماح لي بالصعود إلى غرفة الغسيل في الأعلى وإغلاق الباب على نفسي.

وفي المدرسة، أصبحت عدائياً نحو أي شيء أو أي شخص يعيق عزلتي أكان ذلك متعمداً أم لم يكن. كما استقبلت الأطفال الذين غامروا بالاقتراب مني – وللتأكيد، إن عددهم يقلّ تدريجياً – بنظرة مقيتة جعلتني آمناً من

[1] إن مخطوطة السيد دالي، من حيث خط اليد أو التهجئة أو بناء الجملة، ربما تكون أحد أكثر الوثائق تعقيداً وخيالية من حيث الصور اللفظية والنمط، تصدر عن قلم شخص لديه شعور حقيقي بقيمة الكلمات ووزنها. إن المخطوطة مكتوبة على صفحات نظامية صفراء بخط يد يمكننا أن نصفه بأنه غير مقروء، وليس فيه علامات ترقيم تقريباً، وليس هناك تبويب للفقرات، كما أنها بهجائها الخيالي الانفعالي من شأنها أن تسبب التعرّق لجبين صانع القواميس هذا. وغالا (زوجته) هي الشخص الوحيد الذي لم يفقد توازنه في متاهة هذه المخطوطة الفوضوية. (ملاحظة المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

تطفّلهم خلال فترات استجمامي، وغارقاً في عالمي الخاص السليم المعافى الذي لا يكدّره شيء. لكن حدث أن انهار النقاء الصافي لهذا العالم بضربة واحدة، ومن السهل عليك أن تتوقع السبب، لقد كان السبب تدخّل تلك الصورة الأنثوية التي تكون موجودة دوماً لتهدم كل بناء عقلي يحاول المرء من خلاله أن يُبعِد خلسة، ولدى هبوط الليل، الحضور المربك للفراشة الناعمة المبتسمة للجسد، والتي بسببها يتولد لدى الإنسان خشية من الموت، والتي بفضلها ينتهي بالإيمان "بامتياز" بالأسطورة الكاثوليكية المتعلقة بالقيامة المظفرة لجسده الشخصي.

كانت فتاة صغيرة رأيتها من الخلف فقط، وكانت تمشي أمامي في طريقي من البيت إلى المدرسة. وكان لها خصر نحيل جميل رقيق بدا وكأنه يقسم جسدها إلى قسمين منفصلين، وتهدد طريقتها المحدودبة في المشي بأن تقصمها نصفين، وكانت ترتدي حزاماً فضياً مشدوداً جداً. وترافقها في مشيتها اثنتان من صديقاتها، كانتا تحيطانها وتلفان ذراعيهما على خصرها وتعانقانها وتتملقانها بأكثر الابتسامات التي يمكن أن تقدم لها إغواءً. وقد التفتت الصديقتان عدة مرات إلى الخلف. ومشيت قريباً منهنّ وكنت أستطيع أن ألتقط بقايا تلك الابتسامات التي كانت تتلاشى ببطء من وجوههن. لكن الفتاة التي في الوسط لم تلتفت أبداً، وقد عرفتُ بالرغم من أنني لم أرَ وجهها، أنها كانت مغرورة ومختلفة عن كل فتيات العالم، وأنها أشبه بملكة. وقد وُلِدَ لدي الإحساس ذاته الذي كان نحو غالوشكا ولم تخبُ ناره حتى الآن. كان اسمها (دوليتا)، لأن هذا هو الاسم الذي نادتها به صديقتاها المقربتان المحببتان، بكل ما في نبرة صوتهما من حنان وشغف. لكنني عدت إلى منزلي من دون أن أرى وجهها، ومن دون أن يخطر ببالي أن أنظر إليه. وانتهى الأمر بأنها- دوليتا، دوليتا! غالوشكا ريدفيفا!"

وذهبت مباشرة إلى غرفتي، ولدي ألم في الأذنين ناتج عن ضغط قبعة البحار عليهما، وشعرت بأنهما توشكان أن تحترقا. ثم حررتهما وأتى

هواء الشفق البارد وداعبهما بمتعة. وشعرت بسطوة سلطان الحب الذي لا يُقهر عليّ من جديد، لكنه بدأ بأذني هذه المرة.

ومنذ هذا اللقاء، وضعت نصب عيني رغبة واحدة فقط وهي أن على دوليتا أن تأتي وتراني في غرفة الغسيل على السطح! وأدركت أن لا بدّ لهذا أن يحدث – لكن كيف؟ ومتى؟ لا شيء يُرضي نفاد صبري المجنون، وأصبح ابتلاع البطاطا المسلوقة تعذيباً بالنسبة لي. ثم حدث معي رُعاف قوي بعد ظهر يوم ما، وتم استدعاء الطبيب، وبقيت ساعات وأنا أحني رأسي وأنظر إلى السقف بينما تغمر المناديل بالخلّ وتوصد النافذة. وفي بداية النزيف، وضعت الخادمة مفتاحاً بارداً على مؤخرة عنقي، وكان ينغرس الآن في لحمي مسبباً ألماً فظيعاً. لكنني كنت مرهقاً جداً لدرجة لم أحاول حتى أن أرفع نفسي قليلاً.

لقد رأيت صوراً مختزلة تعبر جيئة وذهاباً — عربات وأشخاص يسيرون في الشارع — وتُسقط على السقف مقلوبة رأساً على عقب[1]، وعرفت أن هذه الصور تعود لأشخاص حقيقيين كانوا في الشارع على مرأى الشمس ومسمعها. لكن في حالتي الواهنة هذه فإن هذه الشخصيات المشوهة التي وقعت في مرمى بصري للحظات فقط، ظهرت جميعها كملائكة حقيقية بالنسبة لي. وبعدها قلت في نفسي: إن مرّت دوليتا وصديقتاها بالقرب من هنا فسوف أراها على سقف غرفتي. وعلى أية حال، كان ذلك غير متوقع أبداً لأنها كانت دائماً، أو دائماً تقريباً، تذهب من المدرسة إلى بيتها عبر طريق مواز لطريقنا، لكن مجرّد وجود طيف لتلك الإمكانية، أثار في داخلي أكثر التصوّرات تناقضاً حيث امتزجت فيها التعاسة والتوقّع والأمل والغرور والوهم بشكل باهت بعذاب الاضطراب. ومع ذلك، فقد ظهرت فكرتان أكبر بكثير من الباقي، ضمن فوضى الإرباك تلك:

---

[1] وفي مناسبات أخرى، راقبت عن قصد هذه الظاهرة كلها وأعدت إنتاجها بفضل ثقوب صغيرة في مصاريع نوافذ بيتي، جعلت غرفتي تبدو وكأنها كاميرا فوتوغرافية.

1. إن حدث ومرت أمامي على السقف، فسوف أكون الشخص الذي في الأسفل.

2. وإن كان رأسها إلى الأسفل، فسوف تسقط في الفراغ.

لقد رأيتها دوماً من الخلف، تتقهقر بخصرها المرهف في الخلاء الأسود وتنقسم إلى جزأين ككوب البيض البورسلاني الأبيض. إنها تستحقّ ذلك لأنها لم ترغب بأن تصعد إلى غرفتي على السطح، لكنني أردت في اللحظة الأخيرة أن أنقذها. أُصبت بحالة من الهيجان، وكان الندم المخيف يمزقني، شعرت حينها بألم حارق ناتج عن المفتاح الذي بدأ ينغرس في عظام رقبتي بتأثير ضغطي عليه، وعندئذٍ شعرت بحبي نحو دوليتا، نحو غالوشكا ريدفيفا، ومرة أخرى أصبح متمركزاً هناك، حيث شعرت بالألم تماماً!

وقرر والداي في اليوم التالي أن يرسلاني إلى الريف من أجل الراحة. وكان علي أن أزور عائلة (بيشوت)[1] التي كان لديها عقار في السهل، ومنزلان من فيغوراس. وكان ذلك العقار يُدعى "El Muli de la Torre_ برجٍ الطاحونة). ولم أكن قد ذهبت إلى هناك أبداً، لكن الاسم بدا لي رائعاً. وبناء عليه وافقت أن أذهب باستسلام شخص يحتمل المعاناة دون شكوى، ومعززاً بصورة البرج التي كانت إحدى أساطيري المفضّلة.

كما أن هذه الرحلة ستساعدني على الانتقام من دوليتا بما أنها لم تصعد إلى غرفتي كما أمِلت، وكما بقيت أتوقع قدومها كل ليلة. وفي

---

[1] لعبت هذه العائلة دوراً مهماً جداً في حياتي وكان لها تأثير كبير عليها. كما خضع والداي قبلي لتأثير شخصية هذه العائلة. لقد كان جميع أفراد العائلة فنانين يملكون مواهب عظيمة، وكان لديهم ذوقهم الخاص. كان رامون بيشوت رساماً، وريكاردو عازف تشيللو، وكانت لويس عازفة كمان، ومارية مغنية أوبرا (كونترالتو). وربما كان بيبيتو الأكثر موهبة من دون أن يصقل نفسه بأي من الفنون الجميلة على وجه الخصوص. لكنه هو من أبدع المنزل في كوداكويز، وهو من لديه الحس الفريد في الحديقة والحياة بشكل عام. وميرسيدس أيضاً، كانت من العائلة منة بالمنة، وكان لديها الإحساس المتعصب والغامض نحو المنزل. وقد تزوجت من الشاعر الاسباني العظيم (إدواردو ماركوينا) الذي أحضر للواقعية الخلابة لهذه العائلة الكاتالونية نغمة قشتالية من التقشف والرقة كانت ضرورية للمناخ الحضاري للعائلة كي تصل إلى لحظة النضج بالتحديد.

الوقت نفسه، ستساعدني الرحلة على تهدئة حقدي بينما تحثّ أمالي باستعادة عزلتي المحببة بكل تعصّبها السابق الذي اهتزّ، وتمت المساومة عليه بلقاء مع دوليتا بطريقة مقلقة لروحي.

وانطلقت في رحلتي في عربة السنيور والسنيورة بيشوت، ترافقنا جوليا، ابنتهما المُتبناة ذات الأعوام الستة عشر والشعر الطويل الأسود، وقاد العربة السنيور بيشوت نفسه. لقد كان من أكثر الرجال الذين رأيتهم وسامة، وكان له لحية سوداء وشاربان وشعر أجعد. ولكي يحثّ الحصان في اللحظة التي يوشك فيها الأخير أن يتراخى، يصدر صوتاً غريباً بلسانه وحسب، ولهذا يتوجب عليه أن يبقي فكيه مطبقين بينما يفتح شفتيه ويمدهما قدر الإمكان حيث تنكمش وجنتاه.

تتلألأ الشمس على أسنانه البيضاء الرائعة المبللة بلعابه، كما لو أنها تتلألأ على أزهار الغاردينيا المتحجرة. وينطلق الحصان الذي يستجيب لصوت السنيور بيشوت بخطا مهيبة تعطي نغمة جديدة للرنين الرتيب لأجراسه. وصلنا بعد مغيب الشمس مباشرة. لقد أثّر بي برج الطاحونة[1] كبقعة سحرية، وكأنه كان مصنوعاً من أجل استمرار أحلامي وخيالاتي[2]. لقد شعرت وكأنني تعافيت

---

[1] كانت هذه البقعة إحدى أغنى الملكيات في الريف، وكانت تحتوي عدداً كبيراً من اللوحات التي رسمها السنيور رامون بيشوت.

[2] لقد جرت معظم أفكاري الخيالية للفترة الباقية من حياتي في برج الطاحونة، وخاصة تلك المتعلقة بالشخصية الإيروتيكية التي كتبت عنها في العام 1932 وكانت (غالا ودوليتا) بطلتيها، وقد نشرت في (Le 3 Surrealism au Service de la Revolution – السريالية في خدمة الثورة). لكن المميزات الخاصة جداً لهذا النص منعتنا من تضمينه في هذا العمل.

بأعجوبة وبلحظة واحدة، ولم يبق شيء من قلق أيامي السابقة وكآبتها. بل على العكس، لقد سيطرت عليّ حالة فرح متكرر غير متوقع. إن البطاطا المسلوقة المرشوشة بالملح وزيت الزيتون، جعلت فمي طرياً، كما منحني الإحساس بالرضا دفقات سعادة مستمرة بحيث أبرز كل حدث من الأحداث الدقيقة المتأصلة في التأقلم التدرجي مع المكان واكتشافه، أن هذه النوع من المفاجآت الصغيرة يستمر دوماً عندما يعطيك المكان الذي وصلت إليه تأكيداً بأن "هذا لك" وذاك بالمقابل عليك، ويكون ولاؤك له، ومنذ ملامستك الأولى الحاسمة لعتبته فصاعداً، لا تعرف أية حدود.

أشرقت الشمس في اليوم التالي، وكان الريف يصمّ الأذن بخضرته وصوت حشراته. ودق شهر مايو- أيار في معابدي "طبول العناق والتفتح" لخفقان القلب العرائسي. وبينما كان حبي لـ (دوليتا) يكبر، امتزج مع وحدة الوجود المسعورة للمنظر الطبيعي، وأصبح مخضباً بالنسغ اللزج الذي يرفع هو ذاته نحو السماء الصيفية ساقاً نباتية بطيئة ونابضة بالحياة، مشكلاً قطرات تنتقل على أطرافها العلوية، وتتوتر مع الألم المتألق للنمو. 89

لقد انتشر حبي لدوليتا (التي لم أرَ وجهها بعد) فوق كل شيء، كما أصبح شعوراً عاماً جداً بحيث أن فكرة احتمال ضئيل جداً لحضورها الحقيقي كانت ترعبني وتخيّب أملي. لقد بجلّتها، وفي الوقت نفسه بقيت وحيداً أكثر، وحيداً بقساوة أكثر من كل مرة سابقة!.

لم يجذب الجانب الميكانيكي من الطاحونة الكثير من اهتمامي، لكن صوتها الرتيب أصبح بسرعة منسجماً مع مخيلتي. وعلى الفور اعتبرته حضوراً مستمراً لذكرى شيء غائب، يساعد على حماية الجانب الرسمي من عزلتي. وكقارئ لهذا الكتاب، بدأتَ تفهم ذوقي بسهولة، فقد أصبح البرج من جهة أخرى البقعة السرّية والمسكن، و"قصر التضحية" — وكان هكذا في الواقع، لقد قمت بالتضحية هناك في أعلى البرج!

سأشرح هذا الأمر بدقّة وبقدر ما تسمح به عواطفي في نهاية هذا الفصل. كان عليّ أن أنتظر يومين قبل أن أكون قادراً على الصعود "إلى هناك". ولا بدّ أن هناك من يحضر المفتاح يوماً. وأخيراً، وفي اليوم الثالث، فتحوا الباب وانفتح الطريق أمامي إلى شرفة البرج العليا، ومن حينها فصاعداً، تمكنت المياه الصافية والعفنة لنفاد صبري من التدفق باضطراب واضح، تماماً يتبع شلال الدوخة عواطفَ ركدت زمناً طويلاً خلف سدّ الرقابة التي تنظّم مسار الكآبة لنهر الحياة المهيب. وعلى قمّة البرج، حيث وجدت نفسي أتجاوز كل شيء تخيلته، انحنيتُ على الحافة وبصقت. ورأيت بصاقي يزداد صغراً ويتلاشى في أحراش النباتات القاتمة التي انبثق منها بقايا قن دجاج قديم. ويرى المرء خلفها مساراً هزيلاً لجدول صغير يتجه نحو سد الطاحونة. ولا يزال بعيداً عن بداية حدود تلك الجنان الأرضية لحدائق المطابخ التي عملت كواجهة وكانت تشبه أكاليل لكل نظرية المناظر الطبيعية التي كانت محاطة بمستويات متعاقبة من الجبال التي تنافس تضاريسها الدافنشية في صرامة بنائها، الخيالات التحليلية الصعبة لغيوم سماء كاتالونيا المرسومة بشكل رائع.

لو جاءت دوليتا إلى هذا المكان، لجعلتها تنحني وتبرز الحد الأقصى من جسدها فوق هذه الحافة وأمسكتها من الخلف في اللحظة نفسها كي لا تسقط. سيجعلها هذا الأمر تشعر برعب فظيع.

وفي اليوم التالي وضعت ترتيباً منهجياً لأيامي القادمة، لأنه وبسبب جشعي الهائل الناجم عن حيويتي المحتدمة الجديدة، شعرت بأنني احتجت إلى الحد الأدنى من النظام كي لا أدمّر حماستي برغبات متزامنة متناقضة. ولأنني أردتُ أن أقوم بمغامراتي المسعورة بوقت واحد، وأن أكون في كل مكان في اللحظة ذاتها. كما فهمتُ بسرعة كبيرة أنني مع فوضى رغبتي بالاستمتاع بكل شيء ولمسه ومضغه، لن أكون قادراً أبداً في نهاية المطاف على اختبار أي شيء وتذوقه، وأنني

كلما تمسّكت بالمتعة أكثر لتحقيق المكاسب، انزلقت هذه المتعة وهربت من يدي النهمتين.

في ذلك الوقت، بدأ الأساس المنهجي الذي كان مجد سيلفادور دالي، يعبّر عن نفسه في برنامج تُقاس فيه نبضاتي كلها. وكان برنامج دقيق تتبعت بواسطته خطة لا تتعلق بمجريات الأحداث فقط بل بنوع العاطفة التي كنت أستدرّها منهم طوال أيامي اللاحقة هناك، والتي وعدت بأن تكون ثرية جداً. لكن هذا الأساس كان صارماً وانضباطياً بحيث أنني ما إن إن تبنيت هذه الخطة حتى التزمت بالتنفيذ وجعلته حاسماً ومشوقاً للغاية.

وتعلمتُ في هذا السن حقيقة جوهرية، وأعني أن البحث ضروري لإعطاء "شكل واضح" للتعددية المختلطة لرغباتي. وقد اخترعت هذا البحث بنفسي لأستخدمه في ضبط روحي.

كان ارتقائي ينطوي دوماً على طقوس استعراضية يوحي بها عريي. وللقيام بذلك، كان عليّ أن أستيقظ قبل مجيء جوليا لتفتح النافذة في الصباح. وكان هذا الاستيقاظ الذي كنت أقوم به بكامل رغبتي، مزعجاً لي بسبب الأحداث المرهقة التي تملأ أيامي. كان النوم يفترسني كل صباح. ومع ذلك نجحت بالاستيقاظ بدقة بالغة قبل ربع ساعة من دخولها. كنت أستخدم تلك الفترة لأتحسس العاطفة الإيروتيكية التي كنت سأستدرجها من تصرّفي، وخاصة ابتداع وضعية تتغير يومياً، وتستجيب كل صباح لرغبة جديدة من "رؤية نفسي عارياً"، في موقف يبدو مربكاً بالنسبة لي ويكون له في الوقت نفسه، أعظم أثر على جوليا. وقد اختبرت إيماءاتي حتى اللحظة الأخيرة التي سمعت فيها خطوات جوليا قريبة من غرفتي. وبالتأكيد، كان عليّ حينها أن أفكر، وكانت هذه الحيرة الأخيرة إحدى أكثر لحظات الإثارة الأولى شهوانية. وعندما فُتِحَ الباب، بقيت جامداً في مكاني في حالة من السكون المتوتر، محاكياً حالة غفوة مسالمة. لكن يمكن لأي شخص ينظر إليّ بانتباه، أن يلاحظ إثارتي بسرعة لأن جسدي كان ينتفض بعنف

جعلني أطبقُ فكيّ كي لا تتكسر أسناني. وفتحت جوليا مصراعي النافذة واقتربت من سريري وغطّت عريي بالملاءات التي تركتها تنزلق على الأرض أو كدّستها عند قدميّ كما لو أنها تراكمت على هذا النحو بسبب حركتي أثناء النوم. وبعد أن انتهت من عملها، قبّلتني على جبيني لتوقظني. وكنت أعتقد في تلك المرحلة من عمري بأنني وسيم بشكل مثاليٍ، وكانت المتعة التي وصلتني لشعوري بأن أحداً ما ينظر إلي، رائعة جداً بحيث أنني لم أحاول أن أنهض وأرتدي ملابسي قبل أن أصل إلى هذه المتعة مرة أخرى. ولتحقيق هذه الغاية، حاولت اختلاق ذريعة جديدة، وراجعت في عقلي المحموم قائمة عروض من هذا النوع كنتُ قد تدرّبت عليها في الليلة السابقة قبل النوم، وهي ما كون أساليب استعراضاتي الصباحية الكثيرة. "جوليا، لقد حللت أزرار بنطالي كلها! جوليا، ضعي بعض اليود هنا في أعلى فخذي! جوليا.... "

وبعد ذلك، يأتي موعد الإفطار الذي يُقدّم لي وحدي فقط على طاولة غرفة الطعام الكبيرة. قطعتان كبيرتان من الخبز المحمّص المنقوع بالعسل، وكوب من القهوة الحارة جداً مع الحليب. وقد كانت جدران غرفة الطعام مغطاة بالكامل بلوحات زيتية ومنحوتات ملونة أصلية في معظمها، كان رامون بيشوت الذي يعيش الآن في باريس قد رسمها.

لقد مثّل ذلك الإفطار اكتشافي لمدرسة الرسم الانطباعية الفرنسية التي تركت أعمق الأثر في حياتي لأنها جسّدت أول اتصال لي مع النظرية الجمالية الثورية واللا أكاديمية. ولم يكن لدي البصيرة الكافية لأرى ما أردتُ أن أراه في تلك الألوان الكثيفة الملطّخة عديمة الشكل، والتي تبدو وكأنها رُشِقَت على لوح الرسم بالصدفة، بأكثر الأشكال نزوية ولامبالاة. ومع ذلك، فعندما ينظر المرء إليها من مسافة معينة ويرمش بعينيه، يمكن فجأة، بفضل المعجزة غير المفهومة للرؤية، أن يصبح خليط الألوان هذا منظّماً ويتحول إلى واقع نقي. كما يمكن للهواء والمسافة والومضة المتألقة

لحظياً، والعالم الداخلي للظاهرة، أن تنبثق جميعها من الفوضى! لقد ذكرتني اللوحة الأقدم لرامون بيشوت بالصيغة النمطية التصويرية المميزة للرسام (Toulouse-Lautrec – تولوز لاتريس). واستخلصتُ من تلك اللوحات الرواسب الأدبية للعام 1900 كلها، والإيروتيكية التي أحرقت حنجرتي كقطرة من شرابٍ مُسكِرٍ ابتُلِعَت بطريقة خاطئة. وأذكر بشكل خاص ملابس راقصة (Bal Tabarin – بال تابارين) التي كان وجهها ساذجاً وكان لديها شعر أحمر تحت ذراعيها.

لكن اللوحات التي ملأتني بأقصى حدود الدهشة كانت الأكثر حداثة منها، وفيها انتهت الانطباعية المائعة في ألواح رسم معينة بالتبني الواضح للصيغة "النقطية"، وبطريقة غير رسمية تقريباً. لقد أنتج التجاور المنتظم بين البرتقالي والبنفسجي في داخلي نوعاً من البهجة الوجدانية الوهمية المشابهة لما اختبرته عندما نظرت إلى أشياء معينة عبر موشور زجاجي يعطي حدودها الخارجية طيف ألوان قوس قزح. وكان في غرفة الطعام سدادة قنينة كريستالية، يصبح كل شيء "انطباعياً" من خلالها. وغالباً ما كنت أحمل تلك السدادة في جيبي لأرقب المشهد من خلال الكريستال وأراه "بشكل انطباعي".

وفجأة أدركت أنني تجاوزت الفترة المخصصة للإفطار كما انتهى تأمّلي "بصدمة ندم مرير" جعلني أبتلع آخر جرعة من القهوة بالحليب بطريقة خاطئة حيث انزلق على عنقي ولوّث صدري. لقد وجدتُ متعة فريدة من خلال إحساسي بالقهوة الساخنة تجف على جلدي وتبرد ببطء تاركة رطوبة لزجة بشكل مقبول. ثم أصبحت مولعاً بتلك الرطوبة التي أصبحتُ أصطنعها بشكل متعمّد حيث كنت ألتفت بلمحة سريعة لأتأكد من أن جوليا لا تراقبني، وحينها، وقبل خروجها مباشرة، أسكب كمية من القهوة بالحليب، بحيث تكون كافية لتصل إلى بطني. لقد قُبِضَ عليّ متلبساً في يوم ما وبقي السنيور والسنيورة بيشوت يرويان

تلك القصة كواحدة من ألف حكاية غريبة تتعلق بشخصيتي المثيرة للقلق، والتي أُعجِبوا جميعاً بها. وكانا دوماً يبدأان بسؤال: "هل تعرف ما الذي كان يفعله سيلفادور؟" فيفتح الجميع أعينهم مستعدين لسماع واحدة من تلك الأخيولات الغريبة التي كانت غير مفهومة بالمطلق، لكنها كانت قادرة على أن تجعل أي شخص يضحك حتى تدمع عيناه. وكان الاستثناء الوحيد هو والدي، الذي لم تستطع ابتسامته الخفيفة أن تحجب قلقه وارتيابه بشأن مستقبلي.

وبعد سكب العسل والقهوة بالحليب في قميصي، كنت أذهب بسرعة إلى غرفة كبيرة توضع فيها أكواز الذرة الكبيرة كي تجفّ على السطح. أصبحت هذه الغرفة مرسمي بقرار من السنيور بيشوت نفسه إذ قال: "إن الشمس تدخل طوال الصباح". كنت قد جهزت صندوقاً كبيراً من الألوان الزيتية على طاولة كبيرة وكانت اللوحات تتراكم يومياً. وسرعان ما امتلأت الجدران بلوحاتي التي كنت أعلّقها بمسامير أنتهي منها بسرعة.

وفي أحد الأيام أنهيتُ بكرة قماش الرسم، وقررت أن أرسم شيئاً ما على الباب القديم الذي لم يكن مُستخدماً. ووضعت الباب المصنوع من خشب قديم جميل بشكل أفقي على كرسيين أمام الجدار، وقررت أن أرسم على القسم الداخلي منه فقط بحيث يبقى إطار الباب إطاراً للوحتي. ثم باشرت بلوحة كانت قد استحوذت عليّ عدة سنوات — الحياة الباقية لكومة هائلة من الكرز. وعندئذٍ نثرت سلة كبيرة من الكرز على طاولتي لأستعملها كموديل. وأصابت الشمس التي تتدفق من النافذة كومة الكرز محرّضة إلهامي بنار انتظامها المحيّر. جلست للعمل وبدأت على هذا النحو: قررت أن أرسم اللوحة كلها بثلاثة ألوان أستخلصها من العبوة مباشرة، ولهذا فقد وضعت بين أصابع يدي اليسرى عصّارة اللون القرمزي الفاتح (vermilion) المعدّة من أجل الجانب المضاء من الكرز، وعصّارة أخرى من اللون القرمزي الغامق

(carmine) لظلالها. وفي يدي اليمنى أمسكت عصّارة اللون الأبيض من أجل تحديد كل حبة على حدة.

بأسلحتي هذه بدأت هجومي على لوحتي، واعتدائي على حبات الكرز. لكل حبة كرز – ثلاث لمسات من الفرشاة! توك، توك، توك – ضوء، ظل، تحديد، ضوء، ظل، تحديد... وعلى الفور، قمت بترتيب إيقاع عملي على إيقاع الطاحونة – توك، توك، توك... توك، توك، توك... أصبحت لوحتي لعبة مهارة رائعة كان الهدف منها تحقيق "توك، توك، توك" أفضل، مع كل حبة كرزٍ جديدة. وأصبح تقدمي حسياً جداً، وشعرت بأنني أصبح معلماً وساحراً في محاكاة تجانس كل حبة من تلك الحبات المغويّة مع كل "توك" جديدة. وبالنمو السريع المتوافق مع مهارتي المتزايدة، حاولت أن أكمل لعبتي مكرراً بيني وبين ذاتي عبارة تُقال في السيرك: "والآن لدينا شيء أكثر صعوبة".

وهكذا وبدلاً من تكديس الكرز الحبة فوق الأخرى كما فعلت حتى الآن، بدأت برسم حبات منفصلة تبتعدُ إحداها عن الأخرى قدر الإمكان، فأرسم الآن حبة في هذه الزاوية، وأرسم بعدها حبة أخرى في الزاوية المعاكسة الأبعد. لكن، وكما تطلّبت القواعد الصارمة لتجربتي الجديدة أن أتبع إيقاع صوت الطاحونة، كنتُ مجبراً على الاندفاع من بقعة إلى أخرى بسرعة الومض ورشاقته بحيث يعتقد المراقب الخارجي بأنني كنت أقوم برقصة جنونية بحركات رشيقة تبدأ برسم حبة في الأعلى، وأركع بعدها على ركبتي لأرسم حبّة في الأسفل. "توك" هنا و"توك" هناك. وبقيت أشعل الباب القديم الذي كان أرضية لوحتي بنيران حبات الكرز الطازجة الجديدة التي كانت تولد بفرح مع كل "توك" رتيبة من صوت الطاحونة كما لو أنه فنّ سحرٍ كنتُ أنا "في الواقع الحقيقي" المعلّم الوحيد له وربّه وخالقه.

وبالفعل، أدهشت هذه اللوحة كل من شاهدها، وأعرب السنيور بيتشوت عن أسفه بمرارة لأنها رُسمَت على شيء ثقيل جداً ومن الصعب تحريكه، والأكثر من ذلك أن فيه ثقوب ديدان في أماكن معينة.

وجاء الفلاحون جميعهم وحدّقوا بأفواههم الفاغرة إعجاباً بلوحتي التي ظهر الكرز فيها كما لو أن بإمكان المرء أن يقطفه. لكنهم لفتوا انتباهي إلى أنني نسيت أن أرسم ساق حبة الكرز. وكان هذا صحيحاً — أنا لم أرسم ساقاً، أية ساق. وفجأة خطرت بذهني فكرة. وأمسكت ملء يدي من الكرز وبدأت أتناولها. وعندما أبتلع واحدة منها، أُلصق ساقها على اللوحة في مكانها المناسب. لقد خلقت عملية اللصق هذه تأثيراً لم يسبق له مثيل في عمليات "الإنهاء والتشطيب"، وكان لها الفرصة كي ترفع الأثر الهذياني للواقعيّة. وقد قلت سلفاً إن الباب الذي رسمت عليه لوحتي كان فيه ثقوب يسري فيها الدود، وقد بدت تلك الثقوب وكأنها من أصل اللوحة. كما أن الكرز الحقيقي الذي استخدمته كموديل للرسم، كان أيضاً مليئاً بثقوب محشوة بالدود! وأدّى هذا إلى فكرة لاتزال حتى يومنا هذا تراود ذهني على أنها فكرة لا يمكن تصديقها: بدأت عملية دقيقة متسلّحاً بصبر لا حدود له (بمساعدة دبوس شعر كان يُستخدم كملقط)، تقوم العملية على إخراج الديدان من الباب، أي من حبات الكرز المرسومة، ووضعها في الحبات الحقيقية، والعكس بالعكس.

كنت قد نفّذت أربعاً أوخمساً من تلك التنقلات الغريبة المجنونة عندما تفاجأت بحضور السنيور بيشوت الذي لا بدّ أنه كان يقف خلفي منذ فترة يراقب ما كنت أفعله بصمت. ولا بدّ أن تأثير ساق حبة الكرز قد أصابه بالذهول، لكنني فهمت على الفور أن عبثي بالدود هو ما أبقاه واقفاً مشدوهاً بهذه الطريقة. كما أنه لم يضحك هذه المرة كما كان يفعل دائماً بما يخص أشيائي، لكنني أتذكر أنه وبعد ما بدا عليه من تفكير مكثّف، تمتم شيئاً لم يكن مفهوماً كما لو أنه قال بينه وبين نفسه: "هذه عبقرية"، وبعده غادر.

ثم جلست على الأرض على كومة من أكواز الذرة، شاعراً بحرارة الشمس وأنا أفكر بكلمات السنيور بيشوت التي نُقِشت في أعماق قلبي.

لقد كنت واثقاً من أنني أحقق بالفعل أشياء "استثنائية"، وأكثر استثنائية من "تلك". لقد كنت عازماً على تحقيقها، وسأفعل مهما كلف الثمن! وفي يوم ما سوف يُذهل الجميع بفني! وأنت أيضاً يا دوليتا، يا غالوشكا ريدفيفا، ستُذهلين أكثر من الجميع!

منحني التلامس مع أكواز الذرة الحارة شعوراً مقبولاً جداً، فقمت بتغيير موضعي لإيجاد كومة حارة أخرى. لقد حلمت بالمجد، ورغبت بأن أضع تاجي الملكي. لكن كان عليّ أن أعود إلى غرفتي لأحضره، وكان ذلك مريحاً جداً فوق الذرة هنا! التقطت السدادة الكريستالية من جيبي، ونظرت عبر جوانبها الموشورية إلى لوحتي، ثم إلى كومة الكرز، وبعدها إلى أكواز الذرة المنتشرة على السطح. لقد كان الأثر الذي أنتجته أكواز الذرة أضعف أثر أطلقته ألوان الطيف. وبعدها، سيطر عليّ خمول هائل فخلعت بنطالي لأنني أردت أن يلامس جسدي الذرة الساخنة بشكل مباشر. وببطء شديد، سكبت كيساً من الذرة على جسدي فشكّلت حباته هرماً غطّى بطني وفخذيّ بالكامل.

كنت حينها تحت تأثير الانطباع الذي كوّنه لدي السنيور بيشوت في زيارته التفقدية الصباحية، وهو كعادته، لن يعود حتى ساعة الغداء. ولهذا فقد كان لدي الكثير من الوقت كي أعيد الذرة المتناثرة إلى الكيس. كما أثارت الفكرة حماسي مما جعلني أسكب كيساً آخر كي أشعر بوزن الكتلة تتزايد فوقي. لكنني أخطأت في حساباتي بما يخصّ عودة السنيور بيشوت، لأن الأخير ظهر على عتبة الباب بشكل مفاجئ. اعتقدت في تلك اللحظة أنني سأموت خجلاً من هذا الموقف. وقد رأيت ملامح الذعر على وجهه، ورأيته ينسحب دون أن يتلفظ بكلمة واحدة، ولم ألمحه ثانية حتى موعد الغداء.

لا بدّ أن ساعة كاملة قد مرّت إبان ذلك لأن الشمس ومنذ مدّة طويلة، غادرت البقعة التي بقيت فيها دون حراك، منذ ظهور السنيور

بيشوت غير المتوقع. وكان جسدي بأكمله متصلباً متألماً بسبب بقائي في حالة استلقاء جزئي لوقت طويل. كما بدأت بجمع حبات الذرة وإعادتها إلى الكيس، واحتاجت العملية لوقت طويل لأنني كنت أستعمل يدي فقط. وبسبب الحجم الكبير للأكياس، لم يكن يبدو بأنني أحرز تقدماً. وقد حاولت مراراً أن أترك العمل قبل أن أنتهي، لكن إحساسي بالذنب كان يعيدني إليه من جديد. وعندما دنوت من النهاية أصبح العمل مؤلماً بسبب الإغواء المستمر بأن أترك كل شيء كما هو. وكنت أقول في نفسي: "الوضع جيد كما هو الآن"، لكن قوة كبيرة تدفعني للاستمرار. كانت الحفنات العشر الأخيرة تعذيباً حقيقياً، وبدت الحبّة الأخيرة أثقل من قدرتي على رفعها عن الأرض. بانتهاء العمل، شعرت فجأة بهدوء في روحي لكن التعب الذي أصابني كان كبيراً. وعندما دُعيت إلى الغداء، اعتقدت بأنني لا أستطيع أن أصعد الدرج.

دخلت غرفة الطعام ورحّب بي الصمت المشؤوم، أدركت فورا أنني أصبحت موضوع محادثات طويلة. وقال لي السنيور بيشوت بنبرة قاتلة:

"لقد قررت أن أطلب من والدك أن يحضر لك أستاذ رسم". كما لو أنني شعرت بالغضب من هذه الفكرة فقد أجبت بسخط:

"لا! أنا لا أحتاج إلى معلم لأنني رسام "انطباعي!"

أنا لا أعرف تماماً معنى كلمة "انطباعي" لكن إجابتي بدت وكأن لي منطقاً لا يمكن دحضه. وأطلقت السنيورة بيشوت مشدوهة ضحكة مجلجلة.

"حسناً، انظروا إلى هذا الطفل، إنه يعلن ببرود تام أنه رسام "انطباعي"!"

وبقولها هذا غرقت بالضحك. وداهمني الخجل مجدداً وتابعت عملية مصّ نخاع المفصل الثاني للدجاجة، ولاحظت أن لون النخاع مشابه تماماً للأحمر الفينيسي. انغمس السينور بيشوت في محادثة حول ضرورة قطف أزهار الزيزفون خلال نهاية الأسبوع. وكان لهذا القطاف نتائج كبيرة عليّ.

لكن قبل أن أدخل في هذه القصة الممتعة الرومانسية والقاسية، دعني أستمرّ أولاً وكما وعدت، بتوصيف التقسيم الصارم للوقت الثمين لأيامي التي لا تُنسى في برج الطاحونة. وهذا ضروري على وجه التحديد، كي يضع مشاهد الحبّ المذهلة التي سأكشفها أمامك في تقسيم زمني وإطار واضح منظّم. وها هنا البرنامج العُصابي المكثّف لأيامي في ذلك الربيع.

أنا أعذر نفسي أن أكرر مرة أخرى وباختصار، الطريقة التي بدأ فيها كل ذلك، بحيث يستطيع القارئ أن يربط هذا الجزء بسهولة مع باقي برنامجي، ويصبح في وضع يمكنه من خلاله تحقيق رؤية واضحة عن الكل.

Hérisson.

أستيقظ في العاشرة صباحاً وأقوم "باستعراضات منوعة" ثم إفطار أمام لوحات رامون بيشوب الانطباعية، وكوب قهوة ساخنة بالحليب ينزلق بعضه على صدري قبل أن أصعد إلى مرسمي. وبين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة والنصف – إبداعات تصويرية، تجديد الانطباعية، وتأكيد الحالة الجمالية لجنون عظمتي ونهضتها.

وعلى الغداء، أجمع كل "إمكانياتي الاجتماعية" المتبرعمة الرهيبة لأفهم كل ما يجري في برج الطاحونة عبر المحادثات المنثورة الملطفة للسنيور والسنيورة بيشوت وجوليا. وقد كانت تلك المعلومات ثمينة، لأنها تكشف لي خطط الأحداث المستقبلية التي أستطيع من خلالها ترتيب مسرّات عزلتي أثناء وضع التسويات الانتهازية بينها وبين معجزات الإغواء التي تعرضها لي سلسلة النشاطات كلها مع التطور الزراعي للمكان. ولا تجلب تلك الأحداث معها أزهار الأساطير الجديدة فقط، بل تحضر أيضاً أشباحاً (بالحالة الطبيعية) لأبطالها الذي كانوا غير معروفين حتى الآن بالنسبة لي – قطف براعم الزيزفون (بما يتعلق بهذا الأمر يُذكر

النساء فقط)، درس القمح الذي يقوم به رجال قُساة يأتون من البعيد، وجمع العسل وما إلى ذلك.

ثلاثون سنة قبل – ثلاثون سنة بعد

- كطفل صغير في المدرسة، سرقتُ خفاً قديماً يعود للمعلمة، واستخدمته كقبّعة في الألعاب التي كنت أمارسها في عزلتي.
- في العام ١٩٣٦، أسست عنصراً سريالياً بخفّ قديم لـ (غالا) وكأساً من الحليب الدافئ.
- سنوات بعد طيش طالب المدرسة، صورة لغالا متوّجة بقباب كنيسة القدس (باسيل) تكتشف أخيولتي المبكرة عن (الخفّ- القبعة).
- وأخيراً السيدة شيباريللي تطلق (الخف – القبّعة). ارتدته غالا أولاً ، وتظهر السيدة ريجينالد فيلويرز فيها خلال فترة الصيف في فينيسيا.

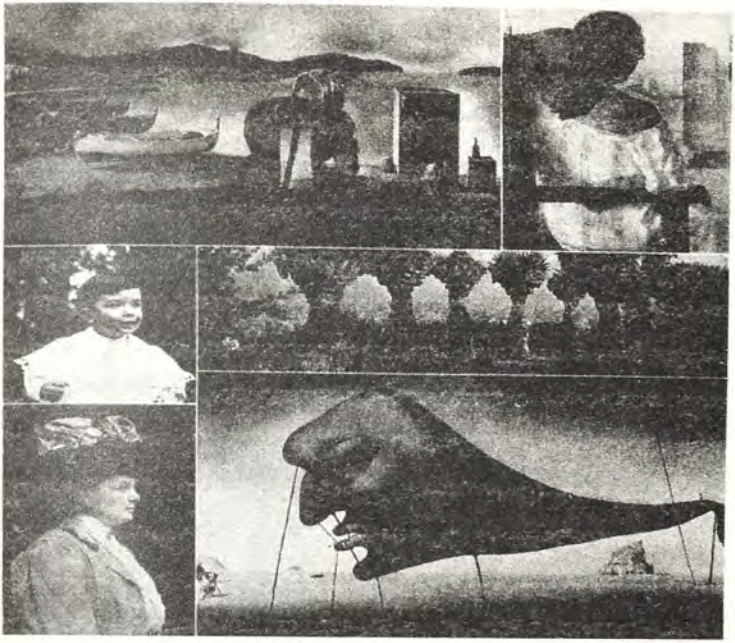

لغز الفوهة

- صورة لمربيتي.
- "صورة جانبية لأختي"، وأثناء التقاط هذه الصورة، رأيت للحظة فتحة مستطيلة مرعبة في وسط ظهرها.
- صورة لدالي في الوقت الذي زار فيه منتزه (غويل) في برشلونة
- جادة منتزه أفيلو. الفضاء المفتوح بين الأشجار الاصطناعية أعطاني إحساساً بخصب لا يُنسى.
- أورسولا ماتاز، التي أخذتني لزيارة منتزه (غويل).
- "النوم". ١٩٣٩ لوحة اختبرت فيها بالكثافة القصوى القلق الذي يسببه الفضاء الفارغ.

Araignée.

كانت فترة بعد الظهر مكرّسة بشكل خاص لحيواناتي التي كنت أحتفظ بها في قن الدجاج الكبير، وكانت ثقوب شبكته المعدنية ناعمة لدرجة يمكنني أن أبقي على السحالي فيه. لقد تضمنت مجموعتي قنفذين أحدهما كبير جداً والآخر صغير جداً، وهناك سبعة أنواع مختلفة من العناكب، وهدهدان

وسلحفاة، وفأر صغير قُبِضَ عليه في حاوية القمح في الطاحونـة، حيـث سقط ولم يعد يستطيع الخروج. وقد احتفظت بالفـأر في علبـة بسـكويت صغيرة عليها صـورة لنسـق كامـل مـن الفئـران يأكـل كـلٌّ منهـا قطعـة بسكويت. كما صنعت من أجل العناكب بناءً معقداً مـن علـب الأحذيـة الكرتونية وذلك كي أمنح كل نوع من العناكـب حجـرة خاصـة تخفـف عنه مدة تأملاتي الطويلة فيه. وقد رتبـت أمـري لأجمـع عشـرين نوعـاً مختلفاً من هذه الحشرات، وكانت مراقبتي لها مثيرة جداً.

أما مسخ حديقتي فكان عبارة عن سحلية لها زوج من الذيول، الأول طويل جدا وطبيعي، أما الثاني فكان أقصر. وقد ارتبطت هـذه الظـاهرة بعقلي مع أسطورة "التشعّب" التي بدت لي أكثر غموضاً عنـدما قـدّمت نفسها في كائن حي صغير ناعم — لأن الشكل المتشعّب قد استحوذ علي لفترة طويلة قبل هذا. وفي كل مرة تضعني الصدفة في حضور مثال دقيـق عن التشعّب، ويعرضـه بشـكل عـام جـذع شـجرة أو أغصـانها، تبقـى روحي معلّقة كما لو أنها مشلولة بسـبب أفكـار مـن الصـعب أن تـرتبط معاً، وهـذا لم يـنجح في التبلـور بـأي شـكل، حتـى الشـكل الشـاعري المؤقت. ما هو معنى مشكلة خط التشعب هذا، وخاصة عنصر التشعّب؟ هناك شيء عملي للغاية في هذه المشكلة التي لم أستطع أن أفهمها حتى الآن، شيء شعرت بأنه سيكون مفيـداً للحيـاة ومفيـداً للمـوت أيضـاً في الوقت نفسه، شيء تندفع معه وتتكئ عليه: سـلاح ووقايـة، احتضـان وعناق، احتواء أشـياء تحتـوي وهـي محتـواة في شيء! مـن يعـرف، مـن يعـرف! محاطـاً بهـذه الفكرة، لاطفت السحلية بإصبعي في الوسط تماماً حيـث يتشـعب الـذيل إلى فـرعين يتجهـان باتجاهين مختلفين، تاركين بينهما ذلك الفـراغ الذي لا يمكن أن تملأه سوى غرابة مخيلتي المجنونـة. ثـم نظـرت إلى

Kuppe.

يدي بأصابعها الأربعة المنفردة وقد اختفت تشعباتها في الاستطالة المُتخَيّلة واللامنتهية لأصابعي التي لن تكون قادرة على الالتقاء مجدداً عند وصولها إلى الموت. لكن من يعرف؟ من يعرف عن قيامة الجسد؟

وفجأة، أصبحت مدركاً أن فترة بعد الظهر كانت تتلاشى في تمجيد التوهّج الدموي الطقسي. وهذه التأملات الفلسفية كان لها فضيلة أساسية تتعلّق بالتهام الوقت، بينما تترك في أسفل زجاجتها الفارغة، البقايا اللزجة المحمرة العابقة برائحة النبيذ لغروب الشمس.

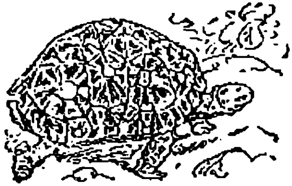
Pyxide.

كان غروب الشمس هو فترة الخروج إلى حديقة المطبخ! الوقت المناسب للتخلّص من عُصارة ذنب الحدائق الدنيوية التي غزاها نسيم مساء الخطايا الأصلية. كنت ألتهم كل شيء – الشوندر السكري، الخوخ، رقائق البصل. وكنت أخشى أن أُصاب بالتخمة، لأنني أترك إغواءاتي تتجاوز حدودها بسرعة كبيرة بسبب الإفراط في نهمي، بحيث أقضم الفاكهة قضمة نافدة الصبر، وبعد أن أنتزع النكهة الحادة للرغبة منها، أتخلّص من عنصر الإغواء هذا لأمسك بالسرعة الممكنة بما تبقى من فاكهة تلك اللحظة، التي كان طعمها بالنسبة لي سريع الزوال مثل البصيص الهارب من يراعاتٍ بدأت تشعّ للتو في الظلال الهاربة للعتمة النباتية المتزايدة. وكنت أمسك الفاكهة أحياناً وأكون راضياً بملامستها لشفتيّ، أو بضغطها بنعومة على خدي المتقد. لقد أحببت أن يشعر جلد بشرتي بالحرارة اللطيفة لجلد آخر مشدود متدرّج البرودة وخاصة "الخوخ" الأسود الرطب المشابه لأنف كلب له ملمس ثمرة الخوخ أكثر من ملمس ثمرة الكمأة. لقد سمحت لنفسي بإطالة أمد هذا التذّوق والمجون النباتي لحديقة المطبخ حتى انتصفت ساعة الشفق، لكن كنت أتوقع استثناء كهذا. أي أنني

كنت أستطيع أن أتريث لبعض الوقت هناك لأن عملية جمع الديدان المتوهّجة التي اختتمتُ بها بهجتي في حديقة المطبخ، كانت تعدُ بأن تكون مثمرة. لقد أردتُ في الواقع أن أصنع قلادة[1] من الديدان بتمرير خيط حريري في أجسادها، بحيث تعطي التشنجات المرافقة لعذابات موتها أثراً فريداً على عنق جوليا. لكن سيصيبها الرعب من ذلك. ربما دوليتا إذن؟ أستطيع أن أتخيلها وهي تقف فخورة بزخرفتها به.

وعندما ازداد الشفق عمقاً، دعاني برج الطاحونة بجاذبية ارتفاعه المذهل الذي لا يُقاوم، ورفعت عيني إلى قمته بنظرة يملؤها العهد والولاء. وقلت له بصوت عال أنا قادم!" وكان حينها لا يزال متوهجاً بمسحة وردية باهتة على الرغم من مرور وقت على غياب الشمس، وكان هناك دائماً ثلاثة طيور سوداء تحوم بطريقة مهيبة فوق تلك الجدران المغرورة. لقد كانت زيارتي اليومية للشرفة في أعلى البرج، الشيء الذي أنتظره بتوق، واللحظة الأكثر هيبة لأيامي في برج الطاحونة بكل ما في الكلمة من معنى. ومع ذلك، عندما حانت ساعة صعودي، اختلط نفاد الصبر، الذي شعرت به في داخلي مع نوع من الخوف المبهم اللامحدود. وعندما وصلت إلى القمة، ابتهجت نظراتي بضياعها وهي تتجول على قمم الجبال التي تبدو مستوياتها المتوالية المرئية حتى هذه اللحظة وكأنها منقوشة بخط قرمزي وذهبي آتٍ من أخر ومضة لضوء النهار، الذي عَرَضَ هذا المظهر ما قبل الليلي بدقة وتجسيد، بفضل وضوح الجو.

كنت قادراً من قمة هذا البرج على متابعة تطوّر الأفكار الخيالية الفخمة التي بدأتها سابقاً على سطح منزل أهلي في فيغوراس. لكن تخيلاتي المرهقة، تتخذ الآن وضوحاً "اجتماعياً وعقلانياً" أكبر بكثير

---

[1] لم تكن صناعة هذه القلادة اختراعاً داليّاً كما يبدو الأمر، بل كان لعبة منتشرة بين أطفال الفلاحين في المنطقة التي يقع فيها برج الطاحونة.

على الرغم من بقاء الغموض المتناقض بشكل مستمر. لقد كانت أفكاري العقلانية في الواقع تتحول باستمرار من تطرّف إلى آخر. وأتخيّل نفسي الآن جالساً كطاغية دموي، أعيدُ الشعوب المعاصرة إلى العبودية بغية الإشباع الوحيد لنزواتي الأنانية المترفة الرائعة. ومن جهة أخرى، أحقّر نفسي إلى مستوى شخص منبوذ وضيع مُهان يحركه تعطّش لا يمكن إطفاؤه لعدالة وافتداء كونيين، ويضحي بنفسه بلا أدنى فائدة، وبأكثر طرق الموت رومانسية. ومن نصف إله قاس إلى عامل وضيع، مرورا بمراحل من الفنان إلى العبقري الكامل، وصَلت دوماً إلى المخلّص... سيلفادور، سيلفادور، سيلفادور! أستطيع تكرار اسمي الشخصي بلا كلل.... لقد عرفت أنه لا مفرّ من التضحية، وكنت أنظر حولي بحالة من الجبن البغيض. وكنت متأكداً من شيء واحد فقط: أنا لن أكون الشخص المُضحّى به!

في غرفة الطعام الكبيرة المغمورة بضوء شحيح. كان العشاء نوعاً من النقاهة اللطيفة بعد بلاغة ليلية عظيمة في قمة البرج. كان النوم قريباً جداً مني، ويجلس على المقعد المجاور لمقعدي، وكان أحياناً يمسك بقدمي تحت الطاولة، وعندها أتركه يصعد على طول جسدي كما ترتفع القهوة في كتلة من السكر. وفي إحدى الأمسيات، وقد أوشكت أن أنام عند نهاية الوجبة، سمعت السنيور بيشوت يتحدث من جديد عن موضوع قطاف براعم الزيزفون. وأخيراً تم تحديد يوم بعد الغد. وقد حان هذا اليوم، وإليك الآن القصة التي كنت تنتظرها بفارغ الصبر.

قصة العكاز وقطاف براعم الزيزفون

قصة فيها زوبعة وشمس حارقة، قصة تفيض بالحب والخوف، قصة مليئة ببراعم الزيزفون وعكاز لم يفارقني معه شبح الموت أبداً، وأعني بالضبط، ولا للحظة واحدة.

بعد الفجر بوقت قصير، استيقظت أبكر من العادة، وصعدت مع جوليا ورجلين آخرين إلى عليّة البرج لنجلب السلالم التي نحتاجها لقطاف براعم الزيزفون. وكانت العلية ضخمة ومعتمة وتحتوي بقايا مواد متنوعة. ولم أكن قد رأيتها سابقاً لأنها كانت مُقفلة. وعلى الفور، اكتشفت شيئين يظهران بشخصية مفاجئة من بين كومة أشياء أخرى غير جديرة بالاهتمام. كان الأول تاجاً[1] ثقيلاً مصنوعاً من أوراق الغار المعدنية الذهبية، مُثبّت بمكان بارتفاع رأسي وتتدلّى منه شريطتان حريريتان باهتتان مطرزتان بنقوش ورموز مجهولة بالنسبة لي. والشيء الثاني الذي صدمني باعتباره شخصياً بشكل رهيب ويطغى على كل شيء آخر، كان عبارة عن عكاز! لقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها عكازاً في حياتي، أو على الأقل، اعتقدت أنها المرة الأولى. وفي الحال ظهرت هيئته بالنسبة لي كشيء مدهش واستثنائي ومشاكس بإفراط.

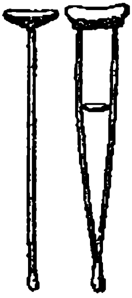

Béquilles.

---

[1] عرفت بعد وقت طويل جداً أنه، وبعيداً عن الطابع الجنانزي الذي نسبته له، كان هذا التاج هدية تم تقديمها كتحية إلى (ماريا غاي) في أوبرا موسكو بعد نجاحها في "أوبرا كارمن" التي ألفها جورج بيزيت.

استوليت على العكاز فوراً وشعرتُ أنني لن أستطيع في حياتي كلها أن أبتعد عنه، وكان هذا نوعاً من التعصّب العنيف الذي يسيطر عليّ في البداية تحديداً دون أن أستطيع تفسيره. إنه عكاز رائع، وبالفعل فقد بدا لي ككائن له إجلاله وقدرته العالية. وعلى الفور تم استبداله بمنفضة الفراش الخيزرانية القديمة ذات الشراشيب الجلدية التي كنت اتخذتها كضولجان لي لفترة طويلة، والتي أمضيت يوماً كاملاً كي أرميها خلف الجدار بعيداً عن متناول يدي. لقد كان القسم المتشعّب العلوي من العكاز، المعدّ ليتناسب مع الإبط، ملفوفاً بنوع من اللباد الرقيق المهترئ المبقّع باللون البني، وفي ذلك الانحناء اللطيف، كنت بدوري أسند عليه وجنتي الناعمة وأحني جبيني المتأمل. وعندما أنزل إلى الحديقة، كنت أعرج بشكل مهيب والعكاز في يدي. وقد منحني هذا العكاز أماناً بل حتى غطرسة لم أكن مؤهلاً لها في ذلك الحين. وبعد ذلك، وضعوا السلالم المزدوجة تحت أشجار الزيزفون التي تنمو وسط الحديقة، وفرشوا أغطية بيضاء كبيرة قرب جذوعها لتستقبل البراعم المقطوفة التي ستُجمع لاحقاً، وقد بدأت بعض البراعم المليئة بالأزهار تسقط عليها سلفاً. وبعد أن تم تثبيت السلالم، وقفت على كل منها امرأة أجهلها، وكانت امرأتان منهنّ جميلتين جداً وتشبه إحداهما الأخرى إلى حد كبير. كان لواحدة منهن نهدان كبيران جداً ومنتفخان، يمكن للعين متابعتهما بأدق التفاصيل الموجودة تحت سترة الصوف الضيقة التي تلتصق بشدة على تضاريس جسدها. وكانت الفتاة الثالثة قبيحة. كانت أسنانها بلون المايونيز، وكبيرة جداً بحيث برزت من لثتها المتورمة لدرجة بدت فيها وكأنها تضحك باستمرار. وكان هناك أيضاً شخصية رابعة تضع إحدى قدميها على الأرض، ويتحدّب ظهرها فوق أحد وركيها. لقد كانت فتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها، تقف إلى جانب السلّم الذي تقف عليه والدتها وتنظر إليها وتومئ،

كانت والدتها تحديداً، المرأة ذات النهدين الرائعين، وكانت قد أتت كي تساعد في الحصاد. وقد وقعتُ في حبها فوراً لأنني اعتقدت أن هيئتها الخلفية التي تذكرني بـ "دوليتا" كانت ملائمة تماماً لنبضات قلبي الأولى. بالإضافة لذلك، لم أكن قد رأيت دوليتا وجهاً لوجه، وكان من السهل جداً بالنسبة لي أن أمزج بين هذين الكائنين، تماماً كما كنت قد فعلت مرة مع غالوشكا المتعلقة بذكرياتي الزائفة، ودوليتا ريدفيفا! وعندئذٍ وبشكل تدريجي، لامست ظهر الفتاة بعكازي، والتفتت الفتاة بسرعة فقلت لها بيقين وقناعة تقارب حدّ الغضب "سوف تكونين دوليتا"

لقد أصبحت الصور الموجزة لغالوشكا ودوليتا منصهرة بقوة رغبتي نحو هذه الطفلة الجديدة التي اكتشفت الآن وجهها الذي لفحته الشمس لكنه حافظ على جماله كوجه ملاك. وعلى الفور، حلّ هذا الوجه محلّ وجه دوليتا الذي لم أره أبداً، بحيث اتحدت تلك الصور الثلاث لهذياناتي بمزيج لا يقبل التفكيك لكائن محبوب واحد فريد. لقد شحن شغفي الواقع القوي للصورة المتجسدة لحبي بطاقة جديدة لا يمكن مقاومتها.

كما أصبح توتري الجنسي الشبقي المختزن خلال سنوات العزلة والانتظار القلق متبلوراً في نوعٍ من حجارة كريمة شفافة متجانسة قاسية ومقطّعة إلى شكلٍ رباعي الوجوه رأيت فيها الروعة العذرية لحبي الثلاثي الذي لا يهدأً، تتألق تحت شمس أكثر أيام العام إشعاعاً.

بالإضافة إلى ذلك، هل أنا متأكد من أنها ليست دوليتا ذاتها في الواقع؟ لقد حاولت أن أجد في هذا الوجه المتكلّس لفتاة الريف، بقايا شحوب غالوشكا التي بدا وجهها وكأنه بدأ يتطابق مع وجه فتاة الريف من لحظة إلى أخرى. ثم ضربت عكازي ضربة عنيفة على الأرض وكررت قولي لها بصوت أجش يختنق بالعاطفة: "سوف تكونين دوليتا". وانسحبت الفتاة مندهشة من فظاظتي ولم تنطق كلمة واحدة. لا بدّ أن ظاهر حافزي الأولي نحوها قد فضح نواياي الاستبدادية بحيث فهمت أن من الصعب عليّ الآن أن أكسب ثقة الطفلة. ثم اقتربت خطوة منها. لكنها، تحت سيطرة خوف أشبه بخوف حيوان، وكما لو أنه بدافع الحماية، تسلّقت درجتين من السلم الذي كانت تقف عليه والدتها، وفعلت ذلك بخفة ورشاقة بحيث لم يعد لدي الوقت لألمس رأسها بطرف عكازي بلطف كي أهدئ من روعها، وأثبت لها لطف مشاعري.

لكن جميلتي دوليتا كانت محقّة تماماً بخوفها مني. وقد أدركت ذلك لاحقاً بشكل جيد جداً، لأن كل ذلك كان مجرّد بداية! وقد شعرت أنا نفسي في تلك السن، بانقباض يشير إلى نذير شؤم غامض وخطر يتفاقم بشكل كبير في الميزات الداخلية لشخصيتي النابضة المندفعة. كم من المرات، وبينما كنت أسير بشكل مسالم في الريف مترنحاً للأمام والخلف بأحلام يقظتي، شعرتُ برغبة لا تُقاوم بالقفز من أعلى جدار أو صخرة عالية جداً. لكنني وبسبب معرفتي بأن ما من شيء يمكنه أن يعيق هذا النبض، كنت أغلق عيني وألقي بنفسي إلى

الهاوية[1]. وكنت أبقى غالباً مذهولاً جزئياً، لكنني كنت أقول لنفسي بقلب هادئ: "لقد انقضى الخطر بالنسبة لهذا اليوم"، وكان هذا يمنحني نكهة جديدة شديدة الهيجان للحقائق المحيطة الأكثر تفاهة.

ومع اقتناعي بأنني لا أستطيع استعادة ثقتها، قررت أن أرحل الآن لكن ليس دون أن ألقي عليها نظرة حنان فائض أردتُ أن أقول من خلالها: "لا تقلقي، سأعود مجدداً". وبعدها ذهبت وتجولت هائماً في الحديقة. وحان الوقت كي أكرّس نفسي للرسم مُغلقاً باب مرسمي عليّ وعلى أكواز الذرة. لكن نهاري قد بدأ بتلك الطريقة غير المألوفة، وتلك اللقاءات الاستثنائية مع عكازي ومع دوليتا، بحيث قلت لنفسي مذهولاً بسحر قطاف براعم الزيزفون: "ربما عليّ أن أضع استثناءً على الخطة السابقة لعاداتي"، لأنه وبالفعل في تلك الفترة، سيطرت تلك العادات وكأنهن عشيقات قدري الاستثنائيات، وكانت أية مخالفة بسيطة لتلك القواعد، يُدفع ثمنها فوراً بجرعة من الإحساس بالذنب والمعاناة المؤلمة، بحيث أنني عندما أحسست بأنها بدأت تنخر في أعماق روحي، قمتُ بتغيير مفاجئ، وعدتُ إلى مرسمي مغلقاً الباب على نفسي. لكنني لم أشعر بالراحة هناك لأنني كنت أرغب بأن أكون في مكان آخر في ذلك الصباح، وبعد المشهد القصير المكثّف للقائي مع دوليتا، أردت أن أتجول بحرية في أماكن الحديقة الأكثر بعداً عنها كي أستطيع التفكير بها دون أي عوائق، ولكي أباشر في الوقت نفسه ببناء أسس مثالية للقائي الوشيك بها.

لكن لا! لقد كان استقصائي الذاتي يسجنني هنا! وبينما كان الوقت يمضي من دون أن تظهر أية أفكار لامعة في رأسي، وهو ما كان يُفترض

---

[1] أخبر المزارع الذي شهد واحدة من تلك السقطات الطوعية السنيور بيشوت بالحدث. لكن أحداً لم يصدق بأنني كنت قادراً على القفز هكذا دون أن أُقتل. لقد أصبحت متوافقاً تماماً مع القفز العالي بالتأكيد. ولاحقاً في دروس تمارين الرياضة البدنية في فيغوراس، حصلت على بطولة القفز العالي والطويل دون أي جهد تقريباً. وأنا لا أزال حتى الآن قافزاً جديراً بالاهتمام.

أن يحدث في كل صباح في ساعة إشباع (أناي)، بدأت أشعر بذنب يُطبق علي بالحديد الشائك للتعذيب العقلي المرعب.

كان الحضور المغوي لدوليتا يهاجمني من دون توقف. لكن في الوقت نفسه، توغّل ضدّها حقد غير مرئي في السماء الزرقاء الصافية ترافق مع أصداء باهتة لعاصفة. وللمرة الثانية، جاءت لوليتا بلمحة واحدة من حضورها لتقلقل بناء المعبد النرجسي لعزلتي السماوية وتهدمه وتدمّره وتبيده، ذلك البناء الذي تورّطت ببنائه بكثير من الصرامة والحدّة العقلية منذ وصولي إلى برج الطاحونة. وشعرت أن خدعة جريئة تقوم على كذبة أخدع بها نفسي، يمكنها أن تحررني للحظات من الجدران الأربعة لمرسمي الذي شعرت فيه بأنني مُقيّد بلا رحمة. ولهذا فقد أقنعت نفسي بضرورة البدء منذ اليوم وبدون أي تأخير، برسومات مستوحاة من حيواناتي وهي في حالة حركة. ولم يكن لديٍ أفضل من أن أجلب فأري الصغير وأجعله "موديلاً" مثالياً أستطيع معه أن أرسم لوحة كبيرة على نمط لوحة الكرز. لكن بدلاً من تجسيد المادة الجامدة ذاتها، سوف أكرر رسمه بوضعيات مختلفة. كما خطر بذهني أنه، بما أن للفئران ذيولاً، فمن الممكن أن أجد فكرة أصلية لإحداث "collage ملصقات، فن تلصيقي، مجموعة قطع مختلفة" حول هذا الموضوع.

Souris.

ومع أن مشروعي الجديد لم يكن مثيراً للاهتمام بشكل كبير، وشعرتُ بأنني في طريقي لتكرار لوحة الكرز، فقد حاولت أن أقنع نفسي بحجج كثيرة، ومهما كلّف الثمن، أن أذهب إلى قنّ الدجاج وأحضر صندوقي الذي يحتوي على الفأر الرمادي الذي سيصبح "موديل" لوحتي الجديدة. كما فكرت بأن أستغلّ قلقي وغضبي بسبب دوليتا، وأناغمه مع حركات الفأر المحمومة، وبهذا أعدّل معظم ألمي وأوجهه نحو عملي الفني المرتقب، وأحوّل غضبي إلى "فئة" الإنجاز الجمالي.

وأسرعت إلى قنّ الدجاج لأحضر فأري الصغير، لكنني وجدته بحالة غريبة. كان يبدو وكأنه متورمٌ، كما أصبح جسده النحيل الرشيق كروياً تماماً، وبدا كحبّة كرز تحولت بأعجوبة إلى كرة رمادية مشعرة. وأرعبني هذا التغيّر غير المرغوب فيه. لقد كان حياً وكنت أستطيع أن أشعر بأنفاسه التي كان إيقاعها غير طبيعي. ثم رفعته بحذر من ذيله وبدا تطابقه حينها مع حبة الكرز كاملاً مع انكماش أطرافه وسكونه التام. وبعدها أعدته بالحذر نفسه في قاع الصنوق، انتفض كله بحركة واحدة ضارباً وجهي المنحني فوقه بطريقة أمومية. ثم سقط مجدداً إلى الوضع الساكن الذي كان فيه. وأثارت قفزته غير المتوقعة بداخلي رعباً كبيراً احتاج معها قلبي لوقت طويل ليستعيد إيقاعه الطبيعي.

وجعلني استيائي الأخلاقي الهائل أغلقُ صندوق فأري تاركاً مساحة صغيرة له ليتنفس. ولم أحظَ بالوقت الكافي كي أشفى من ذلك الانطباع المؤلم حتى أكتشف واحداً من أكثر الأشياء التي تسكن ذاكرتي رعباً.

إن القنفذ الكبير الذي فقدته منذ أسبوع واعتقدت أنه فرّ بأعجوبة، ظهر الآن بشكل مفاجئ أمامي في زاوية قنّ الدجاج خلف كومة من الطوب ونبات القرّاص وكان ميتاً ومثيراً للاشمئزاز. كان جلد ظهره السميك المغطى بالأشواك يتحرك إلى الأمام والخلف بسبب حشد مسعور من الدود الذي يتلوى. وكان الزحف قرب الرأس كثيفاً جداً بحيث يمكن للمرء أن يقول إن بركاناً داخلياً حقيقياً من التعفن يوشك أن ينفجر بأية لحظة عبر جلده الذي مزّقه رعب الموت بثوران وشيك للخزي النهائي. لقد سيطرت علي رعشة خفيفة مترافقة مع وَهَن مريع في أطرافي وارتفعت قشعريرة باردة حادة على طول عمودي الفقري، واستقرت خلف عنقي ومنها عادت تتفرع عبر جسدي كله كانفجار ألعاب نارية في احتفال التأليه لرعبي. وبشكل لا إرادي، اقتربتُ أكثر من تلك الكرة الكريهة التي لا تزال مقززة بالنسبة لي. وأردتُ أن أنظر إليه بشكل جيد، لكن الرائحة الكريهة جعلتني أتراجع.

وهربت من القنّ بالسرعة القصوى، وباقترابي من براعم الزيزفون، تنشقت نفساً عميقاً من شذاها مطهّراً بها رئتي. لكنني توجّهت في الحال لمتابعة المراقبة اليقظة لقنفذي المتحلل. وخلال الوقت الذي أمضيته قربه، توقفت تماماً عن التنفس حتى فقدت القدرة على الاحتمال، فاندفعت مرة أخرى نحو قاطفات الزيزفون اللواتي كنّ قد كدّسن أكواماً يطنّ فيها النحل. واغتنمت نوبات التنفس تلك لأسكب ماء نظرتي القاتمة في البئر الشمس لعيني دوليتا السماويتين المشرقتين. واندفعت مرة أخرى إلى كرتي المرعبة، وعدت مرة أخرى لأتنفس العطر المنعش المحيط بدوليتا.

أصبحت حركتي بين دوليتا وقنفذي مكثفة وهستيرية لدرجة أحسست بها أنني لا أستطيع السيطرة على نفسي. وكنت أوشكُ لدى كل اقتراب من القنفذ، أن أرتكب حماقة لا يمكن إصلاحها، إذ يسيطر عليّ توق هائل لألقي بنفسي فوقه وألامسه، تماماً كما في كل مرة أعود بها إلى براعم الزيزفون، حيث يبدو أن من المستحيل عليّ أن أقمع رغبتي بعناق دوليتا واستخلاص النكهة الرضابية لروحها ووجهها الملائكي الريفي الخجول، من فمها نصف المفتوح مثل جرح.

وفي إحدى محاولات رجوعي نحو القنفذ، وصلت بسرعة كبيرة، واقتربت منه وقررت بحالة من فقدان القدرة على التحكم بعطالة مطاردتي العمياء، أن أقفز على جسده. لكنني تعثرت في اللحظة الأخيرة بحماقة بارعة جداً من وجهة نظر نواياي اللاواعية بعد أن اقتربت إلى مسافة ملمترات قليلة من السقوط على تلك الكتلة المظلمة البغيضة.

وبعد هذا التصرف اليقظ الذي شحذ الحافز المحموم لرغبتي وضاعف اشمئزازي، توصلت أخيراً إلى فكرة تمنحني إشباعاً عميقاً ولو بشكل مؤقت: أردتُ أن ألمس قنفذي النتن بعكازي. واستطعت بتلك الطريقة تحريك الكتلة الغبية حسب رغبتي دون أن أقترب منها. وكنت قد حاولت مسبقاً أن أرميه بحجارة صغيرة كي أراقب أثر

سقوطها على الطراوة المتعفنة للجسد المُقرف. لكن تلك التجارب، وعلى الرغم من الإحساس الذي حصلت عليه منها عند سقوط كل حجر، لم تبدُ لي بأنها حققت خصائص الخوف التي توقعت أن ترضيني تماماً. وعندئذٍ، أمسكت عكازي من نهايته، وضغطت نهايته "المتشعّبة" على استدارة جسد القنفذ الذي مزّقه الموت. لقد تكيّف تشعّب العكاز مع الكرة العجينية المتصلّبة لدرجة يظنّ المرء فيها أن أحدهما قد صُنِعَ من أجل الآخر، ويصبح من المستحيل أن تعرف إن كان العكاز يمسك القنفذ، أم أن القنفذ يمسك العكاز.

لقد أثارتني تلك الكومة المعذّبة بذلك الرعب الهائل، وتلك الشهوانية المَرَضيّة بحيث اعتقدت أنني سأفقد وعيي، وخاصة عندما انقلب القنفذ رأساً على عقب بتأثير الحثّ الاستكشافي لعكازي الذي يدفعه فضولي. ومن بين قوائمه الأربع المتصلّبة، رأيت حشداً من الديدان الكبيرة ترشح بشكل مقيت بعد أن ثقبت الغشاء البطني الدقيق المخضّب باللون البنفسجي بعد أن أبقاها حتى الآن وسط هذا الخليط المُدمج الملتهم الضيَق. ثم هربت تاركاً عكازي في تلك البقعة، وفي هذه المرة، بأسرع مما كنت أتوقع.

عدت أراقب قطاف براعم الزيزفون مدركاً أنني خسرت عكازي بسبب التمرّد الآني لرغبتي، ولم أعد أستطيع أن أحظى بالأمان الذي وفّره لي. لأنه بسبب تلوثه بالحشد الغروي للديدان الموجودة على القنفذ، قد تحوّل من رغبتي المنحرفة المفضّلة لي، إلى مادة مرعبة مشابهة للموت.

لكنّي لم أستطع أن أستسلم لفكرة أن أصبح وحيداً بالكامل وإلى الأبد بعيداً عن عكازي الذي تضخّمت مشاعري المنحرفة نحوه واندمجت في الفترة الصباحية. وأخيراً وجدت الحلّ المُرضي الذي سيعيد ملكيتي لعكازي بعد أداء بعض الطقوس التمهيدية. رجعت إلى المكان وحررت عكازي دون أن أنظر إلى القنفذ في هذه المرة. وغمست نهايته الملوثة في

مجرى ماء الطاحونة في الموقع الذي كان تيار الماء على أشدّه مكوناً دوامات صغيرة من الزبد الأبيض. وبعد أن غمرته ما يكفي من الوقت، تركته يجفّ على كومة من براعم الزيزفون التي تتدفأ بحرارة الشمس، ثم أخذته إلى أعلى البرج في ساعة الشفق. وهكذا في تلك الليلة، وفي الفجر المُثقل بالندى الكثيف لتوبتي، أعدت نقاء عكازي بالكامل.

وانتهيت من تنفيذ خطتي واستطعت بروحي الهادئة أن أشعر بكرة الموت السوداء التي لا تزال مثيرة بالنسبة لي. وبعد غداء رائع، جاءت فترة بعد الظهر. وبدأت نظراتي الفاترة الآن تتبع أحداثاً مختلفة حول قطاف البراعم، كانت دوليتا أيضاً تنظر إليّ باستمرار، مثل غالوشكا تماماً. ولم تتركني عيناها الثابتتان لحظة واحدة، كنت واثقاً جداً من أنها ستطيعني في كل ما سأطلبه، بحيث أستطيع أن أتذوق ببهجة تلك الشهوانية التي تمثّل فخامة الحب كله، والتي تتوقف على أن تكون قادراً بحالة من اللامبالاة، أن توجّه انتباهك ونظراتك إلى مكان آخر بينما تشعر بالتقارب العاطفي لكائن فريد أصبحت بفضله كل لحظة من لحظاتك أشبه بقطعة من الفردوس، لكنه الكائن الذي يأمرك انحرافك الخلقي أن تتجاهله بينما تُبقي عليه مقوداً كالكلب خلفك. ومع ذلك، تكون أمامه مستعداً لأن تتذلل بتملق كلب حقيقي وجبنه، في اللحظة التي تجد نفسك فيها في خطر أن تفقد ذلك الكائن المحبوب الذي تظاهرت أمامه حتى هذه اللحظة، بأنك تتعامل بميزة شدّة التأنق والعاطفة الهوسية.

بمعرفتي أن دوليتا معلّقة بشدة إلى مقود إغوائي، حوّلت نظري إلى مكان آخر، إلى باطن ذراع المرأة ذات النهدين المنتفخين العاري. لقد كان إبطها تجسيداً للنعومة الهائلة، وكان ذلك الجزء غير المسمرّ من جسدها شاحباً وجميلاً ومتألقاً ويخدم كإطار حلم للسواد المفاجئ لشعر إبطها. لقد كانت نظرتي تائهة بشكل متناوب بين عشّ الشعر الأسود الغريب المُحاط باللحم الجميل، ونهديها المكتنزين اللذين شعرت بحجميهما السماويين

يثقلان على كل جفن من جفنيّ نصف المغلقين بشهوانية مختلطة لرؤيتي واستيعابي. ومن خلال خمولي المخدّر الآن، شعرت بتبرعم أخيولة جديدة لا تُقهر، ومرة أخرى، اندفعت الخيول الصغيرة الفضية السريعة لحزني داخل قلبي. هذا ما أراده سيلفادور الآن! أردت أن أخرج عكازي من قبره تحت براعم الزيزفون، و"بالتشعّبات" ذاتها، التي لمست بها القنفذ وقلبته، وبينما أقوم بتعطير تشعّبات عكازي بحذر شديد، أريد الأن وبرقّة هائلة، أن ألمس نهدي ملتقطة البراعم بأقل ضغط ممكن على كرتي النهدين اللذين دفأتهما الشمس.

لقد صيغت حياتي كلها من نزوات من هذا النوع، وكنت مستعداً دوماً لأن أتخلّى عن أفخم رحلة إلى جزر الهند من أجل حالة إيمائية صغيرة طفولية وبريئة كتلك التي وصفتها للتو. ومع ذلك، هل كانت هذه الأشياء بالبساطة التي تبدو عليها؟ لقد أقنعتني تجربتي بالعكس تماماً، وكان رأسي مزدحماً بخطط استراتيجية تتنافس بالقوة والمهارة والنفاق والمكر، والتي ربما كسبتُ بسببها تلك الحرب الاستباقية ضد واقع جلبَ لي المجد والإدراك البطولي لأخيولاتي: لألمس النهدين بتشعبات عكازي. وبعد ذلك، يمكن لهذا العكاز أن يصبح من جديد صولجاني الملكي!

غربت الشمس وتضخّم هرم براعم الزيزفون، وكانت دوليتا مستلقية على الأزهار بوجهها المقمر. وغدت أخيولة لمس النهدين بعكازي أكثر وضوحاً، وتحوّلت إلى رغبة أفضّل الموت على أن أمنع نفسي عنها. وعلى أية حال، كان أفضل ما أقوم به هو أن أذهب وأتنكر بملابسي الملكية، لأنني عندما أرتدي هذا الزي، تصبح خططي كلها مصبوغة بالجرأة الشديدة والإلهام. كنت أرغب أن أخرج مجددا في هذا الزي، وأستلقي إلى جانب دوليتا على كومة براعم الزيزفون، بحيث أستطيع حينها أن أتابع النظر إلى نهدي قاطفة البراعم. وعندما تراني دوليتا مرتدياً هذه الزي مع كل الزخارف التي يرتديها الملك، ستشعر بأنها تموت حباً.

صعدت بسرعة إلى غرفتي، وأخرجت ثوب فرو القاقم من الخزانة ووضعت التاج على رأسي بالشعر المُستعار الأبيض الذي يتدلّى بنعومة على كتفي. لم أرَ نفسي وسيماً يوماً مثلما رأيت نفسي في ذلك اليوم. واخترق شحوب شمعي جلد بشرتي المسمرّ، وكان للهالتين اللتين تحيطان بعيني الجاذبية ذاتها لرضّ بني اللون كنت قد راقبته بلا كلل لمدة ساعة في ثنايا إبط قاطفة براعم الزيزفون، تماماً حيث تتشكّل ثلاث ثنيات صغيرة في كل مرة تخفض فيها ذراعها. ثم تركت غرفتي عازماً على أن أعود إلى الحديقة، متنقلاً بالصمت الهادئ المترافق مع شعور بالوسامة لا يُقاوم.

وقبل أن أصل إلى الدرج الرئيسي، كان عليّ أن أجتاز ردهة مغلقة تقع في الطابق الثاني وتظهر الحديقة منها عبر نافذة صغيرة تضيئها الشمس بقوة. وكان في هذه الردهة ثلاث بطيخات معدّة للتخمير تتدلّى من السقف بخيوط. وبينما توقفت لمراقبتها، خطرت بذهني فكرة ستحلّ مشكلتي وتجعل أخيولتي الجديدة المتعلّقة بقاطفة البراعم ممكنة. وكانت الردهة نصف معتمة على الرغم من الضوء القوي القادم من النافذة الصغيرة. إن استطعت أن أجعل قاطفة البراعم تضع سلّمها قريباً من النافذة وتصعد عليه، سأستطيع حينها أن أرى نهديها ضمن إطار النافذة كما لو أنهما معزولان عن باقي جسدها، كما سأستطيع أن أراقبهما بكامل شراهة نظراتي دون أن يراودني شعور بالخجل الناتج عن احتمال وجود شخص يراقب رغبتي ويكتشفها. وخلا مراقبتي لنهديها، سأضغط بعكازي على إحدى ثمرات البطيخ المتدلية، محاولاً أن أحصل على إدراك مثالي لوزنها عبر رفعها بشكل طفيف. وفجأة، بدت لي هذه العملية مذهلة وعملية أكثر بمئة مرة من أخيولة اللمس المباشر للنهدين. وبالتأكيد، بدا وزن هذه البطيخة وكأنه يمتصّ تلك الخطورة المختمرة لرغبتي، كما أن فرضية أن تكون هذه البطيخة حلوة ولذيذة، امتزجت بمخيلتي وبشكل هائل مع الانتفاخ الحقيقي لنهدي

قاطفة البراعم، حيث بدا لي فعلاً أنه بفضل الحيلة التي سأستخدمها، لا أستطيع أن أضغط النهدين بتشعبات عكازي بحنان فقط، بل أستطيع أن "آكلهما" أيضاً، وأخرج ذلك السائل الحلو الزكي الذي لا بدّ أن يكون موجوداً فيهما كما هو موجود في البطيخة.

ولكي تقترب قاطفة البراعم من النافذة بالقدر الكافي لتنفيذ حيلتي، صعدت إلى شرفة الطابق الثالث، وأتممت المهمة الصعبة المرتكزة على تعليق خيط لعبة "الديابولو" على نقطة محددة من عريشة الأزهار التي تتسلّق واجهة المنزل، كما استعنت بقصبة طويلة كي أشبك خيط لعبتي بين الأشواك قدر استطاعتي بغية أن أطيل المدة الزمنية اللازمة لحلّ عقدتها وأجعلها مؤلمة قدر الإمكان. لقد احتاجت هذه العملية إلى الكثير من الوقت وكانت ناجحة جداً. ولو حدث في تلك اللحظة أن راقبني شخص ما من الحديقة، لاعتقد أنني أحاول حلّ تلك العقدة الصعبة.

وبعد الانتهاء من تحضير الطُعم، خرجت إلى الحديقة واقتربت من سلّم قاطفة البراعم ذات النهدين الجميلين، وتوسلت إليها كي تساعدني على تحرير لعبتي التي أشرت نحوها بعكازي بعد أن أخرجته من كومة الأزهار حيث بقي منذ الظهيرة. وأوقفت قاطفة البراعم عملها ونظرت باتجاه لعبتي. وبتصرّفها على هذا النحو، اتخذت موقفاً يعبّر عن ارتياح ممتع يتماشى مع "بقيّة" طال انتظارها. لقد وزّعت وزن جسدها كله بين أحد مرفقيها القويين وساقها المعاكسة له بحيث تقوّس وركها بشدّة، واتخذ شكلاً جميلاً جداً عززته حركة ذراعها الحرّة التي ارتفعت لترتّب شعرها الأشعث. وفي تلك اللحظة تماماً، سقطت قطرة عرق من إبطها الرطب وأصابتني وسط جبهتي كواحدة من قطرات المطر الدافئ التي تهطل في عواصف الصيف الحارة، إنها قطرة العرق التي كانت "في الواقع الحقيقي" كالوحي المنذر بعاصفة الطبيعة التي تشترك مع العاصفة الموجودة في روحي، والتي خبأها القَدَر لليوم التالي وفي الساعة ذاتها تقريباً.

ولم يكن عليّ أن أكرر طلبي إلى الفلاحة مرة أخرى لأن من المفهوم تماماً في محيط برج الطاحونة (وبأمر صريح مباشر من السنيور بيشوت ذاته) أن أصغر نزواتي يجب أن تُطاع، وأن تنفيذها أشبه بقانون يُطبّق على أي شخص. وبعد أن استمتعت المرأة باستراحة قصيرة تركت خلالها جسدها كله معرّضاً للضوء، وكانت أشبه بمنحوتة فنيّة، نزلت عن السلّم وسحبته بمساعدة دوليتا وقرّبته من الجدار حيث المكان الذي اخترته. وكانت هذه العملية طويلة نوعاً ما لأن السلّم كان بعيداً قليلاً وكان من المفترض دفعه إلى البقعة المحددة بنقلات قصيرة. بالإضافة لذلك، كان من الضروري، بما أنه كان قريباً من الجدار، أن يثُبت بشكل جيد قبل المغامرة بتسلقه.

مستغلاً فترة التأخير هذه، هرعت إلى غرفتي كي أخلع ملابسي كلها. وأتذكر أنها كانت إحدى فرص حياتي التي اعتقدت فيها أنني الأكثر وسامة بينما كنت أراقب انعكاس هيئتي في المرآة. ورغبتُ بحماس في تلك اللحظة أن يكون العالم كله مُعجباً بجمالي الاستثنائي، أو على الأقل أن تكون كذلك قاطفة البراعم المحبوبة ودوليتا الجديدة. لكن لم يكن لدي رغبة بأن أظهر بهذا الشكل فجأة، ولذلك فقد غطيت عريي بثوب فرو القاقم. وعلى الرغم من حقيقة اسمرار وجهي بتأثير الشمس، فقد كشف وجهي عن طيف شحوب يعود إلى الضوء المخضرّ المنعكس عن أشجار الزيزفون في الحديقة. ونزلت إلى الردهة المظلمة حيث كانت ثمار البطيخ معلّقة، وفي لحظة وصولي إليها تقريباً، ظهر جسد قاطفة البراعم خلف إطار النافذة الصغيرة. وكنت قد اتخذت قياسات جيدة! واعترض الجزء الأدنى من النافذة جسدها تماماً حيث يبدأ الفخذان، بينما ظهر الجزء العلوي منها بالكامل مقطوع الرأس. وبحركات من كتفيها وذراعيها المرفوعين، استطعت أن أراقب عملها غير المثمر، وأراقب الجهد الذي كانت تبذله لتحلّ عقدة الخيط التي ربطتها بإحكام بالأغصان المتشابكة الشائكة للزهرة الغريبة التي تسلّقت واجهة برج الطاحونة.

وكما وصفتُ للتو، فقد ملأ جسد المرأة الفراغ الداخلي للنافذة، وحجب ضوء الردهة الضعيف الذي وقفت في ظلاله. وكانت الحرارة تحت ثوب القاقم السميك خانقة. وبينما كنت أتصبّب عرقاً، تركت الثوب ينزلق على الأرض فانسابت برودة لطيفة لتلامس جسدي وتعانق عريه. وفكرت: من غير الممكن أن تراني هكذا، وسوف أعرف اللحظة التي تصبح فيها مستعدة لنزول السلّم، وأكون قادراً على أن ألبس بسرعة أو أن أختبئ خلف الجدار.

وللحظة، استسلمت لأخيولة لعبتي من دون خوف. ووضعتُ شعبتي العكاز بلطف أسفل البطيخة المعلّقة، وضغطته بكل ما لدي من حنان، وفاضت عيناي بالدموع. لقد تجاوزت طراوة البطيخة كل توقعاتي. وكانت ناضجة جداً بحيث أن عكازي انغرس فيها على الرغم من بساطة الضغط، فأصدرت صوتاً حنوناً مُبهجاً. وبعدها، رفعت عيني إلى الأعلى لألصقها على نهدي المرأة التي تصارع بقوة لتحلّ عقدة لعبتي. ولم أستطع أن أرى النهدين بوضوح كبير، لكن كتلتهما الكبيرة المرئية من خلال الضوء، أثارت طاقتي الجنسية غير المشبعة. وسرعان ما بدأت الثمرة تمطرني بقطراتها وترشقني بعُصارتها الكثيفة التي بدت متباعدة في البداية لكنها ازدادت كثافة. وفي هذه اللحظة تماماً، ركزت وجهي تحت البطيخة فاتحاً فمي ومادّاً لساني العطِش الجاف من الحرارة والرغبة. وهكذا حصلت على العصارة المتناثرة الحلوة التي تتخللها لسعات الأمونيا الواخزة. وقد جعلتني تلك القطرات التي تلاشت في فمي، أشعر بعطش شديد بينما كانت نظراتي تتوه بجنون بين البطيخة والنافذة في حالة سعار حقيقي سرعان ما وصل ذروته بهذيان طمس كل إدراكي لتصرفاتي. ثم وجّهت نظرة قاسية إلى عكازي، وأنا أفكر بأن أغرسه في البطيخة بطريقة مؤثرة عنيفة كي أخرج من أحشائها أقصى ما يمكن من حياتها وعُصارتها. وقبيل النهاية، أصبح الإيقاع التبادلي لنظرتي بارزاً: بطيخة، نافذة! بطيخة، نافذة! نافذة، بطيخة....

ثم تعمّقت نظراتي واهتاجت بشكل هستيري لأن البطيخة انفجرت فجأة، وسقطت على رأسي في اللحظة ذاتها التي نجحت فيها قاطفة البراعم بتحرير لعبتي وبدأت تنزل السلّم. وعندما بان وجهها، بالكاد كان لدي الوقت الكافي لأستلقي على الأرض خارجاً من نطاق رؤيتها. واستلقيت على ثوب فرو القاقم الذي كان قرب قدمي مبللاً بعُصارةٍ البطيخة الصفراء. وبأنفاس لاهثة متعبة، حاولت أن أمسك نفسي منتظراً أن تصعد المرأة التي أوشكت أن تكتشف عريي بضع درجات أخرى لتنظر إلي، لكنني ومن دون الحاجة لأن ألتفت برأسي، استطعت أن أعرف إن كانت قد صعدت أم لا من خلال الظل الذي كان سيتركه جسدها، تماماً كما حدث منذ فترة عندما اعترضتْ إطار النافذة.

لكن لم تأتِ تلك اللحظة المُنتظرة التي تسبب التوتر والجنون. وبدلاً من ذلك الظل العزيز، دخل ضوء غروب الشمس المائل البرتقالي، وارتفع ببطء على طول الجدران البيضاء التي ظهر عليها ظل اثنتين من ثمار البطيخ التي لم تُمس. وقد انقضى افتتاني ولم يعد لدي أية رغبة لأن أعبث بهما، ومن غير الممكن تكرار أمر كهذا. لقد سيطر على جسدي إرهاق شديد جعل حركاتي مؤلمة. وبدا لي ظل ثمرتي البطيخ رمزاً شريراً لا قدرة لديه على إثارة صورة نهدي قاطفة البراعم الجميلين في داخلي. وبدلاً من ذلك، أصبحت حركاتهما تبدو لي الآن أشبه بشيئين ميتين ملفوفين بكرتين، أو مثل قنفذين متعفنين. واقشعرّ بدني. ثم صعدت إلى غرفتي ولبست ثيابي ببطء شديد، متوقفاً كل حين لأستلقي على السرير وأغلق عيني. وهكذا غمرتني الظلمة في غرفتي.

كان عليّ أن أسرع إن كنت لا زلت أرغب أن أستغلّ قمة البرج. وصعدت القمة حاملاً عكازي. كانت السماء مليئة بالنجوم، وشعرت بأنها ترمي بثقلها على خمولي بحيث لم يعد لدي الشجاعة لأن أشرع بأية فكرة من أفكاري الخيالية الفخمة التي يعود الفضل عادة في تحفيزها إلى المكان.

وفي وسط شرفة البرج تماماً، كان هناك مكعّب صلب مزوّد بثقب يحتمل أنه معدّ ليمسك قضيب مروحة تحديد اتجاه الريح. وكانت قاعدة عكازي أرفع قليلاً من مساحة الثقب. ومع ذلك فقد وضعته فيه بشكل عمودي يترنح قليلاً نحو اليمين. وكان الوضع المائل لعكازي مُرضياً لي أكثر من الوضع العمودي تماماً، ثم رجعت وتركته في تلك الوضعية. وإن استيقظت ليلاً، فسوف أتذكر عكازي الراقد على الشرفة ما يمنحني وهم الشعور بالأمان، لكن هل استيقظت؟ لقد أثقل رأسي نومٌ بوزن الرصاص بعد يوم عامر بالمشاعر. ولم أعد أريد أن أفكر بأي شيء سوى النوم.

ثم نزلت الدرج كالمسرنم، مصطدماً بالجدران عند كل انحناء، ومطلقاً في كل مرة تأوّهاً خفيفاً تنفذ من خلاله الطاقة الكاملة لرغبتي:

"ستكونين دوليتا! ستكونين دوليتا! غداً!"

عرفت أن قطاف براعم الزيزفون سينتهي غداً. وكانت دوليتا في الصباح التالي هناك. ثم أشرقت الشمس وتابعت قاطفة البراعم عملها بنهديها الكبيرين المتدليين، وثمرتا البطيخ متدليتان. لكن اهتمامي الذي كان منصبّاً على النهدين ليلة البارحة، قد اختفى الآن تماماً، ويعود الفضل بهذا النجاح لأخيولاتي حول ثمرة البطيخ. ولا يتعلّق الأمر فقط بأنني لم أستطع أن أستردّ آثار رغباتي التي كانت حيّة بقوة مع كل ذلك، بل سيطر عليّ اشمئزاز حقيقي بينما أعدت بناء المشهد في عقلي. لقد تلطّخ ثوب فرو القاقم بعصارة البطيخ الواخزة والحلوة بكثافة، ولم يعد النهدان بالنسبة لي على ذلك القدر من الجمال، بعد أن رأيتهما من جديد، وعلى أية حال، فقد كنت بعيداً بالتأكيد عن احتمال أن أمنحهما ذلك العنصر الشِعري الوجداني الذي كانت نظرة واحدة نحوهما في اليوم السابق، تجعل الدمع ينهمر من عيني.

أما اليوم، فأنا أشعر بنفسي مسحوراً بشكل خاص برهافة خصر دوليتا الذي تتناقص أبعاده بينما تتقدم الشمس إلى ذورتها، والتي تظهر

ظلالها العمودية، الهشاشة الضعيفة للساعة الرملية التي تكوّن جسدها. لقد بدت بالنسة لي – الجسد النحيل الأكثر مدعاة للفخر بين الجميع، إنه جسد دوليتا الجديدة، جسد غالوشكا ريدفيفا.

لم أكلمها في الصباح عندما رأيتها مرة أخرى، لكنني قلت في نفسي: "لن يكون اليوم أحد سواها! ولدي كل الوقت الذي أحتاجه!"

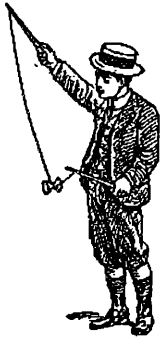

Diabplo.

وبدأت ألعب "بالديابولو"، وكنت ماهراً جداً في هذه اللعبة. وبعد أن جعلتها تدور وتتزحلق ببراعتي النزوية بجميع الاتجاهات، قذفتها في الهواء إلى ارتفاع كبير وأمسكتها بالخيط الممدود بين القصبتين اللتين أمسكهما، وكنت أستطيع أن أفعل ذلك مراراً وتكراراً، وأعيد إمساكها في كل مرة. وشعرت أن دوليتا معجبة بي، وأردتُ أن أريها المشهد الأكثر جمالاً. وبدأت أقذف "الديابولو" أعلى وأعلى، وأخيراً أفلت مني ووقع على شجيرة مزهرة. وهرعت دوليتا المستمتعة المبتسمة لتلتقطه، وترددت قليلاً بأن تعيده إليّ، وطلبت إلي أن أدعها تلعب به، لكنني أخذته من يدها دون أن أجيبها وتابعت اللعب.

لكنني في كل مرة أقذف "الديابولو" في الهواء، أشعر بنفسي مطوقاً بغمّ عنيف ناتج عن خوف من احتمال عدم إمكانية التقاطه (الذي بدأ يتكرر من تلك اللحظة)، كما أحدثت محاولات دوليتا لاستعادة لعبتي سباقاً فيما بيننا، وتصرّفات عدائية من جهتي. وكانت دوليتا، تستسلم دوماً بابتسامة، لكن مع طلبها الذي لم أوافق عليه، والذي يستبقه غروري كل مرة برفض، فقد خلقت هي في عقلي جرثومة تأنيب ضمير حوّلتها أنا بسرعة كبيرة إلى حقد. لم أستوعب أنها وبدلاً من الإعجاب بي وأنا ألعب، وبدلاً من مراقبة حركاتي العجيبة الموجّهة لها بشكل خاص، فضّلت أن تلعب بنفسها!

وعندئذٍ، أطلقت "الديابولو" بعنف في الهواء، حيث كان "المبدأ النقـي" أزرق اللون، وارتعشت لخوفي من عـدم القـدرة علـى التقاطـه. لكـنني أمسـكت بـه بشكل رائع هذه المرة. ولم أنتهِ من الإمساك به حتى قذفته مـرة أخـرى بقـوة أكبر بكثير وبشكل غبيّ أيضاً بحيث هبط بعيداً جداً.

وانفجـرت دوليتـا بضـحكة جـرحتني في كـل خليـة مـن كيـاني، وركضت لتلتقط اللعبة، وتركتها لأنني كنت أحتفظ بـالخيط والقصـبتين في يدي ولن تستطيع أن تلعب بدونـهما. ثم تبعتـها ببطء وعيناي مليئتان بغضب دفين. ويبدو أنها فهمـت مـوقفي بسـرعة واسـتعدّت هـذه المـرة لمقاومة طويلة. ولاحق أحدنا الآخر بشيء من الضـيق، ومـا إن أسـرعت قليلاً حتى أسرعت بدورها وبالشكل الكافي فقط للإبقاء على مسافة ثابتة بيننا، ومشينا حول الحديقة على هذا النحو عدة مرات.

وأخيراً ذهبت واستلقت علـى إحـدى أكـوام الـبراعم الـتي تم تصـنيفها بأنها سيئة لأن أزهارها صفراء اللون ومريضة، واستنزف النحل محتوياتـها. اقتربت منها بلطافة معتقـداً أنهـا سـتعيد لـي لعـبتي، وأخـذت كميـة مـن البراعم البيضاء وألقيتها عليها. لكنها استلقت على بطنهـا في هـذه اللحظـة وأخفت "الديابولو" تحت جسدها وكأنهـا تريـد الاحتفـاظ بـه مهمـا كلـف الثمن. وبمشاهدتي لها من الخلف، أحسست أنها جميلة بشكل استثنائي، ويستطيع المرء أن يرى بين أليتيها المستديرتين وظهرهـا، الهاويـة الجوفـاء لخصرها المدفون جزئياً بين الأزهار. ثم ركعت علي ركـبتي فوقهـا وطوّقـت خصرها الملائكي بلمسة لطيفة غير محسوسة تقريباً وقلت لها:

"أعطيني الديابولو...."

وأجابت: "لا!"....

وكررت طلبي فكررت إجابتها.

ثم ضاعفت الضـغط علـى خصـرها: "أعطـيني الـديابولو.. أعطـيني الديابولو!"

"لا!"

ثم ضغطت خصرها بكل ما استطعت من قوة: "أعطيني الديابولو!..." حتى تأوهت من الألم.

ثم اهتزّ كتفاها الصغيران، فدفعت "الديابولو" وتركته يسقط. والتقطته بدوري وابتعدت قليلاً. نهضت هي من مكانها وراحت تلتمس ملاذاً تحت السلّم الذي تعمل فوقه والدتها. لقد كانت قائمتا ذلك السلّم مربوطتين بحبل مشدود يمنع انفصالهما. وبكياسة ملائكية، أمسكت دوليتا قائمتي السلّم بذراعيها منحنية على الحبل المشدود بالجزء الأشدّ نحولاً من خصرها الذي كنت قد عصرته بقسوة للتو. كما استطعت أن أشعر بالألم الذي افترضت أن ينتجه الحبل المشدود على ظهرها. وكانت تبكي بنبل كامل دون أن تظهر أي تكشيرة على فمها. وقد استطعت أن أرى تماماً أنها تستطيع أن تكبح حتى هذا الأمر بحيث لا يمكن لأي شخص أن يلاحظ أي شيء. لكنني شعرت بالخجل وبدأت أبحث عن وسيلة تخلّصني من نظراتها المبللة بالدموع.

ثم داهمتني رغبة قوية بعزلة كاملة، وشعرت بأنني مستعدّ للهرب إلى أي مكان عندما استولت عليّ خطّة جنونية بطريقة ساحقة لا يمكن لأي قوة في العالم أن تعدّلها. وكان ما خططت للقيام به هو أن أصعد وألعب بالديابولو في أعلى البرج أقذف به بكل ما أستطيع من قوة. وإن كان يجب أن يسقط خارج البرج، فسوف يضيع! وقد جعل هذا الخطر قلبي يخفق بعنف.

وعندئذٍ سمعت جوليا تأتي لتدعوني إلى الغداء. وتظاهرت بأنني لا أسمع واتجهت إلى البرج بأقصى سرعة، لأن عليّ بالمطلق أن أختبر الإحساس بلعبتي مرة على الأقل قبل أن أنزل إلى غرفة الطعام.

وحالما وصلت، قذفته في الهواء بكل قوتي واتجه إلى حافّة البرج. لكن مهارتي وليونة جسدي العجيبة مكنتاني من الانحناء على حافة البرج كي ألتقطه. كما أن الخطورة التي ترافقت مع هذه الحركة لحماية لعبتي،

جعلتني أشعر بالدوار، وكان عليّ أن أجلس على الحافة لأسترد أنفاسي. وبدت حجارة الشرفة وعكازي المغروس في المنتصف وكأنها تترنح من حولي، كما استمرّ شخص ما في الأسفل بالصراخ باسمي. ونزلت إلى غرفة الطعام وقد سلبني الدوار كل رغبة لي بالطعام. وكان السنيور بيشوت يعاني من ألم الرأس أيضاً، وقد لفّ حزاماً أبيض مشدوداً حول رأسه. على الرغم من الرعب الذي كنت قد عانيته للتو، وَعَدت نفسي بأن أعود مجدداً بعد انتهاء الغداء، وأحضر الديابولو الذي تركته على شرفة البرج، بحيث أستطيع متابعة اللعبة ذاتها. ووعدت نفسي على أية حال، بأن أكون أكثر حذراً في المرة القادمة. ذهبت بعد الغداء مباشرة ولعبت، كذلك فعلت في المساء، وكنت أفكر فعلياً بالغروب. لقد أردت أن أتجنّب دوليتا في بعد ظهر ذلك اليوم، وأردت لليل أن يأتي بسرعة!

لا تكن نافد الصبر يا سيلفادور، في هذه الليلة تحديداً، ستحدث التجربة الأكثر تأثيراً في حياتك التي تحيطها الشمس الغاربة المذهلة بهالتها — انتظر، انتظر!

بعد الغداء، توجّه السنيور بيشوت إلى الشرفة وأغلق المصاريع بنفسه، وأمر بتنفيذ الأمر ذاته على جميع شرفات برج الطاحونة ونوافذه. وأضاف: "إننا ندخل في عاصفة". نظرت بذهول إلى السماء التي تبدو زرقاء صافية كالعادة. لكن السنيور بيشوت أخرجني إلى الشرفة وأرشدني إلى نقطة بعيدة في الأفق، تتراكم فيها بعض الغيوم الخفيفة البيضاء كالثلج، حيث بدت وكأنها ترتفع بشكل عمودي وقال مشيراً إليها بإصبعه:

"أترى تلك الكتل العالية؟ قبل أن يحين موعد الشاي، سيكون لدينا برق ورعد، إن لم يكن أكثر من ذلك".

وبقيت متمسكاً بقضبان الشرفة الحديدية أراقب تضخم تلك الغيوم بذهول كامل وانبهار. كان كما لو أن بقع الرطوبة على السقف المحدّب لمدرسة السنيور ترايت، وحيث كنت قد رأيت كل موكب أخيولاتي

الأولى لطفولتي التي طُمست منذ ذلك الحين في طبقات ذاكرتي المنسية، قد أعيد إحياؤها الآن فجأة في مجد الجسد، وبالشكل النقي لأبراج تلك الغيوم اللامعة التي ترتفع في عدة نقاط في الأفق.

خيول مجنّحة تنفخ صدورها، ومنها أزهرت رغبتي الهذيانية بالنهود كلها وبثمار البطيخ وألعاب "الديابولو" ذات الخصور النحيلة. وحالياً، انقسمت إحدى تلك الغيوم التي انتفخت بسرعة إلى حدّ اتخذت فيه شكل فيل ضخم أو وجه إنسان، إلى قطعتين كبيرتين، وبسرعة كبيرة، ودون أن يستطيع أي شخص أن يلاحظ الأمر، تحوّلت إلى جسدين مشدودي العضلات لمُصارعين ملتحيين هائلي الحجم، يحملُ أحدهما صورة ديك مطبوعة على ظهره. واقترب هذان المصارعان الآن أحدهما من الآخر بعنف، وتلاشت الفسحة السماوية الزرقاء الكوبالتية التي لا تزال تفصل بينهما بسرعة في صراعهما النهائي. وكانت الصدمة شرسة جداً بحيث أن الحركة البطيئة لإيماءاتهما التي اعتمداها جعلت الحسم أكثر خلوّاً من الإنسانية. لقد رأيت الجسدين معاً يخترق أحدهما الآخر بقوة الهمود اللاواعية التي دمرتهما فوراً، ومزجتهما في خليط واحد وفريد، طمسا فيه شخصيتيهما اللتين امتزجتا الآن في اللاشكل.

وعلى الفور بدأ الأخير يلحظ نفسه في دوامة من الصور الجديدة! لقد أدركت ذلك فوراً! لقد كان التمثال النصفي لبيتهوفن، ذلك التمثال النصفي الذي تضخم بسرعة كبيرة جداً بحيث بدا معه وكأنه يملأ الآن السماء كلها. إنها جمجمة بيتهوفن المحنية بكآبة فوق السهل، والمضافة إلى المجلد وقد تحوّلت في الوقت نفسه إلى اللون الرمادي المشابه للون "العاصفة، وقد تميّزت ببقايا الغبار الذي ترك أثراً قاتماً على قطع التمثال الجصي الذي بقي منسياً لوقت طويل. ولاحقاً، سرعان ما أصبح وجهه بالكامل ممتصاً من ذلك الجبين الهائل الذي تنامى بسرعة كبيرة، وأصبح جمجمة رصاصية إلهية لا يمكن قياسها.

ثم لمح وميض من البرق وشطره إلى قسمين، وكان كما لو أنه ولمدة ثانية واحدة، رأى المرء الدماغ الزئبقي للسماء ذاتها من خلال قطب جراحية للفص الجبهي لهذه الجمجمة.

وعلى الفور تقريباً، ضرب الرعد برج الطاحونة في أساساته لنصف دقيقة. وارتفعت أوراق الزيزفون وبراعمه بسبب دوامة من الرياح الخانقة الجافة. واصطدمت طيور السنونو بالأرض مطلقة صرخات عالية، وتساقطت قطرات مطر تشبه قطع النقود الرومانية، تبعها هطول كثيف عديم الشفقة ضرب الحديقة العطشى المرتعبة التي انبثقت منها عصفة من رائحة الطحلب والطوب الرطب، عصفة بدت وكأنها تهدّئ غضب الصدمة الوحشية الإيروتيكية، والتأمل الأفلاطوني المكهرب وغير المشبع للسماء والأرض التي احتملت لشهرين طويلين! لقد كانت الظلمة الدائمة التي سادت ذلك اليوم الممطر، أحد المتواطئين في الدراما التي أعددناها أنا ودوليتا لنكون أبطالها في نهاية ذلك اليوم الطويل الذي تميّز بعنف جامح لعناصر طبيعية اتحدت مع العناصر الموجودة في روحينا.

وركضت مع دوليتا بشكل مفاجئ وتوافق ضمني لنستلقي ونلعب معاً في عليّة البرج حيث العتمة كاملة تقريباً. وكان السقف المنخفض والعزلة وغياب الضوء أشياء مناسبة لتكشف أُلفتنا الخطيرة المنتظرة بقلق. وتلاشى الخوف الذي كان يلهمني به هذا المكان عادة (حتى بمجرد الوقوف أمام الباب، وخاصة عندما اكتشفت منذ يومين سابقين التاج الكبير المصنوع من الغار، الذي أُهدي لـ نيني بيشوت). برفقة دوليتا التي أحسست أنها أصبحت الآن وحيدة معي، ومع سيول الأمطار الخارجية التي عزلتنا عن باقي العالم، أصبحت هذه العلية التي كانت مصدر حزن بالنسبة لي حتى الآن، أكثر مكان أرغب به في العالم. كما أن أوراق الغار الذهبية للتاج الضخم، على الرغم من الإحساس الجنائزي الذي بقيتُ معلّقاً به، قد سطعت بنوع من الغنج الفاتح للشهية في كل لمعان جديد من الضوء

الذي يعمينا بشكل متقطع عبر المصاريع المغلقة بشدة. ودخلت دوليتا الجديدة، غالوشكا ريدفيفا، في ثقب التاج واستلقت بداخله كجثة، وأغلقت عينيها. وكانت أصوات البرق والرعد يتبع أحدهما الآخر حول برجنا بضجيج متنام، بينما يطبق على صدري نذير شؤم — لا أعرف ما هو — لكن شيئاً مخيفاً كان يوشك أن يحدث بيننا.

ثم ركعت أمامها ونظرت إليها بثبات. وبالاعتياد التدريجي على حالة نصف الإضاءة، وبوضع نفسي قريباً جداً منها بحيث أستطيع أن أرى وجهها بأدق تفاصيله محاطاً بالظلمة من جوانبه كله. اقتربت أكثر وانحنيت برأسي فوق رأسها. فتحت دوليتا عينها وقالت: "دعنا نلعب لعبة لمس اللسان، حيث يحاول أحدنا أن يلمس لسان الآخر"، ورفعت رأسها بشكل طفيف، وقربته مني أكثر، بينما أخرجت طرف لسانها من ثغرها نصف المفتوح والمبلل برضابها الشهي. لقد كنت مشلولاً بالخوف المميت، وعلى الرغم من رغبتي بتقبيلها، فقد أزحت رأسي إلى الخلف، وأبعدتُ رأسها للخلف أيضاً بحركة قاسية من يدي متسبباً باصطدامه بالتاج وإصداره صوتاً. ونهضتُ على قدمي مجدداً، ولا بدّ أن موقفي صدمها بحزم بحيث استطعت أن أشعر بنظرتها الغائبة التي توحي باستعدادها لأن تتعرض لأي نوع من المعاملة دون أن تبدي أية مقاومة. تلك الرزانة التي شعرت بها بالإضافة إلى مثول مبدأ الإذعان من طرفها، أظهرا رغبتي المتنامية بإيذائها. وبتصميم قوي، وقفتُ خلفها، فرفعت دوليتا نفسها وانتصبت كما لو أنه بتأثير منابع خوف غريزية، لكنها كبتت ذلك الإنذار الأولي بالخطر بشكل سريع، ولم تلتفت نحوي بل بقيت جامدة وجلست بغرور وسط التاج.

في هذه اللحظة، اخترق وميض أطول وأكثر قوة مما سبق، شقوق المصاريع المغلقة، ورأيت لمدة ثانية فقط، الخيال النحيل لظهر لوليتا يُرسم باللون الأسود أمام اللمعان المفاجئ المسبب للعمى. وألقيت نفسي

على جسدها وبدأت أضغط خصرها بكل ما أستطيع من قوة كما فعلت صباحاً على كومة البراعم. وقد قاومت شراستي بضعف وأصبح صراعنا كله بطيئاً دفعة واحدة، لأنني بدأت فجأة أحسب كل شيء. وفسرت دوليتا اللطف الذي انتقل الآن إلى نظراتي كعَرَض من أعراض الحنان، وبدورها لفّت ذراعيها حولي معانقة خصري.

واستلقينا على الأرض متحدين أكثر وأكثر بحالة من الاسترخاء. وشعرت أن من السهل علي أن أخنق صراخها بدفع وجهها الصغير على صدري، لكن موقفها لم يتجاوب مع أخيولاتي. وكنت أرغب بالتحديد أن أقلبها إلى الجهة الأخرى، لأنني كنت أريد أن أتسبب لها بالأذى في تجويف ظهرها. وأن أخمشها مثلاً في تلك البقعة من جسدها بواسطة التاج بحيث تنغرس أوراق الغار المعدنية كشفرات في جسدها الناعم. وأستطيع حينها أن أحضر مواد أثقل بشكل تدريجي كي أبقي عليها مثبتة هناك. وعندما أحررها في النهاية من ذلك العذاب، أقبّلها على فمها وعلى ظهرها المصاب بالكدمات، ثم نبكي معاً. ولهذا تابعت اختلاق المزيد من اللطافة بينما تستعدّ أنفاسي للمعركة القادمة، ونظرت حولي بشوق بحثاً عن الأشياء الأثقل، مرسخاً خياراً سريعاً على تلك الأشياء المتزاحمة على العلية نصف المُضاءة بملامحها الوهمية. التقطت عيناي أخيراً خزانة هائلة متداعية فيها أدراج تتحرك فوقنا وتميل نحو الأمام بشكل طفيف. لكن هل كنت قادراً على زحزحتها؟ لقد شعرت بألم هائل يُمسك بي من ساقيّ وفي أسفل رقبتي. ثم سببت عصفة ريح قوية بفتح باب العلية كاشفاً عن نهاية أخرى لدرج يفضي إلى باب آخر للبرج، وقد كان مفتوحاً أيضاً. ثم توقف المطر وظهرت سماء من نوع جديد تماماً وكانت صفراء وغاضبة كحلم ليموني.

لكن أخيولتي المتعلقة بـ "خمش دوليتا" تلاشت على الفور في تلك السماء التي شعرت فيها بومضات غروب هذياني للشمس.

"دعينا نصعد إلى أعلى البرج!"

ثم تسلّقت الأدراج نحو الأعلى، لكن دوليتا التي ربما خاب أملها بسبب التوقّف المفاجئ لعناقنا، لم تطعني على الفور. وكنت مجبراً على تفسير تأخرها على أنه حالة رفض، فنزلت بغضب كي أجبرها لكنها أرادت أن تهرب. وبعدها وتحت تأثير غضب هائل، شعرت بالدم يرتفع في رأسي ويطلق العنان لوحوش غضبي البرية. وبكلتا يدي، أمسكت شعرها وجررتها نحوي. وسقطت على ركبتيها على حافة إحدى الدرجات وأطلقت صرخة ألم حزينة. سحبتها بكل ما لدي من قوة، ونجحت في رفعها، ثم جررتها ثلاث درجات أو أربع. ومن ثم تركت شعرها لدقيقة من أجل الراحة، مستعداً لمتابعة جرها هكذا. وبعدها، وبحركة حاسمة، نهضت على قدميها وصعدت باقي الدرجات، واختفت على شرفة البرج.

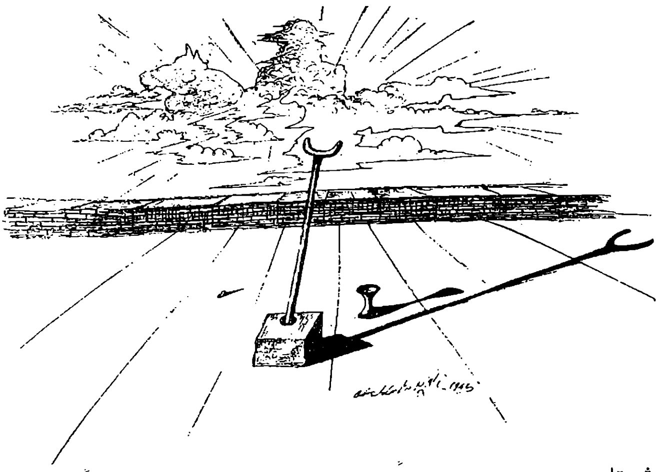

ثم تابعت صعودي مستعيداً هدوئي الكامل واتزاني محاولاً أن أطيل الزمن قدر الإمكان، لأنني عرفت الآن أنها أصبحت في قبضتي! لقد شعرت أن رغبتي العنيدة المتعصبة بأن تأتي دوليتا الموجودة في فيغوراس، وتصعد

إلى غرفة الغسيل الموجودة على السطح، قد تحققت في دوليتا الجديدة، غالوشكا ريدفيفا، التي رأيتها بعيني هاتين، وفي هذه اللحظة تحديداً، تعبر عتبة الشرفة العليا لبرج الطاحونة! كنت أودّ ألا ينتهي صعودي، بحيث ربما أطيل وأستفيد من كل لحظة مهلوسة فريدة أشعر بأنني أوشك أن أعيشها. لأن سعادتي بتحقيق الكمال، تكون فقط بارتداء التاج الملكي على رأسي، وللحظة فكرت بأن أعود وأجلبه، لكن صعودي بهذا البطء المتعمّد، لا يمكن لأي شيء أن يحرفه عن مساره، ولا حتى الموت.

وصلت إلى عتبة الباب في الأعلى! وفي وسط الشرفة، كان عكازي المنقوع بالمطر مائلاً قليلاً إلى اليمين، ويعرض ظلاً طويلاً شريراً على البلاط المضاء بأشعة الشمس الحمراء. وبجانب العكاز، ينتصب "الديابولو" ويعرض بدوره ظلاً مزعجاً يختنق في الوسط. وعبر الخصر النحيل للديابولو، حلقة معدنية صغيرة تلمع بوحشية. في ذروة السماء أمامي، يتلاشى خيال هائل لغيمة بنفسجية مؤطرة باللون الذهبي، وفي الأعلى، قوس قزح مقسوم إلى جزأين، يُظهِر في وسطه قطعة من السماء الزرقاء البروسية التي تنسجم مع الفراغ الذي يفصلني عن دوليتا فوق البرج. كانت تنتظرني جالسة على سور البرج دون أن تبكي.

وبنفاق مُلهِم لم يخذلني في اللحظات الخارقة من حياتي، قلت لها:

"سوف أهدَيك لعبة الديابولو بشرط أن لا تنحني فوق حافة البرج أبداً، لأنك ربما تقعين".

وعلى الفور، أتت والتقطت الديابولو ثم عادت وانحنت على الحافة وهي تصرخ:

"أوه، كم هذا جميل!" وأدارت وجهها نحوي ونظرت إلى بابتسامة ساخرة معتقدة أنني أصبحت لطيفاً ومتأثراً بدموعها الأخيرة. فأومأتُ بطريقة مرعبة وخبأتُ وجهي، كما لو أنني غير قادر على احتمال رؤيتها تنحني بتلك الطريقة. وهذا ما أثار غنجها، وكما توقعت، امتطت سور البرج، وتركت ساقيها تتأرجحان فوق الحافة. وعندئذٍ قلت لها:

"انتظري لحظة وسوف أذهب وأحضر لك هدية أخرى!"

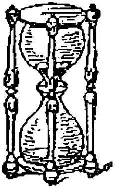
Sablier.

وتظاهرت بالرحيل حاملاً عكازي معي. لكنني صعدت فوراً على رؤوس أصابعي بعد أن اجتزت بضع درجات للأسفل. ووصلت مشاعري إلى ذروتها، وقلت في نفسي: "والآن، يعود الأمر لي!" وحبوت على أطرافي الأربعة نحوها، ومن دون أن أصدر أي صوت، يسبقني عكازي الذي أمسكه من طرفه. هناك كانت دوليتا، لا تزال تجلس وظهرها نحوي، وساقاها فوق المنحدر، وتستريح يداها على الدرابزين غارقة تماماً في الغيوم التي مزّقتها الأمطار وقسّمتها إلى شظايا رائعة، وحوّلتها الآن إلى تماسيح دموية هائلة.

سرعان ما سيحلّ الظلام. بتحذير أخير، دفعت تشعبات عكازي للأمام إلى الجزء الأكثر نحولاً من خصر دوليتا. وقد نفذت هذه العملية بالكثير من الانتباه بحيث عندما اقتربتُ منها، ضربتُ شفتي السفلية بقوة، وبدأ خيط هزيل من الدم يتدفّق على ذقني. ما الذي كنت أفعله؟ كما لو أنها تتحسس مسبقاً لمسة عكازي، التفتت دوليتا نحوي، وحنت ظهرها بإرادتها أمام عكازي. وفي هذه اللحظة كان وجهها وجه أجمل ملاك في الجنة، وعندها شعرت بقوس قزح ابتسامتها يشكّل جسراً بطول المسافة التي يفصلنا بها العكاز. أخفضت عيني وتظاهرت بتثبيت نهاية العكاز في الفراغ ما بين شريحتين من البلاط. منتصباً فجأة وعيناي مليئتان بالدمع، وصلت إلى دوليتا، وسحبتُ الديابولو من يدها وصرخت بصوت أجشّ يمزقه الاختناق:

"هذا ليس لك ولا هو لي!"

وألقيت الديابولو في الفضاء الفسيح.

لقد تمت التضحية في النهاية[1]! ومنذ ذلك الحين كان العكاز وسيبقى لي حتى آخر يوم من حياتي، "رمزاً للموت" و "رمزاً للقيامة والبعث!"

---

[1] يتخذ الديابولو في قصتي الدور البديل النموذجي للتضحيات، ويأخد دور كبش ابراهيم المضحى به. وهو يرمز في حالتي بدون تلطيف في التعبير، إلى موت دوليتا، غالوشكا ريدفيفا، وإلى إمكانية إعادة بعثها.

القسم الثاني

الفصل السادس

المراهقة، الجراد، الطرد من المدرسة. نهاية الحرب الأوروبية

المراهقة هي بداية ظهور شعر العانة للصبي. لكن معي أنا شخصياً، يبدو وكأن ظهور هذا الشعر قد حدث كله دفعة واحدة في أحد الصباحات الصيفية على خليج روزا. لقد كنت حينها أسبح عارياً مع بعض الأولاد، وكنت أجفف نفسي تحت أشعة الشمس. وفجأة، نظرت إلى نفسي بالطريقة النرجسية الاعتيادية التي أنظر بها عادة، ورأيت شعيرات غير متناسقة الطول تغطي جلد عانتي الأبيض الناعم. لقد كانت شعيرات ناعمة مبعثرة جدا على الرغم من أنها قد استطالت حتى لامست سرّتي.

أمسكت تلك الشعرة بإبهامي وسبابتي وحاولت أن أنتزعها، لكنها قاومت وسببت لي ألماً شديداً لم يمنعني عن انتزاعها، ثم تأملت في طولها مُتعجّباً. كيف تمكنت من النمو على جسدي المعشوق دون أن أعي ذلك؟ كيف حدث هذا وأنا أراقب جسدي دوماً حتى ليبدو أنه لا يستطيع أن يخفي سرّاً عني؟

وبعد أن شعرت بشيء من الغيرة اللطيفة من هذه الشعرة، رفعتها إلى الأعلى وراقبت انعكاس أشعة الشمس عليها. لقد بدت مذهّبة تحيط

بحوافها مجموعة من الألوان المشابهة تماماً للألوان التي تظهر عندما أبقي عيني نصف مغمضتين، وأراقب أطياف قوس قزح عبر رموشي.

وبينما كان عقلي يسرح بمكان ما، بدأت ألعب فيها مشكّلاً منها حلقة دائرية تنتهي بذيل طويل ناتج عن ربط طرفيها معاً وتجديلهما ليكونا كشعرة واحدة استخدمتها كي أمسك الحلقة. ثم بللت الحلقة بلعابي فالتصق عليها كغشاء زجاجي شفاف، وأصبح الشكل النهائي مشابهاً "لمنظار أوبرا" شكّل اللعاب عدسته والشعرة إطاره الخارجي. وبدأت من خلاله أراقب الشاطئ ببهجة، وأتطلع إلى المناظر الطبيعية البعيدة، ثم بدأت ألعب بطريقة أخرى.

ثم أمسكت شعرة أخرى من عانتي واستخدمتها كرأس دبوس. وبعدها قرّبت الحلقة المبللة بلعابي حتى لامست الدبوس وتحطّم المنظار وتناثرت قطيرات اللعاب الصغيرة على بطني.

وبقيت ألعب لوقت طويل، لكن المتعة التي حصلت عليها من تناثر لعابي الموجودعلى الحلقة لم تَتلاشَ، بل على العكس تماماً. لأنه ومن دون أعي ذلك، كان قلقي من هذه المراهقة الأولية سبباً في استشكاف غموض مظاهر عذريتي تحديداً، وذلك عبر ثقب لعابي الشفاف الذي أشرقت عليه أشعة الشمس الصيفية كما رأينا.

لقد اتسمت مراهقتي بالقوة الواعية للأساطير والهوس والعجز، وقد تمت الإشارة إلى الشخصية وسمات العبقرية في طفولتي المبكّرة.

ولم أرغب بتصحيح نفسي بأية طريقة، ولم أكن أريد أن أتغير. وكانت رغباتي تؤرجحني وتفرض طريقتي في الحياة وتكثفها بكل الوسائل الممكنة.

وبدلاً من متابعة الاستمتاع بالمياه الآسنة لنرجسيتي المبكرة، فتحت لها قناة. وسرعان ما تسامى التأكيد العنيف المتنامي لشخصيتي في

تصرّفات اجتماعية، بسبب نزعتي الواضحة للجنس المغاير، لم تستطع تلك التصرفات أن تكون فوضوية ومعارضة للمجتمع.

لقد أصبح الطفل – الملك فوضوياً. وكنت حينها معارضاً لكل ما هو منظّم أو مبدئي. في طفولتي كنت أفعل أشياء "مختلفة عن الآخرين" ودون أن أعي ذلك تقريباً، لكنني الآن، وبعد أن فهمتُ الجانب الاستثنائي لنوعية تصرّفاتي، أصبحت أفعلها عمداً. يكفي أحدهم أن يلفظ كلمة "أسود" حتى أواجهه بكلمة "أبيض"، ويكفي أحدهم أن ينحني احتراماً حتى يجعلني أبصق. وكانت حاجتي المستمرّة القوية لأن أكون "مختلفاً" تصل لدرجة أن أبكي بحرقة إن جعلتني حادثة ما أدخل في النطاق العام للآخرين، حتى ولو كان الأمر صدفة. كنت أمام الجميع، وأياً كان الثمن، أنا وحدي! أنا وحدي! أنا وحدي!

وفي الحقيقة، وعلى الظلال غير المرئية التي نُقِشَت عليها هاتان الكلمتان بشكل مثالي، شيّدت مراهقتي جدران المعاناة وأنظمة التحصين الروحية التي بدت ولفترة طويلة، منيعة وقادرة على حماية المجتمع السرّي للحدود الدموية لعزلتي، حتى أصل إلى الشيخوخة.

وقد هربت من الفتيات لأنني شعرت أنهنّ يشكلن الخطر الأعظم على روحي، وأنني سأكون معهنّ معرّضاً لعواصف العواطف العنيفة، وذلك بسبب ذكرياتي عن برج الطاحونة. ومع ذلك فقد خططتُ لأن أكون "مغرماً بشكل مستمر". لكن تم ترتيب هذا الأمر بإيمان سيئ وروح مصقولة مكّنتني من أن أتجنّب سلفاً احتمال مواجهة حقيقية مع تلك الكائنات التي جعلت منها بطلات لروايات حبّي.

كنت دوماً أختار الفتيات اللواتي رأيتهنّ مرة واحدة فقط في برشلونة أو في إحدى البلدات القريبة، واللواتي تكون رؤيتهنّ مرة أخرى صعبة جداً أو مستحيلة. وبسبب لا واقعية هذه الكائنات، وسهولة زوالها من ذاكرتي، أصبح الطريق ممهداً أمامي كي أحوّل شغفي نحو بطلات جديدات.

لقد وُلِدَ أعظم حبّ لدي من هذا النوع خلال نزهة في الهواء الطلق في ريف فيغوراس، حيث تناثرت مجموعات من الناس على التلال القليلة القريبة وبدؤوا يعدّون طعامهم تحت أشجارِ الزيتون. على الفور، اخترت شابة تشعل النار على التلّة المقابلة موضوعاً لحبي، وكانت على مسافة كبيرة جداً مني، حيث لم أستطع أن أتبين وجهها بوضوح. لكنني أدركت سلفاً أن لا وجود لمثل جمالها على الأرض، ولا يمكن مقارنتها بغيرها. وبذلك اتقد حبي داخل صدري، وأتلف قلبي بعذاب متواصل. كنت في كل مرة أرى فيها حشداً من الناس في احتفال أو ما شابه ذلك، أتخيّل أنني ألحظ طيفها وسط ذلك الحشد.

وكان ظهورها الذي يلعب فيه الشكّ دوراً أساسياً، يضيف أغصاناً يانعة إلى النار التي تشعلها الكائنات الخرافية لشغفي على منحدر التلّة التي رأيتها عليها مرة واحدة، ومن مسافة بعيدة.

لقد سمح هذا الحبّ اللاواقعي لمشاعري أن تتدفقٍ من صورة فتاة إلى صورة فتاة أخرى أياً كانت حالتي العاطفية، معززاً وبشكل تدريجي فكرتي عن التجسيد والاستمرارية التي شاهدت النور للمرة الأولى لدى لقائي الأول مع دوليتا الأولى. أي أنني وصلت بدرجة الاقتناع إلى حدّ وقعت فيه بغرام الصورة الأنثوية الفريدة الهاجسية التي كررت نفسها وحققت بنجاح باهر، أوجهاً مختلفة، اعتماداً على السلطة المطلقة القوية لإرادتي الفوضوية الملَكية.

وتماماً كما كان من السهل عليّ عندما كنت في مدرسة السنيور ترايت، تكرار تجربة رؤية "أيٍ شيء أريده" ضمن بقع الرطوبة المنتشرة على الخزائن، وكما كنت قادراً في فترات لاحقة على تكرار هذه التجربة في تشكيلات غيوم العاصفة الصيفية التي ضربت برج الطاحونة، نشأتْ لدي في بداية المراهقة قدرة سحرية على نقل العالم خلف حدود "الصورة المرئية"، عبر المجالات العاطفية لحياتي الخاصة، وأصبحتُ معلّم مَلَكة

صناعة المعجزاتٍ لأنني كنت قادراً بأية لحظة وتحت أية ظروف، على **"أن أرى شيئاً آخر"**، أو من جهة أخرى – وبالمقدار نفسه– كنت **"قادرا دوما أن أرى الشيء المطابق"** في أشياء مختلفة

غالوشكا، دوليتا، دوليتا الثانية، غالوشكا ريدفيفا، مُشعلة النار، غالوشكا دوليتا ريدفيفا! وهكذا في عوالم الإحساس، كان الحب هو الذي يملي كل شروطه على مخيّلتي.

لقد قلت في بداية هذا الفصل أن الفردانية الساخطة المُبالغ فيها والتي أظهرتها كطفل، تبلورت في مراهقتي على شكل ميول تهدف إلى معارضة المجتمع بشكل عنيف، وأصبح هذا الأمر واضحاً مع بداية دراستي في المرحلة الثانوية تحديداً، اتخذ شكل **"الاهتمام المُبالغ فيه بالأناقة"** التي تقوم على روح التناقض المنهج اللاعقلاني المحيّر.

يجب أن أعترف بأن أعظم المخاطر الكارثية كانت تحدث من أجل تعزيز الشخصية المسرحية لأكثر تصرفاتي تفاهة، مُساهمة بطريقة حاسمة بالأسطورة التي بدأت مع بداية مراهقتي، بتطويق الغموض الأولي لشخصيتي، بضباب شهرتها الهائلة.

كان عليّ أن أبدأ مرحلة الدراسة الثانوية، ولهذا فقد أرسلوني إلى مدرسة متديّنة أخرى وهي مدرسة "الأخوة ماريست". وادعيتُ في تلك الفترة أنني حققت اكتشافات حساسة في مجال الرياضيات، أستطيع من خلالها أن أجمع المال. وكانت الطريقة على الشكل التالي: اشتريت قطعاً نقدية من فئة الخمسة "سنتميو" بقطع من فئة العشرة "سنتميو" – أي لكل خمسة "سنتميو" تُقدّم لي، أدفع عشرة "سنتيمو" بالمقابل! وكنت أصرف أي مبلغ أحصل عليه من والدي بهذه الطريقة، وكنت مُبتهجاً جداً بهذه الطريقة الغامضة للجميع، والمدمّرة حتماً بالنسبة لي. وعندما تلقيت مبلغاً كبيراً قدره "دورو = خمسة

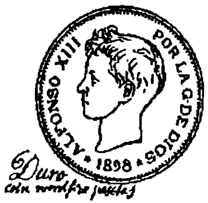

بزيتا" من والدي في أحد الأيام، أسرعت فوراً كي أبدّلها بعدة أكوام من فئة العشرة "سنتيمو"! وحالما وصلت إلى المدرسة، أعلنتُ بانتصار افتتاح سوق شراء نقود من فئة الخمسة "سنتيمو" بشروطي السابقة ذاتها.

وفي فترة الاستراحة الأولى، أخذت مكاني خلف طاولة صغيرة، وقمت بترتيب القطع النقدية على شكل كومات متعددة. ثم تجمّع الطلاب حولي بحماس لمراقبة عملية الاستبدال الموعودة. وبغية أن يشعر الجميع بالذعر، أعطيت فعلاً عشرة "سنتيمو" مقابل كل خمسة "سنتيمو" عُرضَت عليّ! وصرفت نقودي وتظاهرت بأنني أراجع حساباتي في مفكرتي الصغيرة الخاصة، ثم أغلقتها وأعدتها إلى جيبي بحذر، وأعلنت وأنا أفرك كفيّ بمتعة أنني "حققت بعض الأرباح!" ثم نهضت من مكاني خلف الطاولة، ومشيت باتجاه آخر، لكن ليس قبل أن ألقي نظرة ازدراء على زملائي في المدرسة كما لو أنني أقول: "مرة أخرى، أسجّل نقطة عليكم! يا لكم من أغبياء!"

وبدأت هذه اللعبة تفتنني بشدّة، وحوّلت نشاطاتي كلها نحو كسب المزيد من المال من والدي بذرائع مختلفة — لشراء الكتب أو الألوان أو عبر القيام بسلوك مثالي غير اعتيادي يبرر طلبي لمكافأة مالية. لقد تضخمت حاجاتي المادية لأني أردت أن أعزز هيبتي عبر استبدال مبالغ أكبر بكثير: لقد كانت الطريقة المؤكدة الوحيدة التي تساعد على تضخيم الذهول الذي يُثار حولي عند كل عملية استبدال.

وفي أحد الأيام وصلت إلى المدرسة لاهثاً وأنا أكبح فرحتي بصعوبة — لقد أحضرت معي خمس عشرة "بيزيتا"، ضحيتُ من أجلها بالكثير من العذوبة مع أهلي! وكنت أستطيع حينها أن أستبدل المبلغ كله دفعة واحدة. وقد مارست عملي هذه المرّة بالحد الأقصى من التأني وعبر ممارسة بعض الطقوس، وكنت أقطع عملية الاستبدال بين وقت وآخر لمراجعة شيءٍ ما في مفكرتي مطيلاً فترة ابتهاجي قدر الإمكان، وحققت نجاحاً تجاوز كل طموحاتي. وعندئذٍ تناقل الزملاء

عبارات مفادها: "هل تعرف كم هي المبالغ التي استبدلها دالي؟ خمسة عشرة "بيزيتا" ..."، "هل هذا صحيح"! وأُصيب الجميع بالذهول وقالوا: "إنه مجنون بالفعل!"

لقد استمتعت بهذه العبارة وطالما تذكرتها. كنت في المساءات التي تلي انتهاء الدوام المدرسي، أتجوّل حول البلدة كلها وحدي، وأفكر بما سأفعله في اليوم التالي كي أذهل زملائي أكثر. لكنني اغتنمت هذا التجوال للانغماس في "رياضة ممارسة أعمال عدوانية" أصادفُ ضحاياها وأختارهم من بين الأطفال الأصغر مني سناً. نفذّت عدواني الأول على صبي في الثالثة عشرة من عمره، وكنت أراقبه منذ بعض الوقت بينما كان يتناول بطريقة غبية قطعة كبيرة من الخبز مع بعض الشوكولا — كان يملأ فمه خبزاً ومن ثم يملؤه بالشوكولا. لقد بدت حركاته المتعاقبة الميكانيكية تقريباً وكأنها تكشف عن افتقار شديد للذكاء. كان الصبيّ بشعاً جداً، وكانت الشوكولا التي لديه من نوعية شنيعة جداً زادت من شعوري بالاحتقار نحوه. واقتربت منه بمكر متظاهراً بأنني مستغرق بقراءة كتاب "للأمير كروبوتكين"[1] الذي كنت أحمله دوماً أثناء تجوالي. ورآني "الضحية" قادماً، ولم يراوده الشكّ بي بل تابع التهامه للخبز والشوكولا وهو ينظر باتجاه آخر. ثم أحطت به وخططت لما أوشك أن أفعله به، وكنت غارقاً في ترفٍ كبير من سبق الإصرار والترصد. وبعد أن راقبت عن قربٍ طريقته المريعة الحمقاء الغريبة بتناول الطعام، وخاصة طريقة ابتلاعه له، صفعته بقوة وجعلت فتات الخبز يتطاير في الهواء، ثم انطلقت بشكل محموم وبأسرع ما أستطيع. واحتاج الصبي إلى وقت طويل ليدرك ما حدث له، وعندما فهم الأمر

[1] أنا لم أقرأ هذا الكتاب أبداً، لكن صورة "كروبوتكين" على الغلاف، وعنوانه "الاستيلاء على الخبز"، أوحيا لي بأنه ذو قيمة تدميرية عظيمة، وكان معدّاً ليجعلني أبدو مهماً في عيون الناس الذين يرونني أمر عبر طرقات البلدة.

وحاول أن يلحق بي، كان الأوان قد فات. وبعدها نظرت نحوه ورأيته ينحني ويلتقط قطع الخبز والشوكولا.

إن النجاح المذهل لهذه العملية، ومرورها دون أية عقوبة، جعل تصرّفاتي العدوانية تتخذ صفات المرض المزمن لرذيلة حقيقية لم أعد أفتقدها. وبدأت أبحث عن أية فرصة ملائمة لأفعل شيئاً مشابهاً، أو حتى أكثر تهوّراً. وسرعان ما لاحظت أن شخصية الضحيّة لم يكن لها دور جوهري سواء أكانت عاطفية أم غير عاطفية، وأن متعتي كانت تنبع من الألم الذي يظهر أثناء التنفيذ، ومن تغيرات ظروف الهجوم بحد ذاته.

ثم اخترت ضحية أخرى وكان عازف كمان أعرفه بشكل بسيط جداً، وأكنّ له مشاعر الإعجاب بسبب موهبته الفنية. لقد كان طويلاً جداً وأكبر مني بكثير، لكنه كان نحيلاً وشديد الشحوب ومريضاً لدرجة أن نظرته المنكسرة جعلتني أعتقد أن احتمال ردّه على ما سأفعله به غير وارد تقريباً. ثم لحقته مسافة قصيرة لم تظهر خلالها لحظة مناسبة لتنفيذ هجومي لأنه كان لا يزال يتحدث بحماس ضمن مجموعات من رفاقه. لكنه ترك إحدى المجموعات فجأة ووضع كمانه على الأرض، وانحنى ليربط أنشوطة حذائه، ولم يكن هناك أفضل من هذه الوضعية. ومن دون تردد، قفزت فوقه ورفسته بعنف على مؤخرته، ثم قفزت بكلتا قدميّ على كمانه وسحقته، وركضت هارباً كالأرنب. لكنني أخطأت في توقعاتي هذه المرة لأنه نهض بسرعة وركض خلفي ولم يستسلم. وقد ساعدته ساقاه الطويلتان كي يركض بشكل جيد مما جعلني أشعر بأنني انتهيت. وعندئذٍ، وبإدراكي لعدم جدوى المقاومة، وتحت سيطرة نوبة جبن هائلة، توقفتُ وركعتُ على ركبتيّ وطلبتُ الصفح وأنا أرتعش. كما فكرت فوراً بأن عليّ أن أعرض عليه المال. وبعيني الغارقتين بالدموع، عرضت عليه مبلغ خمسة وعشرين "بيزيتا" إن هو لم يؤذني ولم يمسني بسوء. لكن شهوته للانتقام كانت واضحة جداً بحيث فهمت تماماً أن لا فائدة من مناشدتي، وأن بكائي لن

يوقفه. ثم أخفيت رأسي بين ذراعي وحميت نفسي من الضربات التي أوشك أن أتلقاها. وأسقطني برفسة عنيفة في صدري، ثم لكمني عدة مرات، وأمسك بخصل شعري الطويل وشدّها وجدلها وانتزع بعضها. فصدرت عني صرخات ألمٍ ثاقبة هستيرية عبّر عنها جسدي باختلاجات جعلت رعبي واضحاً جداً للعيان، وبدوتُ أني سأموت تحت وطأة هذا الهجوم، وهذا ما أجفل عازف الكمان فجأة، وجعله يتوقف عن ضربي، ويهرب بدوره.

واجتمع الطلاب حولنا واقترب منا بروفسور الأدب الذي صادف وجوده في المكان. ولتأكيد حقه في التدخّل وسلطته، شقّ طريقه عبر الحشد وطلب توضيحاً عما كان يحدث. وبعدها وبشكل مفاجئ، وُلِدَت في رأسي كذبة مذهلة ألقيتها على مسامعه دفعة واحدة:

"لقد سحقت كمانه كدليل لا يقبل النقاش على تفوّق الرسم على الموسيقى!"

وتم استقبال تفسيري بمزيج من الدمدمات والضحك. وكان سخط البروفسور واضحاً على الرغم من فضوله فقال: "كيف فعلت ذلك؟"

فأجبته: "بحذائي"

وضحك الجميع هذه المرة، وحدثت جلبة كبيرة. فأشار البروفسور طلباً للهدوء ثم اقترب مني ووضع يده على كتفي وقال بنبرة عتاب أبوي:

"هذا لا يثبت أي شيء. هذا غير منطقي!"

ونظرت في عينيه بثبات، وقلت مكرراً كل مقطع لفظي بأعلى قدر من الاحترام:

"أعرف تماماً أنه غير منطقي لمعظم التلاميذ، وحتى لمعظم البروفسورات. لكن من جهة أخرى، أستطيع أن أؤكد لك أن حذائي[1] (وأشرت بإصبعي إلى حذائي) لديه وجهة نظر أخرى حول هذا الأمر!"

[1] طوال حياتي وأنا مشغول بالأحذية التي استخدمتها في العديد من اللوحات والمواضيع السريالية إلى حد تشكيل آلهة منها. وفي العام 1936 مضيت أبعد من ذلك كي أضع الأحذية على الرؤوس.

وما إن نطقت كلمتي الأخيرة حتى ساد الصمت المطبق على المكان، وتوقّع الجميع توبيخاً قاسياً وعقوبة على وقاحتي المفاجئة. لكن ما فاجأ الجميع وخيّب أملهم أن العكس تماماً هو ما حدث. فقد هدأ البروفسور تماماً وحرّك يده مشيراً إلى انتهاء الحادثة في مكانها، في هذه اللحظة على الأقل.

ومن حينها فصاعداً بدأت تحيطني هالة "الجرأة" وتنمو حولي، ولم تكن الأحداث التالية إلا تعزيزاً لموقعها الأسطوري. لم يتجرأ أيٌ من رفاقي يوماً على أن يجيب بروفسوراً بتلك الشجاعة التي أظهرتها، كما اعترف الجميع بأن نبرة صوتي الصارمة أذهلت البروفسور. إن هذه القوة المفاجئة التي لمعت كصاعقة في ضباب خجلي الاعتيادي، قد حققت لي هيبة معينة عملت على موازنة مزيج الازدراء والذهول الذي أصبح مرتبطاً بسمعتي بعد عملية الاستبدال النقدي، وتصرفاتي الغريبة الأخرى التي لا تزال مستمرة.

وهكذا أصبحت مثار جدل: هل هو مجنون؟ هل هو عاقل؟ هل هو نصف مجنون؟ هل يُظهر بدايات شخصية استثنائية لكنها غير طبيعية؟ وقد شارك بالرأي الأخير عدد من البروفسورات المختصين بالرسم والمخطوطات وعلم النفس، بينما ارتأى بروفسور الرياضيات أن ذكائي أقل بكثير من المتوسط. وعلى أية حال، كان هناك شيء واحد أكيد بالمطلق وهو أن أي شيء شاذ أو استثنائي، كان يُنسب إلي بشكل آلي. وبينما أصبحت أكثر "وحدة" وأكثر "تميزاً"، أصبحت أيضاً "مرئياً" أكثر – كلما جعلت نفسي أكثر غموضاً، أصبحت ملحوظاً أكثر. وبسبب هذه

وقد صنعت "إلزا شيبيرللي" قبعة من خلال فكرتي. وظهرت "دايسي فيلوز" في فينيسيا وهي ترتدي "القبّعة الحذاء" على رأسها. في الواقع، يظهر الحذاء بالنسبة لي على أنه العنصر الأكثر امتلاء بالمزايا الواقعية بعكس الآلات الموسيقية التي كنت أحاول دوماً أن أمثلها بشكل متاعٍ أو مسحوق. آلات تشيلو من اللحم المتعفن. وإحدى أحدث لوحاتي تمثل زوجاً من الأحذية. وقد أمضيت شهرين طويلين أرسمها من "موديل" وعملت عليها بالحب نفسه والموضوعية نفسها كما رسم رفائيل "المادونا". ولذلك فمن المفيد جداً ملاحظة أنني في كذبة مرتجلة تم إنتاجها في ظروف روائية للغاية، تنبأت بصيغة منصة فلسفية مدمجة مستديمة، تبلورت مع الوقت.

الملاحظة، بدأت أُظهرُ وحدتي وأفتخر بها كما لو أنها عشيقتي التي أستعرضها بتهكّم محمّلة بجواهر إجلالي الدائم العدوانية.

وحدث في يوم ما أن اختفت جمجمة "هيكل عظمي منتصب" كان موجوداً في قاعة التاريخ الطبيعي. وحامت الشبهات حولي كالعادة، وقاموا بتفتيش خزانتي المُقفلة وفتحوها بالقوة.

كانت الهياكل العظمية في ذلك الوقت تملؤني رعباً بالفعل، وكنت لا ألمسها مقابل أي شيء في العالم. لكنهم لا يعرفون سوى القليل عني، ولم تُكشف القضية حتى اليوم التالي حيث أكد البروفسور نفسه أنه احتاج الجمجمة وأخذها معه إلى البيت.

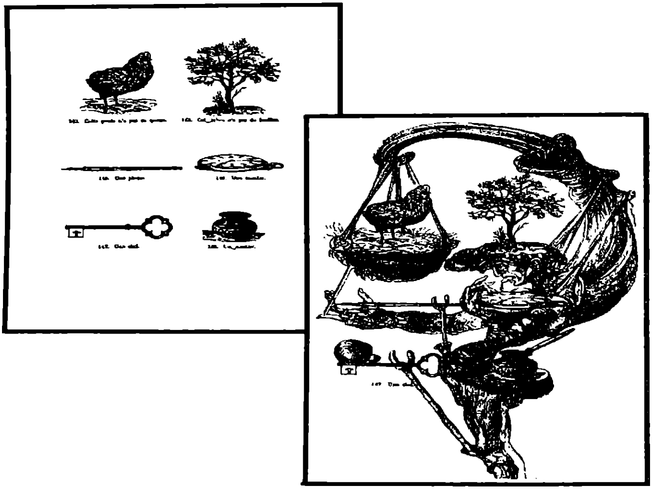

وفي صباح أحد الأيام عدت إلى المعهد بعد أن تغيبت عدة أيام بسبب الخنّاق الصدري الذي كان يصيبني عادة. ولدى وصولي لاحظت وجود حشد منفعل من التلاميذ يتحلّقون في دائرة، والكل يصرخ ملء رئتيه. وفجأة رأيت شعلة نارية تتصاعد من بينهم وتبعتها غيمة من الدخان

الأسود. وهذا ما حدث: في ذلك الوقت، كان هناك حركة انفصالية مرتبطة بأحداث سياسية معاصرة تم الإعلان عنها في صحف اليوم السابق، ولم يفعل الطلاب شيئاً بهذا الخصوص سوى إحراق الراية الإسبانية!

واتجهت نحو الحشد كي أعرف ما يحدث، لكنني تفاجأت بالجميع يهربون فجأة، واعتقدت للحظة أن اقترابي منهم كان السبب وراء ابتعادهم وبقائي لوحدي مع بقايا الراية المحترقة ودخانها دون أن يكون لي أي علم بما يحدث. وبعدها، نظر الجميع باتجاهي وعلى الوجوه ملامح الرعب والإعجاب معاً، وهذا ما أثار حيرتي. لكن سرعان ما انكشف الأمر بعد أن وصلت ثلّة من الجنود كانت تراقب ما يحدث، وبدأت التحقيق بقضية تدنيس المقدّسات، والتصرّف اللاوطني الذي تمت ممارسته هنا. وقد أوضحت مراراً وتكراراً أن وجودي هنا كان مجرّد صدفة بحتة، لكن أحداً منهم لم يُظهر أدنى اهتمام باحتجاجاتي البريئة، بل على العكس من ذلك، لقد افترضوا أنني قائد هذه المظاهرة التي لم أشارك فيها أساساً. كما تم تناقل القصة بطريقة تظهر أن الجميع هربوا خوفاً من الجنود إلا أنا، وأصبح تمسّكي بموقعي أثناء الحادثة دليلاً على الرزانة الثورية ورجاحة العقل التي تستحقّ كل إعجاب. وكان عليّ أن أمثل أمام المفتّش الذي أقرّ ببراءتي دون أن أذهب إلى المحكمة وذلك لأنني لم أكن بالعمر المناسب كي أتحمّل مسؤولية تصرفات من طبيعة سياسية، وكان هذا من حسن حظي. ومع ذلك، فقد ترك هذا الحدث انطباعاً جيداً لدى الرأي العام، وكان بداية توجيه الاهتمام إلى شخصيتي.

وتركت شعري ينسدل كشعر الفتيات، وبدأت أتقمّص ملامح الكآبة التي سحرتني في صور رفائيل، والذي أحببت أن أتشبّه به قدر استطاعتي. كنت أنتظر بفارغ الصبر أن تظهر لحيتي كي أتمكن من حلاقتها بعد أن أترك سالفين طويلين. لقد أردت قدر الإمكان أن أجعل "مظهري غير عادي"، وأجعل رأسي تحفة فنيّة. وغالباً ما كنت أدخل

بسرعة إلى غرفة أمي كي أضع البودرة على وجهي بعد أن أظلل المنطقة المحيطة بعيني بقلم رصاص. وفي الشارع، كنت أعضّ شفتيّ بقوة لأخضبهما بالأحمر قدرِ الإمكان. وقد أصبح هذا التفاخر الزائف بارزاً بعد أن أصبحت مدركاً لأولى النظرات الفضوليّة التي توجّهت نحوي، والتي أثار الناس من خلالها أحدهم اهتمام الآخر وهم يقولون: "هذا ابن كاتب العدل دالي. إنه الشخص الذي أحرق العلم".

لقد كانت الأفكار التي جعلتني بطلاً أفكاراً بغيضة بالنسبة لي، لأنها كانت أساساً أفكار معظم زملائي في المدرسة، وهو ما يُقصي روحي الجامحة المتناقضة. كما أن هذه الوطنية المحلية الرديئة البائسة كانت تفتقر إلى العالمية، وقد بدت هزيلة بشكل لا يُطاق أمام عيني المتعطشتين للرفعة. وفي تلك الفترة، شعرت بنفسي "فوضوياً تماماً" لكنها كانت فوضوية على طريقتي، وكانت خاصة جداً وأستطيع من خلالها أن أسيطر كشخص استثنائي نزوي غير منظّم – مَلَكيّ فوضوي[1]، أقف في المقدمة كملك مطلق. كما ألّفت في تلك الفترة تراتيل عديدة يمكن أن تُغنى كألحان شعبية في حينها، وفيها تم توصيف المديح غير المترابط للمَلَكية الفوضوية والدالية بطريقة جياشة بالعواطف. وقد عرف زملاء الدراسة أغاني من هذا النوع، وحاولوا تقليدها بطريقة فاشلة، وهو ما جذبني نحو فكرة التأثير بزملائي، وجعل "**مبدأ الفعل**" يصحو تدريجياً في عقلي.

ومن جهة أخرى، كنت متأخراً تماماً في مسألة "**ممارسة العادة السرّية**"، التي مارسها أصدقائي بانتظام. وكنت أسمع محادثاتهم التي تحمل تلميحات ومعاني مواربة لطيفة، لكن على الرغم من جهود مخيلتي، لم أكن قادراً أن أفهم ما "**هي**". كنت أموت من الخجل ولا أجرؤ على أن

[1] في العام 1922 في مدريد، طوّرتُ فكرة الملكية الفوضوية من خلال مزج معظم الفكاهة اللاذعة مع سلسلة كاملة من التناقضات المضادة للمجتمع وغير السياسية التي كان لها ميزة أنها سلاح جدلي مقنع أستطيع من خلاله أن أسلّي نفسي، وأنثر بذور الشكّ، وأدمّر قناعات زملائي السياسية.

أسأل كيف "**أفعلها**"، أو حتى كيف أدخل في الموضوع بشكل غير مباشر، لأنني كنت أخشى أن يُكتشف جهلي "**بها**"، أو أنني لم "**أفعلها**". وفي يوم ما وصلتُ إلى استنتاج يقول أن بإمكان المرء أن "**يفعلها**" وحده، أو أن يقوم "**بها**" أيضاً بشكل مشترك مع مجموعة من الأشخاص في الوقت ذاته لمعرفة من هو الأسرع. وكنت في بعض الأحيان أرى اثنين من أصدقائي ينصرفان بعد أن يتبادلا نظرات معينة كانت تشغلني لعدة أيام، ثم يختفيان في بقعة معزولة، ويعاودان الظهور وقد تغيّر شيء في هيئتهما — يصبحان أكثر جمالاً! لقد تأملت أياماً طويلة في مسألة ما "**هو**" هذا الشيء، وتهتُ في متاهات نظريات الطفولة الفارغة الزائفة، وكانت كلها تتشكل من كتلة من الشذوذ من وجهة نظر مراهقتي المتقدمة سلفاً.

اجتزت امتحانات عامي الأول من دون أي تميّز، لكنني لم أرسب في أية مادة — كان ذلك سيفسد عطلتي الصيفية، لأنه سيتوجب عليّ عندئذٍ أن أستعدّ لخوض الامتحان مرة أخرى في الخريف. كانت فصول الصيف مقدسة بالنسبة لي، وفرضتُ قيوداً مؤلمة على نفسي من أجل أن أبقيها بعيدة عن أية عيوب.

كنت أنتظر العطلة بجنون. كان هذا قبل يوم القديس يوحنا بقليل. ومنذ طفولتي المبكّرة، أتذكّر أنني كنت أمضي هذا اليوم دوماً في المكان نفسه وهو موقع "وايت واشد" على شاطئ المتوسط، قرية كاداكيس! إنها المنطقة التي عشقتها طوال حياتي بإخلاص متعصب يتزايد مع كل يوم يمر. وأستطيع أن أقول من دون أية مبالغة أنني أعرف كل صخرة فيها وكل شاطئ وكل خاصية جيولوجية لمناظرها الطبيعية الفريدة، وكل شعاع ضوء. لأنني خلال تجوالي وحيداً، صنعت أبطال روايات مميزين من أطراف كل صخرة فيها، ومن كل وميض ضوئي يرتبط بتشكل منظرها الطبيعي وجماله، وأسقطت على أولئك الأبطال، وعلى "انتمائهم المادي الخالي من الشعور" توتري المزمن المتراكم غير المشبع لحياتي العاطفية الإيروتيكية. كنت أنا وحدي من تتبّعت المسار الدقيق المضني للظلال

حول الصخور التي سيصلها مدّ القمر الناعم وجـزره، ويغمرهـا في اللحظـة المناسبة. لقد أبقيتُ أثـاراً وألغـازاً في كـل طريـق سـلكته، ووضـعت حبـة زيتون أسود جافة في أعلى قطعة فلـين قديمـة تـدلّ علـى حـدود الشـمس وهي تغرب — لقد وضعتها بالتحديـد علـى طـرف صـخرة مسـننة كمنقـار نسر. واكتشفت من خـلال التجربـة أن هـذا المنقـار الصـخري هـو النقطـة التي تتلقى آخر شعاع من الشمس، وعرفت أنـه في لحظـة معينـة، سـوف تبرز زيتونتي السوداء وحدها في هـذا الفـيض الضـوئي الأرجـواني، بينمـا يظهر كل ما تبقى من المنظر الطبيعي مغموراً في ظلال الجبال الداكنة.

وعندما يحدث هذا الأثر الضوئي، كنت أهرع كي أشرب الماء مـن نبـعٍ أستطيع منه أن أتابع مراقبتي لحبـة الزيتـون دون أن تغيـب عـن نظـري لحظة واحدة. ثم أرتشف ماء النبع ببطء مطفئاً ظمئي الـذي كبحتـه حتـى هذه اللحظة ممتـثلاً لتلـك الطقـوس الغامضـة الـتي تُمكـّنني، بينمـا أروي ظمئي، من مراقبة حبة الزيتـون السـوداء وهـي تحفـظ توازنهـا في النقطـة القصوى من اليوم الذي سكبت عليه شمـس الغـروب لـون الشـفق الكـرزي الذي سيزول سريعاً! ثم أذهب وأحضـر زيتـونتي المعجـزة وأتـابع طريقـي بعد أن أضعها في إحدى فتحتي أنفي. وبينما أكون في مشـيتي البطيئـة أو راكضاً أحياناً، كنت أحب أن أشعر بتنفسي المتسـارع يواجـهُ مقاومـةً مـن زيتونتي. ثم أنفخ بقوة كبيرة عن عمـد، موقفـاً تنفسـي مـن فتحـة الأنـف الأخرى، حتى أنجح في إطلاقها بقوة كبيرة. ثم ألتقطهـا وأنظفهـا بعنايـة من بقايا القذارة وحبات الرمل الملتصقة على سطحها النـاعم، وأضـعها في فمي ممتصّاً ببهجة عارمة النكهة الباهتة الزنخـة لزيتهـا. ثـم أعيـدها إلى فتحة أنفي وأعيد تجربة التـنفس الـتي تـؤدي إلى طردهـا. ولم أسـتطع أن أحدد أيهما أحببت أكثر، رائحة الزيت الزنخ أم نكهته عندما أمتصها[1].

[1] كانت تنتهي لعبة حبة الزيتون هذه بادخالها وضغطها بشكل متكرر في أجزاء أخرى من جسدي، تحت ذراعي، وما شابه ذلك. بعد أن أبللها بلعابي.

كنت طوال الصيف مشغولاً بجسدي وبنفسي وبالمناظر الطبيعية، وكان المنظر الطبيعي هو ما أفضّله. أنا الذي أعرفك جيداً يا سيلفادور، أعرف أنك لا تستطيع أن تحبّ ذلك المنظر الطبيعي لكاداكيس بهذه الطريقة لو لم يكن أجمل منظر طبيعي في العالم كله — إنه المنظر الطبيعي الأجمل في العالم، أليس كذلك؟

أستطيع فعلاً أن أرى التشكيك في وجوه معظم قرائي على الرغم من ابتساماتهم المهذبة اللطيفة. وما من شيء يمكن أن يغضبني أكثر من هذه الابتسامة! يعتقد القارئ أن العالم كبير جداً، وأن فيه الكثير من المناظر الجميلة المنتشرة في كل موقع وكل قارة وعلى كل خط عرض ويسأل نفسه قائلاً: لماذا يحاول دالي أن يقنعنا بعبارة تبريرية لا يمكنه إقامة الدليل عليها (إلا بناءً على القاعدة الموضوعية لذوقه الشخصي)؟ كما أن معرفة العالم كله شيء صعب على الإنسان بشكل عام، وخاصة بالنسبة إلى شخص لم يسافر كثيراً كسيلفادور دالي، الجاهل بالمناطق الجديرة بالاهتمام، والذي لا يستطيع أن يحاكم ويعطي رأيه بهذه الحتمية.

أنا أتأسف على كل شخص يبرر بهذه الطريقة ويقدّم دليلاً فاضحاً على قِصَر نظره من الناحية الفلسفية والجمالية. أمسك حبّة بطاطا في يدك وتفحّصها بعناية. ربما كان فيها بقعة متعفنة، وإن قرّبت أنفك منها ترى أن رائحتها مختلفة. ثم تخيّل للحظة أن هذه البقعة المتحللة عبارة عن منظر طبيعي — إذن، على حبة البطاطا التي قدمتها لك للتو، كان هناك منظر طبيعي واحد، منظر واحد وليس ستة وثلاثين. والآن ومن ناحية أخرى، تخيّل عدم وجود أية بقعة على حبة البطاطا المُفترضة — وعندئذٍ، إن تابعنا الافتراض بأن البقعة المذكورة آنفاً تكافئ منظراً طبيعياً فسوف نستنتج حقيقة تقول إن البطاطا الآن ليس فيها أي منظر طبيعي على الإطلاق. ربما يحدث هذا كثيراً جداً! وقد حدث لبعض الكواكب مثل القمر، حيث أستطيع أن أؤكد لك أن ليس فيه

منظر يستحق المشاهدة — وأستطيع أن أثبت ذلك، على الرغم من أنني لم أصعد إلى القمر، وعلى الرغم من أن القمر ليس حبة بطاطا تماماً.

وكما يكون لرأس الإنسان الكروي تقريباً؛ أنف واحد فقط، وليس مئات الأنوف التي تظهر على محيطه بكافة الاتجاهات، يحدث أيضاً في العالم الأرضي، ويكون ذلك الشيء الاستثنائي الذي وافق عدد قليل من معظم العقول المثقفة المميزة في العالم أن يطلقوا عليه اسم "منظر طبيعي" مدركين تماماً ما تعنيه هذه الكلمة، نادراً جداً بحيث يجب أن تتآمر عليه ظروف عجائبية كثيرة وغير موزونة — مزيج من العفن الجيولوجي والحضاري — كي تخلقه. ذلك الشيء، إذن — وأنا أكررها ثانية — ذلك الشيء الذي يُدعى "منظراً طبيعياً"، والذي أسميه أنا كذلك، يوجد بشكل فريد على سواحل البحر المتوسط وليس في أي مكان آخر. لكن الأكثر غرابة على الإطلاق، أن المنظر الطبيعي الأفضل والأكثر جمالاً وتميزاً وذكاءً وروعة، موجود على وجه التحديد بجوار كاداكيس، والذي بفضل حظي الرائع (أنا أول من أدرك ذلك)، تجسّد تماماً في البقعة التي كان سيلفادور دالي، بين فترة وأخرى وبشكل متكرر، ومنذ نعومة أظفاره، يجتاز فيها "المسارات الجمالية" لفصول صيف حياته.

كيف كان هذا الجمال الأصلي المميز لذلك المنظر الطبيعي الجميل العجائبي في كاداكيس؟ إنه يتعلق بتلك "البنية"، وذلك التفرّد! ربما رُسِمت كل هضبة فيها وكل جرف صخري بريشة ليوناردو ذاته! وبعيداً عن هذه "البنية" وبشكل عملي، ليس هناك شيء آخر. في هذا المنظر الطبيعي ليس هنا حياة نباتية تقريباً، ولا يوجد سوى بعض أشجار الزيتون النحيلة التي يشبه لونها الفضي المبقع بالأصفر شعر عجوز داهمه الشيب، ويتوّج هذا اللون حواف التلال المنحدرة، ويتجعّد ضمن الفجوات الجافة والمسارات البدائية المطموسة جزئياً بالأشواك. لقد كانت هذه الأرض مليئة بالكروم قبل اكتشاف أمريكا. وبعدها، وصلت حشرة "الفيلوكسيرا" الأمريكية ودمّرت الكروم وجعلت التربة

تظهر بوضوح أكبر، كما ظهرت خطوط على شكل جدران استنادية درّجت مصاطب الكرمة وأبرزتها وظللتها. وبامتلاكها وظيفة الخط الواصل بين نقطتين، أظهرت النطاق المعماري الراسخ لروعة ذلك الشاطئ الذي يبدو وكأنه ينحدر بطبقات متعددة غير منتظمة تتلاءم مع التربة. كما أن هناك مدرّجات مستوية ومتموجة، وانعكاسات هيكلية قاسية لروعة روح الأرض ذاتها. إنها مدرّجات من حضارة تركت وراءها خلفية المنظر الطبيعي، مدرّجات تبتسم لحظة وتتحفظ لحظة، وتثير في لحظة أخرى الأحاسيس الديونيسوسية على ذرا الحنين السماوي. ثم تنحدر هذه المدرجات الرفائيلية، أو مدرجات الرجولة، من سجل الأعمال الأولمبي الفضي الدافئ، وتتفجر براعم على الحواف المائية للحجارة المشوقة القوام المختلفة في أنواعها نزولاً إلى غرانيت آخر الجدران الاستنادية للأرض العميقة (إنها كرمة كثيفة مرّ زمن طويل منذ أن اختفت)، وعلى تلك الوعورة الجافة الحزينة، وحتى يومنا هذا، ترتاح القدمان العاريتان للشبح الضخم، صامتاً هادئاً منتصباً وحاداً، الشبح الذي يجسّد الدماء المختلفة كلها، كالكرمة الغائبة وخمرة العصور الغائبة كلها.

وعندما تفكر بالمساوئ الموجودة فيه، يظهر أمامك الجراد! إنه رعب الرعب! وكان هكذا دوماً. وفي أقصى حالات تأملاتي نشوة، ينبع الجراد! لقد انعكست قفزاته الثقيلة المزعجة غير الواعية في أول حالة رعب هزّت كياني من الأعماق. إنه الجراد — الحشرة الكريهة! المرعبة كالكابوس، حماقة هلوسات حياة سيلفادور دالي.

أبلغ الآن السابعة والثلاثين من عمري ولم ينقص الخوف الذي يسببه الجراد لي منذ أن كنت مراهقاً قيد أنملة. بل على العكس تماماً، أستطيع أن أقول إنه ازداد. وحتى هذه اللحظة من حياتي، إن كنت على شفا هاوية سحيقة وظهر الجراد أمامي واندفع نحو وجهي، فأنا أفضّل أن ألقي بنفسي إلى الهاوية على أن أتحمّل هذا "الشيء" المرعب.

تبقى قصة هذا الرعب بالنسبة لي من أكثر الأشياء غموضاً في حياتي لأنني كنت أعشقها عندما كنت صغيراً، وكنت أطاردها مع عمتي وأختي بسعادة كبيرة، وكنت أفتح جناحيها اللذين يبدوان لي بألوان متدرجة كاللون الزهري والبنفسجي ولون السماوات الشفقية المبقعة بالأزرق التي تتوّج نهاية يوم حار من أيام كاداكيس.

وفي صباح أحد الأيام، اصطدت سمكة صغيرة لزجة جداً تُسمى "سلوبيرر = سيلان اللعاب" بسبب لزوجتها. وأطبقت يدي عليها بقوة كي لا تُفلت مني ولم يظهر منها سوى رأسها. ثم قرّبتها من وجهي لألقي نظرة متفحصة عليها لكنني صرخت بشدّة وألقيتها بعيداً وانسكبت الدموع من عيني. وجاء والدي الذي كان جالساً على صخرة قريباً لمواساتي محاولاً أن يفهم ما حدث معي. "وقلت له بصوت تتخلله شهقات: "لقد نظرت في وجه سمكة "سِلوبيرر" وكان مشابهاً تماماً لوجه جراد!" ومنذ اكتشافي لهذا التجانس بين وجهي السمكة والجراد، أصبح الأخير شيئاً مرعباً بالنسبة لي، وكانت نظرة مفاجئة على أحدهما توقعني على الأرجح بنوبة عصبية مذهلة لدرجة قام والداي بتحذير الأطفال من خطورة أن يلقوا عليّ جراداً، لأنهم كانوا يقومون بذلك دوماً كي يستمتعوا برعبي. وغالباً ما كان يقول والداي: "يا له من شيء غريب! لقد أحبها كثيراً في السابق!"

وفي يوم ما، سحقت ابنة عمي جراداً كبيراً على رقبتي عمداً. وشعرت بالقذارة السائلة نفسها التي لا تُسمّى، والتي لاحظت وجودها على السمكة، وعلى الرغم من أن خروج أحشاء الجراد، وتكاثف السائل الكريه حوله، فقد استمرّ بالاهتزاز بين ياقة قميصي وجسدي، وشعرت بحركة سيقانه الممزقة التي التصقت بعنقي بقوة أحسست معها بأنها ستقتلني قبل أن تسترخي في قبضة الموت. وبقيت شبه غائب عن الوعي لفترة حتى نجح والداي في فصل "الكابوس المرعب نصف الحي" عني. وأمضيت فترة بعد الظهر أحكّ عنقي بشكل مسعور وأغسله بماء

البحر. وحتى هذه الليلة التي أكتب فيها هذه السطور، تسري قشعريرة الرعب عبر ظهري، ويظهر الاشمئزاز على فمي، ويطبق الضيق على روحي، وأبدو (بالنسبة إلى مراقبٍ خارجي) بملامح تشبه الملامح التي ظهرت على وجه الجراد نصف المسحوق الذي وصفته للتو، والذي ربما أقلّده الآن عبر ارتكاسات عضلات وجهي التي لا أستطيع مقاومتها.

لكن ما هو أكثر هولاً كان ينتظرني في فيغوراس. لأنني هناك، وبعد أن أصبح رعبي مكشوفاً، ومع عدم وجود والديّ لحمايتي دوماً، فقد كنت ضحية عنف زملائي الذين لم يعودوا يفكرون بشيء سوى التقاط الجراد وإلقائه عليّ كي أهرب – وكيف أهرب؟– أهرب كمن مسّه الجنون أو استولت عليه الشياطين. لكنني نادراً ما نجوت من التضحية – يحطّ الجراد عليّ نصف ميت، جيفة، بشع! وكنت أجده أحياناً عندما أفتح كتابي، مسحوقاً غارقاً في عُصارته الصفراء، ورأسه الضخم الأشبه برأس حصان مفصول عن جسده بينما لا تزال سيقانه تهتز.

حتى في هذه الحالة، لا زال باستطاعته أن يقفز عليّ! وحين فكرت بالأمر بهذا الشكل، قذفت الكتاب من يدي وحطّم جزءاً من زجاج باب قاعة الدرس بينما كان الجميع منصتين للأستاذ الذي يشرح مشكلة هندسية. وبعد أن طردني الأستاذ من القاعة، بقيت خائفاً لمدة يومين من أن يتلقّى الأهل اتصالاً بخصوص هذه المسألة.

يصل الجراد في فيغوراس إلى حجم أكبر بكثير منه في كاداكيس مما ضاعف رعبي. تلك الجرادات المريعة نصف المسحوقة المنتشرة على حواف الرصيف، يجرّها خيط طويل بغيض معقود على سيقانها، ومعرّضة لموت بطيء شرس بسبب الألعاب التي يمارسها الأولاد عليها – أستطيع أن آراها الآن! إنها هنا، إنها هنا – إنها هامدة، تنبض بالرعب والألم ومغطاة بالغبار مثل كتلة من الخوف النقي. إنها هنا، معلّقة على حواف الرصيف، برؤوسها الكبيرة المحنية المرعبة الغبية الخالية من المعنى، بنظرتها العمياء

المركزة التي يبتلعها الألم. إنها هامدة هنا، هامدة، هامـدة.... وفجـأة تقفـز، مطلقة العنان للاوعيها الذي انتظر طويلاً، كما لو أن ينبوع معاناتها قد وصل إلى ذروته فجأة، وأصبح عليها أن تحرر ذاتها ولا يهمّ إلى أين — عليّ!

وفي المدرسة في نهاية المطاف، سيطر خـوفي مـن الجـراد علـى فضـاء مخيلتي كله. وأصبحت أراها في كل مكان حتـى لـو لم تكـن موجـودة: كنت أراها مثلاً في ورقة رمادية، فأطلق صـرخة تبعـث البهجـة في كـل شخص حولي. كنت أراها في قطعة خبز أو علكة تُلقى عليّ من الخلف فأقفز وأنتصب على قدميّ وأنظر حولي مرتجفاً متألماً.

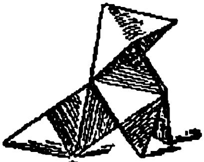
Cocottes.

ثم أصبحت الحالة مثيرة للقلق لدرجة قـررت أن أقـوم بحيلـة لأحـرر نفسـي، لـيس مـن هـذا الخوف الذي أعرف قوته وسيطرته علي، بل من وباء زملاء المدرسة. ولهذا فقد اخترعـت "جـراداً مقابلاً له". يتألف هـذا الجـراد مـن "cocotte" مصنوع من ورقة بيضاء مطوية على شـكل ديـك، وتظاهرت يوماً ما بـأن هـذه الورقـة الـديك، تخـيفني أكثـر بكـثير مـن الجراد، وتوسلت الجميع ألا يعرضوا أمامي شيئاً كهذا. وعندما وضـعوا جرادة أمامي، فعلت ما بوسعي لأكبت خوفي، لكن عنـدما وضـعوا هـذا "cocotte" الأبيض، صرخت وكأنني أُصِبتُ بنوبة ذعر اعتقد الجميع معها بأنني أكاد أموت. وحقق هذا الرُهاب الزائف نجاحاً عظيماً، ليس بسبب حداثته وأثره المخزي المـزدوج، بـل لأن صـناعته كانـت أسـهل بكثير من البحث عن جـراد ومحاولـة اصـطياده. والأكثـر مـن ذلـك أن الخوف الذي كان ينتج عن هذا "cocotte" الأبيض كان أكثر إذهـالاً. وبفضل هذه الخدعة، تحررت تقريباً من الجراد، ولم أعـد أتعـرّض لـه إلا في حالات قليلة. وقد نجحت في تقليـد الرعـب الحقيقـي، وهـو مـا أمتعني واستبد بي بالوقت ذاته لأنه كان علـيّ أن ألعـب الـدور بشـكل

مثالي باستمرار، وإلا فإنني أغامر بأن تتم مهاجمتي مجدداً بدفعة جديدة من الجراد، وينتج عنه رعب حقيقي.

لكن الفوضى التي كانت تسود قاعة الدرس في كل مرة تحدث فيها ردّة فعلي الهستيرية على ظهور "cocotte" أبيض، أصبحت مذهلة جداً ومستمرة بحيث بدأ الأساتذة يهتمون جدياً بحالتي. وقد قرروا أن يعاقبوا التلاميذ بشدّة في كل مرة يظهرون لي فيها واحداً من تلك "cocotte" البيضاء، مبينين لهم أن ردّة فعلي كانت نتيجة لحالة عصبية تخصني، والتي كانت ذات تأثير قاتل عليّ.

على أية حال، لم يفسر الأساتذة جميعهم محاكاتي بطريقة لطيفة. وفي أحد الأيام كنا في قاعة الصف مع مشرفنا الذي لا يعرف الكثير عن حالتي، عندما اكتشفت "cocotte" أبيض كبير داخل قبّعتي. وعرفت أن الطلاب كلهم ينتظرون ردّة فعلي فقط، وكان عليّ انطلاقاً من هنا أن أصرخ صرخة توحي باشمئزاز قاتل. ومع غضب المشرف من صرختي، طلب إليّ أن أحضر الـ "cocotte" الذي سبب المشكلة، فقلت له: "لن أفعلها ولا من أجل أي شيء في العالم!" لكن صبره كان قد نفد، وأصرّ بشكل حاسم كي أطيعه. وعندئذٍ، ذهبت إلى المنصّة التي يوجد عليها زجاجة حبر كبيرة يستعملها التلاميذ جميعهم لملء عبواتهم بالحبر، وأمسكتها بيدي وألقيتها على الـ "cocotte". وتكسرت الزجاجة، وتدفق الحبر وصبغ الـ "cocotte" بالأزرق الغامق، ثم التقطته وألقيت به على طاولة الأستاذ وقلت: "أنا أطيعك الآن. بما أن لونه الأبيض لم يعد يخيفني!"

وكانت نتيجة هذا التصرّف "الداليّ" أن تم طردي من المدرسة في اليوم التالي.

أما عن ذكرياتي عن فترة الحرب فقد كانت مريحة ومقبولة لأن حيادية إسبانيا أدخلتها في فترة نشاط وازدهار اقتصادي سريع. وأنتجت كاتالونيا نباتات وحيوانات نضرة مشاكسة من طبقة "الأثرياء الجدد" الذين عندما

كبروا في فيغوراس (المنطقة الزراعية من أمبيردان، حيث يمتزج الجنون بجمال شديد مع الواقع) أنتجوا محصولاً كاملاً من الأنماط الجميلة، وازدهرت مآثرهم في فلكلور حي، وشكّلت نوعاً من أنابيب التغذية الروحية الحارة لفئة النخبة من مواطنينا، والتي كانت مكملة للتغذية الأرضية اليومية، وتسير معها جنباً إلى جنب. ولا بدّ من القول إن هذا كان جيداً. أتذكر جيداً أنه خلال الحرب العالمية الأولى، انصبّ اهتمام الجميع في فيغوراس على مسألة الطبخ. وكان هناك عائلة فرنسية متآلفة جداً مع عائلتي، كان أعضاؤها "ذواقين" جداً. ومن هنا فإن "طيور woodcock" التي كانت تُقدّم مطهوة بالبراندي، لم تكن سرّاً بالنسبة لي، وعرفت عن ظهر قلب الطقس الكامل لاحتساء "شراب البيرنو" الجيد في الخارج تحت أشعة الشمس مع قطع السكّر المغمورة فيه، بينما نستمع للكثير من الحكايات المضحكة حول "الأثرياء الجدد". وقد أصبحت تلك الحكايات مشهورة هنا كأنها في مرسيليا الفرنسية. لكنها كانت تفقد اتقادها اللطيف عبر اجتيازها للحدود. وكان يجب أن تُستهلك في موقعها.

في كل مساء، كان يُقام تجمّع ضخم للكبار خلف متجر العائلة الفرنسية. يأتي الناس إلى هناك ظاهرياً ليتحدثوا عن الحرب والوضع الأوروبي، لكنهم على العموم يحكون حكايات لا تنتهي. وبإلقائهم نظرة عابرة على الشارع عبر نافذة المتجر، يمكنهم أن يشاهدوا أبناء بلدهم يعبرون، مما يشكّل دافعاً حياً بالنسبة لهم، ويبقى الحديث مرتبطاً بالأحداث الفورية في البلدة. يحوم المرح فوق هذا التجمع الذكوري غالباً كزوبعة من الهستريا. ويُسمع في بعض الأحيان الهدير الحادّ لنوبات ضحكهم في الشارع ممتزجاً مع سعال مخنوق وصرخات حزينة من أولئك الذين بالغوا في الضحك، وتشنجوا لدرجة يعتقد المرء معها أنهم سيموتون من الضحك، ومع الدمع المنسكب على الوجنات، يتلفّظون بأصوات ، أي، أي، أي...!

كانت أغنية "أي، أي، أي" تغنّى في تلك الأوقات، ويسمع المرء في كل مكان تنهدات التانغو الأرجنتيني الذي جاء من برشلونة مع قوافل التجار الذين حكوا الكثير عن ليالي الروليت والقمار التي أصبحت قانونية تماماً في العاصمة الكاتالونية. كما أن الرسام الألماني "سيغفريد بيرمان" الذي رسم بالسكاكين حصرياً مستخدماً كميات هائلة من الألوان، أمضى فترة الحرب كلها وهو يعلّم السيدات طريقة رقص التانغو الأرجنتيني، ويغني أغاني ألمانية برفقة عازف غيتار. وعندما تلقى أحد أسياد الطبقة الراقية دعوة لاحتفال بالأزهار، خطر بذهنه فكرة أن يربط حصانين مزينين بقصاصات ورقية ملونة، إلى عربته المزينة بالأزهار. لأجل ذلك، سكب بعض الرجال الغراء الساخن على الحصانين، ثم دحرجوهما على تلّة كبيرة من قصاصات الورق بحيث أصبحت مغطاة بالكامل. وخلال أقل من ساعة مات الحصانان. أي، أي، أي، أي

وانفجر السلام كقنبلة. ثم تم توقيع الهدنة وبدأت الاستعدادات للاحتفال الكبير. كانت انعكاسات أفراح الهدنة في ريف كاتالونيا كما لو أنها في فرنسا، لأن البلد كان فرانكوفونياً بإجماع أبنائه. لقد كان لديه ذاكرة لطيفة رائعة ذهبية عن الحرب، وها هو النصر في المنطقة المجاورة بكل إغواءاته، وسوف يحتفل بالنصر. وقد تم التخطيط لمظاهرة شعبية في شوارع فيغوراس، يكون فيها ممثلون شعبيون وسياسيون من جميع القرى والبلدات المجاورة – أعلام ولافتات واجتماعات ورقصات شعبية كاتالونية وحفلات راقصة. وقد شكّل التلاميذ ونظّموا تشكيلاً "قيادياً" قرروا تسميته "Grupo Estudiantil – مجموعة التلاميذ" وكان على هذه المجموعة أن ترتقي المنصّة وتنتخب لجنة تعمل على تنظيم التلاميذ المشاركين في "مسيرات النصر" التي بدأ التحضير لها.

جاء رئيس "مجموعة التلاميذ" يطلب إليّ إلقاء الخطبة الافتتاحية. وكان لدي يوم واحد لتحضيرها.

قال لي: "أنت التلميذ الوحيد الذي يستطيع أن يقوم بـذلك، لكـن احرص على أن تجعلها قوية مثيرة — نوعاً ما بطريقتك الخاصة". وشدّ على يدي بقوة.

وافقت فوراً، وجلست لتحضير خطبتي التي بـدأت بمـا يشـبه الآتـي: "إن التضحيات العظيمة والدماء التي سُفِكت في سـاحات المعـارك، أيقظـت الوعي السياسي للشعوب المضطهدة كلـها! إلخ، إلخ" وقـد شـعرت بـالكثير من الإطراء لأنهم اختاروني لإلقاء هذه الخطبة الـتي تـدرّبت عليهـا بشـكل ميلودرامي أمام المرآة. لكن مع الوقت، داهمني الخجل وأطبق عليّ بحيـث شعرت أنني لن أستطيع السيطرة على نفسي. وعلى أية حال، كانـت هـذه أول خطبة ألقيها، وكان من المخجل جـداً أن أُحـبط جمهـوري في اللحظـة الأخيرة بسبب خجل طفوليّ غبي، بعد هذه الأسطورة التي بـدأت تتشـكل حولي بشكل فعليّ. وإن استمرّ هذا "الخجل"، أستطيع أن أستقيل وأتخلّى عن خطبتي التي تضخّمت بالأفكار البليغة العميقة، كما تضخّم خجلـي إلى حدّ يسبب الشلل. لقد أعاقني الخجل سلفاً عـن تقـديم خطـبتي المحفوظـة غيباً حتى مـن دون شـهود، وذلـك عـبر تشـويش ذاكرتـي ودمـج الكلمـات إحداها بالأخرى، مغمغماً بـالأحرف المكتوبـة بخـط يـدي، وكلمـا حـاولـت بقلـبي النـابض ووجـنتيّ المتـوردتين أن أحـلّ شـيفرة مـا كتبتـه، توسّـعت حدقتاي كما لـو أنـني أقـرأ أحرفـاً هيروغليفيـة لا يمكـن تفسـيرها! لا! لا أستطيع! لا أستطيع! ليس هناك ما أستطيع فعله! أنـا لسـت قـادراً علـى إلقاء خطبتي! وخرجت لأطوف عبر ضـواحي البلـدة، محـاولاً أن أسـتعيد شجاعتي من خلال التأمل وصفاء التواصل مع المنظر الطبيعي.

كان موعد المحاضرة في اليـوم التـالي. وقبـل العـودة إلى البيـت في اليوم السابق، اجتمعت مع مجموعة من الطلاب الذين كـانوا يسـخرون من خطبتي التي أوشك أن ألقيها، مما ضـاءل مقـدار الشـجاعة القليـل الذي استعدته خلال نزهتي إلى ما دون الصفر.

استيقظت في اليوم التالي، وأنا أشعر بغضب هائل يغمر قلبي ولم أستطع أن أشرب فنجان قهوتي. ثم أمسكت خطبتي وسرّحت شعري بأفضل ما أستطيع، واتجهت نحو "مركز الجمهورية" حيث سينعقد الاجتماع.

مشيت في الشارع وكأنني أتجه إلى حبل مشنقتي. ووصلت متعمداً قبل ساعة من الوقت المحدد لأنني ظننت أنني من خلال الألفة مع المكان، والجمهور الذي يزداد تدريجياً، ربما أنجح بتخفيف الصدمة القاسية التي ستواجهني في القاعة المزدحمة التي يغمرها الصمت فجأة وكأنه يهدف إلى ابتلاع خطبتك التي تحملها معك في دوّامته المائية، كما لو أنه "سيفون حمام". لكن عندما وصلت إلى "ساحة الجمهورية" وصل إحباطي إلى ذروته. وكان الحشد المتزايد مخيفاً جداً، وكان هناك فتيات! وما إن دخلت حتى احمر وجهي بشدّة وأصبح كل شيء أمام عيني ضبابياً، ثم جلست وأحضر لي أحدهم كوب ماء. ودخل الناس بأعداد هائلة، وأصبحت الأصوات تصمّ الآذان. وكانت المنصّة منتصبة مغطاة بأعلام الجمهورية، وكان عليّ أن أتخذ مكاني عليها بين كرسي إلى اليمين مخصص لرئيس الجلسة، وآخر إلى يساري ويشغله السكرتير. ثم جلسنا وتم استقبالنا بتصفيقات متناثرة وضحكات ساخرة وسمت وجهي بدمغة تشبه علامة مُنتج تجاري. ووضعت رأسي بين يدي كما لو أنني أراجع خطبتي التي فتحتها للتو بحزم لم أكن أعتقد منذ لحظة أنني قادر عليه. ونهض السكرتير وبدأ توصيفاً طويلاً عن أسباب الاجتماع. وكان يُقاطع باستمرار من الحشود الهائلة التي اتخذت الاجتماع كنكتة.

كانت عيناي اللتان لا تستطيعان أن تريا شيئاً ملتصقتين بخطبتي، وكانت أذناي لا تسمعان سوى الهمهمات التي لا يتضح منها سوى الملاحظات الحادة القاسية الوحشية للسخرية الموجّهة نحونا. أنهى السكرتير مقدمته بسرعة لأن الجمهور فقد الاهتمام، وفسح المجال لي بعد أن أشار إلى دوري البطولي في إحراق العلم. غمر القاعة صمت ينمّ عن

الإعجاب الشديد، وأدركت للمرة الأولى أن الحشد قد أتى ليستمع إليّ فقط. وعندئذٍ اختبرت تلك المتعة التي ثمّنتها غالياً منذ تلك اللحظة: شعوري بنفسي بأنني موضوع "التوقع المتكامل". ووقفت على قدمي ببطء دون أن يكون لديّ أدنى فكرة عما سأفعله. وحاولت أن أتذكر مطلع خطبتي. لكن مع عدم إمكانية ذلك، لم أفتح فمي. وازداد الصمت الثقيل من حولي حتى أصبح خانقاً: شيء ما يوشك أن يحدث – أنا أعرف ذلك! لكنْ ما هو؟ وشعرت بدمي يتصاعد إلى رأسي، فصرخت بأعلى صوتي تاركاً ذراعي بوضعية دفاع: "تحيا ألمانيا! تحيا روسيا!" وبعدها، وبرفسة عنيفة، ألقيت الطاولة على الحضور. وخلال ثوان قليلة، أصاب القاعة تشوش غريب زاد من غرابته أن أحداً لم يلتفت إليَّ. وبينما كانوا يتقاتلون فيما بينهم، تمالكت نفسي وانسحبت مسرعاً إلى البيت.

سألني والدي: "ماذا حدث لخطبتك؟"

وأجبته: "كانت جيدة!"

وكان ذلك صحيحاً. ومن دون أن أدرك ذلك، أدّت ردّة فعلي إلى نتائج سياسية عظيمة أصلية وفورية. كما تعهّد "مارتن فيلانوفا"[1] أحد دُعاة الإقليم، بأن يشرح موقفي بطريقته الخاصة.

وقال: "لم يعد هناك حليف ومهزوم، إن ألمانيا في ثورة، ويجب أن نضعها على قدم المساواة مع المنتصرين. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لروسيا، التي كانت ثورتها الاجتماعية الثمرة الوحيدة لهذه الحرب، والتي قدّمت أملاً حقيقياً".

كانت الرفسة التي قلبت الطاولة هي تماماً ما يحتاجه هذا الجمهور ليصحو على الحقائق التاريخية.

وفي اليوم التالي أخذت موقعي في الاستعراض رافعاً العلم الألماني الذي استُقبل بالتصفيق، ورفع "مارتن فيلانوفا" علماً آخر يحمل اسم

[1] مارتن فيلانوفا هو أحد الثوريين القلائل "أصحاب النوايا الحسنة" الذين عرفتهم خلال حياتي. وكان ساذجاً جداً لكنه شخص معطاء ومستعد لأية تضحية.

السوفييت، U.S.S.R. وكانت المرة الأولى التي يُحمل فيها شيء من هذا النوع في شارع أسباني.

وبعد فترة، قرر "مارتن فيلانوفا" ومجموعته تسمية أحد شوارعٍ فيغوراس باسم "الرئيس ويلسون". وأتى "فيلانوفا" إلى منزلي حاملا قماش رسم أشبه بشراع سفينة، وطلب إليّ أن أكتب عليها بالأحرف الفنية الكبيرة الكلمات التالية: "تكرّم مدينة فيغوراس وودرو ويلسون حامي حريات البلدان الصغيرة". وصعدنا إلى سطح المنزل وعلّقنا القماش من زواياه الأربعة بملاقط تُستخدم عادة لحبال الغسيل. ووعدته أن أذهب وأشتري علب ألوان وأباشر العمل بعد ظهر هذا اليوم، كي تصبح جاهزة في اليوم التالي قبل إزاحة الستار عن اللوح الرخامي الذي سيعطي الاسم اللامعٍ للشارع.

واستيقظت باكراً جداً في الصباح التالي يجترّني شعور كبير بالذنب لأنني لم أباشر العمل حتى الآن. وكان الوقت قد تأخر وأصبح من المستحيل أن تجفّ الألوان في الوقت المحدد حتى لو باشرت العمل الآن. وعندئذٍ خطرت لي فكرة تفريغ الحروف في مكانها بحيث تلوّنها زرقة السماء التي تظهر من خلالها بعد تعليقها. وبسبب افتقاري للحس العملي الذي ميّزني في ذلك الوقت، لم أدرك صعوبة العملية، فنزلت إلى البيت بحثاً عن مقصّ. وكان القماش قاسياً جداً بحيث لم أستطع أن أثقبه. وبعدئذٍ، بحثت عن سكين مطبخ كبيرة. لكنني نجحت بعد جهود متعددة من أن أفرّغ ثقباً لا شكل له، وهو ما أحبطني بالكامل وأبعدني عن متابعة العمل بهذه الطريقة. وبعد أن فكرت بجميع الطرق، قررت استعمال تقنية جديدة أكثر جنوناً وغير قابلة للتطبيق أكثر – أحرقت أماكن الأحرف في القماش بعد أن مهّدت الطريق بالمقص، وكنت أمسك عبوة ماء في يدي في حال اشتعلت النار واجتازت حواف الحرف الذي أحرقه. لكن عملي كان فاشلاً أكثر من السابق: واحترق القماش على الرغم من ترتيب طريقة

إخماده ولم تُفلح جهودي بعد ساعتين من العمل، سوى في فتح ثقب كبير محترق، وآخرصغير تم تنفيذه بالسكين مُسبقاً.

وشعرت أن الوقت قد تأخر جداً بالتأكيد كي أقوم بأي محاولات أخرى. وبحالة من الإحباط والإنهاك، استلقيت على القماش المعلّق كأرجوحة شبكية، وكان اهتزازها ممتعاً جداً لدرجة شعرت معها بأنني سأغطّ في النوم. وقد أوشكت أن أغفو عندما تذكرت نصيحة لوالدي تحذّر من النوم تحت أشعة الشمس كي لا يُصاب الإنسان بضربة شمس. وشعرت بالخدر في رأسي من أثر الشمس والنعاس، ولكي أستيقظ من هذه الحالة، قررت أن أتعرّى بالكامل بعد أن وضعت دلواً من الماء تحت الثقب المفتوح في القماش. ثم اخترعت أخيولة جديدة، وغامرت عبرها بموت مؤكد تقريباً، وبأكثر الطرق براءة وبعداً عن التوقّع! وبينما كنت مستلقياً على بطني على القماش الضخم المعلّق الذي أستعمله كأرجوحة شبكية، أدخلت رأسي عبر الثقب[1] المفتوح كي أتمكن من غمره في الماء البارد. وحتى أستطيع أن أدخله في الماء وأخرجه، لم يكن كافياً أن أقلّص كتفيّ قليلاً مع أن الثقب قد توسّع وانزلق أحد كتفيّ عبره. لكن قدمي اكتشفت الحلّ وسهّلت علي تنفيذ خطتي، لأن الثقب الآخر الصغير الذي فتحته بسكين المطبخ كان على

[1] لقد تحدثت مسبقاً في ذاكرتي داخل الرحم عن الألعاب التي تقوم على جعل الدم يذهب إلى رأسي عبر تعليقه وأرجحته، والتي حثّت في النهاية أوهاماً في شبكية العين تشبه البصيص. وتلك الأخيولات الجديدة التي حدثت في نهاية الحرب، يجب أن تكون متعلقة بالنوع المشابه لها من أخيولات داخل الرحم. ليس فقط لأن رأسي كان متدلياً إلى الأسفل، لكن لأن إدخال رأسي في الثقب بالإضافة إلى كل ما تلا ذلك، كان مرتبطاً بشدة بهذا الأمر. "التصرفات المحبطة"، و"الثقوب الفاشلة" التي صرفت عليها الكثير من الجهد، تكشف بشكل واضح مبدأ الاستياء الذي حرضته عقبات ميكانيكية حقيقية. كما أن الخوف من العالم الخارجي المتجسد في الناس المشاركين في الاحتفال، الذي كانوا ينظرون حولهم كي يروا اللافتة التي عرفت أنها لن تنتهي في الوقت المناسب، حرضوا بداخلي حاجة للبحث عن ملجأ في عالم النوم الذي يسبق الولادة. لكن الخوف من الموت قد هاجمني، مستحضراً بدون وعي رضّ الولادة بالرمز المقبول للمظلّة المزيفة المربوطة المتعلقة بمواجهة سلاحي المضاد للغواصات.

مستوى قدمي تماماً. وحينها أدخلت قدمي في الثقب الصغير وأصبح كل ما عليّ فعله كي أرفع رأسي هو أن أقلّص ساقي قليلاً.

وغمرت رأسي عدة مرات مستمدّاً متعة هائلة من هذا الأداء. لكن أثناء إحدى هذه العمليات، وقع حادث كان من الممكن أن يكون قاتلاً. فبعد أن حبست أنفاسي لوقت طويل، ومع رغبتي في أن أرفع رأسي من دلو الماء، قمت بما يلزم من ضغط بقدمي. عندئذٍ، تمزّق الثقب الذي أضع قدمي فيه، وبدلاً من أن أخرج رأسي من دلو الماء، غطس رأسي إلى القاع. ووجدت نفسي فجأة في حالة حرجة، غير قادر على أن آتي بأية حركة، أو حتى أن أقلب الدلو الذي أصبح رأسي ملتصقاً به تماماً وقد أثقل عليّ بوزنه. ولم يساعدني التفاف جسدي وتشنجه سوى على التأرجح أكثر بطريقة لا جدوى منها، وهكذا وجدت أن لا بديل لدي سوى انتظار الموت.

لكن كان مارتن فيلانوفا هو من جاء لنجدتي. فعندما لم أظهر في الساحة مع لافتتي، أتى إلى منزلي لاهثاً ليعرف ما حلّ بي. وهذا ما كان يحدث ببساطة: إن سيلفادرو دالي كان يوشك أن يموت اختناقاً على سطح منزله حيث كان يختبر كطفل وللمرة الأولى إحساس الدوار. واحتاج الأمر بعض الوقت لأستعيد عافيتي بعد أن أخرجت رأسي من الدلو. ونظر مارتن فيلانوفا إليّ بذهول.

"ما الذي كنت تفعله هنا! إنك عارٍ تماماً ورأسك في دلو الماء — ربما انزلقت! لقد وصل العمدة للتو، والجمهور كله هناك، وقد انتظرنا وصولك لأكثر من نصف ساعة! أخبرني ما الذي تفعله هنا!".

لقد كان لدي دوماً إجابة على كل شيء، وكذلك كان الوضع الآن. فقلت له: "كنت أخترع سلاحاً مضاداً للغواصات[1]".

---

[1] نرسيس مونتوريول هو مخترع أول غواصة أبحرت تحت الماء. وصبي فيغوراس اللامع، الذي كان لديه نصب تذكاري في البلدة، وكما أتذكر، كنت أغار منه بشدة، لأنه كان لدي طموح كبير أيضاً لأن أخترع شيئاً من هذا النوع.

لم يستطع مارتن فيلانوفا أن ينسى هذا المشهد، وقد رواه في الليله ذاتها في شارع rambla"[1]. "كيف ترى دالي، أليس عظيماً! بينما كنا ننتظر مع كل الشخصيات الهامة، وكانت الفرقة تنتظر، كان دالي يقف عارياً على سطح ويخترع "سلاحاً مضادّاً للغواصات" برأسه الغاطس في دلو ماء. ولو ساء الحظ ولم أصل باللحظة المناسبة، لكان ميتاً الآن! أليس عظيماً، أليس دالي عظيماً!"

في الليلة التالية في شارع الرئيس ويلسون، تم أداء رقصة "sardanas"[2] ورفرفت اللافتة التي أنجزتها أخيراً عبر الشارع بعد أن تم تثبيتها بين شرفتين مجاورتين. وكان في اللافتة ثقبان ممزقان يمكن رؤيتهما، وكنت أنا ومارتن فقط نعرف أن أحدهما يعود لعنق سيلفادور دالي والآخر لقدمه. لكن سيلفادور كان هناك، وكان على قيد الحياة! وسوف نستمر بسماع أشياء غريبة عنه. لكن صبراً! علينا أن نمضي قدماً.

وهكذا، دعنا نلخّص حالة دالي في بداية فترة ما بعد الحرب الحاسمة: لقد طُرد من المدرسة وبدأ يتابع دراسة المرحلة الثانوية في معهد خاص. وهو يموت خوفاً من الجراد، ويهرب من الفتيات مشبعاً دوماً بحبه الخرافي لغالوشكا، والذي لم يختبره بعد. كما نما شعر عانته، وأصبح فوضوياً مَلَكيّاً ومعارضاً للكاتلونيين. وقد تم توجيه الاتهام له بتدنيس المقدسات الوطنية، وأطلق صرخته في اجتماع "لمن أصبحوا حلفاءه" قال فيها: "تحيا ألمانيا! تحيا روسيا!"، وقذف الطاولة على المستمعين، وأخيراً كان على بعد شعرة من مواجهة الموت في اختراع "السلاح المضاد للغواصات!" كم كان عظيماً! انظر إلى سيلفادور دالي كم كان عظيماً!

---

[1] المشي.

[2] رقصة شعبية كاتالونية.

الفصل السابع

الدراسات الفلسفية، حب غير لطيف، خبرات تقنية. "مرحلة الحصى". نهاية العلاقة، موت الأم

كنت أكبر، وعلى أملاك السنيور ترايت في كاداكيس، كانت شجرة السرو المغروسة في وسط الفناء تكبر بدورها أيضاً، وأصبح لدي سالف يصل طوله إلى منتصف خدي. وقد أحببت البذلات الداكنة، وكانت المخملية السوداء الناعمة هي الأفضل بالنسبة لي، وكنت عندما أمشي، أدخن غليون "المريشوم – زبد البحر" الخاص بوالدي، والذي نُقِشَ عليه رأس عربي مبتسم بانت أسنانه كلها بشكل واضح. وأثناء رحلة والدي إلى موقع الآثار الإغريقية في "أمبورياس" قدّم له القيّم على المتحف هدية عبارة عن قطعة نقود فضية رُسِم عليها وجه امرأة إغريقية. وأحببت أن أتخيلها على أنها هيلين طروادة. كنت أتركها معلقة بالدبّوس الذي أرتديه دوماً، كما كنت أحمل قصبة. لقد كان لديّ عدة قصبات رائعة، وكان أفضلها قصبة ذات قبضة ذهبية على شكل نسر برأسين – رمز إمبراطوري يكيّف نفسه بطريقة سعيدة مع القبضة التملّكية ليدي التي لا تشبعٍ أبداً.

كنت أكبر، وكذلك كانت يدي. وأخيراً "**عرفتها**[1]"، لقد حدثت معي في إحدى الأمسيات في المبنى المجاور لمبنى المعهد. وقد كنت محبطاً

---

[1] العادة السرّية. المترجم.

جداً وتبعها فوراً إحساس كبير بالذنب. لقد كنت "**أظنّها**" شيئاً آخر! لكن على الرغم من إحباطي الذي تطغى عليه مسرّات الندم، كنت أعود دوماً "**لأفعلها**" قائلاً لنفسي: إنها المرة الأخيرة، الأخيرة، الأخيرة! وبعد ثلاثة أيام، يسيطر عليّ إغواء "**ممارستها**" مرة أخرى، ولا أستطيع أن أصارع أكثر من يوم واحد، ثم تأتي الرغبة بأن "**أفعلها**" مرة أخرى، ثم "**أفعلها**، "**أفعلها**"، **أفعلها**"، مرة أخرى في كل وقت.

"**إنها**" لم تكن كل شيء.... لأنني كنتُ أتعلّم الرسم، وقد وضعت في هذا النشاط الآخر جهودي القصوى وانتباهي الأقصى وحماسي كله. إن إحساسي بالذنب بسبب "**ممارستها**" ضاعف الصرامة الشديدة في عملي على لوحاتي. وفي كل مساء كنت أذهب إلى مدرسة الرسم الرسمية. كان السنيور "نونيز" رساماً جيداً وكان بشكل خاص "نقاشاً جيداً". وقد حاز على " Prix de Rome – جائزة روما" للنقش. كان بالفعل مهووساً بعاطفة حقيقية نحو الفنون الجميلة. ومن البداية، خصني من بين مئة طالب ودعاني إلى منزله حيث شرح لي أسرار توزيع الضوء والظلال، وأسرار "الضربات الوحشية" (كان هذا تعبيره) للنقوش الأصلية "لرامبرانت" التي يملكها. كان لديه طريقة خاصة جداً بإمساك هذه "التحفة" دون أن يلمسها تقريباً، والتي تُظهر تبجيلاً عميقاً كان يستمدّ إلهامه منه. وكنت أخرج دوماً من منزل السنيور "نونيز" منتشياً إلى أعلى درجة، ووجهي متورّد بأعظم الطموحات الفنية، ومشبعاً باحترام متزايد ديني تقريباً نحو الفن، وأعود إلى بيتي و"رامبرانت" يملأ رأسي، ثم أمضي وأغلق الحمام على نفسي و"**أمارسها**". لقد "**أصبحت**" أفضل وأفضل، وبدأت إيجاد تقنيات نفسية من أجل تأخيرها، مما ساعدتي على أن

"**أمارسها**" بفترات أقل تواتراً. لأنني لم أعد الآن أقول: "هذه هي المرة الأخيرة". وعرفت بالتجربة أنه لم يعد ممكناً لي أن أتوقف عن ذلك. وكان ما فعلته أنني وعدت نفسي بأن "**أمارسها**" يوم الأحد، وبعدها "في بعض أيام الأحد". إن فكرة أن هذه المتعة كانت مخبأة لي قد هدّأت من لهفتي وقلقي الإيروتيكيين، ووصلت إلى نقطة إيجاد متعة حسية حقيقية من خلال الانتظار قبل أن "**أمارسها**". والآن وحيث أنني لم أعد "**أنكرها**" على نفسي بالطريقة الحاسمة نفسها، عرفت أنني كلما انتظرت فترة أطول كانت "**ممارستها**" أفضل عندما تحدث، واستطعت أن أتطلّع إلى تلك اللحظة بالكثير من القبول والترحيب.

استمرت دراستي في المعهد بالتقدم بطريقة عادية، ونصح الجميع والدي بأن يدعني أصبح رساماً، وخاصة السنيور "نونيز" الذي كان لديه إيمان كامل بموهبتي الفنية، ورفض والدي اتخاذ قرار — لقد أرعبه مستقبلي الفني، وكان يفضل أي شيء على هذا. ومع ذلك، قام بكل شيء لإتمام دراستي الفنية، شراء الكتب، أنواع المراجع والوثائق كلها، جميع الأدوات التي احتجتها، حتى الأشياء التي لا تتجاوز حدود النزوة العابرة. وكان والدي يقول مراراً وتكراراً: "بعد أن يتجاوز مرحلة البكالوريا، سنرى!"

وبدأت من تلقاء نفسي بالعمل على تشغيل عقلي. كنت أميل إلى الصمت، وبدأت القراءة بجنون حقيقي دون أي نوع من التنظيم. وخلال سنتين، لم يبقَ كتاب واحد في مكتبة والدي الضخمة إلا وقرأته، كان العمل الذي تطلّب أعظم جهد مني هو "القاموس الفلسفي" لفولتير. من جهة أخرى، منحني كتاب "هكذا تكلّم زرادشت" لنيتشه، في جميع الأوقات شعوراً بأنني أستطيع أن أفعل ما هو أفضل في هذا السياق. لكن أفضل القراءات بالنسبة لي كانت قراءة "كانط". ومع أنني لم أفهم أي شيء مما قرأته تقريباً، فقد ملأني هذا الأمر بحد ذاته بالفخر والرضا. أحببت أن أضيّع نفسي في متاهة التبريرات التي تردد صداها في البلورات

المتشكلة لذكائي الشاب كموسيقى سماوية أصيلة. وشعرت أن رجلاً مثل "كانط" كتب كتباً هامة عديمة الفائدة، لا بدّ أن يكون ملاكاً حقيقياً! لا بدّ أن حرصي على أن أقرأ ما لا أفهمه، والذي كان أقوى من رغبتي في القراءة، كان يخضع لحاجة روحي للتغذية. وكما أن نقص الكالسيوم لدى الأطفال ذوي الأجساد الضعيفة يجعلهم يكسرون قطع الكلس والجص الموجود على الجدران ويأكلونها على نحو أعمى وبشكل لا يمكن مقاومته، فلا بدّ أن روحي قد احتاجت إلى تلك الضرورة الحتمية التي مضغت من خلالها الكتب وأعادت مضغها على مدى سنتين متتاليتين دون أن أنجح في ابتلاعها. لكنني ابتلعتها يوماً ما. وخلال وقت قصير، أحرزت بالفعل تقدماً لا يُصدق في فهم المشاكل الفلسفية العظيمة. ومن "كانط" مررت بـ "سبينوزا" لأنني غذّيت من طريقته في التفكير شغفاً حقيقياً لدي في ذلك الوقت. ثم جاء ديكارت لاحقاً وبشكل كبير، وقد استخدمته لبناء أسس منطقية منهجية لأبحاثي الأصلية اللاحقة. وبعدها بدأت بقراءة الفلاسفة من أجل النكتة تقريباً وانتهيت بالبكاء عليهم. أنا الذي لم أبكِ في أي رواية أو مسرحية مهما كانت درامية وممزقة للقلب، بكيت أثناء قراءة مقدمة "التعريف" بأحد هؤلاء الفلاسفة، ولم أعد أتذكر من كان منهم. حتى هذا اليوم وعندما لا تثير الفلسفة اهتمامي إلا بصدفة بحتة، فإنني في كل مرة أجد نفسي فيها في حضور رجل تأملي ذي ذكاء عظيم، أشعر بدموع لا يمكن مقاومتها تنسكب من عيني.

وفي المعهد الذي أدرس فيه، قام أحد البروفسورات الشباب بتنظيم دورة تكميلية عن الفلسفة، وكانت بكاملها من خارج المنهاج الدراسي، وتم العمل عليها في الفترة المسائية بين الساعة السابعة والثامنة. وانضممت بطبيعة الحال إلى هذه الدورة التي تم تكريسها لأفلاطون بشكل خاص. وكان ذلك في أواخر الربيع حيث النسيم المسائي معتدل ورائع، حيث أخرجنا الكراسي إلى الهواء الطلق وجلسنا حول بئر نمت

عليه كميات كبيرة من نبات اللبلاب، وكان القمر يشعّ بنوره علينا. وكان بيننا عدة فتيات لم أعرف أي واحدة منهنّ إلا أنني كنت أراهنّ فتيات جميلات. وعلى الفور وبلمحة واحدة اخترت إحداهنّ -- وهي بدورها فعلت الشيء ذاته معي. كان ذلك واضحاً لكلينا بحيث وقفنا تقريباً في اللحظة ذاتها وكان الموقف المشترك يعبّر تماماً عن التالي: "دعنا نذهب! دعنا نذهبَ" ثم ذهبنا. وعندما خرجنا من المعهد كانت مشاعرنا عظيمة جداً بحيث لم ينطق أحد منا بكلمة واحدة. ثم بدأنا بالركض وأحدنا يمسك يد الآخر. كان المعهد قريباً من ضواحي البلدة، ولم يكن علينا سوى اجتياز بعض الشوارع الفقيرة كي نصل إلى الريف. وكما لو أننا نفكّر معاً بعقل واحد، اتجهنا نحو أكثر البقع عزلة عبر درب صغير بين حقلي قمح نمت السنابل فيهما إلى ارتفاع كبير. كانت البقعة مقفرة تماماً ومبشّرة بالخير في تلك الساعة......

ونظرت الفتاة في عيني بعذوبة متقدة ومثيرة، ثم ضحكت بين فينة وأخرى، وانطلقت تركض من جديد. لكن إن كنت أفتقد الكلمات التي أبدأ بها عادة، فأنا أفتقدها أكثر في هذه اللحظة، شعرت أنني لن أستطيع النطق بكلمة واحدة، وحاولت لكن من دون نتيجة. وأنا أعيد هذه الظاهرة إلى الإعياء الشديد أكثر مما أعيدها إلى حالتي العاطفية. كانت الفتاة ترتعش مع كل تنفس، مما جعلها مرغوبة بالنسبة لي ضعفين أو ثلاثة أضعاف. ومع إشارة من إصبعي إلى فجوة صغيرة في حقل القمح، ركضت الفتاة نحو البقعة واستلقت على أرضها متوارية بالكامل عن الأنظار، ولحقتها بدوري. وهناك، رأيتها قد استلقت على الأرض وبدت أطول مما كانت عليه سابقاً. ولاحظت حينها أنها كانت شقراء جداً وكان لديها صدر جميل يتلوّى تحت بلوزتها كسمكة وقعت في قبضة يدي. وتبادلنا القبل على الفم لفترة طويلة، وكانت أحياناً تفتح ثغرها فأضغط شفتيّ على أسنانها وأقبّلها حتى أشعر بالألم.

ثم أُصيبت بنزلة برد وأمسكت منديلاً صغيراً بيدها وحاولت عبثاً أن تُفرغ إفرازات أنفها بهذا المنديل الصغير المبقّع المبلل بالكامل. ولم يكن لدي منديل أعطيه لها، ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل. ثم بدت وكأنها تتنشق إفرازات أنفها باستمرار، لكنها كانت غزيرة جداً وكانت تعاود الظهور بشكل متسارع. وأخيراً أدارت رأسها بعيداً عني ونظّفت أنفها بخجل شديد باستخدام حافة تنورتها. ثم قبّلتها بسرعة مرة أخرى لأثبت لها أني لا أشعر بالقرف من إفرازاتها، مع أنه كان السبب بالتأكيد، لأنه كان يتدفق بلا لون وبسرعة كبيرة كما لو أنه دمع. وكان نهداها يرتعشان باستمرار مع إيقاع تنفسها مما أوهمني بأنها كانت تبكي. ثم نظرت إليها بقسوة وقلت لها: "أنا لا أحبك! ، وعليّ ألا أحب أية امرأة. وعليّ أيضاً أن أعيش وحدي دوماً!" وبينما نطقت هذه الكلمات، شعرت بجلد وجنتي ينكمش بسبب مخاط الفتاة الجميلة الجاف. ثم سيطر على عقلي هدوء كامل، ومرة أخرى كنت أطوّر خططي بأدق التفاصيل، وبتلك البرودة الحذرة بشكل شعرت معه أن روحي ترتعش.

كيف تمكنت بفترة قصيرة من أن أسيطر على نفسي من جديد؟ إن الفتاة من جهة أخرى، شعرت بالحرج الشديد. ومن الواضح أن برودها كان عاملاً جيداً ساعدها كي تتعامل مع الأمر. وقد حضنتها بين ذراعي اللتين أصبحتا واثقتين من حركاتهما بشكل مفاجئ، كما حافظت عليها مغمورة بوضعية حميمية دقيقة. وشعرت فجأة بمخاطها الجاف يخزني في وجنتي بطريقة لا تُقاوم. لكنني بدلاً من أن أحكّ بإحدى يدي، أخفضت رأسي وتظاهرت بمعانقة كتف عشيقتي بحنان مكثّف، وصادف أن لامس أنفي حدود ثنية إبطها. وكانت قد تعرّقت بغزارة خلال ركضنا السريع، وبذلك كنت قادراً على تنفس الشذا العابق المركب من رائحة نبات "لسان الثور" ورائحة خروف، وربما أضيفت لهما بعض حبات القهوة المحروقة. ثم رفعتُ رأسي فنظرت إليّ محررة من الوهم بمرارة وقالت لي بابتسامة متكدرة مزدرية

"إذن أنت لا تريد أن تعود مجدداً غداً مساءً؟"

وأجبتها بطريقة احتفالية ترفع من معنوياتها: "غداً مساءً، نعم، ولخمس سنوات أخرى أيضاً، لكن ولا يوم واحد إضافي!" كان لدي خطتي — وكان خطة خمسية!

وهكذا فقد بقيت عشيقتي خمس سنوات، ولم تُحسب فصول الصيف التي كنت أمضيها في كادكويز. وقد بقيت مخلصة لي في تلك الفترة كلها إلى حدّ التصوّف. لم أكن أراها خلالها إلا من وقت لآخر خلال ساعات الشفق. وفي الأيام التي كنت أرغب فيها بالبقاء وحدي، كنت أكتب لها ملاحظة صغيرة أرسلها لها مع أحد أطفال الشارع. وإلا فإننا كنا نلتقي في الريف المفتوح كما لو أنها صدفة. ومن أجل أن تقوم بذلك، كانت تلجأ إلى آلاف الحيل، وكانت تجلب معها أحياناً بعضاً من صديقاتها الفتيات اللواتي يصاحبن صبياناً بدورهن، لكنني كرهت هذا الأمر وكنا وحدنا في معظم أوقاتنا.

وأثناء تلك السنوات الرومانسية الخمس، وضعت كل منابع فسادي الشعوري قيد العمل. ونجحت في أن أخلق لديها حاجة إليّ، وبسخرية كبيرة قمت بتدريج تواتر اجتماعاتنا، ونوع المواضيع التي نتحدث عنها، والأكاذيب المثيرة عن الاختراعات المفترضة التي لم أخترعها إطلاقاً، والتي ارتُجِل الجزء الكبير منها في لحظتها، واستطعت أن أرى تأثيرها المتضخّم ينمو من يوم لآخر. لقد كان سحراً ممنهجاً مميتاً مطوّقاً قاتلاً. ثم جاءت اللحظة التي اعتبرت بها فتاتي "ناضجة" وبدأت أطالبها بأداء تصرّفات معينة فيها بعض التضحية من أجلي — ألم تقل إنها مستعدة بالفعل أن تقدم حياتها وتموت من أجلي؟ حسناً إذن! لنرَ ذلك! كم بقي من الوقت لدينا؟ أربع سنوات؟ وعليّ أن أذكر أيضاً — من أجل أن يُفهم الشغف المتنامي الذي أطلقت العنان له في روح هذه المرأة بشكل أفضل، ولا يُعزى فقط إلى مواهبي كـ "دون جوان — أنه لم

يحصل أي شيء بيننا، وبأي شكل إيروتيكي كان، إلا وتم توصيفه من اليوم الأول: تبادلنا القبلات على الفم، وتبادلنا نظرات العيون، وضممتها إلى صدري وهذا كل شيء. وأعتقد أيضاً أن إحساس الدونية الذي شعرت به يوم لقائنا الأول، والناتج عن نزلة البرد وافتقارها إلى منديل جاف، قد خلق لديها نوعاً من عدم الرضا، ورغبة مستمرة عنيفة لإعادة تأهيل نفسها في عيني بشكل أنها لم تكن قادرة على أن تطلب مني أكثر مما أظهرته لها في تلك اللحظة – بل حتى أقل من ذلك (لأن التظاهر بالبرودة كانت أحد أفضل أسلحتي) – لأن حبها المُثار باستمرار ساهم بدون شكّ بإبقاء تلك الحالة من التوتر الغرامي المتنامي الذي لا ينخفض مستواه عندما يصل إلى حالة إشباع حسي، وكان ينمو كل يوم بأمنيات مقلقة وخطيرة وغير سليمة، ويتسامى باستمرار، ويصبح غير واقعي باستمرار، وكان في الوقت نفسه عرضة أكثر وأكثر لأزمات الجريمة أو الانتحار أو الانهيار العصبي.

الفقرة الأخيرة من صفحة

منذ هذه التجربة، بدا لي أن الحب غير المكتمل هو أكثر موضوعات المثيولوجيا الشعورية هلوسة. كما اتضح لي أن (تريستان وإيزولده) هما النموذج البدائي لأحد أنواع الحب غير المكتمل التراجيدي الذي كان في عوالم الشعور بوحشيته وشراسته مشابهاً لأنثى فرس النبي التي تلتهم الذكر فعلاً في ليلة عرسهما، وخلال ممارستهما للحب تحديداً. لكن حجر الأساس في قبّة التعذيب الأخلاقي التي كنت أبنيها لحماية الحب غير المكتمل لعشيقتي كان من دون شك إدراكاً مشتركاً كاملاً بأنني لم أحبها. وقد عرفتُ بالتأكيد، وعرفتْ هي أيضاً أنني لم أحبها. لقد عرفتُ أنها عرفتْ أنني لم أحبها، وعرفتْ هي أنني عرفتُ أنها عرفتْ أنني لم أحبها. وبعدم حبي لها حافظت على عزلتي كما

هي، وبقيت حـراً لأمـارس "مبـادئ نشـاطي الشـعوري" علـى مخلوقـة جميلة جداً، وعلـى شـكل تجـريبي جمـالي بشـكل بـارز. وعرفـتُ أن الحبّ، بالطريقة التي أحببت فيهـا غالوشـكا، دوليتـا ريـدفيفا، كـان شيئاً مختلفـاً تمامـاً يـدعو إلى تلاشـي "الأنـا" في اخـتلاط كلـيّ القـدرة للمشاعر، وفيه كل الانحياز الواعي وكل الخيارات المنهجية التي تهدد بالانهيار بأكثر الأشكال التي لا يمكن التنبؤ بها تناقضاً. أما هنا، فعلى العكس تماماً، أصبحت عشيقتي الهدف الثابت لتجـارب المهـارة الـتي عرفتُ أين "ستخدمني" لاحقـاً. وكنـت واعيـاً تمامـاً لكـون الحـب هـو استقبال السهم وليس إطلاقه، وجرّبت أن أنقش على جسدها "القـديس سيباستيان" الذي كان كامناً في جلدي، وكنت أريد أن أتخلّص منه كما تفعل الأفعى. وبمعرفتي أنني لم أحبها، كان بوسعي أن أسـتمرّ بحـبي المثالي لدوليتا الأولى والثانية، ولغالوشكا ريدفيفا، ذلك الحـبّ المطلـق، حبّ ما قبل الرفائيلية. لدي الآن عشـيقة مـن لحـم ودم، ولهـا نهـدان وثغر ورضاب، وقد آذيتها بحبها لي وكنت أضمّها إلى جسـدي دون أن أحبها.... وبمعرفتي أنني لم أحبها، لم أعش معهـا أيضـاً ذلـك التـوق غير المُشبع دوماً لارتقاء ذروة برج! لقد كانت بشرية، حقيقيـة، وكلمـا التهمت رغبتهـا العطشـى جسـدها أكثـر، بـدت مريضـة أكثـر، بـدت بالنسبة لي أقل ملاءمة لارتقاء برجي. كنت أريدها أن تموت !

كنت أقـول لهـا أحيانـاً عنـدما نكـون مسـتلقيين في مكـان مـا بـين الحقول: "اقتنعي بأنـك ميتـة". وكانـت تصـالب يـديها علـى صـدرها وتتوقف عن التنفس لوقت طويل يصيبني بالهيجان أحياناً فأربّت على وجنتيها مقتنعاً بأنها قد فقدت الوعي. إنها تستمدّ سعادة واضحـة مـن حالة الشحوب المتزايدة لديها، والـتي أرشـدتها إليهـا بأعنّـة العـذاب الرقيق مثل حصان منهك قمري البياض، ذي لبدة شعثاء.

"ثم نجري معاً من دون توقف على طول المسافة التي تفصلنا عن شجرة السرو". كانت تخشى غضبي وتطيعني، وكنا نسقط عند جذع الشجرة في نهاية السباق وقد أغمي علينا من التعب. كانت تقول غالباً: "أنت تريدني أن أموت"، وهي تعرف أنني أحبها أن تقول هذا، وأنني سأكافئها بتقبيل فمها.

ثم جاء الصيف وعدت إلى كاداكيس. صرّح السنيور بيشوت بأن شجرة السرو التي زرعها في وسط الفناء قد كبرت بمقدار قدمين. وقد رسمت لوحة تفصيلية لهذه الشجرة وهي تضجّ بالحياة، وراقبت كرات بذورها وصُعِقت من تشابهها مع الجماجم، وخاصة بسبب الغرزات الخشنة الموجودة بين عظامها الخارجية.

لقد كانت الرسائل التي استلمتها من عشيقتي تزداد سموّاً بنبرتها أكثر من أي شيء آخر، ولم أجب على رسائلها إلا في حالات نادرة جداً، بحقد لاذع عرفت بأنه لن يفشل بأن يترك أثره عليها ويجعلها شاحبة كالشمع.

في نهاية فصل الصيف، هطل المطر يوماً كاملاً. كنا أحد آخر العائلات التي تغادر، وفي اليوم الأخير ذهبت متجولاً حول ملكية بيشوت المهجورة

تماماً. سقط ردائي بماء المطر وتبلل تماماً. وبعد أن استكشفت جيوبه التي اعتدت أن أضع رسائل عشيقتي فيها، وجدت حزمة رسائل منتقعة بالماء، وقد مُحيت سطورها المكتوبة بخط اليد كلها تقريباً. ثم جلست أمام شجرتي وأنا أفكر فيها. ومن الناحية الميكانيكية، بدأت أعصر الرسائل حتى أصبحت أشبه بالمعجون، صنعت منها كرات صغيرة. وفجأة أدركت أنني كنت أحاكي بشكل لا إرادي كرات السرو لأنها كانت من القياس نفسه تقريباً، ومصنوعة على شاكلتها من عدة أقسام متصلة بخيوط تشبه الغرزات التي تربط بين عظامها الخارجية. ثم ذهبت إلى شجرة السرو واستبدلت إحدى ثمارها بكرة بيضاء مصنوعة من رسائلي، ومن الباقي صنعت كرة أخرى ووضعتها بشكل مماثل مع الأولى. ثم تابعت سيري غارقاً في التأمل بأكثر المواضيع تنوعاً. بقيت جالساً لأكثر من ساعة على قمة صخرة قريباً جداً من الأمواج المتكسرة، تركت وجهي وشعري مبللا منها. حرّضت نكهة البحر المالحة في عقلي أسطورة الاستقامة والخلود التي كانت هاجساً بالنسبة لي في ذلك الوقت. هبط الليل، ولم أعد أرى أين أسير. وفجأة ارتجفت ووضعت يدي على قلبي، حيث شعرت بوخزة كما لو أن شيئاً قد صدمه في هذا المكان. ولع وميض نذير شؤم في عقلي: هل ماتت؟ غمرني عرق بارد، لم يفارقني حتى وصلت إلى البيت حيث كانت تنتظرني رسالة من عشيقتي اختتمتها بما يلي: "أصبحتُ أكثر بدانة، والجميع يعتقدون أنني أبدو بشكل أفضل. لكنني مهتمة فقط بما ستراه عندما تراني مجدداً. قبلاتي لك، ومرة أخرى، لا أستطيع نسيانك، إلخ، إلخ..... أيها الغبي!

كنت أستعد للرحيل. بدأ والدي بالاستسلام، وعرفت أنني بعد انتهاء سنواتي الدراسية الست في المرحلة الثانوية، سأصبح رساماً! وهذا لن يكون قبل ثلاث سنوات لاحقة، لكن كان هناك كلام فعليّ حول كلية الفنون الجميلة في مدريد، أو ربما في روما إن حصلت على الجائزة. في البداية،

أثارت اشمئزازي فكرة حضور "دورات رسمية" مرة أخرى، حتى ولو كانت دورات في الرسم، لأنني أحببت أن أعطى الحرية الكاملة في التصرّف، دون أن يكون أي شخص قادراً على أن يتدخل بما يجري في رأسي. كنت قد خططت سلفاً لصراع يائس حتى الموت مع البروفسورات، وما اعتمدت أن أفعله، يجب أن يحدث "دون أي انتظار". بالإضافة لذلك، لم يعد السنيور "نونيز"، الشاهد الحاضر الوحيد على إبداعاتي الفنية، متوافقاً معي. وكنت في كل يوم أدهشه أكثر، وفي كل يوم يعترف بأنني على حق.

كنت أقوم بأول استكشافاتي الميكانيكية وكان لها كلها الأصل ذاته: كنت أبدأ دوماً بعكس ما قاله البروفسور لي. وكنا نرسم في إحدى المرات عجوزاً متسولاً له لحية مجعدة جداً، شعر ناعم — منسدل تقريباً وأبيض بالكامل. وبعد أن نظر السنيور "نونيز" إلى لوحتي قال لي إنني نفّذت الكثير من ضربات قلم الرصاص كي أحصل على الأثر الأبيض الدقيق للانسدال. كان عليّ أن أقوم بأمرين — أن أبدأ من جديد على ورقة نظيفة تماماً، وأن أنتبه "لبياضها" الذي أستطيع الاستفادة منه. ولكي أحصل أيضاً على تأثير انسدال شعره الناعم جداً، عليّ أن استخدم قلم رصاص دقيقاً جداً، وأوجه ضرباته بأبسط طريقة ممكنة. وعندما ابتعد البروفسور، بدأت بشكل طبيعي بالعمل بعكس نصيحته، ونفذت على اللوحة ضربات عنيفة جداً بأكثر أقلام الرصاص ثخانة وسواداً. قمت بتلك العملية بطريقة جعلت الطلاب يتجمعون حولي ليراقبوا عملي. وكنت قادراً في النهاية بسبب ذكاء تناقضاتي، أن أُبدِعَ إيحاءً رائعاً عن الموديل المطلوب. لكن مع عدم شعوري بالرضا الكامل، تابعت تعتيم اللوحة أكثر وأكثر حتى لم يبقَ فيها إلا بقع سوداء تزداد تجانساً، وفي النهاية غمر اللوحة كلها انطباعٌ داكن موحد كامل.

في اليوم التالي، عندما جاء البروفسور ووقف أمام لوحتي، صرخ بيأس قائلا: "لقد فعلت عكس ما قلته لك، وها هي النتيجة!"

وأجبته بأنني كنت أوشك أن أحلّ المشكلة، وكنت ممسكاً بزجاجة الحبر الهندي والفرشاة، وبدأت بمضاعفة لوحتي بالبقع السوداء، وتحديداً في الأماكن التي كان فيها "الموديل" أكثر بياضاً. وهتف البروفسور معتقداً أنه فهم الأمر:

"إن فكرتك هي أن تقوم بالعكس!"

وأجبت: "إن فكرتي هي أن أرسم ما أراه بالضبط!"

وانصرف البروفسور وهو يهزّ رأسه ويقول: "إن كنت تعتقد أنك تستطيع أن تنهي هذه اللوحة بالطباشير فأنت مخطئ، لأن الطباشير لا يعلق على حبرك الهندي!"

وعندما أصبحت وحدي، أخرجت سكيناً صغيرة وبدأت أخدش ورقتي بها بطريقة معينة، فظهر لديّ أشدّ أنواع البياض الذي يمكن الحصول عليه في لوحة إبهاراً. أما في المناطق الأخرى، حيث أردت أن يظهر بياض أقل، فقد بصقت على البقعة المحددة ومسحتها بنسب متفاوتة، وظهرت طبقات رمادية متسخة. وانبثقت لحية العجوز المتسول الذي جلس "كموديل" من ظلال لوحتي بواقعية رائعة. ثم أتقنت عملية إبراز لبّ الورقة بطريقة فيها نوع من الانسدال الشبيه بالحقيقي، وتم الأمر عبر خدش اللوحة ذاتها[1]، تابعت عملية السحب على طول الورقة بأظافري، وجعدتها في أسفلها. وخلاصة القول أنني نجحت في محاكاة لحية العجوز بشكل مباشر. ثم انتهى عملي فأضأت اللوحة بشعاع ضوء مائل وُضِع قريباً من حافة الورقة. وعندما عاد السنيور "نونيز" ليراها، لم يقل كلمة واحدة، إلا أن الحيرة التي طغت على وجهه، تجاوزت إلى حد كبير الشكل الاعتيادي للإعجاب. وعندئذٍ عانقني وضمّني إلى صدره

---

[1] لاحقاً. في دراسة الألوان المائية لـ "ماريانو فورتوني" مُخترع "طريقة التلوين الأسبانية"، وأحد أعظم الكائنات المهرة في العالم، أدركت أنه استخدم التشطيبات نفسها لتحقيق أكثر حالات البياض إشراقاً، مستغلاً مثلي تماماً، خفّة البياض وعدم انتظامه في القضية ليترك الضوء في جسيمات ناعمة على السطح، وبهذا زاد من أثر الإشراق المُبهر.

بذراعيه حتى شعرت بأنه سيخنقني، وكرر قريباً ما قاله "مارتن فيلانوفا" (بمناسبة اختراعي للغواصة)، "انظر إلى دالي، أليس عظيماً!" ثم ربّت على كتفي وعلى محياه ملامح التأثر الشديد. لقد جعلتني تجربة خدش الورقة برأس سكيني أفكر ملياً بخصائص الضوء وإمكانياته في المحاكاة. واستمرّت أبحاثي في هذا المجال سنة كاملة، ووصلت إلى نتيجة مفادها أن تخفيف اللون نفسه بعد تكثيفه عن عمد على لوح الرسم، يمكن أن يُنتج أثاراً مضيئة تُرضي العين.

تلك كانت الفترة التي أسماها والداي وأسميتها أنا "مرحلة الحصى" لأنني استخدمت الحصى في الرسم. وعندما أردت أن أرسم غيمة مضيئة جداً أو حالة من التألّق الكثيف، كنت أضع حصاة صغيرة على لوح الرسم الذي سأرسم عليه. وكانت إحدى أكثر لوحاتي نجاحاً من هذا النوع، لوحة غروب كبيرة بالألوان القرمزية. كانت السماء كلها مليئة بحصى من كافة الأحجام، وصل بعضها إلى حجم تفاحة! وكانت تلك اللوحة الضخمة معلقة لفترة ما في غرفة الطعام في منزل الأهل، أتذكر أنه خلال أحد الاجتماعات الهادئة للعائلة بعد الوجبة المسائية، أدهشنا سماع صوت ارتطام خفيف بالرخام الموجود على الأرض، وعندئذٍ توقفت أمي عن عملها بالحياكة وأنصتت، وأكد أبي لها بقوله: "ليس هناك شيء — إنها مجرّد حصاة أخرى انزلقت من سماء ابننا!" لقد كانت الحصى ثقيلة جداً، ولم يستطع غلاف اللوحة أن يحافظ على الحصى معلّقة على اللوحة التي تشققت في نهاية المطاف. كانت الحصى عبارة عن قطع كبيرة من الغيوم التي تضيئها شمس المغيب، لكنها انهارت وأصدرت هذا الصوت. وأضاف والدي بنظرة قلقة: "هذه الأفكار جيدة، لكن من سيشتري لوحة تتلاشى في نهاية المطاف، وتسبب فوضى في البيت؟"

أما في بلدة فيغوارس، فقد كانت أبحاثي مصدر تسلية دائمة. وكانت معظم الأحاديث تدور حول: "والآن سيضع ابن دالي الحصى على هذه

اللوحات!" ومع ذلك، وفي ذروة هذه المرحلة، طُلِبَ مني أن أعير بعضاً من لوحاتي لمعرض سيُقام في قاعة المجتمع الموسيقي. كان هناك حضور من حوالي ثلاثين منطقة محلية وإقليمية، والبعض منهم من مناطق بعيدة مثل "جيرونا" أو حتى "برشلونة". وكانت أعمالي من بين الأعمال الأكثر شدّاً اللانتباه، والشخصيتان المثقفتان من البلدة، واللتان حملتا الثقل الأكبر، "كارلوس كوستا، وبويغ بوغاديس صرّحا قائلين عني: "إن مهنة فنية لامعة تقف الآن أمامنا من دون أدنى شكّ.

أنتج هذا التكريس الأولي لمجدي انطباعاً قوياً في مخيلة عشيقتي العاطفية، واغتنمت هذه الفرصة اليائسة لأستعبدها أكثر وأكثر. وفوق كل ذلك، لم أكن أرغب أن يكون لها أصدقاء سواء أكانوا إناثاً أم ذكوراً، مراهقين أم بالغين. كان عليها أن تبقى وحدها دوماً مثلي تماماً، ولا يمكنها أن تراني إلا حين أرغب أنا — أنا الشخص الوحيد الذي يمتلك الذكاء، والذي فهم كل شيء بشكل يعاكس فهم الآخرين له، والذي كانت تحيطه الصحف بسحبٍ من المجد. وما إن أعرف أنها تعرّفت، أو تحدثت عن شخص ما بطريقة متعاطفة حتى أحاول على الفور أن أستنكر وأدمّر وأبدد تلك المبررات الموجودة في عقلها، وكنت أنجح دوماً. بشكل مؤكد، وجدت تلك النظرة الصحيحة، تلك الابتسامة المُبتذلة التي تحدد الشخص بتلك الواقعية، بحيث لا تعود تراه هي بغير الطريقة التي أمليتها أنا عليها. لقد اغتصبتُ خنوع مشاعرها بشكل واقعي، وكانت كل مخالفة لتحقيقاتي الشعورية الخالية من أية شفقة، تستوجب عقوبة تذرف بها دموعاً مريرة. كما أن لهجة الازدراء التي أكلّمها بها، والتي تمر كما لو أنها من غير قصد في محادثة عابرة، كانت كافية لتجعلها تشعر كما لو أنها تموت. لم تعد تتوقع مني أن تجعلني أحبها لكنها كانت عالقة بإعجابها بي كامرأة تغرق. وكانت حياتها كلها مركزة على نصف ساعة أمضيها معها ونحن نتمشى في هذا المكان أو ذاك، وكنت

أخفف من تواتر تلك الفترة القصيرة لأن كل شيء كان سينتهي! لقد كان معبد أكاديمية الفنون الجميلة في مدريد يلّوح لي سلفاً بكل أدراجه وأعمدته وأقواس مجده. وكنت أقول لعشيقتي: "اكسبي قدر ما تستطيعين، لديك سنة أخرى". لقد أمضتْ حياتها كلها تتجمّل من أجل نصف الساعة التي نقضيها معاً. كما تغلّبت على ضعفها وامتلكت جسداً سليماً معافى لا يمكن إلا لدموعه أن تجعله مقبولاً في عيني.

وحملتُ معي أثناء سيري معها عدداً من لوحات " L'Esprit Nouveau – الروح الجديدة" التي حصلت عليها. وكانت عشيقتي تحني رأسها بتواضع بطريقة مؤثرة على لوحاتي التكعيبية. كان لدي في ذلك الوقت شغف نحو اللوحة التي أسميتها "الضرورة الحتمية للتصوّف" لـ (جوان غريس). وأتذكر غالباً حديثي مع عشيقتي بعبارات ملغّزة من نوع: "المجد لامع وحاد، وهو يقطع شيئاً كهذا مثل مقصّ مفتوح". وكانت تتشرّب كلماتي كلها دون أن تفهمها، وتحاول أن تتذكرها لاحقاً فتسأل: ..... "ما الذي كنت تقوله البارحة عن المقصّ؟"

وغالباً ما كنا نرى أثناء تجوالنا برج الطاحونة ينبثق من خلال الخضرة الداكنة في البعيد، كنت حينها أرغب في أن أجلس وأنظر نحوه. قلت لها مرة: "أترين تلك البقعة البيضاء هناك؟ إنها البقعة التي جلستْ فيها دوليتا". ونظرت نحوها دون أن ترى ما كنت أشير إليه، ووضعت يدي على نهدها. منذ المرة الأولى التي قابلتها فيها ونهداها يزدادان قساوة بشكل تدريجي، حتى أصبحا أشبه بحجرين. قلت لها: "أريني نهديك". ففتحت قميصها وأرتني نهديها، وكانا جميلين جداً وبيضاوين وحلمتاهما أشبه بحبتي توت نبتت عليهما بعض الشعيرات الناعمة الدقيقة. وأوشكت أن تغلق قميصها مجدداً لكنني أمرتها بصوت فيه شيء من العاطفة: "لا. ابقي كما أنت!" فتركت يديها تسترخيان على طول جسدها، ومالت برأسها قليلاً إلى أحد الجانبين، وأخفضت عينيها. ثم خنق التنفس العنيف

صدرها فقلت لها أخيراً: "هيا". وزرّت قميصها ونهضت وهي تبتسم بلطافة. ثم أمسكت بيدها وتابعنا مشوارنا نحو المنزل. قلت لها: "أتعرفين! ، لن أكتب إليك أية رسالة عندما أذهب إلى مدريد". وسرت بعدها عشر خطوات لأنني أعرف تماماً أنها المدّة الزمنية اللازمة كي تبدأ بالبكاء، ولم أكن مخطئاً أبداً. عندئذٍ قبّلتها بشغف شاعراً بوجنتي تحترقان بدموعها الكبيرة كحبات بندق. أما في عمق دماغي، فقد شعّ المجد مثل طرفي مقصّ مفتوح! اعمل، اعمل يا سيلفادور. لأنك إن كنت موهوباً بالقساوة، فسوف تكون موهوباً بالعمل أيضاً.

إن هذه الطاقة على العمل توحي إلى كل شخص بالمزيد من الاحترام، سواء أكنت أثبّت الحصى على اللوحة أم كنت أعمل بشكل دقيق لساعات لا نهاية لها، أو أمضيت كامل يومي أتلقّى ملاحظات محاولاً أن أحلّ شيفرة سياق فلسفي كامل. الحقيقة الوحيدة هي أن دماغي لا يرتاح لحظة واحدة في النهار كله منذ أن أستيقظ في السابعة صباحاً. كما أنني أعتبر تجوالي البطيء عملاً شاقاً مجهداً بسبب الإغواء المتواصل. وكان تعليق والديّ الدائم: "هو لا يتوقف للحظة واحدة! إنه لا يمضي وقتاً جيداً!" وكانت نصيحتهما: "أنت شابّ، وعليك أن تفعل أفضل ما لديك في هذا السن!" على أية حال، كنت أفكر في نفسي على النحو التالي: "أسرع وكبر بالعمر — أنت يانع بشكل مريع، ولاذع بشكل مريع أيضاً". كيف استطعت، قبل أن أصل سن البلوغ، أن أخلص نفسي من عجز المراهقة الصبياني الحالم؟ لقد كنت مدركاً بشكل استثنائي لشيء واحد — عليّ العمل عبر "الفن التكعيبي" كي أخرجه من نهجي مرة واحدة وإلى الأبد، وربما أستطيع خلال هذه الفترة أن أتعلّم الرسم على الأقل!

لكن هذا لم يرض رغبتي المتعطشة لكل شيء. كان لا يزال عليّ أن أخترع عملاً فلسفياً عظيماً وأكتبه، كنت قد بدأته قبل سنة من الآن، وأسميته "برج بابل". وكنت قد كتبت خمسمئة صفحة منه ولا أزال في

المقدمة فقط! وفي تلك الفترة، احتلّت النظريات الفلسفية لكتابي كامل فراغات نشاطي النفسي، وتلاشى قلقي الجنسي بالكامل تقريباً. كما أن أساس هذا الكتاب قد بدأ بعرض لظاهرة الموت التي كانت ستستكشف من وجهة نظري، في مستهلّ كل بناء تخيّلي. كانت نظريتي تجسيدية، لأنني اعتبرت دوماً أنني لم أكن حياً كما في عملية الانتعاش من "الغباء غير المتبلور" لأصولي، والأكثر من ذلك أنني اعتبرت الكِبَر في السن السابق لأوانه هو عبارة عن ثمن أدفعه مقابل وعد بالخلود. وما كان قريباً من قاعدة البرج، ويُعتبر "حياة مفهومة واضحة" لأي شخص، كان بالنسبة لي موتاً وفوضى، أما ما كان على ذروته وكان يعتبر "تشويشاً وفوضى" بالنسبة للآخرين، كان بالنسبة لي، أنا المنهاهض لفاوست، وصانع المعجزات الأسمي، كان مجرّد "لوغوس" وبعث جديد. وكانت حياتي تأكيداً مستمراً غاضباً لشخصيتي النامية المستبدة. كانت كل ساعة عبارة عن نصر جديد "للأنا" على الموت. ومن جهة أخرى، لم أرَ من حولي سوى المساومات المستمرة مع هذا الموت. ليس بالنسبة لي! أنا لا أساوم مع الموت.

ثم توفيت والدتي، وكان موتها أقسى ضربة تلقيتها في حياتي. لقد أحببتها كثيراً. وبدت صورتها بالنسبة لي فريدة من نوعها. لقد عرفت أن القيمة الأخلاقية لروحها الطاهرة كانت أعلى من كل روح كانت لدى إنسان، ولا أستطيع أن أقبل موت كائن كنت أعتمد عليه ليجعل العيوب الواضحة لروحي غير مرئية – كانت رائعة جداً لدرجة اعتقدت أنها ستكفيني. لقد أحبتني بكل ما لديها من حب وفخر بحيث أنه لا يمكن أن تكون مخطئة – حتى خبثي لا بدّ أن يكون شيئاً رائعاً! لقد شعرت أن موتها إهانة من القدر – شيء كهذا لا يمكن أن يحدث لا لها ولا لي! – وشعرت أن الانتقام الهائل كان أشبه بأرزة لبنان التي عمرها ألف سنة، مدّت أغصانها العملاقة إلى وسط صدري. وبأسناني التي تصرّ بالبكاء، اقسمت لنفسي أن أنتزع والدتي من الموت والقدر بسيوف الضوء التي ستلمع بوحشية حول اسمي المجد!

الفصل الثامن

فترة التدريب المجيدة، موافقة الأب على العمل في الفن، امتحان القبول، الفصل من كلية الفنون الجميلة في مدريد، التأنق والسجن.

ومع غزارة المقالات التي بدأت تتدفق إلى المنزل، قرر والدي تخصيص دفتر يجمع فيه كل المقالات التي كانت لديه والتي ظهرت عني ويلصقها عليه. ثم كتب مقدّمة لهذه المجموعة وهذه ترجمة كاملة وأمنية لها:

سيلفادور دالي واي دومينيك، رسام متدرب

بعد واحد وعشرين سنة[1] من الهموم والقلق والجهود العظيمة، تمكنت أخيراً من رؤية ابني يكاد يتبوأ منصباً ليواجه ضرورات الحياة ويعيل نفسه. إن واجبات الأب ليست سهلة كما يُعتقد أحياناً. ويُطلب منه باستمرار القيام ببعض التنازلات، وثمة لحظات تقضي فيها تنازلاته ومساوماته على كامل الخطط التي وضعها، والأوهام التي غذّاها. ونحن — والديه – لم نكن نريد أن يكرّس ابننا نفسه للفن، مع أنها المهنة التي أظهر فيها مهارة عظيمة منذ طفولته.

ما زلت أعتقد أن الفن يجب ألا يكون وسيلة لكسب العيش، بل مجرد استرخاء للروح يكرس المرء نفسه لها عندما تسمح أوقات فراغه

[1] يقع هذا في التسلسل الزمني بعد عدة سنوات في سيرة حياتي الذاتية.

بذلك. والأكثر من ذلك، فإننا مقتنعان كآباء بصعوبة وصوله إلى موقع بارز في الفن الذي لا يمكن أن يحققه إلا الأبطال الحقيقيون الذين يقهرون كل العقبات والنكسات. كما أننا نعرف المرارة والأحزان واليأس الذي يشعر به من فشلوا في هذا المجال. ولهذه الأسباب بذلنا كل ما بوسعنا لنشجع ولدنا على ممارسة مهنة حرة علمية أو حتى أدبية. وحالياً، عندما أنهى ابننا المرحلة الثانوية، كنا مقتنعين بالفعل بعدم جدوى محاولة إقناعه بمهنة أخرى غير الرسم، وهي المهنة الوحيدة التي شعر أنها مهنته بصدق وثبات. لا أظن أنني أملك الحق بمعارضة قراره الذي اتخذه بشأن مهنته، وخاصة لأنه كان من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار أن ابني كان سيضيع وقته في أي فرع أو دراسة أخرى، بسبب "الكسل الفكري" الذي سيعاني منه إن تم إبعاده عن دائرة ميوله.

عندما وصلنا إلى هذا القرار، اقترحت على ابني مساومة: أن يرتاد مدرسة الرسم والنحت والنقش في مدريد، وأن يأخذ كل المنهاج الضروري كي يحصل على لقب بروفسور في الفن، وما إن يكمل دراسته، عليه الخضوع لامتحان المسابقة كي يتمكن من استخدام لقب البروفسور في مركز تعليمي (بيداغوجي) رسمي، وبهذا يضمن دخلاً يعيله في توفير ضرورات الحياة التي لا غنى عنها، ويسمح له في الوقت نفسه، أن يكرّس نفسه للفن بالقدر الذي يريد في ساعات فراغه التي تتركها له واجباته التدريسية. بهذه الطريقة أضمن له مورد رزقه، وفي الوقت نفسه يبقى الباب الذي يسمح له بممارسة مواهبه الفنية مفتوحاً أمامه. وهو سيتمكن من القيام بهذا من دون المخاطرة بالوقوع في كارثة اقتصادية تجعل حياة الرجل غير الناجح أكثر مرارة.

هذا ما توصلنا إليه! لقد حافظت على قراري، وضمنت ألا ينقص ابني أي شيء يمكن أن يحتاج إليه من أجل إتمام دراسته الفنية والمهنية. وبذلت من أجل هذا جهداً عظيماً، إن أخذنا بعين الاعتبار

أنني لا أملك أية ثروة شخصية، لا صغيرة ولا كبيرة، وأن علي أن ألبي كل التزاماته بما أكسبه من مهنتي بشرف وأمانة فقط، وهي مهنة كاتب العدل، وأن هذا الكسب متواضع، كما يكسب كل كتاب العدل في فيغوراس. والآن، يستمر ابني بأداء واجباته الدراسية، ويواجه بعض العقبات التي أعتبر أن مسؤوليتها تقع على عاتق الخلل البغيض في مراكزنا التعليمية أكثر منها على التلميذ. لكن التقدم الرسمي في عمله جيد. وقد أكمل ابني منهاجين كاملين وفاز بجائزتين، واحدة في تاريخ الفن والأخرى في "التدريب العام في الرسم بالألوان". وأقول "عمله الرسمي"، لأن الفتى قد يفعل أفضل مما يفعل "كطالب في المدرسة"، لكن الشغف الذي يشعر به حيال الرسم يلهيه عن دراساته الرسمية أكثر مما يجب. إنه يمضي معظم وقته في رسم الصور الخاصة به ويرسلها إلى المعارض بعد عملية انتقاء دقيقة. إن النجاح الذي حققه في لوحاته أكبر بكثير مما كنت أظن أنه ممكن. لكن، كما ذكرت، أفضّل أن يأتي هذا النجاح لاحقا، بعد أن يكون قد أكمل دراسته ووجد منصباً كبروفسور. لأنه لن يكون هناك حينها أي خطر من ألا ينفذ وعده.

وعلى الرغم من كل ما قلته، فلن أكون صادقاً إن أنكرت أن نجاحات ابني الحالية تسرني، لأنه إن حدث ولم يتمكن ابني من الحصول على منصب بروفسور، قيل لي إن الاتجاه الفني الذي يتبعه ليس خاطئاً تماماً، وأنه مهما كانت نتيجته سيئة، فإن أي اتجاه آخر سيسلكه سيؤدي إلى كارثة أعظم بكثير حتماً، بما أن ابني موهوب بالرسم فقط.

يحتوي هذا الدفتر على مجموعة من كل المقالات المنشورة في الصحافة، والموجودة لدي عن أعمال ابني أثناء فترة تدريبه كرسام. وهو يحتوي أيضاً على وثائق أخرى لها علاقة بأحداث حدثت في المدرسة، وبسجنه، والتي يمكن أن تساعد في الحكم على ابني كمواطن، أي

كرجل. أنا أجمع، وسأستمر في جمع كل مقالة تأتي على ذكره، سواء أكانت جيدة أم سيئة، طالما أنني عرفت بوجودها. ويمكن لقراءة جيدة لكل هذه المحتويات أن تعرّف بقيمة ابني كفنان وكمواطن. وتمنى لمن لديه الصبر على قراءة كل ما ورد هنا أن يحكم عليه بتجرّد.

سيلفادور دالي، كاتب عدل
فيغوراس، 31 كانون الأول، 1925.

ورحلت إلى مدريد مع أبي وأختي. ليتم قبولي في كلية الفنون الجميلة. كان من الضروري أن أنجح في الامتحان الذي كان عبارة عن رسم لوحة مستوحاة من قطعة فنية قديمة. وكان نموذجي هو تمثال لباخوس نحته "جاكوبو سانسوفينو"، وكان علي إكمالها خلال ستة أيام. كان عملي يسير بطريقته الطبيعية حتى اليوم الثالث، حيث قام المُستخدم الموجود في الكلية (الذي كان يتحدث غالباً مع والدي بينما كان أبي ينتظر بنفاد صبر في الساحة خروجي من المدرسة) بالتعبير عن خوفه من أنني قد لا أنجح في الامتحان.

قال المُستخدم: "أنا لا أناقش حسنات لوحة ابنك، لكنه لم ينتبه إلى قوانين الامتحان التي تنصّ على أن اللوحة يجب أن تكون بالمقاييس الدقيقة لورقة "أنغريس" للرسم، وابنك هو الوحيد الذي جعل الشخصية صغيرة إلى درجة لا يمكن اعتبار الفراغ المحيط بها هوامش!"

أصيب أبي بقلق شديد حينها. لم يكن يعرف كيف يقدم النصحية لي – ما إن كان علي البدء من جديد، أو إكمال اللوحة بأفضل شكل ممكن بالأبعاد الحالية. وقد أقلقته المشكلة طوال نزهتنا المسائية. وفي ذلك المساء في الصالة، جعل الجميع يلتفتون عندما صرخ فجأة: "أتشعر أنك تملك الشجاعة للبدء من جديد؟" وبعد صمت طويل قال: "بقي أمامك ثلاثة أيام!" شعرت بمتعة معينة في تعذيبه بهذا الموضوع، لكنني بدأت أشعر بعدوى قلقه، ووجدت أن المسألة أصبحت جدّية فعلاً.

نصحني قبل أن أذهب إلى السرير قائلا: "نم جيداً، ولا تفكر بالأمر، يجب أن تكون بأفضل حال غداً، وستتخذ قرارك في اللحظة الأخيرة". في اليوم التالي، وبشعور غامر بالشجاعة والعزم، محوت لوحتي كلها من دون تردد. لكن ما إن أكملت محوها حتى أُصِبتُ بالجمود مما فعلته. ونظرت بذهول إلى الورقة التي أصبحت بيضاء من جديد، بينما كان زملائي في يومهم الرابع من العمل، وقد باشروا بوضع اللمسات الأخيرة على الظلال. وفي اليوم التالي سيكون معظمهم قد أكمل العمل، وسيكون لديهم الكثير من الوقت المتبقي للقيام بالإصلاحات الأخيرة، التي تتطلب الهدوء والتأمل دوماً. ونظرت إلى الساعة بقلق. كنت قد استهلكت نصف ساعة في عملية المحو. وبدأت رسم شخصيتي الجديدة بقلق، محاولاً هذه المرة أن آخذ القياسات كي تأخذ الأبعاد التي تنص عليها القوانين. لكنني قمت بالتحضيرات بشكل أخرق تماماً، حيث كان بوسع أي طالب آخر أن ينفذها آلياً بضربة واحدة، وفي نهاية الجلسة اضطررت إلى محو كل ما رسمته من جديد. عندما انتهت الحصة فهم والدي حالاً من شحوب وجهي أن الأمور لم تكن على مايرام.

"ماذا فعلت؟"

"محوتها"

"لكن كيف تسير الرسمة الجديدة؟"

"لم أبدأ بها بعد. كل ما فعلته هو أنني محوت الرسم وأخذت القياسات. أريد أن أكون متأكداً هذه المرة".

قال أبي: "أنت على حق- لكن احتجَت إلى ساعتين لأخذ القياسات! لم يبق لديك الآن سوى يومين. كان علي أن أنصحك بألا تمحو رسمتك الأولى".

لم نستطع أنا وأبي أن نتناول الطعام ذلك المساء. وكان يقول لي باستمرار: "تناول طعامك! تناول طعامك! إن لم تأكل لن تتمكن من

القيامِ بأي شيء غداً". لقد كنا قلقين طوال الوقت، وبدت أختي قلقة أيضاً. واعترف لي أبي لاحقاً أنه لم يغمض له جفن طوال تلك الليلة.

وحل اليومِ التالي. وكانت صورة تمثال باخوس لسانسوفينو قد انطبعت عميقاً في ذاكرتي بحيث رميت نفسي في العمل مثل ذئب جائع. لكنني رسمتها هذه المرة بقياسات أكبر مما يجب. لم يكن هناك ما يمكن فعله – كان الغش مستحيل! فامتدت قدماه وراء الصفحة بالكامل. كان هذا أسوأ من أي شيء، خطأ أكبر بكثير من خطأ الإبقاء على الهوامش الكبيرة. ثم محوتها بالكامل من جديد.

وعندما خرجت من القاعة، كان أبي في حالة نفاد صبر شديد. وابتسم ابتسامة غير مقنعة محاولاً تشجيعي وقال لي: "ماذا حدث؟"

أجبت: "أكبر مما يجب"

"وماذا تنوي أن تفعل؟"

"لقد محوتها". رأيت دمعة تلمع في عيني والدي.

"هيا، هيا، لا تزال أمامك جلسة الغد. كم مرة في السابق أكملت لوحة كاملة في جلسة واحدة!"

لكنني كنت أعرف أن هذا مستحيل بشرياً خلال ساعتين، لأن وضع الرسم التخطيطي لها سيحتاج إلى يوم على الأقل، وستحتاج الظلال إلى يوم آخر. بالإضافة إلى أن والدي كان يقول هذا ليشجعني فقط. كان يعرف مثلي تماماً أنني رسبت في الامتحان، وأننا سنعود بعد غدٍ إلى فيغوراس مجللين بالعار– أنا من كنت أفضل جميع الموجودين هناك– وهذا بعد التأكيد المطلق الذي قدمه له السينيور نونيز بأنني لا يمكن أن أرسب في امتحاناتي، حتى لو كانت لوحتي هي أسوأ ما يمكنني فعله.

وقال محاولاً الاستمرار في مواساتي: "إن لم تنجح في هذا الامتحان، سيكون هذا خطأي وخطأ المستخدم الأبله. وإن كانت لوحتك جيدة، وقد بدت كذلك، ما أهمية أن تكون أصغر أو أكبر من المطلوب؟"

ثم شحذت خبثي وأجبت: "الأمر كما كنت أقول لك. إن كان الشيء مرسوماً بمهارة، فهو يفرض نفسه على البرفسور!"

ولفّ والدي إحدى خصل الشعر الأبيض التي نمت على جانبي جمجمته الضعيفة في حالة تأمل، وقد سيطر عليه الندم.

قال: "لكنك أخبرتني بنفسك أنها صغيرة جداً جداً".

أجبت قائلاً: "على الإطلاق، قلت إنها صغيرة، وليست صغيرة جداً جداً".

ألحّ قائلاً: "اعتقدت أنك أخبرتني أنها كانت صغيرة جداً جداً. إذاً، كان من الممكن أن تنجح في الامتحان، إن لم تكن صغيرة- صغيرة! أخبرني بالضبط كيف كانت، كي أشكل رأياً على الأقل".

ثم بدأت أعذبه بأكثر الطرق التي أعرفها إتقاناً. "وبعد أن تحدثنا عنها كثيراً، لم أعد أذكر أبعادها بالضبط، كانت بحجم عادي، تميل إلى الصغر، لكنها ليست صغيرة بشكل مبالغ فيه".

"لكن حاول أن تتذكر. انظر، هل كانت بهذا الحجم؟" قال وهو يريني البعد بإبهامه وشوكته.

قلت: "لا يمكنني أن أعرف بسبب شكل الشوكة المنحني".

ثم تابع استجوابي بصبر: "تخيل أنها هذه السكين، إنها ليست منحنية. أخبرني إن كانت بهذا الصغر"

أجبت متظاهراً أنني أحاول التذكر: "لا أعتقد هذا، لكنها ربما كانت كذلك".

ثم بدأ أبي يفقد صبره وصرخ بغضب: "الجواب هو إما نعم أو لا!"

أجبت: "لا أستطيع الإجابة بنعم أو لا، لأنني لا أتذكر!"

ثم بدأ أبي يتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً في حالة تركيز قصوى. وفجأة، أخذ قطعة من فتات الخبز، ووضع إحدى ركبتيه على الأرض.

سألني بنبرة توسّل مسرحية، وهو يريني قطعة الخبز بإحدى يديه: "هل كانت بهذا الصغر"، ثم أشار إلى الخزانة باليد الأخرى قائلاً: "أو بهذا الكبر؟ وبكت أختي، وذهبنا إلى السينما. كان الفيلم المعروض من النوع الشعبي، وفي الاستراحة، التفت الجميع إلي كما لو أنني شيء نادر للغاية. وببذلتي المخملية وشعري الذي سرحته بطريقة تليق بالفتيات، وعصاي المذهبة وسالفيّ اللذين يتجاوزان نصف خديّ، كان مظهري في الحقيقة شاذاً وغير اعتيادي بحيث اعتقدوا أنني ممثل. كانت هناك فتاتان صغيرتان، وهما بشكل خاص نظرتا إلي بحماس شديد، وفغرتا فميهما. ونفد صبر أبي وقال: "سرعان ما سنفقد القدرة على الخروج معك. إنك تلفت الأنظار كل مرة بشعرك وسالفيك — على أية حال، سنضطر بالتأكيد للعودة إلى فيغوراس ككلاب تعرّضت للضرب وأخفت أذيالها بين أرجلها خجلاً".

واجتاحت ملامح المرارة عيني والدي الزرقاوين في اليومين الأخيرين، وأصبحت خصلة الشعر الأبيض التي اعتاد العبث بها بأصابعه في لحظات الشك والقلق، تبرز متصلّبة الآن مثل قرن من الشعر الأبيض تركّز فيه كل العذاب والمرارة التي تشوب مستقبلي المقلق.

انبلج فجر اليوم التالي كئيباً، مع وهج عقوبة الإعدام المريع. وكنت مستعداً لأي شيء لأنني لم أعد خائفاً حيث وصل إحساسي بالكارثة الوشيكة إلى ذروته أثناء جحيم اليوم السابق. ثم انطلقت إلى العمل وأتممت اللوحة كلها مع التظليل في ساعة واحة. وأمضيت الساعة الأخرى دون أن أفعل أي شيء سوى الإعجاب بلوحتي المذهلة – لم أرسم أية لوحة بهذه الدقة من قبل. لكنني أصبت بالذعر فجأة لأنني لاحظت أمراً واحداً: كان شكل الشخص لا يزال صغيراً، بل أصغر من المرة الأولى.

وكان والدي يقرأ الصحيفة عندما خرجت، ولم يمتلك الشجاعة الكافية ليطرح أي سؤال، وانتظرني كي أتكلم من تلقاء نفسي.

قلت بهدوء: "أبليت حسناً جداً، لكن الرسمة أصغر حتى من الرسمة الأولى التي رسمتها!"

وكانت هذه الملاحظة بمثابة قنبلة. وكذلك كانت نتيجة امتحاني. وقد تم قبولي كطالب في كلية الفنون الجميلة في مدريد، مع هذه الملاحظة: "على الرغم من حقيقة أن اللوحة لم تكن بالأبعاد المنصوص عليه قانوناً، فهي مثالية جداً، وتُعتبر مقبولة للجنة الامتحانات".

عاد أبي وأختي إلى فيغوراس، وبقيت وحيداً، وأقمت في غرفة مريحة جداً في السكن الطلابي، وهو مكان حصري يحتاج قبول الطالب فيه إلى بعض النفوذ، حيث يعيش أبناء أفضل العائلات الاسبانية. وبدأت دراستي بتصميم كبير، وأصبحت حياتي مقتصرة على دراستي فقط ولم أعد أتسكع في الطرقات، ولا أذهب إلى السينما. وكانت حركتي مقتصرة على الذهاب من السكن الطلابي إلى الأكاديمية والعودة إليه. كنت أذهب مباشرة إلى غرفتي متجنباً كل التجمعات التي تشكلت في السكن، حيث كنت أقفل الباب على نفسي وأتابع دراستي. كنت أذهب في صباح أيام الآحاد إلى متحف "البرادو" وأرسم المخططات التكعيبية لرسم لوحات مختلفة. وكنت أستقل الترام (عربة النقل) من الأكاديمية إلى السكن الطلابي دوماً. وبهذا كنت أنفق بيزيتا واحدة كل يوم، والتزمت بهذا البرنامج لعدة أشهر متواصلة. علم الأهل بطريقة حياتي من المدير، ومن الشاعر "ماركينا" الذي تُركت تحت وصايته، وشعروا بالقلق حيال سلوكي الزاهد، الذي اعتبره الجميع قاسياً. وكتب لي أبي عدة مرات قائلا إنه من الضروري في عمري أن أحظى ببعض التسلية، وأن أذهب في رحلات أو إلى المسرح، وأن أتنزه في المدينة مع الأصدقاء. لم يسفر هذا عن أي شيء. تابعت حياتي من الأكاديمية إلى غرفتي، ومن غرفتي إلى الأكاديمية، ولم أتجاوز ميزانية البيزيتا الواحدة في اليوم قط. لم تكن حياتي الداخلية بحاجة إلى أي شيء آخر، بل إن

أي شيء إضافي كان سيسبب لي الإحراج بسبب ما سيأتي به من إزعاج غير محمول.

بدأت في غرفتي برسم أول لوحاتي التكعيبية التي تأثرت بشكل مباشر ومقصود "بخوان غريس"، كانت أحادية اللون تقريباً. وكردّ فعل على المراحل السابقة التي مررت بها من التأثر بالفنانين المهتمين بالألوان والانطباعيين، فإن الألوان الوحيدة على لوح ألواني كانت الأبيض والأسود والترابي والأخضر الزيتوني.

اشتريت قبّعة كبيرة من اللباد الأسود، وغليوناً لم أدخنه ولم أشعله قط، لكنني كنت أبقيه معلقاً في زاوية فمي. وكنت أكره السراويل الطويلة، وقررت ارتداء السراويل القصيرة مع الجوارب، وأحياناً "البوتي[1]". أما في الأيام الماطرة، فكنت أرتدي معطفاً واقياً من المطر اشتريته من فيغوراس، لكنه كان طويلاً جداً بحيث كاد يصل إلى الأرض، ومعه كنت أرتدي القبعة السوداء الكبيرة التي برز منها شعري مثل عرف من كل جهة. وأدرك اليوم أن من عرفوني في ذلك الوقت لا يبالغون إطلاقاً عندما يقولون إن مظهري "كان مذهلاً". لقد كان كذلك فعلاً. كنت في كل مرة أخرج فيها أو أعود إلى غرفتي، أرى مجموعات من الفضوليين يراقبون مروري. وكنت أسير في طريقي رافعاً رأسي بفخر.

على الرغم من حماسي الشديد في البداية، سرعان ما شعرت بخيبة أمل بسبب الطاقم التدريسي الموجود في الكلية. وقد فهمت تماماً أن هؤلاء الأساتذة الموشّحين بالأوسمة ومراتب الشرف لا يستطيعون تعليمي أي شيء. لم يكن ذلك بسبب أكاديميتهم أو روحهم غير المثقفة، بل على العكس، بل روحهم التطوريّة المتقبّلة لكل حداثة. لقد كنت أتوقّع العثور على الحدود والصرامة والعلم. لقد عرضوا عليّ الحرية، والكسل والمعلومات التقريبية! كان هؤلاء الأستاذة قد اطلعوا مؤخراً على

---

[1] قطعة قماش تُلفّ حول الساق من الركبة إلى الأسفل. المترجم

الانطباعية الفرنسية من خلال أمثلة وطنية مليئة بالنمطية القومية (اللون المحلي)- كان "سورولا" هو إلههم. وبهذا ضاع كل شيء.

وكنت قد وصلت فعلاً إلى ردّة الفعل القصوى المناهضة للتكعيبية بينما هم يحتاجون إلى عدّة حيوات ليصلوا إلى التكعيبية ذاتها! وكنت أطرح على أستاذي أسئلة قلقة يائسة: كيف أمزج الزيت ومع ماذا، كيف أحصل على مادة كثيفة ومستمرّة، أي طريقة علي اتباعها كي أحصل على تأثير ما؟ وكان أستاذي ينظر إلي بذهول، ويجيبني بعبارات مراوغة فارغة من كل معنى.

كان يقول: "يا صديقي، يجب أن يجد كل شخص أسلوبه، لا توجد قوانين في الرسم. ترجم- ترجم كل شيء، وارسم ما تراه بالضبط، والأهم من هذا كله، اسكب روحك في الرسم، المزاج، المزاج هو المهم!"

وفكرت بيني وبين نفسي بحزن: "المزاج، سأرحمك من بعض المزاج يا أستاذي العزيز، لكن كيف، وبأية نسبة، يجب أن أمزج الزيت مع الورنيش؟"

ويكرر البروفسور قائلاً: "الشجاعة، الشجاعة، ليست هناك تفاصيل- اذهب إل لبّ الموضوع - قم بالتبسيط، التبسيط - لا قوانين ولا قيود. وعلى كل طالب في صفي، أن يعمل وفقاً لمزاجه الخاص!"

يا أستاذ الرسم- أيها الأستاذ! كم كنت أحمق. كم من الوقت، كم من الثورات، كم من الحروب يحتاج الناس ليعودوا إلى الحقيقة الرجعية السامية بأن "الصرامة" هي الشرط الأساسي لكل هرمية، وأن القيد هو قالب الشكل بحد ذاته. يا أستاذ الرسم- أيها الأستاذ! كم كنت أحمق! كان موقفي الدائم في الحياة متناقضٌ موضوعياً- وأنا، الذي كنت في ذلك الوقت الرسام الوحيد في مدريد الذي يفهم اللوحات الانطباعية ويرسمها، كنت أطلب من أستاذي الصرامة والمعرفة والعلم الأكثر دقة لفن الرسم، وللمنظور، واللون.

واعتبرني الطلاب رجعياً معادياً للتطور والحرية. واعتبروا أنفسهم ثوريين مبتكرين، لأنه سُمح لهم فجأة أن يرسموا كما يشاؤون، ولأنهم حذفوا اللون الأسود من ألواح ألوانهم لأنهم اعتبروه قذارة، واستبدلوه بالأرجواني! كان هذا اكتشافهم الأحدث: كل شيء يصبح متقزحاً بسبب الضوء – حذف الأسود، والظلال أرجوانية. لكن ثورة الانطباعية هذه كانت ثورة مررتُ بها في سن الثانية عشرة، وحتى في ذلك الوقت لم أرتكب ذلك الخطأ الأساسي بحذف اللون الأسود من لوح ألواني. وكانت نظرة سريعة واحدة إلى لوحة صغيرة "لرينوار" رأيتها في برشلونة، كافية لي كي أفهم كل ذلك بلحظة واحدة. لقد كانوا يضيعون الوقت بأقواس قزحهم القذرة غير المستوعبة جيداً لسنوات وسنوات. رباه، كم يمكن أن يكون الناس حمقى!

كان الجميع يهزؤون بأستاذ عجوز هو الوحيد الذي كان يفهم مهنته جيداً، والوحيد أيضاً الذي يملك ضميراً وعلماً احترافيين حقيقيين. وأنا نفسي، كنت أندم غالباً أنني لم أنتبه لنصائحه جيداً. لقد كان شهيراً جداً في إسبانيا، وكان اسمه "هوزيه مورينو كاربونيرو". وما زلت حتى يومنا هذا أستمتع ببعض لوحاته التي تصور مشاهد من دون كيشوت، بل أستمتع أكثر من قبل. وقد كان السيد "هوزيه مورينو كاربونيرو" يأتي إلى الصف وهو يرتدي معطف "فراك"، ويضع لؤلؤة سوداء في ربطة عنقه، ويصحح أعمالنا وهو يضع قفازين بيضاوين كي لا يلوث يديه. لم يكن عليه القيام بأكثر من ضربتين أو ثلاث بقطعة فحم ليعيد للوحة معناها بشكل عجائبي، وكانت عيناه صغيرتين حيويتين نافذتين بشكل مثير، مثل لوحة نادرة "لميسونييه". كان الطلاب جميعاً ينتظرون رحيله ليمحوا تصحيحاته ويعيدوا الرسم من جديد بأسلوبهم الخاص، وكان أسلوباً "مزاجياً" طبعاً، أسلوباً يَنمّ عن الكسل والادعاء الذي لا يهدف إلى مجد — إنه ادعاء الناس العاديين غير القادرين على

الارتقاء إلى مستوى المنطق العام، ولا على الوصول على قمم الكبرياء الواهم. يا طلاب كلية الفنون الجميلة! كم كنتم حمقى!

وذات يوم أحضرت إلى المدرسة كتاباً عن "جورج براك". لم يكن أحد قد رأى أية لوحة تكعيبية، ولم يتخيل أيٌ من زملائي في الصف إمكانية أخذ هذا النوع من الرسم على محمل الجد. لكن أستاذ التشريح الذي كان مهتماً جداً بقواعد الأساليب العلمية كان قد سمع عن الكتاب من أحدهم ثم طلبه مني. واعترف أنه لم ير لوحات من هذا النوع قط، لكنه قال إن المرء عليه أن يحترم كل شيء لا يفهمه. وبما أن هذا منشور في كتاب، فهذا يعني أنه مهم من ناحية ما. وفي الصباح التالي كان قد قرأ المقدمة وفهمها جيداً، واقتبس لي منه عدة أنماط من التمثيلات غير الرمزية، والهندسية إلى حد ما في الماضي، وأخبرته أن الفكرة غير دقيقة، لأنه في التكعيبية يكون عنصر التمثيل واضحاً جداً. تحدث الأستاذ مع أستاذة آخرين بدؤوا ينظرون إلي جميعهم على أنني مخلوق استثنائي. وكان هذا النوع من الاهتمام يهدد بإعادة صحوة النزعة الافتضاحية التي عانيت معها في طفولتي، وبما أنهم لم يستطيعوا تعليمي أي شيء شعرت بإغراء أن أوضح لهم ماهية "الشخصية" باللحم والدم. لكن على الرغم من الإغراءات الكبيرة، بقي سلوكي مثالياً يقتدى به: لم أتغيب عن الصف قط، وكنت أتصرف باحترام على الدوام، وأعمل بسرعة أكبر وبجهد أكثر بعشر مرات من أفضل تلميذ في الصف في المواد كلها.

لكن الأساتذة لم يتمكنوا من إجبار أنفسهم على اعتباري "فناناً بالفطرة". وقالوا "إنه في غاية الجدية، إنه ذكي، وينجح في كل ما يحاول فعله. لكنه بارد كالجليد، وعمله يفتقد العاطفة، وكذلك شخصيته، إنه يتصرف وفقاً لعقله أكثر مما يجب. ربما يكون مفكراً،

لكن الفن يجب أن يخرج من القلب!" مهلاً، مهلاً، لطالما اعتقدت في أعماقي أنكم سرعان ما سترون ما هي الشخصية!

ظهرت أول شرارات الشخصية في اليوم الذي أتى فيه الملك ألفونسو الثالث عشر في زيارة رسمية للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة. كانت شعبية ملكنا قد بدأت تنحدر، وأخبار زيارته القادمة قسمت زملائي الطلاب إلى معسكرين. قال كثيرون إنهم لن يأتوا في ذلك اليوم، لكن الهيئة التدريسية، في محاولة منها لإحباط أية عملية تخريب لروعة تلك المناسبة، أعلنت بوقاحة العقوبات الشديدة لمن لا يحضر في ذلك اليوم. وقبل أسبوع من اليوم المحدد، بدأت عملية تنظيف شاملة للأكاديمية التي تحوّلت من حالة متداعية بشكل مخيف إلى حالة تكاد تكون طبيعية. ووُضع نظام تم التخطيط له بعناية لتغيير مظهر الأكاديمية الملكية، وتمت تجربة عدة حيل. وأثناء زيارة الملك لصفوف مختلفة كان على الطلاب أن يركضوا من غرفة إلى الغرفة التالية عبر سلم داخلي ويأخذوا مكانهم قبل وصول الملك، ويديروا ظهورهم للباب، كي يتشكل لديه انطباع أن عدد الطلاب الموجودين أكبر بكثيرٍ من عددهم الحقيقي. كان عدد الطلاب الحضور في ذلك الوقت قليلاً جداً، وبدت الغرفة الكبيرة وكأنها مهجورة. كما استبدلت السلطات العارضات العاريات في الحصص الحية- إنهن فتيات شابات لكنهن في غاية الفقر ولسن جميلات جداً، ويحصلن على أجور ضئيلة للغاية- بفتيات جميلات جداً، كنت واثقاً أنهن مارسن مهناً أكثر حسية بكثير. ونظفوا اللوحات القديمة، وعلقوا الستائر، وزينوا المكان بكثير من الزركشة والنباتات الخضراء.

وعندما أصبح كل شيء جاهزاً للمسرحية الكوميدية التي كانت ستعرض، وصل المرافق الرسمي مع الملك. وشعرت غريزياً - حتى وإن كان هذا لمجرد مناقضة الرأي العام - أن شكل ملكنا جذاب للغاية. أما وجهه الذي كانوا يقولون عنه إنه يبدو منحلاً، فقد بدا لي عكس ذلك

حيث إن فيه توازناً أرستقراطياً أصيلاً، بتلك العدوانية النبيلة الأصيلة، التي طغت على الشخصيات العادية لكل أتباعه. كانت حركاته مثالية وسلسة بشكل دقيق حيث من الممكن أن يعتقد المرء أنه إحدى شخصيات" فيلاسكيز" النبيلة وقد عادت إلى الحياة.

لاحظت أنه انتبه لوجودي فوراً بين زملائي الطلاب. بسبب شعري وسالفيّ ومظهري الفريد، ولم يكن من الصعب تخيّل هذا، لكن كان هناك شيء أكثر حسماً قد ومض عبر روحينا. لقد كنتُ أُعتبر طالباً نموذجياً، وكنت أرافق الملك مع عشرة من زملائي الطلبة الذين تم اختيارهم أيضاً، من غرفة صف إلى أخرى. وكلما دخلت صفاً جديدا وعرفت الطلاب الذين كنا قد تركناهم للتو والذين كانوا يعملون بجد من ظهورهم، كان يجتاحني شعور هائل بالعار لأنني أفكر بأن الملك قد يكتشف الكوميديا التي كان الآخرون يلعبونها على حسابه. ورأيت هؤلاء الطلاب يضحكون وهم لا يزالون يزررون أزرار ستراتهم كلها، التي كانوا قد ارتدوها على عجل، بينما يؤخر مدير المدرسة الملك قليلاً ليلفت نظره إلى صورة قديمة ويكسب بعض الوقت بهذا. شعرت بإغواء شديد كي أصرخ وأفضح الخداع الذي يُمارس عليه عدة مرات، لكنني تمكنت من ضبط أعصابي. لكن استيائي كان يستمر بالازدياد بينما كنا ننتقل من غرفة صف إلى أخرى، ولأنني كنت أعرف نفسي جيداً، كنت أكرر لنفسي: "انتبه يا دالي، انتبه! ثمة أمر استثنائي يوشك أن يحدث!"

عندما انتهت جولة التفتيش، كانوا قد جهزوا لصورة جماعية مع الملك. وطُلب كرسي بذراعين كي يجلس عليه الملك، لكنه جلس على الأرض بدلاً من ذلك، في حركة عفوية لا تقاوم. عند ذلك أخذ عقب سيجارة كان يدخنها، وأمسكها بين إبهامه وإصبعه الوسطى ثم نفضها وجعلها تنطلق بمنحنٍ مثالي وتقع بالضبط في ثقب مبصقة على بعد مترين. وانطلق ضحكٌ ودّي تحية لمبادرته، وهي حركة غريبة ومميزة

لل(تشولوس)- أي عامة سكان مدريد. وكانت طريقة لبقة للإطراء على مشاعر الطلاب، وخاصة الخدم الذين كانوا حاضرين. وكانوا قد شهدوا أحد "مآثرهم" المألوفة لهم يُنفذ بشكل مثالي، وما كانوا سيجرؤون على القيام به في حضور الأساتذة أو السادة الشبان من العائلات النبيلة.

في تلك اللحظة تماماً، كان علي أن أبرهن أن الملك قد ميّزني بشكل خاص من بين جميع الآخرين. وما إن وقعت السيجارة في ثقب المبصقة، ألقى إلي الملك نظرة سريعة، وكان من الواضح أنه يريد معرفة ردّة فعلي. لكن هذه النظرة الثاقبة كانت تحمل المزيد، كان هناك شيء يشبه الخوف من أن يكتشف أحد المجاملة التي قدمها للناس للتو - وهذا الشخص هو أنا تحديداً. وتوردت خجلاً عندما نظر إلي الملك ثانية، لا بدّ أنه لاحظ الأمر بالضرورة.

وبعد التقاط الصورة، ودعنا الملك فرداً فرداً، وكنت آخر من صافح يده، لكنني كنت الوحيد الذي انحنى احتراماً له أثناء ذلك، حتى أنني وضعت إحدى ركبتي على الأرض. وعندما رفعت رأسي شعرت برعشة خفيفة من الانفعال في شفته البوربونية السفلى الشهيرة. ليس هناك أدنى شك أن كلاً منا تعرف على الآخر! لكن رغم ذلك، بعد سنتين، وعندما وقّع الملك ألفونسو الثالث عشر نفسه أمر طردي النهائي من كلية الفنون الجميلة في مدريد، ما كان سيصدق إطلاقاً أنني هو الطالب المطرود. أو ربما، نعم- كان سيصدق ذلك!

لم تنته عواقب زيارته الملكية بالنسبة إلي ذلك اليوم. ولم يجد انفعالي المكبوت وتوتري أي منفذ له، ومع ازدياد شعوري بالإزعاج بعد رحيله، وشعوري بالندم لأنني لم أكشف المهزلة كلها له، كنت أستمرّ بسماع صوت في داخلي يقول لي: "دالي، دالي! عليك أن تفعل شيئاً استثنائياً". وفعلت ذلك. واخترت صف النحت لأفعل ذلك. وهذا ما فعلته. سأخبركم عن الأمر، لأنني متأكد من أن سماعه سيسرّكم.

اخترت صف النحت لأنه كان يحتوي على الكثير من الجص الذي أحتاجه لأفعل ما أريد فعله. وكان هناك عدّة أكياس من أفضل الأنواع التي يستعملها النحاتون. وكان الوقت الذي اخترته للقيام بذلك في الساعة الثانية عشر والنصف، عندما يرحل الجميع. وبهذا لن يزعجني حضور أحد، ويمكنني فعل ما أريد. دخلت صف النحت وأقفلت الباب خلفي. كان هناك حوض كبير تتم فيه تطرية القطع القديمة من الصلصال المجفف عادة. أخرجت القطع الكبيرة، وفتحت الصنبور فوقه إلى الحد الأقصى. بعد عدة دقائق، كان الحوض قد امتلأ تقريباً. ثم أفرغت أحد الأكياس فيه، وانتظرت أن يبدأ السائل الناتج الحليبي البياض بالتدفق منه. كانت فكرتي بسيطة للغاية: أن أسبب طوفاناً هائلاً من الجص. وأنجزت الأمر من دون صعوبة. استخدمت الأكياس الأربعة الموجودة في الغرفة، وكنت أهدف لوضع كيس واحد لكل حوض يُراق على الأرضية. ثم أصبح الصف كله مغموراً بالجص، وبما أنه كان ممدداً بشدة بالماء، احتاج إلى وقت طويل ليجف، وبهذا تدفق من تحت الأبواب. وسرعان ما بدأت أسمع صوت الشلال الذي أنتجه طوفاني، متدفقاً من أعلى السلم حتى بهو المدخل. وبدأت أصوات طوفان كارثي تتردد على بئر السلم بحيث أدركت فجأة حجم الكارثة التي سببتها. وشعرت بالذعر وتركت كل شيء ورحلت، وأنا أخوض عبر الجص وأتعرض لرذاذه بشدة. كان المكان خالياً بشكل غير متوقع، ولم يكن أحد قد اكتشف ما حدث بعد. لقد كان منظر السلّم مذهلاً للغاية، وعلى الرغم من خوفي، أُجبرت أن أتوقف إعجاباً بالمشهد الذي قارنته ذهنياً بشيء ملحمي مثل حريق روما، رغم أنه بمقياس أصغر. وبينما كنت أوشك على مغادرة الملعب الداخلي للمدرسة، صادفت عارضاً يدعى "إيل سيجوفانيو" قادماً من الاتجاه المعاكس. وعندما رأى النهر المتقدم من الجص، رفع ذراعيه إلى السماء.

صرخ بصوته الفلاحي القوي "ما هذا بحق الله؟"

وعندما رأيت هذا مرّت بذهني فكرة فكاهية فذهبت إليه وهمست بأذنه:

"على الأقل، لا يمكن أن يكون هذا كله حليباً!"

ووصلت إلى السكن الطلابي ملوثاً بالجص أكثر من أي عامل بناء. أخذت حماماً، وغيرت كل ملابسي، وتمددت على السرير، وبدأت أضحك بشكل جنوني تحول تدريجياً إلى شعور متنام بالاضطراب. بما أن "سيجوفانيو" رآني وأنا أغادر، سيعرفون بالنهاية أنني المذنب. لكن من اللحظة التي قررت فيها أن أقوم بالطوفان، لم أعد أهتمّ ما إن كانوا سيكشفون أمري أم لا. بل كان هذا هو ما أردته. كنت أفكر بالفعل بالتفسير الذي سأقدمه لتصرفي، وكان نوعاً من الاحتجاج غير المباشر ضد السلوك الخائن الذي ظهر حيال الملك بخداعه. حتى أنني فكرت بالتهديد بتقديم تصريح مكتوب بالأمر، معتقداً أن هذا سيقوي موقفي إلى الحد الذي يجعل إيذائي متعذراً. لكن كل هذه التفسيرات بقيت مبهمة وغير دقيقة، وغير مرضية لذهني الذي أصبح يزداد تعلقاً بالذكاء بشكل عنيف. لكنني لم أستطع حل أي من هذه الأمور في ذهني بطريقة جليّة وسريعة، وهذا ما ترك في داخلي شعوراً عميقاً بضيق بدأ يتحول إلى كابوس حقيقي. وعلى الرغم من محاولاتي المتكررة، لم أستطع التوصل إلى دوافع تصرفي هذا ومعناه، مما ضاعف شعوري بالاضطراب، وعرّض روحي لعذاب أخلاقي مخيف. هل كنت مجنوناً حقاً؟ كنت أعرف أنني لست مجنوناً بالتأكيد. لكن لماذا فعلت هذا؟

كاداكيس: قرية إنوهاندد.

لوحة "مسكن الرغبات" تم رسمها في العام ١٩٢٩، رؤى مسجلة مستوحاة من حصى الشاطئ في كاداكيس.

"الوابط بين جمجمة وآلة بيانو" مستوحاة من حلم في كاداكيس في صيف العام ١٩٣٧

أمسك أنفاسي وأنا أراقب منظر كادكيس هذا من النافذة.

المنظر الطبيعي في كاداكيس والذي أعتبره الأجمل في العالم

مع غالا في كاداكيس

يبدو لي وجه غالا في هذه الصورة في شبابها في هذه الصورة وكأن له حالة الأبدية ذاتها التي تضيء كاداكيس

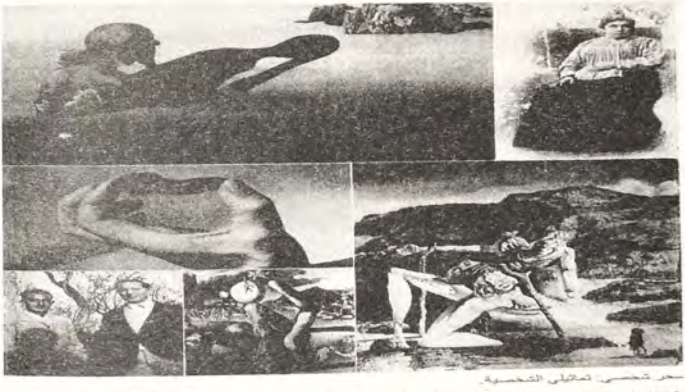

سحر شخصي: تماثيلي الشخصية.

"أبو الهول راسخ في الرمل" مع خف نسائي وكوب من الحليب الساخن تحت جلد ظهرها – التمثال الأكثر فتنة في حياتي.

"ليديا المزروعة جيداً" في كاداكيس.

تعويذتي الأسحم تأثيراً. قطعة من الخشب وجدتها في ظروف استثنائية في (كاب دي كريو) في العام ١٩٣٣

"تحولات النرجس" زهرتي السحرية المفضلة.

ثم حللت اللغز فجأة. وكان الحلّ أمامي على حامل لوحات، محتوى بالكامل ضمن حدود قماشة رسم نظيفة تماماً كنتٌ قد أعددتها للرسم، وقد تسمّرت عيناي عليها منذ بداية هذا الاضطراب الإبداعي بالكامل. وما إن فهمت الأمر حتى نهضت وأخذت قبعتي السوداء الكبيرة، وضعتها بحزم على رأسي، ووقفت أمام مرآة خزانة الملابس. ثم حييت نفسي بحركات رسمية مشبعة بأقصى الكرامة، وحييت ذكائي بأقصى قدر من الاحترام. لكنني وجدت أن الانحناءة لم تكن كافية، لذلك انحنيت بشدة أكبر أمام انعكاسي في المرآة، خافضاً رأسي بتواضع. وأخيراً وضعت إحدى ركبتي على الأرض، مقلداً قدر الإمكان، حركتي التي قمت بها هذا الصباح تحديداً أمام مليكي.

وأدركت أنني كنت ألعوبة في يد حلم، وأن حادثة طوفان الجص هذه لم تكن إلا وهماً. لكن العبقرية المذهلة لم تكن في هذا الاكتشاف بحد ذاته، بل في تفسيره[1] الذي قفز إلى ذهني بطريقة تكاد تكون لحظية! تذكرت حينها كل شيء.

هذا ما حدث.

بعد أن غادر جلالة الملك أكاديمية الفنون الجميلة، ركبت الترام وعدت إلى السكن الطلابي. عندما وصلتُ إلى غرفتي استلقيتُ على السرير، منهكاً بسبب التوتر القلق الذي سببته لي الزيارة الملكية طوال فترة الصباح. وتذكرت جيداً أنني نظرت بمتعة إلى لوحتي الرسم البيضاوتين المجهزتين تماماً والموضوعتين على حامل عند قدم السرير. وبعد ذلك غفوت ودام نومي ساعة تقريباً وفقاً لحساباتي (من الثانية عشر والنصف إلى الواحدة والنصف)، وحلمت أثناءه بكل تقلبات طوفان الجص الذي سبّبته بحدة واقعية نادراً ما يختبرها المرء.

---

[1] كنت في تلك المرحلة قد بدأت أقرأ كتاب "تفسير الأحلام" لسيغموند فرويد. قدم هذا الكتاب نفسه لي كأحد أهم الاكتشافات في حياتي، وأصبحت أسيرَ رذيلة التفسير الذاتي، ليس لأحلامي وحسب، بل لكل ما يحدث لي، مهما بدا عرضياً من النظرة الأولى.

كنت قد دونت عدة أحلام راودتني في حياتي، ويحدث فيها هذا التطور النموذجي نفسه، وهي ترتبط دوما بحدث واقعي. وتبلغ تقلباتها الجدلية ذروتها في المكان نفسه تماماً وبحيث يجد النائم نفسه في لحظة الصحو. هذه الحقيقة التي تضخّم تقلبات الحلم بشدة، تخلق عاملاً مساعداً يزيد في اختلاطه بالواقع، وخاصة عندما لا يقدّم "المحتوى الظاهر" للحلم (كما هي الحالة في الحلم الذي أحاول تحليله) سخافات واضحة، ويبقى دوماً ضمن حدود الممكن. وفي حالتي، كانت هذه الأحلام تأتي دوماً عندما أنام في ساعات غير اعتيادية في النهار. وأظنّ أنه يصحّ كقاعدة عامة، فيما يتعلق بتجربتي، أن وجود ضوء حاد في مكان حدوث النوم يؤدي إلى أحلام ذات حدة بصرية شديدة. وتمكنت في عدة مناسبات أخرى أن ألاحظ أن ضوء الشمس الذي يصيب جفني المغلقين تماماً، قد سبب لي أحلاماً ملونة.

بالعودة إلى تحليل حلم طوفان الجص، ثمة بيانات بدئية لتحديد الدور المتعمد لبعض العناصر الموجودة في المرحلة السابقة للصحو- دور رمزي للأمر الأول. أولاً، لوحتا الرسم المعدتان الموجودتان عند قائمة سريري، واللتان أنظر إليهما برضا ذاتي قبل النوم: لوحتا الرسم هاتان كانتا مشروعي دراسة تم تنفيذهما في الصف الذي نسميه "صف اللوحات" الذي كان يشرف عليه الرسام "كودوفا خوليو رميرو دي توريس". وتم صنع مشروعي الدراسة هذين في ظروف مؤلمة للغاية فشل فيها عملي أخيراً بشكل كامل بعد مواجهة عقبات صعوبة الفهم. كانت قماشتا الرسم تمثلان الموضوع نفسه بالضبط - فتاة صغيرة عارية مغطاة بقماش حريري أبيض جديد ولامع جداً على شكل عباءة وقعت عن كتفيها. وكان الموضوع الرئيسي هو ذلك القماش. لكن كان رسمه يستحيل علي، ليس لأن العارضة كانت تقف بشكل سيئ، وتتحرك باستمرار- مما جعل الظلال والأضواء تتغير باستمرار وحسب- بل أيضاً

كانت الفتاة تستريح كل نصف ساعة، وتحاول بعدها إعادة ترتيب الطيات بشكل يشبه ترتيبها الأصلي، مما جعل الاستمرار في العمل مستحيلاً بالنسبة إلي عملياً. أما بالنسبة للطلاب الآخرين الذين لم يستوحوا من العارضة سوى انطباع عام مبهم جداً، مستجيبين (هذه هي العبارة الدارجة حينها) إلى طيات مزاجهم بدل طيات القماش الحريري الأبيض الذي تظاهروا بلا مبالاة بالنظر إليه، فلم تكن لهذه التغييرات أية أهمية. وبالنسبة إلي، أن الذي كان يحاول بحدقتيه المتسعتين أن يمسك بكل ما يرى أمامه، كانت كل واحدة من تحركات العارضة البسيطة، حتى غير الملحوظة منها، تلتصق بنفاد صبري المتيقظ كسهام من التعذيب. وفشلت المحاولتان اللتان قمت بهما. وأصبت بوهن في عزيمتي، وتركتهما غير منتهيتين، وأعدتهما إلى السكن معي، وأنا أنوي رسم شيء آخر عليهما.

لكن عاملاً جديداً أكثر إزعاجاً قد ظهر، مثقلاً على اللوحتين السيئتي المصير بمزيج من الرعب والاستياء، بحيث لم أعد أطيق النظر إليهما. كنت قد أُجبرت منذ البداية على وضعهما في خزانة الملابس وإقفالها عليهما، وليس أن أكتفي بأن أديرهما لتواجها الجدار. واستمرّ حضورهما غير المرئي بإزعاجي. أما عامل الإزعاج الثاني فكان: الفتاة الصغيرة التي عملت عارضة، والتي كانت تمتلك وجهاً مثالياً وجسداً وردياً مبهجاً، مثل دمية خزفية جميلة. وبينما كنت أرسمها، استحضرت لي صورة لنفسي عندما كنت طفلاً حيث كنت أقف عارياً أمام مرآة، وأنا أرتدي عباءة فرو القاقم الملكية على كتفيّ. وكما ذكرت سابقاً في بداية ذكريات طفولتي، كنت أخفي أحياناً أعضائي الجنسية بوضعها بين فخذي كي أبدو شبيهاً بفتاة قدر المستطاع. وطوال عملية العمل المضنية على قماشتي الرسم غير المنتهيتين هاتين، وبوحي من العارضة التي كانت تشبهني بشكل مقلق في المرحلة التي كنت فيها الطفل- الملك، كنت أمضي طوال

وقتي وأنا أقيّم ذهنياً الجمال النسبي لهذين الملكين، ملك ذكريات الطفولة، والآخر الواقعي، اللذان وقفا أمامي على منصّة، وكل منهما يكافح بمرارة في منافسة مفعمة بالغيرة. وفي هذه المنافسة، شعرت أن الغياب الحقيقي للأعضاء الجنسية لدالي المثالي (الذي رأيته يعود إلى الحياة أمام عيني) يشكّل أحد أكثر سماته تميزا، لأنني رغبت منذ ذلك الحين بأن أصبح "مثل امرأة جميلة"، وهذا على الرغم من حقيقة أنه منذ أول قصة حب فاشلة لي مع "باخوس"، لا أزال أشعر بلامبالاة جنسية تجاه الرجال. (لا! يجب ألا يحدث سوء فهم في هذه النقطة- أنا لست مثلياً). لكن حيث وصلت المنافسة بين الملكين إلى ذروتها، كان هذا انتقاماً جمالياً يحق لي به، وكان في القماش الحريري الأبيض المأخوذ من المخزن، والذي قارنته بفرو القاقم الذي كان على تلك العارضة الصغيرة أن ترتديه. ولو كان ذلك الجسد الصغير العاري الخالي من الشعر ملفوفاً بفرو القاقم، لبدا لي كأحد أكثر الأشياء روعة وجاذبية مما يمكن للمرء أن "يشاهده". اقترحت الأمر على البروفسور الذي هزّ بكتفيه بلامبالاة وأعلن أن الفرو ليس تصويرياً!

وعندئذٍ بدأت ببناء أخيولة أن أوظّف العارضة الصغيرة بنفسي وأن أذهب للبحث عن عباءة فرو قاقم في المتاجر التي تبيع أزياءٍ مسرحية. لا، عباءتا فرو قاقم! ثم بدأت حلم يقظة منهكاً ومثابراً، وبدا لي أن لا شيء يمكن أن يوقفه أو يحرفه عن مساره. لقد كانت عباءتا فرو قاقم، واحدة لها والأخرى لي! وفي البداية، كنت سأجعلها تقف بوضعية عادية. لكنني كنت بحاجة إلى مرسم من أجل هذا، لأنني لا أستطيع إحضارها إلى السكن الطلابي- ما كنت سأجرؤ على هذا- إضافة إلى ذلك، لم يكن جو غرفتي مناسباً لمزاج حلمي الأولي. لذلك اضطررت إلى تخيّل كيف "سيكون" المرسم الذي ستجري فيه كل هذه الأمور. وكنت قد بدأت أراه بالفعل. كان كبيراً جداً، بدا شبيهاً بعض الشيء ....

لكنني شعرت فجأة أنني لا أستطيع المضي أبعد من ذلك، ولا أستطيع الاستمرار بالتخيل لأنه سيكون من الضروري طبعاً أن أجد المال للقيام بهذه العمل. كيف سأفسّر لوالدي نفقات استئجار مرسم كبيرة وعارضة، وعباءتي فرو قاقم؟ ثم انتظرت أن يتحقق حلمي بدون أن أفعل شيئاً، وشعرت أنني لا أستطيع التقدم خطوة واحدة دون أن أحلّ هذه المشكلة المالية الصعبة التي كانت قد قاطعت كل شيء. وبالإضافة إلى ما سبق، كنت متشوقاً بشدة إلى المشاهد الإيروتيكية التي جعلتني أحلام يقظتي ألقي نظرة خاطفة عليها، وجعلتها تومض أمامي كشرارات برق مكونة من صور مفعمة بالحياة، وكل واحدة منها جذّابة أكثر من الأخرى، مثل العروض المسبقة للأفلام التي تنفذ بشكل محسوب من سلسلة من اللقطات الوجيزة غير المترابطة المختارة من الكل، لتعطيك رغبة لا تقاوم كي تنغمس في التأمل الكامل لشيء يجعل لعابك يسيل في حالة من الترقب.

كما أن المنهج هو كل شيء في الحياة، كذلك هو في حلم اليقظة، وقلت لنفسي" "ابدأ من البداية يا سيلفادور. إن سرت خطوة تلو الأخرى من دون تسرع، سيأتي كل شيء في أوانه. وإن قمت بغير ذلك، إن تسرّعت وبدأت تلتقط الصور التي تبدو أنها الأكثر فتنة في البداية وتقشرها بنهم، من دون أن يكون لديك أساس صلب، ولا تقاليد، فلن تكون إلا نسخاً، وستكون كالعبيد مكرهاً على اللجوء إلى مواقف أخرى في ذاكرتك التي استنزفتها سلفاً. ستكون عبارة عن سرقة أدبية مثيرة للشفقة[1]، وليست "اختراعاً" أو "حداثة"– وهي ما تريد

[1]ذكر إيوجينيو دأورس مرة ملاحظة عميقة تفيد بأن "كل ما ليس من التقاليد فهو سرقة أدبية" ويكرر سيلفادور دالي قائلاً كل ما ليس من التقاليد فهو سرقة أدبية. الحالة الأمثل التي يمكن أن يقدمها المرء لتلميذ شاب في صف تاريخ الفن هي حالة بيروجينو ورافاييل. عندما كان رافاييل لا يزال تلميذاً يافعاً جداً، وجد نفسه يدمج ويمتلك تقليد معلمه بيروجينو بالكامل من دون قصد: الرسم وتوزيع الضوء، المادة، والأسطورة، والموضوع، والتأليف، والهندسة- كل هذا كان "معطى" له. لذلك كان

الوصول إليه في النهاية. لكن ما سيحدث لك سيكون أسوأ من هذا بكثير: إن قطع صورك الصغيرة، على الرغم من أنها تومض، لن تتمكن من مقاومة تلك الحاجة المستمرة "للتأكيد الهوسي؟"، وعندما تطلبها، لن تكون قادرة على أن تريك جواز السفر ذاك الذي منحته لنفسك بنفسك، أنت الرئيس الأعلى لشرطة روحك، وتفقدت كل تلك الرحلات الصغيرة — بما أنك لا تملك الملفّ الكامل لحياتها العامة والسرّية، فلن تتمكن من منحك جواز السفر ذاك. ولن تعود قادراً على منحها ثقتك، وإما أن تحظرها وتعتبرها متطفلة وعميلة للفوضى، وتقبض أجرها من عملاء الدعاية في العالم الخارجي، الذين يأتون ويقلقون سلام المناخ المتخيل الذي تعيش فيه وازدهاره، أو أنك سترميها ببساطة في سجن وعيك الباطن. لذلك، إن أردت أن تتبع مسار حلمك حتى النهاية، عليك العودة قليلاً إلى الوراء، وقبل أن تتصور الترتيب العصابي لمرسمك، حيث سترى عارضتك الصغيرة بجسدها الخالي من الشعر تدخل كل مساء، وتتعرى وتلف نفسها بحياء خبيث بعباءة فرو القاقم- قبل كل هذا، عليك العثور على المال الذي تحتاج إليه لتجعل مغامرة مرسمك ممكنة، ولتصبح قادراً على تصديقها!"

هو السيد والمعلم. كان حراً. كان بوسعه العمل ضمن هذه الحدود الضيقة بحيث أنه استطاع العمل به بكامل طاقته الذهنية. إن قرر محو بضعة أعمدة أو إضافة بضع درجات للسلم، إن اعتقد أن رأس المادونا (السيدة مريم) يجب أن ينحني إلى الأمام أكثر قليلاً، أن ظلي محجري عينيها يجب أن يكون لهما مسحة أكثر حزناً، كان بوسعه القيام بذلك بفخامة وحدة وحرية في الاختراع. كان العكس تماماً عن بيكاسو، كان عظيماً مثل رافاييل، لكنه كان ملعوناً. ملعوناً ومحكوماً عليه بالسرقة الأدبية الأزلية، لأنه حارب التقاليد وحطمها وسحقها، كان يعمل ويحمل برق وغضب العبد. كان مقيداً مثل عبد بسلاسل اختراعاته الخاصة بيديه وقدميه. بعد أن أعاد اختراع كل شيء، أصبح محكوماً باستبداد من قبل كل شيء. في كل عمل من أعماله، يكافح بيكاسو مثل محكوم، إن الرسم واللون والمنظور والتأليف تستبد به وترجعه إلى مرتبة العبد. بدل أن يتكئ على الماضي القريب، وهو مصدرها، وعلى "دم الواقع" الذي هو التقاليد، عليه أن يتكئ على "ذاكرة" كل ما رآه- سرقة أدبية للأواني الإيتروسكية، سرقة أدبية لتولوز-لاتريك، سرقة أدبية لأفريقيا، سرقة أدبية لإنغريس. "فقر الثورة". لا شيء أكثر صحة: "كلما حاول المرء أن يدخل الثورة على الأمر أكثر، كرر الأمر نفسه أكثر".

كي أجهز كل هذا، كان علي العثور على رسام ودود لديه مرسم كهذا. ويجب أن يكون معجباً بي بشكل مفرط، ويوشك أن يرحل إلى كاتالونيا... لا، باريس أفضل- يجب أن يرحل إلى باريس. وسيقول لي: "تعال إلى المرسم متى شئت، إليك المفتاح، وليس من الضروري أن يعرف أحد بما يحدث هنا". لم أكن أعرف أحداً في مدريد، ولم يعد مسار حلمي مُرضياً، عندما تذكرت فجأة صورة لرسام شهير في برشلونة. وانقطع حلمي بفظاظة في هذه اللحظة مع وصول البروفسور. ثم نهضت. وقال لي ببساطة: "لا تزعج نفسك، سآتي لاحقاً". لكنه كان قد أزعجني بالفعل، وكيف! شعرت أنني كنت غارقاً في التفكير بشيء مرغوب للغاية، وهو الشيء الوحيد الذي أريد أن أكون قادراً على التفكير فيه من جديد. لكنني حاولت عبثاً!

ليس ثمة ألم ومرارة أكبر من أن تنتقل بجنون من فكرة إلى أخرى من دون أن تتمكن من العثور على ذلك الموقع الأكثر سحراً "حيث كنت مرتاحاً للغاية" قبل أن تتم مقاطعتك. كل شيء عديم الطعم، كل شيء حولك عديم القيمة. لكنك تجده من جديد فجأة! ثم تشعر أن قطار الأفكار المكتشف من جديد، وعلى الرغم من أنه مرغوب كفاية، ليس بالروعة التي اعتقدت أنه عليها قبل أن تجد ذلك "الشيء" المرغوب بشدة.

وعلى الرغم من ذلك فقد وجدته ثانية، وأستطيع متابعة حلمي. لنفعل هذا، سيدوم لأربع أو خمس ساعات. وربما أستطيع متابعته في اليوم التالي، وأتقنه في الوقت نفسه. رباه، يا لك من عامل استثنائي يا سيلفادور دالي! لكنني تغلبت على إغواءاتي، وسأتوقف هنا تماماً عن وصف حلمي، لأنه، وعلى الرغم من أنه أحد أغرب الأشياء التي أنتجها ذهني، سيجعلنا نضيّع سلسلة تفسير حلم "طوفان الجص" الذي كنا نناقشه قبل أن نشتت أفكارنا بهذه الاعتبارات العامة على مجرى نهر "الحلم"، المفيد على الدوام.

ليحاول القارئ أن يتذكر (بالعودة إلى الوراء قليلاً)، أنه كان لدي أكثر من سبب كاف كي أكره اللوحتين المجهضتين للفتاة الصغيرة. وكنت أنوي أن أرسم على هاتين القماشتين اللتين خبأتهما مؤقتاً، كما ذكرت سابقاً. وما إن أصبح هذا ممكناً، حتى قررت ذات صباح أن أحضّر القماشتين معاً، وضعت إحداها إلى جانب الأخرى على الأرض، كي أتمكن من الرسم عليهما معاً، وغطيتهما بطبقة من اللون الأبيض الممدد بالغراء. هذا الطلاء يجف بسرعة، لكنني كنت غير راض إطلاقاً عن النتيجة، لأن اللوحتين الفاشلتين المريعتين للفتاة الصغيرة العارضة يمكن أن تُشاهدا بوضوح تام من خلال اللون الشفاف. ثم قررت اللجوء إلى إجراءات يائسة، وجهزت قدراً كبيراً من الطلاء الأبيض وسكبته على القماشتين. تدفق الطلاء عن الحواف وانتشر على الأرض، لكن، كالعادة في مثل هذه الظروف، لم أصب بوهن في عزيمتي ولم أتوقف بسبب ما حدث، وقررت أن الضرر قد تم بالفعل، وأن زيادته أو نقصانه قليلاً لن يترك أي فرق. سأنظف كل شيء لاحقاً. لكنني كنت أريد حينها أن أستغلّ "الطوفان" لأسكب قدراً آخر من الطلاء فوق القماشتين، وأجعله أكثر كثافة هذه المرة. سوف يغطي الطلاء الطبقتين الموجودتين سلفاً، وسيشكّل طبقة جديدة لن تجعل الصورتين الكريهتين تختفيان بالكامل وحسب، بل ستجعل القماشتين تكسبان سطحين سميكين وصقيلين، كما لو أنهما "مغطاتان بالجص". ثم سكبت العبوة الأخرى من الطلاء دون أن أقلق من تسرّبه على الحواف لأنه كان ينتشر الآن على أرضية الغرفة مثل فيضان. نثرت الشمس أشعتها عبر النوافذ، وكان البياض الباهر يذكرني بشكل مدرك ببلدة فيغوراس المغطاة بالثلج، في تلك الحقبة من ذكرياتي المزيفة.

بعد أن أكملت قصة لوحتي الرسم، لنبدأ الآن بتحليل حلم فيضان الجص، وكما سنرى، فهو حلم يفضح برموزه الواضحة للغاية رغباتي

الاستبدادية "بالملكية المطلقة" التي كنت قد ذكرتها مسبقاً، والتي كانت عبارة عن استمرار للرغبة التي راودتني طوال طفولتي المبكرة. ما الذي تمثله هاتان اللوحتان بالنسبة إلي؟ أولاً، الصورة المضاعفة والغيورة لنفسي كملك وكفتاة صغيرة. ويتوضح هذا مادياً بحقيقة أن اللوحتين اللتين تمثلان الموضوع نفسه، كنت أعتبرهما ملكين. وقد اندلع هذا النزاع بين الملكين بمناسبة زيارة جلالته إلى أكاديمية الفنون الجميلة. في الواقع، لاحظت فوراً أنه ميزني من بين جميع الآخرين. هذا التمييز كان يعني في اللاوعي: لقد أدرك أنني ملك. ومن الطبيعي جداً أن التأثير الذي نتج عن مخيلتي بسبب اللقاء الحقيقي مع جلالة الملك ألفونسو الثالث عشر، سيوقظ في ذهني المشاعر الملكية العنيفة التي عايشتها طوال مرحلة طفولتي. وقد أعاد حضور الملك إحياء الملك الذي أحمله في داخلي، وفي ذهني. وطوال فترة الزيارة إلى الكلية، كان لدي انطباع، لم يبارحني ولا للحظة، أننا نحن الاثنين كنا معزولين بشكل دائم وفريد عن الآخرين.

لكن هذه الثنائية اختفت أخيراً، لأنني عندما جثوت أمامه، شعرتُ أنني شخص مقبول لكنني عديم الشخصية تماماً: كنت متحداً تماماً معه! كنت أنا هو، وبما أنه الملك الحقيقي، فإن استبداديتي كانت موجهة ضد الملك المزيف. وكان الملك المزيف هو الملك الذي رسمت فوقه على لوحي الرسم. هناك كانت العداوة فاضحة بسبب الرغبة بحيازة الأعضاء الجنسية التي كانت تعاكس أعضائي. وعندما أرقت الجص وطوّفت صف النحت، أدركت الرمز نفسه الذي أدركته عندما سكبت الطلاء على لوحي الرسم. "محوت الملك المزيف الخصم". هذا الجص، وهذا الطلاء، الأبيض الطاهر، كانا عباءة فرو القاقم الخاص بالسلطة الملكية المطلقة التي توحد كل شيء، وتغطي عليه وتخفيه وتسيطر عليه "بجلال". لقد كانت هي عباءة فرو القاقم نفسها التي غطّت في ذاكرتي الواقع العدواني لبلدة فيغوراس بكفن من الثلج. وكانت العباءة المطهرة

نفسها التي غطّت اللوحتين المرسومتين في الأكاديمية، عندما غطت أكاديمية الفنون الجميلة وأخفتها، ومثلت بالنسبة إلي مجموع التجارب الأكثر إيلاماً التي عانيتها في هذا المكان المنحطّ روحياً. وبهذا لم يكن طوفان الجص إلا عباءة فرو القاقم لسلطتي الملكية المطلقة التي تنتشر بجلال من فوق، من قمة برج صف النحت، على كل شيء كان "تحته".

أنت ملك أسيء فهمه! دالي، نسبة لسنيك الاثنين والعشرين، فقد كنت تستوعب قراءاتك بشكل مذهل! أهنئك! والآن تابع وقل أشياء وأشياء عن نفسك، إنها تذهلنا أكثر وأكثر! افعل هذا! ها نحن نصغي إليك. مهلاً، مهلاً، دعني أشرب كأساً من الماء!...

انقضت أربعة أشهر على وصولي إلى مدريد، وتابعت حياتي بشكل منهجي ودون شراب وبمواظبة على الدروس كما فعلت منذ اليوم الأول. أنا لا أروي الحقيقة كاملة عندما أقول هذا- لأن امتناعي عن المشروبات الروحية، وقدرتي على الدراسة، والتصلب البسيط الذي أخضعت له روحي، نما أسبوعاً تلو الآخر، وشعرت أنني أصل إلى حدود انضباطي اليومي المؤلف من الاهتمام الطقسي بكل لحظة، والذي يؤدي بطريق مختصرة إلى حدود الزهد. ولا بدّ أنني كنت سأحب العيش في السجن! وكنت واثقاً من أنني لو عشت في السجن لما ندمت على أية ذرة من حريتي. إن كل شيء في لوحاتي كان يتخذ نكهة رهبانية تزداد يوماً بعد يوم، وعلى السطح الشبيه بالجص للوحتي الرسم اللتين كنت قد جهزتهما، دون سعادة، بطبقة سميكة من الطلاء المزوج بالغراء، رسمت هذه الأشياء.

أقول "دون سعادة"، لأن هاتين اللوحتين التكعيبتين اللتين نفذتهما خلال الأشهر الأربعة الأولى من إقامتي في مدريد، كانتا عملين أساسيين، مذهلين مثل لوحة (أوتو دا في)[1]- وهذا ما كانتا عليه. إن

[1] فعل الإيمان- هو الاسم المعطى لمراسم حرق المهرطقين المزعومين من قبل محاكم التفتيش الاسبانية- ملاحظة المترجم من الاسبانية.

طبقة التحضير السميكة قد شققتهما، وبدأتا تتداعيان إلى قطع، وبهذا تخربت هاتان اللوحتان بالكامل.

لكن قبل أن يحدث ذلك، تم اكتشافهما ذات يوم واكتشافي معهما. كان السكن الطلابي الذي أسكنه مقسماً إلى مجموعات ومجموعات فرعية. كانت إحدى هذه المجموعات هي مجموعة حرس الطليعة الفنية الأدبية، مجموعة اللاتوافقيين، الصاخبين والثوريين، الذين نبعت منهم الأجواء الخانقة الكارثية لحقبة ما بعد الحرب. وكانت هذه المجموعة قد ورثت مؤخراً تقليداً رفضياً وتناقضياً ضيقاً يشتق أفكاره من مجموعة من الأدباء والرسامين "الفائقين"– أحد هذه المذاهب الفطرية التي ولدت من الدوافع المشوشة التي أوجدتها حركات حرس الطليعة الأوروبية، ولها علاقة بشكل ما بالدادئية. وقد تألفت هذه المجموعة من "بيبن بيلو، ولويس بانيل، وغارسيا لوركا، وبيدرو غارفياس، وإيوجينيو مونتيس، وأر باراديس" وآخرين. لكن من بين كل الشبان الذين التقيت بهم في هذه الحقبة، لم يقدّر إلا لاثنين منهم الوصول إلى القمم المدوخة لسلالم الروح– "غارسيا لوركا"، في المادة البيولوجية العارمة والمذهلة للبلاغة الشعرية لحقبة ما بعد الغونغورية، و"إيوجينيو مونتيس" في سلالم الروح والأناشيد الحجرية للذكاء. كان الأول من غرانادا، وكان الثاني من سانتياغو دي كومبوستيلا.

ذات يوم، عندما كنت في الخارج، كانت خادمة الغرف قد تركت باب غرفتي مفتوحاً، وصادف أن "بيبين بيلو" كان ماراً من هناك، ورأى لوحتيّ التكعيبتين. كان متشوقاً ليبوح باكتشافه لأفراد المجموعة. وكان هؤلاء يعرفونني بالشكل، حتى أنني كنت مادة لسخريتهم اللاذعة. وكانوا يسمونني "الموسيقي"، أو "الفنان" أو "القطعب" حيث جعلتهم طريقة لباسي المناهضة للطريقة الأوروبية، يحكمون علي بشكل سيئ، وعلى أنني شخص عادي، مع بقايا رومانسية فظة بشكل أو بآخر. أما

هيئتي التي توحي بشخص جاد ومواظب يفتقد حس الفكاهة بالكامل، فقد جعلتني أبدو أمام أعينهم الساخرة كائناً بائساً موصوماً بالعجز الذهني، وفي أفضل الحالات شخص جدير بالرسم. لا يمكن أن يكون هناك تباين أكثر من ذلك التباين الموجود بين بذلاتهم المفصّلة بالطريقة الإنكليزية وسترات الغولف، وبين ستراتي المخملية وربطات عنقي الفراشية، ولا يمكن أن يكون هناك تناقض أكثر من ذلك التناقض الموجود بين شعرهم المشذّب بأناقة، والذي يصففه حلاقو الشعر في فندق الريتز أو البلاس، وبين شعري الطويل المتشابك الذي ينسدل على كتفي. وفي الوقت الذي تعرفت فيه على المجموعة، كانوا مهووسين بمزيج من مذهب الداندية (الأناقة المفرطة) ومذهب السخرية، الذي عرضوه بدنيوية تامة. وقد سبب لي هذا الأمر الكثير من الرهبة في البداية، حيث إنهم كلما أتوا إلى غرفتي كنت أظن أنني سأصاب بالإغماء.

كانوا يأتون جميعهم في مجموعة ليشاهدوا لوحاتي، ومع الغرور الذي كان يتملك قلوبهم، كانوا يضخّمون إعجابهم بشدة، ولم تكن لمفاجأتهم حدود. لم يكن يخطر ببالهم أبداً أن أكون رساماً تكعيبياً! وقد اعترفوا بصراحة برأيهم السابق بي، وعرضوا علي صداقتهم غير المشروطة. وكنت أقل كرماً بكثير منهم حيث حافظت على مسافة من الريبة بيني وبينهم. وكنت أتساءل دوماً كيف أستفيد منهم، وما إن كان لديهم فعلاً أي شيء يقدمونه لي.

كانوا يتجرعون أفكاري بنهم، وخلال أسبوع واحد، بدأت سيطرة أفكاري تصبح ملموسة. وأينما جلس أحدهم، كان يرصّع حديثه بعبارات من نوع : "قال دالي..." "أجاب دالي..." "يظن دالي..." "هل أعجب هذا دالي؟" "يبدو مثل دالي" "يبدو هذا دالينياً..." "يجب أن يرى دالي هذا..." "يجب أن يفعل دالي ذاك..." ودالي هذا ودالي ذاك، ودالي كل شيء!

وعلـى الـرغم مـن أنـني أدركـت علـى الفـور أن أصـدقائي الجـدد سيأخذون كل شيء مـني، دون أن آخـذ أي شـيء بالمقابـل- لأنهـم في واقـع الأمـر لم يكـن لـديهم أي شـيء لا أملـك منـه ضـعفين أو ثلاثـة أضعاف، أو مئة ضعف- فقد تركت شخصية "فيديريكو غارسيا لوركـا" انطباعاً هـائلاً لـدي. وقـدّمتْ هـذه الظـاهرة الشـعرية بشـكلها الكامـل و"بطريقة خام" نفسها أمامي فجأة علـى شـكل إنسـان مـن لحـم ودم، مشوشة حمراء كالدم، دبقة ومتسامية، تـرتعش بـألف نـار مـن الظلمـة والبيولوجيا السرّية، مثل كل مادة تتمتع بأصالة في شـكلها الخـاص[1]. وترك هذا تأثيره عليّ، فتبنيت على الفـور موقفـاً متصـلّباً ضـد "الكـون الشعري". وكنت أرفض قول أي شيء لا يمكن تعريفه، أو أي شـيء لا يمكن تأسيس "خطوط محيطية أو قـانون منـه"، أو أي شـيء لا يمكـن للمرء "أكله" (كان هـذا هـو تعـبيري المفضـل حينهـا). وعنـدما شـعرتُ بحريق شعر العظيم "لوركا" وناره تشبّ بلهيب جامح أشعث، حاولـت إخمادها بغصن زيتون السـلام الممـدود مـن مـوقفي المنـاهض للفاوسـتية القديم، بينما كنت أعدّ مشواة نثريتي المتسامية، وعندما يحـين الوقـت المناسب، عندما لا يبقى من نار لوركا إلا الجمر المتوهج، سآتي وأشوي عليها فطر فكري وقطع لحمه وسردينه (التي كنت أعرف أنه مقدّر لها أن تقـدم ذات يـوم- مشـوية جيـداً وشـهية وسـاخنة- علـى الشرشـف النظيف لطاولة الكتاب الذي بين أيديكم) التي ستشبعُ الجوع الروحـي والتخيلي الأخلاقي والفكري لعصرنا لمئات السنين.

كانت مجموعتنا تصطبغ بازدياد بلون مناهض للفكر، ولهذا بدأنا نتردد على المفكرين من جميع الأنواع، ونبحث عن مقاهي مدريـد الـتي كـان مستقبل إسبانيا الفني والأدبي والسياسي كله يُطهى فيها برائحة قويـة

[1] يقدم الشكل نفسه نتيجة للتعديلات المادية الابتدائية. من بينها تفاعلات المادة (علم التشكل المورفولوجي العام).

لزيت يحترق. وقد ساهمت كؤوس شراب الفيرمونت مع الزيتون بشكل كبير في بلورة تشوش "ما بعد الحرب"، وذلك بإدخال جرعة من العاطفية التي تم تقديمها بشكل رديء، والتي كانت العنصر الأكثر ملاءمة للتحولات المراوغة لمفهوم البطولة والنية السيئة والأناقة الرديئة، والهضم السيئ، وامتزجت كلها بمذهب مكافحة الوطنية. ونمت من كل هذا الخليط الكراهية المتجذرة في العقلية البرجوازية، وتعاظمت وتعاظمت وفتحت فروعاً أخرى بشكل يومي مدعومة بمصداقية غير محدودة، إلى أن حان يوم الانهيار الشهير للحرب الأهلية التي كانت لا تزال بعيدة حينها.

قلت منذ قليل إن المجموعة التي تقبلتني بكرم فائق كانت غير قادرة على تعليمي أي شيء، وحتى عندما قلت هذا، كنت أعرف أنه لم يكن صحيحاً تماماً، بما أن المجموعة علّمتني أمراً واحداً، وبسبب هذا الأمر تحديداً بقيت في المجموعة، وكنت أريد الاستمرار بالبقاء فيها. لقد علموني كيف أنغمس في الملذّات. فقد أمضيت ثلاثة أيام في القيام بذلك: يومان من أجل الحلاق، ويوم من أجل الخياط، والمساء من أجل المال، وربع ساعة لأثمل، وحتى السادسة من صباح اليوم التالي كي أنغمس في هذه "الملذات". يجب أن أروي الأمر بالتفصيل.

ذات مساء كنا نتناول الشاي جميعاً في واحد من الأماكن الرائجة في مدريد، الذي كان يسمى "كريستال بالاس- القصر البلوري". ما إن دخلت حتى اتضح لي كل شيء. كان عليّ أن أغير مظهري بشكل جذري. إن أصدقائي، الذي كانوا يفخرون بشخصي أكثر مني (لأن غروري الهائل كان يحصنني دوماً من التأثر بأي شيء)، كانوا متحمسين للدفاع عن مظهري المشاكس، وحتى لإجبار الناس على قبوله بشجاعة وعزم شديدين. وكانوا مستعدين للتضحية بكل شيء من أجل هذا، لأن لاتوافقيتهم المتّقدة كانت تنزع لجعل مظهري المثير للضحك سفينة قيادة

حربهم الحقيقية هذه. وبملامحهم التي توحي بأنهم أُهينوا، بدوا وكأنهم يريدون أن يجيبوا على النظرات العابرة السرّية والملحّة التي يرمقنا بها الحشد الأنيق المحيط بنا بقولهم "حسناً! من المؤكد أن صديقنا يبدو أشبه بجرذ مجارير، لكنه الشخصية الأهم التي ستلتقون بها يوماً، وإن صدر منكم أي تصرف ينم عن قلة أدب فسنضربكم". أما "بانيل" على وجه الخصوص، والذي كان الأكثر ضخامة وجرأة بيننا، كان يستطلع الغرفة ليستكشف أي سبب بسيط ليبدأ شجاراً. ومن أجل هذا الأمر، كان يقتنص أية ذريعة تعد بشجار خارج عن السيطرة. لكن لم يحدث أي شيء. وعندما خرجنا إلى الخارج قلت للحراس الشخصيين لغرابتي "لقد تعاملتم معي بنزاهة شديدة. لكنني لا أريد الاستمرار بهذا. غداً، سأرتدي ملابس مشابهة لملابس الجميع!"

لقد أبهر هذا القرار الذي اتخذته في حمى اللحظة، الموجودين جميعهم بعمق لأنهم أصبحوا "محافظين" جداً بشأن مظهري. كما تمت مناقشة قراري بشكل مطوّل، وبالحماسة نفسها التي لا بدّ أنها استحوذت على تلاميذ سقراط عندما أعلن برزانة أنه سيشرب الشوكران السام. وقد حاولوا إقناعي بالتراجع عن قراري- كما لو أن شخصيتي كانت متعلقة بملابسي وشعري وسالفيّ، وهي تتعرض لخطر التدمير والاختفاء مع الرموز المذهلة لشعري ولباسي. لكن قراري كان نهائياً. وكان السبب الرئيس والسرّي لذلك هو أنني كنت عازماً على القيام بشيء بدا لي ذا أهمية كبيرة. وأردت أن أصبح جذاباً أمام النساء الأنيقات. وما هي المرأة الأنيقة؟ عرفت هذا للتو، في قاعة الشاي، بملاحظة إحداهن تجلس إلى الطاولة المقابلة. الامرأة الأنيقة هي امرأة تزدريك، وليس لديها شعر تحت ذراعيها. لقد اكتشفت لديها للمرة الأولى مظهر الإبط منزوع الشعر، ولونه، مخضب بلون مزرق برقة فائقة، وبدا لي شيئاً في غاية الفخامة والانحراف. وعزمت أمري على

دراسة "كل هذه المسائل"، وعلى القيام بهذا بشكل شامل، كما كنت أفعل كل شيء!

في الصباح التالي، بدأت من البداية- من رأسي. لكنني لم أجرؤ على الذهاب إلى صالون الحلاقة في فندق الريتز مباشرة، كما نصحني أصدقائي. بحثت عن حلاق عادي اعتقدت أنني سأجعله يقص شعري بشكل "تقريبي"، ثم أقص بقية شعري بشكل ملائم في الريتز ذلك المساء. لكن كلما وصلت إلى باب صالون حلاقة، كان الخجل يعتريني فجأة وأقرر الذهاب إلى مكان آخر. والوقت الذي استغرقه "قص شعري" كان مرحلة صعبة جداً بالنسبة إلي.

في نهاية ذلك العصر، عزمت أمري أخيراً بعد الكثير من التردد. لكن ما إن رأيت أن المنشفة البيضاء التي طوقني بها الحلاق أصبحت مغطاة بخصلات شعري السوداء الأبنوسية، حتى شعرت للحظة بعقدة شمشون. ماذا لو كانت قصة شمشون حقيقية؟ ثم نظرت إلى نفسي في المرآة التي أمامي واعتقدت أنني رأيت ملكاً على عرشه. لكن هذا سبب لي اضطراباً عظيماً. ليس هناك من شيء يشبه المحاكاة الساخرة الزخرفية لعباءة فرو القاقم الملكية أكثر من المنشفة البيضاء الكبيرة المهيبة المرصعة بالأذيال السوداء لشعرنا الذي يُقص عن رؤوسنا. إنه أمر غريب، لكنه صحيح. لقد كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة في حياتي التي أفقد فيها الثقة بنفسي لعدة دقائق. ظهرت أمامي صورة الملك- الطفل فجأة كحالة مؤلمة من العجز المنطقي، وهي نتيجة اختلال كارثي في التوازن بين تركيبتي المريضة الضعيفة المتخلفة، وذكائي المبكر لأوانه والعقيم وغير القادر على العمل في مجال التصرّف الفعلي، وليس لديه ما يتطلع إليه سوى انحطاط هذا المسخ الناقص بشدة، والهرم روحياً، الذي كنت عليه.

كنت أفكر بهذا كله بينما كان الشعر يتساقط نتفاً على ركبتيّ وعلى الأرض المفروشة بالآجر- التي أذكر جيداً أنها كانت من الخزف الأصفر

والأبيض والأزرق الذي يمثل سمكة تنين تعض ذيلها. هل كنت أبله مثل الآخرين جميعاً؟ دفعت الأجر والإكرامية، ثم ذهبت إلى الريتز حيث سيضع الحلاق اللمسات الأخيرة على العمل.

ما إن أصبحت في الشارع، وأُغلق باب الحلاق خلفي، حتى شعرت أنني أصبحت رجلاً مختلفاً، وزالت كل وساوسي ومخاوفي في لحظة واحدة مثل فقاعة صابون. وعرفت أن إطباق الباب قد فصلني إلى الأبد عن السواد المستنقعي لشعري الذي لا بدّ أن أحداً يكنسه ويرميه الآن. لم أعد أندم على أي شيء، أي شيء، وبفم "الميدوسا" المجازي المتعطش أبداً لفكري المناهض للعاطفية وللفاوستية، بصقت آخر شعرة غير جذابة لمراهقتي على رصيف الزمن. عندما وصلت إلى الريتز، وبدلاً من الذهاب إلى الحلاق، اتجهت إلى حانة وطلبت كأس "كوكتيل".

سألني الساقي "ماذا تريد أن تشرب؟"

أجبته، من دون أن أعرف أن ثمة عدة أنواع منه "ليكن نوعاً جيداً!"

وجدت مذاقه مريعاً، لكن في نهاية الدقائق الخمس بدأت أشعر بشعور جميل داخل روحي. وتخليت عن فكرة زيارة الحلاق هذا العصر، وطلبت كأس كوكتيل آخر. ثم أصبحت مدركاً لهذه الحقيقة المذهلة: منذ أربعة أشهر كان هذا هو اليوم الأول الذي أتغيب فيه عن الكلية، وأكثر ما صعقني هو أنني لم أشعر بأي إحساس بالذنب. بل على العكس، كان لدي شعور مبهم أن تلك الحقبة قد انتهت، وأنني لن أعود يوماً. سيدخل شيء مختلف للغاية في حياتي.

ووجدت في كأس شرابي الثاني شعرة بيضاء. أثر بي هذا إلى حد البكاء، بسبب حالة الثمل اللطيفة التي نتجت عن أول كأسي كوكتيل أشربهما في حياتي. وبدا لي ظهور هذه الشعرة البيضاء في قاع الكأس نذير خير. وشعرت أن الكثير من الأفكار تولد وتختفي، وتتعاقب في رأسي بسرعة غير اعتيادية – كما لو أن حياتي بدأت تتحرك بسرعة

أكبر، بسبب الشراب. وقلت لنفسي: "هذه أول شعرة بيضاء لي!" ورشفت مرة أخرى من السائل الناري الذي اضطررت إلى ابتلاعه بعينين مغمضتين بسبب قوته. ربما كان هذا "إكسير الحياة الطويلة"، أكسير الشيخوخة، إكسير مناهضة الفاوستية.

كنت أجلس في زاوية مظلمة أستطيع منها مراقبة كل شيء من دون أن يلحظني أحد- وتأكدت من هذا عندما قلت "إكسير مناهضة الفاوستية" بصوت مرتفع ولم ينتبه أحد. وأيضاً، لم يكن هناك إلا شخصين غيري في الحانة- الساقي، الذي كان شعره أشيب لكنه بدا شاباً جداً، وسيد آخر هزيل للغاية وأشيب الشعر أيضاً، وبدا عجوزاً جداً لأنه عندما رفع الكأس إلى شفتيه ارتعش كثيراً بحيث اضطر إلى اتخاذ احتياطات كي لا يريق الشراب كله على الأرض. وجدت هذه المبادرة، التي تشير إلى عادة قديمة، مثيرة للإعجاب وذات أناقة فائقة، وكنت أرغب كثيراً في أن أرتعش بهذا الشكل! وتسمّرت عيناي مرة أخرى على قاع كأسي، مفتوناً بالوميض الخافت لتلك الشعرة الفضية. "بالطبع، سأنظر إليك عن قرب"، يبدو أنني قلت هذا مع نظرتي تلك، "لأنني لم أحظ مرة في حياتي بفرصة، أو بوقت فراغ، كي أمسك شعرة بيضاء بين أصابعي، وأن أدقق فيها بعيني النهمتين المتفحصتين القادرتين على استخراج الأسرار وانتزاع روح كل الأشياء".

وكنت أوشك أن أغمس أصابعي في الكوكتيل لأخرج الشعرة عندما أتى الساقي إلى طاولتي ووضع طبقين صغيرين عليها، كان الطبق الأول زيتوناً محشواً، وفي الآخر "فطيرة التفاح".

"أتريد كأساً آخر؟" سألني بعد أن رأى أن كأسي يحتوي أقل من نصفه.

"لا، شكراً!"

مسح بحركة رسمية بضع قطرات كنت قد أرقتها على الطاولة وعاد إلى مكانه وراء المشرب. ثم غمرت إصبعي سبابتي وإبهامي في كأسي. لكن بما أن أظافري كانت مقصوصة بشكل قصير جداً، كان من المستحيل علي الإمساك بها. وعلى الرغم من هذا، شعرتُ بأنها ارتاحت وبدت وكأنها ملتصقة بقاع الكأس. وبينما كنت منهمكاً في هذه العملية، دخلت امرأة أنيقة ترتدي زياً خفيفاً للغاية، وتتدلّى فروة ثقيلة جداً حول عنقها. وتحدثت بتآلف وتكاسل مع الساقي. باهتمام مفعم بالاحترام، كان الأخير يعد لها شيئاً طلبته مع ضجيج الثلج المتكسر القوي. وفهمت على الفور موضوع حديثهما، لأن الساقي ألقى نظرة غير ملحوظة على المكان الذي كنت أجلس فيه تبعها فاصل قصير، ثم نظرة طويلة متفحصة من السيدة. وقبل أن تثبّت عينيها عليّ بفضول ملحّ، تركتْ عينيها تجوبان الغرفة كلها بتكاسل، ثم استقرتا عليّ للحظة بسيطة تعني بها أن أصدّق أن نظرتها قد استقرّت عليّ من باب الصدفة المحضة. ثم ثبت الساقي عينيه على الطاولة المعدنية منتظراً رفيقته لتأخذ وقتها في تفحّصي على هواها، وبكلمات سريعة وابتسامة سخرية لكنها لطيفة، أخبرها شيئاً عني جعل وجه المرأة يتجه باتجاهي للمرة الثانية. هذه المرة لم تفعل هذا بالبطء نفسه، بل من دون أية احتياطات. في تلك اللحظة، باستياء بسبب تلك النظرة المتفحصة وبسبب خراقتي حيث إنني لم أستطع إخراج الشعرة البيضاء، ضغطت إصبعي بقوة على الكأس وسحبتها ببطء، وأزلقتها على البلور بكل قوتي. واستطعت القيام بهذا دون أن يشاهدني أحد، حيث أن عموداً أخفى نصف طاولتي عن السيدة والساقي في الموقع الذي صدف وجود كأسي ويدي فيه.

ولم أنجح في فصل الشعرة البيضاء، لكنني شعرت فجأة بألم حارق في إصبعي. نظرت، فرأيت جرحاً طويلاً بدأ ينزف بغزارة. وبخوف شديد، أعدت وضع إصبعي في الكأس كي لا ينتشر الدم على طاولتي. ثم أدركت

خطأي على الفور. لم تكن ثمة شعرة بيضاء في قاع كأسي. بل كان شقاً دقيقاً جداً لمع عبر سائل كوكتيلي الملعون. وكنت قد جرحت نفسي دون أن أنتبه عندما أزلقت لحم إصبعي بقوة على هذا الشق بذلك الضغط القهري الذي جعلته النظرة الثانية للسيدة يزداد حدّة. لقد كان طول جرحي ثلاثة سنتمترات على الأقل، ونزف باستمرار وبدون توقف. وأصبح شراباً مخضباً بالأحمر الساطع على الفور تقريباً، وبدأ يرتفع في الكأس.

كنت متأكداً من أن الساقي قد قال شيئاً للسيدة. ربما أخبرها أنني قروي مررت من هنا صدفة، أو أنني لم أعرف نوع الكوكتيل الذي أريد أن أشربه، وطلبتُ منه بسذاجة أن يقدم لي نوعاً جيداً. وعلى الرغم من المسافة الفاصلة بيننا، يمكنني أن أقسم إنني رأيت هذه المقاطع اللفظية تحديداً تخرج من شفتي الساقي. وعندما انتهى من رواية قصته، بدأ دمي يلون شرابي. استمرّ نزيفي وقررت أن أربط منديلاً حول إصبعي، لكن الدم تغلغل فيه فوراً فوضعت منديلاً أخر وشددته بقوة أكبر. وفي هذه المرة، كبرت بقعة الدم التي ظهرت بشكل أبطأ بكثير، وبدت وكأنها تتوقف عن الانتشار.

وضعت يدي في جيبي وكنت أوشك أن أرحل عندما هاجمتني فكرة دالية. وعندئذٍ ذهبت إلى المشرب ودفعت ورقة خمس وعشرين بيزيتا. أسرع الساقي بإعطائي فكتي- لم يكن ثمن شرابي يتجاوز الثلاث بيزيزتات. ثم تركت الباقي بطريقة طبيعية جداً كإكرامية. لكنني كنت أعرف هذا التعبير جيداً لأنه التعبير نفسه الذي لاحظته غالباً بسعادة على وجوه زملائي في المدرسة عندما كنت أبادلهم قطع السنتيمات العشرة الشهيرة بقطع الخمسة سنتيمات عندما كنت ولدا. وهذه المرة فهمت أن الأمر يعمل "بالطريقة نفسها تماماً" مع الكبار، وأدركت على الفور تفوّق سلطة المال. وكان الأمر كأنني عندما تركت على المشرب مبلغ إكراميتي المبالغ بها كنت قد "حطمت بنك" فندق الريتز.

لكن الأثر الذي تركته لم يرضِني بعد، ولم يكن إلا تمهيداً لتلك الفكرة الدالية التي أعلنت عنها منذ بعض الوقت. لقد استطاع كأسا الكوكتيل اللذان تناولتهما أن يبددا كل ذرة من خجلي، وازداد شعوري هذا بعد أن تركت إكراميتي بحيث أن الأدوار انقلبت، وأصبحت أنا مصدر الترهيب. وغدت الشجاعة والوقار المثالي تظهران في أصغر حركاتي، ويجب أن أقول إن كل ما فعلته منذ تلك اللحظة إلى أن وصلت إلى الباب، كان يحدث بارتياح مذهل. لقد استطعت قراءة هذا باستمرار على وجه الساقي وكأنه كتاب مفتوح.

قلت وأنا أشير إلى طبق مليء بالفاكهة المحلاة: "أريد الآن أن أشتري واحدة من تلك الكرزات التي لديكم هناك".

ووضع الطبق أمامي باحترام وقال: "تفضل يا سيدي، خذ ما تريد".

فأخذت واحدة ووضعتها على المشرب.

"كم ثمنها؟"

"إنها لا تساوي شيئاً يا سيدي".

أخرجت ورقة خمس وعشرين بيزيتا أخرى وأعطيتها له.

رفض أخذها مع شعور هائل بالإحراج.

"إذاً، سأرد لك الكرزة!"

ثم أعدتها إلى الطبق الفضي، فمد الطبق إليٍ وهو يتوسل إلـيٍ لأنهي هذا المزاح. لكن وجهي أصبح جاداً ومنقبضاً ومهاناً ومتحجراً للغاية بحيث أن الساقي، المصاب بارتباك شديد، قال بصوت مشوب بالعاطفة:

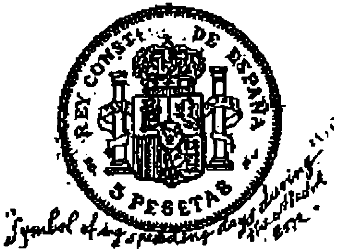

"إن أصرّ السيد على تقديم هذه الهدية الإضافية لـي..." فأجبت بنبرة لا تقبل الجدل: "أنا أصرّ".

أخذ ورقة الخمس والعشرين بيزيتا، لكنني رأيت حينها ومضة من الخوف تومض في وجهه. ربما كنت مجنوناً؟ ألقى نظرة سريعة إلى السيدة الجالسة قربي إلى المشرب، والتي كنت أستطيع الشعور بها وهي تحدق بي بافتتان. حتى هذه اللحظة، لم أكن قد نظرت إليها أبداً كما لو أنني لا أدركُ وجودها إطلاقاً. لكن حان دورها الآن. فالتفت إليها وقلت:

"سيدتي، أتوسل إليك أن تهديني واحدة من حبات الكرز التي على قبعتك!"

وأجابت بغنج وهي تحني رأسها باتجاهي: "بكل سرور!" فأخذت واحدة من حبات الكرز وبدأت أسحبها. لكنني رأيت على الفور أن هذه ليست الطريقة المناسبة للقيام بذلك، وتذكرت تجربتي الطويلة مع أشياء كهذه. كانت عمتي صانعة قبعات، ولم يكن للكرز الصنعي أية أسرار يخفيها عني. لذا، بدلاً من سحبها، ثنيت الساق إلى الأمام والخلف إلى أن انكسر السلك الدقيق الذي كان بمثابة ساق الكرزة وأصدر صوت طقطقة، وحصلت على كرزتي. وقد أديت هذه العملية ببراعة يدوية فائقة وبيد واحدة، لأنني تركت الأخرى الجريحة مدفونة في جيب معطفي.

عندما حصلت على كرزتي الصنعية الجديدة قمت بعضها، فانكشف القطن الأبيض لحشوتها. وبعد أن فعلت هذا، وضعتها إلى جانب الكرزة الحقيقية، وقمت بتثبيت الاثنتين معاً من ساقيهما، ولففت الساق المعدني اللكرز الصنعية حول ذيل الكرزة الحقيقية. ثم، لأكمل العملية، سحبت "بمصاصة" الكوكتيل بعضاً من الكريمة المخفوقة التي تغطي شراب السيدة ووضعتها على الكرزة الحقيقية، بحيث أصبح للكرزة الحقيقية والصنعية بقعة بيضاء، واحدة من الكريمة والأخرى من القطن.

وتابع الساقي والسيدة مسار كل هذه العمليات مخطوفي الأنفاس، كما لو أن حياتيهما معلقة على كل تفصيل دقيق أقوم به.

فقلت بفخامة وأنا أرفع إصبعي: "والآن، ستريان الشيء الأهم على الإطلاق"...

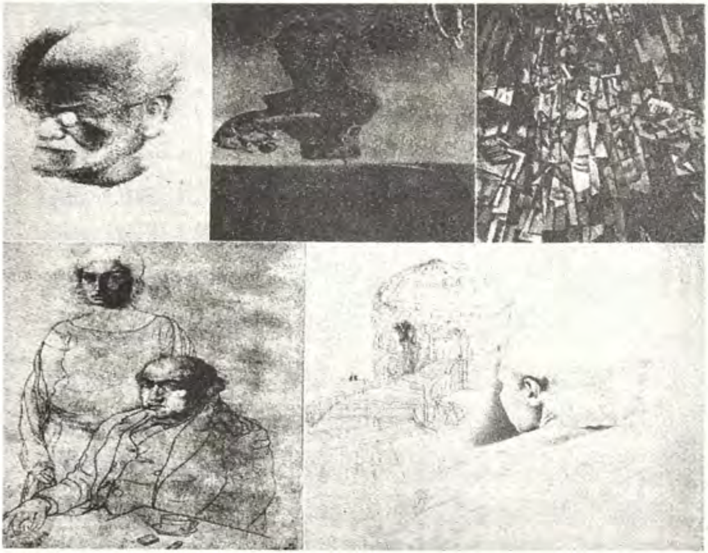

أعمالي النادرة.

بورتريه لسيغموند فرويد، تم رسمها على الورق النشاف في لندن قبل سنة من وفاته.

بورتريه وجهية سريالية: باول إلوارد، في كاداكيس، ١٩٢٩.

بورتريه شخصية، أول لوحة تكعيبية لي في العام ١٩٢٠.

بورتريه لوالدي، أول لوحة بقلم رصاص

أول "لوحة معمارية" مستوحاة من ملامح وجه غالا.

ثم استدرت وذهبت إلى الطاولة التي كنت أشغلها منذ قليل، وأخذت كأس الكوكتيل المليء بدمي، ووضعت يدي حولها، وحملتها بحذر ودقة ووضعتها على السطح المعدني للمشرب، وبعد ذلك، أبعدت يدي عنها بسرعة وأخذت الكرزتين المرتبطين معاً بساقيهما وغمرتهما في الكأس.

قلت للساقي، "راقب هذا الكوكتيل بعناية، هذا نوع لا تعرفه!"

ثم استدرت وغادرت فندق الريتز بهدوء.

وفكرت بما كنت قد فعلته، وشعرت بتأثر شديد، كما أظن أن يسوع قد شعر بعد أن اخترع المناولة المقدّسة. كيف يمكن لدماغ الساقي أن يفهم هذه الظاهرة، حيث ظهر في كأس رأى بأم عينيه أنه نصف فارغ قبل قليل، سائل أحمر ملأه حتى الحافة؟ هل سيفهم أنه دم؟ هل سيتذوقه؟ ماذا سيقول أحدهما للآخر بعد رحيلي؟

ثم انتقلت من هذه التأملات التي غرقت فيها، بشكل مفاجئ ودون مرحلة انتقالية، إلى مزاج التمجيد المليء بالفرح. وكانت السماء فوق مدريد ذات لون أزرق ساحق، وكانت المنازل الآجرية ذات لون ورديٍ شاحب مثل تنهيدة مليئة بوعود مجيدة. لقد كنتُ مذهلاً. كنت مذهلا. وكانت المسافة التي تفصل فندق الريتز عن محطة الترام، طويلة بعض الشيء وكنت جائعاً مثل ذئب. بدأت أركض عبر الشوارع بأقصى سرعة تحملني فيها ساقاي. وأذهلني أن ركضي لم يفاجئ العابرين. لقد أداروا رؤوسهم باتجاهي فقط ثم تابعوا أعمالهم بطريقة طبيعية للغاية. شعرت بالاستياء من هذه اللامبالاة، فزينت ركضي بمزيد من القفزات العالية. لطالما كنت ماهراً بالقفز العالي، وحاولت أن أجعل كل قفزة أكثر روعة من التي سبقتها. وإن لم يكن ركضي العنيف وغير الاعتيادي قد نجح في جذب الكثير من الانتباه، فإن ارتفاع قفزاتي فاجأ العابرين كلهم، وظهر على وجوههم تعبير من الذهول المفعم بالخوف، وهو ما أبهجني. لقد جعلت ركضي أكثر تعقيداً عبر صرخة مذهلة تقول: "الدم أحلى من العسل" وقد صرخت بأعلى صوتي، وقفزت. وفي إحدى هذه القفزات، هبطتُ قرب أحد زملائي في كلية الفنون الجميلة، ولم يكن يعرف عني سوى مظهري المواظب الصموت الزاهد. وعندما لاحظت دهشته، قررت أن أدهشه أكثر. وجعلت الأمر يبدو كأنني أهمس له تفسيراً لقفزاتي غير المفهومة، قربت شفتي من أذنه وصرخت بأعلى صوتي "العسل!" ثم ركضت باتجاه عربة الترام التي كانت تقترب، وقفزت إليها تاركاً زميل

دراستي جامدا على الرصيف، ويلاحقني بعينيه حتى غبت عن بصره. وفي اليوم التالي أخبر هذا الطالب الجميع بأن "دالي مجنون مثل عنزة!"

في الصباح التالي وصلت إلى الأكاديمية قبل نهاية الدروس مباشرة. وكنت قد اشتريت أغلى سترة رياضية من أغلى متجر وجدته في مدريد، وارتديت قميصاً حريريا أزرق سماوياً مع أزرار لكمّيه من الياقوت الأزرق. وكنت قد أمضيت ثلاث ساعات في ترتيب شعري الذي غمرته بملمّع شعر دبق للغاية، ورتبته بشبكة شعر خاصة كنت قد اشتريتها للتو، وبعد ذلك لمعت شعري أكثر بورنيش الصور الحقيقي[1]. ولم يعد شعري يشبه الشعر. بل أصبح معجوناً ناعماً متجانساً صلباً يأخذ شكل رأسي. إن ضربت شعري بالمشط كان يصدر طقة كأنني أضربه بالخشب.

لقد خلقت عملية تحوّلي الكاملة التي حدثت خلال يومٍ واحد، ضجّة كبيرة لدى طلاب كلية الفنون الجميلة، وأدركت فوراً أنني لا أشبه الآخرين كما حاولت أن أفعل، على الرغم من أنني اشتريت كل شيء من المتاجر الرائجة، ونجحت في تجميع كل هذه الاشياء بطريقة غير اعتيادية بحيث أن الناس لا يزالون يلتفتون لينظروا إلي عندما أمر كما كان يفعلون من قبل تماماً.

على الرغم من ذلك، كانت إمكانياتي كشخص متأنق قد ترسخت الآن تماماً. وتم استبدال مظهري الوضيع الفوضوي بخليط متناقض فخم أوحى فوراً بأنه غالي الثمن. وبدل أن ألهم الناس أن يسخروا مني، بدأت الآن أحصل على إعجابهم وفضولهم المتهيب. وعندما خرجت من كلية الفنون الجميلة، كنتُ أستمتع سعيدا بجلال ذلك الشارع الذكي والمليء بالفطنة، والذي كان الربيع يتفتح فيه منذ الآن. ثم توقفت

---

[1] كانت عملية إزالة الورنيش عن رأسي دراما كاملة. الطريقة الوحيدة لحله هي بغمسه بالتربنتين، الذي كان خطيراً على العينين. بعد هذا (ما عدا في مناسبة واحدة ساصفها في مكانها المناسب) لم أستخدم ورنيش الصور مرة أخرى، لكنني كنت أصل إلى التأثير نفسه بإضافة بياض البيض إلى ملمع الشعر.

لشراء عصا خيزران مرنة جداً تدلّى من قبضتها المغلفة بالجلد شريط لامع من الجلد المطوي. وبعد ذلك، جلست إلى شرفة حانة ريجينا، وشربت ثلاث كؤوس شراب فيرمونت السينزانو مع الزيتون، وتأملت في حشود المتفرجين الذين يمرون أمامي كلَّ المستقبل الذي كان يخبئه لي العامة مجهولو الأسماء في ضجيج نشاطاتهم اليومية– نشاطات لا تترك أثراً، نشاطات خالية من الألم ومن المجد.

وفي الساعة الواحدة، التقيتُ بمجموعتي في حانة مطعم إيطالي يسمى "لوس إيتاليانوس"، حيث تناولت كأسي فيرمونت وبعض البطلينوس، ثم ذهبنا لنشغل طاولة كانت محجوزة لنا. كانت قصة الإكرامية التي تركتها للساقي قد انتشرت كالنار في الهشيم في صالة الطعام، وعندما وصلنا إلى هناك، رآنا كل الندل قادمين ووقفوا منتبهين. أذكر تماماً لائحة الطعام التي اخترتها في اليوم الأول في المطعم – مجموعة مقبلات، حساء بارد بالهلام، والمعكرونة وفرخ حمام، وجميعها مرشوشة بنبيذ التشيانتي الأحمر الأصيل. وقُدمت القهوة مع الكونياك كمحفّز إضافي لاستمرارية الموضوع الرئيسي لحواراتنا، والذي لم يكن سوى موضوع الفيرمونت نفسه الذي تطور أثناء الوجبة وأصبح بالطبع موضوع "الفوضويين".

كنا حوالي ستة أشخاص على طاولة العشاء، وجميعنا أعضاء في المجموعة، لكن كان من الواضح أن الأغلبية العظمى منا يميلون بشكل مبهم نحو نوع من الاشتراكية المتحررة التي ستصبح ذات يوم مرعى خصب لليسار المتطرف. وكان موقفي هو أن السعادة أو التعاسة هي أمر فردي للغاية ولا علاقة له ببنية المجتمع ولا بمستوى المعيشة ولا بالحقوق السياسية للشعب. وما كان يجب فعله هو زيادة الخطر وفقدان الأمان الجمعي، بإدخال اختلال النظام المنهجي لتعزيز احتمالات العذاب الذي يقول المحللون النفسيون إنه يتأسس على مبدأ السعادة نفسه. وإن كانت السعادة تهمّ أحداً، فهي تهم الدين! ويجب أن يحد

الحكام أنفسهم بممارسة نفوذهم بأعلى قدر من السلطة، ويجب على الشعب إما الإطاحة بالحكام، أو الخضوع لهم. ومن هذا الفعل وردّ الفعل، يمكن أن ينشأ شكل روحي، أو بنية روحية – وليس منظمة منطقية ميكانيكية وبيروقراطية. لأن الأخيرة ستؤدي مباشرة إلى إزالة الشخصية والقدرة المتوسطة. وأضفت أن ثمة إمكانية طوباوية لكنها مغرية– ملك فوضوي مطلق الصلاحية. وفي النهاية، لم يكن لودفيغ الثاني ملك بافاريا سيئاً جداً!

وقد أعطت الجدالات شكلاً يزيد من وضوح أفكاري. (لم تؤدِّ يوماً إلى تعديل أفكاري، بل على العكس، كانت تقويها).

ولنتفحص حالة فاغنر، إن شئتم. فكّروا بأسطورة بارسيفال بدون تحيز من وجهة نظر اجتماعية– سياسية... تأملت الموضوع لبرهة، كما لو أنني أتغلّب على شكوكي، واستدرت إلى النادل الذي أفسدته فكريتنا بسرعة ولم تفته كلمة من النقاشات.

قلت: "أيها النادل، من فضلك..."، فتقدم إلى الأمام باحترام، "بعد التفكير بالأمر، أظن أنني أريد المزيد من النقانق والخبز المحمّص".

ذهب النادل في الحال فناديته قائلاً:

"وقليلاً من النبيذ أيضاً!"

عند التفكير بحالة أسطورة بارسيفال من وجهة نظر سياسية واجتماعية، كانت تحتاج إلى مزيد من التعزيزات...

بعد مغادرة المطعم الإيطالي، عدتُ إلى السكن الطلابي لأجلب المزيد من المال. وكنت قد أنفقت المبلغ الذي أخذته في الصباح بشكل غير مفهوم. وكان الحصول على المال بسيطاً. ذهبت إلى مكتب الإقامة، وطلبت المبلغ الذي أريده، ووقّعت الإيصال.

وعندما أنهيت أعمالي في السكن، اجتمعت مجموعتنا من جديد إلى طاولة في صالة جعة ألمانية حيث يمكن تناول الجعة البنّية الأصلية.

وأكلنا معها، كمتمم لها، حوالي مئة سلطعون مطهو، كانت إزالة صدفتها وامتصاص محتوى الأرجل ملائماً جداً للاستمرار في موضوع بارسيفال.

حلّ المساء بسرعة كبيرة كما لو أن معجزة حدثت، وكنا ملزمين على الانتقال إلى مطعم بالاس كي نشرب شرابنا فاتح الشهية الذي كان يتألف هذه المرة من كأسيٍ مارتيني. كانت تلك أول مرة أشرب فيها المارتيني، وبقيت مخلصا له منذ ذلك الحين. اختفت قطع فطيرة البطاطا بسرعة عن طاولتنا، لكن يداً سريعة أحضرت قطعاً أخرى محلها على الفور.

وسرعان ما طُرح سؤال أين يجب أن نأكل! لأن فكرة العودة إلى قاعة الطعام النظيفة الخالية من الكحول في السكن الطلابي لم تخطر لي للحظة واحدة. لطالما كنت أحب العادات، وعندما ينجح شيء ما، أصبح قادراً على تبنيه لبقية حياتي.

"لنعد إلى مطعم الإيطاليين؟"

وافق الجميع على هذا الاقتراح، واتصلنا بمطعم لوس إيتاليانوس ليحجزوا لنا قاعة طعام صغيرة، واتجهنا إلى هناك صابرين، وجوع متنام يلتهم أحشاءنا.

كانت قاعة الطعام صغيرة لكنها ساحرة. وكان هناك بيانو عليه شموع وردية مضاءة، وبقعة نبيذ على الجدار مرئية مثل الزينة تماماً. ماذا سنأكل؟ سأكذب إن قلت لكم إنني أستطيع أن أتذكر. أعرف فقط أنه كان هناك الكثير من النبيذ الأبيض والنبيذ أحمر، وأن الحديث أصبح عاصفاً جداً، وكان الجميع يصرخون بصوت مرتفع جداً، بحيث أنني توقفت عن المشاركة فيه. جلست إلى البيانو وحاولت عزف سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن بإصبع واحد. حتى أنني نجحت في اختراع مرافقة بيدي اليسرى، واضطروا إلى انتزاعي عن البيانو بالقوة ليأخذوني معهم إلى نادي ريكتور في فندق البالاس (الذي كان من أكثر الأماكن

أناقة) لتناول بعض الشمبانيا. كان "القليل" الذي أعرفه كافياً تماماً، لأنه في النهاية، كان الموعد الذي حددته لأثمل قد اقترب. وعندما جلسنا اقترح "بانيل" الذي كان سيد احتفالاتنا بشكل ما:

"لنبدأ بشرب الويسكي، ولاحقاً سنأكل بعض الطعام قبل أن نذهب إلى النوم – ثم سنأخذ بعض الشمبانيا".

ووجد الجميع الفكرة رائعة، وبدأنا العمل. واتفقنا جميعاً على أن الثورة ضرورية، وكانت نقطة غير قابلة للجدل. لكن كيف ستتم، ومن سيقوم بها، ولماذا يجب أن تتم؟ لم يكن هذا واضحاً جداً كما بدا في البداية. وحالياً، وبما أن الثورة لن تندلع هذه الليلة بالذات، فلن يكون من المفيد أن نغرق كثيراً في هذه المسألة، ثم طلبنا جولة من النعناع المثلج ما بين كؤوس الويسكي، لأن علينا أن نرتاح بين الحين والآخر. وفي نهاية الجولة الرابعة من الويسكي، بدأ صبر الجميع بالنفاد، وسألوا بانيل، "ماذا عن الشمبانيا؟"

بعد هذا كله كانت الساعة قد اقتربت من الثانية فجراً، وبسبب جوعنا الذئبي كان من المؤكد أننا ستتناول شيئاً مع الشمبانيا. أخذت طبقاً من المعكرونة الساخنة، وأخذ الآخرون دجاجاً بارداً. ومع اقتراب انتهاء طبق المعكرونة، بدأت أندم على خياري، وأنظر بتوق متزايد إلى الدجاج البارد. كانوا قد عرضوا الأمر علي عدة مرات ورفضته، ولم أرغب بالتراجع عن قراري. كان الحديث الآن يدور حول الموضوع الذي فرضته شاعرية الشمبانيا التي كانت تتدفق منذ عدة دقائق. وهذا الموضوع، كما خمنتم، هو "الحبّ والصداقة". وقلت إن الحبّ يشبه نوعاً من الأحاسيس المرتبطة بالمعدة بشكل غريب في علاماته الأولى من الغثيان، كما أنه يعطي شعوراً رقيقاً جداً بالاضطراب والقشعريرة؛ بحيث إن المرء لا يكون متأكداً من أنه كان عاشقاً أم كان يرغب بالتقيؤ.

"لكنني واثق أننا إن عدنا إلى موضوع بارسيفال، فربما يتم تسليط بعض الضوء على الموضوع".

وأطلق الجميع صرخات احتجاج. ولم يعودوا يرغبون بسماع أي شيء عن ذلك!

"حسناً، سنعود إليه في يوم آخر إذاً، لكن اتركوا لي جناح دجاجة لوقت لاحق، سأتناوله قبل أن نرحل تماماً".

كان الساعة قد بلغت الخامسة، وكانت الدقيقة الأخيرة تقترب. كان من القسوة أن أضطر إلى الذهاب إلى النوم بينما كان كل شيء قد بدأ يصبح أفضل. ثم فتحنا زجاجة شامبانيا مع إحساس بالمرارة. وكانت عيون أصدقائي مبللة بالدموع. كانت أوركسترا ذا نيغرو (الزنجي) رائعة، وعزف عازف البيانو بانفلات سماوي، وفي اللحظات الغنائية القصوى، كان بوسع المرء سماع صوت لهاثه يرتفع فوق الضجيج، أما عازف الساكسفون الذي نفخ كل دماء شغفه، فقد انهار من الانهاك ولم ينهض من جديد. كان هذا هو اكتشافنا لموسيقى الجاز، ويجب أن أقول بكل صدق، أنها تركت انطباعاً معيناً لدي في ذلك الوقت. وخلال السهرة، أرسلنا عدة إكراميات كبيرة، حيث كنا نطوي الأوراق النقدية في مغلف في الخفاء، وكان هذا غير اعتيادي على الإطلاق، بحيث أن كل الزنوج، بأمر من عازف البيانو الذي كان يقودهم، نهضوا معاً وانحنوا، وأطلقوا علينا نيران أسنانهم كلها وهم يضحكون معاً. اقترح بانيل أن نقدم لهم زجاجة شمبانيا، وبسبب هذا طلبنا زجاجة أخرى لنتمكن من قرع الكؤوس مع الموسيقيين عن بعد وبالخفاء، لأنه ما كان من الممكن السماح للزنوج بالاقتراب من طاولتنا. ةبالنسبة إلينا، لم يكن المال مهما. كنا كرماء ورائعين بغير حدود في إنفاق المال الذي كسبه أهلنا بعرق جبينهم.

وألهمت زجاجة الشمبانيا الجديدة أصدقائي أن يُقسموا قسماً يجمعنا معاً بموعد رسمي. وتعهدنا جميعاً "بكلمة شرف، أنه مهما حدث لنا في الحياة، ومهما كانت قناعاتنا السياسية، ومهما كانت الصعوبات التي

نواجهها - حتى إن وجدنا أنفسنا في أبعد البلدان وسنحتاج إلى سفر طويل- تعهدنا كما قلت، على أن نلتقي في هذا المكان بعد خمس عشرة سنة بالضبط، وإن كان الفندق قد هُدم، فسنلتقي في الموقع الذي كان يشغله. وكان احتمال أن نتمكن من العثور على الموقع نفسه الذي كنا فيه في حال تعرض الفندق ومحيطه لقصف شديد قبل وقت قصير، أو في حال حدث هذا في الموعد نفسه، بعد خمس عشرة سنة، لنحضر اجتماعنا الذي تعهدنا به، أشعل نقاشاً أصبح معقداً للغاية، وفقدت كل اهتمامي به.

ثم أطلقت العنان لبصري ليجوب الأجساد الأنيقة المرصّعة بالمجوهرات التي تحيط بنا، وبدا أن هذا يسبب انقباض قلبي. هل كان هذا هو السبب فعلاً، أم رغبة خفيفة بالتقيؤ، كما قلت منذ قليل بدافع التهكم؟ تناولت بشهية مريبة ساق الدجاج الذي تركه لي أحدهم.

وتبين أنه لا غنى عن زجاجة شمبانيا أخرى لنتمكن من الوصول إلى اتفاق. لقد كنا ستة أشخاص، وقطعنا البطاقة التي طبع علينا اسم نادي ريكتور ورقم الطاولة إلى ستة أجزاء (أذكر أن الرقم كان ثمانية، لأننا ناقشنا الأهمية الرمزية لهذا الرقم)، وعلى كل جزء كتبنا التاريخ وبيانات أخرى على جهة، وعلى الجهة الأخرى، التواقيع الستة. قمت بلفت الانتباه إلى الأهمية الرمزية - بما أننا نتحدث عن الرموز تحديداً- لتوقيعنا عهداً على قطعة ورق كنا قد مزقناها من قبل عدة مرات. لكن لم يهتم أحد بهذا الأمر، ووقعنا على القطع الست كما اتفقنا. بعد ذلك احتفظ كل منا بقطعته[1].

بعد التوقيع على هذا العهد المقدس، كان من الضروري تناول زجاجة أخيرة من الشمبانيا للاحتفال بالنهاية السعيدة لاتفاقنا بشكل لائق.

---

[1]بعد تسع سنوات، عندما التقيت بأحد هؤلاء الأصدقاء في باريس، واعترف لي أنه لا يزال يحتفظ بقطعته من ذلك العهد، أصبت بالذهول من طفولية البشرية المزمنة. من بين كل الحيوانات، والنباتات، من بين كل التحف المعمارية وكل الصخور، فإن الإنسان هو أكثر من يجد صعوبة في التقدم في السن.

في الوقت الذي كان من المقرر أن يحدث الاجتماع وفق عهدنا، اندلعت الحرب الأهلية في اسبانيا. تخيلوا فندق بالاس في مدريد، حيث عشنا سنواتنا الذهبية، قد تحول إلى مستشفى لنقل الدم وتم قصفه. يا له من موضوع ممتاز لهوليوود عن الأوديسة البطولية لهؤلاء الأصدقاء الستة- الذين تفرقوا لوقت طويل، وفرقت بينهم أيضاً، أو وحدتهم، كراهيات لا يمكن التخلص منها، أو حماس آرائهم المتعصبة الجماعية- حيث قمعوا للحظة عواطف شغفهم الهائجة، ووضعوا خلافاتهم جانباً في وجبة درامية حدادية رسمية، كتحية نبيلة لشرف كلمة! لا أعرف ما إن كانت هذه الوجبة الخيالية قد حدثت أم لا. كل ما يمكنني إخباركم به، وأهمس هذا في آذانكم سراً، هو أنني لم أكن حاضراً.

كما أن كل شيء في العالم يجب أن ينتهي، كذلك انتهت ليلتنا في نادي ريكتور. لكننا وجدنا مطعماً آخر لا يزال مفتوحاً حتى الفجر، يتردد عليه الحمالون والحراس الليليون والناس الذين يستقلّون القطارات في ساعة مبكرة للغاية. واجتمعنا هناك لجولة أخيرة من شراب "أنيس ديل مونو". كان الفجر قد بدأ ينبلج مع صياح الديكة الأولى عند نوافذ المطعم. هيا! هيا، لننم قليلاً! يكفي اليوم. الغد يوم آخر.

في الغد سأبدأ أسطورة بارسيفال الجديدة! وكانت بارسيفال الخاصة بي في الغد كالتالي. استيقظت ظهراً. من الظهر إلى الساعة الثانية، تناولت خمسة كؤوس فيرمونت مع الزيتون. في الساعة الثانية، كأس مارتيني مع شرائح ناعمة جداً من لحم "سورونو" لأنه كان عليّ أن أمضي بعض الوقت قبل وصول المجموعة. ولا أذكر أي شيء عن الغداء سوى أنني في نهايته شعرت بنزوة تناول عدة كؤوس من "الشارتروز"، في ذكرى نهاية بعض عشاءات يوم الأحد في منزل والدي في كاداكيس- وجعلني هذا أبكي.

في الساعة الخامسة أو السادسة عصراً، وجدنا أنفسنا جالسين إلى طاولة من جديد، هذه المرة في مزرعة على أطراف مدريد. كانت شرفة

صغيرة لها إطلالة ساحرة على جبال السييرا ديل غوادارامـا المرصّعة بأشجار سنديان في غاية السـواد. وقررنـا أن الوقـت قـد حـان لنتنـاول بعض الطعام. تناولت طبقاً كبيراً من سمـك القـد مـع صلصـة البنـدورة. وكـان بعـض الحمـالين الجالسـين إلى طاولـة مجـاورة كـانوا يأكلونـه بسكاكينهم، ووجدت أن فكرة مزج الطعم المعدني مع سمك القد مباشرة فكرة أستقراطية بشدة.

وبعد طبق سمك القد طلبت طبق حجل، لكن لم يكـن هنـاك حجـل في هذا الفصل. فأردت أن أتناول شيئاً مشابهاً بأيـة طريقـة. واقترحـت المالكة إما الأرنب المسخن مع البصـل، أو فـرخ حمـام. وقلـت إنـني لا أريد أي شيءٍ مسخن، وقررت تناول فرخ الحمام. ولفتت المالكة، الـتي استاءت قليلاً، انتبـاهي إلى حقيقـة أن الأطبـاق المسخنة هـي الأفضـل أحياناً. ترددت قليلاً، لكنني ألححت على طبـق فـرخ الحمـام. كانـت المشكلة هي أن الوقت قد تأخر، وسـنتناول العشـاء بعـد سـاعتين علـى الأكثـر. لـذا قررنـا أنـه مـن الأفضـل أن نأكـل الآن، ولاحقـاً، حـوالي منتصف الليل، سنتناول وجبة باردة وحسب. لذا قلت للمالكة:

"حسناً، أحضري لي الأرنب الذي تمدحينه أيضاً".

كم كانت محقة! بواسطة الذكاء الحسي الذي تتمتـع بـه حليمـاتي الذوقية فهمت فوراً ألغاز الطبق المسـخن وأسـراره. وأصـبحت الصلصـة ذات قوام مطاطي بعض الشـيء خـاص بالأطبـاق المسـخنة ممـا جعلـها تلتصق بشكل رقيـق داخـل الفـم، بحيـث تـوزع المـذاق بشـكل متسـاوٍ وتجعل المرء يطقطق لسانه باستمتاع. وصدقوني، ذلك الصوت المبتـذل، الذي يشبه كثيراً سماع فرقعة فلينة، هو الصوت نفسـه الخـاص بـذلك الشيء الذي نادراً ما يُفهم- ويُفهم أقـل عنـدما لا يكـون مترافقـاً بهـذا الصوت- وهو "الإشباع". باختصار، منحني ذلك الأرنب المتواضع قدراً كبيراً من الإشباع.

ثم غادرنا المكان وأدركت في تلك اللحظة أننا جئنا في سيارتين فاخرتين. وعند عودتنا إلى مدريد، أُحبطَت خطتنا لتناول عشاء بارد خفيف في منتصف الليل، وظهر طيف الطعام أمامنا مرة أخرى بواقعيته المريعة والمحتومة.

قلت: "لنبدأ بتناول بعض الشراب، نحن لسنا على عجلة. وسنرى بعد ذلك".

كان هذا ضرورياً ومنطقياً لأن النبيذ في المزرعة كان رديئاً، وكنت قد أكلت الأرنب كمرافقة للماء فقط. وتناولت ثلاثة كؤوس مارتيني، ومع اقتراب نهاية الكأس الثالث، شعرت بشكل واضح أن أسطورتي بارسيفال على وشك أن تبدأ.

كانت لدي خطة. نهضت بذريعة الذهاب إلى المرحاض، وغادرت بهدوء من باب آخر. ثم تنفست هواء الحرية بعمق، وشعرت بإثارة متعة الشعور أنني أصبحت ثانية وحدي فجأة. كانت لدي خطة مذهلة لتلك الليلة، وسميت خطتي هذه "بارسيفال". ثم أخذت سيارة أجرة أحضرتني إلى المسكن الطلابي، طلبت من السائق الانتظار. وكنت أحتاج إلى ساعة فقط. تطلبت خطتي "بارسيفال" أن أجعل نفسي وسيماً جداً. أخذت حماماً طويلاً، حلقت ذقني ليصبح ناعماً، وسدلت شعري قدر الإمكان بأن وضعت عليه ورنيش الرسمِ ثانية! وكنت أعرف إزعاجات الأمر، حتى أنه سيخرب شعري قليلاً، لكن خطتي بارسيفال كانت تستحق هذه التضحية، وأكثر منها! وضعت مسحوق الرصاص حول عيني، جعلني هذا أبدو مذهلاً بطريقة "التانغو الأرجنتيني". وبدا لي رودولف فالانتينو في ذلك الوقت النموذج البدئي للجمال الرجولي. وارتديت سروالاً بلون قشدي شاحب جداً، وسترة بلون رمادي أوكسفود. أما بالنسبة إلى القميص، فكانت لدي فكرة بدا لي أنها تضع اللمسة الحاسمة لأناقة ملابسي. كان القميص من الحرير الخام، حرير ناعم كقشرة بصل، وشفاف للغاية بحيث

أنه عند إمعان النظر، يمكن للمرء أن يرى من خلاله النسر الإمبراطوري الأسود المحدد جيداً للشعر النابت وسط صدري. لكن حدود الشعر كانت واضحة أكثر مما ينبغي. فخلعت قميصي الذي كان مكوياً حديثاً، وعصرته بين يدي، وطويته وضغطه ليصبح كتلة في قبضتي المغلقتين. وضعت هذه الكتلة من الحرير المجعد تحت صندوقي وجلست فوقه لأسحقها أكثر. وقد كان الشكل المجعد الناتج مذهلاً جداً، خاصة عندما ارتديته وثبت الياقة البيضاء الناصعة التي لا تزال صلبة وناعمة.

وبعد أن انتهيت من ارتداء ملابسي، قفزت إلى سيارة الأجرة من جديد، وتوقفت لشراء زهرة غاردينيا قام البائع بتثبيتها على طيّة سترتي، ثم أعطيت السائق عنوات "الفلوريدا" وهي صالة رقص أنيقة لم أزرها بعد، لكنني كنت أعرف أن روادها هم من نخبة سكان مدريد. كنت أنوي تناول العشاء هناك بمفردي، وأن أختار بعناية فائقة المادة الأنثوية الضرورية من بين أجمل الجميلات اللواتي ترتدين أفخم الملابس، كي أنفّذ، مهما حصل، ذلك الشيء الجنوني الذي لا يقاوم، ذلك الشيء الذي يكاد يكون خالياً من الإحساس لكنه مرهق بإيروتيكية مسحورة، ذلك الشيء الذي يثير الجنون، والذي سميته منذ اليوم السابق بارسيفال خاصتي!

لم أكن أعرف أين تقع صالة فلوريدا، وكل مرة كان السائق يبطئ، كنت أعتقد أنني قد وصلت، وازداد قلقي وأصبح معذباً جداً بحيث إنه جعلني أغمض عيني. غنيت بارسيفال بأعلى صوتي. رباه، ستكون ليلة مميزة جداً! كنت أعرف ذلك، وكنت سأتقدم في السن عشر سنوات.

كان تأثير كؤوس المارتيني الثلاثة قد اختفى تماماً وأصبح دماغي ينشغل بأفكار عميقة وقوية. وكان خبثي يفقد حدّته مع الكحول الذي كنت "ضده" نظرياً. إنه يشوش كل شيء ويطلق العنان بالكامل للذاتية والعاطفية. وبعد ذلك لا يتذكّر المرء شيئاً – وإن تذكّر، يكون الأمر أسوأ! إن كل ما يفكر به المرء في حالة الثمل، يبدو أنه يتمتع بلمسة عبقرية، وبعد ذلك يخجل به

المرء. إنه يساوي بين الأشياء ويجعلها متشابهة، كما أنه يزيل الشخصية. ولا يمكن إلا للكائنات العادية جداً والخالية من أية قيمة أن ترفع نفسها قليلاً بالكحول. يحمل الشخص الشرير والعبقري كحول عمره في خلايا دماغه.

ثم ترددت، هل سأنفذ خطتي بارسيفال مع الكحول أو بدونه؟ إن سماء مساء مدريد تعرف سحُب الزرقة المعدنية السامّة والمذهلة التي لا توجد إلا في لوحات باتينير، وأضيف الآن إلى الأرنب المسخن الذي تناولته في المزرعة، سمّ ذلك اللون المخضب بالزرقة للإبطين المنزوعي الشعرٍ اللذين كنت سأوجّه نشاطي إليهما هذا المساء، بأفكار محددة تماماً عن الموضوع في مؤخرة ذهني. واستفدت من موجات الصفاء الصغيرة التي تركها الثمل للحظات وجيزة في ذهني لأرتّب التفاصيل التي ستمكنني من تنفيذ هذا الحلم الإيروتيكي السامي الأصيل الذي جعل قلبي يخفق مثل ضربات مطرقة كلما فكرت به.

ولكي أحقق ما أردت فعله بشكل مُرض (وما لن يمنعني أي شيء من تحقيقه)، ولأحقق بارسيفالي، كنتُ بحًاجة إلى خمس نساء أنيقات وامرأة سادسة ستساعدنا في كل شيء. ولن أضطر أنا، ولا أيٌ منهن إلى خلع ملابسنا، وسيكون من الأفضل حتى أن يحافظن على قبعاتهن فوق رؤوسهن. كان الأمر المهمّ هو أن تكون هؤلاء النساء قد أزلن شعر إبطهنّ باستثناء اثنتين منهن. وكنت قد أحضرت مبلغاً كبيراً من المال رغم أنني كنت أؤمن بقدرتي الهائلة على الإغواء.

وصلت إلى فلوريدا– وصلت هناك أبكر مما يجب بكثير. جلست إلى طاولة، ونظرت حولي. كنت في مكان يسمح لي برؤية كل شيء، وكان ظهري متجهاً إلى الجدار، وهذا أمر لا غنى عنه[1]. وعدت إلى السؤال

[1] كان وجود منطقة فراغ خلف راسي تخلق دوماً في داخلي شعوراً مؤلماً بالقلق بحيث يصبح العمل مستحيلاً علي. لا يكفي الحاجب، كنت بحاجة إلى جدار حقيقي. إن كان الجدار سميكاً جداً، أعرف مقدماً أن عملي سينجح بشكل مؤكد.

نفسه حالاً: هل يجب أن أثمل كي أنفذ مغامرتي أم لا؟ أما بالنسبة إلى كل الإجراءات التمهيدية العملية- التواصل مع النساء، جعل كل منهن ترتاح مع الأخريات، العثور على "المكان" المناسب لحدوث الأمر (ربما دعوة بعض منهن إلى غرفة خاصة والطلب منهن تولي المسؤولية بالكامل كشريكات قبضن أجراً جيداً؟)- سيكون الكحول وسيلة ممتازة للتغلب على خجل اللحظات الأولى أثناء هذه الخطوات التمهيدية. لكن بعد ذلك - بعد ذلك سيحدث العكس تماماً. سأحتاج بعدها إلى عين حادة ترى كل شيء دفعة واحدة. وبعد ذلك، ومن لحظة بدء بارسيفال، سأحتاج صفاء الذهن وحدّة البصر كلها كي أحكم وأدين وأقرر ما بين الجحيم وبين مجد المواقف والمشاهد التي توشك أن تكون مقززة من جهة، لكنها من جهة أخرى، مرغوبة وجميلة ومهينة جداً لأبطال بارسيفال السبعة الذين كنت سأقودهم (لكن كيف!) قبل أن تتمكن ديكة الفجر بصياحها الأول المعذّب الصدئ، من إثارة عرف ديك الندم الأحمر المزين البغيض في مخيلاتنا السبع المستنزفة بسبب المتع الرهيبة.

كان رئيس الندل يقف أمامي، بانتظار أن أنهي حلمي النهاري.

"ماذا يريد السيد أن يتناول؟"

أجبت بدون أي تردد "أحضر لي أرنباً مع البصل- وليكن مسخناً!"

لكن بدل الأرنب المسخن تناولت ربع دجاجة عديمة النكهة وبائسة للغاية، مع زجاجة من الشمبانيا، تبعتها زجاجة أخرى. وبينما كنت أتناول جناح الدجاجة، بدأ الناس يتوافدون. وحتى ذلك الحين، لم يكن في "علبة الليل" الكبيرة هذه إلا أنا والعاملين فيها والأوركسترا، وثنائي راقص محترف مثّل مشهد رقصتهما حالة شجار. وبنظرة خاطفة، حذفت احتمال استخدام الفتاة الراقصة مدركاً أنها لا تثير لديّ أدنى اهتمام. ولم تكن مناسبة للبارسيفال إطلاقاً: كانت أجمل مما ينبغي، ومعافاة بشكل مريع وغير مرغوب، وتفتقد بشدّة إلى "الأناقة".

لم ألتق مرة في حياتي بامرأة جميلة جداً وأنيقة جداً في الوقت نفسه، وكأن كل من هذين الأمرين ينفي الآخر وفق تعريفه. لدى المرأة الأنيقة، ثمة دوماً تسوية مدروسة بين بشاعتها التي يجب أن تكون معتدلة، وجمالها الذي يجب أن يكون "واضحاً"، لكنه واضح وحسب من دون أن يتجاوز هذا المعيار الدقيق. ويمكن للمرأة الأنيقة، بل وعليها أن تتدبر أمرها من دون جمال الوجه الذي يشبه وميضه المستمر نداء بوق ملحّ. ومن جهة أخرى، إن كان لا بدّ أن يمتلك وجه المرأة الأنيقة حصّته الدقيقة من البشاعة والتعب واختلال التوازن (الذي سيدخل مع غرور "أناقتها" فئة التهكّم الجسدي الجليلة المثيرة للاهتمام)، فسيكون على المرأة الأنيقة بالضرورة وبشكل حتمي، أن تمتلك يدين وذراعين وقدمين وإبطين جميلين بشكل خلاّب وجديرين بالعرض قدر الإمكان.

لا يشكل الثديان أية أهمية لدى المرأة الأنيقة، وهما لا يُحتسبان إطلاقاً. إن كانا جميلين، فهذا أفضل، وإن كانا بشعين، فهذا أسوأ! أما في بقية جسدها، فأميز شيئاً واحداً فقط يجعلها قادرة على دخول فئة الأناقة التي نتحدث عنها- هذا الشيء الوحيد هو تشكيلة مميزة لعظمي الورك اللذين يجب أن يكونا بارزين جداً- مدببين إن جاز التعبير- بحيث يميز المرء وجودهما، تحت أي ثوب ترتديه: يجب أن يكونا حاضرين وعدوانيين. أتظنون أن خط الكتفين ذو أهمية كبيرة؟ هذا ليس صحيحاً. أترك الحرية الكاملة لهذا الخط، ومهما أثار اضطرابي، وبأية طريقة، سأبقى ممتناً له.

أما نظرات العينين وتعبيراتهما فهي مهمة جداً جداً، ويجب أن تكون النظرات ذكية للغاية، أو تبدو أنها كذلك. والشيء الذي لا يمكن تصوره هو امرأة أنيقة ذات تعابير غبية، ومن جهة أخرى، لا شيء مناسب أكثر من امرأة ذات جمال مثالي وتعابير غبية. إن تمثال "فينوس" الذي نحته "ميلو" هو المثال الأوضح على هذا الأمر.

ويفضّل أن يكون ثغر المرأة الأنيقة "كريهاً" ومنفّراً. لكن فجأة كما لو أنها معجزة، سواء أكان مع الاقتراب من النشوة أو عندما يُصبح نصف مفتوح استجابة إلى خيار ما ورغبة نادرة لروحها، يجب أن يكون قادراً على اكتساب تعبير ملائكي يجعلها غريبة بالنسبة إليك لحظياً.

أما بالنسبة إلى أنف المرأة الأنيقة... لا تملك النساء الأنيقات أنوفاً! إن الأنوف الجميلة هي للنساء الجميلات. ويجب أن يكون شعر المرأة الأنيقة معافى، وهو الشيء الوحيد في المرأة الأنيقة الذي يجب أن يكون معافى. والأكثر من ذلك، يجب أن تخضع المرأة الأنيقة كلياً لطغيان أناقتها وأثوابها وجواهرها، وبينما تكون هذه هي السبب الوحيد لوجودها، يجب أن تكون أيضاً السبب الوحيد لاستنزافها وإنهاكها.

لهذا تكون المرأة الأنيقة قوية في شغفها العاطفي، ولا تستثار إلا قليلاً في حبها، وهذا بالتحديد، السبب الذي يجعل الإيروتيكية الجريئة النهمة المصقولة وغير العاطفية، هي النوع الوحيد من الإيروتيكية التي تتعلّق بفخامتها بفخامة، كما تتعلق فخامة أثوابها وجواهرها بإرهاق بالجسد الفخم المصنوع فقط ليسيء إليها ويرتديها بفخامة الترفع الفائقة.

هذا ما كنت أريده- ترفع لامبال وثري وفخم، لأنني كي أتمكن من تنفيذ "بارسيفالي" كان علي العثور، هذا المساء تحديداً، على ست نساء أنيقات مترفعات.

بالضبط، يمكنهن طاعتي حرفياً من دون أن يفقدن أعرافهن الجليدية، ومن دون أن يدعن الغشاوة أو العاطفة الإيروتيكية تأتي وتغطي فخامة وجوههنّ بالضباب، ستة وجوه قادرة على اختبار المتعة بشراسة، لكن بترفع. 210

وبعينين مفتوحتين، وحدقتين متسعتين، نظرت حولي نافد الصبر من دون أن يتمكن أي شيء من لفت انتباهي بشكل حاسم، لأنه لم تكن هناك أية امرأة أنيقة، وكانت هناك الكثير من النساء الجميلات. لقد نفد

صبري. لكنني مع معرفتي بأنني لا أستطيع الاعتماد على توافد الناس المستمرّ إلى "علبة الليل" المزدحمة هذه، بدأت أقدم تنازلات ومقارنات كي أختار مما هو مُتاح. وشعرت بأنني أستطيع في المرة الأولى هذه، أن أرضى ببارسيفال "تقريبية". لكنني كنت أعرف في الوقت نفسه أنه ليس ثمة ما هو أسوأ من "الأناقة التقريبية". هل يوجد شيء كهذا حتى؟ يشبه ذلك أن يقول لك شخص ما إن الدواءٍ حلو "تقريباً"، ليشجعك على تناوله! فجأة، دخلت امرأتان أنيقتان معاً، وشاءت محاسن الصدف أن تجلسا وحدهما إلى طاولة بقيت شاغرة ليست بعيدة جداً عن طاولتي. وكانتا كما أريد بالضبط. كنت أحتاج إلى أربع إضافيات منهن! لكن بما أنني لم أعثر عليهن، عدت إلى مراقبة بطلتي قصتي. وكان الشيء الوحيد الذي لم أستطع الحكم عليه لديهما هو أقدامهما التي لا يمكن أن تكون إلا رائعة، ما لم يكن هناك غياب للتوافق في تشريح جسديهما، واعتقدت أن هذا غير معقول. وكانت يدي كل منهما تنافس يدا الأخرى في الجمال، وكانت الأيدي الأربع متقاطعة في عقدة متشابكة شكلتها المرأتان ببرودة تهكمية جعلتني أرتعش.

لقد جعلتني زجاجة الشمبانيا الثانية ثملاً باعتدال، وتجاوزت أفكاري الأخاديد التي وضعتها في خطتي والتي حاولت عبثاً إجبارها على العودة إليها والبقاء هناك. ومع استيائي من تشتت الأفكار الذي بدأ يثير الاضطراب في إحساسي بالترتيب والاستمرارية، قلت لنفسي:

"اسمع! إما أن تكون دالي أو لست دالي. هيا! كن جدياً. أنت تخاطر بتدمير بارسيفالك الخاصة. انظر إلى هناك، هل هذا معصم أنيق؟ نعم، لكن من الضروري أن يترافق مع ثغر مختلف. ها هو ذا! ثغر مناسب له. معصم، ثغر، ثغر، معصم... إن استطاع المرء جمع الكائنات بهذه الطريقة- في الواقع، يستطيع المرء فعلاً جمعها معاً... لم لا تحاول! اختر بعناية قبل أن تبدأ. تمالك نفسك. لنر هل سيعجبك

ذلك؟ لقد عثرت بالفعل على إبط أنيق أو ثلاثة. انظر إليها جيداً، انظر إليها بالتتابع، وبعد ذلك، من دون النظر إلى أي شيء آخر، انقل نظرتك إلى ذلك التعبير البارد، ثم إلى الثغر، وعلى الأكثر ترفعاً من الاثنين الذي اخترته بالفعل...

"لنتابع بانتظام: انظر إلى إبط، إبط آخر، والآن إلى الفم بسرعة– لكنك نسيت الإبط الثاني، لذا ابدأ من جديد وانتبه... أنت ترى الإبط بوضوح، صحيح؟ أوه نعم، كم هو أنيق وناعم! هذا هو الإبط، الإبط، الإبط الناعم. انظر إلى التعبير– التعبير.. الفم.... كرر من جديد بشكل أبطأ– الفم، التعبير، الإبط، الإبط.. مرة أخرى، وأطل النظر إلى التعبير– الإبط، التعبير، التعبير، التعبير، التعبير، التعبير، عد إلى الإبط، عد إلى التعبير... أطول قليلاً على الإبط هذه المرة، والآن أسرع... الإبط، التعبير، التعبير، الإبط، الإبط، الإبط، الإبط، الإبط، التعبير، الفم، التعبير، الفم، التعبير، التعبير، الفم، التعبير، الفم، التعبير، الفم، التعبير، الفم ..."

كان رأسي يدور وراودتني رغبة بالتقيؤ لا يمكن أن تلتبس هذه المرة مع الإحساس الرقيق واللايقيني "للشعور بالوقوع في الحب" جعلتني أنهض بسلسلة مضبوطة من الحركات. وسألت بتهذيب فتاة تبيع السجائر ترتدي زي غلام للملك لويس الرابع عشر عن مكان غرفة الملابس. وأومأت إلي بإشارة لم أرها، ودخلت غرفة كان فيها مكتب مغطى برسائل وأوراق مطبوعة. تمالكت نفسي بأن وضعت راحتي يدي الاثنتين على هذه الطاولة وتقيأت بغزارة. وبعد ذلك أخذت بعض الأنفاس، وأنا أعرف أن الأمر لم ينقض بعد، وأن طقس "تقيؤ كل شيء" كان قد بدأ للتو. كانت بائعة السجائر التي ترتدي زي غلام الملك لويس الرابع عشر قد تبعتني وبقيت تراقبني بدون حراك في المدخل. فالتفت إليها، ووضعت ورقة خمسين بيزيتا في صينية سجائرها، وقلت لها متوسلاً "دعيني أنتهي!" وعندما أقفلت الباب خلفي، التفتُ إلى الطاولة مجدداً، وبالخطوة العازمة

المهيبة لشخص يوشك أن ينتحر بطريقة الهـارا كـيري، وضـعت راحـتي يدي على سطحها مرة أخرى بطريقة مطابقة لما فعلته مـن قبـل، وتقيـأت ثانية بغزارة أكبر. كنت نصف واعٍ، وكانت مذاقات روحي كلها الممزوجة مع مذاقات أحشائي كلها، تخرج من فمي.

وأثناء ذلك، عشت تجربة يـومي العربـدة الماضـيين مـن جديـد، لكـن بشكل معكوس ومشوش كما لو أنني بدأت هذين اليومين من جديد بشكل معكوس، مختبراً بشكل عمليّ المقولة المسيحية: "الأخـير سـيكون الأول". كان كل شـيء هنـاك: الأرنـب المسـخن، الإبطـان الرقيقـان، المعصـمان، السحب الباتينيرية، وجزء من إبط رقيـق مـرة أخـرى، وقطعـة مـن سـاق دجاجـة مـرة أخـرى، والتعـبير البـارد، والأرنـب المسـخن مـرة أخـرى، التعبير، التعبير البارد، الأرنب المسخن، الإبط الرقيق، الأرنـب المسـخن، الفطـر، الزيتـون، الملكيـة، الفوضـى، الأنشـوفة، المعكرونـة، شـراب الشـارتروز، المعكرونـة، السـلطعونات المسـخنة، الأرنـب المسـخن، الشـارتروز، السـلطعونات المسـخنة، الشـارتروز، الأرنـب المسـخن، السـلطعونات، الآبـاط، المعكرونـة، الفيرمونـت، المسـخن، الفيرمونـت، الفيرمونـت المسـخن المسـخن، الفيرمونـت، سـائل الصـفراء، المسـخن، الفيرمونت، سائل الصفراء، المسخن، الفيرمونت، سائل الصـفراء، سـائل الصفراء، السلطعونات، سـائل الصـفراء، السـلطعونات، المسـخن، سـائل الصـفراء، المسـخن، سـائل الصـفراء، المسـخن، سـائل الصـفراء، سـائل الصفراء، سائل الصفراء، سائل الصفراء، سائل الصفراء، الأرنب المسخن، الأرنب المسخن، سائل الصفراء، سائل الصـفراء، سـائل الصـفراء، سـائل الصفراء، سائل الصفراء، سائل الصفراء، سائل الصفراء، الأرنب المسخن، الفيرمونت، سائل الصفراء، سائل الصـفراء، سـائل الصـفراء، المعكرونـة، سائل الصفراء، السـلطعونات، سـائل الصـفراء، الأرنـب المسـخن، سـائل الصفراء، سائل الصفراء، سائل الصفراء، السلطعونات، سائل الصفراء!

مسحت العرق عن جبيني والدموع التي ذرفتها من دون بكاء، والتي انسكبت على خديّ- كان من الضروري أن يخرج كل شيء. كل شيء من الملكية الفوضوية المطلقة إلى آخر دافعات "بارسيفال" الحنينية والسامية والمرثية.

أمضيت اليوم التالي في السرير أشرب عصير الليمون، وفي اليوم الذي تلاه ذهبت إلى أكاديمية الفنون الجميلة في الساعة المعتادة، ليتم طردي من الكلية في المساء التالي. عندما وصلت وجدت مجموعة من الطلاب يومئون ويصيحون، وأطبق علي شعور اقتراب الكارثة. لو كان بوسعي أن أتذكر مشهد حرق العلم في فيغوراس لشككت بما آلت إليه الأمور، لأنني كنت ضحية للأسطورة التي نشرت هالتها حولي مرة أخرى. إن القارئ النبيه لهذا الكتاب، والذي يريد أن يحصل على استنتاجات تحليلية منه، سيكون قد لاحظ ما أجبرت نفسي على الانتباه إليه من خلال كتابته فقط- وهو تحديداً، أنه بالإمكان تلخيص تطور ذهني وشخصيتي دوماً ببضع أساطير أساسية خاصة بي، لذا تتكرر أحداث حياتي وتأخذ شكل مواضيع محدودة لكنها محددة ولا يمكن الخطأ بها. كلما حدث شيء في حياتي يتعلق بحبة كرز، أو عكاز، يمكنك التأكد أنني لن أتوقف هناك. ستحدث الأحداث، مهما كانت جديدة، وعدوانية أو عادية أو سامية، بشكل مرتبط بالكرز وبالعكازات طوال حياتي إلى أن أموت.

لو أنني عرفت هذا لكان بوسعي التنبؤ، بعد المرة الأولى التي طُردت فيها من المدرسة، أنه لن يكون حدثاً مبتذلاً وبسيطاً ومعزولاً كما يحدث مع الأرواح المفتقدة لإلهام جنون الارتياب، التي تهرب من دون ألم أو مجد، من المبادئ المنهجية التي يجب أن تحكم كل مصير جدير بالعظمة. لكن بالعودة إلى مجموعة المتمردين الذين صادفتهم في باحة أكاديمية الفنون الجميلة- هذه المجموعة نفسها، عندما رأوني أقترب، أحاطوا بي واعتبروني آلياً شاهداً على التمرد ونصيراً وعلماً له.

ماذا كانت مناسبة هذا التمرد؟ كنتُ قد أُعلمت أنه سيكون هناك امتحان لملء شاغر منصب أستاذ الرسم في الأكاديمية، وسيأتي عدة رسامين مشهورين للمنافسة على المنصب، بما أنه الصف الأكثر أهمية. كانت اللوحات التي شكّلت الجزء العملي من الامتحان قد عُرضت للتو، وكان على كل مشارك أن يرسم لوحة لموضوعٍ من اختياره، ولوحة لموضوع مطلوب. بدت كل اللوحات عادية جداً، باستثناء لوحات "دانييل فاسكيز دياز" التي كانت تتوافق بالضبط مع ما كان يسمى حينها "ما بعد الانطباعية". لقد كانت البذرة التي رميتها بلامبالاة بين طلاب الكلية في طور الإنبات، وقلّة منهم -الأكثر نشاطاً وموهبة- أصبحوا متحمسين فجأة "لفاسكيز دياز" الذي تأثر بها من دون أن يصل إلى التكعيبية، ولذلك تمكن الناس، من خلاله، من تقبّل ما لم يكونوا مستعدين حتى لأخذه بعين الاعتبار عندما صدر عني.

وبالتالي كان لا بدّ أن أكون نصيراً "لفاسكيز دياز" وفقاً لرأي المتمردين، وغضب أصدقائي لأنهم كانوا متأكدين أنه سيحدث جور وسيتم استخدام النفوذ لمنح المنصب لشخص لا يستحقه إطلاقاً. ذهبت مع زملائي الطلبة لمشاهدة المعرض، ووافقتهم الرأي للمرة الأولى. لم يكن هناك أدنى شك، على الرغم من أنني في قلبي لم أرغب بأي من هؤلاء أستاذاً لي في مادة الرسم. وكنت أفضّلُ أكاديمياً عجوزاً حقيقياً. لكن هذه الفئة من الناس قد اختفت وأبيدت بالكامل. وبما أنه كان علي أن أختار، أعطيت صوتي "لفاسكيز دياز" من دون أي تحفظ.

في عصر ذلك اليوم، وبعد أن شرح كلٌ منهم أفكاره التربوية (المتنافس الذكي الوحيد بينهم كان فاسكيز ديان) انسحب الأكاديميون للتداول. وعندما اجتمعوا من جديد على المنصة وأعلنوا الحكم الذي كنا نتوقعه جميعاً، مرتكبين بهذا أحد أعمال الجور والحوادث البغيضة الألف التي حيكت منها تلك الحقبة من التاريخ الإسباني، نهضتُ

كإشارة احتجاج، وغادرت القاعة قبل أن يكمل رئيس المحكمة وأحد أبرز الأكاديميين خطابه الختامي. انتظرني أفراد مجموعتي في تجمّع للكتاب الجمهوريين الذي يقام عصر كل يوم في مقهى وحانة ريجينا، وكان بشكل أو بآخر تحت سيطرة "مانويل أزانيا" الذي أصبح بعد سنوات رئيس الجمهورية الإسبانية.

في اليوم التالي، عندما عدت إلى الكلية، كان جو من الذعر يسيطر على زملائي الطلبة، وأخبروني أنني سأُطرد بسبب حادثة اليوم السابق. لم آخذ الأمر بجدية، لأنني كنت أعرف أنه من المستحيل اتخاذ إجراء كهذا انتقاماً لمجرد الخروج من القاعة أثناء خطاب الرئيس. وكانت مبادرتي، رغم أنه من الواضح أنها مبادرة احتجاج، قد بقيت ضمن حدود التهذيب، بما أنني لم أقاطع الرئيس ولم أطبق الباب بعنف عند خروجي. لكنني، ببراءتي، لم أكن مدركاً إلى هذا الأمر لم يكن سبب الاضطراب. وتبين أنه بعد رحيلي، بدأ طالبان يدعمان فاسكيز دياز بمقاطعة خطاب الأكاديمي بإهانات وشتائم، وتحوّلت كلماتهما إلى أفعال، وضايقا الأكاديميين إلى أن أجبروا على الهرب والاختباء في صف الرسم. وأوشك الطلاب على تحطيم الباب باستخدام مقعد، عندما دخل رجال شرطة الخيال إلى الباحة ونجحوا بعد قليل بإنقاذ الأكاديميين المرتعدين.

كنت أنا هو القائد المعنوي الواضح لهذه العقلية. وعلى الرغم من أنني لم أكن حاضراً أثناء الاضطراب، وضعوا اسمي على لائحة المتمردين بما أنني أصبحت متعاوناً معهم بشكل فعّال منذ لحظة خروجي التي تم تفسيرها على أنها إشارة لبدء التمرد. وحاولت عبثاً شرح براءتي. ثم تم فصلي لمدة سنة من أكاديمية الفنون الجميلة، وبعد أن أكد مجلس التأديب فصلي عدت إلى فيغوراس.

ولم يكن قد انقضى على عودتي إلى المنزل إلا وقت قصير عندما أخذني الحرس المدني إلى سجن فيغوراس. وبعد شهر، تم نقلي إلى

سجن غيرونا، وأُطلق سراحي أخيراً من دون العثور على تهم كافية لمحاكمتي. كنت قد وصلت إلى كاتالونيا في وقت سيئ. وكان الجنرال "بريمو دي ريفيرا" قد قمع للتو نهضة ثورية في غاية التصميم، وكان هو والد "خوزيه أنتونيو" المؤسس المستقبلي للكتائب الإسبانية. كانت الانتخابات قد تمت للتو، وامتص الهيجان السياسي الشديد النشاطات كلها. كان جميع أصدقاء طفولتي المقربين في فيغوراس قد أصبحوا ثوريين، واضطر أبي، مكملاً وظائفه التوثيقية الصارمة، إلى الشهادة بشأن الإساءات التي ارتكبها عناصر معينة من اليمين خلال الانتخابات. كنت قد وصلت للتو، وكان وصولي ملحوظاً أكثر من ذي قبل. وكنت أتحدث دوماً عن الفوضى والملكية، وأربطهما معاً عمداً. ومن هذا الخليط من الظروف التي لا يمكن إلا لوالدي أن يرويها بشكل كافٍ ودقيق، تمت حادثة سجني العشوائي التي لم يكن لها عواقب سوى إضافة لون حيوي إلى سلسلة قصص حياتي الملونة بشدة.

وقد أسعدتني فترة السجن بشكل كبير. كنت طبعاً بين السجناء السياسيين الذين أمطرنا أصدقاؤهم وزملاؤهم وأقاربهم بالهدايا. وكنا نشرب شمبانيا محلية رديئة جداً كل مساء. وكنت قد استأنفت كتابة "برج بابل" وأعيد عيش تجربة مدريد، وأشتق عواقب فلسفية لكل حادثة وكل تفصيل. لقد كنت سعيداً لأنني كنت قد أعدت للتو اكتشاف مشهد سهل أمبوردان، وأثناء النظر إلى هذا المشهد من خلال قضبان سجن غيرونا، أدركت أنني نجحت أخيراً في التقدم قليلاً في السن. كان هذا كل ما تمنيته، ولعدة أيام، كان كل ما تمنيته هو أن أستخلص أشياء من تجربة مدريد. كان أمراً لطيفاً أن أشعر أنني أصبحت أكبر سناً بقليل، وأن أكون في "سجن حقيقي" للمرة الأولى. وأخيراً، طوال هذه المدة، كان من الممكن لي أن أسمح لذهني بالاسترخاء.

الفصل التاسع

العودة إلى مدريد، الطرد الدائم من مدرسة الفنون الجميلة، الرحلة إلى باريس، اللقاء بـ غالا، بدايات الأنشودة الرعوية لروحي وقصة الحب الوحيدة، وتنكّر العائلة لي.

بعد أن تم إطلاق سراحي من سجن جيرونا، وصلت في اليوم ذاته إلى فيغوراس وقت العشاء، وأتذكر أنني تناولت الباذنجان كأي خضار أخرى. ثم ذهبت لحضور فيلم. وقد انتشر خبر إطلاق سراحي في البلدة كلها، واستقبلوني بحفاوة حقيقية عندما رأوني.

وبعد عدة أيام رجعنا إلى كادكويز، وعدت إلى "حالة زهدي" مرة أخرى، ووهبت نفسي جسدياً وروحياً للرسم ولبحثي الفلسفي. أوضحت ذكرياتي عن فسوقي في مدريد، خطورة عاداتي الجديدة ومنحتها لسمة كياسة مناسبة لشخص كان وللحظة ما، يُمسك الطائر النابض لتجربة حيوية غريبة وحديثة. والأهم من ذلك، عرفت أنني عائد إلى مدريد ما إن تنتهي الفترة التأديبية. وعندئذٍ سوف أحظى بالفرصة الملائمة لإتمام تجارب من هذا النوع. لكن الآن، **كلما** نهضتُ باكراً أكثر، **استطعت** أن ألطّخ أوراقي بحيوية أكبر لأنقل إليها التدفق الأساسي لأفكاري، **وأصبحت** أكثر قدرة على مقاومة إغواءات جسدي، **واستطعت** توجيه طاقتي الجنسية، وتركتها تضخّم القوى القتالية

المتصارعة، وتحافظ على انتصارها في حرب الذكاء الصليبية التي ستقودني يوماً إلى غزو مملكة روحي. وكلما كنت أكثر قدرة على إفقار نفسي وإنكار جسدي، شخت بسرعة أكبر.

وفي نهاية ذلك الصيف الحار جداً، أصبحت نحيلاً مثل هيكل عظمي. وقد غاب جسدي عن شخصيتي وكما يُقال: شعرت بنفسي أتحول إلى أحد شخصيات "Hieronymus Bosch – هيرونيموس بوش" التي كان "فيليب الثاني" مغرماً بها بشغف. كنت في الواقع نوعاً من الوحوش التي تتألفُ أجزاؤها التشريحية من عين واحدة ويدٍ ودماغ فقط.

كان لدى عائلتي عادة قديمة تقوم على احتساء القهوة بعد وجبة غداء يوم الأحد، يليها ارتشاف نصف كأس من البراندي. وقد احترمت هذا الحدّ دوماً. لكن في إحدى المرات، في بعد ظهر هادئ امتزجت فيه السماء والبحر بما يسميه السكان الأصليون "الهدوء الأبيض"، قمت بشكل آلي بملء كأسي إلى الحافة، بل حتى انسكب بعضه على غطاء طاولة الطعام، وصرخ والدي محذّراً: "ما الذي تفعله؟ ألا تعرف أن هذا مشروب قوي؟ متظاهراً بأنني أدركت التهوّر الذي ارتكبته للتو، أعدتُ نصف كأسي إلى زجاجة البراندي.

ثم استرخى والدي ليستمتع بقيلولته الاعتيادية. أما بالنسبة لي — من يعرف بماذا كنت أفكر؟ ... لكن كما في حالة "Parsifal – بارسيفال"، من الأفضل أن أحتفظ ببعض الأسرار بعيداً عن قرائي، لأنها ستكون مفيدة من أجل إصدار جديد مستقبلي لهذا الكتاب — نسخة معدّلة تحتوي إضافات. وإن كان جديراً بالتقدير أن أعرض جسدي وروحي بهذا التفصيل، كي أشبع فضول المعاصرين لي عبر تقديم وثيقة فريدة من نوعها في التحقيق العلمي والبحث، فإن من المنطقي تماماً بالنسبة لي، أن أتوقع مشاكل تجارية مستقبلية متأصلة في مسألة كهذه، بينما أستغلّ الفرصة الحالية بلباقة وحكمة لأطرحها على العلن.

عندما انتهت فترة التأديب، عدت إلى مدريد حيث انتظرتني مجموعتي بنفاد صبر واعترفت بأنه من دوني "لن تكون الأمور كما تكون عادة معي". وكان الجميع مشوشين ميتين تائهين من المجاعة الخيالية التي كنت وحدي قادراً على التصالح معها. لقد كنت مدللاً هناك، وكنت موضع عناية وتهليل، وكنت المعبود الذي يفعلون من أجله أي شيء. كانوا يشترون لي الأحذية وربطات العنق، ويحجزون الأماكن لي في المسارح، ويوضبون حقائبي، ويعتنون بصحتي ومزاجي، ويتقدمون كفصائل الخيالة ليتغلبوا على كل التنانين العملية التي تقف في طريق أكثر خيالاتي استحالة.

لم يقدّم لي والدي منذ تجربة السنة الأولى سوى مبلغ شهري متواضع لا يتناسب مع نمط الحياة الذي تتطلبه طريقة حياتي العربيدية المتفشية. لكنه استمرّ بدفع فواتيري كما في السابق. وليس صعباً على القراء أن يفهموا أنه بالنسبة لي لم يكن هناك أي فرق. والأهم من ذلك أن مجموعتي قد ساعدتني مادياً في تلك الفترة. وكان لكل شخص طريقته الخاصة في الحصول على مبلغ المال المطلوب عندما يتطلّب الوضع ذلك. قد يعمد أحدهم إلى رهن خاتم أو جوهرة ثمينة أهداها الأهل له، ويعمد آخر بطريقة عجيبة إلى رهن قطعة كبيرة من عقار لم يرثه بعد، وأخر يبيع سيارة ليتحمّل مصاريف حياتنا ليومين أو ثلاثة. كما كنا نستغلّ الهالة المضيئة "لأبناء الطبقة الغنيّة" المحيطين بنا لنستدين المال من أشخاص غير معقولين. وكنا نعدّ قائمة تفصيلية عنهم بعد أن نجري قُرعة. ويُفترض بكل واحد منا أن يطلب من شخص مختلف. وكان أحدنا يذهب إلى المقهى الذي ترتاده ضحيتنا عادة أو يصعد إلى شقته، وإن لم يحالفنا النجاح، نحاول مع شخص آخر. وكنا مع نهاية اليوم نحصل معاً على مبلغ جيد، وأكبر حتى مما كنا نأمل به. وتُعتبر هذه صفقة جيدة من وجهة نظر طمعنا الذي لا يشبع. ومن وقت لآخر، كنا نعيد المال للأشخاص الذين أعطونا

مبالغ كبيرة مما يسهّل علينا أن نطلب منهم مرّة أخرى. وبهذا خلقنا شيئاً من الثقة التي كانت تفشل لاحقاً عاجلاً أم آجلاً، لأن الجزء الأعظم من قروضنا الكبيرة كانت تُسدد في موعدها عن طريق أهلنا الذين تصلهم مطالبات التسديد كوابل المطر بعد أن ينفد صبر الدائنين ويفقدوا الأمل. لكن الضحايا الحقيقيين كانوا من أكثر أصدقائنا تواضعاً وكرماً، والذين لم يقدموا المال لنا بسبب الثقة التي ألهمناهم بها، بل بسبب التعاطف والمودّة والإعجاب الذي ولّدته لديهم تصرّفاتنا الذكية. ولكي نجعلهم يدفعون بمودّة أثناء محادثتنا، كنا نمثّل دوراً معيناً لا نرتقي فيه عن الأدوار التمثيلة الرخيصة وكنت أصرخ بعد أن أستلم مبلغاً مالياً منهم: "لقد تمت سرقتنا!". "تلك الملاحظة التي أدليت بها حول الواقعية والكاثوليكية، تستحق وحدها خمسة أضعاف هذا المبلغ!" وكان أسوأ ما في الأمر أنني كنت مقتنعاً فعلاً بنزاهة تصرفاتنا، ولم يكن لدينا أي رادع.

وفي إحدى الأمسيات كنت أنا ضحية فنان عبّر عن كامل إعجابه بعملي. وفتح لي قلبه بسذاجة ودون أي تحفظ كاشفاً عن قصته العامرة بالفقر الروحي الذي ينافس فقره المادي. وبدا مقتنعاً بعد أن روى قصته، بأنه يستطيع تحقيق تواصل بالأفكار على الأقل، إن لم يكن تواصلاً مثالياً بالروح، أو ربما يستطيع تحقيق تبادل بالمشاعر التي لن تجلب الكثير من الضوء لروحه المضطربة، لكنها تواسيه على الأقل من خلال فهمي لعذاباته الكثيرة، بحيث يستطيع إن توافقت مشاعري الرثائية معه، أن يطلب مساعدة مالية صغيرة.

وقال عندما وصل أخيراً إلى نهاية قصته والدموع تنسكب من عينيه، وتغمره الكآبة من صمتي الطويل الخالي من التعبير: "هكذا كان الحال معي! كيف كان الحال معك؟"

"معي أنا؟ أنا أضع سعراً عالياً جداً". وقد أجبته بهدوء بينما كنت أنظر إلى أحد أبراج "قصر الاتصالات" في مدريد، والذي أذكر أن إحدى

نوافذه فُتِحت في تلك اللحظة تماماً، وأُلقيت منها رزمة بيضاء راقبتها أثناء سقوطها.

والتفتُ بعدها نحو الرجل الذي لم يعلّق على ملاحظتي وكان وجهه متوارياً خلف منديل أبيض، وكان يبكي. لقد ضحيت به! وكان ضحية أخرى لعقلي المتزايد في الأناقة. وقد شعرت بدفقة من الشفقة وأوشكت أن أواسيه بطريقة أخوية. لكن جمالية موقفي فرضت عليّ أن أتصرف بشكل معاكس تماماً. وحتى تزداد الأمور سوءاً، نقلت لي الحالة المزرية لشخصيته "اشمئزازاً حقيقياً" من شأنه أن يوقف أي دفق دافئ.

وقلت له وأنا أضع يدي برفق على كتفه الغائر المغطى بخصلات شعره الأشبه بشعر جرذ:

لماذا لا تحاول أن تشنق نفسك؟.... أو الق بنفسك من على قمة برج؟"

وبينما تركته واقفاً هناك، فكرت بالرزمة البيضاء التي سقطت للتو من أحد نوافذ برج الاتصالات. هل كانت رواية "مالدورور[1]" الشعرية؟ لقد خيّم ظلّ هذه الرواية على حياتي وفي تلك الفترة أيضاً كان هناك ظل آخر يخيم علي وهو ظل فيديريكو غارسيا لوركا، الذي أتى وأظلم أصالة روحي وجسدي البكر.

لقد عرفت في تلك الفترة عدة نساء أنيقات، أرادت سخريتي البغيضة أن ترعى فوقهنّ العلف الإيروتيكي والأخلاقي. وتجنبتُ "لوركا" والمجموعة التي بدأت تصبح مجموعته بشكل متزايد. وكانت تلك الفترة لحظة ذروة تأثيره الخاص الذي لا يُقاوم – واللحظة الوحيدة التي أدركت فيها في حياتي كلها أن عذاب الغيرة موجود. وكنا أحياناً نسير مع

---

[1] "The Comte de Lautreamont" واسمه الأصلي كان "Isidore Ducasse - إيسيدوري دوكاسي" عاش بين عامي (1846 – 1870). وكتابه (Chants de Maldoror) رواية رائعة شاعرية مهيجة للأعصاب، كان لها تأثير كبير على السريالية. – ملاحظة المترجم إلى اللغة الإنكليزية.

المجموعة كلها على طول طريق "El Paseo de la Castellana" متجهين إلى المقهى الذي نعقد فيه اجتماعاتنا الثقافية عادة، والذي أعرف أن "لوركا" سيلمع فيه مثل ألماسة نارية مجنونة. وفجأة أنطلق راكضاً، ولا أسمح لأحد أن يراني لثلاثة أيام..... ولم يستطع أحد أن يفهم مني سبب هذا الهروب، ولا أنوي أن أكشف عنه الآن – على الآقل حتى الآن.....

أودّ أن أخبركم بأن أحد ألعابي المفضلة في ذلك الوقت هي أن أغمر "الأوراق النقدية" بالويسكي حتى تتفتت. يشتمل هذا التصرّف على طقوس معينة تصعق أولئك الذين يُصادف وجودهم. وقد أحببت أن أمارس هذه اللعبة بينما أجادل بجشع مهذّب حول سعر إحدى "demi-mondaines – النساء اللواتي ينتمين إلى طبقة مشكوك بها من الناحية الأخلاقية والمكانة الاجتماعية" المتواضعات اللواتي يعرضن أنفسهن عليك جسداً وروحاً قائلات: "امنحني أي شيء تريد!"

بعد مضي سنة من الفجور، استلمت إشعار طرد دائم من أكاديمية الفنون الجميلة. وفي هذه المرة، ظهرت القضية في إعلان رسمي في صحيفة "La Gaceta" كأمر موقّع من الملك، في 20 أكتوبر – تشرين الأول من عام 1926. وقصة هذه الحادثة تم تسجيلها بأمانة في واحدة من الحكايات التي اخترتها من قصصي الشخصية النادرة.

هذه المرة، لم يدهشني قرار "طردي" بأي شكل من الأشكال. وكانت أي لجنة من البروفسورات، في أي مكان في العالم ستفعل الشيء نفسه لدى الشعور بهذه الإهانة. كانت دوافعي الحقيقية التي أدّت إلى هذا التصرّف هي أنني أردت أن أنتهي من مدرسة الفنون الجميلة، ومن الحياة المعربدة في مدريد مرة واحدة وإلى الأبد. وأردت أن أُجبر على الهروب من كل ذلك وأن أعود إلى فيغوراس للعمل لمدة سنة، وبعدها سأحاول أن أقنع والدي بأن عليّ أن أكمل دراستي في باريس. وهناك، مع العمل الذي سأقوم به، سوف أحصل على القوة بالتأكيد!

لكن قبل أن أغادر مدريد أردت أن أستمتع بآخرٍ أمسية فيها وحدي. تمشيت عبر مئات الشوارع التي لم أرها من قبل أبداً. في فترة بعد الظهر، عصرتُ جوهر المدينة كله حتى آخر قطرة، حيث الناس والطبقة الأرستقراطية وعالم ما قبل التاريخ لم يعرف أي تحوّل. لقد أشرقت تحت ضوء أكتوبر — تشرين الأول الموجز الشفاف مثل عظام مقشّرة هائلة ملونة بشكل باهت بالوردي الدموي. وفي المساء ذهبت وجلست في الركن المفضل لي في نادي "ريكتور"، وشربتُ كأسين معتدلين من الويسكي على خلاف عادتي، ومع ذلك كنت أخر من يغادر. كما هاجمتني امرأة عجوز هزيلة ترتعش من الغضب، واضطهدتني بتسولها الملحّ، لكنني لم أكترث بها وتابعت طريقي. وعندما وصلت إلى "بنك إسبانيا"، ولا زالت العجوز تلاحقني، التقيت صدفة بامرأة جميلة جداً تبيع أزهار الغاردينيا، فأعطيتها مئة "بيزيتا" وأخذت كل ما تملك، وقدمتُ تلك الأزهار هدية للعجوز المتسوّلة التي بقيت لفترة طويلة جامدة بمكانها كتمثال من الملح. وبعد أن تابعت السير بضع دقائق، التفتُ حولي واستطعت بصعوبة أن أرى عبر ضوء القمر كتلة سوداء تتوسطها لطخة بيضاء، وكان ذلك كل ما استطعت رؤيته من سلّة أزهار الغاردينيا التي تركتها بين يديها — كانت يداها مليئتين بالعقد كساق الكرمة، ومغطاة بالقروح.

وفي اليوم التالي كنت كسولاً جداً ولم أحزم حقائبي، وغادرت بحقائب فارغة. تسبب وصولي المفاجئ إلى فيغوراس بحالة من الذعر لدى عائلتي: كنت مطروداً، وليس لديّ قميص نظيف كيٍ أستبدل ملابسي! يا الله، ماذا حدث لمستقبلي! ولكي أواسيهم جميعاً وجّهت كلامي إليهم قائلاً:

"أقسم لكم بأنني واثق من كوني حزمت كل حقائبي، لكن لا بدّ أنني ارتبكت في اللحظة الأخيرة" — كنت أشير إلى عودتي إلى البيت منذ سنتين.

ولدى وصولي إلى فيغوراس وجدت والدي مصعوقاً بكارثة طردي التي دمّرت كل أمل له بأن أنجح بمهنة رسمية. ووقف مع أختي كي أرسمهما بلوحة فحمية كانت واحدة من أكثر لوحاتي نجاحاً في تلك الفترة. كنت أستطيع أن أقرأ في ملامح وجهه المرارة المثيرة للشفقة التي سببها له طردي من الأكاديمية.

وفي الوقت الذي كنت أرسم فيه تلك اللوحات بدقّة هائلة، رسمت سلسلة من اللوحات المثيولوجية التي حاولت أن أضع فيها النتائج الإيجابية لخبرتي "بالفن التكعيبي" وذلك عبر ربط أمثولات نظامها الهندسي بالمبادئ الخالدة للتقاليد. وشاركت في العديد من المعارض الجماعية في مدريد وبرشلونة، وفي معرض خاص لي في صالة "ديلماو" الذي كان زعيم "حرس الطليعة" في برشلونة، والذي بدا كما لو أنه ربما خرج للتو من لوحة رسمها "El Greco – إل غريغو".

هذا النشاط الذي مارسته دون أن أغادر مرسمي لحظة واحدة، أنتج ضجة عميقة، ووصل الجدل الذي أثارته أعمالي إلى الآذان المهتمة في باريس. ورأى بيكاسو لوحتي "فتاة على النافذة" في برشلونة، وأشاد بها. وتلقيت حول هذا الموضوع رسالة من "باول روسينبيرغ" يطلب فيها صوراً فشلتُ بإرسالها بسبب الإهمال الكبير. عرفت أنني في اليوم الذي أصل فيه إلى باريس سأضعهم جميعاً في حقيبتي. استلمت في أحد الأيام برقية من "جوان ميرو" المشهور جداً في تلك الفترة في باريس، يصرّح فيها أنه سيأتي ويزورني في فيغوراس برفقة تاجر لوحاته "بيير لويب". وترك هذا الحدث انطباعاً هادئاً لدى والدي، وبدأ يضعه على درب الرضا بذهابي إلى باريس يوماً ما للبدء من جديد. أحب "ميرو" أعمالي كثيراً، وضمني بكرم تحت حمايته. كما أن "بيير لويب" من جهة أخرى، بقي مشككاً بأعمالي بشكل لا لبس فيه. وفي فرصة ما، وبينما كانت أختي تتحدث مع "بيير لويب" أخذني "ماريو" جانباً وقال لي همساً وهو يضغط على ذراعي:

"الناس الذين بيني وبينك في باريس "أكثر جحشنة" مما نستطيع أن نتخيّل. وسوف ترى ذلك عندما تصل إلى هناك. وهم ليسوا بتلك السهولة كما يبدو!"

قبل نهاية الأسبوعٍ، استلمت رسالة من "بيير لويب"، وبدلاً من أن يعرض عليّ عقداً مميزاً كنت أتوقعه، قال شيئاً بهذا المعنى:

"لا تنسَ بأن تتركني مطلعاً على أعمالك. لكن ما تفعله الآن مشوّش جداً ويفتقر إلى الشخصية. عليك أن تكون صبوراً. اعمل، اعمل. علينا أن ننتظر تطوّر مواهبك التي لا يمكن إنكارها. وآمل أن أصل إلى يوم يمكنني فيه أن أتاجر بأعمالك".

وفي الوقت نفسه تقريباً، استلم والدي رسالة من "جوان ميرو" وفيها شرح له فائدة قدومي إلى باريس لبعض الوقت. وأنهى رسالته تحديداً بما يلي: "أنا مقتنع تماماً أن مستقبل ابنك سيكون رائعاً!"

وخلال الفترة نفسها أيضاً، أوجز "لويس بانيل" عن فكرته عن فيلم يريد تنفيذه، وكانت والدته من سيدعم العمل مالياً. وقد رأيت أن فكرته عن إخراج فيلم كانت عادية جداً. كان يصوّر حرس الطليعة بطريقة ساذجة، وكان السيناريو يتألف من تحرير لصحيفة على شكل صور متحركة تتضمن تصويراً للمقاطع الأخبارية والكوميديا والرياضة وما إلى ذلك. وفي نهاية الفيلم يرى المرء الصحيفة تسقط على الرصيف ويكنسها نادل إلى قناة الصرف الصحي. لقد أثارت هذه النهاية العادية والرخيصة اشمئزازي فقلت له إن قصة الفيلم ليس فيها ما يثير الاهتمام، لكنني من جهة أخرى، كتبت سيناريو قصيراً جداً فيه لمسة عبقرية، ومناهضاً تماماً للسينما المعاصرة.

كان هذا صحيحاً. تمت كتابة السيناريو. واستلمت برقية من "بانيل" يعلن فيها أنه قادم إلى فيغوراس. لقد كان متحمساً سلفاً للسيناريو الذي كتبته، وقررنا العمل معاً لصياغته بشكل نهائي. ومعاً طورنا عدة أفكار

ثانوية، وأطلقنا عليه اسم "Le Chien Andalou – الكلب الأندلسي". ثم غادر "بانيل" آخذاً معه كل ما يحتاجه. والأكثر من ذلك أنه تعهّد بأن يتولى مسؤولية الإعداد والإخراج وما إلى ذلك... لكنني ذهبت إلى باريس بعده بوقت قصير واستطعتُ أن أتابع العمل على هذا الفيلم، وكنا نعقد جلسة عمل كل مساء تقريباً. بشكل أتوماتكي، ودون أية أسئلة أو تعليقات، وافق "بانيل" على أصغر اقتراحاتي. وعرف من خلال تجربته أنني لا أخطئ في مسائل من هذا النوع.

وبالعودة قليلاً إلى الخلف، أمضيت شهرين آخرين في فيغوراس وأنا أقوم بتحضيراتي الأخيرة قبل الهجوم على باريس. ونسيت أن أذكر أنه قبل زيارة "بيير لويب" لي، قمتُ برحلة إلى باريس برفقة عمتي وأختي، استمرّت أسبوعاً واحداً فقط. وقمتُ خلال هذه الزيارة القصيرة بثلاث زيارات هامة وهي: قصر فرساي ومتحف تماثيل الشمع، وبيكاسو. وقد تعرّفت على الأخير من خلال "مانويل أنجلو أورتيز" الرسام التكعيبي من غرانادا، الذي كان يتابع أعمال بيكاسو بأدق التفاصيل، وكان صديق "لوركا" وهو من عرّفني به.

وعندما وصلت إلى منزل بيكاسو في "Rue de La Boétie" كنت أسير وأنا أفيض احتراماً كما لو أني ذاهب لأقابل البابا.

قلت له: "جئت لرؤيتك قبل زيارة متحف اللوفر".

وأجاب: "أنت محق تماماً".

وأحضرت معي لوحة صغيرة مغلّفة بعناية وكان اسمها "فتاة فيغوراس". نظر إليها مدة خمس عشرة دقيقة على الأقل، ولم يعطِ أي تعليق من أي نوع كان. وبعدها أراني بيكاسو ولساعتين متتاليتين كميات من لوحاته. واستمرّ بذهابه وإيابه، مخرجاً لوحات الرسم التي كان يضعها خلف الحامل. ثم ذهب يبحثُ عن لوحات أخرى بين عدد ضخم من ألواح الرسم المصفوفة في نسق أمام الجدار. استطعت أن أرى

أنه في طريقه نحو مشكلة هائلة. ومع كل لوحة جديدة، كان يصبّ علي نظرته المليئة بالحيوية والذكاء بطريقة عنيفة جعلتني أرتعش. وانتهى لقائي معه دون أي تعليق من أي نوع.

وعند الباب الرئيس قبل أن أغادر، تبادلت معه نظرات محددة كانت تعني تماماً.

"هل فهمت الفكرة؟"

"نعم فهمت!"

وبعد هذه الزيارة العابرة، افتتحت معرضي الثاني والثالث، في "صالة دالماو" وفي "Salon of Iberian Artists – صالون الفنانين الإيبيريين" في مدريد. وكرّس هذان المعرضان شعبيتي في إسبانيا.

والآن – بالعودة إلى النقطة التي وصلت إليها قبل أن أعطي هذه المعلومات العامة التي آمل أن تلتئم بسرعة في ذاكرتكم – أنا في فيغوراس، وأنا أستعد كما نوّهت سابقاً، كي أذهب إلى باريس. دربت نفسي خلال هذين الشهرين، وشحذُت وسائل تصرفاتي العقائدية عن بعد، من خلال زمرة صغيرة من مثقفي برشلونة الذين جمعتهم مجلّة اسمها "أصدقاء الفن". تلاعبت بهذه المجموعة كما رغبت، واستخدمتها كمنصّة مناسبة كي أشحذ الأجواء الفنية في برشلونة. وقد قمت بهذا وحدي، ودون أن أخرج من فيغوراس، وكانت فائدتي الوحيدة منها بشكل طبيعي، تتعلق بتجربة تمهيدية تسبق رحلتي إلى باريس. أردت من هذه التجربة أن تمنحني إحساساً مطابقاً لدرجة الفعّالية المتعلقة بما أسميته سلفاً "مكائدي، أو خُدعي". ولم تكن هذه الخدع منوعة فقط، بل كانت متناقضة أيضاً، ولم تكن سوى أدوات تسبب الشلل والرعب، وتهدف إلى فرض الجوهر الأصلي لأفكاري التي لا يمكنني كبتها بقسوة، تلك الأفكار التي عشتها، والتي يعود إليها الفضل ليس فقط بتحقيق فعّالية "خدعي" وتألقها، بل بخروجها من

فئة الحدث، وجعلها مندمجة بالتاريخ. كنت أمتلك دوماً موهبة التلاعب والهيمنة بسهولة على أدنى ردّة فعل للناس المحيطين بي. وكنت أحظى ببهجة حسيّة عظيمة عندما أشعر "بالاهتمام الدائم" بتقلباتي وهي تفرض أوامرها على أولئك الذين يطيعونها حرفياً[1] دون أن يشككوا بتبعيتهم القسرية وإيمانهم.

وصلت إلى باريس وأنا أقول لنفسي، مُقتبساً عنوان الرواية التي قرأتها في إسبانيا: "قيصر أو لا شيء!" أوقفت سيارة أجرة وسألت السائق:

"هل تعرف أي مبغى جيد؟"

أجاب بكبرياء جريح مع أنه تكلّم بطريقة أبوية: "تفضل سيدي، ولا تقلق. أعرفها كلها".

أنا لم أزر هذه الأماكن كلها لكنني رأيت الكثير منها، وسرّني بعضها بشكل كبير جداً. كان المبغى الموجود في شارع "The Chabanais" أفضلها، بمقاعده ذات الذراعين المعدّة لوضعيات جنسية مختلفة، والتي صنعها "فرانسيس جوزيف" لتلبية حاجاته الجنسية، وهناك أحواض الاستحمام المزينة ببجعات برونزية مذهّبة، والأدراج المبنية من حجر الخفاف، ومرايا نحاسية مزينة بزخارف حمراء.

وعليّ الآن أن أغلق عيني لحظة كي أختار لكم الأماكن الثلاثة الأكثر تنوعاً واختلافاً، والتي تركت في عقلي أكثر الانطباعات عمقاً وغموضاً. لقد كان دَرَج "تشابانيز" من أكثر الأمان الإيروتيكية غموضاً وبشاعة، كان مسرح "البلاديو" في "فيتشينزا" من أكثر أماكن الحس الجمالي غموضاً

---

[1] مؤخراً فقط، وأثناء كتابة مقدمة دليل معرضي الأخير في نيويورك، الذي وقّعته باسمي المستعار "جاسينتو فيليب"، شعرت أنني احتجت من بين أشياء أخرى، إلى شخص ما يكتب مقالة عني عنوانها "ضد دالي السريالي" مثلاً. ولأسباب مختلفة، احتجت هذا النوع من "جواز السفر" لأني أنا نفسي لدي الكثير من الدبلوماسية لدرجة لا أستطيع أن أعلن محاكمة كهذه. ولم يمضِ وقت طويل حتى ظهر عنوان كهذا (وكان العنوان تقريباً هو ما اخترته)، وقد ظهر بشكل متواضع لكنه كان بحثاً مثيراً حرره الشاعر الشاب "تشارلز هينري فورد".

وألوهية، وكان المدخل إلى مقبرة "ملك إسكويرال" من أكثر أماكن الموت الموجودة في العالم غموضاً وجمالاً. ولذلك فمن الصحيح بالنسبة لي أن تكون الإيروتيكية بشعة دوماً، والإحساس الجمالي إلهياً، والموت جميلاً.

وإن كانت الديكورات الداخلية لأماكن البغاء قد أفرحتني بما لا يُقاس، فقد وجدتُ الفتيات الموجودات هناك غير كفوءات. لقد كانت شخصياتهنّ السوقية المبتذلة معاكسة تماماً للنماذج الأنيقة التي تشكّل الشرط الأساسي لأوهامي الشبقية. واستبعدت تلك الفتيات الشائعات جداً واللاتي كن على الرغم من جمالهنّ، يظهرن في أي وقت وأية ساعة في الردهة بمزاج يوحي بأنهن خرجن للتو إلى فترة راحة، ولا زلن يمضغن العلكة بأسنانهن. وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي يمكنك فعله هو أن تستغلّ هذا المناخ بأعلى درجات الامتياز، وتأخذ إحدى تلك "الكاريبيات" بضحكتها الحيوانية الدائمة التي تستخدمها كوسيلة مساعدة. لكن النساء اللواتي يُبحث عنهنّ في أي مكان آخر، يُجلبن إلى هنا. وعلى أية حال، ومع دور البغاء التي زرتها، حصلت على أدوات مساعدة تكفي لبقية حياتي، كي أثر بأقل من دقيقة واحدة، أية خيالات إيروتيكية لدي، وأكثرها دقة.

وبعد دور البغاء، زرت "جوان ميرو[1]". وتناولنا الغداء معاً لكننا لم نتحدث إلا بشكل بسيط جداً.

وقال لي: "سوف أعرفك على مارغريت هذه الليلة".

كنت واثقاً أنه كان يشير إلى الرسام البلجيكي "رينيه ماغريت" الذي أعتبره واحداً من أكثر الرسامين "الغامضين المُبهمين" في ذلك الوقت. وفكرة أن هذا الرسام لا بدّ أن يكون امرأة وليس رجلاً، كما

---

[1] أتذكر أن ميرو أخبرني قصة "من مرسيليا" عن البومة. وَعَدَ شخص ما صديقاً أن يحضر له ببغاء لدى عودته من أمريكا. وبالعودة إلى مرسيليا، أدرك فجأة أنه نسي وعده. ثم أمسك بومة وطلاها باللون الأخضر وقدمها هدية لصديقه. وبعد فترة قصيرة التقى الصديقان. وسأل الصديق العائد من السفر صديقه بمكر: "كيف كان الببغاء الذي أهديته لك؟ هل لا زال يتكلم؟" وأجابه الآخر: "يتكلم، لا. لكنه يفكر بقضايا عظيمة".

افترضتُ دوماً، أذهلتني بالكامل وقررت سلفاً حتى وإن لم تكن جميلة جداً جداً، فسوف أقع في حبها.

وسألتُ ميرو: "هل هي أنيقة؟"

وأجاب: "أوه، لا، إنها بسيطة جداً".

ونفد صبري ولم أعد أحتمل. بسيطة أم ليست بسيطة، يجب أن أدعوها إلى "تشابانيز" مع بعض الزينة البيضاء والسوداء على رأسها — سأحاول أن أستنبط شيئاً ما.

وعند المساء جاءت مارغريت للقائنا في مرسم ميرو في شارع تورلاك. وكانت فتاة نحيلة جداً بوجه ضئيل يتمايل بعصبية. وعلى الفور، قمت بتنحية أفكار التجارب الإيروتيكية معها، لكنني بقيت مذهولاً بها. يا لها من شخص غريب! ولكي تضيف لمسة أخيرة على حيرتي، لم تنطق كلمة واحدة.

ثم خرجنا للعشاء وكانت الوجبةعبارة عن "Foie gras — كبد الإوز أو البط" مع نبيذ مقبول في مطعم "قصر البيغال". ومن دون شكّ، كانت الوجبة الأكثر صمتاً والأكثر إثارة للاهتمام تناولتها في حياتي، لأن أحداً من أصدقائي لم يتفوّه بكلمة واحدة. باستثناء الشيء الوحيد الذي قاله ميرو لي: "هل لديك بذلة سهرة؟" وقال عبارته بنبرة صوت حذرة جداً.

أنا لم أحاول فقط، من خلال رؤية لوحاتهما، أن أعيد بناء ما كان يفترض أنهما يفكران به بشكل نظري من خلال تشنجاتهما وحركاتهما التي بدت كلها غامضة جداً، بل كنت حريصاً على معرفة العلاقة الحميمية الإيديولوجية التي لم أشكّ بوجودها. ولم أكن قادراً على أن أتقدم خطوة واحدة في فرضياتي. وعندما تركتهما وحدهما أخيراً، قال ميرو:

"عليك أن تشتري بذلة سهرة. وسوف نذهب إلى مكان عام".

وعرفتُ بعد أيام قليلة فقط أنه ليس هناك علاقة ما بين مارغريت والرسام "رينيه ماغريت".

وفي اليوم التالي ذهب وطلبت بذلة سهرة من خياط في زاوية شارع "فيفين" وعلمت لاحقاً أنه الشارع الذي عاش فيه "لوتريمونت" كاتب رواية مالدورور".

لبست بذلتي الجديدة ورافقت ميرو إلى عشاء لدى "دوقة داتو"، أرملة الوزير المحافظ الذي اغتيل في شارع مدريد. وكان هناك الكثير من الناس لكن الوحيدة التي تذكّرتها منهم كانت "الكونتيسة كويفاز دي فيرا" التي أصبحت صديقتي بعد عدة أيام. وكانت على علاقة بالحركة الثقافية في مدريد، فتحدثنا حول بعض القضايا التي تتسم بصفة الإزعاج الواضح لأي شخص كان. وكان ميرو سجين قميصه المنفوخ القاسي مثل درع، وقد استمرّ بصمته لكنه كان يراقب كل شيء ويفكّر به – مثل البومة في حكايتي.

وبعد العشاء ذهبنا لنشرب زجاجة شامبانيا في "Bateau Ivre – خمّارة القوارب"، واكتشفت في هذا المكان هذا الكائن الشبحي الفوسفوري المتألق، والناشط ليلاً بشكل متكامل، يُدعى "جاكوبي"، ولم أصادفه بعدها إلا بشكل متقطع في ضباب كل نادٍ ليلي أذهب إليه. لقد كان وجهه الشاحب أحد أعظم هواجسي الباريسية، ولم أستطع أن أفهم السبب المباشر لهذا الأمر.

دفع ميرو الفاتورة في "Bateau Ivre – خمّارة القوارب" بسهولة أحسده عليها، ثم سرنا نحو البيت وحدنا فقط.

قال لي: "سيكون من الصعب عليك، لكن لا تكن مُحبطاً. لا تتحدث كثيراً (حينها فهمت أن صمته ربما يكون تكتيكاً) وحاول أن تمارس رياضة بدنيّة. لدي مدرّب ملاكمة وأنا أتدرّب مساء كل يوم".

وكان يقطّب فمه بين كل جملتين بتعبير مليء بالطاقة.

"سنذهب غداً لزيارة "تريستان تزارا"، إنه رئيس "الدادائيين" وصاحب نفوذ كبير. وربما يدعونا إلى حفلة موسيقية، لكننا سنعتذر. علينا أن نبقى بعيدين عن الموسيقى كما نبتعد عن الطاعون".

وبعد فترة صمت تكلم من جديد.

"المهم في الحياة هو أن تكون عنيداً. وعندما لا يظهر في لوحاتي ما أبحث عنه، أدقّ رأسي بقوة بالجدار حتى يدمى".

ثم غادر بعد أن أطلق تحية الوداع المعتادة "Salut — بصحتك".

وللحظة، كنت أتخيّل جداراً يدمي. وكان الدم من دمي ذاته. وسلفاً في تلك الفترة، كان عمل ميرو بداية تعاكس كل شيء آمنت به واحترمته. لكن بغضّ النظر — كان الدم المتخثر هناك، حاضرا بشكل واضح.

وفي اليوم التالي تناولنا العشاء عند "بيير لويب" مع نصف دزينة من "Colts[1]". ولدى كل منهم سلفاً عقده الموقع، وقد رتّب أمره للوصول إلى مجدٍ لائق ضئيل لا يدوم طويلاً، ويشكّل سلفاً بداية لمدّة طويلة من البرودة.

ترتسم على معظم وجوه هؤلاء الفنانين سخرية أفواه لاذعة، ولا يرون أمامهم سوى احتمالات غير مشجّعة ليأكلوا مجداً "سبق استخدامه" لبقية حياتهم. وكان لديهم تلك البشرات الصفراء المخضرّة الشاحبة الناتجة أساساً عن المبالغات التي يُدفع ثمنها بسائل الصفراء، والتي تكون نتاج الدمار الحشوي الباطني الذي تعرّض له الجسم.

الوجه الوحيد من بين كل تلك الوجوه التي تلاشت تماماً من ذاكرتي، كان وجه الرسّام "بافليك تشيليشيف" وهو الشخص الذي أدخلني إلى أول "ميترو أنفاق" ركبته في حياتي. لم أودّ أن أدخله ولا من أجل أي شيء في العالم. وقد ضحك بشكل صاخب من حالة الرعب التي أصابتني ونزلت الدموع من عينيه. وعندما أعلن أنه سينزل في المحطة التالية قبلي، تمسكت بمعطفه مرتعشاً. وكرر لي عدة مرات: "انزل في المحطة التالية. سوف ترى كلمة "مخرج" بأحرف كبيرة. ثم اصعد عدة درجات وستجد نفسك خارجاً. بالإضافة لذلك، كل ما عليك فعله، هو أن تلحق بالناس الذين يخرجون".

---

[1] هذه الكلمة منقولة من اللغة العامية وتتعلق بالفنانين تحديداً، وتشير إلى الرسامين الذين لديهم عقود مع التاجر أو الموزّع.

"وافترض أنه لم يخرج أي شخص؟"

ثم وصلت وصعدت الدرج وخرجت. وبعد هذا الاضطهاد المرعب في "المترو"، أصبح كل شيء سهلاً بالنسبة لي. لقد أظهر لي "تشيليشيف" فقط الطريق الباطني والصيغة الدقيقة لنجاحي. وكنت لما تبقى من حياتي، أستفيد من مترو أنفاق روحي الغامض الخاص بي.

وحتى الأصدقاء المقربون استغربوا لفترة طويلة استمرت أربعة أشهر أو خمسة وهم يتساءلون: "لكن أين دالي؟ ما الذي يفعله؟" إن دالي ببساطة يسافر في قطار الأنفاق، وفجأة، وعندما لم يتوقع أحد ذلك، وصلت وصعدت الدرجات وخرجت! وانسحبت مرة أخرى، ثم وصلت من جديد، وصعدت الدرحات وخرجت. والضجة نصف الخانقة للميترو، تنطلق بمعدّل جنوني مع صوت رتيب قيصري (لأنني لم أمنحه دقيقة راحة).

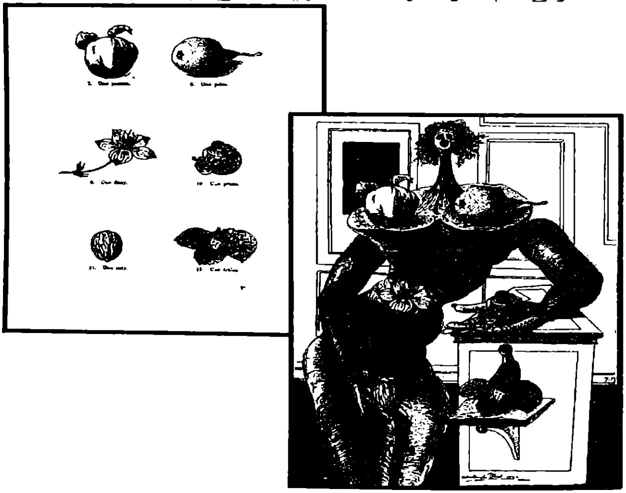

وعلى الرغم من نجاحي في أول "خروج" من الميترو، كنت حذراً من تكرار التجربة، وكنت أركب سيارة أجرة أستطيع أن أطلب من سائقها الانتظار في أي مكان أريده، وأعطيه بقشيشاً مميزاً قد يتسبب بدماري.

أنا قادم! أنا قادم! وصلت في الوقت المحدد. كان فيلم " Le Chien Andalou – الكلب الأندلسي" في طور الإنتاج. وكان لـ"بيير باشيف" الهيئة الفعليّة للمراهق الذي حلمت به للبطل. وقد بدأ مُسبقاً في ذلك الوقت بتعاطي المخدرات، كان يستنشق مادة منومة باستمرار. وكان الفيلم قد انتهى بصعوبة عندما أقدم على الانتحار.

إنه فيلم عن المراهقة والموت الذي كنت ذاهباً لأغرسه في قلب باريس المثقف البارع الأنيق، مع كل واقعيتي وخنجري الإيبيري ذي القبضة الحمراء الدموية والتربة المتحجرة من فترة ما قبل تاريخنا، والنصل المصنوع من الطرق البحثية للكاثوليكية المقدسة المزوجة بالأناشيد الدينية والمعدن الأحمر المتقد لقيامة الجسد.

وها هو مقتطف مما كتبه "إيوجين مونتيس" في العام 1928 عن هذا الفيلم:

"لقد وضع كلٌّ من بانيل ودالي نفسيهما بحزم في موقع تجاوزا فيه الشكل الباهت لما يسمى الذوق الجيد والشكل الباهت للجمال، ولما هو مقبول أو بشري أو عابث، أو فرنسي. كان في الفيلم فقرة واحدة فقط تتوافق مع مسرحية تريستان. وكان عليهما أن يلعبا دور "غوتا"[1]، و"لا بيلوريكا" التي لم تكن فرنسية، والتي أرادت أن تكون "أراغونية" من "أرغون" الاسبانية، من إيبرو – النيل الإيبيري (أرغون، أنت مصر، أنت الأهرام الشامخة "ليوتات" الموت!).

"بارباروس، الجمال الابتدائي، قمر الصحراء وأرضها التي يكون فيها "الدم الأحلى من العسل"، ظهرت من جديد أمام العالم. لا! لا! لا تبحث عن ورود فرنسا. اسبانيا ليست حديقة، والإسباني ليس بستانياً. إن إسبانيا عبارة عن كوكب، وورود الصحراء عبارة عن حمير

---

[1] أغنية شعبية في "أرغون" عن العنف العنصري النموذجي، وكلمة "أرغون" هي منطقة حكم ذاتي شمال شرق إسبانيا، قريبة من كاتالونيا.

متعفنة. ولذلك ليس هناك ظرافة ولا زخرفة. إن الإسباني هو جوهر وليس صقلاً. وإسبانيا لا تصقل، ولا يمكنها أن تزيّف. لا يمكن لإسبانيا أن تدهن السلاحف أو تموّه الحمير بالبلورات بدلاً من جلدها. إن تماثيل المسيح في أسبانيا تنزف، وعندما يتم إخراجها إلى الشوارع، تسير بين نسقين من الحرس المدني".

واختتم بقوله:

"يوم في تاريخ السينما، يوم ممهور بالدم، كما أحبّ نيتشه، وكما كان درب إسبانيا دوماً".

لقد ترك الفيلم الأثر الذي رغبت به، وانغرس كالخنجر في قلب باريس كما تنبأت. ودمّر فيلمنا في ليلة واحدة عشر سنوات من الحراسة المتقدمة للفكر الزائف لفترة ما بعد الحرب.

وسقط ما يسمّى "الفن التجريدي" على أقدامنا، مذهولاً حتى الموت، وهو لن يقف مجدداً بعد أن رأى "عين الفتاة تُقتلع بشفرة حلاقة" — هكذا بدأ الفيلم. ولم يعد هناك مكان في أوروبا للمعينات الهوسية الهزيلة الخاصة بالمونسيور موندرين.

مالكو السينما هم أصحاب الخبرة الذين يعتقدون أنهم شاهدوا كل شيء، وأن ما من أحد يمكنه أن يطلب شيئاً يسبب الدهشة لهم. وعلى الرغم من حقيقة أن فيلمنا كان قصيراً ويتطلّب القليل من المال والأشياء بأسلوب أصحاب الأملاك، فقد اعترف لنا صاحب السينما بأنه ظنّ نفسه يحلم. وها هي بعض الأمور التي طلبناها: "موديل عارية" وعليه أن يجد طريقة لترتدي قنفذ بحر حياً تحت كل ذراع من ذراعيها. ومكياج مناسب لـ "باشيف" سيبدو فيه من دون فم، وماكياج آخر يُستبدل فيه الفم ببعض الشعر الذي يذكّر قدر الإمكان بالشعر الموجود تحت الإبط. وأربعة حمير متحللة يوضع كل منها على بيانو. ويدٌ مقطوعة تبدو طبيعية، إضافة إلى عين بقرة وثلاثة من أعشاش النمل.

كان مشهد الحمير المتحللة على آلات البيانو، مشهداً جميلاً، ولا بدّ أن أقول ذلك. وقد قمت "بتصنيع" تعفّن الحمير بصبّ الغراء الكثيف عليها، كما أفرغت محجر العين وزدت مساحته باستخدام مقصّ. وبالطريقة ذاتها قطعتُ محيط الفم كي أُظهر تناسق الأسنان بشكلٍ أفضل، وأضفت فكاً آخر لكل فم بحيث تظهر وكأنها لا زالت تتقيأ شيئاً من موتها، وقد صنعت تلك الأسنان من مفاتيح البيانو السوداء. وكانت آثار الحزن تضاهي خمسين كفناً مجتمعة في غرفة واحدة.

وقد أبعدني الفيلم عن مهنتي الاجتماعية التي رغب "جوان ميرو" أن يدخلني بها.

قلت له: "أفضل البدء بالحمير المتعفنة، إنها الضرورة القصوى. والأشياء الأخرى ستأتي منها".

ولم أكن مخطئاً.

خلال تلك الفترة قابلت "روبيرت ديسنوز" في إحدى الأمسيات في "كاوبول"، ثم دعاني إلى مسكنه. وكنت دوماً أحمل معي لوحة كنوذج. وأراد أن يشتري اللوحة التي كانت معي لكن لم يكن لديه المال الكافي. وقد فهم بالتأكيد أصالة لوحتي التي حملت عنوان "اليوم الأول لإسبانيا"، وفيها تم توصيف المتعة الجنسية برموز موضوعية مفاجئة. قال: "إنها لا تشبه أي شيء موجود في باريس". ثم فتح حديثاً لا ينتهي عن "روبيسبير" وعن العُصاب الرهيب، والتوتر، والتعبير العاطفي الذي لا ينضب. وهذا ما جعلني أرغب بأن أذهب للنوم.

كان شيئاً غريباً أنني في كل مرة أسمع فيها أشخاصاً يتحدثون مطوّلاً عن الثورة الفرنسية، أشعر في اليوم التالي بأنني متوعّك. وقد حدث الأمر فعلاً في اليوم التالي وأُصِبتُ بالتهاب اللوزتين وتلاها ذبحة صدرية. أمضيت فترة مرضي وحيداً كئيباً في غرفتي لأنني كنتُ معتاداً دوماً على الرعاية بطقوس مُبالغ فيها. وبدأت أكتشف أن الفندق الذي كنت فيه كان بغيضاً، وكان هناك شكّ بنظافته.

وفي اليوم السابق لأول يوم أنهض فيه من فراشي، اكتشفت وجود حشرتين أو ثلاث على السقف. ولم أعرف إن كانت عَلَقة صغيرة أم قملاً. كان السقف عالياً جداً فقذفتها بالوسائد محاولاً أن أجعلها تنزل. لكن جهودي باءت بالفشل نظراً لضعفي الشديد، ثم شعرت بالدوار، وسقطتُ على سريري، وغرقت في النوم رغم معرفتي بأن تلك الحشرات الصغيرة كانت مُلتصقة بالسقف فوقي. كان أول ما فعلته عندما استيقظت هو النظر إلى السقف، ولم تكن هناك سوى حشرة واحدة فقط. أين الأخرى؟ ربما سقطت عليّ في الليل. لكن هذه الفكرة منحتني شعوراً سيئاً جعلني أنظر حولي وأنفض الملاءات والوسائد كلها. ثم وصلت إلى اكتشاف مرعب جعلني أتجمد رعباً، لأنني من خلال مرور يدي على كامل جسدي العاري، لامست شيئاً ما على ظهري في أقصى نقطة تصلها أطراف أصابعي. وحاولت أن أسحبه قليلاً إلا أنه قاوم بشدّة كما لو أنه يتمسك بجسدي بكل ما لديه من قوة.

ثم قفزت من سريري إلى المرآة الموجودة على الخزانة ولم يكن هناك مجال للشك. لقد كانت الحشرة، أو العَلقة عالقة على ظهري وممسكة بلحمي دون شفقة، واستطعت أن أرى ظهرها الناعم المستدير ينعم بما امتصته من دمي. لا بدّ أن هذه الحشرة تعود إلى عائلة "القرّاد" الكريهة التي عندما تعلق بأذن الكلب، لا يمكن إزالتها من دون أن تنزف دماً. وأغلقت عيني واصطكّت أسناني استعداداً لاحتمال أي شيء مقابل أن أتخلّص من ذلك الشيء المرعب الدقيق الذي يشلّ حركتي. والتقطت العَلَقة بين أصابعي وعصرتها بقوة دون أن أهتم بالألم وحاولت أن أسحبها. لكنها كانت عالقة بقوة بحيث لم أنجح بإزاحتها قيد أنملة. لقد بدت وكأنها قطعة من جسدي وجزء لا يتجزأ منه. كما أنها وبشكل مفاجئ، بدت لي وكأنها تحولت إلى جرثوم مرعب، أو جنين لتوءم سيامي في طور النمو على ظهري، وظهرت كحالة مروّعة جهنمية.

ثم اتخذت قراري المتطرف بالوحشية التي تناسب رعبي وهيجاني، وأمسكت شفرة الحلاقة، وبدأت أقطع المنطقة الفاصلة بين العَلَقة وجلدي الذي أظهر مقاومة كبيرة. لكنني قطعت وقطعت وكدتُ أُصاب بالعمى من منظر الدم المتدفق حتى استسلمت العلقة أخيراً ووقعت على الأرض الملوثة بدمي، وفقدت الوعي جزئياً. ثم تضخّمت بقعة الدم بشكل مرعب، وحاولت أن أصل إلى الباب كي أطلب المساعدة. وعندما التفتُ حولي، رأيت آثار دمي المتخثر مما أثار ذعري. وعدتُ فوراً إلى السرير كي أضع ضمادة من أغطية السرير لكن الدم بدأ ينزّ منها كنبع ماء لا يتوقف. واندفعت بعدها إلى منشر الغسيل لكن ضعفي فرض عليّ أن أستند إلى الجدار. وهكذا بدأت أتأرجح يميناً وشمالاً، وتعثرت بمنشر الغسيل الذي غرق بدمي، وبدا كما لو أن الماء الذي أسكبه على جرحي يزيد من حدة النزيف. وقررت أخيراً أنه لا بدّ من المساعدة لكن منظر الغرفة جعلني أرتعش. كان السرير مبقّعاً بالدم وانتشرت بصمات كفي على الجدران، ووصل الدم أسفل الخزانة. وعندئذٍ، أمسكت الجرس ولم أتوقف حتى دخلت الخادمة.

وعندما فتحت الخادمة الباب ورأت الغرفة غارقة بالدماء، أطلت صرخة مرعبة وأغلقت الباب من جديد. وبعد لحظات، سمعت وقع أقدام في الممر. واقتحم الغرفة مجموعة غريبة من الناس يتقدمها مدير الفندق، ونظر الجميع نحوي لاهثين متوقعين بالحد الأدنى أنني كنت ضحيّة اعتداء إجرامي.

وكان كل ما نطقت به أمامهم: "لا شيء، لاش... لاشي...." ولم أستطع أن أفكر بمعنى كلمة "عَلَقة" باللغة الفرنسية.

وألقى علي المدير نظرة داعمة مطمئنة تعبّر عن مدى إنسانيته لأنه كان يستعد ليسمع ما هو أسوأ.

"لقد عضتني حشرة الفراش".

ووصل الطبيب وأصبح الأمر واضحاً بالنسبة لي قبل دخوله. لم يكن حشرة فراش ولا عَلَقة، ولا صرصاراً ولا توءماً سيامياً ذلك الذي كان مُلتصقاً بجسدي — بل كان كله من صنع مخيلتي وحسب. لقد كانت ببساطة "وحمة" كنت قد رأيتها مئات المرات من قبل. وقال الطبيب إن من الخطير جداً أن أقوم بعملية كهذه وحدي. ولم يصدق كلمة واحدة من قصّة الحشرة التي أخبرته بها.

وقال لي وهو يمسح نظارته: "أستطيع أن أفهم أن يقوم شخص ما بهذا لأنه يريد أن يتخلص من عيب موجود في وجهه مثلاً أو في مكان غير ملائم، مع أن من السخافة أن تلمسها حتى في هذه الحالة. لكن على الظهر!" ثم زفر الهواء بسخط.

هذا النزيف وهذا السجن في هذه الغرفة التي استحضرت الذكريات المؤلمة لمرضي الأخير وضعفي الهائل، جعلت كل شيء يبدو أسود أمامي. وبدا لي الفيلم الذي لم يُعرض حتى الآن أمام العامة فشلاً ذريعاً، ولو كان ملكي وكان في حوزتي الآن لكنت نسفته دون لحظة تردد. وبدا لي أننا كنا بحاجة إلى نصف دزينة من الحمير المتعفنة على الأقل، وأن أدوار الممثلين تدعو للأسف، وأن السيناريو بحد ذاته كان ضعيفاً جداً.

وماذا فعلت إلى جانب هذا الفيلم؟ لقد بقيت الأوقات القليلة التي خرجت فيها إلى الشارع، أحداثاً بسيطة لا تفيدنا مطلقاً. لقد أبعدني خجلي عن "التألق" في هذه التجمعات، وتركت كل فرصة حظيت بها مع شعور كبير من عدم الرضا. وكان تاجر الأعمال الفنية "كاميل جويمان" قد وعدني بعقد جيد، لكنه ظلّ يؤجّل من يوم لآخر، ثم يتبخر في وعود غامضة تلاءمت تماماً مع العمل الذي أودّ أن أقوم به في كاداكيس في الصيف القادم.

لم أنجح في إيجاد امرأة أنيقة تنال اهتمام أخيولاتي الإيروتيكية — ولا أية امرأة من أي نوع، أنيقة أم غير أنيقة! لقد مشيت في الشوارع

ككلب "يبحث" برغبة قوية، لكنني لم أقدر أن أجد أي شيء، وإن حدثت المعجزة في لحظة ما، يمنعني الخجل من الوصول إلى المرأة التي رغبت أن أعرفها. كم أمضيت من فترات بعد الظهر وأنا أتجوّل، أصعد شارعاً وأهبط آخر، جالساً على شرفة مقهى لألقي نظرة سعادة على المرأة المناسبة، إن رأيتها! لقد بدا لي أن من الطبيعي جداً أن تخرج جميع النساء إلى الشارع بعد ظهر كل يوم بعقولهن المعذّبة بالفكرة ذاتها، والمتعلقة بالأخيولات الإيروتيكية الموجودة في عقلي ذاتها. لكن لا! أحياناً، وفقط من أجل التجريب، عندما كنت في أشد حالات إحباطي، كنت أباشر باضطهاد امرأة بشعة، وكنت أنثر عليها نظراتي الشغوفة، ولا أزيح عيني لحظة واحدة عنها، وكنت ألاحقها في الشارع، وأركب المترو ذاته، وأجلس في المقعد المقابل لها أو إلى جانبها، وأحاول بكل ما لدي من رفق ومداراة وحكمة أن أضغط ركبتها. وكانت دوماً تنهض بطريقة محترمة وتبدّل مكانها. ثم أنزل من المترو وأراقب حشداً من النساء (لأنني لا أرى غيرهن) يتدفقن خلفي على طول الشارع، متألقات وبعيدات المنال، ويتجاهلنني تماماً.

وسألت نفسي بينما يقتلني عطش الرغبة غير المُشبعة: "حسناً، أين هي تلك الحقيبة التي ستضع "باريس" كلها فيها؟ أنت مخلوق تعيس! أترى، ولا حتى النساء البشعات سيكترثن بك!"

وبالعودة إلى غرفتي في الفندق، أشعر بألم في ساقيّ من التعب الذي تسبب به ذهابي غير المثمر وإيابي، وترافقه مرارة الإحباط التي تملأ قلبي. ويملأ مخيلتي الشعور بالإهانة لعدم قدرتي على الوصول إلى تلك النسوة اللواتي التهمتهنّ بنظراتي. وبيدي، وأما مرآة الخزانة، أكملت التضحية الإيقاعية الاعتزالية التي مضيت فيها لأُطيل السعادة البدائية التي أتطلّع لها قدر الإمكان، تلك السعادة المحتواة في جميع الهيئات الأنثوية التي نظرت إليها بتوق عصر ذلك اليوم، واللواتي أصبحن الآن يأتمرن بإيماءاتي

السحرية، فتصل الواحدة تلو الأخرى بالقوة لتجعلني أرى منها ما رغبت بأن أراه! وفي نهاية الخمس عشرة دقيقة الطويلة المرهقة المميتة، وبوصولي إلى الحدود الكامنة لمقدرتي، انتزعت المتعة القصوى لكل القوة الحيوانية ليدي المنقبضة، متعةٌ امتزجت كما هي الحال دوماً، مع فيض دموعي — هذا قلب باريس، حيث تحسست حولي الزبد الوامض لأفخاذ الأسرّة الأنثوية. سيلفادور دالي ينام وحده في سريره في شارع "رو فيفين"، دون رغوة الأفخاذ، ودون أن يمتلك الشجاعة للتفكير بالنساء مجدداً. وكان يتأمل قليلاً بالكاثوليكية قبل أن يذهب إلى النوم...

وغالباً ما كنت أذهب إلى حديقة لوكسمبورغ وأجلس على المقعد وأبكي.

في إحدى الأمسيات، أخذني "جويمان" تاجر لوحاتي المستقبلي إلى "بال تابارين". وكنا نجلس إلى طاولة في الطابق الثاني عندما أشار إلى رجل كان يدخل للتو مع سيدة ترتدي زياً متلألئاً أسود.

وقال: "هذا هو الشاعر السريالي "باول إلوارد" وهو شخص مهم جداً، والأكثر من ذلك أنه يشتري اللوحات. وزوجته في سويسرا، والمرأة التي معه الآن هي صديقته".

نزلنا لننضم إليه، وشربنا بضع زجاجات من الشامبانيا معاً.

وفاجأني إلوارد ككائن أسطوري. لقد شرب بهدوء، وبدا مستغرقاً تماماً بالنظر إلى النساء الجميلات. وقبل أن نغادر، وعدني أن يأتي لرؤيتي في الصيف القادم في كاداكيس.

وفي اليوم التالي ركبت القطار إلى إسبانيا، وقبل أن أغادر، تناولت حساء "الشعيرية" في "غار دا أورساي" الذي كان بالنسبة لي أشبه بحلم غنّت فيه ملائكة الجنة كلها. وكانت المرة الأولى التي كنت فيها جائعاً منذ إصابتي بالمرض. وبدت لي كل قطعة صغيرة من "الشعيرية" وكأنها تهمس لي: "ليس هناك من داعٍ لأن تمرض بعد الآن، بما أنه

ليس عليك أن (تضع باريس في حقيبتك). ومن حينها، أكدت لي تجربتي الشخصية وبشكل مؤكد أنه عندما يرغب المرء أن يضع شيئاً في الحقيبة ولا ينجح، فإنه يمرض. إن الناس الذين يسيطرون على أوضاعهم لا يمرضون أبداً، حتى وإن ضعف كيانهم الجسدي بشكل كبير وأُرهق وأصبح معرّضاً للمرض[1]. إن الحدود بين ما هو مادي ومعنوي ينزع مرة أخرى إلى التلاشي، ويبدو أن القول المأثور: "حياة الجسد هي انعكاس لروحه"، يستعيد هيبته الكاثوليكية والواقعية.

وهكذا علّقت مرضي على مشجب "غار دا أورساي"، كما لو أنه معطف قديم لم يعد له أدنى فائدة في الصيف الذي سأباشر به. وإن كنت سأحتاج في شتاء آخر، مرضاً يحميني من قساوة طقس حظي السيئ، فأنا أفضّل شراء معطف جديد. وداعاً! وانزويت في مكاني في القطار المسافر إلى إسبانيا والذي سأنزل منه في فيغوراس.

وفي الصباح التالي، استيقظت لرؤية سهل "أمبردان" ومشهد اجتياح الشمس له. وكنا نعبر للتو "برج الطاحونة" وقد أطلق القطار صفارة إعلان وصوله إلى محطة فيغوراس.

وكما تظهر السموات الصافية بعد عاصفة، كانت حالتي بعد مرضي في باريس. لقد اختبرت به أكثر حالات الصحة التي "رأيتها" في حياتي "شفافية"، لأنني شعرت فعلاً بنوع من الشفافية، كما لو أنني أستطيع رؤية جميع الآليات الحقيقية المبهجة اللزجة لوظائف أعضائي

---

[1] عندما اندلعت الحرب، وخاصة الحرب الأهلية في إسبانيا، كان من الممكن أن تتوقع فوراً أي طرف سيربح وأيهما سيخسر. وأولئك الذين سيربحون، كانوا بصحة جيدة "حديدية" منذ البداية، أما الآخرون فقد ازداد مرضهم يوماً بعد يوم. ويستطيع الأشخاص في الفئة الأولى أن يأكلوا أي شيء، ويكون لديهم أسلوب مذهل في الهضم، أما الفئة الثانية، فيصبحون صمّاً وتغطي الدمامل أجسادهم ويُصابون بداء الفيل، وباختصار، يصبحون غير قادرين أن يستفيدوا من أي شيء يأكلونه. إن دراسة إحصائية خاضعة لرقابة صارمة في هذا المجال، لن تفشل بحصولها على اهتمام عالمي عالي المستوى.

الجسدية وهي تعود لإزهارها من جديد. كان لدي وهم امتلاك وعي مطابق لدوران دمي القاسي عبر الشرايين الرقيقة المتشعّبة التي شعرت بها تملأ المنحنيات البهيجة لكل كتف من كتفيّ، مثل شعاب مرجانية حية مغروسة في جسدي.

وفجأة، ألقيت نظرة سريعة على رؤوس أظافري، وأصابني الرعب لرؤية شعر قط أبيض ينبثق منها. وكان لدي إحساس داخلي غامض نما وازداد دقة بأن تلك الإشارات تُنذر باقتراب الحبّ — وكنت في طريقي لمعرفة الحبّ في ذلك الصيف! واستكشفت يداي على جسد ظهيرة أحد أيام كاداكيس الرهيبة، غياب الوجه الأنثوي الذي كان سلفاً يتجه نحوي من بعيد. وهو لن يكون أحداً سوى غالوشكا، المفعمة بالحياة، وبجسد امرأة جديد — تتقدم، لأنني رأيتها دوماً وهي تمشي وتتقدم.

منذ لحظة وصولي إلى كاداكيس، وأنا أتلقى هجوم انتكاسات فترة طفولتي. السنوات الست للمرحلة الثانوية، وثلاث سنوات في مدريد، والرحلة التي قمت بها للتو إلى باريس — جميعها انحسرت في الخلفية واختفت تدريجياً بينما استحوذت على عقلي أخيولات طفولتي كلها وتمثيلاتها رافعة إشارة النصر. ومرة أخرى، رأيت أمام عيني المذهولتين المنتشيتين صوراً لا نهاية لها، ولا أستطيع أن أحدد مكانها وزمانها بدقة، لكنني عرفت بشكل مؤكد أنني كنت قد رأيتها عندما كنت صغيراً. رأيت بعض الغزلان الصغيرة الخضراء كلها باستثناء قرونها التي كانت مخضّبة بالوردي. بالتأكيد كانت صوراً لذكريات ماضية. لكن ملامحها كانت غريبة جداً بحيث كان من السهل علي أن أعيد إحياءها بالرسم كما لو أنني أنسخها عن صورة مرئية.

ورأيت أيضاً صورة معقدة ومكثفة: صورة وجهية لرأس أرنب بدت عينه ذاتها عيناً لببغاء أكبر حجماً وملوناً بشكل واضح. كانت هذه العين أيضاً عيناً لرأس آخر وهو رأس سمكة تحتضن الاثنين السابقين

معاً. وكنت أحياناً أرى هذه السمكة مع جراد مثبّت في فمها. أما الصورة الأخرى التي غالباً ما كنت أراها عندما أجذف بالقارب، فكانت تحتوي عددا من المظلات الصغيرة المتعددة الألوان. وقد رأيت هذه الصورة عدة مرات بينما كنت أمارس أعمالاً صعبة من أنواع أخرى. وهذا التنوع في ألوان تلك المظلات ترك لدي بهجة هائلة استمرّت معي لما تبقى من يومي.

وبعد فترة قصيرة أمضيتها بالكامل في الانغماس في هذا النوع من الاستدعاء النزوي لذكريات طفولتي، قررت أخيراً أن أشرع بلوحة[1] أحدد فيها ذاتي حصرياً لإعادة إنتاج كل من تلك الصور بالدقة الممكنة، وأعمل بما يتناسب مع درجة تأثيرها وكثافته، واتبعت من أجل ترتيبها معياراً واحداً يتعلق فقط بالشعور التلقائي الذي يمليه القرب الوجداني والتعلّق. وغني عن القول أنه لن يكون هناك مداخلات لذوقي الخاص. سوف أتبع متعتي ورغباتي البيولوجية القصوى التي لا

---

[1] هذا العمل غير الطبيعي والمقلق لأعلى درجة، كان في تفاصيله التشريحية بعيداً جداً عن "الملصقات الدادائية" التي كانت دوماً ترتيباً شعرياً متعلقاً بالخلفية. وكان أيضاً معاكساً للوحات "تشيريكو" الميتافيزيقية، لأن المشاهد هنا يُجبر على تصديق الإيمان بالواقعية الأرضية للموضوع ذي الطبيعية البيولوجية المسعورة الأولية. وعلاوة على ذلك كان معاكساً للنعومة الشعرية للوحات مختصرة معينة تستمر كالعث الأعمى، بالتعثر بغباء بالمصابيح المطفأة لضوء الأفلاطونية الجديدة.

وأنا عندئذٍ، وأنا وحدي الرسام السريالي الحقيقي، على الأقل بحسب التعريف الذي أطلقه رئيسها (أندريه بريتون). والأكثر من ذلك، عندما رأى (بريتون) هذه اللوحة، تردد لوقت طويل أمام عناصرها "البرازية" – يظهر في اللوحة شخصية تُرى من الخلف، وسروالها الداخلي ملوث "بالبراز". والجانب اللا إرادي من هذا العنصر، المميز جداً في (الأيقونات النفسية المَرَضية) كان يجب أن يكون كافياً للإنارة عليه. لكنني كنت ملزماً بتبرير تصرفاتي من خلال القول أنها كانت مجرد صورة تمثيلية. ولم تُسأل أية أسئلة أخرى. لكنني عندما كنت أُحاصر، كان من المفروض عليّ أن أجيب بأنه كان تصويراً "للبراز" بحد ذاته. وهذا التضييق المثالي كان من وجهة نظري "الرذيلة الفكرية" الأساسية للمرحلة المبكرة من السريالية. لقد تأسست التسلسلات الهرمية في الأماكن التي لم يكن هناك داعٍ لها. وبين البراز وقطعة الكريستال، وتحديداً بحسب حقيقة أنهما ظهرا من الأساس المشترك للاوعي، لم يكن هناك أي فرق بالتصنيف، ولا يجب أن يكون. وكان هؤلاء هم الرجال الذين أنكروا تراتبية التقليد!

يمكن التحكم بها وحسب. وكان هذا العمل واحداً من أكثر الأعمال الحقيقية الأساسية التي يمكن أن تدعيها السريالية بحق.

كنت أستيقظ مع شروق الشمس وأجلس أمام لوح الرسم المثبّت إلى جانب السرير دون أن أغتسل أو أرتدي ملابسي. وبالتالي تكون الصورة الأولى التي أراها عندما أستيقظ هي اللوحة التي أبدأ بها، كما تكون الأخيرة التي أراها مساءً قبل أن أنتهي. وأحاول أن أذهب إلى النوم وأنا أنظر إليها بثبات، كما لو أنني من خلال محاولة ربطها بنومي، أنجح بعدم فصل نفسي عنها. وأحياناً أستيقظ في منتصف الليل وأضيء المصباح لأرى لوحتي مرة أخرى ولو للحظة واحدة. وأحياناً، وبين غفواتي أيضاً، أراقبها في ضوء الشمع المفرح. وهكذا أمضي كامل يومي جالساً أمام لوح الرسم، وعيناي تحدقان بثبات، محاولاً "رؤية" الصور التي ستظهر في مخيلتي. وغالباً ما أرى هذه الصور مثبتة تماماً في اللوحة. وبعدها، وفي اللحظة التي تأمرني بها تلك الصور، أرسم، أرسم بتلك النكهة الحارقة التي تكون لدى كلاب الصيد اللاهثة في اللحظة التي تطبق فيها فكيها على طريدة تم قتلها في هذه اللحظة بطلقة أصابت هدفها بشكل جيد.

وكنت أنتظر أحياناً ساعة كاملة دون أن تخطر على ذهني صورة واحدة. وعندئذٍ أبقى في حالة التشويق من دون رسم، ممسكاً يد الفرشاة بوضعية ثابتة، بحيث تبقى على استعداد للقفز على المنظر الموجود على لوح الرسم، ما إن يأتي انفجار دماغي بضحية جديدة سقطت للتو نازفة على أرضية مخيلتي. كما يحدث الانفجار أحياناً دون أن يثمر عن شيء. وأندفع أحياناً في مطاردة مسعورة غير مثمرة، لأن ما اعتقدت أنه كان طائر "حجل" قد تحول إلى مجرّد ورقة تمايلت بسبب اصطدام الطلقة بالغصن الذي يحملها. ولكي تتم مسامحتي على الخطأ الذي ارتكبته، عدت مطأطئاً رأسي، ومهيناً نفسي أمام معلمي. وعندئذٍ، أشعر بأصابع مخيلتي تحكّ باطمئنان ما بين حاجبي، ثم أغلق عينيّ بشهوانية ودودة.

ويحدث الهجوم العنيف داخل جبيني، كنت أحياناً أخدش نفسي بيدي الاثنتين. ولا بدّ للمرء أن يقول إن المظلات الملونة، ورؤوس الببغاوات الصغيرة والجرادات، كانت تشكّل خلف الجلد تماماً، كتلة محتشدة تشبه أعشاش الدود أو النمل. وعندما ينتهي الهجوم، أشعر من جديد بحدّة "المينيرفا - الألوهية" الهادئة تسري داخل يد الذكاء الباردة التي تمر على جبيني وأقول لنفسي: "لنذهب للسباحة". أتسلق الصخور وأجد بقعة محمية تماماً من الريح. وهناك، أستلقي في الحرارة الخانقة منتظراً اللحظة الأخيرة للنزول في المياة المثلجة، وأغطس من الصخور البارزة مباشرة إلى العمق الأزرق البروسي، الأكثر عمقاً بكثير من ذلك الذي كان في "برج الطاحونة. ويعانقُ جسدي العاري روحي بعناية فائقة ويقول لها "انتظري - إنها قادمة". لكن روحي لا تحبّ هذا العناق وتحاول التملّص من النبض العنيف لشبابي.

وقالت روحي: "لا تضغط عليّ بهذا الشكل، أنت تعرف تماماً أنها قادمة من أجلك".

وبعد ذلك، ذهبت روحي التي لم تستحم أبداً، وجلست في الظل.

وقالت لي ما قالته المربية لي عندما كنت صغيراً: "اذهب - اذهب والعب! وعندما تتعب تعال إلي وسوف نعود للبيت".

وبعد الظهر، انحنيت مرة أخرى أمام اللوحة ورسمت بروحي وجسدي حتى تلاشى الضوء من غرفتي. وسبب ضوء القمر مدّاً وجزراً أوموياً لروحي كي تصعد وتسقط ضوءها الذي لا نكهة له على الجسد الأنثوي الحقيقي المغطى بالملابس الصيفية الشفافة لغالوشكا الخاصة "بذاكرتي الزائفة"، والتي كانت تكبر باستمرار مع مرور السنوات. لقد أردتها من كل أعماقي. لكن مع شعوري بأنها قريبة جداً بالفعل، أردت الآن أن تطول متعة هذه التجربة وتعاستها إلى أقصى حد ممكن. وبينما أتوق للحظة قدومها الأكثر كثافة من أي شيء آخر في العالم قلت

لنفسي: "استفد لأقصى درجة، استفد لأقصى درجة من هذه الفرصة الرائعة. هي لم تصل حتى هذه اللحظة!" وبفرح هذياني، غرست أظافري في كل لحظة ثمينة بقيت لدي لأستمر في وحدتي. ومرة أخرى، انتزعت من جسدي متعة الوحدة المحببة الأحلى من العسل، بينما أعضّ طرف وسادتي المضاءة بشعاع القمر، غارزاً أسناني فيها حتى قطعت النسيج المبلل بلعابي. وصرخت روحي. "أي، أي!" وعندئذٍ ذهبت لأنام إلى جانبها دون أن أتجرأ على لمسها.

إنها تستيقظ قبلي، وعندما أفتح عيني مع شروق الشمس، أجدها تقف مسبقاً إلى جانب لوحتي وتراقبها. ألم تنم أبداً؟

وعذرت نفسي على القساوة التي أوشك أن أرتكبها بإعلان أن كل شيء أقوله الآن عن "روحي" هو رمزي. لكنه كان رمزاً مألوفاً احتلّ مكاناً محدداً تماماً في أخيولاتي في ذلك الوقت. وقد ذكرت هذه الملاحظة في القصة التي أوشك أن أقصّها عليكم، وبعيداً عن كونها رمزاً، فهي تحتوي "الهلوسات" الحقيقية، الوحيدة التي اختبرتها في حياتي، ولهذا السبب تحديداً، من الضروري أن أرويها بدقة، بينما أتخذ الاحتياطات اللازمة كي لا تختلط مع باقي أخيولاتي وصوري. وهذا، ومع أنه اندمج مع كثافة بصرية هائلة، إلا أنه لم يحقق درجة أن يكون هلوسة.

كان ذلك يوم الأحد، وقد نهضت متأخراً في هذا اليوم كالعادة، وكانت الساعة حوالي الثانية عشرة والنصف. واستيقظت حينها بسبب رغبة ملحّة للدخول إلى الحمام. نهضت ونزلت إلى الحمام الذي كان في الطابق الثاني. وقمت بمحادثة قصيرة مع والدي بعد أن خرجت من الحمام الذي بقيت فيه خمس عشرة دقيقة، وهذا ما أكده والدي نفسه. (هذا يلغي احتمال أنني حلمت بأنني نزلت إلى الحمام — وهذا يعني أنني كنت مستيقظاً، ومستقيظاً بشكل جيد). صعدت إلى غرفتي مجدداً، ولم أكن قد انتهيت من فتح الباب عندما رأيتها تجلس أمام

النافذة، امرأة طويلة ترتدي ملابس نوم. وعلى الرغم من "الواقعية الحقيقية" والتجسد الطبيعي لهذا الكائن، أدركت فوراً أنني كنت ضحية هلوسة[1]، وعلى عكس كل شيء توقعته، لم أتأثر بأي شكل من الأشكال. وقلت لنفسي: "ادخل إلى سريرك بحيث تستطيع أن تراقب هذه الظاهرة المذهلة براحتك التامة". وعدت إلى سريري، لكنني لم أستلق. وعلى أية حال، خلال اللحظة التي توقفت فيها عن النظر إلى الشبح لأضع الوسادة خلف ظهري، اختفت. ولم أرها تتلاشى تدريجياً، لكنني عندما نظرت باتجاهها، كانت قد اختفت ببساطة.

إن الحقيقة التي لا تقبل الجدل لهذا الشبح جعلتني أتوقع إمكانية أن يتبعه أشباح أخرى. ومن حينها فصاعداً، وعلى الرغم من حقيقة أن الظاهرة لم تتكرر، فإنني في كل مرة أفتح فيها الباب، أكون واعياً لإمكانية أن أرى شيئاً غير طبيعي. وعلى أية حال، أنا نفسي "لم أكن طبيعياً" في تلك الفترة. ربما يمكن تعريف الحدود بين ما هو طبيعي وغير طبيعي في الإنسان، لكن رسم هذه الحدود يبدو مستحيلاً. لكن عندما أقول إنني كنت غير طبيعي في تلك الفترة، فأنا أعني بالمقارنة

[1] وبعد هذه "الهلوسة" التي أستطيع أن أجزم بالكامل بها بناءً على شهادتي الخاصة، كان هناك حادثتان آخريان من الطبيعة ذاتها وأستطيع أن أجزم بهما أيضاً لأنهما كانتا تتعلقان بوالدي الذي أثق فيه بالمطلق. لقد شرح لي أنه عندما كنت في الثالثة من عمري تقريباً، حدث أن كنت جالساً ألهو على شرفة كبيرة جداً وخاوية بالمطلق. وراقب عدد من أفراد عائلتي الاهتمام والرضا الذي أظهرته في لعبتي المعتمدة على جمع كتل صغيرة من التراب ومراكمتها. فجأة، بدوت وكأنني توقفت عن اللعب ونظرت أمامي، حيث لم يكن هناك شيء سوى الفضاء الفارغ، وانسحبت تحت سيطرة خوف عنيف بحيث لم أتوقف عن البكاء لباقي ذلك الصباح. جميع أولئك الذين حضروا هذا المشهد، اقتنعوا بأنني رأيت شبحاً مرعباً. والحادثة الأخرى وقعت في بيتنا في كاداكيس. كنا مستعدين للذهاب في نزهة في القارب ليوم واحد. وفي اللحظة الأخيرة عاد والدي إلى البيت ليحضر منديلاً. كان قد دخل المنزل للحظات عندما خرج مرة أخرى شاحباً ومضطرباً، وشرح لنا أنه حالما دخل غرفة الطعام سمع وقع خطوات شخص ما ينزل الدرج. وعلى الفور، تعرّف على تلك الخطوات بسبب ميزاتها البطيئة وخطواتها الناعمة. ونظر نحو الباب ورأى عند العتبة جدتي (كانت قد ماتت منذ ثماني سنوات)، تحمل سلة صغيرة وملابس تريد أن ترتقها. ونزلت الدرجات الثلاث الباقية واختفت عن النظر.

مع اللحظة التي أكتب فيها هذا الكتاب. لأنه حققت منذ تلك الفترة تقدماً مذهلاً بهذا الجانب من الطبيعية، وهذا لا يتعلَق بالسلبية فقط، بل يتعلق بشكل خاص بالجانب المتعلّق بالتأقلم الفعّال مع الواقع.

وفي الوقت الذي أصابتني فيه هذه الهلوسة الأولى والوحيدة، حصلت على الرضا من كل ظاهرة من ظواهر شذوذي النفسي المتزايد، حتى بدا أن كل شيء يقدم حافزاً لها. وقمت بجهود محبطة لتكرار كل منها مضيفاً كل صباح بعض الوقود إلى حماقتي. ومن بعد، وعندما اكتشَفت أن ثمار حماقتي بدأت تهدد حياتي، رفضتها برفسة عنيفة واحدة، وتعهدت أن أقوم بحملة صليبية لاستعادة "فضائي الحي". وكانت صرخة تلك اللحظة الأولى – "اللامنطق من أجل اللامنطق" – هي الصرخة التي حولتها في نهاية السنة إلى الصرخة الأخرى التي جاءت سلفاً من الجوهر الكاثولكي "غزو اللامنطق". وهكذا فإن ذلك "اللامنطق" الذي كنت في الفترة التي أتحدث عنها أتعامل معه بصدق كامل، وبطقوس تعود إلى قدسية حقيقية، هو ما رفضته في نهاية السنة. وبينما كنت أستفيد من الأسرار التي انتزعتها منه أثناء تداخل علاقاتنا، انطلقت بعناد وبطولة، وبغضب شديد لمحاولة غزوه وتدميره من دون رحمة، وحاولت بالوقت نفسه أن أسحب المجموعة السريالية بكاملها لتقف إلى جانبي[1].

في العام 1929. كنت إذن في قرية "وايت واشد" في كاداكيس حيث كانت طفولتي ومراهقتي. ووصلت إلى مرحلة الرجولة محاولاً بكل الوسائل الممكنة أن أصبح مجنوناً – أو بالأحرى، أن أنفذ كل ما يجول في طاقة وعيي، لأرحب بهذا الجنون الذي شعرت به يتخذ مكانه في نفسي وأساعده. "أي! أي!"، وبكت روحي. وفي هذه المرحلة، بدأت

---

[1] أنا لم أنجح في هذا. لقد هدمت الانشغالات السياسية كل النشاطات السريالية مثل سرطان. لقد تبنوا شعاراتي، لأنها كانت شعارات مستبصرة، لكن هذا لا يكفي لضخ الحيوية في الحركة. ورأيت أنه من الآن فصاعداً عليّ أن أفوز أو أموت، دون مساعدة من أي شخص.

تداهمني نوبات من الضحك، وكنت أضحك كثيراً بحيث أُجبر أن أستلقي على السرير كي أرتاح، وأصبح عندي ألم فظيع في خاصرتيّ. لكن ما الذي كان يضحكني؟ لا شيء في غالب الأحيان. وكمثال، كنت أتخيّل ثلاثة خوارنة يركضون بسرعة كبيرة ضمن مجموعة واحدة على دَرَج متحرك يابانيٍ كالدرج الموجود في "تارسكوي سيلو". وتماماً في اللحظة التي أوشك فيها الخوري الأخير، الذي كان أصغر من الباقين، أن يترك الدرج المتحرك، رفسته بقوة من الخلف. ورأيته يتوقف كفأر تم اصطياده، ويستعدّ مجدداً ويقفز فوق الدرج ويهرب بالاتجاه المعاكس حيث ذهب الآخران.

لقد بدا لي رعب الخوري الهزيل في اللحظة التي رفسته فيها، من أكثر اللحظات الكوميدية في العالم، ولم يكن عليّ إلا أن أتخيل هذا المشهد مرة أخرى حتى أتلوّى من الضحك.

ومثال آخر من بين أمثلة لا تُعدّ ولا تُحصى من هذا النوع، كان تخيّلي لأشخاص محددين أعرفهم مُسبقاً، مع بومة صغيرة حطّت على رؤوسهم، وهي بدورها تحمل "برازاً" على رأسها. وكانت تلك البومة منحوتة وقد تخيلتها بأدق تفاصيلها. ويجب أن يكون "البراز" دوماً جزءاً من "برازي" أنا. لكن كمية "البراز" التي تحمله البومة لم يكن منتظماً دوماً، بل كان يختلف بحسب الأشخاص الذين أريد أن أضعه على رؤوسهم بالتناوب في مخيلتي. وكان الأثر الكوميدي على أشخاص معينين منهم، يستفزّ لدي نوبة قوية من الضحك، بينما لم يكن فعّالاً بالنسبة لآخرين، وإن حدث هذا فإنني أبعده عن رأسه وأحاول مع شخص آخر. وفجأة أجد الرأس ذا الملامح التي تتناسب مع بومتي. وما إن تتخذ مكانها على رأسه، حتى أتأمل في العلاقة المرحة الفورية الدائمة التي تأسست بشكل ساحر بين وجه الشخص الذي أعرفه، والذي لا يعي أبداً ما وضعت للتو على رأسه، ونظرة البومة الثابتة وهي تتوازن كي تضع "برازها"، وهنا تصدر

عني انفجارات ضحك متقطع تسمعه عائلتي في الطابق السفلي وتتساءل عما يحدث معي. ويقول والدي الذي يتسلى ويشغل نفسه بسقاية الورود الذابلة بتأثير الحرارة: "هذا الطفل يضحك مجدداً![1]"

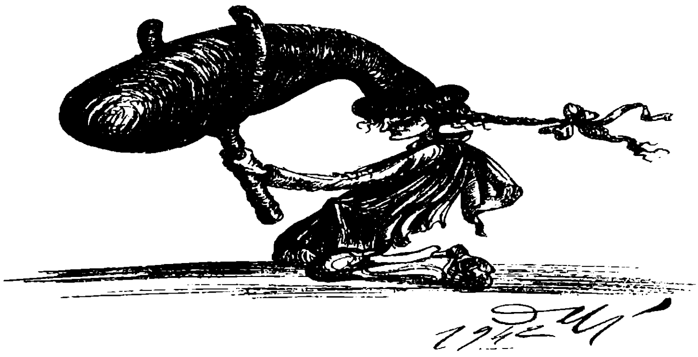

كنت تحت هذه الظروف عندما استلمت برقية من تاجر اللوحات "كاميل جيومان". وكنت قد توصلت بمساعدة والدي ونصائحه، وعبر سلسلة من الرسائل، إلى اتفاق أساسي يقوم على أن أستلم مبلغ ثلاثة آلاف فرنك فرنسي، وأن يتعامل مع كافة اللوحات التي سأرسمها خلال الصيف ويعرضها في معرضه في باريس في بداية الشتاء. وسوف يأخذ نسبة مئوية على بيع كل لوحة، ويحتفظ إضافة لذلك بثلاث لوحات من اختياره. وقد وجد والدي هذه الشروط مشرّفة، بينما لم أعطِ هذه القضية لحظة واحدة من تفكيري. وبما يخص هذه المسألة، لم يكن لديّ فكرة دقيقة عن قيمة المال، وكان لا يزال لدي انطباع بأن عدة أوراق نقدية مجموعها خمسمئة فرنك، تدوم أكثر من ورقة نقدية واحدة من فئة الألف فرنك. وأعرف تماماً أن هذا سيبدو غير مُحتمل بالنسبة للقراء، ولا يمكن إلا لشهادة من أصدقائي الذين عرفوني في تلك الفترة أن تزيل شكوكهم التي لا أساس لها من الصحة في الواقع، لأنني أنا نفسي أول من يطلعهم على خدعي.

[1] لا يزال أقربائي يسمونني الطفل.

Termite (Névroptère)

ووصل "جيومان" وكان متحمساً للوحة "Le Jeu Lugubre – اللعبة الحزينة" التي لم تنته بالكامل. وصل بعدها بفترة قصيرة "رينيه ماغريت" مع زوجته، وكتب إليّ "إلوارد" أنه سيصل لاحقاً. كما وصل "لويس بانيل" في الفترة ذاتها تقريباً.

وهكذا، خلال أربعة أيام كنت محاطاً للمرة الأولى بالسرياليين الذين انجذبوا إلى هذا المكان بسبب الشخصية غير العادية التي اكتشفوها بي. ولأن كاداكيس لم تقدّم أياً من وسائل الراحة التي لا غنى عنها، إن لم يكن للمرء منزله الخاص.

لقد تفاجأ الجميع بنوبات الضحك، ولم تساعد تلك المفاجأة التي كنت ألحظها على وجوه الجميع إلا بزيادة كثافة نوبات الضحك. كنت مسترخياً مرة على الشاطئ لأستمتع ببرودة المساء، بينما يدور بين الآخرين نقاش فلسفي عميق، وفجأة قاطعتهم مُظهراً أنني سأقول شيئاً ما. لكنني في اللحظة التي فتحت فيها فمي، انفجرت بالضحك مجدداً، وعندئذٍ تخليت عن الكلام تماماً، وتابعت الضحك بدلاً من ذلك. وقَبِلَ أصدقائي السريالونِ نوباتي باستسلام، واعتبروها إحدى سلبيات العبقرية الواضحة جداً بي. وكانوا يقولون فيما بينهم: "لا تسأل دالي ما رأيه بهذا، لأن سيضحك، وسيبقى يضحك عشر دقائق على هذا".

ومن فترة لأخرى، ازدادت نوبات الضحك عنفاً، ولمحتُ وجود نظرات وهمسات تدور حولي، وعرفتُ منها مقدار القلق الذي بدأت تسببه حالتِي. لكن هذا بدا لي كوميدياً كأي شيء آخر، لأنني كنت أعرف جيدا أنني أضحك بسبب الصور التي أتخيلها. وقلت لهم: "لو تستطيعون رؤية ما أتخيله، فسوف تضحكون أكثر مما أضحك". لكنني لم أعد أستطيع أن أقاوم الفضول الغريب الواضح على وجوههم.

ثم بدأت: "كمثال، تخيلوا أنكم ترون شخصاً معيناً محترماً جداً. ثم تابعوا وتخيلوا بومة منحوتة صغيرة تحطّ على رأسه – بومة نموذجية، باستثناء الوجه الواقعي جداً. ستفهمون ما أعنيه". وحاول كل شخص جدي منهم استحضار الصورة التي وصفتها للتو، ويقولون: "نعم، نعم!

"وبعد ذلك، تخيلوا أن على رأس البومة، هناك شيء من "برازي!" وكررت: "من برازي أنا!"

لا يزال الجميع ينتظرون ولم يضحك أيٌّ منهم.

وقلت: "هذا كل شيء!"

وعندئذٍ ضحك الجميع ضحكة باهتة، كتعبير عن الاحترام لي.

وقلت: "لا، لا، أرى أنها لم تضحككم أبداً. لأنكم إن استطعتم أن تروا كل هذا كما أراه أنا، فسوف تضحكون كثيراً".

وكنت أتلوّى من الضحك في صباح أحد الأيام عندما توقفت سيارة أمام منزلنا. وكان الشاعر السريالي "باول إلوارد" برفقة زوجته. كانا متعبين من الرحلة الطويلة من سويسرا حيث كانا يزوران "رينيه كريفيل". وقد تركانا على الفور تقريباً كي يرتاحا، وقررنا أن نلتقي في الساعة الخامسة في فندق "ميرمار" الذي ينزلان فيه.

ووجدت أن لـ "غالا" زوجة إلوارد وجه ذكي جداً، لكنها بدت ذات مزاج سيء، وبدت منزعجة لأنها اضطرت أن تأتي.

وفي الساعة الخامسة، ذهبت مجموعتنا السريالية الصغيرة لتلتقي إلوارد. وشربنا في ظلال أشجار الدلب. وشربتُ البراندي وغرقت بنوبة صغيرة من الضحك. وتم توصيف "حالتي" لإلوارد الذي بدا مهتماً جداً بالأمر. لكن الآخرين الذين اعتادوا على نوباتي، بدا من خلال ملامحهم أنهم يقولون: "هذا ليس شيئاً حتى الآن، انتظر قليلاً وسوف ترى!"

وفي المساء، وأثناء المشي، تحدثت مع غالا بمواضيع ثقافية، وذُهلت فوراً بدقة الأفكار التي ألمحت إليها. كما أنها اعترفت لي في وقت

سابق، بينما كنا نشرب في ظلال أشجار الدلب، أنها اعتقدت أنني مخلوق بغيض لا يُحتَمل بسبب شعري المخضّب بمواد لزجة وبسبب أناقتي التي رأت فيها "النعومة الأرجنتينية الخاصة براقصي التانغو". وبالفعل، كانت إقامتي في مدريد قد تركت أثرها عليّ بحب الزينة. وكنت أبقى في غرفتي عارياً تماماً وبشكل دائم، لكن حالما أريد أن أذهب إلى القرية، أمضي ساعة في تحضير نفسي، حيث أعالج شعري بالكريمات، وأحلق بعناية كبيرة، وألبس سراويل بيضاء مرتبة وصنادل فاخرة وقمصاناً حريرية ناصعة. كما أرتدي قلادة من اللؤلؤ المقلّد، وشريطة قماشية معدنية حول المعصمين. وقد صنعت من أجل الأمسيات قمصاناً من مواد أكثر كثافة بياقات منخفضة وأكمام كبيرة صممتها بنفسي وأعطتني مظهراً أنثوياً بالكامل.

وفي طريق العودة تحدثت إلى إلوارد. ورأيت أنه كان شاعراً من صنف لوركا — أي أنه كان من أفضل الشعراء وأكثرهم حقيقية. وانتظرت بفارغ الصبر مديحه للمنظر الطبيعي في كاداكيس، لكنه "لم يكن قد شاهده حتى الآن". ثم حاولت أن أضع البومة الهزيلة على رأسه لأرى الأثر الذي سينتج عن ذلك، لكنني لم أضحك، وحاولت الأمر ذاته مع لوركا — ولم ينجح الأمر أيضاً. وحاولت أيضاً مع شعراء آخرين. لكن لا. بدا الأمر كما لو أن ميزة البومة التي تحثّ المرح قد اختفت. وحاولت مراراً وتكراراً، وحتى مع أولئك الذين ظهرت معهم سابقاً النتائج الأكثر فعالية - لا شيء. بعد ذلك وبشكل مفاجئ، تخيلت البوم مقلوباً رأساً على عقب، ورأسه ملتصق على الرصيف بسبب "برازي". وهذا حثّ نوبة عنيفة تقلبت بسببها على الأرض قبل أن أتابع مشواري.

رافقنا إلوارد إلى فندق ميرمار، ووافقنا على اللقاء جميعاً على الشاطئ أمام منزلنا في الساعة الحادية عشرة صباحاً من اليوم التالي بهدف السباحة.

استيقظت في اليوم التالي قبل شروق الشمس، تنتابني حالة قلق هائل. إن فكرة وجود أصدقائي، وخاصة إلوارد، في الساعة الحادية عشرة على الشاطئ أمام نافذتي، إضافة إلى وجود ضرورة لأن أكون مهذباً وأخرج إليهم متوقفاً عن عملي قبل ساعة من المعتاد، قد أزعجتني ودمّرت صباحي سلفاً. وبإلقاء نظرة من النافذة، غنّى الصباح أغنية نفاد صبري، وسرت القشعريرة في جسدي مع الحصى التي حرّكها أول صياد. وكنت أرغب أن أوقف شروق الشمس التي سطعت بقوة سلفاً، لأنني بإعادتها إلى البحر الذي خرجت منه، قد أمنع شنّ المعركة غير الأكيدة التي أعلنها إحساسي الداخلي لي.

لكن بأية معركة كنت أفكر؟ لقد بزغ الصباح كما يبزغ كل يوم، وربما بهدوء أعلى قليلاً من ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة. وبعد ذلك "الفراغ الصباحي" الذي ترك قلبي في حالة تشويق لأشكال الحياة التي لا تُعدّ ولا تُحصى، والتي كانت تُثار وتستيقظ مع الضجيج اليومي الذي يُسمع آلاف المرات — فتحت الخادمة باب المطبخ، وقد تلقى عدة ضربات قوية قبل أن يُدار المفتاح فيه، وقرر أن ينفتح أخيراً بأزيز يشبه صوته انسحاق الرمل. ثم يمرّ الراعي وأسمع رنين أجراس قطيعه. وأغلقت عيني لأحصل على الأثر الكامل لهذا الصوت، وللترحيب بإجلال برائحة الخراف المزعجة المُسكرة ذات الأثر السمفوني. وتعبق في وسط القطيع رائحة الكبش الفحل المتغطرس، وتدوي في خياشيمي كعلامة على أعضاء تناسلية مهيمنة. ولاحظت من بين مئات الأشياء الأخرى، أن إيقاع مجاذيف الصيادين، يأتي دوماً بعد عشر دقائق من مرور القطيع. وكل ذلك يكرر نفسه زمنياً، وبالطريقة نفسها كما في الأيام السابقة. ومع ذلك.... ماذا سيحدث؟

كنت في كثير من الأحيان أنهض من أمام حامل لوحاتي بذرائع مختلفة. وحاولتُ أن ألبس أقراط أختي عدة مرات لأنني أردتها لنفسي

لكنني رأيت أنها ستكون مزعجة أثناء السباحة. ومع ذلك، وضعت قلادتي. ثم قررت أن أنهض من أجل إلوارد تحديداً. من الأفضل بكثير أن أنزل هكذا من دون أية ملابس، وأن أترك شعري على حاله بدلاً من تمسيده بالكريمات كما هي العادة، فقد رآني البارحة بتلك التسريحة، وسوف أضع الكريمات مساءً أيضاً. وفكرت في نفسي، عندما يصلون، سوف أنزل مرتدياً قلادتي وبشعري الأشعث، وبيدي علبة الألوان المليئة بفراشي الرسم. وإن أضفنا إلى ذلك سمرتي التي لوحتها الشمس حتى أصبحت بلون بشرة العرب، فربما أترك انطباعاً جيداً لديهم. ومع ذلك لم أكن راضياً عن ملابسي. وباستسلامي بشكل نهائي لأية محاولة جديدة في الرسم، أمسكت قميصي وقصصته بشكل غير منتظم من الأسفل، وجعلته قصيراً جداً بحيث لا يصل إلى سرّتي. ثم لبسته وبدأت أقطعه ببراعة: أحد الثقوب يعرّي كتفي، وآخر يظهر الشعر الأسود على صدري، ومربع كبير من جهة اليسار يكشف عن حلمة صدري التي كانت سوداء تقريباً.

وبعد أن ثقبت القميص في كل الأماكن المرغوبة، واجهتني مشكلة أزرار القميص: هل أتركه مفتوحاً أم مغلقاً؟ لا هذا ولا ذاك. لقد أغلقت الزر العلوي وفصلت الياقة كلها بالمقص. لكن المشكلة الأصعب كانت في جذع القميص الذي بدا رياضياً جداً، ومن المستحيل أن يتناسب مع تركيبة الرسام الفقير والعربي الغريب الذي أحاول أن أظهر بمظهره. وعندئذٍ خطرت لي فكرة أن أقلب الجذع داخله خارجه، لأنه كان من القطن الأبيض المشوّه ببقع الصدأ التي تركها حزامي المعدني.

وما الذي يمكن فعله بما يخص "موضوع" زي السباحة المحدود لامحالة؟ ها قد بدأت للتو. لقد حلقتُ شعر إبطي لكنني لم أستطع تحقيق الأثر اللامع المثالي الذي رأيته للمرة الأولى على سيدات مدريد الأنيقات، ولهذا فقد أحضرت "النيلة المستخدمة في الغسيل" ومزجتها مع البودرة، وصبغت بها إبطي. وكان الأثر رائعاً جداً للحظة، لكن

تعرّقي جعل هذه الصبغة تسيل تاركة خيوطاً لامعة تزحف على جانبي. وعندئذٍ مسحت إبطي، وأصبحت بشرتي المهتاجة سلفاً حمراء تماماً من الفرك. وبعدها خطرت لي فكرة جديدة، وبدت لي هذه المرة أنها رائعة وتستحق العناء. لقد فهمت أن الزرقة المصطنعة واللون الوردي اللامع لم تكن أشياء هامة، بل إن الدم الجاف المتخثر على هذا الجزء من الجسد، هو ما يظهر الانطباع الاستثنائي جداً. وكان هناك بقعة دم صغيرة جداً بسبب الحلاقة، وهو ما أكّد لي الفكرة التي تجول في رأسي. وهكذا، ومن دون انتظار، أمسكت الشفرة وبدأت أحلق من جديد وأضغط بشدة حتى بدأ إبطي ينزف. ولم يبق علي سوى أن أترك الدم يتخثر، كما بدأت أضع شيئاً منه في كل مكان وخاصة على ركبتيّ. وعندما أمتعني لون الدم على ركبتي، لم أستطع مقاومة إغواء أن أجرح إحداهما. يا له من عمل! وهو لم ينتهِ حتى الآن. وبدا لي أنني أرغب جداً بتغيير هيئتي، وشعرت في كل لحظة بأنني أزداد عشقاً لمظهري الجديد. وببراعة شديدة، وضعت زهرات حمراء قانية خلف أذني.

وكنت أعشق نوعاً محدداً من العطر، لكن لم يكن لدي سوى "الكلونيا" التي تثير ألماً في معدتي. ولهذا كان علي أن أبتكر شيئاً آخر بدلاً عنها. آه، لو أستطيع فقط أن أتعطر برائحة الكبش الذي يمرّ كل صباح! ثم جلست وتأملت لوقت طويل في هذا النوع من العطر، ولم أجد الحل المناسب. لكن انتظر! لقد وقف سيلفادور دالي على قدميه. وهذه الوقفة هي الحل، لأنها تعني أن شيئاً غير طبيعي قد خطر بباله، وإلا فما هو الشيء الآخر الذي يمكن أن يسبب هذه الإثارة؟

ثم نهضت وأشعلت جهاز الحرق الذي يعمل بالكحول، والذي أستخدمه في النقش على اللوحات، وبدأت تسخين كمية من الماء كنت قد أذبت فيها بعض غراء السمك. وبينما أنتظر الماء كي يغلي انطلقت إلى الجهة الخلفية من البيت حيث تقبع كميات من روث الماعز التي كنت

أشمّ رائحتها غالباً بعد حلول الظلام في الطقس الرطب. وقد أمتعتني بشكل كبير لكنها لم تكن كاملة. وبالعودة إلى مرسمي، وضعت ملء قبضتين من السماد في الغراء المذاب بالماء. وباستخدام فرشاة كبيرة، حرّكت وحرّكت حتى أصبح عجينة متجانسة. وللحظة ما، حجبت رائحة غراء السمك النتنة روث سماد الماعز، لكنني توقعت أنه عندما يصبح "لزجاً" ستطغى رائحة الماعز عليه. لكن سرّ هذا العطر القوي بدأ يعبق في البيت كله، كان عبارة عن زجاجة زيت خاص كنت أستعمله أيضاً في النقش على لوحاتي، والذي كانت نقطة منه كافية كي تعلق بالمواد بكثافة تستمرّ لأيام. وقد سكبت نصف الزجاجة — وحدثت معجزة المعجزات! — وانبثقت رائحة "مطابقة تماماً" لعطر الكبش الذي كنت أبحث عنه كما لو أنها عملية سحرية حقيقية. وتركت المزيج كله كي يتحول بعد تبريده إلى كتلة لزجة، ثم أخذت جزءاً من المزيج ومسحت جسدي كله به.

وبالتالي أصبحت مستعدّاً، مستعداً لأي شيء؟ لقد دقّت الساعة الحادية عشرة في برج كاداكيس. وذهبت نحو النافذة، لقد كانت هناك. من هي؟ لا تقاطعيني. وقلت إنها هناك وهذا يفي بالغرض! غالا، زوجة إلوارد. إنها هي! غالوشكا ريدفيفا! لقد أدركت ذلك للتو من خلال ظهرها العاري. كان ظهرها لا يزال يبدو كبشرة طفلة. وكان لعضلات القسم الناتئ من كتفيها ومن أسفل الخصر لذلك التوتر الحيوي المفاجئ الذي يظهر لدى المراهقين. لكن صِغَرَ ظهرها من جهة أخرى، كان أنوثياً وواضحاً للغاية، وكان يعمل كوصلة ممشوقة جداً بين الميلان الفخور الحيوي لجذعها وبين أليتيها الناعمتين اللتين يعرضهما النحول المُبالغ فيه لخصرها بشكل رائع.

كيف استطعت أن أمضي اليوم السابق معها دون أن ألحظها جيداً، أو أتوقع أي شيء؟ لكن هل هذا صحيح، وإن كان كذلك، فما هو معنى هذا الزي غير المعقول الذي أقحمت نفسي فيه إن لم يكن زيّ زواج

حقيقي؟ لا، لا! ليس حقيقياً! إنني من أجلها فقط لطّخت نفسي بروث الماعز، وصنعت الفتحات في أفضل قميص حريري لدي، ومن أجلها جرحت إبطي! لكن الآن، وبما أنها في الأسفل، لم أعد أتجرأ على الظهور بهذا الشكل. ونظرت إلى نفسي في المرآة ووجدت كل شيء مؤسفاً. وقلت لنفسي: "تبدو كوحش طبيعي، وأنت تبغض ذلك".

كان هذا صحيحاً — صحيح جداً أن "الهمجية" ليست إلا عمق الرجعية وحماقة البشرية الشائعة! وبسرعة أزلت كل زينتي واغتسلت بشكل جيد كي أستطيع أن أتخلّص من الرائحة الخانقة التي تنبعث مني. وعلى أية حال، أبقيت على قلادة اللؤلؤ، والأزهار التي قللت من عددها إلى أقل من النصف.

وخرجت للقاء غالا، لكن عندما أوشكت أن أحييها، سيطرت عليّ ضحكة هستيرية كانت تتكرر كل مرة أحاول فيها أن أجيب على سؤال تطرحه علي. ولم أستطع أن أنطق كلمة واحدة معها. وأصدقائي السرياليون الذين استسلموا لهذا الأمر، بدوا وكأنهم يقولون لأنفسهم وهم يلقون الحصى إلى البحر بلامبالاة: "لقد بدأنا للتو بيوم كامل من الضحك". لقد خاب أمل "بانيل" بشكل خاص لأنه قد جاء إلى كاداكيس ولديه فكرة أن يتعاون معي في سيناريو فيلم، في حين أنني كنت مستغرقاً جداً في معالجة جنوني، وليس لدي أفكار سوى عن هذا الأمر وعن غالا.

وبما أنني لم أكن قادراً على أن أتحدث معها، حاولت على الأقل أن أحيطها بالقليل من الاهتمام بكافة الوسائل الممكنة. وكنت أذهب لأبحث عن بعض الوسائد، أو كوب ماء، أو أجعلها تقف في مكان ترى فيه المنظر الطبيعي بشكل أفضل. وأحببت أن أساعدها وهي تلبس حذاءها أكثر من مرة. وإن حدث صدفة خلال مشوارنا، ولامستُ يدها، ترتعش أعصابي وأسمع أمطار الفاكهة نصف الناضجة لهلوساتي

الإيروتيكية تهطل عليّ، كما لو أن أثر ملامستها أشبه بعملاق حقيقي هزّ بوحشية شجرة رغبتي التي لم تنضج ثمارها.

لكن غالا، التي أدركت بحدسها الحيوي الذي لا مثيل له في العالم ردّات فعلي كلها بأدق تفاصيلها، كانت على بعد أميال من معرفة أنني قد وقعت في حبّها بجنون. واستطعت أن أرى أن فضولها يتقدّم باتجاه عمليّ لا لبس فيه. لقد اعتبرتني عبقرياً - نصف مجنون، ولدي جرأة أخلاقية كبيرة. وقد أرادتْ شيئاً ما - أرادت شيئاً يكون إنجازاً لأسطورتها الخاصة. وذلك الشيء الذي أرادته ربما كان حسب اعتقادها شيئاً لا يمكن لغيري أن يمنحه لها!

وقد أصبحت لوحة "Le Jeu Lugubre - اللعبة الحزينة" (وكان إلوارد هو من منحها هذا الاسم بموافقتي الكاملة) محطّ اهتمام كل شخص. وذُهل الرسامون بالبراز المرسوم بذلك الرضا الواقعي الدقيق عن الذات، لدرجة كانت المجموعة السريالية الصغيرة كلها تتساءل بقلق: "هل هو مُصاب بشذوذ أكل البراز أم لا؟ إن احتمال وجود هذا الانحراف المثير للاشمئزاز لدي، كانت بداية قلق ملحوظ يتزايد فيما بينهم. وكانت غالا من قررت أن تضع حدّاً لهذا الشكّ، وأخذتني جانباً في أحد الأيام وقالت إن هناك شيئاً مهماً جداً تريد أن تتحدث به معي، ورجتني أن أرتب موعداً لنلتقي ونتحدث دون أن تُثار نوبات ضحكي. وقلت لها إن هذا شيء خارج إرادتي، لكن حتى ولو حدثت نوبة الضحك خلال محادثتنا، فلن تعيقني عن الإصغاء الشديد، والإجابة على تساؤلاتها.

وحدث هذا على باب فندق ميرمار. ورتبنا لقاءنا مساء اليوم التالي. سأقابلها في الفندق ونذهب في نزهة وحدنا قرب الصخور حيث يمكننا أن نتحدث بحرية. إن الطريقة القلقة التي تلقّت بها إجابتي "لا أستطيع التحكم" بنوبات الضحك، منحتني حافزاً قوياً للضحك. وكنت على حافة نوبة منها، لكن استطعت بجهود خارقة أن أتحكم بها

للحظة. ثم قبّلت يدها وخرجت. وحالما تركتها انفجرتُ بنوبة ضحك لم تتوقف حتى وصلت إلى البيت. ومن وقت لآخر، كان عليّ أن أجلس على المقعد أو عتبة باب قبل أن أستطيع متابعة المشي. خلال ذلك، صادفت "كاميل جيومان" وزوجته التي كانت تراقبني منذ مدة. وتوقفا كي يتحدثا معي. "عليك أن تكون حذراً. لقد كنت متوتراً جداً لبعض الوقت. وأنت تعمل بإجهاد كبير جداً".

وفي اليوم التالي ذهبت للقاء غالا في الفندق، وخرجنا لنتمشى حول صخور "مولارز". وانتظرتُ أن تبدأ غالا حديثها بطريقتها بما أنها هي من أرادت ذلك، لكن بما أن الوقت كان يمرّ ولم تصل إلى هدف محدد، خشيت أنها لم تتخذ قرارها في كيفية البدء. ومع اعتقادي بأن ذلك ربما يكون مؤلماً لها، أخذت زمام المبادرة بنفسي وألمحت لها. وكانت ممتنة لي على هذا، لكنها نقلت إلي بنبرتها الصارمة أنها لا تحتاج مساعدة. وها أنا الآن أكتب لكم أول حديث لي مع غالا.

"يتعلّق الأمر بلوحتك Le Jeu Lugubre".

ثم عادت إلى صمتها الذي اكتشفت من خلاله الأمر برمّته. وكنت أريد أن أجيب فوراً على السؤال الذي تريد أن تطرحه، لكنني فضّلت أن أنتظر ما ستقوله، لأن هذا ربما يساعدني على استنتاج شيء آخر.

"إنه عمل هام جداً، ولهذا السبب تحديداً رغبنا أنا وباول وجميع أصدقائك بأن نعرف ما هي العناصر المحددة التي تشير لها، والتي يبدو أن لها أهمية خاصة. إن كانت تلك "الأشياء" تشير إلى حياتك الخاصة، فليس لدينا أي شيء مشترك، لأن هذا الشيء يبدو كريهاً بالنسبة لي، ومعارضاً لطريقة حياتي. وهو مهم لحياتك فقط ولا علاقة له بحياتي. ومن جهة أخرى، إن قررت أن تستخدم لوحاتك كوسائل للتبشير والدعاية — حتى إن كانت في خدمة ما تعتبره فكرة ملهمة — فنحن نعتقد أنك تخاطر بإضعاف عملك بشكل كبير، وتجعله ليس إلا وثيقة سيكولوجية مَرَضية".

وفجـأة، داهمـني إغـواء أن أكـذب عليهـا. إن اعترفـت لهـا أنـني "مُصاب بشذوذ أكل البراز" كما يتوقعون، فهذا سيثير الكثير من اهتمام الآخرين بي وسيجعلني ظاهرة غريبة في عيون الجميع. لكن نبرة صوتها كانت واضحة جداً، وكانت ملامح وجهها المجدة بنقاء الصدق الكلّي النبيل، متوترة جداً بحيث فرضت عليّ أن أقول الحقيقة فقط.

"أقسم لك أنني "لست مهووساً بالبراز". وأنني أبغض بإدراكٍ هذا النوع من الانحراف كما تبغضينه أنت. لكنني أتعامل مع "دراسة البراز" كعنصر رهيب، تماماً كما أتعامل مع الدم أو رهُاب الجراد".

وانتظرت من إجابتي أن تخفف شيئاً من قلق غالا المكثف وانشغال بالها. لكن على العكس، اعتبرت إجابتي شيئاً مطمئناً وتم استيعابه بشكل فوري مما جعلني أخمّن أن هناك قضية أخرى أكثر أهمية من "هوس أكل البراز" — السبب الحقيقي لحديثها معي، السبب الذي يشوّه وجهها ويقلقه. كان هناك حزن ناعم واضح كدّر سطح جلد بشرتها الزيتوني، وأستطيع أن أسمعه يتذمّر كما لو أن نسيم الشفق استيقظ فجأة. وكنت أوشك أن أقول لها:

"ماذا عنك؟ ماذا يجول في عقلك؟ أخرجي ما لديك!"

لكنني بقيت صامتاً مغموراً بحقيقة وجودها الفعلي الجسدي أمامي. ما الحاجة لكل هذا الاعتراف؟ ألا يُفصح الجمال الدقيق لوجهها بحد ذاته بأناقة جسدها؟ ونظرت إلى عربة فخرها بينما كانت تخطو متقدمة بخطا النصر المخيفة، وقلت لنفسي مع لمسة من فكاهتي المتبرعمة: "من وجهة النظر الجمالية، إن للانتصارات أيضاً وجوهاً يعتّمها الاستهجان. لذلك فمن الأفضل أن لا أحاول تغيير أي شيء!".

كنت أوشك أن ألمسها وأضع ذراعي حول خصرها، عندما أمسكت غالا بيدي بقبضتها الضعيفة وحاولت أن تضغط بكل ما لدى روحها من قوة. وكان ذلك هو الوقت المناسب للضحك، وضحكت بتوتر متصاعد بسبب

الندم الذي عرفت سلفاً أن ردّة فعلي المحيرة، والتي في غير محلّها، ستجعلني أشعر به. لكن بدلاً من أن تستغرب ضحكي، بدت وكأنها ابتهجت به. لأنها نجحت في الضغط على يدي مرة أخرى، بل ضغطت أكثر من السابق، بدلاً من أن تتركها بازدراء كما كان سيفعل أي شخص آخر. وبذلك الحدس الرائع لديها، استطاعت أن تفهم المعنى الدقيق لضحكاتي المتعذر تفسيرها لأي شخص كان. كما عرفت أن هذا الضحك مختلف عن ضحك أي "شاب" تقليدي. لا، لم يكن ضحكي تشكيكاً بل تعصّباً. وهو لم يكن عبثاً بل كان كارثة وجهنماً ورعباً. ومن بين كل انفجارات الضحك المرعب التي سمعتها مني سابقاً، كانت هذه الضحكة التي قدّمتها بإجلال، هي الضحكة الأكثر كارثية، الضحكة التي أجبرتني على أن ألقي بنفسي على الأرض عند قدميها، ومن أعلى ارتفاع ممكن.

قالت لي: "يا صغيري! يجب ألا يترك أحدنا الآخر".

كان قدرها أن تكون "غراديفا[1]" الخاصة بي، "هي التي تتقدم لتكون" انتصاري، زوجتي. لكن عليها من أجل ذلك أن تشفيني، وقد شفتني!

وها هي قصة هذا الشفاء الذي تحقق من خلال القوى التي لا تُقهر ولا يمكن تخيّلها لحب الجنس الآخر، لحب امرأة، الذي تم تصريفها باستبصار بيولوجي مصقول وساحر جداً يتجاوز عمق الفكر، وفي النتائج العملية، النتيجة الأكثر طموحاً لمناهج التحليل النفسي.

اتسمت بدايات علاقتي العاطفية مع غالا بطابع دائم من الشذوذ المرضي والأعراض النفسية العلنية الواضحة. كما أن انتقال نوبات الضحك من حالة مُبهجة إلى حالة مؤلمة تشنجية شبه هستيرية، أرعبتني

---

[1] غراديفا، رواية لـ "دبليو جينسن" وقد فسّرها سغموند فرويد في كتاب " der wahn und die trauma- الوهم والحلم في رواية غراديفا". غراديفا هي بطلة هذه الرواية، وقد أثرت في العلاج النفسي لبطل الرواية. وعندما بدأت قراءة هذه الرواية، وحتى قبل أن أقرأ تفسير فرويد لها، صرخت قائلاً: "غالا زوجتي، هي غراديفا بشكل أساسي".

على الرغم من ملامح الرضا الذاتي الذي حاولت أن أستجرّه من كل تلك الأعراض. كما أصبح انحداري إلى مرحلة الطفولة بارزاً من خلال حقيقة أوهامي الهذيانية التي كنت خاضعاً لها والتي تفترض أن غالا ذاتها هي الطفلة الصغيرة التي كانت في "ذاكرتي الزائفة" وأصبحت الآن في مرحلة النضج، والتي أسميتها غالوشكا في هذا الكتاب كصيغة تصغير لاسم غالا. وعادت أوهام "الدوار" الذي أُصاب به إلى الظهور بكثافة متزايدة تمثّلت في (ظهور المرتفعات، والرغبة بإلقاء شخص ما، أو ربما ألقي بنفسي من على جرف). وفي نزهة إلى الجرف الصخري في "كاب كرو"، ألححت بلا شفقة على أن تتسلّق غالا إلى أعلى قمم الجرف وأكثرها خطورة. وتضمّن هذا الصعود نوايا إجرامية واضحة من جهتي، وخاصة عندما وصلنا إلى أعلى نقطة من الطبقة الغرانيتية الوردية العملاقة التي تُسمّى النسر لأنها تميل بجناحين مفتوحين على منحدر خطير. وعلى هذا الارتفاع، ابتكرتُ لعبة وجعلت غالا تشارك فيها، وكانت عبارة عن دحرجة كتل صخرية غرانيتية كبيرة إلى الحافة، ثم إلقائها في الفراغ ومراقبتها وهي تُسحَق على الصخور الموجودة في الأسفل أو في البحر. ولم أتعب من هذا العمل أبداً، لكن الخوف من أن أدفع غالا بالصدفة بدلا من إحدى هذه الصخور، قد أجبرني على أن أتجنب هذه الارتفاعات، حيث شعرت بنفسي في خطر دائم، وتملكتني حالة من الرعشة والإثارة المبهجة التي أدت إلى تسرّب مدمّر لطاقتي.

والحقد ذاته الذي شعرت به نحو دوليتا، بدأ يشقّ طريقه في قلبي نحو غالا. لقد جاءت هي أيضاً كي تدمّر وحدتي وتبيدها، وبدأت أتغلّب عليها بعتاب ظالم بالمطلق يفترض أنها تمنعني من السير وحدي، وتتسلل خلسة إلى عقلي كما أنها "تسلبني شخصيتي". والأكثر من ذلك أنني كنت مقتنعاً بأنها سوف تؤذيني. وغالباً ما قلت لها، كما لو أن خوفاً مفاجئاً لسعني في مؤخرة عنقي:

"قبل كل شيء، لا تؤذيني، أرجوك لا تؤذيني. كما يجب ألا أؤذيك. لا يجب أن يؤذي أحدنا الآخر!"

ثم أقترح عليها أن نمشي نحو المرتفعات عند غروب الشمس كي نحظى برؤية مشهد جميل.

أريد الآن أن نستغلّ فرصة وصولنا إلى هذه البقعة التي نستطيع منها أن نحظى برؤية جيدة، وأتيح لكم أيها القراء، ولنفسي أيضاً، أن نرتاح بعد هذا المسير المتعب على المنحدرات الحادة، التي أجبرتكم على الاتجاه نحوها كي نصل إلى لحظة الذروة على طريق حياتي بالسرعة الممكنة. إنكم مرهقون، وكذلك أنا، وقد تجاوزنا أكثر من نصف هذا الكتاب بقليل. ولهذا، نحن نحتاج إلى بعض الوقت قبل أن نبدأ — بعد قليل، بعد أن نرتاح بما يكفي — ننزل المنحدرات على طريق آخر أكثر رثائية، بوتيرة فلسفية بطيئة تتناسب مع خبرتنا بالطريق الذي نسير عليه، عائدين إلى الألفة المطمئنة لمنازلنا.

وهكذا يا قرائي، يا من أبقيتموني برفقتكم حتى الآن، دعونا نستريح. دعوا نظرتكم تتوه على دقة مشهد كاداكيس البانورامي الموجود أمامكم الآن، وبينما أجسادنا ترتاح الآن، دعوني أثير أرواحكم بإخباركم تلك الحكاية المشتتة للذهن والمهيبة بآن معاً، والتي حكتها لي ممرضتي "لوسيا" وأفسرها لكم. وبينما أنتم تلهون بها، سوف تدركون حالياً بطلة الرواية الأنثى التي سأدعوها "غراديفا"، شخصية "غالا"، لكنكم ستدركون على الفور أيضاً ذاتي الخاصة في شخص الملك، الذي هو البطل الآخر لهذه الحكاية الشعبية الكاتلونية القروسطية، التي عمدتها أنا باسم: التمثال الشمعي وأنف السكّر.

حكاية التمثال الشمعي وأنف السكر

والآن، اجعلوا ألسنتكم تصطدم بحلقكم وتصدر صوت انـزاع سـدادة الفلين المقبول للأذن، لأنـني أوشـك أنـا نفسـي أن أنـزع سـدادات جميـع الزجاجات، بحيث أستطيع أنا وأنتم أن نثمل بكحول فضولكم المتعطش.

أنا أوشك أن أبدأ.... أنا أبدأ الآن... لقد بدأنا!

كان يا ما كان، كان هناك ملك له طريقته غريبـة في الحيـاة. كـانوا يحضرون له يومياً ثلاثاً من أجمل فتيات المملكة لسقاية أزهار "القرنفل" في حديقته. وكان يراقبهنّ من برجـه العـاجي، ويـتردد كـثيراً قبـل أن يختار الفتاة التي ستنام في السرير الملكي، بينما تُحرق الزيوت العطرية حوله. كما يجب أن تتزين بـالملابس الفـاخرة والجـواهر، ثـم تنـام، أو تتظاهر بالنوم طوال الليل. ولن يلمسها الملـك أبـداً بـل سـيراقبها فقـط. وعند الفجر، يقطع رأسها بضربة واحدة من سيفه.

ولتحديد خياره، كان على الملك أن ينحني على حافة برجه ويتوجّه إلى الفتاة التي خصّها بأن تكون ضحية "حبّه غير المكتمل" لهذه الليلة، ويسأل بحزم سؤاله الوحيد:

"كم هو عدد أزهار القرنفل في حديقتي"

لكن الفتاة التي تعرف من هذا السؤال عقوبة المـوت الـتي تنتظرهـا، تخفض عينيها بخجل وتجيبه بثبات بسؤال خبيث آخر:

"وكم عدد النجوم في السماء؟"

وعندئذٍ يختفي الملك. وتذهب الفتاة إلى بيتها حيـث يزينهـا الأهـل الذين يبكون بأغلى ما لديها من جواهر لتحضيرها لليلة زواجها القاتلة.

ووقع اختيار الملك في إحدى المرات على فتاة مشهورة بجمالها وذكائها في المملكة كلها. وعندما علمت الفتاة بأمر اختيارها، صنعت تمثالاً شمعياً وألصقت عليه أنفاً مصنوعاً من السكّر.

وفي الليلة الموعودة لفّت نفسها برداء أبيض وأخفت التمثال فيه، ودخلت حجرة الزوجية التي كانت جميع الشموع فيها مُضاءة. ووضعت تمثال الشمع على السرير وغطته بجواهرها الجميلة. وبعد ذلك استلقت تحت السرير وانتظرت.

وعندما دخل الملك، خلع ملابسه واستلقى إلى جانب التي اعتقد أنه اختارها. وأمضى الليل كله ينظر إليها لكنه لم يلمسها كالعادة. وكالعادة أيضاً، في اللحظة التي تحسس فيها قدوم الفجر، استلّ سيفه وقطع رأس التمثال الشمعي. وتحطّم أنف السكر من أثر الضربة وأصاب فمه. وبذهوله بحلاوة أنف السكر، صرخ الملك بحزن:

حلوة في الحياة
وحلوة في الموت
لو كنت أعرفك
لما قتلتك!

وفي تلك اللحظة، نهضت الفتاة المراوغة بسرعة من تحت السرير بعد أن سمعت كل شيء، وأظهرت نفسها وكشفت له عن حيلتها.

وفجأة، شفي الملك بأعجوبة من هوسه الإجرامي، وتزوجها وعاشا بسعادة وهناء.

انتهت الحكاية.

تفسير حكاية التمثال الشمعي وأنف السكر.

دعوني الآن أفسّر هذه الحكاية في ضوء التحليل النفسي، وعبر وسائلي التحقيقية الخاصة التي تستطيع أن تسلّط الضوء عليها.

سوف نبدأ بالعنصر المُبتكر للحيلة، التمثال الشمعي بأنف السكر، وأول شيء، مع الشمع ذاته كعنصر محدد ومميز بشكل واضح.

سوف أذكركم أولاً بلونه الشاحب، كما يتضح من هذا التعبير: "باهت وشاحب كالشمع". ولا بدّ من استيعاب هذا اللون على أنه لون الموت، كما أنه يحاكي الجسد من خلال قوامه المرن. وعلاوة على ذلك، إن الشمع ليس المادة التي تقدّم نفسها على أنها الأفضل لمُحاكاة الأشكال الحية والشخصيات وحسب، بل تظهر أيضاً بأنها الأكثر شبهاً بالحياة، والأكثر جموداً وشبحية، وباختصار شديد، الأكثر ترويعاً، (شاهدوا المقابر الزائفة التي تحتويها المتاحف الخاصة بالشخصيات المصنوعة من الشمع، وخاصة "Musée Grevin in Paris – متحف الشمع في باريس").
كما يتميّز الشمع بأنه غير منفّر وناعم وجذاب، وهناك أسباب مختلفة أكثر مباشرة وأقل فكرّية لربطه بالعسل الذي يُستمدّ منه أصلاً. والأكثر من ذلك أن ليونته تعود بشكل خاص إلى مرونته المفرطة التي تصل إلى حالة السيلان عند تعرّضه للحرارة – العديد من المواد الطيّعة لا تمتلك هذه الخصائص (كالصلصال وما شابه ذلك)، بل على العكس من ذلك، يكون لهذه المواد ميل لأن تجف وتقسو. وأخيراً يظهر لنا هذا التميّع، وهذا التشوّه الذي يأتي بسببه، كسمة تترافق مع تحلل الحثث.

وعلينا أن نلاحظ أيضاً أنه حتى عندما يثير الشمع في معظم الأحيان فكرة "التحلل"، كما هي حالة التمثال الشمعي إن خضع للإذابة، فإن ذلك يحدث دون أن يثير اشمئزازاً في المكان الذي يكون فيه المرء واعياً للألم اللطيف، ومديناً لحقيقة أن هذا يشكّل المتعة القصوى والشكل الهزيل لتمثيل حالة كهذه. ويبدو الأمر كما لو أنه في كل مناسبة، وتحت أية ظروف، تنتقل فيها ذكريات الموت عبر وسيط الشمع، تكون قادرة على التأثير بنا بالشكل الأكثر لطفاً، وتحتوي على حلاوة زائفة اعتادت على أن تجعلنا "نبتلع" رعباً عظيماً. ومن خلال كل الحكايات المنقولة عن العادات المروعة الجنائزية، لم يتوقف الشمع لحظة واحدة عن أن يلعب هذا الدور الخادع المخفف الذي لفتنا الانتباه إليه الآن،

مسلّطين الضوء على الموت، بالضوء المثير والزائف للحياة المرغوبة تحت الشعلات المرتعشة للشموع التي بدأت تذوب.

وفي هذا المنحدر السحيق لفرضيتي، لا يزال من الضروري أن نتخيّل "الشخص النيكروفيلي [1]" مستاء جدا من رائحة الشمع المحترق التي تحلّ محل عرق المحبوب الذي يستلقي جامداً من دون عرق ولا رائحة الحياة، والتي تحوّل الرائحة الحقيقية للموت إلى شكل مرغوب أكثر بأن تعطيها الوهم البديل والمجازي الضروري للمتعة الحنينية "للانحراف الشغفي النيكروفيلي".

الشمع إذن، بتمثيله الطري والمثالي للموت، سيساعد في توفير طريق مختصر للدوافع والرغبات "النيكورفيلية". والأكثر من ذلك، يتصرّف كحارس لآليات الكبت، مستبعداً أوهام "هوس البراز" خارج مجال الوعي، تلك الأوهام التي هي بطريقة أو بأخرى، شكل محتجب يترافق عادة مع الرغبة "بالفضلات". وهكذا فإن الدفء الزائف للشمع في الحالة الرمزية، استبدل الخامية الفظيعة للنوايا الحقيقية لهذه الأوهام، بشموع إتمام الرغبة "البرازية النيكروفيلية" المضاءة سلفاً من أجل مأدبة الزفاف الذي يجمع هذين الشغفين اللذين يشكلان معاً ذورة الانحراف [2].

وبالعودة إلى حكايتنا، علينا أن نرى أن مشاعر الملك "النيكروفيلية" الفاضحة قادته إلى توقّع التصرّف النهائي الحاسم، من خلال طقوس مناسبة معدّة لتغلّف الحب "المُنتظر وغير المنجز" الذي يسبق حلّ عقدة الرواية القاتل. وكان من الضروي — كما علمنا — أن تُمضي الضحية ليلتها في سكون، وكان عليها أن تنام أو تتظاهر بالنوم — وباختصار، كان عليها أن تلعب دور الميتة. وكذلك فإن أخيولات الملك تطلب أن تبقى

---

[1] النيكروفيلي هو الشخص المهووس جنسياً بالجثث.

[2] دراسة دقيقة للغاية عن الشمع، كُتِبَت في العام 1929، قادتني لاستنتاج أن هذا المادة تهب ذاتها إلى سلسلة الأوضاع الرمزية كلها، والتي تؤدي فيها التمثيلات الواعية اللامخيفة للمجازات المعوية والهضمية إلى تمجيد الفضلات البشرية - الغائط.

الفتاة النائمة معروضة فوق الأغطية، مزينة بالملابس المبهرة النادرة، مثل جثة. كما حدد أن تُحرق الزيوت العطرية في مخدع الزوجية وأن تُضاء "الشموع كلها" (كالطقوس التي تؤدى مع الميت). ويبدو واضحاً لنا أن هذه المقدمة العصبية ليس لها هدف آخر من سلسلة الخيالات الجنائزية تلك سوى تأثيث تجسيدات مثالية لهذه الحالة المرضية، من أجل أن يتم تخيّل الضحية بأنها انتهت قبل أن يصل الملك إلى لحظة الذروة التي يقوم فيها بالقتل الفعلي، كما في الإدراك النهائي المادي، ويكون هذا في النهاية نوبة متممة لمتعته التي تتزامن في لحظة شذوذه مع لحظة القذف تحديداً.

لكن فقط في هذه اللحظة الاستثنائية، تخبرنا الحكاية أن الجميلة المراوغة التي استبدلت نفسها بتمثال الشمع، تصرّفت حدسياً كخبير صافي الذهن، وماهر جداً في أكثر العلوم النفسية حداثة. وقد قامت بتطبيق علاج عجائبي على زوجها المستقبلي عبر عملية الاستبدال التي لا يمكن اعتبارها إلا عملية سحرية. ولا بدّ أن التمثال الشمعي قد ظهر للملك أكثر من كل فتياته الجميلات، وكان في الوقت نفسه، الأكثر خصوصية، والأكثر شبهاً بالحياة، وأكثر ليونة ورغبة و"ميتافيزيقية". كما أن سقوط الأنف، هذا التشوّه الذي يذكّر بشكل حقيقي بالموت، ومن خلال روابطه المحتملة مع عقدة الخصاء واستذكاره لها، قد فعّلت مخاوفه من العقاب، وأعدّت في الوقت نفسه أجواء الندم التي كانت مناسبة تماماً لتوبة وشيكة. وهذا الملك الذي كان ربما آكل لحوم البشر، ومهووساً بالبراز ونيكروفيلياً، لم يكن يسعى في العمق إلا إلى تذوّق نكهة الموت المختبئة الحقيقية، والتي لا تسمح له رقابته الداخلية بتحقيقها إلا من خلال الحياة الزائفة المتشكّلة من النوم الزائف لتمثال الشمع مع زخرفته وعرضه المروعين. ولا يمكن لنكهة الأنف الحلوة السكرية التي سقطت على فمه بشكل غير متوقع إلا أن تكون خيبة أمل مُجفلة، وشيئاً متناقضاً يدعو للاستغراب، وقد سببت له ردّة فعل مشابهة

للطريقة التي يتصرف بها الطفل الرضيع عندما يُفطم. يجد الطفل حلمة ثدي أمه فجأة تفرز طعماً مريراً مقرفاً غير مقبول بدلاً من نكهة الحليب المقبولة التي كان يتوقعها. وهو لا يريد تكرار تلك التجربة بعد خيبة الأمل القاسية، ولم يعد يريد أن يرضع من صدرٍ أمه.

لقد أراد أن يأكل الجثة، لكنه وجد السكّر بدلاً من النكهة التي اعتاد عليها، ولم يعد يريد أن يأكل الجثث. لكن بالإضافة لذلك، فقد لعب "أنف السكر" في حكايتنا دوراً دقيقاً وحاسماً أكثر من نجاحه بفطام ملكنا عن الموت. لم تكن تلك النكهة في الواقع تتناسب مع النكهة المرغوبة السرّية للموت، لكن خيبة الأمل هذه كانت جزئية وغير مقبولة نسبياً، ولهذا لم تصبح فقط عنصر إيضاح لوعي "أكل لحوم البشر". والأكثر أهمية من كل ذلك، حقيقة أن خيبة الأمل هذه كانت تُختبر تحديداً في لحظة متعة (كما في حالة نوبات هسيتيرية) علمت بطريقة بدت وكأنها إعادة تقييم لحظي عنيف لواقع حلاوة غير متوقّع وغير معروف، و"مؤثر" و"حساس" في الحياة — يمكن للحلاوة أن تظهر وتصبح مرغوبة بشكل محدد لأن أنف السكر عمل "كجسر" نحو الرغبة ليجعلها تعبر نحو الحياة. وهكذا فإن تفريغ كامل الطاقة الجنسية للملك قد شكّل تثبّتاً على الحياة بما أن الحلاوة الحقيقية قد حدثت فجأة كي تحتلّ المكان الذي كانت تحتله الحلاوة التخيّلية للموت.

حلوة في الحياة
وحلوة في الموت
لو كنت أعرفك
لما قتلتك!

إن الطريقة التلقائية الكاملة (بما أنه وبشكل لا إرادي، كانت كلمة "حياة" في السطر الأول على الرغم أنها لم تكن سوى نتيجة للسطر الثاني وشكل مشتق منه) في التعبير عن الندم "بسبب قتله لها"، تؤكد فكرة علاج اضطرابات الملك النفسية.

ومن ثم حققت تلك الأسطورة مرة أخرى، الفكرة المهيمنة على إحساسي الجمالي وعلى حيات: الموت والبعث! التمثال الشمعي وأنف السكّر، إذن، هي مجرد "كائن هذياني موجود"، خلقه الشغف بواحدة من تلك النسوة، اللواتي، مثل بطلة الحكاية، مثل غراديفا، أو مثل غالا، قادرات بفضل الزيف الماهر لحبهنّ، على إضاءة الظلمة الأخلاقية بالوضوح الساطع "للمجانين الأحياء". وبالنسبة لي، كانت المشكلة الكبيرة المتعلقة بالجنون والوضوح، تتعلق بالحدود ما بين غالوشكا الموجودة في ذاكرتي الزائفة، والتي ماتت وأصبحت شبحاً مئة مرة من خلال نبضاتي الباطنية ورغبتي بالوحدة المطلقة، وغالا الحقيقية التي كان من المستحيل عليّ أن أحلّ وجودها الجسدي من خلال الانحراف المريض لروحي. إن هذه الحدود التي كانت غريبة عليّ، والتي عُرّفت بالرمزية المادية في الشكل الحقيقي "لعنصر سريالي [1]" في الحكاية التي ذكرتها – أين انتهى التمثال الشمعي، وأين بدأ أنف السكر، وأين انتهت غرادفيفا، وأين بدأت زو بيرتراند، في رواية "وهم وحلم [2]" لمؤلفها جنسن. هذا هو السؤال! ربما نكرر مرة أخرى، سخرية هاملت.

والآن، بعد أن عرف قرائي الآن الحكاية وتفسيرها، أعتقد أن الوقت قد حان كي نمضي قدماً في طريقنا، وكما ننزل المنحدر المعاكس للطريق الذي أتينا منه، أحاول الآن أن أعدّ لكم علاقة متوازية بين حالتي وحالة الملك، بحيث تصبح قصتي مع غالا مفهومة لكم بكل أشكالها.

---

[1] من المؤكد أن البطلة التي صنعت التمثال الشمعي مع أنف السكر المُلصق عليه، خلقت "عنصراً سريالياً مفاجئاً يعمل بشكل رمزي" (واخترعت أنا نفسي من هذا النموذج نفسه في باريس في العام 1930). وكان مقدّراً لهذا العنصر المجسم أن "يتفعّل" بضربة سيف، وعبر قفزة أنف السكر على فم "النكروفيلي" وتحرير الأشباح وتمثيلات الحياة عبر المشاعر الحنينية للـ "النيكروفيليا، وأكل البراز" اللاواعية.

[2] (زو بيرتراند) هي بطلة الرواية الحقيقية، الحالة الثانية للصورة الميثولوجية المزدوجة لغراديفا في رواية جينسن.

لقد كنت ملكاً أيضاً كما تعرفون جميعكم. ليس فقط أنني عشت طفولتي كلها متنكراً بزي ملك (إن المراهقة وباقي حياتي قد أبرزت روحي وطوّرتها في الاتجاه ذاته — اتجاه حكم الفرد المطلق)، بل قررت أيضاً أن تنمو صورة محبوبتي باستمرار "اختلاق النوم" لأنني قد شرحت للتو من خلال ذكرياتي السابقة، أن كل مرة حاولتْ فيها الصورة أن "تضجّ" على سرير وحدتي المزخرف، كنتُ أصرخ عليها مطالباً بـ "الموت!" وبالتالي فإن الصورة الخرافية غير المرئية لمحبوبتي قد استأنفت جمودها بناءً على قوة أوامري، واستمرّت "بلعب دور الميتة". ورأينا أيضاً أن الفترات القليلة التي اتخذت فيها صورة غالوشكا شكلاً حقيقياً (كمثال: في شخصية دوليتا، في ذاكرتي الحقيقية)، انقلبت الأمور نحو الأسوأ. ولا يتعلق الأمر بأنني شعرت بالخطر من جانبي، بل كنت على شفا حفرة من ارتكاب جريمة! وأنا أيضاً، مثل الملك في القصة، أحببت بشكل منحرف كي أمتدّ وراء ما هو قابل للقياس، وراء حدود التوقعات المَرَضيّة المقلقة التي استرخت فيها كل الشهوانية المعذبة لأسطورة "الحب غير المتحقق" العظيمة. وأنا أيضاً.....

لكنني عرفت في هذا الصيف أن الصور الحيّة المذعنة حتى الآن لغالوشكا الخيالية الموجودة في ذاكرتي الزائفة، والمتجسّدة الآن في جسد غالا الجامح، لم تعد تذعن لأدنى إيماءة آمرة من يدي و"تتظاهر بالموت" عند قدمي كما في السابق. وكنت أقارب "المحنة" العظمى لحياتي والتي كانت محنة الحب. كما لا يمكن لحبّي — حب الرجل نصف المجنون — أن يكون مثل حبّ الآخرين! وكلما اقتربت ساعة "التضحية"، قلّت جرأتي على التفكير بها. ولحظة بعد أخرى، وبعد أن تركت غالا على مدخل فندق ميرمار، أطلقت تنهيدة طويلة وعميقة وقلت: "هذا مرعب!" وما هو المرعب؟ هذا ما سألته لنفسي غير قادر أن أفهم حالتي العقلية. لقد أمضيت حياتي كلها في توق وحيد حول ما يوشك أن يحدث، وماذا بعد،

"إنها هي!" لكن الآن، ومع وصول هذه اللحظة، تشعر بأنك تموت من الخوف يا دالي! وبما أن نوبات ضحكي وحالتي الهستيرية أصبحت أكبر حدة، فقد اكتسبت روحي تلك الخفة الغريبة والليونة كآليات دفاع. وبالتأكيد، مع هروبي ومع خدع[1] مصارع الثيران التي تستحق، كنت "أصارع" هذه المشكلة الأساسية في حياتي، ثور رغبتي الذي أعرف أنه كان هنا في تلك اللحظة جامداً ويهدد على بعد سنتمترات من جمودي، ويواجهني بالخيار الوحيد تماماً: إما أن أقتله أو يقتلني.

وكانت غالا بداية لتلميحات متكررة "لشيء" سيحدث "حتماً" بيننا، شيء "مهم جداً" وحاسم في "علاقتنا". لكن هل تستطيع هي الاعتماد علي بوضعي الحالي الخارج عن السيطرة، والبعيد جداً عن أن يكون طبيعياً، بل على العكس تماما، إنه يزين نفسه بزخارف الجنون المبهرجة، ويجمع خلفه الكثير من مواكب "الأعراض" المذهلة؟ وبالإضافة لذلك، بدت حالتي النفسية كأنها مُعدية وتهدد توازن غالا.

ثم تنزهنا لفترة طويلة على طول أشجار الزيتون والكرمة دون أن يقول أحدنا كلمة للآخر، بحالة من ضبط النفس المتبادل المتوتر المؤلم الذي بدت فيه مشاعرنا المجدولة المضغوطة والمعقودة بإحكام، وكأنها تريد أن تُكبحَ بالعنف الفعلي لتنزهنا الطويل. لكن المرء لا يُنهك الروح بالإرادة! لا هدنة ولا ضجر ولا حتى إنهاك للجسد أو الروح طالما أن الغرائز غير مشبعة بوحشية. أما المشهد الظاهري، فلا بدّ أننا نظهر أثناء نزهاتنا وكأننا مصابان بالجنون! كنت أطرح نفسي على الأرض، وأقبّل حذاء غالا بشغف. ما الذي حدث في روحي قبل لحظة من إطلاق العنان للندم المحتوى في هذا التدفّق الحي؟ في إحدى الأمسيات، تقيأت غالا مرتين أثناء نزهتنا، وداهمتها تشنّجات مؤلمة. وكما أوضحت لي، كانت هذه التقيؤات عصبية وكانت أعراضاً مألوفة لمرض

---

[1] الطريقة التي يستخدمها مصارع الثيران كي يراوغ الثور عبر استخدام عباءته.

نفسي طويل أثّر على جزء كبير من مراهقتها. ولم تتقيأ غالا سوى بضع قطرات صفراء نظيفة مثل روحها، وبلون يشبه لون العسل.

وبدأت في تلك الفترة برسم لوحة " The Accommodation of Desires — مسكن الرغبات"، اللوحة التي كانت الرغبات فيها دوماً ممثلة بصور مرعبة لرؤوس أسود.

وقالت غالا: "سرعان ما ستعرف ما الذي أريده منك".

لا يمكن لهذا أن يختلف عن رؤوس أسودي، فكّرت، محاولاً أن أتآلف مسبقاً مع الكشف الوشيك، عبر أكثر التمثيلات رعباً.

أنا لم أجبر غالا أبداً على أن تقول أشياء في عقلها قبل أن تكون مستعدّة لذلك. لا بل كنت أنتظر تلك الأشياء كما لو أنها جملة لا مفرّ منها، والتي عندما تُعلن" لن يعود بالإمكان أن نعود إلى الخلف. لم يحدث في حياتي حتى "أن مارست الحب" واعتبرت هذا التصرّف عنيفاً ولا يتناسب مع نشاطي الجسدي — "هذا لا يناسبني". واغتنمت الفرصة لأكرر لغالا بنبرة صوت استحواذية أزعجت غالا بشكل واضح: "قبل كل شيء، تذكّري دوماً أننا اتفقنا على ألا يؤذي أحدنا الآخر!"

جميع أصدقائي السرياليين إلى باريس، وإلوارد أيضا. وبقيت غالا وحدها في كاداكيس. ولدى كل لقاء بيننا يبدو كأن أحدنا يقول للآخر: "يجب أن ننتهي من هذا الأمر!" ويستطيع المرء أن يسمع أصوات طلقات

الصيادين المتقطعة تدوّي في فضاء التلال الفارغ، وسماوات آب، الناعمة النقية إلى الحد السخط، يتبعها الآن الشفق المشحون بغيوم الخريف الرائعة التي بدأت تصبح محمومة بقدوم عُصارة محصول العنب لشغفنا. تناولت غالا العنب الأسود وهي تجلس على جدار صخري جاف. وكانت كما لو أنها تزداد تألقاً وجمالاً مع كل حبة عنب جديدة. ومع كل صمت جديد يلفّ مساء أنشودتنا العاطفية، شعرت بغالا تزداد حلاوة انسجاماً مع حلاوة عنب الكرمة. حتى جسد غالا، بدا باللمس وكأنه مصنوع من عنب الجنّة السماوي. وفكرنا كلانا: غداً؟ وبينما أحضرت لها كميتين من العنب، طلبت منها أن تختار ما بين الأبيض والأسود؟

وقد ارتدت الأبيض في اليوم الذي حددناه أخيراً. وكان ثوباً مرهفاً يرتعش بقشعريرة بينما نصعد المنحدر بحيث جعلتني "أشعر بالبرد". وأصبحت الريح عنيفة جداً بينما كنا نصعد، واستخدمتها ذريعة لتحويل طريقنا عن تلك الارتفاعات.

ثم نزلنا مجدداً، وجلسنا مقابل البحر على مقعد حجري محفور بالصخور، يحمينا من أبسط عاصفة. كانت إحدى أكثر مناطق كاداكيس خلوّاً ووحشية، وترك شهر أيلول — سبتمبر فوقنا الهلال بلونه الفضي الخافت القرنفلي، تحيط به هالة من الدموع البدئية التي شكّلت عقدة في حلق غالا وحلقي. لكننا لم نرغب بالبكاء، وأردنا أن ننتهي من الأمر.

ارتسمت على وجهها ملامح حازمة.

قلت لها وأنا أضمّ ذراعي على خصرها: "ما الذي تريدين أن أفعله معك؟"

كانت عاجزة عن الكلام بسبب العاطفة. وقامت بعدّة محاولات، وأخيراً هزّت رأسها فجأة، بينما تدفقت الدموع على وجنتيها. وتابعت ملحاً. وعندئذٍ، وبجهود مكثفة، حرّكت شفتيها أخيراً لتخبرني، بصوت طفولي خافت حزين:

"إن لم تكن تريد أن تفعله، فعدني ألا تخبر أحداً بالأمر؟"

وقبّلتها من شفتيها، بل من عمق ثغرها. وكانت المرة الأولى التي أفعل هذا. لم أكن أظن حتى تلك اللحظة أن بإمكان المرء أن يقبّل بهذه الطريقة. وبقفزة واحدة، نهضت جميع "بارسيفالات" رغبتي الإيروتيكية المستبدّة والمكبوتة منذ زمن طويل، واستيقظت بهزّة الجسد. وهذه القبلة الأولى المغمسة بالدموع واللعاب، تشكلت من تلامس مسموع لأسناننا ولسانيتا اللذين يتحركان بشراسة، ولامست حدود الطاقة الجنسية الأنثوية التي جعلتنا نريد أن نعضّ ونأكل كل شيء حتى النهاية! وأثناء ذلك، كنت ألتهم ذلك الثغر الذي امتزج دمه بدمي سلفا. لقد سلبتني هذه القبلة شخصيتي ودمرتها وفتحت تحت روحي هاوية سحيقة شعرت أنني أغرق فيها.

وجذبت غالوشكا من شعرها وقلت لها بلهجة آمرة وأنا أرتعش بحالة هستيرية كاملة:

"والآن قولي لي ما الذي تريدين أن أفعله لك! لكن تكلمي ببطء، انظري في عيني، بأكثر الكلمات فحشاً وفظاظة، بحيث تجعلنا نشعر كلانا بالخجل!"

وبهدوء، وباستعداد لأتشرّب كل تفاصيل هذا البوح، فتحت عيني على اتساعهما بالشكل الأمثل للإصغاء، والطريقة الأفضل لأشعر بنفسي أنني أموت من الرغبة. عندئذٍ، وبأكثر الملامح التي يستطيع أن يُظهرها الإنسان جمالاً، استعدّت غالا لتقول شيئاً تجعلني من خلاله أفهم أن لا شيء يحميني. كان شغفي الإيروتيكي قد وصل الآن إلى حد الجنون، وبمعرفتي أنه لا يزال لدي ما يكفي من الوقت، كررت لها بأكثر الطرق استبدادية:

ما الذي تريدين أن أفعله لك؟"

وعندئذٍ، أجابت غالا محوّلة أخر وميض من ملامح سعادتها إلى الضوء المبهر لاستبدادها:

"أريدك أن تقتلني!"

لم يكن هناك تفسير في العالم يمكن أن يعدّل معنى هذه الإجابة التي تعني تماماً ما قيل.

وسألتني: "هل ستفعل ذلك؟"

وكنت مندهشاً جداً ومحبطاً من "سرّي الخاص" الذي وضع أمامي الآن بدلاً من الاقتراح الإيروتيكي الحماسي الذي كنت أتوقعه، ولهذا فقد تباطأت في إجابتها، تائهاً في دوامة لا حدود لها من الحيرة.

وسمعتها تعيد سؤالها مرة أخرى: "هل ستفعل ذلك؟"

وقد فضحت نبرة صوتها كل الشكوك، وتمالكت نفسي ثانية مدفوعاً بالكبرياء. وبدأت أخشى فجأة تدمير الثقة التي تشكّلت لدى غالا حتى ذلك الحين في قدرتي على الجنون والشجاعة. ثم طوقتها بذراعي مرة أخرى وأجبت بكل ما لدي من هيبة.

"**نعم!**"

ومرة أخرى قبّلتها بشدّة من ثغرها بينما أردد في أعماقي: "لا! لن أقتلها!"

لقد كانت قبلتي الثانية لغالا أشبه بقبلة يهوذا بسبب نفاق حناني، لكنها في الوقت نفسه حافظت على حياتها، وأحيت روحي.

وبدأت غالا تشرح لي تفاصيل مبررات رغبتها، وخطر لي فجأة أنها هي أيضاً لديها عالم داخلي من الرغبات والإحباطات، وتتحرك بإيقاعها الخاص ما بين قطبي الجنون والوضوح. وعندما تحدثت، بدأت أتناول "حالتها" بعين الاعتبار تدريجياً. وبقيت أقول لنفسي إنه من المفروغ منه بأي حال من الأحوال، أنني لن أقوم بما طلبته مني — لن أقتلها! بالتأكيد، لا يوجد أي تردد من الناحية الأخلاقية يمنعني من ارتكاب تصرف كهذا. ومع اتفاقنا المثالي على هذه القضية كنقطة انطلاق، فإن حادثة موتها يمكن أن تتحول بسهولة إلى انتحار. وكل ما أنا بحاجة إليه هو رسالة من غالا تؤكد هذا الافتراض.

وشرحت غالا رعبها الذي لا يوصف من "لحظة موتها" التي عذّبتها منذ الطفولة. وقد أرادتها أن تحدث دون أن تعرف "بنقاء" وبدون اختبار عذاب اللحظات الأخيرة.

كانت إحدى الأفكار الصاعقة التي لمعت في ذهني هي أن ألقي غالا من على قمرة برج كنيسة "توليدو"، وهي المكان الذي تولدت لدي فيه إغواءات مشابهة عندما صعدت إليه برفقة فتاة جميلة عرفتها في مدريد. لكن هذه الفكرة لا تتناسب مع أفكار غالا لأنها أثناء سقوطها ستحظى بلحظات خوف. وبسبب مجموعة من الأسباب الأخرى أصبحت فكرة برج "توليدو" خارج الحسابات - كيف أبرر وجودي على البرج في تلك اللحظة؟ ولم يكن الاستخدام السهل للسم يثير اهتمامي على أية حال، وكنت أعود دوماً إلى "منحدراتي الشريرة". وبما يتعلق بهذا الأمر؛ انطلقت بأفكار خيالية في أفريقيا، المكان الذي بدا مناسباً لي في هذه اللحظة بسبب المناخ. لكنني تخليت عن هذه الفكرة أيضاً. إن الطقس حار جداً! ولا يجذبني.

وتخليت بالتالي عن البحث عن أفكار بما أنها كانت تموت كلها حتى قبل أن تولد، وركّزت انتباهي كله على ما تقوله غالا بتلك البلاغة المُلهمة في حديثها وإيماءاتها بحيث لم أستطع أن أفكر أكان عليّ أن أنظر إليها أم أستمع. كما أن حلم غالا بالتماس الموت بلحظة سعيدة غير مخطط لها في حياتها لم يكن دافعاً طفولياً ورومانسياً كما قد يبدو لشخص لم يُدرك مثلي الأهمية الحيوية لتمثيل كهذا، ولم يفهم كما فهمتُ بفضل "نبرة" التمجيد الواعي التي طلبت فيها ما تريد. لقد شكّلت فكرة غالا أساس حياتها النفسية تحديداً، وقد رأيت من خلال ملامح وجهها المحببة التي ظهرت في لحظة كشفها، كل ألياف إحساسها المنسلخ تتلاقى في هرم - رأيتها تتقارب نحو تمثيل مفرد غير مقبول: ساعة الموت مع موكب إشارات الشيخوخة الذي يسبق وصولها ويعدّ العدة له.

يمكن لحياة غالا السرّية فقط، أن تكشف النقاب عن الأسباب الحقيقية لقرارها. وعلى الرغم من أنها سمحت لي أن أكتب عن ذلك، إلا أنني رفضت الكتابة. وأرغب في هذا الكتاب أن أحلّل شخصاً واحداً- شخص واحد هو أنا!- وأنا لا أقوم بهذا التشريح الحي بسبب السادية أو المازوشية بل بسبب النرجسية. أقوم بهذا كمسألة "ذوق" - ذوقي الخاص - وبطريقة "يسوعية". كما أن التشريح الكامل لا يحتوي أي معنى قابل للتحويل إيروتيكياً. إنه يصبح كالسرّ، ويرتدي كما في السابق الجلد واللحم الذي تمت إزالته. ويصحّ الأمر ذاته على هيكل عظمي كامل. " إن طريقتي هي الإخفاء والإفشاء، لأقترح بشكل دقيق، احتمالات آفات باطنية. بينما أعزف في الوقت نفسه في مكان آخر، على أوتار الغيتار البشري في أجزاء ممزقة بالكامل، كل هذا دون أن أنسى أبداً أن عزف الرنين الفيزيولوجي للافتتاحيات، مرغوباً أكثر من الرنين السوداوي الأقصى للحقيقة المنجزة.

وبالتالي، دع التحليل الدالي يؤثر جمالياً وفنياً، ودع العظام تلمع برصانة، فقط حيث تستطيع أن تنتج الأثر المزعج الأقصى.

لقد سمعت غالا للتو تشرّح نفسها حية أمامي، لكنها كانت أكثر دقّة، وبدت كأنها تجسّد الشكل التشريحي الشامخ لروحها. إنها على حق بالتأكيد. كررت هذا الكلام لنفسي ولم أقرر بعد أنني لن أفعل ذلك.

نبيذ أيلول "الأيلولي"، وأقمار أيار. أقمار أيلول خلّلت "أيار" شيخوختي، وحصدت شيخوختي عنب الشغف.... في الصخرة اليافعة لقلبي ومراهقتي ومرارتي. الجالسة في ظلال برج كاداكيس، ونقشت هذه الكلمات: استغلّ فرصة وجودها واقتلها!.... وفكرت: ستعلّمني الحب، وبعد ذلك، سأعود وحدي كما رغبت دوماً. إنها تريد ذلك، وقد طلبت مني ذلك!

لكن هناك شيء يعرج في حماستي، وبدلاً من أن تدوّي إدانة عزمي الصاخب على القتل في دروع "ميكافيلليتي" بهيبة البرونز الرنانة، كانت

ترن بصوت القصدير المُعيب وحسب! ما مشكلتك يا دالي؟ ألا تستطيع أن ترى الآن، عندما تُقدّم جريمتك كهدية لك، أنك لم تعد تريدها أبداً! نعم! غالا، الجمال المراوغ، غراديفا حياتي، التي قطعت رأس التمثال الشمعي بضربة حاسمة من اعترافها الذي راقبته منذ طفولتي على السرير المزخرف لوحدتي، التمثال الشمعي (لازدواجيتها) غالوشكا الشبحية في ذكرياتي الزائفة، التي قفز أنفها الميت في السكر الهذياني لقبلتي الأولى!

وهكذا فطمتني غالا عن جريمتي وعالجت جنوني. شكراً لك! أريد أن أحبّك! كان عليّ أن أتزوجها[1].

واختفت الأعراض الهستيرية واحدة تلو الأخرى كما لو أنه بتأثير ساحر. وأصبحت أسيطر على ضحكي وابتسامتي وإيماءاتي من جديد. وبدأت حالة صحية جديدة تظهر في عمق روحي.

وفي يوم ما عندما عدت من محطة قطار فيغوراس، بعد أن سافرت غالا إلى باريس، فركت يدي وأنا أصرخ: "وأخيراً أنا وحدي!" لأنه وإن استطاعت الانعطافات المذهلة للنبض القاتل لطفولتي أن تختفي من مخيّلتي إلى الأبد، فإن رغبتي بالعزلة وحاجتي لها ستكون طويلة وعصيّة على الشفاء. "غالا، أنت حقيقة". كنت أردد هذه العبارة كي أواجه الصورة الافتراضية المثالية لحبي الزائف الخرافي بالتجربة الملموسة لجسدها. وكنت أدفن أنفي بروب استحمامها الذي يحتفظ بشيء من رائحتها. أردت أن أعرف أنها كانت حقيقية وحيّة، لكنني أريد أيضاً أن أبقى وحدي من وقت لآخر.

---

[1] أسمي زوجتي: غالا، غالوشكا، غراديفا (لأنها غانت غراديفا خاصتي)، وأناديها: "Olive – زيتون" (بسبب شكل وجهها البيضوي ولون بشرتها)، وكلمة "Olivette" هي صيغة التصغير لكلمة "زيتون" في كاتالونيا. والمشتقات الأخرى (Olihuette, Orihuette, Buribette, Burihueteta, Sulihueta, Solibubulete, Oliburibuleta, Cihueta, Lihuetta) كما أسميها أيضاً (الأسد الصغير)، لأنها تزأر كالأسد عندما تغضب. وأسميها السنجاب (لأنها تتصرف كحيوان غابة صغير)، والنحلة (لأنها تستكشف وتحضر إليّ الجوهر الذي يتحول إلى عسل في خلايا عقلي).

لقد بدت عزلتي الآن أكثر حقيقية من الأولى، كما أحببتها أكثر أيضا. أغلقت الباب على نفسي في مرسمي في فيغوراس لمدة شهر، وعدت فوراً إلى حياة تنسّكي المألوفة. وأنهيت لوحة الصورة الشخصية لـ "باول إلوارد التي بدأتها في الصيف، ولوحتين أخريين، أصبحت إحداهما مشهورة جدا.

إنها تمثل رأساً كبيراً شاحباً وشمعياً بوجنتين ورديتين جداً ورموش طويلة وأنف مثير للإعجاب يرتكز على الأرض. ولم يكن في هذا الوجه ثغر حيث وضعت جراداً هائلاً عوضاً عنه. كان بطن الجراد متحللاً ومليئاً بالنمل. وقد زحفت بعض هذه النملات إلى الفراغ الذي كان يُفترض أن يكون فماً للوجه الحزين العظيم الذي تشكّل رأسه في مجال العمارة والزخرفة الخاصة بنموذج 1900، وكان عنوان هذه اللوحة: "The Great Masturbator – الاستمناء العظيم".

وعندما انتهت أعمالي، تم تغليفها "بعناية فائقة" حيث نجحت بالتواصل مع صانع خزائن في فيغوراس، وتم نقل الأعمال إلى باريس إلى "Goeman Gallery – معارض جويمان" الذي سيتم افتتاحه في 20 ديسمبر – كانون الأول.

ذهبت إلى باريس. وأول شيء فعلته عندما وصلت هو شراء أزهار لغالا. وبشكل طبيعي ذهبت إلى أحد أشهر متاجر الورود، وطلبت أفضل ما لديه. نصحني بأزهار حمراء كانت تبدو رائعة جداً. وطلبت باقة كبيرة منها وسألت عن السعر وكان "ثلاثة فرنكات". طلبت عشر باقات منها. وبدا البائع مذعوراً مما طلبت ولم يبدِ أي اهتمام بتنفيذ طلبي. هو لم يكن واثقاً حتى من أنه قادر على أن يعدّ لي هذه الكمية. كتبت كلمة أو اثنتين موجّهة لغالا لكنني عندما اقتربت لأدفع الفاتورة وجدت أن المبلغ كان ثلاثة آلاف فرنك. ولم أكن أحمل هذا المبلغ، فطلبت من البائع أن يفسر الأمر لي واكتشفت أن مبلغ الفرنكات

الثلاث، كان سعر الزهرة الواحدة وليس الباقة كلها. وعندئذٍ طلبت أن يعطيني أزهاراً بمبلغ 250 فرنكاً وكان ذلك كل ما في حوزتي.

أمضيت صباحي كله أجوب الشوارع، وعند الظهيرة شربت كأسين من مشروب "البرنود". وذهبت بعد الظهر لزيارة " Goeman Gallery – معارض جويمان" حيث قابلت "باول إلوارد". وأخبرني أن غالا كانت متفاجئة جداً من أنني لم أزرها، ولم أبلغها حتى متى سأقابلها. وهذا ما أدهشني بشدّة، لأنه كانت لي نيّة غامضة بالتجوّل وحدي لبضعة ساعات بحالة انتظار بدت لي مليئة بالبهجة.

وأخيراً ذهبت للاتصال بها ودعوتها إلى العشاء مساءً. أظهرت غالا القليل من الغضب الذي يحفّز جوع أي شخص، وجلست إلى الطاولة التي كانت مليئة بعدد لا يحصى من مختلف أنواع المشروبات ومن بينها مشروبات روسية متنوعة.

إن الكحول الذي كنت قد شربته في مدريد، ارتفع إلى سقف حلقي مثل مومياء أليعازر. وقلت لهذه المومياء "امشي!". ومشت. كانت تلك المومياء هي الوحيدة القادرة على بثّ الخوف في كل شخص. وبالتأكيد، كان الكحول الحيّ الافتتاحي في مدريد قد مات في روحي مع فترة الصيف. لكن تجسّده أطلق لساني بالبلاغة من جديد. وعندئذٍ قلت لهذه المومياء، "تكلمي!" وتكلمت. لقد كان اكتشافاً عظيماً أن تعرف أنه إلى جانب اللوحات التي رسمتها، لم أكن قميئاً بالمطلق. لقد عرفت أيضاً كيف أتحدث، وقد تعهدت غالا بتعصبها المخلص المكبوت أن تقنع المجموعة السريالية أنني كنت أستطيع أن أكتب عن مواضيع يتجاوز مجالها الفلسفي بصيرة المجموعة.

وكانت غالا قد جمعت كمية كبيرة من الخربشات غير المنظمة وغير المفهومة التي كنت قد كتبتها خلال فصل الصيف في كاداكيس، ومن خلال متابعتها الدقيقة ورباطة جأشها، نجحت في منحها "صيغة نحوية" قابلة للنقل بطريقة ما. وشكّل ذلك ملاحظات متطورة استغرقت فيها من جديد

بحسب نصيحتها، وأعدت صياغتها في عمل نظري شعري ظهر بعنوان: "المرأة المرئية". كان ذلك كتابي الأول، وكانت المرأة المرئية هي غالا. وكانت الأفكار المطروحة في هذا الكتاب هي الأفكار التي من أجلها سرعان ما بدأت معركة الشك والعداء مع المجموعة السريالية ذاتها.

والأكثر من ذلك، كان على غالا أولاً أن تكسب معركتها الخاصة كي تؤخذ الأفكار التي طرحتها في عملي بشكلٍ نصف جدّي، حتى ولو كان ذلك مع مجموعة الأصدقاء الأكثر استعداداً للإعجاب بي. وكما سنرى في بداية الفصل القسم الثالث من هذا الكتاب، كانت الحقيقة الأصلية التي توقعها الجميع سلفاً من دون وعي، أنني وصلت إلى تدمير أعمالهم الثورية مستخدماً الأسلحة ذاتها، لكنها كانت أكثر حدّة ووضوحاً من أسلحتهم.

وسلفاً في العام 1929، كانت لدي ردة فعل ضدّ "الثورة الموحّدة" التي أطلقها قلق هواة ما بعد الحرب. وحتى عندما اندفعت بعنف أكبر من عنف أي منهم في تكهنات تخريبية مخبولة كي أرى ما تحمله الثورة في بطنها، كنتُ أعدّ سلفاً القواعد الأساسية للمستوى التاريخي التالي — التقاليد الخالدة.

ظهرت المجموعة السريالية لي على أنها الوحيدة التي تعرض أمامي المخرج المناسب لنشاطي. وبدا لي قائدهم "أندريه بريتون" القائد الذي لا بديل له في دوره كقائد مرئي. وكنت في طريقي نحو محاولة للفوز بالسلطة، ولهذا كان يجب أن يبقى تأثيري غامضاً انتهازياً ومتناقضاً. حصلت على فائدة محددة من مناصبي ومعاقلي ومن عدم جدارتي، ومن ضعف أصدقائي ومواردهم. وكان هناك قول مأثور واحد أصبح بديهياً لروحي: إن قررت أن تشنّ حرباً من أجل انتصار كامل لفردانيتك، عليك أن تبدأ عملية تدمير لا يرحم لأولئك الذين لديهم الألفة الأعظم معك. جميع التحالفات تسلب الشخصية، وكل شيء ينزع إلى الجمعي هو موتك. وبناء عليه، استخدم الجمعي كتجربة، وبعد ذلك، اضرب بقوة، وابق وحدك.

وبقيت باستمرار مع غالا، وجعلني حبي كريماً ومترفّعاً. لكن فجأة، كل هذه المعركة الإيديولوجية التي تحتشد في دماغي سلفاً مع حركة القوات المتواصلة التي حثّتها فلسفة بقيادة حماستي لتحمي جميع حدود دماغي من الأذى، بدت لي سابقة لأوانها؟ وأنا، الأكثر طموحاً من بين كل الرسامين المعاصرين، قررت أن أغادر مع غالا في رحلة حبّ مدتها يومان قبل افتتاح معرضي الأول في باريس عاصمة الفن في العالم. وهكذا، لم أر حتى كيف تعلّق اللوحات في معرضي الأول هذا، وأعترف أنه خلال رحلتنا، كنا أنا وغالا منشغلين بجسدينا بحيث كان من الصعب أن أفكّر لحظة واحدة بالمعرض الذي بدأت أنظر إليه سلفاً على أنه معرضنا.

واستقرّت أنشودتنا الرعوية في برشلونة، وبعدها في "سيتجيز"، قرية قريبة من العاصمة الكاتالونية التي منحتنا عزلة شواطئها التي أنهكتها شمس الشتاء المتوسطية المتلألئة. ولمدة شهر كامل، لم أكتب كلمة واحدة لأهلي، وكان يهاجمني شعور خفيف بالذنب كل صباح. وبهذا قلت لغالا:

"لا يمكن لهذا أن يستمرّ إلى الأبد. أنت تعرفين أنني يجب أن أبقى وحدي!"

تركتني غالا في فيغوراس وتابعت رحلتها إلى باريس.

واندلعت عاصفة في غرفة الطعام في بيت عائلتي – وقد خُلقت هذه العاصفة بكاملها بسبب تعليق واحد من والدي. كان محطم القلب من الطريقة المتهورة المتغطرسة التي أعامل بها عائلتي. ثم ظهرت مسألة المال. وكنت في الواقع قد وقعت عقداً لسنتين مع " Goeman Gallery – معارض جويمان"، لكنني لم أستطع أن أتذكر ماذا كانت الشروط، وبالتفكير بهذا الأمر بعناية أكبر، لم أستطع حتى أن أتذكر إن كان العقد لسنتين أو ثلاثة، أو ربما لسنة واحدة! وتوسل والدي إلي كي أحاول أن أجده. وقلت له أنني لا أعرف أين وضعته، وأنني سأؤجل موضوع البحث عنه ليومين أو ثلاثة، عندما أعود إلى

كاداكيس، وهناك سيكون لدي الكثير من الوقت لأقوم بذلك. وقلت أيضاً أنني أنفقت كل المال الذي أعطاني إياه "جويمان". وهذا ما فاجأ عائلتي بالكامل. ثم بدأت أفتش في جيوبي، وأخرج أوراقاً نقدية نصف ممزوقة ومكومة فوق بعضها وكانت غير صالحة للاستخدام بشكل مؤكد. ثم رميت كل شيء كان في طريقه نحو تغيّر بسيط كي لا أتحمّل أعباءه. كما وجدت أثناء بحثي ثلاثة آلاف فرنك كانت قد بقيت من رحلتي.

في اليوم التالي، وصل "لويس بونويل" إلى فيغوراس، مستلماً أمر من "Vicomte de Noailles" للعمل على فيلم يتناسب تماماً مع نزواتنا نحن الاثنين. وعلمت أيضاً أن "الفيكونت دي نويل" ذاته اشترى لوحة "Le Jeu Lugubre" وكانت تلك اللوحة هي كل ما تبقى من اللوحات في معرضي التي تقدر قيمتها من ستة آلاف إلى اثني عشر ألف فرنك.

وذهبت إلى كاداكيس مبهوراً بنجاحي، وبدأت بفيلم " L' Age d'Or — العصر الذهبي". وكان عقلي يركز سلفاً على القيام بشيء يترجم عنف الحبّ كله، مخصّب بروعة مخلوقات الأساطير الكاثوليكية. وحتى في هذه الفترة، كنت مذهولاً بعظمة الكاثوليكية وفخامتها ومستحوذاً بها. وقلت لـ "بانويل"

"بالنسبة للفيلم، أريد الكثير من المطارنة، والعظام، وأوعية القرابين المقدسة. وأريد المطارنة بشكل خاص مع عماماتهم المزخرفة يستحمون وسط النوازل الصخرية لـ "Cape Creus".

بونويل، مع كل سذاجته وعناده الآراغوني، حرّف كل ذلك باتجاه معاداة رجال الدين البدائية. وكان عليّ أن أوقفه فوراً وأقول:

"لا، لا! ليس كوميديا. أنا أحبّ كل ما يخص المطارنة، في الواقع، كنت أحبّهم بشكل هائل. دعنا نضع بعض مشاهد التجديف إن شئت، لكن يجب القيام بذلك بأقصى درجات التعصب للوصول إلى عظمة حقيقة تدنيس المقدسات الحقيقية!"

وغادر بونويل، وأخذ معه الملاحظات التي اتفقنا عليها. وكان ذاهباً كي يبدأ العمل على الفيلم بحيث يبدأ بالحشد له، وسألحق به فيما بعد.

وهكذا بقيت في البيت في كاداكيس. وفي شمس الشتاء، كنت أتناول بجلسة واحدة ثلاث دزينات من قنافذ البحر مع النبيذ، أو خمسة من سيقان الكرمة المقلية أو ستة. وفي المساء حساء السمك والقدّ مع البندورة، أو سمكة فرخ كبيرة مقلية مع الشُمرة. وفي يوم مقمر، وبينما كنت أفتح قنفذ بحر، رأيت قطّاً أبيض أمامي. وكان هناك شيء ما يخرج من إحدى عينيه اللتين تلمعان كالزئبق في الشمس لدى كل حركة من حركاته. وتوقفت عن الأكل واقتربت من القطّ. لكن القطّ لم يتحرك، بل على العكس، تابع النظر إلي بحدة أكبر. وبعدها رأيت ماذا كان ذلك الشيء: كانت عين القطّ مثقوبة تماماً بسبب صنارة صيد سمك، ومن هذه النقطة، ومن جهة واجدة برزت حدقته المتسعة النازفة. وكنت خائفاً جداً لرؤية، أو خاصة لتخيل عدم إمكانية نزع صنارة الصيد دون خسارة العين بالكامل. ثم ضربته بالحجارة لأخلص نفسي من المشهد الذي ملأني رعباً لا يوصف. لكن في الأيام التالية، وتماماً في لحظات متعتي العظمى[1]، وعندما كان في أقسى اللحظات التي لا تُطاق — وبينما كنت مستعداً لتفريغ صدفة القنفذ من محتوياته المرجانية النابضة — ظهور القط الأبيض بعينه المثقوبة بصنارة صيد السمك الفضية، أوقف حركاتي الشرهة في موقف من الشلل المؤلم. وأخيراً أصبحت مقتنعاً أن هذا القط هو عبارة عن فأل.

وبعد أيام، استلمت رسالة من والدي يعلمني فيها بالقرار النهائي الذي لا رجعة فيه بالنفي من احتضان عائلتي. ولا أريد أن أشف

---

[1] النكهة التي أفضّلها على كل شيء في العالم هي نكهة قنفذ الصخر الأحمر الذي يوجد في شهر أيار – ماي في منطقة البحر المتوسط وأثناء الظهور الكامل للقمر. وكان والدي يحب هذا النوع من الطعام أيضاً وبطريقة مبالغ فيها أكثر مني.

النقاب عن السرّ الذي كان خلف هذا القرار، لأن هذا السرّ يهمّ والدي ويهمني أنا فقط، ولا نية لدي بإعادة فتح الجراح التي أبقتنا منفصلين لست سنوات، طويلة وجعلت كلانا يعاني بشدة. وعندما استلمت هذه الرسالة، كانت ردّة فعلي الأولى أن أحلق شعري كله. لكن قمت بما هو أكثر من ذلك – حلقت شعر رأسي كله. وذهبت ودفنت الشعر في حفرة حفرتها على الشاطئ من أجل هذه الغاية، ووضعت فيها في الوقت نفسه كومة من صدف قنافذ البحر الفارغة التي أكلتها على الغداء. وبقيامي بهذا، تسلّقت هضبة صغيرة أستطيع منها أن ألقي نظرة على كل كاداكيس، وهناك، جلست تحت أشجار الزيتون، وأمضيت ساعتين متأملاً المشهد البانورامي لطفولتي ومراهقتي ولحاضري.

في الليلة ذاتها، طلبت السيارة التي ستوصلني إلى الحدود حيث سأستقلّ القطار المتجه مباشرة إلى باريس. وتناولت إفطاري المكون من قنافذ البحر المحمصة مع بعض النبيذ الأحمر اللاذع جداً. وبينما كنت أنتظر السيارة التي تأخرت، لاحظت ظلّ صورتي الجانبية تسقط على جدار مطلي بالكلس. ثم أمسكت قنفذ بحر ووضعته على رأسي ووقفت بانتباه أمام ظلّي.

إن الطريق الذي يذهب من كاداكيس ويؤدي إلى الجبل عابراً بـ "بيني" فيه سلسلة من الالتفافات والمنعطفات، يمكن من كل واحدة منها أن ترى كاداكيس، تنحسر عبر المسافات. وأحد هذه المنعطفات هو الأخير الذي تستطيع منه أن ترى كاداكيس كبقعة ناعمة. والمسافر الذي أحبّ هذه القرية، ينظر حينها بشكل لا إرادي إلى الخلف، ليلقي النظرة الودودة الأخيرة المليئة بوعد رصين مؤثر بالعودة إليها مجدداً. ولم أهمل أبداً الالتفاف حولها لإلقاء النظرة الأخيرة عليها. لكن في ذلك اليوم، وعندما وصلت السيارة إلى إلى منعطف الطريق، بدلاً من أن ألتفت، تابعت النظر إلى الأمام.

القسم الثالث

الفصل العاشر

بدايات في المجتمع، الخيزرانات، الأرستقراطية.

وما إن وصلت إلى باريس حتى استعجلت الرحيل عنها. لقد أردت بالسرعة الممكنة أن أبدأ أبحاثي التصويرية التي كنت قد تخيلتها أثناء وجودي في كاداكيس في الفترة التي تخلّت فيها أسرتي عني وأوقفت مسار مشاريعي.

لم أكن أريد أن أرسم شيئاً أقل من "إنسان خفي"، لكنني رغبت أن أذهب مجدداً إلى مكان ما في الريف كي أقوم بذلك. كما أردتُ بالتأكيد مرافقة غالا. وكانت فكرة وجود امرأة حقيقية تتحرك في غرفتي بحواسها وجسدها وشعرها، فكرة تراودني بشكل مغو يصعب عليّ أن أصدق أنه يتحقق. وعلى أية حال، كانت غالا مستعدّة تماماً كي تذهب معي، وكنا في طريقنا لاتخاذ قرارنا بما يخص المكان الذي سنذهب إليه. في غضون ذلك — وبخجل كما لو أنه بالصدفة — ألقيت عدداً من الشعارات الجريئة في قلب المجموعة السريالية كي أختبر أثر الإحباط الذي سيسببه غيابي. ودعمت "ريموند راسل كمعارض لريمبو، العنصر الحداثوي كمعارض للعنصر الأفريقي، خداع الحياة الصامتة ضد الفن التشكيل،. التقليد كمعارض للتفسير".

وأدركت أن هذا كله سيكون كافياً لعدة سنوات، وطرحت عن عمد تفسيرات قليلة جداً. لم أكن حتى ذلك الوقت قد أصبحت "متحدثاً"

ولم أكن أنطق إلا الكلمات الضرورية المباشرة المعدّة حصراً لتُغضب أي شخص. كما أن خجلي المَرَضي حدد شخصيتي بمميزات عدم التواصل المُبالغ فيه، مميزات فظّة جداً بحيث كنت مدركاً لكون الناس سيتطلعون إليّ بعَصبية في المناسبات المتكررة التي أفتح فيها فمي. وعندئذٍ، وبمعرفتي أن هذا كان قاسياً جداً ومشحوناً بالتعصّب الإسباني، كنتُ أعبّر عن كل بلاغتي المكبوتة التي تراكمت خلال صمتي الطويل المؤلم، عندما خضع نفاد صبري المثير للجدل للكثير من عذابات المحادثات الفرنسية المطعّمة "بالظرافة" والشعور الجيد، التي غالباً ما تخفي افتقارها للموضوعية والبنيان الصلب.

وفي إحدى المناسبات كان عليّ أن أصغي إلى ناقد فني كان يتحدث باستمرار عن مادة — "مادة" الرسام "كوربيت"، وكيف نشر "مادته"، وكيف شعر بالارتياح بالتعامل مع هذه "المادة".

وسألته في النهاية: "هل حاولت يوماً أن تأكلها؟"

وأضفت بظرافة فرنسية: "فيما يتعلق بالتفاهات، مازلت أفضل تفاهات "تشاردان"

وفي إحدى الأمسيات، كنت مدعواً للعشاء لدى عائلة "الفيكونت دي نواي". وقد شعرت بالرهبة في منزلهم، وكنت فخوراً برؤية لوحتي "اللعبة الحزينة" بين لوحتي الرسامين "كراناتش" و"واتو". ومع وجود فنانين وشخصيات اجتماعية هامة، فقد أدركت أنني الشخصية الجذّابة الرئيسة، وأن "نواي" متأثر جداً بخجلي. وعندما جاء كبير الخدم ليطلعني على اسم النبيذ ونوعه ومدّة تعتيقه بمناخ من السرّية الهائلة، ظننت أنه سيخبرني بأمر خطير حصل للتو — تعرّضت غالا لحادث سيارة، أو أن أحد السرياليين الشرسين ينتظرني ليشبعني ضرباً — وغضبت وتهيأت لأغادر المائدة. لكنه عندئذٍ، وبصوت أعلى كما لو أنه يريد أن يطمئنني، نظر إلى الزجاجة القابعة في السلة الصغيرة بكل

ما لديه من نوايا طيبة وقال: "Romanèe 1923". وابتعلت النبيذ الذي كان مرعباً بالنسبة لي مستعيداً بفضله أملي بأن أتغلّب على خجلي، وأستعيد قدرتي على متابعة الحديث.

لقد أبديت إعجابي دوماً، وأفعل الآن في هذه اللحظة بشكل خاص، بالشخص الذي يستطيع من دون أن يكون لديه شيء مثير للاهتمام ليقوله، أن يرتّب وضعه خلال عشاء مكون من عشرين شخصاً ليقود الحوار بأي اتجاه يختاره، ويجعل نفسه مسموعاً وسط الصمت العام المطبق في اللحظات المناسبة من دون أن يتوقف عن تناول طعامه — بل يأكل أكثر من الباقين في الواقع — ومع ذلك، يبقى لديه الوقت من لحظة لأخرى كي يقدّر التوقفات التي يستطيع خلالها بكياسة وثقة، أن يتوقف كي يتابع محادثته بالطول الكافي ليُبعد احتمال أن يقوم أي شخص باستغلال توقفاته كي يضرم نيران محادثة جديدة، أو — في الحالة القصوى التي يجب أن يحدث فيها هذا الأمر — يكون قادراً على إخمادها في اللحظة المطلوبة دون أن يبدو عليه أنه يقوم بأي جهد، وفي الوقت نفسه يمنح المتمردين منهم انطباعاً عندما يقاطع محادثتهم الأولية ضد رغباتهم، بأنهم هم من قاطعوه من خلال سؤالهم له بصوت يجانب قلّة الأدب ليكرر تلك الملاحظة الأخيرة، حيث يستطيعون متابعة مسار جداله الذي لم يكونوا مهتمين به أبداً.

وخلال هذا العشاء الأول لدى "نواي" اكتشفت أمرين اثنين. **الأول، أن الأرستقراطية — والتي سُمّيت لاحقاً "المجتمع"** — كانت أكثر تأثراً بمنظومة أفكاري من الفنانين، وخاصة المفكرين منهم، بما لا يُقاس. وبالتأكيد لا يزال عالقا بـ "**شخصيات المجتمع**" جرعة من الرجعية والحضارة والدماثة التي تمت التضحية بها لهلوكوست الإيدولوجيات "اليافعة" والميول اليسارية، من خلال جيل الطبقة الوسطى بأفكارهم الاجتماعية المتقدمة. والأمر الثاني الذي اكتشفته هو

المتسلقون، أولئك القروش المسعورة المحمومة على طريق النجاح، والذين يستطيعون عبر مداهنتهم المواظبة ونميمتهم التنافسية المثيرة للاهتمام، أن يتجمعوا حول جميع الموائد المغطاة بأفضل أنواع الكريستال والفضيات. وقد قررت من الآن فصاعداً أن أستفيد من هذين الاكتشافين – من **شخصيات المجتمع** للحفاظ على نفسي، ومن المتسلّقين لفتح طريق هيبتي المرصوف بافتراءات غيرتهم المتخبطة. وأنا لم أخشَ النميمة يوماً بل تركتها تنمو وتكبر. وتركت المتسلّقين كلهم يعملون عليها ويكدحون فيها. وفي النهاية، عندما يسلّمونها كاملة إلي، أنظر إليها وأتفحصها، وينتهي الأمر دوماً بإيجاد طريقة لها تعود فيها لمصلحتي. إن نشاط المخلوقات الخبيثة التي تحيط بشخص ما، تشكّل قوة كبيرة قادرة على إطلاق عربة مجد هذا الشخص. كما يكمن الشيء المهم في عدم التنازل عن "العجلات" ولا للحظة واحدة. "المتسلّقون" لا يهتمون. والشيء المهم بالنسبة لهم هو الوصول – تماماً كما يكون البحث عن الساعة غير مهم – الشيء المهم هو إيجادها.

وعرفت أنني وصلت إلى الشهرة في اللحظة التي نزلت فيها في محطة "أورساي" في باريس. لكنني وصلتها دون أن أعرفها، وبسرعة كبيرة حيث وجدت نفسي وحيداً بالكامل، ودون أن أكون معروفاً لأي شخص، ودون جواز سفر أو أمتعة. ولذلك كان عليّ أن أعود وأحضرها، وأن أستأجر حمالين. وكان علي أن أذهب وأحصل على وثائقي الرسمية وتأشيرتي، وأدركت أنني بوجود كل هذا الروتين البيروقراطي، خاطرت بإضاعة ما تبقى من حياتي. ولذلك بدأت أتلفّت حولي واعتبرت من حينها فصاعداً أن معظم الناس الذين قابلتهم فقط وبشكل حصري، مخلوقات أستطيع استخدامهم كحمالين في رحلات طموحي. وجميع أولئك الحمالين عاجلاً أم أجلاً، يصبحون منهكين. ومع عدم قدرتهم على احتمال المسيرات الطويلة التي فرضتها عليهم

بالسرعة القصوى وتحت جميع الظروف المناخية، ماتوا في الطريق. ثم استخدمت أشخاصاً آخرين لكنني، لكي أبقي عليهم معلقين بخدمتي، وعدتهم بأن آخذهم معي حيث أذهب، وأوصلهم إلى محطة المجد الأخيرة التي يريد المتسلقون المحبطون أن يصلوا إليها. لكنني كما ذكرت سابقاً، أنا لم أرغب بالوصول بل "كنت ذاهباً إلى هناك".

لكن كيف كنت أنجح بأن أجعل **"شخصيات المجتمع"** يدعموني؟ كان الأمر بسيطاً جداً وطفولياً، وكنت أنجح بأن أجعلهم يعتمدون عليّ. ومن هم **"شخصيات المجتمع"**؟ إنهم البشر الذين يوازنون أنفسهم على قدم واحدة كطيور اللقلق بدلاً من أن يقفوا على قدمين اثنتين. وهذا ينم عن موقف أرستقراطي يرغبون من خلاله أن يُظهروا أنهم يرغبون بلمس القاعدة العامة للعالم فقط من خلال ما هو ضروري ودقيق للحفاظ على توازنهم، بينما يستمرّون بوقوفهم كي يتابعوا رؤية كل شيء من الأعلى. لكن هذا الموقف المغرق في الأنانية غالباً ما يحتاج إلى دعم، ولهذا يحيط **"شخصيات المجتمع"** أنفسهم عادة بحشد من **"المعوقين"** ليتكئوا عليهم، والذين من خلال اتخاذهم أشكالاً متنوعة من الفنانين الشاذين جنسياً والمدمنين على المخدرات، يأتون بالتناوب ويعملون كداعمين لموقف أرستقراطي لا يمكن الدفاع عنه، والذي كان سلفاً في ذلك الوقت بداية للشعور بالصراعات الأولى "للجبهة الشعبية".

وبما أن الحالة على هذا النحو، فقد قررت حشد القوى مع مجموعة المعوقين الذين تدعم الارستقراطية المنحطّة عجرفتهم، ولا تزال عالقة بمواقفهم التقليدية. لكن كان لدي فكرة أساسية تقوم على ألا أدخل خالي اليدين كالآخرين. وقد وصلت في الواقع وأنا أحمل عكازات بيديّ! وأدركت شيئاً واحداً على الفور هو أن الأمر يحتاج إلى كميات وكميات من العكازات لأعطي شيئاً يشبه الصلابة لكل هذا. ودشّنت "العكاز المثير للشفقة"، دعامة أول جريمة في طفولتي، الرمز الحصري الكامل القوة

لفترة ما بعد الحرب – عكازات لتدعم التطور الهائل لبعض الجماجم المتضخمة، عكازات تشلّ حركة نشوة مواقف معينة ذات أناقة نادرة، عكازات تجعل الوضعية الهاربة لحركة رقص هندسية ومستديمة، ولتثبيت الفراشة سريعة الزوال للراقصة بمسامير تحافظ على وضعيتها إلى الأبد. عكازات، عكازات، عكازات، عكازات.

كما اخترعت أيضاً عكازاً وجهياً ناعماً من الذهب والياقوت. لقد كانت شعبتاه المنقسمتان مرنتين، وكانتا تميلان لتمسكا قمة الأنف وتثبتانه. وكانت نهايته الأخرى مستديرة بنعومة، ومصممة لتميل على الفتحة المركزية فوق الشفة العليا. وهكذا كانت عكازاً أنفياً ونوعاً غير مفيد أبداً من المواد التي تعمل على جذب غرور نمطٍ معين من النساء الأنيقات جداً، تماماً كما تلبس بعض الكائنات نظارة بعدسة واحدة دون أن يكون هناك حاجة لها سوى الشعور بلجام الافتضاحية المقدس يرصّع وجوهها.

كان رمز عكازي ملائماً جداً ومستمراً ليتناسب مع الأساطير اللاوعية لعصرنا بحيث أصبح هذا "الهوس" يسعدنا أكثر وأكثر ولا يتعبنا إطلاقاً. وكان المثير للفضول هو أنني كلما وضعت عكازات **أكثر** في كل مكان، لدرجة يعتقد المرء أن الناس في نهاية الأمر قد سئموا هذا الشيء أو اعتادوا عليه، تساءل الجميع بفضول شهي **أكثر**: "لماذا يوجد الكثير من العكازات؟" وعندما قمت بمحاولتي الأولى لتدعيم الأرستقراطية بآلاف العكازات كي أحافظ على وقفتها الشامخة، نظرتُ في وجهها وقلت لها بصدق:

"سوف أرفسك رفسة عنيفة بساقي".

ومدّت الارستقراطية الساق التي بقيت مرفوعة كساق طائر اللقلق أكثر قليلاً وأجابت وهي تصرّ على أسنانها لتحتمل الألم برزانة دون أن تصرخ: "تابع طريقك".

وعندئذٍ، مستخدماً كل قوتي، رفستها بشكل عنيف على ساقها. ولم تتزحزح. لهذا فقد دعمتها جيداً.

وقالت لي: "شكراً لك".

وأجبتها بينما كنت أغادر مقبّلاً يدها: "لا تخافي، سأعود. ومع كبرياء ساقك الواحدة وعكازات ذكائي، أنت أقوى من الثورة التي يحضّر لها المثقفون الذين أعرفهم بشكل وثيق. أنت عجوز ومنهكة من التعب، وقد سقطتِ من مكانك العالي، لكن البقعة التي التحمت قدمك بها مع الأرض هي التقاليد. وإن حدث ووافتك المنية، فسوف آتي في الحال لأضع قدمي مكان تلك التقاليد التي كانت لك، وسأرفع قدمي الأخرى مثل اللقلق. أنا مستعدّ لأن أصبح عجوزاً وأنا في هذا الموقف دون أن يصيبني التعب".

لقد كان النظام الأرستقراطي أحد الأمور التي تثير شغفي، وقد فكرت كثيراً في تلك الفترة بإمكانية إعادة الوعي التاريخي للدور الذي يجب أن تلعبه أوروبا المتطرفة في فردانيتها والذي ينبثق من الحرب الحالية، إلى تلك الطبقة النخبوية. ولأنني كتبت كل ما لدي من أفكار عن الأحداث التي ستسيطر على العالم خلال السنوات القادمة، فإن الناس كانت ملزمة بالتأكيد بالاعتراف بموهبتي النبوية. وعلى أية حال، فإن جميع أصدقائي ذوي النوايا الحسنة الذين تابعوني منذ العام 1929، وكانوا قادرين على التحقق من دقة معظم توقعاتي، مستعدون الآن كي يشهدوا بالتحقق الحرفي تقريباً للأحداث التي بدت عندما تم الإفصاح عنها، متناقضة وخالية من المنطق الحقيقي، تشير إلى حس الفكاهة المتعلق بأشد الأنواع كآبة.

لقد توقعت في العام 1929 أشياء كانت لا تزال بعيدة جداً عن التحقق: فترة "الحشود" و"اليسارية" والميكانيكية التي أطلقت الأيديولوجيات الثورية لفترة ما بعد الحرب العنان لها، والتي بعد أن التهمت الديمقراطيات بحياتها الشمولية، لا بدّ أن تؤدي إلى حرب أوروبية، وبعد الكثير من المآسي، سيصدر عنها تقليد فردي سيكون كاثوليكياً، أرستقراطياً، وربما ملكياً، من قلب المجتمع الفقير. لم يستمع

أحد إلى هذه الأمور، ويجب أن أقول إنني أنا نفسي لم أهتم كثيراً بها، وتركتها تسقط عشوائياً، من أجل حب المغامرة بدلاً من أي سبب آخر.

وأثناء انتظاري كي تتحقق تلك النبوءات، وانتظاري للسرياليين ليبدؤوا هضم الجمل القصيرة التي ألقيتها عليهم، وانتظار المتسلقين كي يباشروا بإهانتي وإيذائي، وانتظار "**أفراد المجتمع**" كي يعلنوا عن الرغبة بي، ذهبنا إلى "الشاطئ الأزرق". وعرفت غالا فندقاً منعزلاً لا يمكن لأحد أن يأتي ويزعجنا وكان ذلك فندق "Hôtel du Château" في "Carry le Rouet". وهناك أخذنا غرفتين كبيرتين جعلت من إحداها مرسماً لي، وكان مدخل الجناح مليئاً بالحطب بحيث تبقى المدفأة متقدة طوال الوقت، وليس هناك من يأتي لمقاطعتنا بذريعة إحضار الحطب. أضأت مصباحاً كهربائياً موجّهاً إلى لوحتي فقط تاركاً باقي الغرفة تعوم في الظلام تقريباً، كما قررنا ألا نفتح النوافذ أبداً. وغالباً ما كانت وجبات الطعام تصلنا إلى الغرفة. وكنّا في أوقات أخرى ننزل إلى غرفة الطعام. لكننا لم نخرج من الفندق لمدة شهرين!

وبقيت هذه الفترة محفورة في ذاكرة غالا وذاكرتي على أنها الفترة الأكثر نشاطاً وإثارة وحماساً في حياتنا. وقد حدث عدة مرات أثناء رحلاتنا بالقطار، وعندما كنا نتوه في أقصى متاهات ذكرياتنا، حدث أن صرخنا معاً في اللحظة ذاتها: "هل تتذكر الأيام التي أمضيناها في "Carry le Rouet؟".

وبعد شهرين من الحبس الإرادي الذي عرفت خلاله الحب الكامل، وعرفت التخيلات الفكرية التي وضعتها في عملي، أصبحت لوحة "الرجل الخفي" نصف مكتملة. وكانت غالا تستشير أوراق الحظ بابتسامتها الرائعة، وقد رأت من خلالها الطريق المليء بالمصاعب نفسه وهو يقود إلى النجاح. وقد آمنت بأوراق الحظ تلك، وبالطريقة التي تقوم غالا بتفسيرها لي. وكنت أطلب منها كل ليلة أن تقرأ حظي مما ساعدني على إزالة أدنى نوبة قلق كانت تصيبني وتؤثر على سعادتي.

ولعدة أيام متتالية، أفصحت الأوراق عن رسالة من شخص مجهول بالإضافة إلى مبلغ نقدي. ثم وصلت الرسالة وكانت من "الفيكومت دي نواي" يخبرني فيها أن معرض "معرض جيومان" يدنو من الإفلاس، ويعرض في الوقت نفسه مساعدة مالية كي يحررني من أدنى قلق بهذا الشأن. كما اقترح أن أزوره في منزله حيث ستأتي سيارته لتقلني في اليوم الذي أحدده. كان قد مرّ شهران على وصولنا إلى فندق " Hôtel du Château" وقررنا الخروج كي نتنزه ونبحث في هذا الشأن. وأذكر أننا كنا مبهورين بالضوء الساطع لصباح الشتاء المشمس هذا، وكان لون بشرتينا شديد الشحوب، وواجهنا صعوبة كبيرة للاعتياد على الضوء الطبيعي بعد مضي شهرين كاملين في غرفة الفندق المظلمة تقريباً. وبدت حرارة الشمس مبهجة كما لم تكن أبداً، وقررنا أن نتناول الطعام في الخارج. كما قررنا للمرة الأولى أيضاً أن نتناول النبيذ مع الوجبة، واتخذنا قرارنا لحظة دخولنا إلى المقهى. وكان القرار النهائي أن تذهب غالا إلى باريس للحصول على بعض الأموال التي يدين بها المعرض لنا، بينما أقوم أنا بزيارة لـ "فيكومت دي نواي" في قصره في "Hyères"، وهناك سأعرض عليه أن أرسم له لوحة مهمّة جداً يدفع لي مقابلها تسعاً وعشرين ألف فرنك مقدماً. وبهذا، ومع المبلغ الذي بحوزة غالا، سوف نذهب إلى كاداكيس ونبني بيتاً صغيراً يكفينا أنا وهي فقط. وهو ما يسمح لنا بالعمل ويدعنا نخرج من باريس من وقت لآخر. أنا أعشق المنظر الطبيعي في كاداكيس، ولن أتطلّع إلى أي منظر آخر.

ثم ذهبت غالا إلى باريس، وذهبت أنا لزيارة "نواي" الذي ذُهل باقتراحي. وفي اليوم الذي عادت فيه من باريس، عدت أنا من "Hyères"، أحضرت غالا المبلغ نقداً، وأحضرت أن شيكاً. وقد أمضيت فترة بعد الظهر كلها وأنا أنظر إلى الشيك، وعرفت للمرة الأولى أن المال شيء مهم جداً. ثم انطلقنا من جديد إلى إسبانيا، وبدأنا هناك

مرحلة حياتنا التي أعتبرها الأكثر رومانسية وصعوبة وكثافة وإرهاقاً، وهي أيضاً الفترة الأكثر "إذهالاً" لي لأن مجازفات معينة آن أوانها بالنسبة لي – وبدا فجأة أن حظي الجيد سينتهي.

بدأت الآن المعركة الشرسة التي بدأتها ضد الحياة، والتي كنت أعتقد حتى تلك اللحظة بأنني أستطيع أن أتملّص منها. لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة سوى تلك العقبات والقيود الموجودة في مخيلتي. كل الاحتمالات كانت لصالحي. والحب أيضاً قد خدمني – لقد شفاني من جنوني القريب، وعشقته إلى حد إيصاله للجنون. لكن فجأة كنت أوشك أن أعود إلى كاداكيس، وبدلاً من أكون ابن دالي كاتب العدل، سأكون ابنه الموصوم بالعار، المنبوذ من عائلته، والذي يعيش مع امرأة روسية غير متزوّج منها!

كيف سندير حياتنا في كاداكيس؟ كان هناك شخصية وحيدة يمكننا أن ناخذها بعين الاعتبار – إنها ليديا، "La Ben Plantada"[1].

ليديا امرأة من القرية وأرملة "ناندو" البحار ذي العينين الزرقاوين والنظرة الهادئة". كانت في الخمسين من عمرها. وقد أمضى الكاتب "أيوجين دور" فصل صيف كامل في منزلها في ذلك الوقت عندما كان في العشرين من عمره. وكانت ليديا ميّالة للشعر، وقد أعجبتها النقاشات غير المفهومة للمثقفين الكاتالونيين. وفي إحدى المرات عندما أوشك "دور" أن ينطلق برحلة بالقارب برفقة زوجها، طلب منها كوب ما وقال بنوع من الشكر وكرر عدة مرات:

"انظر فقط إلى ليديا، "La Ben Plantada" كم هي مزروعة جيداً!"

وفي الشتاء التالي، نشر "دور" كتابه الشهير "المزروعة جيداً" الغارق بالأفلاطونية الجديدة وقالت ليديا بعد أن قرأته: "هذه أنا". ثم حفظت

---

[1] كانت تلك المرة الثانية في حياتي كلها التي أواجه فيها أسطورة "La Ben Plantada" المتجسدة في شخصية "ليديا" التي كانت حيّة في ذكريات طفولتي المتعلّقة "باورسوليتا ماتاز" التي كانت تسكن الطابق الثالث فوق منزلنا خلال فترة طفولتي.

الكتاب عن ظهر قلب وبدأت ترسل رسائل إلى "دور" وظهرت فيها رموز مثيرة للقلق. ولم يردّ "دور" على أية رسالة لكنه كان يكتب في ذلك الوقت مقالة يومية في "The Veu de Catalunya" مما جعلها تقتنع بأنها كانت ردّاً رسمياً على رسائلها على الرغم من رمزيتها. كما فسّرت أن ذلك كان مجرّد استعانة من "دور"، لأن السيدة التي أطلقت عليها ليديا اسماً مستعاراً هو "والدة إله آب – أغسطس" وسيدات أخريات معينات كان لليديا مبرراتها باعتبارهنّ منافسات لها، قد رتبن أمورهن بطريقة ما لاعتراض حالة التوافق تلك. وقد أجبر هذا الأمر "ورس" أن يتحدث بطريقة مبطّنة وأن يعبّر مثلها عن كل تلك المشاعر بطريقة أكثر رمزية. وكانت ليديا صاحبة أكثر الأدمغة التي عرفتها ارتياباً إلى جانب دماغي أنا. وكان لديها القدرة على أن تؤسس علاقات متماسكة جداً بين أي موضوع يحضر أمامها وهواجسها اللحظية مع تجاهل كامل لكل شيء آخر، بالإضافة إلى انتقائية التفاصيل وخفة الدم وسعة الحيلة لدرجة يكون من الصعب جداً معها ألا توافق على قضايا تعرف تماماً بأنها سخيفة. وكانت تفسّر مقالات "دور" بما يتماشى مع الاكتشافات الموفقة للأحداث، وتلعب على الكلمات بحيث يتعجب المرء بالعنف التخيّلي المذهل الذي تستطيع معه الروح الارتيابية أن تُسقط صور عالمنا الداخلي على الخارجي دون أن يكون هناك اهتمام بالمكان أو بأي شكل وأية ذريعة. وتظهر هذه المصادفات التي لا تُصدّق في المراسلات الغرامية التي استخدمتها أنا عدة مرات كنموذج لكتاباتي الخاصة.

وكتب "دور" مرة مقالاً عقلانياً ومعقداً جداً بعنوان "Poussin and El Greco". ووصلت ليديا في تلك الليلة تلوّح بانتصار وتمسك الصحيفة التي نشرت المقال بيدها. ثم عدّلت طيات تنورتها وجلست بمزاج احتفالي أشارت من خلاله إلى أن هناك موضوعاً مهماً لا بدّ أن نتحدث عنه وأنه سيحتاج إلى الكثير من الوقت. وعندئذٍ، وبعد أن وضعت يدها على ثغرها بثقة كبيرة، قالت بصوت منخفض:

"لقد بدأ مقاله بما انتهت به رسالتي!"

وقد حدث فعلاً أنها ألمحت في رسالتها الأخيرة إلى شخصيتين شعبيتين في كاداكيس. وكان أولهما "Pusa" والآخر كان غطاساً إغريقياً يلقّب بـ "El Greco". ومن هنا كان التمثيل واضحاً تماماً، لفظياً على الأقل: "Pusa and El Greco" – Poussin and El Greco! لكن ذلك كان البداية فقط، لأن ليديا أخذت الموازي الجمالي والفلسفي الذي أقامه "دور" بين الرسامين على أنه مقارنة أقامتها بنفسها بين "Pusa" والغطاس الإغريقي، وفسرته كلمة كلمة بهذيان تفسيري ممنهج جداً ومتماسك ومدهش يصل حدّ العبقرية!

وبعد تلك الأمسية ذهبت إلى بيتها ووضعت نظاراتها، وراقبها ولداها الصيادان المتواضعان قليلا الكلام بينما كانا يعدّان شباكهما ليوم الصيد التالي. وفتحت ليديا عبوة الحبر وبدأت تكتب رسالة جديدة على أفضل أنواع الورق التي تُباع في القرية إلى "المعلّم" كما كانت تسميه، وبدأت بشكل مباشر بجمل من هذا النوع:

"الحروب السبعة، العذابات السبعة قد غادرت قرية كاداكيس وتركت نبعين جافين! إن "المزروعة جيداً" ميتة. وقد قتلها " Pusa, El Greco"، وقتلها مجتمع "الماعز والفوضويين" الذي تم تأسيسه مؤخراً. وعندما تقرر يوماً أن تأتي إلى هنا، أوضح لي ذلك عبر مقالاتك اليومية. لأنه من المفترض أن أعرف مُسبقاً كي أذهب وأحضر اللحم من فيغوراس. في فصل الصيف هذا، ومع كل الناس الموجودين هنا، من المستحيل أن تجد أي شيء جيد في اللحظة الأخيرة...."

وقد قالت لي في أحد الأيام: "كان "دور" على الرصيف في فيغوراس أول البارحة!" وقد كنتُ واثقاً من عدم صحة هذا الكلام، لكنني سألتها كيف اكتشفت ذلك. وقالت: "كان ذلك مكتوباً في الصحيفة المنشورة"، وأظهرت لي الصفحة المذكورة مشيرة إلى بإصبعها إلى "Hors d'oeuvres" وأجبتها:

"لا بأس بـ (Hors). لكن ماذا تعني (oeuvres)"؟

وفكرت للحظة وقالت: "(oeuvres) — إنها كما لو أنك تقول (Incognito.' D'Ors incognito) — إنه لا يريد أن يعرف أحد بالأمر!"

هكذا كانت ليديا من كاداكيس، وإن عاشت كما فعلت في عالم خارق جداً كوّنته على طريقتها، وتحدثت عن ذلك الأمر روحانياً إلى باقي سكان القرية، ونجحت في هذا المجال بأن تغرس قدمها بثبات في الأرض — مع شعور بالواقعية التي كان سكان كاداكيس مستعدين لأن ليشاهدوا حماقتها متى وصلت إلى موضوع: المعلم "دور" والمزروعة جيداً".

ويقول الناس: "ليديا ليست مجنونة، حاول فقط أن تبيعها كمية سيئة من السمك، أو أن تضع إصبعك في فمها!"

وتصنع ليديا "أرز جراد البحر" أفضل من أي شخص آخر، وكذلك "Dentos[1] a la marinesca" — أطباق هوميروسية بالفعل. لأنها وجدت هذا الطبق الأخير الشكل الذي يستحقه "أريستوفانيس"[2] وكانت تقول:

"لتصنع طبق "Dentos a la marinesca" يحتاج الأمر إلى ثلاثة أشخاص — مجنون وبخيل ومُسرف. يعتني المجنون بإشعال النار، ويضيف البخيل الماء، أما المُسرف فيضيف الزيت". لأن نجاح هذا الطبق يتطلب ناراً مستعرة وكمية هائلة من الزيت، بينما يتم استعمال الماء باعتدال شديد.

لكن إن تعلّقت ليديا بالواقع، وبالنوع الأكثر جوهرية منه عبر الروابط البحرية والأرضية المتعددة، فإن ولديها من جهة أخرى كانا مجنونين بالفعل، وانتهى الأمر بهما لاحقاً في مصحة عقلية، لقد اعتقدا أنهما اكتشفا في (كاب كرو) عدة كيلومترات مربعة من المعادن الثمينة.

---

[1] Dentos: سمك غض جداً يعتبره الصيادون لحم الخنزير البحري.

[2] كاتب إغريقي مسرحي عاش بين عامي (450 – 385) قبل الميلاد. المترجم.

وأمضيا ليال في نقل عربات من الأوساخ من مسافة بعيدة ليدفنا موقع المادة المعدنيّة بحيث لا يستطيع أحد أن يكتشفها. لقد كنت أنا الشخص الوحيد الذي أوحى لهما بهذا الأمر بثقة، بسبب محادثاتي الطويلة مع والدتهما حول موضوع "المعلم" و "المزروعة جيداً". لقد وصلا في إحدى الأمسيات إلى منزل أهلي ليخبروني بأمر اكتشافهما وكان ذلك في الصيف السابق للصيف الذي قابلت فيها غالا. ثم أغلقنا الباب على أنفسنا في غرفتي وسألتهما عن نوع المعدن الذي اكتشفاه. وأصرّا حينها على إغلاق مصاريع النوافذ: ربما كان هناك جواسيس يستمعون إلى ما نقوله في الخارج. وأغلقت النافذتين وسحبت الخزانة نحوهما، ووضعت يديّ على أكتافهما كي أوحي لهما بالثقة من جديد.

"حسناً، ما هو ذلك الشيء؟"

ونظر أحدهما إلى الآخر كما لو أنه يقول: "هل نخبره أم لا؟" لكن كان أحدهما غير قادر أن يصمت أكثر من ذلك.

وهمس بصوت أجش: "إنه الراديوم!.

وسألتهم: "هل هو بتلك الكمية الوفيرة؟"

وأجاب مشيراً بيده إلى ضعف حجم رأسه: "قطعة بهذا الحجم، وبالكمية التي تريد!"......

وكان ابنا ليديا قد امتلكا كوخاً تعيساً بسقف مُنهار استخدماه للحفاظ على عدّة الصيد. كان هذا الكوخ مبنياً في "بورت ليغات" الصغير يبعد مسافة خمس عشرة دقيقة عن كاداكيس، خلف المقبرة. وهذا الميناء هو أحد أكثر المناطق على سطح الأرض قحلاً ومعدنية. إن الصباحات ذات فرح موحش ومرير وتحليلي وبنيوي بشدة، وغالباً ما تصبح المساءات سوداوية بشكل مَرَضيّ، وأشجار الزيتون التي كانت مشرقة متراقصة في الصباح، تتحول إلى أشياء جامدة رمادية مثل الرصاص. ونسيم الصباح يرسم ابتسامات من أمواج صغيرة الفرحة على

مياهه. وفي المساء على الأغلب، وبسبب أن الجزر القريبة، تجعل "بورت ليغات" أشبه ببحيرة، تصبح المياه هادئة جداً بحيث تعكس دراما سماء الغسق الباكر.

خلال الشهرين اللذين أمضيتهما مع غالا في "Carry le Rouet"، كانت مراسلاتي الوحيدة التي استلمتها من إسبانيا هي رسائل ليديا، وقد جمعتها وحللتها كوثائق ارتيابية من الدرجة الأولى، وعندما استلمت رسالة من "فيكومت دي نواي"، فكّرت فوراً بشراء كوخ أولاد ليديا وإصلاحه وجعله قابلاً للسكن. وشاءت المصادفات أن يكون هذا الكوخ في البقعة التي أحبها أكثر من أي شيء في العالم. ومع اتباعي لأهوائي التي تميّز رغباتي، أصبحت تلك البقعة في تلك اللحظة، البقعة الوحيدة التي أريدها والتي أستطيع أن أعيش فيها. وكانت غالا تريد ما أريده فقط، وبهذا كتبنا رسالة إلى ليديا لنعرض عليها شراء كوخ ولديها وردّت بالإيجاب وقالت إنهما بانتظارنا.

وهكذا وصلنا إلى كاداكيس في عزّ الشتاء. واتخذت إدارة فندق "ميرامار" قضية إعادة الترميم كذريعة كي لا يسمحوا لنا بالإقامة فيه لأنهم كانوا يقفون إلى صف والدي، مما جعلنا نذهب إلى مأوى صغير قامت إحدى خادماتنا القدامى بما في وسعها كي تجعل إقامتنا فيه مقبولة. أما الأشخاص الوحيدون الذين كنت مهتماً بقضاء أوقات جيدة معهم فكانوا دزينة من صيادي السمك الذين كانوا أكثر استقلالية بأرائهم واستقبلونا بتحفّظ في البداية لكنهم سرعان ما أُعجبوا بطبيعة غالا التي لا يمكن مقاومتها، وكذلك بالهالة المحيطة بي وبهيبتي. كما عرفوا ما كانت تكتبه الصحف عني. وقالوا: "إنه شاب، وهو ليس بحاجة إلى أموال والده، كما أنه حرّ بأن يفعل كل ما يريده بشبابه.

ثم استعنا بنجار من كاداكيس، وعملنا أنا وغالا على التفاصيل بدءاً من عدد درجات السلّم حتى أبعاد أصغر نافذة. ولم يستطع أي من

قصور "لودفيغ الثاني" في بافاريا أن يثير في قلبه نصف ما أثاره فينا كوخنا الصغير هذا.

كان الكوخ مؤلفاً من غرفة واحدة بمساحة تصل إلى أربعة أمتار مربعة وكانت تُستخدم كغرفة طعام، بالإضافة إلى غرفة نوم واستديو للرسم وحجرة جلوس. وعندما يصعد المرء بضع درجات، يظهر في الرواق الصغير ثلاثة أبواب تؤدي إلى الحمام ودورة المياه، وإلى مطبخ صغير تستطيع بصعوبة أن تتحرك داخله. وقد أردته أن يكون صغيراً - كلما كان أصغر، كان أكثر شبهاً بداخل الرحم. وقد أحضرنا المستلزمات الزجاجية والمصنوعة من "النيكل" من شقتنا في باريس، وغطينا الجدران كلها بطلاء "المينا". ومع عدم إمكانية تنفيذ أي شيء من أفكاري الهذيانية المتعلقة بالديكور، أردت فقط النسبة التي تتطابق مع متطلباتنا أنا وغالا. أما الزخرفة الوحيدة المُبالغ فيها والتي خططت لاستخدامها في المنزل كانت سني اللبني الصغير جداً جداً والذي لم أكن قد انتزعته بعد وفقدته للتو. لقد كان أبيض ولامعاً كحبة أرز، وأردت أن أصنع به ثقباً وأعلقه بخيط في وسط السقف تماماً.

لقد جعلتني فكرة تعليق سني اللبني وسط السقف تماماً أنسى كل أنواع الصعوبات العملية التي بدأت تتزاحم في وجه غالا القلق، وقلت لها حينها: "لا تفكّري بتلك المشاكل أبداً، .... الماء، الإنارة، صعوبة أن نتخذ مكاناً لخادمة. وفي اليوم الذي ترين فيه سني اللبني معلقاً في وسط السقف بيتنا، ستصبحين متحمسة مثلي وتسيطرين على كل تلك الأمور. ولن يكون لدينا أزهار أو كلب — لن يكون هناك سوى القحط المحيط بشغفنا! وسيجعلنا ذكاؤنا نشيخ معاً وبسرعة! ويوماً ما سأكتب كتاباً عنك وسوف تصبحين إحدى أولئك "البياتريسيات" الميثولوجيات اللواتي أُجبر التاريخ على أن يحملهن على ظهره، ملسوعاً بغضب سياطي، والنار التي يبصقها غضب استيائي".

وعندما قررنا كل ما يتعلّق بتفاصيل بناء بيتنا في "بورت ليغات"، ذهبنا إلى برشلونة. وكان الفلاحون في المناطق المحيطة ببرشلونة يحبون أن يرددوا القول المأثور التالي: "برشلونة جيدة إن رنّ كيس نقودك". ومع الوديعة التي أعطيناها للنجار في كاداكيس، كنا قد أنفقنا كل ما لدينا من مال. وقد حضّرت نفسي كي أجعل كيس نقودي يرنّ. ذهبنا إلى البنك لنصرف الشيك الذي استلمته من "فيكمونت دي نواي" والبالغ تسعاً وعشرين ألف فرنك. وفاجأني أن الموظف المسؤول عن صرف المبلغ في البنك ناداني باسمي. ولم أكن أعرف أنه أصبح لي شعبية في برشلونة، لكن هذه الحميمية التي أظهرها موظف البنك، إضافة إلى الإطراء الكبير، جعلت قلبي يفيض بالشك فقلت لغالا:

"إنه يعرفني لكنني لا أعرفه!"

وكانت غالا غاضبة من بقايا طفوليتي وقالت إنني سأبقى دوماً فلاحاً كاتالونياً. ثم وضعت اسمي وتوقيعي على خلفية الشيك، لكن عندما أوشك الموظف أن يأخذه، رفضت أن أسلمه الشيك وقلت لغالا:

"عليّ أن أقول لا! سوف أعطيه الشيك عندما يسلّمني النقود".

وقالت غالا في محاولة منها لتشجيعي: "ماذا تتوقع أن يفعل بالشيك الخاص بك؟"

وأجبت: "ربما يأكله!"

"لكن لماذا يأكله؟"

"لو كنت في هذا المكان لأكلته بالتأكيد!"

"لكن حتى لو أكله فإنك لن تفقد مالك".

"أعرف، لكن حينها لن نكون قادرين أن نذهب لنتناول " Torts and rubellons a la llauna" هذا المساء[1]".

ونظر إلينا موظف البنك مشدوها وغير قادر على متابعة حوارنا لأنني كنت قد أخذت غالا عن عمد خارج مرمى سمعه. لكنها أقنعتني أخيراً فعدت إلى النافذة بحزم وقلت للموظف بعد أن رميت الشيك أمامه بازدراء: "حسناً، تابع العمل!"

خلال حياتي كلها، كان من الصعب جداً علي أن أعتاد على الحياة الطبيعية المقلقة المدهشة للبشر الذين يحيطون بي ويسكنون هذا العالم. ولطالما قلت لنفسي: "أي شيء يمكن أن يحدث، لا يحدث أبداً!" أنا لا أستطيع أن أفهم لماذا يكون البشر فردانيين بشكل هزيل جداً، ولماذا يتصرّفون بهذا النظام الجمعي الكبير. خذ مثالاً بسيطاً وهو تسلية النفس بإخراج القطارات عن مسارها! فكّر بآلاف الكيلومترات من مسارات السكك الحديدية التي تغطي أوروبا وأمريكا وآسيا! والنسبة الضئيلة ممن لديهم شغف بإخراج القطار عن مساره، ويقومون بذلك بشكل عملي، بالمقارنة مع من لديهم شغف بالسفر! وعندما تم إلقاء القبض علي من حطم القطار في "ماروشكا" في هنغاريا، تم اعتبار هذا الأمر حدثاً مميزاً وفريداً من نوعه.

---

[1] Torts: تشكيلة من العصافير الصغيرة، rubellons a la llauna نوع من الفطر المشوي فوق طبقة رقيقة من المعدن: وهما من الأطباق الكاتالونية المفضلة لدي.

ولا أستطيع أن أفهم المقدرة الضئيلة للإنسان على التخيّل. ولا أستيطع أن أفهم لماذا لا تظهر لدى سائقي الباصات رغبة بالاصطدام بنافذة متجر والحصول على بعض الألعاب لزوجاتهم وإسعاد الأطفال الذين يصادف وجودهم في هذا المكان.

أنا لا أفهم، ولا أستطيع أن أفهم لما لا يضع صانعو "كرسي دورة المياة" قنابل مخفية في "خزان الماء" بحيث ينفجر في اللحظة التي يسحب فيها بعض السياسيين سلك التصريف.

لا أستطيع أن أفهم لماذا تكون أنابيب تصريف الحمامات متشابهة دوماً، ولماذا لم يخترع أي شخص سيارة تكسي أغلى من باقي الأنواع، ومجهزة من الداخل بأجهزة تؤدي إلى هطول مطر صناعي يفرض على الراكب أن يرتدي معطفاً مطرياً عندما يكون الطقس جميلاً ومشمساً في الخارج.

لا أستطيع أن أفهم لماذا عندما أطلب جراد بحر مشوياً في المطعم، لا يقدّم إليّ جهاز تليفون مطهو. ولا أفهم لماذا تكون الشامبانيا باردة دوماً، وتكون "أجهزة التلفون" دافئة عادة ولزجة الملمس بشكل غير مقبول، ولماذا لا توضع في دلاء فضية مليئة بالثلج المطحون.

تليفون بلون النعناع أو الحليب المخفوق، تليفون مثير للشهوة الجنسية، تليفون مع سماعة على شكل جراد، تليفون ملفوف بالفرو من أجل مخادع السيدات الغاويات بأظافر محمية بفرو القاقم، تلفونات "إدغار ألان بو[1]" مع جرذ ميت مخفي بداخلها، تلفونات "بوكلين[2]" موضوعة داخل شجرة سرو (مرصّع من الخلف باللون الفضي الذي يرمز للموت)، تليفون معلق بسلسلة، مثبتة على ظهر سلحفاة حيّة... تليفونات... تليفونات ... تليفونات.... تليفونات.....

---

[1] إدغار ألان بو (1809 – 1849) كاتب أمريكي وشاعر وناقد أدبي يُعتبر جزءاً من الحركة الرومانسية الأمريكية. المترجم

[2] أرنولد بوكلين (1872 – 1901) رسام سويسري رمزي. المترجم

تدهشني دوماً رؤية الناس القابعين في تخصصاتهم المختلفة ليكرروا الأشياء ذاتها مرة تلو الأخرى بشكل أعمى وبلا كلل! ويدهشني أيضاً أن موظف البنك لم تراوده فكرة "ابتلاع" شيك قدّمه له زبونه، ويدهشني أيضاً أنه لم تطرأ على ذهن أي رسام حتى الآن أن يرسم "ساعة رخوة.

وبشكل طبيعي قبضت قيمة الشيك من دون أية أحداث هامة وذهبنا في الليلة ذاتها إلى مطعم حيث تناولت دزينة من العصافير الصغيرة مع الشامبانيا، ولم نتوقف خلالها لحظة عن الحديث عن منزلنا الجديد. وفي اليوم التالي أُصيبت غالا بالتهاب رئوي تنفسي، وغرقتُ أنا بحالة من القلق إذ شعرت للمرة الأولى في حياتي بأن بنيان أنانيتي الهائل يهتزّ من أساساته بسبب زلزال باطني من الإيثار العاطفي. هل كان حبها سينهيني؟

وأثناء مرضها، تلقيت دعوة من صديق كان معي في مدريد لزيارته في "ملاجا"، وقد تكفّل بمصاريف إقامتي هناك، ووعد بأن يشتري لوحة من أجلي. وبناء عليه فقد خططنا للذهاب إلى "ملاجا" حالما تتعافى غالا، لكننا اتفقنا على ألا نصرف قرشاً واحداً من قيمة شيك "نواي" بل سنتركه في خزنة في فندق "برشلونة" لأن هذا المال سيبقى من أجل منزلنا الجديد الذي أصبح شيئاً مقدساً بالنسبة لنا. وأمضيت ساعات وأنا أفكر بالهدايا وأخطط لنقاهة غالا. لقد منحها المرض تلك الهيئة التي عندما يراها المرء في روب النوم الزهري، تبدو مثل إحدى الحوريات التي رسمها "رفائيل كيشنر"، أولئك الحوريات اللواتي يبدين وكأنهن سيمتن إن بذلن جهداً خفيفاً من أجل شمّ واحدة من أزهار الغاردينا المزخرفة التي يبلغ حجمها ضعف حجم رؤوسهن. كان شعوري المتعاطف مع غالا جديدا تماماً عليّ، وقد هيمن تماماً على روحي. وكانت كل حركة من حركاتها تخلق لدي شعوراً بالرغبة بالبكاء، وكان شعوراً حلواً كالعسل. وقد ترافق ولعي هذا مع بعض النبضات السادية. ثم نهضت متحمساً مليئاً بمشاعر الرعاية اللطيفة

وقلت لها وأنا أقبلها في كل مكان من جسدها: "أنت جميلة جداً!" لكنني كنت أهصرها بقوة أكثر وكلما ضاعفت من قوتي عليها وشعرت بمحاولاتها الضعيفة لمقاومة عناقي العاطفي العنيف، ازدادت رغبتي بأن "أسحقها" بين ذراعي إن جاز التعبير. ثم شعرت بإرهاقها تحت وطأة تدفقي العنيف، وهو ما حفّز رغبتي بشكل هذياني كي لا أتوقف عن "ألعاب" الهصر والخنق طوال فترة بعد الظهر. وفي النهاية بدأت تبكي بعد عن عجزت عن المقاومة بسبب ضعفها. وعندئذٍ هاجمت وجهها وقبّلته في كل مكان، وبدأت أعصر وجنتيها وأعبث بأنفها وأرشف شفتيها اللتين أظهرتا تكشيرة لا تُقاوم، ثم لعقت أنفها، ثم أنفها وفمها في آن معاً بينما كنتُ أمسّد أذنيها بكلتا يدي. وقد أصبحت تلك الحركات مسعورة أكثر وأكثر، وأخيراً كنت أطحن ذلك الوجه الضئيل الشاحب بقوة شعرت بأنها أصبحت خطيرة، كما لو أنني كنت أمدّد قطعة من العجين وأطويها وأربت عليها كي أصنع منها رغيف خبز. وفي محاولة مني لمواساتها، جعلتها تبكي مجدداً.

"دعينا نخرج! دعينا نخرج!"

ثم ركبنا السيارة وذهبنا إلى "معرض برشلونة العالمي". وأجبرتها أن تصعد أدراجاً طويلة وهي مغمضة العينين. وساعدتها على أن تصعد بعدما أحطت خصرها بيدي. لقد كانت ضعيفة جداً لدرجة توجّب علينا أن نستريح كل أربع درجات أو خمس. وبهذه الطريقة قدتها إلى ذروة الشرفة التي يستطيع المرء من خلالها أن يرى المعرض كله، وفي مقدمته النوافير المضيئة الأثرية الأكثر جمالاً في العالم. كانت تلك النوافير تصل إلى ارتفاعات شاهقة، وتنثر رذاذ الماء وتغير شكلها وألوانها مع مجموعة من التأثيرات السحرية الرائعة. كما انفجرت السماء أيضاً بحزم من الألعاب النارية. وسألتني غالا بينما كانت تميل برأسها على كتفي:

"ما الذي أعددته من أجلي كي أراه؟"

وقلت: "تفرّجي الآن!"

لم أرَ طفلاً مصدوماً بهذا الشكل. وسكب "راقصو السارداناز الكاتالونيون" إيقاع كآبتهم حولنا. وقالت:

"أنت تعرف تماماً كيف تفعل كل شيء من أجلي! وتجعلني أبكي طوال الوقت!"

وجرجر الحشد المجهول أقدامه الغبية بتكاسل على طول ممرات المهزلة التي تميّز المعرض العالمي دوماً. تعاسة التعاسات! لم يبكِ أحد منهم!

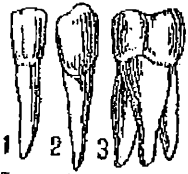

Dents de l'homme: 1. Incisive; 2. Canine; 3. Molaire.

وبعد يومين بدأنا رحلتنا الطويلة التي استمرت ثلاثة أيام إلى "ملاجا بعد أن تعافت غالا مباشرة. وفي مقصورتنا في الدرجة الثانية بقيت غالا لساعات ووجنتها ملتصقة بصدري، وكنت مندهشاً من رأسها الصغير الذي بدا مكوناً بالكامل من ملامح مليئة بشحوب الموت. ثم تأملت جمجمتها، ورأيتها بيضاء نقية مع تلك الأسنان المثالية المتراكبة بشكل مميز ناصع لا مع كما لو أن كلاً منها كان مرآة للسانها الأحمر الذي ينبثق من حنجرتها ويتخضّب بلعابها. وقارنت جمجمتها من دون اللسان أو الحنجرة أو اللعاب، بل الجمجمة المسلحة بأسنانها الحقيقة فقط مع توضع أسناني في جمجمتي حيث كان لدي بالفعل فم رجل عجوز. ولم يستطع أي طبيب أسنان أن يسبر أغوار تركيبة أسناني[1]، وقد شعروا دوماً بالدهشة — لم أعرف أبداً أكانت دهشتهم ناتجة عن الرعب أم الإعجاب. لأنه حالما يفحص أحدهم أسناني، لا يقدر إلا أن

1 تم تأكيد التوافق – وهو رمزي على أية حال – ما بين الأسنان والأعضاء الجنسية. وفي الأحلام، فإن فقدان الأسنان الذي يتم تفسيره على أنه نذير موت، من المفترض أن يكون إشارة واضحة عن الاستمناء باليد. وفي بعض القبائل الأفريقية فإن طقوس حفل الختان يتم استبدالها بقلع سن من الأسنان.

يهنئني على كارثية أسناني التي تُعتبر شيئاً فريداً بالنسبة له. لم يكن هناك من سن واحد في الموقع الذي يجب أن يكون فيه. وفقدت اثنين من أضراسي التي لم تنمُ، واثنين من قواطع الفك السفلي التي كانت قواطع لبنية ولمٍ تظهر بعد أن فقدتها (لم تكن موجودة في الواقع)، كما أن هناك أسناناً ظهرت في مكان لا يُفترض أن تظهر به.

وهكذا تخيلت جمجمتي إلى جانب جمجمة غالا ورأيتها كارثة حقيقية، لأنه إلى جانبِ فوضى أسناني، فإن ذقني المتراجعة بشكل كبير تعرض تبايناً عنيفاً مع وضوح حاجبيّ اللذين كانا يتعطشان للنظر عندما يغيب النظر. والأكثر من ذلك أنني لم أستطع أن أتخيل جمجمتي بلون أبيض — كانت دوماً بلون العفن وأكسيد الحديد، ولون أرض مُشبعة بالتراب. أما جمجمة غالا فكانت بيضاء، حتى أنها مخضبة بالأزرق السماوي، وتشبه تلك الحجارة الكريمة الملساء الشفافة الناعمة التي كانت والدتها تجمعها عن شواطئ البحر الأسود وتقدمها لها كهدية، وأبقت عليها غالا محفوظة في صندوق مبطن بالقطن. وفكّرت بأن يتم دفني أنا وغالا معاً ممسكاً أحدنا بيد الآخر....

وغاصت جمجمة غالا في حضني وغرقت في النوم. أعدتها إلى مكانها عليٍ كتفي الذي كان يؤلمني بسبب وزنها. وظهر أمامي جماجم أخرى معلقة على أجساد مسافرين غرباء، وتمايلت بخمولٍ مع حركة القطار. وغطّ الذباب براحة كبيرة على كل تلك الوجوه تقريباً. وفي هذا القطار المزدحم "بالنائمين الموتى" وصلنا إلى محطة "ملاجا".

يهّب الحرّ الأفريقي في هذا الفصل على "أندلسية" بعظمة استثنائية ملكية خيالية منقوشة بحروف من نار على أفق السماء الممتدة الخالية من غيمة واحدة، وقرأت هذا الشعار النبيل: "الحر هنا ملك". وقد ذهب سائق التاكسي إلى حمّال نائم في زاوية مظللة وحاول أن يوقظه بدحرجته على الأرض بقدمه. وقام بهذا مرتين استراح بينهما قليلاً.

وبعد الدحرجة الثانية أومأ الحمّال بيده أخيراً بحركة تبدو وكأنها تعود إلى طقوس مصرية قديمة أوضح فيها ما معناه: "بالتأكيد ليس اليوم!"

كانت الاستعدادات على قدم وساق من أجل "مهرجان الموتى" ومواكب أزهار عيد الفصح. توقف سائق "الترام" أمام بار وأحضر كأس شامبانيا وابتلعه دفعة واحدة وانطلق من جديد وهو يغني. وكان المرء يشاهد في الطرقات الكثير من "Picassos"[1] – أشباه بيكاسو" الذين يضعون زهرة قرنفل على أذن واحدة، ويراقبون الحشود التي تمر بعيون الاستخبارات الرشيقة المكثفة الوحشية. وتم الترتيب لصراع ثيران عظيم، وفي الأمسيات، وبعد غروب الشمس العنيد، غالباً ما كانت تعبر الصحراء الأفريقية رياح حارقة بدلاً من النسمات الباردة اللطيفة.

لقد أحببناها نحن الأسبان! وكانت هي اللحظة المناسبة التي اخترناها لنمارس الحب! إنها اللحظة التي تكون فيها رائحة الرطوبة وحقول القرنفل في أعلى درجاتها بينما يزأر أسد الحضارة الإسبانية الأفريقي! وفي قرية "تورمولينوس" الصغيرة التي تبعد بضع كيلومترات عن "ملاجا"، استأجرنا كوخاً لصيادي السمك يطلّ على حقل قرنفل على حافة جرف ينحدر بشدة نحو البحر. لقد كان ذلك شهر عسل من نار! وقد أصبحت بشرتنا داكنة كبشرات الصيادين السُمر المشابهين للعرب. كان السرير قاسياً جداً وبدا وكأن مفرشه محشو بالخبز الجاف بدلاً من الصوف. ولم يكن النوم مريحا أبداً، لكن بعدئذٍ يصبح الجسد مغطى بكامله بالكدمات التي ما إن يعتد المرء عليها حتى تصبح مقبولة جداً لأن المرء يعرف حينها أن لديه جسداً، وأنه عار تماماً.

أما غالا، بهيئتها المشابهة لهيئة الصبيان الذين لسعتهم أشعة الشمس، فقد تنزهت حول القرية بصدرها العاري، وعدتُ أنا لارتداء قلادتي مجدداً.

1 ملاجا: هي مسقط رأس بيكاسو. إن النموذج التشكيلي الخاص ببيكاسو شائع جداً هناك، إضافة إلى استخدام شكل الثور الذي يعبّر عن الذكاء والحيوية.

ولم يكن لدى صيادي المنطقة أي إحساس بالحياء بأي شكل من الأشكال، وكانوا يخلعون سراويلهم على بعد أمتار منا ليلبّوا نداء الطبيعة. كما تستطيع أن ترى بأنها كانت أكثر لحظات الحياة متعة بالنسبة لهم إذ يقوم أحياناً نسق منهم بتلبية نداء الطبيعة معاً على طول الشاطئ وتحت أشعة الشمس القاسية، كما يحظون بوقتهم الكامل للقيام بذلك بينما يتقاذفون شتائم ملحمية فيما بينهم. وفي أوقات أخرى يحرّضون أبناءهم بينما يتصارعون بقذف الحجارة في معارك ضارية. وغالباً ما تنتهي حرب الحجارة هذه بجروح في جماجمهم. لقد كان مشهد الأولاد النازفين يوقظ قليلاً من الحالات العدائية بين المتغوطين، فيرفعون سراويلهم بسرعة، ويعدّلون أعضائهم التناسلية الضخمة المتطورة نسبياً، ويتجادلون حول معارك الأبناء، وينهون النقاش بدورهم بطعنة سكين أو اثنتين، ويرافق ذلك دموع هزيلة تذرفها الزوجات في حالة حداد أبدي بينما يركضن بشعورهن الشعثاء وأيديهن مرفوعة نحو السماء، يتوسلن إلى يسوع ووالدته العذراء الطاهرة. ولم يكن هناك طيف من الحزن أو الدناءة في كل ما كان يجري. لقد كان غضبهم ومرحهم يشبهان من الناحية البيولوجية عظم سمكة تجف تحت أشعة الشمس، وكان "برازهم" نظيفاً جداً ومرصّعاً ببعض حبات العنب غير المهضومة الطازجة كما كانت قبل ابتلاعها.

وخلال تلك الفترة طوّرت شغفي بزيت الزيتون، وأصبحت أضيفه إلى كل شيء. وكنت أبدأ في الصباح بقطعة خبز محمّص مغمورة بزيت تسبحُ فيه بعض أسماك الأنشوف الصغيرة. وكنت أشرب كمية الزيت الباقية في صحني كما لو أنها شراب استثنائي جداً. وكنتُ بعدها أسكب بقايا القطرات على رأسي وصدري وأدلّكهما به. كما نما شعري مجدداً وبشكل كثيف جداً أدى في النهاية إلى تكسير كل مشط لدي. وقد تابعت رسم لوحة "الرجل الخفي" التي باشرت العمل فيها مسبقاً وكتبت النسخة النهائية من كتاب "المرأة المرئية".

واستقبلنا بين وقت وآخر مجموعة صغيرة من أصدقائنا المثقفين السرياليين الذين يكره أحدهم الآخر، وتنهشهم آفة الإيديولوجيات اليمينية واليسارية. وأدركت فوراً أنه في اليوم الذي تصل فيه هذه الآفات إلى منزلة الثعابين الحقيقية، تصبح الحرب الأهلية في إسبانية وحشية وقاسية، وتتحول إلى نوع من رأس "ميدوسا" التذكاري، التي يكون وجهها في معدتها بدلاً من رأسها، ويكون في تلك المعدة أفاعٍ تخنق إحداها الأخرى في حالة من الشغف المستمرّ للموت والانتصاب.

استلمنا في أحد الأيام دفعة من رسائل تحمل أخباراً سيئة. لقد أعلن "جويمان" إفلاسه وهو يدين لنا بمستحقات مالية منذ شهر تقريباً. وكان "بونيل" يتقدم لوحده بالعمل على إخراج فيلم "L' Age d'Or – العصر الذهبي" – وبالتالي فسينتهي العمل دون أن أشارك به. كما بدأ النجار الذي أعلن عن انتهاء أعماله في منزلنا في "بورت ليغات"، المطالبة بمستحقاته مضافاً إليها بعض المستلزمات التكميلية التي جعلت المبلغ يصل إلى ضعف ما كنا نفكر به أساساً. وفي اللحظة نفسها غادر صديقنا الغني "ملاجا" دون أن يترك عنوانه الجديد قائلاً أنه سيعود خلال عشرين يوماً! وقد صرفنا المال الذي كان لدينا في "ملاجا"، وبقي لدينا ما يكفي للحياة مدة ثلاثة أيام أو أربعة. واقترحت غالا أن نطلب المال من برشلونة. ولم أكن أريد أن ألمس هذا المال لأنه لم يعد كافياً من أجل مستحقات النجار. لقد كان المنزل مقدساً بالنسبة لي! ولهذا فقد قررنا أن نرسل برقية إلى باريس نطلب فيها من الأصدقاء دفعة مقدمة عن اللوحات التي سأحضرها لهم. لكن أحداً منهم لم يردّ، وانتهت تلك الأيام الثلاثة.

في المساء استولينا على كل قطع النقود الصغيرة التي تناثرت دوماً في جيوب ملابسي، ونجحنا في جمع زوج من "البيزتات". وفي الليلة ذاتها كان لدينا ضيف سريالي من المتعاطفين مع الشيوعية. ورجوته أن يرسل لي برقية إلى فندقنا في برشلونة كي يرسلوا النقود لنا. وسوف نعيد له

نفقات إرسال الرسالة حالما نستلم نقودنا. وتركنا هذا الصديق مع وعد بتنفيذ ذلك. لكن مضى اليوم التالي كله دون إجابة وكذلك اليوم الذي تلاه. وللحد من سوء حظنا، بقينا من دون خادمة، وكان البيت فارغاً حتى من أصغر كِسرة خبز. والأكثر من ذلك أنني عرفت أن حالة إحباطنا المفاجئ كان يعود لعنادي وعدم رغبتي باتباع نصيحة غالا بطلب المال من برشلونة، ورفضي المبدئي له من أجل بيتنا في "بورت ليغات".

لقد جعلتني الحرارة الأفريقية القوية التي ضربت جسدي على مدى شهر كامل، أرى كل شيء باللون الأحمر والأسود. وفي الصباح، في البيت المجاور لنا، شارف شاب مجنون على قتل والدته بأداة معدنية. وفي المساء سلّى موظف الجمارك نفسه بإطلاق النار على طيور السنونو. وحاولت غالا أن تقنعني أن حالتنا تعيسة لكنها ليست مأساوية، وأن كل ما علينا أن نفعله هو أن نمضي بهدوء إلى فندق "ملاجا" وننتظر فيه حتى تصل النقود التي أرسلنا بطلبها من برشلونة. وقد كان هناك أكثر من سبب كي يتأخر وصول المبلغ إذ اتصلنا يوم السبت خلال عطلة الأسبوع وكان البنك مغلقاً في ذلك اليوم. وربما استخفّ صديقنا بإرسال البرقية.

لكني لم أستمع إلى كل تلك الجدالات. وأردت أن أغتنم الفرصة وأعرض دراما غضبي مرة وإلى الأبد، بعدما كبحته تماماً منذ أن واجهت أول مصاعبي الاقتصادية. أنا لن أعترف بإهانة ووحشية وظلم حقيقة أنني أنا، سيلفادور دالي، عليّ أن أتعطل عن تأليف كتاب "المرأة المرئية" لأنني أنا، سيلفادور دالي، وجدت نفسي مفلساً، وكانت حقيقة أن غالوشكا قد انجرّت إلى هذا الوضع المهين ذاته هي القطرة الأخيرة التي جعلت كوبي المليء بالصبر سلفاً ينضح بما فيه.

ثم غادرت المنزل وصفقت الباب خلفي وأنا أشعر بالندم لأنني تركت غالا تعمل وحدها على توضيب حقائبنا. ثم التقطت عصا عن الأرض ورحت أتجول بين حقول القرنفل الأحمر متجهاً نحو البحر. ورحت

أثناء نزهتي أضرب أزهار القرنفل وأجعلها تتطاير في الهواء كما ينتشر الدم من الرؤوس المقطوعة التي رسمها "كارباسيو".

وكان على الشاطئ كهوف يسكنها الغجر ذوو البشرات الزيتونية، ويقلون السمك بزيت مغلي يهسهس في المقلاة كما تهسس أفاعي غضبي. وفكرت للحظة بإمكانية أن أعيش أنا وغالا بينهم. أما فكرة الاتصال اللاأخلاقي مع النساء الغجريات الجميلات اللواتي كنّ يرضعن أطفالهن نصف عاريات، فقد كانت مصدر إثارة جنسية ضخمة ساهمت فيها القذارة المعنّدة لتلك النساء. وهربت إلى مغارة معزولة حاملاً في مخيلتي صورة تلك الأثداء المرضعة ممتزجة بمشهد تلك الأرداف اللامعة — كأرداف الأحصنة السوداء — للنساء العابثات حول النار. ثم باعدت ساقيّ ووضعت ركبتيّ على الصخور المسننة، وشعرت بأني واحد من أولئك النسّاك الذين رسمهم "ريفيرا" وهم في حالة من النشوة. ثم داعبت بيدي الحرّة بشرة جسدي الكلسية وخدشتها. لقد أردت أن ألمسها في كل مكان في الوقت ذاته، وثبتّ عينيّ نصف المغمضتين على غيمة صغيرة يهطل منها مطر "Danae" الذهبي "البرازيّ" بشكل مائل. ثم بدأ غضبي يهزّني ويجعلني أرتعش. كانت جيوبي فارغة. لا مزيد من الذهب؟ لكنني أستطيع أن أصرف هذا! ونثرت على الأرض القطع النقدية الكبيرة والصغيرة من حياتي النفيسة التي بدت لي في هذه اللحظة بأنها تُقتطع من فجوات عظامي العميقة الداكنة.

وحالما تنتهي المتعة التي تقدّمها لي هذه "النفقات" الجديدة غير الضرورية، يظهر لدي شعور قوي جداً بالواقع الذي لا يُطاق لحالتي المادية الصعبة. وعندئذٍ تحوّل غضبي المندفع كله نحو ذاتي. ولأعاقب نفسي على فعل "ذلك"، وجّهت قبضة يدي، الأداة الحالية لمتعتي، لأضرب وجهي بلا رحمة. لقد لكمته عدة مرات وبشكل أقوى وأقوى حتى كسرت سنّي وبصقت دمي على الأرض، وتحديداً على البقعة التي كنت أبدد عليها كنز متعتي منذ لحظة. لقد كانت مكتوبة: السن بالسن!

ثم عدتُ إلى كوخنا في حمى إثارتي واتقادي، وأظهرت قبضتي لغالا بانتصار وقلت:

"احزري!"

"إنها دودة مشعّة"، لقد قالت ذلك وهي تعلم أنني كنت مغرماً بجمعها.

"لا! إنه سني — لقد كسرت سنيّ الصغير. علينا بأية طريقة كانت، أن نذهب ونضعه في كاداكيس، ونعلّقه بخيط وسط سقف بيتنا في "بورت ليغات".

لقد خلق هذا السن الصغير في داخلي الكثير من الحنان والشفقة. كان صغيراً ونحيلاً جداً لدرجة بدا فيها شفافاً. وكان أشبه بحبّة أرز متحجرة تحتوي بداخلها أجزاء بتلات أزهار أقحوان لا متناهية بالصغر. لأنه يمكن للمرء أن يرى نقاطاً صغيرة بيضاء في المركز. وإن استطاع شخص ما أن يكبّر هذه النقاط الصغيرة بالمجهر، فربما يرى هالة لوحة "عذراء لوديس" الصغيرة. لقد كان لي وعي راسخ دوماً للاستفادة من عيوبي. وفي العيوب، وكنتيجة لقوانين التعويض واختلال التوازن وعدم التجانس، يتم إنشاء فواصل يُخلق من خلالها تسلسلات هرمية جديدة لعوامل المرونة الطبيعية. وأنا مدرك تماماً أنه يُفترض بـ "The Argonauts" أن يكون لديهم أفكاك عدوانية مخزّنة جيداً، وقد تم إخبارنا بالكثير عن الإرادة الموجهة منطقياً نحو النجاح. لكنني من خلال تجربتي الشخصية، لم أرَ مطلقاً تلك الوجوه القوية ذات الأسنان البورسلانية الخالية من العيوب — نماذج التماسك الراسخ — إلا بين تلك الحشود الغريبة القادرة في أحسن الأحوال على أن تتسلّق الحالة المتوسطة في الحياة. وعلى العكس من ذلك، يكون للأغنياء دوماً أسنان سيئة. ويجعل المال الإنسانَ الذي يريد أن يصبح غنياً يشيخُ ويهرم حتى قبل أن ينجح بذلك، ويشبه الأمر تماماً رائحة بعض النباتات آكلة اللحوم التي تسمم الحشرات التي تأتي لتستريح على بتلاتها القاتلة.

"ومن الآن فصاعداً يا أسناني الحبيبة الفقيرة المتفاوتة المنزوعة الكلس ووصمة شيخوختي، لن يكون لي سواك لأعضّ على المال!"

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى "ملاجا" لنطلب بعض المال من صديق سريالي ميال للشيوعية. وركبنا الباص وليس معنا إلا ما يكفي لرحلة باتجاه واحد فقط. ولهذا فإن لم نستطع أن نحصل على المال، فلن نستطيع العودة إلى البيت. وجدنا صديقنا بعد عناء طويل وقلت له: "نحتاج إلى خمسين بيزيتا من أجل مستلزمات الحياة لثلاثة أيام أو أربعة علينا أن ننتظرها كي يصل مالنا". وأكد الصديق لنا بأنه أرسل لنا برقية فور استلامه برقيتنا وأنه لم يكن لديه أية نقود، لكنه وعدنا بأنه سيبحث الآن عن شخص يستطيع أن يستدين منه هذا المبلغ، وأن بإمكاني أن أعوّل عليه بالتأكيد. كما جعلنا ننتظره في مقهى حيث أخذت غالا شراباً ساخناً، وأخذت أنا كوباً من "الفيرموث" مع الزيتون، ومضى في رحلة حجه ليحصل لنا على المال.

اقترب موعد مغادرة الباص دون أن تظهر إشارة الإنقاذ، وكنا قد بدأنا نفقد الأمل عندما وصل مسرعاً في اللحظة الأخيرة.

وقال لنا: "أسرعا واحصلا على مقعديكما في الباص! تم ترتيب كل شيء. وسوف أودعكما".

ثم أرشدنا إلى مقعدينا وبينما كان يمسح قطرات العرق عن وجهه بيده، صافحني باليد الأخرى التي احتوت قصاصة ورق مطوية بعناية ثم ودّعنا. وشكرته من كل قلبي قائلاً: "لن يطول الأمر الآن".

وابتسم مشيراً إلى أننا نستطيع أن نعتمد عليه في أي حال من الأحوال. انطلق الباص، وللمرة الأولى بدا لي التلامس مع مبلغ خمسين بيزيتا في يدي وكأنه يصطبغ بالسحر الأبيض للتراب كله مجتمعاً. لقد مضت هنا ثلاثة أيام من حياة غالا وحياة سيلفادور دالي التي استمتعت بها كأكثر فترات حياتنا روعة. ثم أرخيت يدي بهدوء شخص يريد أن

يُطيل أمد السعادة إلى أجل غير مسمى، ويقدر في النهاية أن يراقب بعينيه رمز سعادة انتظرها بالكثير من الغم.

لكن قشعريرة سرت في جسدي عندما اكتشفت أن ما أحمله في يدي لم يكن "خمسون بيزيتا" بل كان إيصال البرقية التي أرسلها صديقي منذ يومين، وقد أعطاها لي بنوع من السخرية والتهكم كما يبدو، كي يذكّرني بما أدين له مقابل إرسال البرقية. ولم يكن لدينا ما يكفي كي ندفع ثمن بطاقة ركوب الباص، ولو سألني قاطع التذاكر في تلك اللحظة عن ثمن البطاقة، سيتوجب عليّ أن أرفسه وأرميه خارج الباص. وكانت غالا مدركة تماماً لمدى خطورة نوبات الغضب التي تسيطر علي في حالات كهذه، إذ يمكنها أن تقودني إلى حلول غير متوقعة أبداً لكنها تكون كارثية دوماً. ثم أمسكت بذراعي وتوسلت لي ألا أفعل أي شيء. لكنني حررت قدمي ونظرت حولي بانتظار ذريعة ما تجعلني أرتكب إحدى تصرّفاتي الاستثنائية. لكن كما لو أنه باستجابة ميكانيكية لغضبي المتوقع، رنّ قاطع التذاكر الجرس معلناً أن الباص سيتوقف، واعتقدت للحظة أنه تكهّن بنواياي العدوانية وأنه سوف يُلقي بي إلى الشارع. ثم أمسكت أحد قضبان النيكل في حالة استعداد لمقاومة يائسة. لكنني رأيت في هذه اللحظة صديقي السريالي يندفع نحوي بسرعة ويلوّح بيده بورقة تبدو وكأنها ورقة نقدية. لقد أعطاني صديقي إيصال البرقية بدلاً من الورقة النقدية في لحظات التشويش الأخيرة في المحطة، ثم لحق بنا بسيارة أجرة ليعطينا المال، وبعدها تابعنا طريقنا.

وعندما وصلنا إلى البيت، كان بانتظارنا مجموعة رسائل تحمل أخباراً جيدة، وكانت إحداها رسالة تتعلق بقيمة الشيك الذي تم إرساله إلينا. وتناولت سمكتي أنشوف مع البندورة ثم أخذت قيلولة طويلة نمت فيها نوماً ثقيلاً كالباص المسرنم ظهراً، والذي أعادنا إلى منزلنا. وعندما استيقظت، كان القمر أحمر اللون كشرائح بطيخ أحمر تسترخي على طبق فاكهة خليج "تورمولينوس" قطعها إطار النافذة وجعلها تستقرّ مباشرة

على الطاولة. وقد أعطى استيقاظي المفاجئ هذه المجموعة من الصور تركيبة مشوشة بدأت فيها العلاقة المكانية الحقيقية ترتب نفسها تدريجياً. ولم أستطع أن أخمّن بشكل بديهي ما كان قريباً منها وما كان بعيداً، وما كان مسطحاً وما كان منظورياً. وقد رأيت للتو وبشكل تصويري، لوحة عن نموذج من نوافذ بيكاسو التكعيبية، اللوحة التي بتطورها في عقلي، كانت لتصبح مفتاح الصور الارتيابية الإيمائية التي أنتجتها لاحقاً، كالتمثال النصفي لفولتير. وبينما كنت مستلقياً في سريري أفكر بإشكالات رؤاي المعقّدة التي كانت مشاكل فلسفية بشكل جوهري، كان إصبعي يستكشف فتحة أنفي بسعادة، وسحبتُ منه كريّة صغيرة أدهشتني لأنها كانت أكبر من أن تكون قطعة من المخاط الجاف. وبينما كنت أتفحصها وأضغطها باهتمام، اكتشفت أنها كانت قطعة من البرقية التي لا بدّ أنني ضغطها وفركتها ولففتها ككرة مع حبيبات العرق التي كانت ترطب يدي، واستقرت عبر حالة شرودي في إحدى فتحتي أنفي أثناء عبثي الاعتيادي الذي كان يميزني في تلك الفترة.

لقد أعادت غالا تفريغ أمتعتنا وترتيبها في البيت بنيّة واضحة للإقامة هنا بعد أن استلمنا المال. لكنني قلت لها.

"نحن مسافران إلى باريس!"

"لماذا؟ يمكننا الاستفادة من أسبوعين آخرين هنا".

"لا! عندما خرجت في الليلة السابقة وصفقت الباب خلفي، رأيت أشعة الشمس المائلة تخترق حزءاً من غيمة. وفي تلك اللحظة تماماً كنت "أقضي حاجتي". وقد كسرت سني الصغير بعد ذلك مباشرة. هل تفهمين؟ لقد اكتشفت للتو "أسطورة Danae الفخمة" في جسدي. أنا أريد أن أذهب إلى باريس، وأريد أن أصنع الرعد والمطر. لكنه سيكون ذهباً هذه المرة! علينا أن نذهب إلى باريس ونحافظ على النقود التي نحتاجها لإنهاء أعمال بيتنا في "بورت ليغات!"

وذهبنا إلى باريس متوقفين قليلاً في مدريد وبرشلونة، وتوقفنا ساعتين في كاداكيس لنكوّن انطباعاً عن الأعمال التي تجري في منزلنا حتى هذه اللحظة. لقد كان الانطباع أسوأ مما توقعناه وأكثر إزعاجاً—لم يكن هناك أي شيء فعلي على الإطلاق. لكن كان ضمن هذا اللاشيء علامة على تعصّبنا نحن الاثنين، وكنت قادراً أن ألاحظ الواقع البنيوي في شخصية غالا الواضحة الصلبة الحادّة تخترق الهذيان المعيب لشخصيتي. لقد كان هناك فقط أبعاد باب وأبعاد نافذة وجدران أربعة، وكان ذلك بطولياً بالفعل.

لكن البطولة الحقيقية انتظرتنا في باريس حيث كان علينا أن نتحمّل الجهد الأصعب والأكثر توتراً ومدعاة للفخر في الدفاع اليومي عن شخصيتنا. كان كل من حولنا يخونون بشكل بائس، وكما أثبت اسمي ذاته تدريجياً وكأنه سرطان في حضن مجتمع لا يريد أن يسمع عنه، فإن حياتنا نمت بصعوبة متزايدة. وكان الأمر كما لو أن الناس يتصرفون بردّة فعل نحو داء هيبتي الذكية المريع الذي كان يهدّهم ويدمرهم عبر تمرير هذا الداء الذي يمتلكون وحدهم جراثيمه — القضم المستمر "للمشاكل المادية". لقد فضّلت دائي على دائهم. وعرفت أنه قابل للعلاج.

لقد أنهى "بانيل" فيلم العصر الذهبي. وخاب أملي بشكل رهيب لأنه كان مجرّد تشويه كاريكاتوري لأفكاري. وأصبح الجانب "الكاثوليكي" منه مناهضاً بعنف للإكليروس، ومن دون الشِعر الحيّ الذي رغبت به. ومع ذلك فقد أنتج الفيلم انطباعاً جديراً بالاهتمام وخاصة مشهد الحبّ غير المنجز الذي يرى فيه المرء البطل منهاراً بسبب رغبته غير المشبعة، ويلعق إيروتيكياً إصبع قدم "أبولو" الكبير الرخامي. وغادر "بانيل" إلى هوليود مع أحلام الفتوحات، وتم العرض الأول للفيلم دون أن يكون حاضراً.

كان الحضور متعاطفاً جداً مع السريالية، ومرّ العرض دون أي حدث جدير بالملاحظة. باستثناء بعض الضحكات الصاخبة أو صيحات

الاحتجاج التي تلاشت بسرعة عبر التصفيق المسعور لغالبية الموجودين في الصالة، مشيراً إلى التوتر العاطفي الذي تم استقبال عملنا به. لكن بعد العرض بيومين أصبح هناك قضية أخرى. في لحظة من الفيلم، ظهرت سيارة فخمة وتوقفت بهدوء وفتح بابها خادم أنيق، ويُخرج منها "وعاء قربان مقدس"، ويرى المرء عن قرب أنه يُترك إلى جانب رصيف. وبعدها تخرج من السيار ساقا امرأة جميلة. وفي هذه اللحظة، وبإشارة مُعدّة مُسبقاً، تظهر مجموعة من منظّمة " King's Henchment [1]" وهي تلقي زجاجات حبر أسود تتحطم. وفي اللحظة نفسها، ومع صيحات" يسقط الجيش الألماني" أطلقوا نيران مسدساتهم في الهواء، وتم إلقاء القنابل المسيلة للدموع وقنابل الغاز. وأوشك الفيلم أن يتوقف بينما ضرب متظاهرو "Action Française" الجمهور بالهراوات. لقد تحطمت جميع أبواب الصالة الزجاجية، ودُمّرت لوحات السرياليين كلها وكتبهم المعروضة في صالة المسرح في "القاعة 28". وتم إنقاذ إحدى لوحاتي بشكل عجائبي بجهود أحد العاملين هناك بعد أن غلّفها ووضعها في دورة المياه عندما بدأت المشاجرة. لكن الباقي تمزق تماماً بعد أن تحطم الزجاج الذي يحميها بالأرجل. وعندما وصل رجال الشرطة كان كل شيء محطماً.

وفي اليوم التالي غصّت الصحف كلها بهذه الفضيحة وأصبحت أحد أكثر الأحداث المثيرة في باريس. كما اندلعت مهاترات نارية في كل مكان أدّت في نهاية المطاف إلى حظر كامل للفيلم بأمر خاص من الشرطة. وكان لدي خشية من أن يتم حظري في فرنسا لكن ردّة الفعل الشعبية كانت لصالح الفيلم. وبعدها أصبح الجميع يخشون القيام بأي مشروع معي. "مع دالي! أنت لا تعرف. ربما تحدث مشكلة جديدة".

---

[1] Les Camelots du Roi، منظمة الشباب العالمية الكاثوليكية الملكية تنتمي إلى " action française".

وهكذا بقيت فضيحة الفيلم مسلّطة على رأسي كسيف "ديموقليس"، ومثل هذا السيف، منعتني لاحقاً من التردد، "أنا لن أتشارك مع أي شخص مرة أخرى!" وقد تقبلت المسؤولية عن الفضيحة المدنّسة رغم أنه لم يكن لدي أي طموح من هذا النوع. وكنت على استعداد لأن أتسبب بفضيحة أكبر من هذه بمئة مرةٍ على أن تكون مقابل "أسباب هامة" — مخرّبة للتعصّب الكاثولكي بدلاً من أن تكون مناهضة لرجال الدين بشكل ساذج. كما أدركت مع ذلك أنه على الرغم من كل شيء، فقد امتلك الفيلم قوة ذكورية لا يمكن إنكارها، ولم يكن تنصّلي منه قادراً على إقناع أي شخص. ولذلك فقد عزمت على قبول نتائج هذه الحادثة[1] كلها، بينما كنت أخطط لتوجيه جانبها التخريبي باتجاه نظرياتي "الردّ فعلية" المتبرعمة.

لقد صنعت للتو فيلم العصر الذهبي. وكان سيُسمحُ لي بصناعة فيلم حول "اعتذار 'ميسونير' في لوحة". ومعي، لا يستطيع أحد أن يخمّن أين ينتهي المرح وأين يبدأ التعصّب الفطري، وسرعان ما اعتاد الناس على أن يتركوني أقوم بما أريده دون نقاش وكانوا يقولون وهم يهزّون أكتافهم: "إنه دالي وحسب!" وفي غضون ذلك قال دالي ما أراد أن يقوله، والشيء الذي قاله للتو، ابتلع كل الأشياء التي لم تُقل، أو الأشياء التي قيلت وبقيت وكأنها لم تُقل، لأنها كانت بمعظمها حروفاً ميتة سلفاً حتى قبل أن يتم النطق بها. لقد اعتبروني الأكثر جنوناً وتخريباً وعنفاً، والأكثر سريالية وثورية من الجميع.

بالإضافة لذلك، بقيت جنتي الشخصية أكثر عنفاً وحقيقية من الجحيم المثالي "للعصر الذهبي"، تماماً كما ستبقى كلاسيكيتي يوماً ما أكثر سريالية من رومانسيتهم! وستبقى تقليديتي الرجعية أكثر تخريبية من ثورتهم المخفقة.

---

[1] لاحقاً، وعندما تخلّى بانيل عن السيريالية، نقّح الفيلم من المقاطع المسعورة ووضع عدداً من المقاطع البديلة دون أن يطلب رأيي. ولم تتم مشاهدة هذه النسخة البديلة أبداً.

لقد كانت كل الجهود الحديثة التي تم إنجازها خلال فترة ما بعد الحرب زائفة ويجب تدميرها. وبشكل لا مفرّ منه، كان لا بدّ من العودة إلى التقاليد في مسألة الرسم وفي كل شيء آخر في الحياة وإلا فسوف يتلاشى النشاط الروحاني متحولاً إلى لا شيء. لم يعد أحد يعرف كيف يخطط أو يرسم أو يكتب. كان كل شيء في المستوى ذاته، وكل شيء يصبح منتظماً كما أصبح معمماً على الكون كله. لقد أصبحت البشاعة واللا شكل آلهة الكسل، وكان الفراغ والنميمة الفلسفية الزائفة لطاولات المقاهي، تنتهك تدريجياً العمل الشريف في المرسم وورشة العمل. أما آلهة الإلهام، فبدلاً من الاستمرار في حالة إشغال "باناسوس" الخاص بها والذي تخيّله كلٌ من "بوسين ورفائيل" ورسمه، كان متوقعاً أن تنزل إلى الشارع وتستخدم تجارة الأرصفة وتسلّم نفسها لفجور الحشود الشعبية كلها بشكل أو بآخر. لقد تصادق الفنانون مع البيروقراطيين، وتحدثوا لغة أكثر الديماغوجيين انتهازية وسوقية، وارتبطوا بوقاحة في الطموح البرجوازي للحشود التي تتفجر بالتطور الميكانيكي التشكيكي وسعاره، ولمعت رفاهية مقززة لحياة من دون صرامة ولا شكل ولا مأساة ولا روح.

الفصل الحادي عشر

معركتي، مشاركتي ومنصبي في الثورة السريالية، "الموضوع السريالي" مقابل "الحلم المسرود"، نشاط الارتياب النقدي مقابل "التلقائية".

معركتي:

ضد البساطة	مع التعقيد
ضد الانتظام	مع التنوع
ضد المساواة	مع الترتيب الهرمي
ضد الجماعية	مع الفردانية
ضد السياسات	مع الميتافيزيقية
ضد الموسيقى	مع العمارة
ضد الطبيعة	مع الجماليات
ضد التقدم	مع السرمدية
ضد الميكانيكية	مع الحلم
ضد التجريد	مع الصلابة
ضد الشباب	مع النضج
ضد الانتهازية	مع التعصّب الميكافيللي
ضد السبانخ	مع الحلزون

ضد السينما	مع المسرح
ضد بوذا	مع الماركيز دي ساد
ضد الشرق	مع الغرب
ضد الشمس	مع القمر
ضد الثورة	مع التقاليد
ضد مايكل أنجلو	مع رفائيل
ضد رامبرانت	مع فيرمير
ضد الأشياء الهمجية	مع الأشياء المتحضّرة بشدة لفترة العام 1900
ضد الفن الأفريقي الحديث	مع فن عصر النهضة
ضد الفلسفة	مع الدين
ضد الطب	مع السحر
ضد الجبال	مع الخط الساحلي
ضد الوهم	مع الأشباح
ضد النساء	مع غالا
ضد الرجال	مع ذاتي
ضد الزمن	مع الساعات الرخوة
ضد الشك	مع الإخلاص

ومع وصولي إلى باريس، أدركت أن النتيجة الرئيسة للنجاح الهائل لمعرضي في صالة جويمان هي استثارة حالة من التعبئة المنظّمة حولي شخصياً وحول ظهوري في المشهد. وبدا الأمر كما لو أن هطول مخيلتي غير المتوقع، والذي فاقمته عاصفة فيلم "العصر الذهبي"، جعل أعدائي يتبرعمون كالفطر وينتشرون في جميع الاتجاهات مدمّرا في الوقت نفسه محصول ثمارهم.

من هم أعدائي؟ إنهم الجميع، أو الجميع الجميع تقريباً باستثناء غالا. وما يمكننا أن ندعوه الفن الحديث، ومن ضمنها المجموعات السريالية، قد

استعدّ للقتال لشعوره بتهديد القوة المدمّرة المُحبطة التي كنت أمثلها. وكان عملي أولاً عملاً عنيفاً متهوراً غير مفهوم ومُحبطاً وتخريبياً. والأمر الثاني هو أنه لم يكن فناً حديثاً "شاباً" وهو أمر مفهوم ومُسلّم به لأن لدي رعب من عصري! وبالتأكيد كانت روحي المناهضة لفاوست على العكس من المدافعين عن الشباب والديناميكية والغرائز العفوية والكسل المتجسد في البقايا المهينة للشعرية والتكعيبية والفن الزائف الذي أتلف شرفات "مونبارناس" المقرفة العقيمة. لقد بقيت الجرأة المرحة الحديثة لكتب الفن تتجاهلني بهدوء حتى آخر لحظة، بينما كان العجائز المحترمون بجواربهم الطويلة التي نسجتها بقايا التقاليد وغبارها، وبشنباتهم المخضبة بمواد استنشقوها، ونياشين فيلق الشرف المعلقة في عروات أزرار ستراتهم، يسحبون نظاراتهم ليشاهدوا إحدى لوحاتي عن مسافة قريبة، ولديهم إغواء أن يحملوها تحت أذرعهم ويعلقوها في غرف طعامهم إلى جانب لوحات "ميسونير"! لقد رغب العجائز الذين لم تتعبهم خمسون سنة من النظر بأن يفهموني. كما شعروا أنني موجود دوماً للدفاع عنهم، مع أنهم ليسوا بحاجة إليّ لأن القوة كانت دوماً معهم، وقد اتخذت موقعي إلى جانبهم مدركاً أن النصر سيكون إلى جانب التقاليد. لقد كانت هذه معركتي الصليبية للدفاع عن الحضارة الإغريقية الرومانية.

وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى باريس، كانت العناصر الفكرية قد فسدت بسبب التأثيرات "البرغسونية" الفاسدة والمتقهقرة التي أدّت مع اعتذارها من الغريزة ورغبة الحياة إلى أقصى الثورات الجمالية. وبالتأكيد، اجتاح التأثير القادم من أفريقيا العقل الباريسي بنوبة فكرية متوحشة كانت كافية كي تجعل المرء يبكي. وقد عشق الناس المنتجات الغريزية للهمجيات الحقيقية التي يُرثى لها! كما تم تتويج فن الزنوج وتحقق ذلك بمساعدة "بيكاسو" والسرياليينّ، وعندما فكرت أن ورثة ذكاء "رفائيل سانزيو" قد وقعوا في انحراف كهذا، تورّد وجهي من

الخجل والغضب. لقد كان عليّ إيجاد الترياق الذي أتحدى معه منتجات الخوف اللحظية العمياء لغياب الذكاء والاستعباد الروحاني. وضد "عناصر العبودية" الأفريقية، دعمت عناصر "النموذج الحديث" الأوروبي الحضاري المنحط جداً. وقد اعتبرت دوماً أن فترة (1900) هي المنتج النهائي المَرَضي النفسي للتفسّخ الروماني الإغريقي. وقلت لنفسي: بما أن هؤلاء الناس لن يسمعوا بالجماليات، ولن يثير حماسهم سوى "التحريض المفعم بالحيوية"، فسوف أريهم كيف أنه في أصغر التفاصيل الزخرفية لعناصر (1900) هناك غموض وشعر وإيروتيكية وجنون وفساد وعذاب ورثاء وعظمة وعمق بيولوجي، أكثر من رصيدهم الهائل من الهوس القبيح المشاكس الذي يستحوذ على جسد الغباء وروحه التي تشكل ببساطة عبوديّة لا مثيل لها!

وفي أحد الأيام في قلب باريس، استكشفت مداخل أنفاق الميترو العائدة للعام (1900) التي كانت لسوء الحظ في طور الهدم والاستبدال بإنشاءات حديثة فعّالة. وقد التقط المصوّر الفوتوغرافي "براساي" سلسلة صورة عن العناصر الزخرفية لتلك المداخل، وبالفعل لم يصدق الناس أعينهم، كان الأسلوب العصري يصبح "سريالياً" جداً بأمر من مخيلتي. وبدأ الناس البحث عن عناصر (1900) في سوق الأشياء المستعملة، ويرى المرء مصادفة وجه إحدى النساء المنتشيات المصنوعات من الخزف، والمخضّبات بالأخضر القمري الصدئ، يظهرن إلى جانب قناع مقطّب من غينيا الجديدة. والحقيقة أن تأثير فترة (1900) كانت بداية لتجعل نفسها تندمج في شكل من التجاوز المتنامي الثابت. وفي تلك الفترة كانت تتم عرقلة تحديثات "Chez Maxim" الذي كان يعود إلى شعبيته بشكل متزايد، ويعاد إحياء إعادة النظر في عصر (1900)، وعادت أغنيات من ذلك العصر نفسه إلى أفضليتها. وتكهّن الناس بالجانب الصعب الذي عفا عليه الزمن من (1900) في عرضه

للأدب والأفلام التي اتحدت فيها العاطفية وحسّ الفكاهة مع الخبث الساذج. وتتوّج ذلك بعد بضعٍ سنوات في مجموعات أزياء "إلزا تشيباريللي" التي نجحت جزئياً بفرض أزياء غير مريحة بشكل رهيب من خلال ارتداء الملابس مع رفع الشعر في الخلف — بما يتناسب تماماً مع نماذج فترة (1900) التي كنت أول من وعظ بها.

وهكذا رأيت باريس تتحول أمام عيني طاعة لأمري منذ وصولي. لكن تأثيري الشخصي كان قد سبقني لدرجة أصبح من الصعب عليّ أن أقنع أي شخص بأن هذا التأثير يعود إلي. لقد كانت ظاهرة مماثلة لتلك التي اختبرتها أثناء رحلتي الثانية إلى نيويورك حيث لاحظت أن الجزء الأكبر من واجهات عرض المحلات التجارية كان تحت التأثير السريالي، وهي لا تزال في الوقت نفسه تحت تأثيري الشخصي من دون شك. لكن دراما تأثيري المستمرة كانت متضمنة بحقيقة أنها متى انطلقت إلى العلن، فإنها تهرب من يدي ولا يعود بإمكاني أن أوجهها أو أستفيد منها.

ووجدت نفسي في باريس التي شعرتُ بأن تأثيري الخفي بدأ يهيمن عليها. وعندما يبدأ شخص ما بالتحدث بازدراء عن العمارة الوظيفية وهو لا يزال عصرياً جداً، أعرف أن ذلك قد وصله من خلالي. وإن قال شخص ما وبأي صلة كانت: "أنا أخشى أن أبدو عصرياً" فقد وصلته الفكرة مني. ومع أن الناس لم يستطيعوا التفكير باتباعي لكنني كنت قد دمّرت قناعاتهم! وكان لدى الفنانين المعاصرين الكثير من المبررات كي يكرهوني. وعلى أية حال، لم أكن أنا نفسي قادراً أن أستفيد من اكتشافاتي، وكان أهم شيء في هذا السياق هو أنه لم يحدث يوماً أن تمت سرقة شخص بشكل مستمر أكثر مني، وسأذكر هنا مثالاً نموذجياً عن دراما تأثيري. في اللحظة التي وصلت بها إلى باريس، أطلقت "النموذج العصري" في خضمّ أكثر أنواع العداء مرحاً. والأكثر من ذلك أن هيبة ذكائي كانت تفرض نفسها باستمرار. وبعد مدة معينة بدأت تؤثر،

وكنت قادراً على أن أرى بصمتي هنا وهناك بمجرّد التجوّل في الشوارع: أشرطة الزينة، النوادي الليلية، الأحذية، الأفلام — كان مئات الأشخاص يعملون ويكسبون رزقهم بشرف متأثرين بي بينما كنت أنا نفسي أتابع الركض في طرقات باريس دون أن أكون قادرا على "فعل أي شيء". وكان الجميع يسعون لتنفيذ أفكاري وإن كان بطريقة ساذجة، وأنا لم أكن قادراً على تنفيذها بأية طريقة على الإطلاق! حتى أنه لم يكن لدي أدنى معرفة حول مسألة كيف ألتفت وإلى أين، كي أجد الموقع الأخير الأكثر اعتدالاً في أحد أفلام فترة (1900) التي تمت المباشرة بإنتاجها بإسراف في الوسائل المستخدمة فيها وفي نجومها، ولم يكن من الممكن صنعها لولا جهودي.

لقد كانت تلك الفترة مُحبطة لاختراعاتي بينما ازدادت المواجهة بين مبيعات لوحاتي وماسونية الفن الحديث بشكل كبير. ثم استلمت رسالة من "فيكمونت دي نواي" جعلتني أتوقع أسوأ المصاعب. ولهذا كان عليّ أن أفكر بالحصول على المال بطريقة أخرى. وضعت قائمة بأكثر الاختراعات التي اعتبرتها ناجحة تنوعاً. فاخترعت واخترعت أظافر زائفة من مرايا صغيرة خفيفة يمكن للمرء أن يرى نفسه فيها. وصنعت تماثيل شفافة لواجهات محلات الألبسة، وكان بالإمكان أن نملأها ماءً ونضع فيها أسماكاً ذهبية لمحاكاة جريان الدم في الجسم. وصنعت مفروشات من "البيكاليت" مصوغة بشكل تناسب فيه ملامح المشتري، ومراوح دوارة بأشكال عديدة. وصنعت كاميرات تصوير على شكل أقنعة من أجل التقارير الأخبارية، ومنظاراً توضع داخله شرائح صور تعطي انطباعاً بأنها تتحرك. وصنعت نظارات طيفية متعددة الألوان يمكن للمرء من خلالها أن يرى الأشياء في حالة حركة وذلك كي يستخدمها راكبو السيارات عندما يشعرون بالملل. ومستحضرات تجميل مركبة لإزالة الظلال وإخفائها. وأحذية مزودة بنوابض لزيادة المتعة أثناء المشي. كما

اخترعت سينما لمسية وعملت عليها بأدقّ التفاصيل لتمكّن المشاهد من لمس كل شيء بآليات بسيطة جداً وبالتوافق مع ما يراه: أقمشة حريرية، فرو، محار، رمل، كلب، إلخ. إنها مواد موجّهة إلى أكثر الملذات النفسية والجسدية سرّية. ومن بين الأشياء الأخيرة كان هناك مواد كريهة مُعدّة كي تُقذف في حالات الغضب على الجدار وتتناثر إلى آلاف القطع. وأشياء أخرى صُنعت بالكامل من حبيبات قاسية مُعدّة من خلال مظهرها الخشن كي تثير مشاعر السخط واصطكاك الأسنان وما إلى ذلك، كالصوت الذي يختبره المرء رغماً عنه عندما يحكّ شوكة الطعام بقوة على سطح طاولة رخامية. وتم اختراع هذه الأشياء لاختبار الهيجان الأقصى للأعصاب أثناء الاستعداد "للتنفيس" المرغوب الذي يختبره العقل في اللحظة التي يحطّم فيها هذه المواد بشكل يُثلج الصدر. واخترعت مواد لا يعرف المرء أين يضعها (أي مكان يختاره المرء لها يبدو فوراً بأنه غير مُرض)، وكان من شأن هذه المواد أن تُظهر مخاوف لا تنتهي إلا بعد التخلّص منها. لقد كانت حجّتي أنها ستحظى بنجاح تجاري عظيم لأن كل شخص يستخفّ بالمشتري المازوشي اللاواعي الذي يبحث بشوق عن مادة تجعله يعاني بالطريقة الأكثر غموضاً والتباساً. واخترعت أثواباً بإدخالات زائفة وحشوات موضوعة بشكل تخلق نموذج جمال أنثوي يتماشى مع الخيال الإيروتيكي للرجال. واخترعت نهدين مكملين زائفين يتم وضعهما من الخلف — كان بوسع ذلك أن يخلق ثورة في عالم الأزياء لمئة سنة، ولا زال بوسعه ذلك. كما اخترعت سلسلة كاملة من أشكال أحواض الاستحمام التي لا يمكن توقّعها أبداً، وبأناقة غريبة ورائحة مثيرة للدهشة. وأصدرت كاتالوكاً كاملاً لتصاميم جديدة مبسطة لسيارات من النوع الذي تمت تسميته لاحقاً بـ "الانسيابي".

وكانت تلك الاختراعات "عذاباتنا" وخاصة غالا. لقد كانت تنطلق كل يوم بعد الغداء بإخلاصها المتعصب وقناعتها بصحّة اختراعاتي

وسلامتها، حيث تضع مشاريعي تحت ذراعها وتبدأ حملة تُظهر فيها قدرات احتمالها التي تجاوزت قدرة أي بشري، ثم تعود مساءً إلى البيت منهكة من التعب، بعد أن ضاعفت تضحيات شغفها من جمالها. وكنت أقول لها: "لم نكن محظوظين أيضاً، أليس كذلك؟" وتخبرني كل شيء حينها بصبر وبأدق التفاصيل، ويغلبني إحساس بالندم لأنني لم أقدّر دوماً تفانيها الوافر اللامحدود. وغالباً ما بكينا قبل أن نذهب لنسترضي قلقنا وخاتمة مصالحتنا في الظلمة الغبية للسينما المجاورة.

كانت القصة ذاتها تتكرر باستمرار. إنهم يصرّحون بأن الفكرة التي عملت عليها ليس لها أية قيمة تجارية. وعندما استطاعت غالا بأسلوبها الرائع، وبالجهد الذي بذلته عبر زياراتها المتكررة وإلحاحها أن تنجح في إقناعهم بأهمية ما فعلته، قالوا لها بشكل حاسم إن اختراعي مثير للاهتمام نظرياً لكنه من المستحيل تنفيذه بشكل عملي، أو أنه إن حدث وتم تنفيذه فسيكون غالياً جداً لدرجة يبدو أن تسويقه سيكون ضرباً من الجنون. لقد كانت كلمة "جنون" موجودة دوماً بطريقة أو بأخرى. وفي حالة من الإحباط الشديد، نتخلّى عن أحد مشاريعنا الذي كلّف غالا الكثير من المثابرة والجرأة وننطلق نحو اختراع جديد. لم تنجح الأظافر الزائفة، دعينا نحاول مع النظارات أو الكاميرا، أو السيارة حديثة التصميم. وتسرع غالا بإنهاء وجبة الغداء، وتقبّلني قبل أن تبدأ رحلة حجّها بالباصات، وتقبّلني بقوة على الفم بطريقتها التي تقول لي فيها "تشجّع!" وأبقى أنا طوال فترة بعد الظهر أرسم اللوحة التي صادف أنني أعمل عليها، بينما يجتاح رأسي موكبٌ متواصل من مشاريع لا يمكن استيعابها.

ومع أن الآخرين استوعبوا مشاريعي عاجلاً أم آجلاً، لكن تنفيذها قد غرق في المجهول بشكل مؤكد لأن الاشمئزاز الذي خلقوه في تطبيقها جعل العمل عليها مستحيلاً مجدداً. لقد علمنا في أحد الأيام أن الأظافر الزائفة قد أصبحت للتو زياً للسهرات الجميلة. وفي يوم آخر، أخبرنا أحدهم

قائلاً: "لقد رأيت للتو تصميماً لسيارة جديدة – وكان التصميم الجديد مطابقاً لروح الهيكل الذي صممته. وقرأت في وقت آخر: "تتباهى واجهات المتاجر الآن بدمى عرض شفافة تحتوي أسماك حية. وهي تذكر بشيء فعله دالي". وكان هذا أفضل ما يمكن أن يحدث معي لأنه في أوقات أخرى كانت تصدر تصريحات تقول بأنني أنا من يسرق أفكارا كانت في واقع الأمر مسروقة مني! وقد فضّل الجميع أفكاري التي بعد أن يتم تجريدها تدريجياً من قيمها عبر أشخاص متعددين، لم أعد أستطيع أن أتعّرف عليها أنا نفسي. وذلك لأنه ما إن يُمسك شخص ما بفكرتي حتى يقتنع فوراً بأنه قادر على أن يعمل على تطويرها.

كلما أصبح لدي أدلّة أكثرٍ عن تأثيري، أصبحت أقل قدرة على الفعل. وبدأت أصبح مشهوراً، لكن هذا كان أسوأ، لأن الحسّ الفرنسي السليم تعامل مع اسمي "كبعبع". "دالي، نعم – إنه خارق جداً"، لكنه مجنون ولا يمكن أن يعيش". ومع ذلك، لا بدّ من العمل عليه كي يعيش مهما كان الثمن. لقد أردت أن أنفصل عن هذا المجتمع المُعجب الجبان الذي سمح لي ولغالا بالحد الأدنى من الذهب الذي يملكه، بأن نعيش دون التفكير بالشبح المرهق الذي يمثّله القلق الدائم المتعلّق بالمال، والذي لاحظنا ظهوره للمرة الأولى على شواطئ "ملاجا" الأفريقية.

لكن إن لم أنجح في كسب المال، فقد حققت غالا معجزة أن تجعل القليل الذي لدينا يكفي لكل شيء. لم تجعل الآذان القذرة للتشرّد يدخل موطننا متقدماً على ساقي ضفدع فقر الدم الطويلة المُذهلة، مرتدياً أغطية سرير ملطخة بالأرز والبطاطا المقلية الملتصقة عليها بسبب الشامبانيا الحلوة التي جفّت منذ شهرين. ولم نتعرّض أبداً للإصرار المهين لظلال الموظفين المنتفعين الذين يقفون منحنين بشكل عصبي خلف أبواب المطابخ الفارغة بشكل يُثير الأعصاب رغم أنها تحتوي مخزون سنة كاملة من المجاعة. ولم يخضع أحدنا مطلقاً ولا بجزء بسيط جداً لهزائم

الابتذال التي تسحبها العقبات المادية في أعقابها إلى حالة جمود لا يعي المرء معها أي شيء، ويغلق عينيه إلى الغد من خلال قوله لنفسه إن القليل الذي تبقى لن يستطيع تغيير الحالة الراهنة. لكن بفضل الاستراتيجية التي مارستها غالا في مناسبات كهذه، زادت تلك الصعوبات من قوتنا الروحية أكثر وأكثر. وإن كان لدينا القليل من المال، كنا نأكل بوعي وبشكل جيد في البيت، ولم نخرج أبداً. وقد عملنا أكثر بمئة مرة من أي رسام عادي آخر استعداداً لمعارض جديدة. وكنت أضع جهودي كلها في عملي من أجل أي طلب شراء مهما كان. وكانت غالا تعاتبني غالباً لأنني أبذل جهداً عظيماً في تنفيذ طلبات مأجورة بشكل تعيس وغير مقبول. وكنت أجيبها بأنني بقدر ما أنا عبقري، فقد كانت معجزة حقيقية أن أحصل على أي طلب شراء من أي نوع كان. وقد كان قَدَرنا أن نموت من الجوع فعليّاً. "وإن رتبنا أمورنا كي نعيش بشكل معتدل، فهذا لأننا أنا وأنت في أية لحظة من اليوم، نقوم بجهد مستمر خارق — وبفضل هذا سوف نتجاوز كل شيء في النهاية".

إن كل ما كانوا حولنا من الفنانين الذين يلتهمهم النسيان اليوم، كانوا يعيشون بشكل رائع على أساس تبني الأفكار الداليّة وتحويلها إلى أفكار عادية. وإن كان دالي، الملك الحقيقي، غير مقبول ولا مندمج كالطعام المتبّل بشكل عنيف، فمن جهة أخرى كانت طريقة أن نضع بعض الداليّة هنا وشيئاً منها هناك تجعل الأطباق الأخرى التي لم يكن لها نكهة في العادة، شهية لذيذة. القليل من الداليّة في المنظر الطبيعي، والقليل منها في الغيمة، والقليل منها في الكآبة وفي الأخيولة والنقاش، لكن هذا القليل منها يمنح نكهة لاذعة محيّرة لكل شيء. ويصبح كل شيء تجارياً مثل دالي نفسه، وعندما كان يصبح داليّاً بشكل أكثر تكاملاً وعنفاً، كان يخيف الناس ويقلل من كونه تجارياً. وقلت لنفسي: الصبر — الأهم هو أن تستمرّ. ومع عنادي وتعصّبي، الذي يدعمه عناد غالا وتعصبها

ويشجعه، وبدلاً من اتخاذ خطوة للخلف كما يأمرنا الحس السليم أن نفعل، كنت اتخذ خمس خطوات في التعنت برأيي وفي أعمالي نحو الأمام. وقد تكون نتائج هذا التصرّف أكثر صعوبة وأطول مدّة، لكن في اليوم الذي نصل فيه، ستجثو عند أقدامنا تلك الجرذان، والآذان القذرة للبوهيمية، وكل وجنات الحياة السهلة الوردية. وكما تشكّلت حياتنا تحت الصرامة والقسوة والشغف الذي لا يرحم، كان الناس حولنا يذوبون في الطرق السهلة. لقد كان الكوكايين موجوداً هنا والمورفين موجوداً هناك، وكذلك كان الهيروويين والمورفين والكحول والشذوذ الجنسي موجوداً في كل مكان. وكان كله مطيّة من أجل النجاح السريع. ودعمتْ ماسونية الرزيلة كل أعضاءها بالتفاني العاطفي ضد الخوف العام من الوحدة. يعيش الجميع معاً ويتعرقون ويصيدون معاً ويراقب أحدهم الآخر ليرى من يتذمر أولاً كي يغرس خنجر المودة في ظهره في اللحظة ذاتها. وكان مصدر قوة غالا وقوتي أننا عشنا دوماً ضمن هذا الخليط الأخلاقي المادي دون أن نتأثر به، ودون أن ندخن أو نتعاطى المخدرات أو نقدم على خيانة جنسية. لقد تابعنا العيش وحدنا قدر الإمكان كما عشت طفولتي ومراهقتي. وليس فقط أننا بقينا بعيداً عن الآخرين، لكننا بقينا متساوين في المسافة — على مسافة متساوية من فناني "مونبارناس"، وعن مدمني المخدرات، وعن شخصيات **المجتمع**، وعن السرياليين، وعن المجانين والبرجوازيين. لقد كنا في المركز، وللبقاء في المركز وأن تحافظ على اتزان الوضوح هذا، وتكون قادراً على أن تعزف جميع النوتات الموسيقية التي تشعر بفضلها بالسيطرة على الوضع، كان من الضروري للمرء أن يترك مسافة حرّة حوله كي يستطيع الهرب من وقت لآخر ويهدأ قليلاً.

كان المكان الحر المناسب لنا هو كاداكيس، ملاذنا في إسبانيا لأشهر متتالية تركنا باريس خلالها كما يترك المرء وعاءً مليئاً "بالأمعاء" التي لا بدّ أن تُطهى لعدة لعدة أيام كي تنضج بشكل جيد كما هو معروف.

وبينما كان وعاء باريس يطهو "أمعاء" مخيلتي الدبقة، كنا قد ابتعدنا عنها. لكن قبل رحيلنا، أعددنا الأطباق التي سنتركها تُطبخ لشهرين أو ثلاثة. ورأيت بين أعضاء المجموعة السريالية الشعارات الإيديولوجية الضرورية ضد الذاتية والإعجاز. وبالنسبة للشاذين جنسياً كانت المشكلة بسيطة جداً: لقد أعدتُ تفعيل رومانسية "أندرية بلاديو" الكلاسيكية. وبالنسبة لمدمني المخدرات، فقد نشرت نظرية كاملة من صور تساعد على التنويم المغناطيسي، وتحدثت عن أقنعة من اختراحي لرؤية أحلام ملونة. ومن أجل شخصيات **المجتمع**، أعددت أزياء من الصراعات العاطفية من النوع الستاندالي، وصقلت الثمرة المحرّمة للثورة. وأدخلت الشاذين جنسياً إلى السريالية باحتشام. أما بالنسبة للسريالية فقد علّقت ثمرة محرمة أخرى وهي التقاليد.

كنا سنرحل في الصباح التالي، ورتبنا أمورنا كي نحصل معاً على بعض المال. وكنت على عجل لتأسيس الروابط السرية لتأثيري، ووضعت قائمة لزياراتي الأخيرة التي عليّ أن أقوم بها: في الصباح، أزور التكعيبيين والملكيين والشيوعيين. وبعد الظهر، شخصيات **المجتمع** المنتقين من بين أولئك الذين يكره أحدهم الآخر إلى الحد الأقصى. أما المساء فكان لي ولغالا لأن تحقيق ذلك كان انتصاراً عظيماً لكلينا. ولم تكن الثنائيات الأخرى متوافقة، أو عندما تكون كذلك، تكون العقول في مكان آخر. لقد كان مريعاً بالنسبة لهم أن يكتشفوا وجودنا معاً في زوايا أفضل المطاعم إلى طاولة تعلوها زجاجة نبيذ فاخر، ونتحدث بشجن العلاقة الطازجة التي تبدو في يومها الأول أو الثاني! ما الذي نتحدث عنه؟ إننا نتحدث عن وحدتنا، وعن الاحتمال الساحر لذهابنا إلى كاداكيس لنكون وحدنا، وكي نراقب ماسيحدث بيننا. وكنا ذاهبين إلى هناك كي نبني جدراناً في الشمس لحمايتنا من الرياح، وآباراً للوصول إلى منابع المياه، ومقاعد حجرية لنجلس عليها. كنا

ذاهبين لنبني أول درجات طرق الارتياب النقدي. كنا ذاهبين للاستكمال جهود العيش الجميلة والمأساوية معاً، عيش الواقعية الخاصة بوجودنا معاً!

وركبنا القطار المزدحم كخلية نحل، وبقدر ما أستطيع أن أتذكر، فقد رغبت بالسفر مع وثائقي كلها — أي مع عشرة حقائب محشوة بالكتب والصور التشريحية والحشرات والنصوص والملاحظات التي لا نهاية لها. والأكثر من ذلك، أحضرنا هذه المرة بعض المفروشات من شقتنا في باريس، والمجموعة الكاملة من الفراشات ومجموعة من "الحشرة — الورقة" المكدّسة في وعاء كريستالي كي نزيّن البيت بها. وأحضرنا أيضاً مدفأة ومصباحاً يعمل على الغازولين لأن الطاقة الكهربائية لم تكن قد وصلت إلى منزلنا بعد. كما احتاجت معدات الرسم الخاصة بي إلى مساحة كبيرة وكان من بينها حامل رسم قابل للدوران.

وكان الطريق من كاداكيس إلى منزلنا يجتاز منطقة صخرية حادة لا يمكن للسيارة أن تعبرها. وكان من الضروري أن نحمل كل شيء على ظهور الحمير. احتاج الأمر منا ليومين كي نستقر، وأمضينا تلك الفترة كلها بحالة من الحمّى المستمرة. لقد وجدنا جدران المنزل مشبعة بالرطوبة، وحاولنا أن نجففها بمساعدة مصباح الغازولين. وفي نهاية اليوم التالي كنّا نستلقي أنا وغالا على الأريكة الكبيرة التي تتحول إلى سرير في الليل. وكانت رياح "Tramontana[1]" تهب في الخارج كامرأة مجنونة. أما "ليديا — المزروعة جيداً" فكانت جالسة على مصطبة معدنية أمامنا حيث تحدثت عن الغموض و"المعلم"، وعن مقالة "ويليام وتيل" التي كان قد كتبها "دور". وقالت: "إن 'وليام' و'تيل' شخصان مختلفان، أحدهما من كاداديس، والثاني من روساس...."

---

[1] ريح عاتية جداً مساوية للريح التي تهب في جنوب فرنسا. وهي تهبّ عادة لثلاثة أيام متتالية أو أربعة وقد تستمر أحياناً لأسبوعين.

وكانت قد أتت إلينا لتعدّ العشاء، وبينما كان الحديث يتطوّر بشكل منهجي، ذهبت إلى المطبخ لتبحث عن الدجاجة إضافة إلى ما تحتاج إليه كي تقتلها. وجلست ليديا هذه المرة على الأرض، وبينما كانت مستمرة بتفسير المقالة الأخيرة لـ "إيوجين دور" غرزت سكينها بشكل بارع في عنق الدجاجة، ووضعت الرأس النازف في وعاء.

"لن يصدق أحد أنني 'المزروعة جيداً'. وأستطيع أن أتفهم ذلك. إن الناس لا يمتلكون العقول القوية ولا الروحانية التي نمتلكها نحن الثلاثة! إنهم لا يرون أكثر من الحروف المكتوبة على ورقة. إن بيكاسو لا يتكلم الآن كثيراً لكنه مغرم بشدة بي، وسوف يقدم روحه لي. لقد أعارني في أحد الأيام كتاباً لـ "غوتيه"...[1]"

كانت الدجاجة في نزاعها الأخير مع الموت، وبقيت ساقاها متصلبتين وهادئتين كجذوع الكرمة يلفّها فصل الشتاء. وبدأت ليديا تنتف ريش الدجاجة الذي سرعان ما ملأ الغرفة. وعندما انتهت هذه العملية، نظّفت المطبخ كله، وبدأت تسحب أحشاءها أصابعها الملوثة بالدم، وترتبها بعناية في صحن آخر على الطاولة الكريستالية حيث كنت أضع نسخة طبق الأصل من كتاب قيم جداً عن لوحات "جيوفاني بيلليني". وبملاحظتها لي وأنا أقفز بغضب لإزاحة الكتاب قدر الإمكان عن احتمال تلوثه بالدم، ابتسمت ليديا بمرارة وقالت: "إن الدم لا يترك بقعاً"، ثم أضافت على الفور هذه الجملة التي شحنها التعبير الخبيث لعينيها بالمعاني المخفية الإيروتيكية: "الدم أكثر حلاوة من العسل. وأنا الدم، بينما العسل باقي النساء! وولداي.... (أضافت هذه العبارة بصوت منخفض)... في هذه الفترة يعارضون الدم ويركضون خلف العسل".

---

[1] لقد أمضى بيكاسو فصل الصيف في كاداكيس، مع بيرين وكان رامون بيشوت هو من دعاهما للزيارة وقد اهتما بقضية ليديا وأعاراها كتابين للكاتب نفسه، ونجحت ليديا في تفسيرهما بطريقة تجعل أحدهما استمراراً للآخر.

وفُتِحَ الباب في تلك اللحظة تحديداً وظهر الولدان، وكان الأول كئيباً جداً بشاربيه الأحمرين بينما يبتسم الآخر باستمرار بطريقة مقلقة مزعجة. وقال الثاني: "إنها قادمة الآن". وكانت "القادمة" هي الخادمة أحضرتها ليديا لنا كي تباشر عملها في منزلنا في اليوم التالي. وقد وصلت بعد دقائق. كانت امرأة أربعينية بشعر أسود لامع كلبدة حصان. وكان لديها ملامح وجه "دافنشية"، وتتألق عيناها بشغف يدلّ على الجنون. لقد كانت مجنونة فعلاً، وحصلنا على دليل مأساوي على هذا الأمر لاحقاً. وقد لاحظتُ عدة مرات، من خلال تجربتي الشخصية، أن الشذوذ العنيف للعقل يجذب الجنون بشكل غامض إلى حدّ تجميعه فوق بعضه وقائياً. وأينما ذهبت يكون المجانين والمنتحرون بانتظاري كحراس شرف. إنهم يعرفون بالحدس وبشكل غامض أنني واحد منهم، على الرغم من أنهم يعرفون كما أعرف أنا أن الفرق الوحيد بيني وبين المجنون أنني لست مجنوناً. ومع ذلك فإن "الروائح" تجذبهم بشكل لا يمكن مقاومته. وأتذكر اختبار الشرنقة التي نقلها "فابر" مسافة مئات الكيلومترات عن البقعة التي كان يوجد فيها هذا النوع بشكل حصري، ثم وضعها على طاولة في غرفة، ولم تحتج فراشات النوع ذاته إلا إلى الزمن اللازم لطيرانها كي تصل إلى الغرفة أخيراً وتغزوها بسرب كامل منها. لقد وصلت بتأثير الدعوة الاستبدادية للرائحة غير المادية التي لا يمكن للمرء أن يتحسسها بحاسة الشم. لقد كان كافياً بالنسبة لتلك الشرنقة أن يكون لها اتصال لحظي فقط مع قطعة قطن كي يكتسب هذا القطن الطاقة الجذابة ويجعل مئات الفراشات المسعورة تطير إلى المكان، مندفعة عبر استجابتها للنداء.

وبعد يومين من وصولي إلى معتزلي في "بورت ليغات"، كانت غرفتي الصغيرة تزدحم بالمجانين. وأدركت عدم إمكانية العيش مع هذا الأمر واتخذت الإجراءات اللازمة. كنت أستيقظ في السابعة من صباح كل يوم

كي أعمل. وكان الباب المفتوح في غير محله كافياً ليعيق عملي لساعات. لم يكن أحد منهم يدخل إلى البيت أبداً. وكنت أراهم في الخارج. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً كان المجانين يطوفون خلسة خارج البيت ويدخلون بشكل استثنائي فقط في أيام الآحاد.

وكان من أصدقائنا الذين لا يصلح العيش معهم في منطقتنا "رامون هيرموسا". إنه رجل في الخمسين من عمره، يتمتع بالصحة والعافية وبقلب رقيق وشاربين مشذبين كشاربي "أدولف منجوٍ" — ويبدو أنه يشبهه بطريقة ما. وأعتقد أنه كان الرجل الأكثر كسلاً في العالم. كان يحب أن يردد مقولته الشهيرة: "قد تمر سنوات وأنت تشعر بأنك لا تريد أن تفعل شيئاً". وكانت هذه السنوات تمرّ عليه منذ طفولته دون انقطاع. كان مشهد الناس العاملين يملؤه إعجاباً فيقول: "أنا لا أفهم كيف يستطيعون العمل بهذه الطريقة دون أن يتعبوا!" وكانت حالته هذه مضرب مثل للصيادين وترافقها حالة من الفخر أيضاً. ويمكنك أن تلاحظ مسحة من الإعجاب عندما يتكلمون عنه باحتقار ويقولون: "لا تخشَ أن يرغب كيان 'رومان' أن يفعل ذلك!" وإن أصبح لديه رغبة ما، يُصاب الجميع بخيبة الأمل، ويفقدُ بدوره هيبته للأبد. لقد كان عدم قيامه بأي شيء أشبه بمؤسسة أو شيء نادر أو ظاهرة، وهو بالأحرى شيء فريد لا وجود له في أي مكان آخر. لقد كان خموله الطفيلي الكامل منبع فخر شارك فيه كل شخص ولو بشكل قليل. ومع ذلك، فعندما يسحب الصيادون حملهم الثقيل من السمك المحتجز تحت شمس فترة الظهيرة القاسية ويعبرون المقهى ويرون "رامون" يتذوق القهوة وبيده سيجار وأمامه كأس من البراندي، ينفجر غضبهم بإطلاق أعنف الشتائم التي تثير لديه أكثر الابتسامات المريرة المتفهمة. وبمعرفة أنه غير قادر على كسب لقمة عيشه، يقدم له أصحاب الشأن ملابسهم القديمة وبعض النقود التي يعيش فيها معجزة كل لحظة.

ولهذا كان يلبس دوماً ملابس أصحاب الشأن، وارتدى لسنوات طويلة سترة رياضية إنكليزية. كما أقرضته رئاسة البلدية مسكناً كبيراً عليه أن يتعايش فيه مع المشردين القلائل جداً الذين يمرّون بالبلدة، وبهذا فقد تمكن من إبقاء المسكن له وحده، وتمكن أيضاً من إيصال الماء إليه. لقد رأيته عدة مرات في بيته حيث كان أمامه شجرتان تهطلان تيناً فاسداً لم يُمس بسبب كسله طبعاً، لكنه يعزو عدم المساس به لذريعة أنه لا يحب التين. وكان المنزل يعجّ بالبراغيث. ويتسرب ماء المطر من كل مكان، كما صادف أن شاهد أحدهم معركة دموية بين جرذين داخل المنزل. وعندما اتفقت غالا معه في أحد الأيام كي تعطيه مضخة ماء تكفيه فقط لملء حوض لغسيل، احتاج العمل منه لدقائق فقط، وكان ذلك عند الغروب بعد أن أصبح الطقس لطيفاً. لكن لم تصل إلى منزله قطرة ماء واحدة حتى اليوم التالي مع أن باستطاعة المرء أن يستمع إلى صوت المضخة المتقطع. وعندما ذهبت للتحري عما يجري، رأيت رامون مستلقياً تحت شجرة زيتون، ويقلّد بدقّة فائقة صوت المضخة عبر طرقه لقطعتين معدنيتين بطريقة إيقاعية (مستخدماً خيطاً يمكّنه من القيام بذلك بأدنى جهد ممكن)، وكان لكل قطعة معدنية صوتٌ مختلف يشابه بإيقاعه صوت مضخة تعمل عن بعد. وفي كل يوم أراه فيه قادماً في محاولة لإقناعي كي أعطيه بقايا الطعام، أسأله:

"حسناً يا رامون، كيف تسير الأمور؟"

ويجيب بثقة بعد أن يترك ابتسامته الماكرة تفلت من تحت شاربيه:

"بشكل سيء يا سينيور سيلفادور، من سيئ إلى أسوأ!"

كان لديه ميزة الحديث عن أقل الأمور إثارة للإهتمام في العالم بنبرة مفصّلة ملحمية تليق "بالإلياذة". وكانت أفضل قصة لديه عن رحلة قام بها لثلاثة أيام، كان لديه فيها مهمة أن يحمل حقيبة صغيرة لبطل لعبة البلياردو. وقد رويت الحكاية بأدق التفاصيل وكانت تحفة فنية في بنائها

من دون شكّ. وبعد المحادثات المتوترة المهتاجة عن باريس، والمزدحمة بمعاني مزدوجة خبيثة ودبلوماسية، أنتجت المحادثات معه صفاء الروح ووصلت إلى مستوى الحكاية التي لا يمكن تصورها. أما نميمة الصيادين في "بورت ليغات" مع روحهم الهوميروسية بالكامل، فكانت بالنسبة إلى دماغي المتعب من الطرافة ذات طبيعة صلبة مجسدة للواقع.

لقد أمضينا أنا وغالا الأشهر كلها من دون أي تواصل مع أي شخص سوى ليديا وولديها، وخادمتنا ورامون، وبعض الصيادين الذين أبقوا معدّاتهم في أكواخهم في "بورت ليغات". وفي المساء، يغادر الجميع إلى كاداكيس والخادمة أيضاً، ويبقى الشاطئ مهجوراً بالكامل لا يسكنه إلا أنا وغالا. وغالباً ما يبقى مصباحنا مضاء حتى الساعة الخامسة من صباح كل يوم. وعندما كان القمر يتلاشى في السماء، كنا نبدأ استقصاءنا عن الشخص الذي يطرق الباب. ويكون دوماً أحد الصيادين.

"لقد رأيت النور مضاء وفكرت أن أدخل للحظة لأحضر لكم سمك الفرخ هذا. سيكون جيداً وطازجاً من أجل صباح الغد. وهذه الحصاة أيضاً. لقد أحضرتها من أجل السيدة غالا لأنني أعرف أنها تحبّ الحصى الغريبة. إن السنيور يعمل بجد. في اليوم السابق أيضاً ذهب إلى سريره متأخراً". ثم يوجّه الحديث إلى غالا: "على السنيور سيلفادور أن يأخذ هذا الدواء الملّين للمعدة. إن سبب الأرق الذي يقلقه هو ألم المعدة. وعليه أن ينظف معدته مرة واحدة وإلى الأبد، وينتهي كل شيء. إن السماء صافية مثل عين السمكة. وذلك القمر – لدينا طقس جيد اليوم. تصبحون على خير".

وعندما يذهب الصياد أتحدث إلى غالا وأتوسل إليها: "اذهبي للنوم، أنت منهكة من التعب. عليّ أن أرسم لنصف ساعة أخرى".

"لا، سوف أنتظرك. لدي الكثير من الأشياء الواجب ترتيبها قبل أن أذهب إلى النوم".

عندما نجحت غالا بترتيب الوثائق والملاحظات الضرورية للجزء المنهج من عملي، بدأتُ أنا بنفاد صبر مسعور بمزجها معاً لإيجاد الأشياء غير الضرورية بالنسبة لهذه المسألة، والتي كنت واثقاً تقريباً من أنني تركتها في باريس عن عمد، إلا أن غالا نصحتني بأن أحملها معي. لقد كانت تعرف دوماً أكثر مني ما كنت أحتاجه في عملي. ثم رنّت الساعة الخامسة وتلاشى القمر في السماء. وبدأنا استقصاءنا عن شخص ما يظهر لي في لحظة نزوية خاطفة. وأفرغت غالا بلا كلل حقائب السفر دون كسل ولا أمل، وهي تعرف أننا لن ننام. وإن لم أذهب أنا للنوم فهي لن تذهب أيضاً. كما تابعت معاناة لوحتي بدقة أكبر من دقّتي لأنني غالباً ما أمارس الخداع كي أستمدّ المتعة من المأساة، ولكي أرى غالا تعاني.

وقلت لها يوماً: "أنا أرسم لوحاتي بدمك بشكل عام، وبدأت من حينها فصاعداً أستخدم اسمها مع اسمي في التوقيع على أعمالي.

لقد عشت معها بثبات لمدة ثلاثة أشهر في "بورت ليغات"، عالقين مثل مريضين بسرطان الوقت، الأول في المعدة، والثاني في الحنجرة. ولم نكن نريد أن يُهدر جزء من ساعة دون أن نستهلك الحياة بكل تفاصيلها في عناقنا المتقد. لقد ألزمنا الزمن بالاهتمام بنا من خلال تعذيبه. ولم تستطع ساعة من النهار أن تفلت من تفحص روحينا. كان حولنا اللون الرمادي والصخور المقطوعة، والجفاف والقطط الجائعة والريح، وجذوع كرمة مريضة ومجانين، ورامون الساخر المليء بالبراغيث بزيه الخاص بذوي الشأن، ودزينة من الصيادين المتحفظين بنبل وهم ينتظرون بدون تردد لحظة موتهم بأظافرهم المحشوة بأحشاء الأسماك. وفي كاداكيس، على بعد ربع ساعة منا، كانت عدائية والدي الذي أستطيع أن أشعر بعاطفته عبر هذه المسافة جاثمة خلف الجبل الذي يفصل بيننا، تماماً في موقع بيت أهلي الذي عشت فيه طفولتي

ومراهقتي، والذي طُرِدتُ منه. كنت أشاهد منزل والدي عن بعد أثناء نزهتي، وكان يبدو لي مثل قطعة سكر – قطعة سكر غارقة في المرارة.

"بورت ليغات": حياة من الزهد والعزلة. هناك تعلمت تطوير الذات، وتعلمت تحديد تفكيري وتشذيبه كي يصبح مؤثراً كالفأس، حيث يصبح للدم نكهة الدم، ويصبح للعسل نكهة العسل. كانت حياة صعبة من دون مجاز أو نبيذ، وكانت حياة مع ضوء الأبدية. ولم تكن حياة باريس المجهدة وأضواؤها ومجوهراتها قادرة على مقاومة هذه الأضواء الأخرى – الكلية، الفقيرة الهادئة التي لا تعرف الخوف كجبين آلهة "المينيرفا". وبعد شهرين في "بورت ليغات"، رأيت صلابة الإنشاءات الكاثوليكية المعمارية تسمو أمام عقلي يوماً بعد يوم. وبينما بقينا وحدنا أنا وغالا مع المنظر الطبيعي وروحينا، وصل المزيد من جبين "إلهات المنيرفا" لتحاكي جبين "المادونات" التي رسمها رفائيل، وتستحم في ضوء الحرير البيضوي.

كنا نتنزه كل مساء، ونجلس في أماكننا المفضّلة في ذلك المنظر الطبيعي. كان هناك الكثير من الأشياء التي كنت أقولها لغالا لنسترخي من إجهاد يوم كامل من العمل الروحاني: "سوف نزيد عمق البئر خمسة أمتار أخرى كي نجد ماء أكثر..... عندما يظهر القمر سوف نذهب ونصطاد السردين..... سوف نزرع شجرتي برتقال إلى جانب البئر.....". لكن عينيّ بقيتا مثبتتين على تلك السموات الناعمة الطاهرة لأيام الشتاء الهادئة. كانت تلك السموات عظيمة ومستديرة كالقبة التي لم تُمس، والتي تنتظر لوحة لحكاية المجد الرمزية – ربما انتصار المنهج النقدي الارتيابي ومجده؟

حنين عصر النهضة، وزمن الروح التي كانت قادرة على مواجهة تحدي قبة السماء برفع قباب معمارية مرسومة بالروعة الفريدة للإخلاص الكاثوليكي. كيف أصبحت في أيامنا هذه قباب الدين

والجماليات والأخلاق التي حمت الروح لعصور طويلة، وحمت عقل الإنسان ووعيه؟ إن روح الإنسان حاليا تسكن في البرد مثل المتسولين والكلاب! لقد خلق عصرنا العقول الميكانيكية، وأجهزة الراديو "أجهزة البلادة" المهينة المريعة. ماذا يهمنا إن استطعنا أن نسمع الأصوات الرديئة التي تصلنا من أوروبا أو الصين؟ ما هذا بالمقارنة مع "سرعة" المنجمين المصريين، أو "باراسيلوس" أو "نوستراداموس" الذين يستطيعون سماع المستقبل القادم بعد ثلاثة آلاف سنة! ماذا يهم الإنسان إن استطاع أن يسمع اتصالات الحرب العالمية، وأغاني "الكونغاس اللاتينية" من نصف الكرة الأرضية إلى نصفها الآخر — لقد خلقت أذنا الإنسان ليسمع صوت معارك رؤساء الملائكة، وتراتيل ملائكة الجنة؟ ما هو جهاز التلفاز بالنسبة لإنسان ليس عليه إلا أن يغلق عينيه ليرى أكثر المناطق المرئية وغير المرئية التي يتعذر الوصول إليها، وليس عليه إلا أن يتخيّل كي ينفذ عبر الجدران ويجعل كل "بغدادات" أحلامه تنبثق من الغبار. ما هو المثل الاشتراكي "أعلى مستويات العيش" بالنسبة لإنسان يستطيع أن يؤمن بقيامة جسده؟ إن استطاع الحمار يوماً أن يطير، أو مدّت ثمرة التين جناحيها وطارت نحو السماء، يمكن لهذا أن يدهشنا للحظة ويلفت انتباهنا. لكن لماذا الدهشة من الآلات الطائرة؟ إنه لجدير بالتقدير أكثر أن تطير "المكواة" بدلاً من أن تطير طيارة، مع أنك إن قذفت المكواة في الهواء فسوف تحافظ على طيرانها طالما أنها في الأعلى، مثل أي طائرة. ما أهمية أن تطير آلة؟ وما أهمية أن يطير الإنسان، وهو الذي يملك روحاً؟

يموت عصرنا من الفراغ الروحاني والشك الأخلاقي. وقد قلل الكسل المتخيل من زعامة الروح بعد أن منح نفسه للتقدّم الميكانيكي اللحظي المادي الزائف لفترة ما بعد الحرب. لقد جرّدها من سلاحها وأهانها أمام الموت والأبدية. سوف يتم تدمير الحضارة الميكانيكية بالحرب، أما

الآلات الميكانيكية فمحكوم عليها بالانهيار والصدأ والفناء في ساحات المعارك، ومحكوم على الحشود النشيطة المليئة بالشباب التي أشرفت على بنائها بأن تكون علفاً للمدافع.

نعم! أنا أتحدث عنكم أيها الشباب المتحمسون المخلصون بوجوهكم المتوردة الشابة البطولية، وأسنانكم التي تنتزع الجوائز في المسابقات العالمية التي تُعقد في الملاعب الإسمنتية. أنا أتحدث عنكم يا جيل الشباب، أنتم الذين ارتقيتم المآثر الرياضية في الهدير الذي لا يهدأ للطائرات وأجهزة الراديو. أنا أفكر فيكم يا شباب الوثنية الجديدة المقودة بفكرة طوباوية وحشية دموية تدنيسية. أنا أفكر فيكم يا رفاق اللاشيء وأصحابه..

"غالا، أعطني يدك. إن الظلام دامس وأنا أخشى السقوط، ومُتعب تماماً من المشي. هل تعتقدين أن الخادمة ستجد في اللحظة الأخيرة بعض السردين لهذه الليلة؟ إن بقي الجو حاراً كهذا اليوم في الغد، ربما أستطيع أن أخلع إحدى كنزاتي الصوفية. سوف نأخذ بعض الدواء كي ننام جيداً اليوم. وغداً لدي الكثير والكثير من الأشياء لأقوم بها قبل هذا الوقت".

كنا عائدين إلى البيت. وكان هناك دخان ضئيل يتصاعد من مدخنتنا. إنه حساء السمك الذي يُطبخ ويأخذ وقته كي ينضج. لنأمل أنها أضافت له بعض "السلطعونات". ثم مشينا ومشينا وذراع أحدنا تشابك ذراع الآخر، ولدينا شعور أشبه بممارسة الحبّ.

وفجأة كنت مغموراً بسعادة جعلتني أرتعش. "يا إلهي، أي ضربة حظ ونحن لسنا "رودان" لا أنا ولا أنت!"

كمكافأة خاصة، وللاحتفال بانتهاء اللوحة، ذهبنا مع الصيادين إلى وليمة السردين المقلي وشرائح السمك في "كاب كرو"، التي كانت تماماً البقعة العصرية الأسطورية، حيث تنحدر جبال البيرينيه فيها إلى البحر بهذيان تضاريسي رائع. وهناك، ليس هناك الكثير من أشجار الزيتون أو الكرمة. وليس هناك سوى العنف الأولي لأكثر أنواع الصخور

المجتمعة تنوعاً وتناقضاً. لقد ساهم التفكير التأملي الطويل بتلك الصخور بإزهار "الجماليات الشكلية لما هو ليّن وقاس"، والتي كانت من القوطية المتوسطية (لأنطونيو غودي) — إلى درجة أنّ المرء يشعر بإغراء أن يؤمن بأن "غودي" في اللحظة الحاسمة من شبابه، قد رأى هذه الصخور التي أثرت بي بشكل كبير.

عدا عن روعة هذا المنظر الطبيعي، كان هناك تجسّد واضح في الحجارة الغرانيتية المسؤولة عن التشكيلات الارتيابية التي لفتُ الانتباه إليها عدة مرات في سياق هذا الكتاب. وبالتأكيد، إن كان هناك شيء يمكن للمرء أن يقارن هذه الصخور به من حيث الشكل، فستكون الغيوم التي بدت ككتلة ركام تحجّر بشكل كارثي على شكل خرائب. لقد ساعد عدم الانتظام الهائل لهذه الصخور على إمكانية رؤية الكثير من الصور التي تظهر على التوالي وبشكل تدريجي كلما غيّرت موقعك الذي تراقب منه. وكان من المنطقي جداً أن يسمي صيادو المنطقة منذ أزمنة سحيقة كلاً من هذه التشكيلات المهيبة — الجمل، النسر، السندان، القرد، المرأة الميتة، رؤوس أسود. لكن بينما كنا نتقدم إلى الأمام ببطء مميز لقارب التجذيف (الوسيلة الوحيدة المقبولة للإبحار)، أصبحت تلك الصور كلها مختلفة، ولم يكن هناك داع للتعليق على هذا لأن الصيادين أنفسهم قد لفتوا انتباهي لها.

"انظر يا سنيور سيلفادور، بدلاً من صورة الجمل هناك، يستطيع المرء أن يقول إن هناك ديكاً".

ما هو الذي كان رأس جمل وشكّل الآن عرفاً، وما هي شفة الجمل السفلى التي كانت بارزة وطويلة وأصبحت الآن منقاراً. والسنام الذي كان في وسط الظهر، أصبح الآن في الخلف تماماً وشكّل ذيل الديك. وكلما اقتربنا أكثر، تصبح رؤوس السندان مستديرة أكثر، وتبدو تماماً كنهدي امرأة...

وبينما يجذّف الصيادون، ويرى المرء هذه الصخور تغير تشكيلتها باستمرار مع كل ضربة مجذاف، "تتحول إلى شيء آخر بشكل متواصل" كما لو أن هناك نحاتين وهميين مصنوعون من الحجارة، اكتشفتُ أنا من خلال هذا التمويه المتواصل، المعنى الأساسي لتواضع الطبيعة الذي أشار إليه "هيراقليطس" في عبارته الملغّزة: "تحب الطبيعة أن تخفي نفسها". وفي تواضع الطبيعة هذا، قدست مبدأ المفارقة تحديداً. وبمراقبة "تحركات" أشكال تلك الصخور الثابتة، تأملت بصخوري الشخصية المتعلقة بأفكاري. لا بدّ أنني أحببتها حتى أحبّ تلك الموجودة في الخارج – إنها تتغير لدى أدنى إزاحة في فضاء الروح، وتصبح نقيضها باستمرار، مدعية، مترددة، منافقة، متنكرة، غامضة وصلبة، دون حلم، دون "غباشة العجب"، غير قابلة للقياس والمراقبة، مادية وقاسية كالغرانيت.

في الماضي كان هناك ثلاثة شروط منطقية فلسفية أطمح بأن تكون موجودة في عقلي: السفسطائية الإغريقية، والفكرة اليسوعية الأسبانية التي أوجدها القديس أغناطيوس لويولا، وديالكتيك هيغل الألماني – لكن الأخير لسوء الحظ يفتقر للتهكّم الذي يُعتبر أساساً العنصر الجمالي للتفكير، والأكثر من ذلك أنه "ثورة مهددة"...

وبالطريقة الكسولة التي يجذف فيها صيادو كاداكيس، كان هناك إخفاء لنوعية الصبر والتراخي الذي كان أيضاً، نوعاً من التهكم. وقلت لنفسي إنني إن أردت فعلاً العودة إلى باريس كفاتح، فيجب أن أصل هناك مجذفاً بقارب، ويجب حتى ألا أخرج من هذا القارب، بل أن أذهب إلى هناك مباشرة حاملاً معي نور هذا الميناء على جبيني الذي أصبح ناصعاً ومستقراً بفضل عملية تقطير الروح التي دامت شهرين متواصلين – لأن الروح تشبه النبيذ، لا يمكن أن تتحول من دون أن تتعرض للخطر. كما لا يجب هزّها كثيراً كي لا تفسد في الطريق. وعلى

نبضات الكسل الإيقاعية، والحركة التهكمية للمجاذيف، على المرء أن ينقل النبيذ النادر للتقاليد في أيام الهدوء الكبير كي يكون هناك أقل قدر من الإدراك للرحلة على الرغم من أنها يجب أن تكون "طويلة قدر الإمكان". لأنه ليس هناك شيء في الواقع أكثر قماءة بالنسبة لروح الإنسان من سرعة وسائل النقل الحديثة، ولا شيء أكثر إحباطاً لها من "الأرقام القياسية للسرعة" التي يُعلن عنها دورياً وبلا كلل. ومن أجل هذا، أنا مستعد كي أمنح أي شيء يريده المرء في ذلك المجال، وسوف أطلب من القارئ أن يوافق معي للحظة فقط، على فرضية إمكانية السفر حول العالم في يوم واحد. كم سيكون هذا مملا! وتخيل أن يستمر التطور بهذا المجال حتى يستطيع المرء أن يقوم بذلك خلال عشر دقائق – أو دقيقة واحدة. لكنه سيكون مرعباً! ومن جهة أخرى، افترض أن ينجح المرء عبر ضربة حظ سحرية بأن يجعل الرحلة من باريس إلى مدريد تدوم ثلاثمئة سنة. أي لغز هذا وأية سرعة! وأي شعور يسبب الدوار للخيال! وعلى الفور، يعود المرء إلى الأبراج بدلاً من القطار، ويسافر المرء على النجوم بدلاً من سفره ضمن جثة طائرة ترشح بالبنزين! لكن هذه أيضاً رومانسية "à la Méliès[1]". إن ثلاثمئة سنة هي فترة طويلة جداً للذهاب من باريس إلى مدريد. دعنا إذاً نتخذ مركبة الجياد التي ركبها "ستاندال وغوته" في رحلتهما إلى إيطاليا. وفي ذلك الوقت، كان المسافات لا تزال "تُحسب"، وتمنح الوقت للذكاء ليستطيع قياس المسافات والأشكال كلها، وحالات الروح كلها، والمناظر الطبيعية والبناء المعماري. في ذلك الوقت، كان البطء والافتقار إلى الأداء الميكانيكي لا يزالان من الشروط الرئيسة للتطور السهل فاتح الشهية للذكاء. جذف يا دالي، جذف! أو بدلاً من ذلك، دع صيادي كاداكيس يجذفون. أنت تعرف إلى أين تريد أن تذهب، وهم يأخذونك إلى المكان

[1] "Georges Méliès" (1861 – 1938)، أحد رواد الصور المتحركة.

الذي تريده، وربما على المرء أن يقول إن كولومبوس استطاع أن يكتشف أمريكا من خلال التجذيف وهو مُحاط بالرفاق المرتابين الرائعين!

أصبحت العودة إلى باريس مرة أخرى ضرورية جداً لأن مدخراتنا المالية قد نفدت فعلاً. وكنا سنرحل إليها كي "نجمع بعض البنسات" كما كنت أسميها، لنعود إلى "بورت ليغات" بالسرعة الممكنة. لكن هذه السرعة الممكنة لن تكون قبل ثلاثة أشهر أو أربعة. ولذلك استمتعت بهذه الأيام الأخيرة المخضبة والحبلى بالمذاق الرثائي لمغادرتنا الوشيكة إلى الحد الأقصى. أما الربيع فهو ضعيف مصاب بالكدمات مثل خريف وُلد من جديد بشكل معكوس، فقد بدأ يصبح محسوساً. وبدت أطراف أغصان شجرة التين التي أُضيئت للتو بالوميض الأخضر للأوراق الفتية، مثل شمعدان من الفضة المضاءة من أجل احتفالات عيد الفصح.

إنه موسم الفاصولياء اليابسة. وقد أنهيت للتو وجبة كان الطبق الأساسي فيها هذا النوع من الخضار التي تشبه إلى حد كبير "قلفة العضو الذكري". وللكاتالونيين طريقة مميزة بتتبيل الفاصولياء تجعلها أحد أفضل الأطباق لدي. إنهم يطهونها مع لحم الخنزير المقدد والسجق الكاتالوني المليء بالدهون ويُضاف إلى المزيج القليل من نكهة الشوكولا وأوراق الغار. لقد أكلت ملء معدتي وكنت أبدو شارداً على الرغم من أنني أنظر بثبات إلى قطعة من رغيف خبز فرنسي. لقد كانت قطعة خبز طويلة موضوعة جانباً، ولم أستطع أن أتوقف عن النظر نحوها. وبعد ذلك التقطها وقبّلتها ولعقتها بلساني قليلاً كي أرطبها، ثم وضعت القسم المبلل على الطاولة بحيث أبقي عليها منتصبة شامخة هناك. لقد اخترعتُ للتو بيضة كولومبس: خبز سيلفادور دالي. اكتشفت لغز الخبز: يمكنه أن يُترك واقفاً دون أن يُؤكل! إنه ملتصق جوهرياً بفكرة "المنفعة الأولية" وهي العنصر الرئيس للاستمرار، ورمز "الغذاء" الخاص "بالعيش" المقدس. وأكرر القول بأنني سأقدم هذا الشيء المتأصل بشكل

استبدادي في "الضروريات" بشكل جمالي يفتقر إلى فوائده السابقة. سوف أصنع عناصر سريالية من الخبز، إذ ليس هناك ما هو أسهل من ثقب فتحتين أنيقتين من الجهة الخلفية لرغيف خبز فرنسي، وتثبيت محبرة في كل ثقب. ما هو الشيء الجماليّ المهين أكثر من رؤية هذه المحبرة المصنوعة من الخبز، تتلوّن تدريجياً عبر الاستخدام، وتتناثر عليها قطرات الحبر بشكل لا إرادي؟ وسأضيف إليه مستطيلاً صغيراً تستند إليه الأقلام المستخدمة في الكتابة. وإن أراد المرء أن يكون لديه خبز طازج لمسح الحبر وتجفيفه، فعليه أن يتعامل مع حمّالة الحبر هذه بحيث يقوم بتبديلها كل صباح كما يبدّل أغطية سريره...

عندما وصلنا إلى باريس، قلتُ لكل شخص مهتم بأن يسمع: "الخبز، الخبز، والمزيد من الخبز. لا شيء سوى الخبز". وتم التعامل مع هذه المقولة كلغز جديد أتيت به من "بورت ليغات". كانوا يتساءلون بشيء من المزاح: "هل أصبح شيوعياً؟" لأنهم خمّنوا أن خبزي، الخبز الذي اخترعته، لم يكن معدّاً على وجه التحديد من أجل إعانة العائلات الكبيرة وإغاثتها. لقد كان خبزي مناهضاً شرساً للخبز الإنساني، وكان خبز انتقام الفخامة التخيلية على نفعية العالم الفعلي العقلاني، لقد كان خبزاً أرستقراطياً، جمالياً، ارتيابياً، راقياً، يسوعياً، ظاهراتياً، إنه الخبز الذي عجنته يدا دماغي خلال الشهرين اللذين أمضيتهما في "بورت ليغات". في الواقع، لقد عرّضت روحي خلال الشهرين لعذاب الشك الذي لا نهاية له، وللابتزاز الصارم لأدنى استكشافاتي العقلانية. لقد رسمت وأحببت وكتبت ودرست، ولخّصت في اللحظة الأخيرة من مساء يوم المغادرة، بإيماءة ذات معنى واضح جداً، بوضع قطعة الخبز بشكل منتصب على الطاولة، التجربة الروحانية الكلية لتلك الفترة.

تلك هي أصالتي. وقد قلت يوماً ما: "يوجد عكاز!" واعتقد الجميع أنها مجرّد إيماءة اعتباطية، وضرب من الفكاهة. وبعد خمس سنوات

بدؤوا يكتشفون أنه "كان شيئاً مهماً". ثم قلت بعدها: "يوجد قشرة للخبز!" وبدأ هذا الأمر يتلقى اهتماماً على الفور، لأن لدي موهبة أن أجعل فكرتي موضوعية جداً إلى حدّ إضافة سمات سحرية للموضوع الذي قررت أن أشير إليه بإصبعي، بعد أن أمضيت الكثير من الوقت في التفكير والدراسة والإلهام.

وبعد شهر من وصولي إلى باريس وقّعت عقداً مع "جورج كيلر، وبيير كوليه" وعرضت في معارض لاحقة لوحة "المرأة النائمة– الحصان– الأسد الخفي" والتي كانت ثمرة تأملاتي في صخور "كاب كرو". ولوحة عن الجوهر الكاثوليكي، والتي كانت تدعى " The Profanation of the Eucharistic Host – تدنيس ضيف القربان المقدس"، ولوحة "الحلم"، ولوحة "وليام تيل". اشترى "جان كوكتيه" لوحة تدنيس ضيف القربان المقدس، واشترى "أندريه بريتون" لوحة وليام تيل. أما لوحة "الحلم" ولوحة "المرأة النائمة– الحصان– الأسد الخفي" فقد اشتراها "فيكومت دي نواي". وأصبح نقّاد الفن أكثر اهتماماً بفني، لكن بدا السرياليون وشخصيات **المجتمع** متأثرين بشدة. وبعد فترة قصيرة اشترى "أمير فوسيني لوسينغ" لوحة "برج الرغبة"، وهي اللوحة التي تمثّل رجلاً عارياً وامرأة على قمة برج إلى جانب رأس أسد، وكانا عالقين في عناق "ثابت" مشحون بالجريمة والإيروتيكية.

وبدأت أظهر في تلك الفترة على بعض مآدب العشاء حيث كان مرحّباً بي مع غالا بإعجاب يمتزج فيه الخوف بالاحترام. واغتنمت ردّة الفعل هذه في أول فرصة لأقدم خبزي. وفي إحدى الأمسيات، خلال حفلة في منزل "الأميرة لولينياك"، أحطتِ نفسي بمجموعة من السيدات الأنيقات الأكثر ضعفاً أمام تصرفاتي. كان هوسي بالخبز قد قادني إلى فكرة خيالية تبلورت في تأسيس مجتمع سريّ للخبز يهدف إلى التشويه المنهج للحشود. وفي تلك الأمسية، وبين زجاجات الشامبانيا، شرحت الخطّة بشكل عام. كان الطقس معتدلاً

والسماء مليئة بالنجوم، واستطعت أن أرى أرواح تلك السيدات الساحرات تنعكس من خلال جواهرهنّ اللامعة. إن الضحك الذي استقبلن فيه الظهور الذي يُرثى له لمشروعي، ومض بالتنوع ذاته. وجاءت بعض الضحكات من ثغور جميلة سئمة لم تضحك بهذا الشكل منذ سنوات. وأخريات ضغطن على أنفسهن كي يتحكمن بضحكاتهن مدركات خطورة الموقف لأنهن أدركن وسامتي. وصدرت ضحكات أخرى عن شكاكات فرنسيات مئة بالمئة، لكنها لم تثمر عن شيء أمام مظاهر التفكير الزائف. لقد فاحت تلك الضحكات المتوارية خلف مراوح من الصدف واللؤلؤ برائحة حسيّة أثناء حديثي الذي استفاد بلباقة من ذلك التألّق المتنوع لصفوف الأسنان من أجل إضافة غرام واحد أو أقل من الخفّة الضرورية لموازنة لفت الانتباه الذي نجحت ببراعة في الحفاظ عليه من خلال موهبتي الرائعة في الحديث. وتماماً في اللحظة التي أيقنت فيها أنني تدبّرت أمري في لفت انتباه جميع النساء في دائرتي إلى نقطة ميتة، مع عرض واسع لفكرتي عن "المجتمعات السرّية" المكتنزة بالغرابات، توقفت عن الكلام. لقد عرفت تماماً أن الفكرة كانت طفولية، وأنني لست الوحيد الذي يفكّر هكذا. عن أي شيء يدور موضوع الخبز هذا؟ وما الذي فعله دالي بخبزه؟ وضحكن بجنون مجدداً.

ثم ناشدنني كي أبين لهن سرّ الخبز. وعندئذٍ كشفت لهن أن الأمر الرئيس المتعلّق بهذا الموضوع، هو خبز رغيف فرنسي بطول خمسة عشر متراً. لا شيء كان أكثر جدوى، شريطة أن يأخذ المرء الأمر على محمل الجد. على المرء أولاً أن يبني فرناً كبيراً بما يكفي ليخبز فيه. ويجب ألا الرغيف هذا غريباً بأي شكل من الأشكال، ويجب أن يبدو مثل أي رغيف خبز فرنسي آخر إن استثنينا موضوع أبعاده. وبعد أن يخرج الرغيف من الفرن، على المرء أن يجد مكاناً يضعه فيه، ومن الأفضل أن يختار بقعة غير واضحة جداً ولا مطروقة، بحيث يبدو ظهوره شيئاً لا يمكن تفسيره. واقترحت الحدائق الداخلية للقصر الملكي، يُنقل الخبز

في شاحنتين، ويوضع في بقعة معينة على يد مجموعة من أفراد المجتمع السرّي المتنكرين بزي عمال يعملون على تمديد أنبوب ماء. ثم يلّف الخبز بأوراق الصحف ويُربط بشريطة.

وعندما يصبح الخبز في مكانه، فإن عناصر من المجتمع، الذين سبق أن استأجروا شقة مطلّة على هذه البقعة، يأخذون مواقعهم كي يستطيعوا تسجيل التفاصيل الأولى لردات الفعل المختلفة التي يشهدها الخبز. ومن السهل جداً أن نتوقّع الأثر المُحبط الذي ينتج عن عمل كهذا جرت أحداثه وسط مدينة كمدينة باريس. وفي الصباح، يتم اكتشاف ما كان عليه رغيف الخبز ويكون السؤال الأول الذي يخطر في الذهن: ما الذي سنفعله به — لم يسبق لهذا الشيء أن ظهر سابقاً، وسوف تفرض ضخامته حالة التصرف بحذر شديد. قبل القيام بأي شيء آخر، يجب أن يُنقل الخبز إلى المكان الذي سيتم اختباره فيه من دون أن يُلمس. هل يحتوي مادة متفجرة؟ لا! هل هو مسموم؟ لا! هل هو بكلمات أخرى، رغيف خبز يحتوي أية خصائص من أي نوع كانت بعيداً عن قياسه غير الطبيعي؟ لا. هل هو خاص بالإعلانات، وإن كان كذلك، لأي مخبز ولأية غاية؟ لا، بالتأكيد لا، إنه ليس إعلاناً أيضاً.

وعندئذٍ فإن الصحف المتعطشة للحقائق الصلبة ستتمسك بهذا التصرف، ويصبح الخبز طعاماً للحماس الجامح للجدليات المولودة. إن فرضية الجنون من المرجح جداً أن تكون من أولى الفرضيات المقترحة، لكن هنا، فإن النظريات والاختلافات بالرأي سوف تتضاعف إلى ما لا نهاية. لأن رجلاً مجنوناً لوحده، أو حتى عاقلاً لوحده، لن يصل إلى العجن والخبز ووضع الرغيف في مكانه حيث تم إيجاده. إن المجنون الافتراضي قد تم إلزامه بالاعتماد على تواطؤ عدة أشخاص مع ما يكفي من الإحساس العملي المنسق كي تصبح الفكرة مؤثرة. ولهذا فإن فرضية المجنون أو مجموعة من المجانين لن تكون لها أساسات صلبة.

ولهـذا لا بـدّ مـن أن نسـتنتج أن هـذا التصـرف كـان ذا طبيعـة احتجاجية من النوع السياسي الذي ربما يمكن تفسير غموضـه حاليـاً. لكن كيف يمكن، ولو بشكل رمزي، تفسير هذا الاحتجـاج الـذي بقـي غير فعال حتى بعد أن كلّف الكثير من الجهد، بسبب غموض أهدافه؟ ومن غير الوارد أن تعزوه إلى الحزب الشـيوعي لأن هـذا معـاكس تمامـاً لروحه التقليدية وبيروقراطيته. بالإضافة لذلك، ما الذي كـانوا يريدونـه كي يتظاهروا بهذه الطريقة؟ إن إطعـام الجميـع يحتـاج إلى الكـثير مـن الخبز؟ إن الخبز مقدس؟ لا، لا، كل هذا غبـاء. ربمـا يُشـكّ بـأن هـذا الأمر كان برمته نكتة أو مزحـة قـام بهـا بعـض الطـلاب أو المجموعـة السريالية، لكنني أعرف أن هذا الافتراض لن يقنع أي شخص. وأولئك الذي عرفوا فوضى المجموعة السريالية وعدم مقدرتها علـى إكمـال أي شيء يتطلّب الحد الأدنى من الجهد العملـي الموجّـه بغـض النظـر عـن الغاية، عرفوا مسبقاً بأنهم غير قادرين على تولي المسؤولية بشكل جدي عن بناء فرن بطول خمسة عشر متراً لا غنى عنه لإنتاج الخبز. وكـذلك بالنسبة للطلاب، فقد كان الشك بهـم أكثـر طفوليـة، بمـا أن الوسـائل التي تحت تصرفهم محدودة أكثر. ربما فكّـر النـاس بـدالي — مجتمـع دالي السرّي! لكن ذلك كان مبالغاً به أيضاً.

كـل هـذه الفرضـيات المتشـكلة صـدفة حـول الإثـارة البـاردة لـذلك الحدث، كانت ستُستبعد بصدمة التصـرف الجديـد الوحشـية، الأكثـر إثارة من الأول بضعفين أو ثلاثة أضـعاف — ظهـور رغيـف خبـز طولـه عشرون متراً في قاعة قصر فرساي. لقد أصبح وجود مجتمـع سـرّي الآن فاضحاً بعيون الجميع، ومن هذه الحكاية المدهشة لأول ظهـور للخبـز، فإن الناس، تماماً في اللحظة التي بدؤوا فيها بنسيان الأمر، علقوا فجأة في مغزى هذا الظهور الثاني المثير. وعلى مائـدة الإفطـار، كانـت عيـون القراء النهمة منجذبة حتماً للبحث عن الخطوط العريضة والصـور الـتي

تعلن ظهور الرغيف الثالث الذي، تم الإحساس، بأنه ظهر منذ زمن، بحيث أن أرغفة الخبز الدالية هذه كانت سلفاً بداية "لأكل" أخبار أخرى عن أحداث العالم السياسية والجنس، ليجعلها بلا طعم، ويقلل من قيمتها إلى الدرجة الثانية من الاهتمام.

لكن بدلاً من رغيف الخبز الثالث المتوقع، وقع حدث آخر تجاوز كل حدود المعقول. وفي اليوم ذاته، والساعة ذاتها، ظهر رغيف خبز طوله ثلاثون متراً في أماكن عامة مختلفة من العواصم الأوروبية. وفي اليوم التالي، تم الإعلان من أمريكا عن ظهور رغيف خبز فرنسي بطول خمسة وأربعون متراً، تم وضعه على الرصيف ويصل من "Savoy-Plaza" إلى نهاية المبنى حيث يقف فندق "مورتيز". إن كان تصرّف كهذا تم استكماله بنجاح وباهتمام دقيق وبأدق التفاصيل التي خططت لها، فلا يستطيع أحد أن يتسائل عن فعّالية هذا التصرف الذي كان قادراً بحد ذاته على خلق حالة من التشوش والذعر، ومن الهستيريا الجمعية المثقفة بإفراط من وجهة نظر تجريبية، وقادرة على أن تصبح نقطة الرحيل التي يمكن للمرء منها، وفقاً لمبادئي الملكية الهرمية الخيالية، أن يحاول بالتالي أن يخرب بشكل ممنهج المعنى المنطقي لآليات العالم العملي العقلاني كلها.

لقد تم استيعاب أهمية هذا المخطط الوحشي بالسلاسة التي نشرب بها الشامبانيا، وتلك النساء المتغطرسات، الأكثر أناقة في أوروبا في تلك الفترة، جعلن من مصطلحاتي مصطلحات لهن — "عزيزي، لدي رغبة كبيرة بتشويهك بقماءة"، "ليومين متتاليين، لم أكن قادرا على تحديد رغبتي الجنسية"، "كيف كانت حفلة سترافنسكي الموسيقية؟" "كانت جميلة — كانت لزجة! كانت مذلّة!" كانت "صالحة للأكل" أو لم تكن. كمثال، كانت لوحات "براك" متسامية بكل بساطة"! إلخ. هذه العبارات الكاتالونية المندفعة الفجة التي كانت غريبة عني والتي كان

الناس يقتبسونها عني بطرافة، كانت مناسبة جداً بتأثيرها، وقد انتشرت بالعدوى لتملأ الفراغ بين فتات "نميمة المجتمع الحقيقي".

لكن تحت هذا التكبّر المؤكد لتلك الإناث المذهولات، فقد أطبقت "كماشة" غموضي على نهودهنّ المرتديات بشكل مثير، والتي كان سرطان عقلي ينمو بصمت بينها. وكنّ يسألنني: "لكن انظر هنا يا دالي، هل كل ذلك حول الخبز؟" وعندئذٍ أتظاهر بالتفكير. "إنه شيء عليك أن تسألي عنه المنهج النقدي الارتيابي يا عزيزتي". وطلب بعضهن مني أن أفسر لهن عبارة "المنهج النقدي الارتيابي" وقد قرأن مقالاتي التي بدأت تفسر كل هذا بشكل محكم. لكنني اعترفت أنني أنا نفسي في تلك الفترة لم أكن أعرف تماماً ما هو هذا "المنهج النقدي الارتيابي" الذي اخترعته. لقد "تخطاني" ومثل كل الأشياء الهامة التي "اقترفتها" لم أبدأ بفهمه إلا بعد أن وضعت أساساته ببضع سنوات.

وكان الناس يسألونني باستمرار: "ما الذي يعنيه هذا؟ وما الذي يعنيه ذاك؟"

وفي أحد الأيام قمت بتجويف رغيف خبز فرنسي، فماذا تعتقد أنني وضعت فيه؟ لقد وضعت فيه تمثالاً برونزياً لبوذا كنت قد غطيت سطحه المعدني بالكامل ببراغيث ميتة عملت على تثبيتها الواحد تلو الآخر بطريقة بدا معها وكأنه مصنوع من البراغيث. ما الذي يعنيه ذلك؟ وبعد أن وضعت التمثال في قطعة الخبز، أغلقت الفتحة بقطعة خشب وثبتها كلها بما فيها رغيف الخبز، وأغلقتها بإحكام بحيث أصبح أشبه بجرّة صغيرة كتبت عليها "مربّى الخيل[1]". ما الذي يعنيه ذلك؟

وفي أحد الأيام استلمت هدية من صديق رائع جداً هو مصمم الديكور "جون ميشيل فرانك" وكانت عبارة عن كرسيين من نموذج 1900 الصافي. وأجريت بعض التعديلات على إحداها، إذ بدّلت جلد مقعدها

---

[1] كان "رينيه ماغريت" هو من اقترح هذا الاسم.

بجلد آخر مصنوع من الشوكولا، وأحضرت مقبض باب ذهبي يعود إلى فترة لويس السادس عشر، ووضعته تحت إحدى قوائمها بحيث أصبحت أطول بشكل واضح، وتميل إلى الجهة اليمنى مظهرة توازناً غير مستقرّ مدروس بعناية بحيث لا يحتاج الأمر إلا إلى مشية متثاقلة أو طرق على الباب كي ينقلب الكرسي. وكانت إحدى القوائم تسترخي دوماً في كوب بيرة، وكان ينسكب في كل مرة ينقلب فيها الكرسي. وأطلقت على هذا الكرسي المخيف غير المريح الذي أنتج عدم ارتياح عميق لدى كل شخص شاهده، اسم "الكرسي الجوّي". ما الذي يعنيه ذلك؟

لقد كنت مصمماً على تنفيذ شعاري "العنصر السريالي" وتحويله إلى واقع – العنصر اللامنطقي، العنصر ذي الوظيفة الرمزية – الذي أسسته ضد الأحلام التي تروى، والكتابة الآلية، إلخ.... وحتى أصل إلى هذه النتيجة قررت أن أصنع أزياء من العناصر السريالية. إن العنصر السريالي هو العنصر غير المفيد من وجهة النظر المنطقية والعملية، وهو مصنوع بالكامل بهدف التجسيد بطريقة هوسية، وبأقصى درجات الواقعية الملموسة، أفكار وأخيولات لها سمات هوسية. إن وجود هذا النوع من العناصر المجنونة ودورانه، بدأ يتنافس بعنف مع العنصر العملي المفيد لدرجة يعتقد المرء أنه يشاهد صراعاً دورياً دموياً لديوك مسعورة، انبثق منها بشكل تدريجي واقع العنصر الطبيعي، مع ريشه الجيد الكثير المنتوف بوحشية. وسرعان ما أصبحت شقق باريس السكنية التي كانت مكرّسة للسريالية، تعجّ بفوضى هذا النوع من العناصر المقلقة من أول نظرة عليها، لكن بفضلها لم يعد الناس مقيدين بالحديث عن رهابهم وهوسهم وشعورهم ورغبتهم، بل أصبح بإمكانهم الآن أن يلمسوا تلك الأشياء ويتلاعبوا بها ويشغّلونا بأيديهم. ومع تذكّر أن المنظر الطبيعي هو **"حالة الروح"** كان الناس قادرين على ضرب الجسد العاري لحقيقة الجوهر الكاثوليكي الذي انبثق من بئري – إن العنصر هو **"حالة بركة"**.

إن موضة العناصر السريالية[1] قد فقدت مصداقيتها ودفنت الشيء الذي سبقها، وهو فترة تذكر "الأحلام". لا يظهر الآن شيء ممل وقد عفا عليه الزمن أكثر من رواية الإنسان لأحلامه أو كتابة حكايات خيالية رائعة متناقضة من خلال الإملاء التلقائي للاوعي. لقد خلق العنصر السريالي حاجة جديدة للواقع. لم يعد الناس يريدون سماع المزيد من الكلام عن "الإمكانيات الرائعة". إنهم يريدون أن يلامسوا "الروعة" بأيديهم ويروها بأعينهم، ويشاهدوا الدليل عليها في الواقع. إن الشخصيات الحية والمقطوعة الرأس، المتشكلة بأكثر التجاورات الحيوانية والنباتية تنوعاً، والتضاريس السحيقة المريخية للوعي الباطن، والأحشاء الطائرة التي تعذب "عشاريات الوجوه" باللهب، ظهرت في ذلك الوقت نمطية بشكل غير محمول وشاعرية بشكل مترف وعفا عليه الزمن. إن سرياليي وسط أوروبا واليابانيين والمتأخرين عن كل الأمم أمسكوا بهذه الصيغ الوجهية التي لم تُرَ كي يُدهشوا مواطنيهم. لقد أصبح من الممكن لهذا النوع من الفانتازيا، مترافقاً مع إحساس معين بالموضة، أن يصبح أيضاً حقلاً غنياً للديكورات المؤثرة للمحلات التي تتطور مع الزمن وتعرف عملها.

ومع العنصر السريالي، قتلت الرسم السريالي الأولي، وقتلت الرسم الحديث بشكل عام. لقد قال "جان ميرو": "أريد اغتيال الرسم!" وقد اغتاله – بمهارة وتحريض ماكر مني، وكنت أنا من منحه هذه الضربة المميتة مثبتاً سيف مصارعٍ الثيران خاصتي بين كتفيه. لكنني لا أظن أن "ميرو" كان يعرف تماماً أن الرسم الذي كنا سنغتاله معاً كان "الرسم الحديث". لأنني شاهدت مؤخراً اللوحة الأقدم في افتتاحٍ مجموعة "ميلون"، وأنا أؤكد لكم أنه لا تبدو إطلاقاً أنها تدرك أن شيئاً سيئاً قد حدث لها.

---

[1] كان أحد أهم العناصر السريالية مثالية هو كوب مع صحن وملعقة مصنوع من الفرو تخيّله "ميريت أوبنهايم" وهو موجود الآن في "متحف مدريد للفنون" في نيويورك.

وفي ذروة السعار المحموم حول العناصر السريالية، رسمت بعض اللوحات الواضحة العادية التي ألهمني بها اللغز الدقيق الجامد للقطات معينة، أضفتُ إليها اللمسة "ميسونيير" الدالية. وشعرت أن الجمهور الذي بدأ يضجر من العبادة المستمرة للغرابة، قد ابتلع الطعم على الفور. وقلت في نفسي موجهاً الكلام إلى الجمهور، "سوف أعطيكم هذا، سأمنحكم الواقع والكلاسيكية. انتظروا، انتظروا قليلا ولا تخافوا".

شارفت الفترة الجديدة في باريس على نهايتها. وكان لدينا المال الكافي لنمضي شهرين ونصف في كاداكيس، وكنا على استعداد للمغادرة قريباً. لقد أصبحت سمعتي في باريس أكثر صلابة بشكل ملحوظ. وأصبحت السريالية تؤخذ بعين الاعتبار، كسريالية ما قبل دالي، وسريالية ما بعده. وكان الناس يرون ويحكمون وفقاً لمعايير دالي وحسب. وكانت جميع الأشكال تعرض سمات فترة 1900 – الزخرفة الناعمة الطرية، ومنحوتات "برنيني" المليئة بالنشوة، التعفن الدبق والبيولوجي – كان دالياً. وعنصر القرون الوسطى الغريب غير المعروف من حيث الاستخدام، كان دالياً، والنظرة المضنية الغريبة التي تم اكتشافها في لوحة رسمها "لو ناين"، كانت داليّة. فيلم "مستحيل" مع عازفين على القيثار وقادة أوركسترا، وأشخاص زُناة – كانت أشياء لا بدّ لها أن تُرضي دالي.

وفي إحدى المرات صادف وجود مجموعة أصدقاء يتناولون عشاءهم في مطعم صغير في "Place des Victoires". ولم يكن أحد منهم يفكر بشيء محدد. وفجأة وضع النادل رغيف خبز فرنسي في وسط الطاولة، وصرخ الجميع بدهشة "إنه يشبه دالي!" إن الخبز الباريسي لم يعد خبزا باريسيا. لقد كان خبزي، خبز دالي، خبز سيلفادور. لقد بدأ الخبازون يشبهونني فعلاً!

إن كان سرّ تأثيري قد بقي على الدوام سرّاً، فإن سرّ تأثير غالا قد بقي بدوره سرّاً مضاعفاً. كان لدي سرّ أن أبقى سرّاً. وكان لغالا سرّ أن

تبقى سرّاً داخل سرّي. وغالباً ما يعتقد الناس أنهم اكتشفوا سرّي، لكن هذا كان مستحيلاً، لأنه لم يكن سرّي بل سرّ غالا. لقد شكّل سرّ غالا وسرّي كفتي ميزان عدالتنا المتوازنتين، لكن غالا كانت تشكّل مؤشر هذا الميزان بوقفتها المنتصبة المنحوتة من الذهب. لقد كانت تحمل سيفاً تستخدمه كمؤشر. وكان الناس يخشون أن يُشار إليهم بهذا السيف. وفي كثير من الأحيان كان ظلم غياب ثقل المال يجعل إحدى كفتي الميزان تبرز بشكل ملحوظ، وتهدد بإراقة نطاف الفلسفة الدالية الذي يملأ الكفة الأخرى إلى حافتها. وعندئذٍ يشير السيف الذهبي الخاص بميزان غالا دون مواربة إلى الشخص الذي خدعنا من خلال الجشع. ولا يحتاج هذا الشخص لانتظار أية إشارة من عدائيتنا — لقد شعر بنفسه بما يكفي من الإهانة.

إن افتقارنا للمال كان سرّاً آخر من أسرارنا أنا وغالا. لم يكن لدينا أي شيء. وكنا نعيش بشكل مستمر بين الأغنياء، وكنا قلقين دوماً بشأن المال. لكننا عرفنا أن قوتنا ستساعد على إبعاد هذه المشكلة عن الآخرين ولن تظهر للخارج، لأن شفقة الجيران قاتلة. وتقول غالا، تكمن القوة في إثارة العار وليس الشفقة. كان من الممكن أن نموت من الجوع دون أن يتمكن أي شخص من معرفة ذلك، لقد اعتبرنا أنه من قبيل "احترام الذات" أن لا نجعل مشكاكلنا المالية تخرج إلى العلن.

إن "احترام الذات" الإسباني هذا يتضح من خلال حكاية الفارس الإسباني الذي لم يكن لديه شيء يأكله. وعندما حان موعد الغداء ذهب إلى بيته وجلس أما طاولته الفارغة حتى من االخبز والنبيذ. ثم أخذ ينتظر وينتظر حتى يفرغ الآخرون من طعامهم. وقد كانت الساحة التي تظهر حولها جميع المنازل خاوية تجعل المرء يشعر بالنعاس تحت أشعة الشمس الحارقة. وعندما يرى أن اللحظة قد حانت، ينهض الفارس الذي لم يتناول أي طعام، ويضع عود تنظيف الأسنان في فمه، ويعبر الساحة

بغرور، وبشكل يراه الجميع وهو ينظّف أسنانه. لقد كان من المفترض أن يبقوا على ظنّهم بأنه تناول طعامه، ويبقوا بالتالي خائفين منه!

وعندما يتضاءل المال الذي لدينا، يكون أول تدبير احترازي نتخذه هو أن ندفع أكبر إكرامية أينما ذهبنا — ولم نخضع للاعتدال في هذا قيد أنملة.

وكنا نتماشى مع الأشياء لكننا لم نسلّم أنفسنا للأشياء أو نؤقلم أنفسنا معها. وكان بإمكاننا أن نمضي من دون طعام إن دعت الحاجة لذلك، لكننا لم نرغب أبداً بأن نتناول طعاماً سيئاً.

ومنذ وجودنا في "ملاجا" أصبحت تلميذ غالا. لقد كشفت لي مبدأ المتعة. وعلّمتني أيضاً معنى مبدأ الواقعية في كلِ شيء. علّمتني كيف أرتدي ملابسي وأنزل الدرج دون أن أسقط ستاً وثلاثين مرة، وكيف أحفظ النقود التي لدينا، وكيف أتناول الدجاجِ دون أن أقذف العظام إلى الأعلى، وكيف أرى أعدائي. كما علّمتني أيضاً "مبدأ النسبة" الذي ينام في إدراكي. لقد كانت ملاك توازني ونذير كلاسيكيتي. وبعيداً عن أنني أصبحت مسلوب الشخصية، تخلصت من أعراض الاستبداد المغبرّ العقيم المرهق، ومن التشنج، التشنج، التشنج. وشعرت بأنني أسيطر على تصرفاتي العنيفة الجديدة التي أصبحت مدركاً لها أكثر فأكثر. وإن كانت عظام دجاجة انحرافاتي مستمرّة بالطيران نحو سقف مضيفاتي "الأمفيترونيات"، فهي لن ترتفع إلى هناك من تلقاء نفسها ولا من دون معرفة السبب. بل على العكس، سأكون أنا من قذفتها إلى هناك برمية واحدة من يدي. وبدلاً من العمل على تقسيتي كما تفعل الحياة دوماً، فإن غالا، ومن خلال لعاب تفانيها المتعصّب الذي يسبب التصلّب، نجحت ببناء صَدَفة لي لحماية العري الواهن "لبرنارد هيرميت" الذي كنت عليه، وذلك لأنني اتخذت هيئة القلعة في علاقة مع العالم الخارجي، واستطعت بداخلي أن أتابع طريقي نحو

الشيخوخة بطراوة وليونة. وفي اليوم الذي قررت فيه رسم الساعات، رسمتها ساعات رخوة.

لقد كان الوقت مساءً عندما شعرت بصداع خفيف وإرهاق كان من النادر أن يحدث معي. وكنا نستعد لحضور فيلم مع بعض الأصدقاء، لكنني قررت في اللحظة الأخيرة ألا أذهب. سوف تذهب غالا معهم وسأبقى في البيت وأخلد للنوم باكراً. وعندما غادرت غالا، كنّا قد أنهينا للتو وجبتنا من جبنة "كاميمبرت" القوية النكهة، وبقيت وحدي لوقت طويل أجلس إلى الطاولة وأتأمل بإشكالات "الليونة الخارقة" الفلسفية التي أتت بها هذه الوجبة إلى عقلي. وبعدها، دخلت مرسمي وأضأت المصباح كي ألقي النظرة الأخيرة الاعتيادية على اللوحة التي كنت أعمل عليها. كانت اللوحة عبارة عن منظر طبيعي قريب من "بورت ليغات" حيث الصخور مضاءة بالشفق الكئيب الشفاف. وفي مقدمة هذا المنظر شجرة زيتون منزوعة الأوراق مقطوعة الأغصان. وعرفت أن المناخ الذي نجحت في خلقه في هذا المشهد كان أساساً لفكرة ما، أساساً لصورة استثنائية، لكنني لم أكن أعرف ما الذي ستكون عليه هذه الفكرة. وكنت أوشك أن أطفئ الضوء عندما "رأيت" الحل فوراً. لقد رأيت ساعتين رخوتين، إحداهما معلقة بشكل حزين على غصن شجرة الزيتون. وعلى الرغم من حقيقة ازدياد صداعي إلى حد الألم، فقد حضّرت ألواني وأصبحت على استعداد للعمل. وعندما عادت غالا من السينما بعد ساعتين، كانت اللوحة التي أصبحت إحدى أشهر لوحاتي، قد انتهت. وطلبتُ منها أن تجلس أمام اللوحة وعيناها مغلقتان: "واحد، اثنان، ثلاثة، افتحي عينيك!" ونظرت بكثافة إلى وجه غالا ورأيت ملامح الدهشة والذهول الواضحة. وهذا ما أقنعني بتأثير لوحتي الجديدة، لأن غالا لم تخطئ الحكم على أصالة هذا الغموض. وسألتها: "هل تظنين أنك ستنسين هذه اللوحة خلال ثلاث سنوات؟"

"لا يمكن لشخص ما أن ينساها بعد أن يشاهدها".

"إذاً دعينا نخلد للنوم. أنا أعاني من الصداع، وسوف أتناول الأسبرين. ما الفيلم الذي شاهدته؟ هل كان جيداً؟"

"لا أعرف... لا أستطيع أن أتذكر أي شيء عنه!"

وفي ذلك الصباح استلمت رسالة من صالة السينما، تتضمن رفضاً لسيناريو قصير عن فيلم كنت قد عملت عليه بمشقة، وكان ذلك الخلاصة المكنة الأكثر عمقاً عن أفكاري كلها. وبإلقاء نظرة خاطفة على المحتوى السلبي للرسالة لم يعد لدي الجرأة على أن أقرأ أسباب هذا الرفض بالتفصيل، لكن المزاج السيئ الذي تسبب به صداعي، والرضا الذي حصلت عليه من إنهاء لوحتي بالطريقة التي كنت أتأمل بها، جعلاني في حالة من القلق الشديد دفعتني إلى أن أعيد قراءة الرسالة بعناية بعد أن استلقيت في السرير. ومع اعتراف كاتب الرسالة بأن أفكاري في السيناريو كانت مثيرة للاهتمام – مثيرة جداً للاهتمام – فقد أوضح بشكل مفصّل أن الفيلم الموجود في عقلي لا يشكّل اهتماماً "عاماً" وأنه من المستحيل تسويقه لأن الجمهور لا يرغب بأن يحصل على عاداته من خلال الهزّ العنيف، وأن صوري كانت غريبة جداً بحيث لا يستطيع أي شخص تذكّرها بعد أن يراها!

وبعد أيام، اشترى طائر من أمريكا لوحتي عن "الساعات الرخوة" التي كنت قد عمّدتها باسم "The Persistence of Memory – ثبات الذاكرة". وكان لهذا الطائر جناحان أسودان كالأجنحة التي كانت للملائكة "إل غريغو" التي لا يستطيع المرء أن يراها، وكان يرتدي زيّ بطة بيضاء وقبعة "باناما" مرئية بوضوح. لقد كان "جوليان ليفي" هو الشخص الذي جعل فني معروفاً في الولايات المتحدة فيما بعد. واعترف لي أنه اعتبر عملي خارقاً جداً، لكنه قد اشترى اللوحة ليستخدمها من أجل "الدعاية"، وليعرضها في منزله الخاص، لأنه

اعتبرها غير شعبية و"ليست للبيع". ومع ذلك فقد بيعت وبيعت حتى تم تعليقها أخيراً على جدران متحف مدريد للفنون، وكانت من دون شك، أكثر "اللوحات الشعبية" نجاحاً. وقد رأيتها تُنسخُ عدة مرات في الولايات من خلال رسامين هواة، من صور لها بالأبيض والأسود — وبالتالي مع الألوان الأكثر خيالية. كما تم استخدامها لجذب الانتباه في واجهات متاجر المفروشات والخضروات!

ولاحقاً، كنت أحضر بالصدفة تصوير فيلم كوميدي يُرثى له، وكانوا قد استخدموا في هذا الفيلم، ودون استشارتي، معظم أفكاري التي تم رفضها. وقد كان فيلماً أحمق مصنوعاً بشكل سيئ جداً، وبلا معنى إطلاقاً — كان كارثة. وفكرت: "تُصنع الأفكار ليتم التفريط بها، لكن الانتهازين دوماً هم من يتذمرون منها! لأنها غالباً ما تنفجر في أيديهم حتى قبل 'ظهورها الأول'. وحين يأتون أخيراً ويطلبون مني أن أوضّح المشهد المتكامل بنفسي، أستطيع أن أعتمد على هيبة الأبطال الذين ماتوا من أجلي، وأرادوا في الحقيقة تجويعي حتى الموت". ومثل امرأة النموذج الحديث على غلاف قاموس "Petit Larousse" الفرنسي، أستطيع أن أقول بينما أنثر بذور الهندباء لأفكاري الخطيرة: "زرعت في كل اتجاهات الرياح" لكن سخائي كان سخاء الجراثيم الخبيثة. لن يقلّد أحد سيلفادور دالي ويفلت من العقاب، لأن من يحاول أن يكون دالي، يموت!

على الرغم من أنني كنت أُخدع، وأُسرق، وتُعزى أفكاري إلى الآخرين، فقد كانت سمعتي تسمو بثبات وكان تأثيري ينتشر بينما بقيت حالتي المادية محفوفة بالمخاطر. وبعد الكثير من الجهد، قررنا أنا وغالا العودة إلى "بورت ليغات" مع ما يكفي من المال لنمضي شهرين ونصف ثم العودة إلى باريس، مع ما يكفينا للأسبوعين الباقيين لنا هنا. ومنذ أن تمت معاقبتي من بيت العائلة، لم أتلقَّ سوى الاضطهاد من عائلتي. لقد أراد والدي أن يجعل إقامتي في "بورت

ليغات" مستحيلة لأنه اعتبر أن قربي عبارة عن عار. ومن حينها وازنت على رأسي تفاحة "ويليام تيل" التي كانت رمز ازدواجية التعاطف الوحشي الذي ينتهي عاجلاً أم آجلا بجذب الغضب الرجعي الطقسي، بقوس الانتقام من الأب الذي يطلق سهم التضحية التكفيري الأخير – الفكرة الأبدية لتضحية الأب بابنه: زُحل يلتهم أبناءه بفكيه، الله الآب يضحي بابنه يسوع المسيح. تضحية ابراهيم بابنه إسحاق، "غوزمان إيل بوينو" يغرس خنجره بصدر ابنه، وكذلك "وليام تيل" يوجه سهمه إلى التفاحة الموجودة على رأس ابنه.

وما إن استقرّ بنا الحال في "بورت ليغات" حتى رسمت لوحة جانبية لغالا مع زوج من شرائح اللحم النّيء تتوازن على كتفيها. ومعنى ذلك كما عرفت لاحقاً، كان أنه بدلاً من "أكلها" قررت أن آكل شريحتي اللحم. وكان اللحم الضحية التكفيرية عن التضحية الفاشلة – مثل كبش ابراهيم، وتفاحة "وليام تيل". الكبش والتفاحة، مثل ابن زُحل، ويسوع المسيح على الصليب، كانا "أشبه بشيء نيءٍ" – كان ذلك الشرط الرئيس للتضحية بلحم البشر[1]. وبالمزاج نفسه، رسمت لوحة لنفسي كطفل في الثامنة من العمر، مع شريحة لحم نيء على رأسي. وكنت أحاول بهذا أن أغوي والدي رمزياً بأن يأتي ويأكل هذه الشريحة بدلاً من أن يأكلني. لقد اتخذت صلاحيتي للأكل، واستحضاراتي المعوية في تلك الفترة سمة الإصرار المتزايد. وقد أردت أن أتناول كل شيء، وخططت لبناء طاولة ضخمة مصنوعة بالكامل من البيض المسلوق لدرجة كبيرة بحيث يصبح غير قابل اللأكل. لقد كانت تلك الطاولة مجدية تماماً حيث أرفقت معها "طريقة تنفيذها" لأي شخص يريد القيام بتجربة صناعتها. وكان أول ما يجب القيام به هو

---

[1] تحدث فرويد عن التضحية الصحراوية للشخصية الطوطمية التي تقوم فيها القبيلة بأكملها بالتهام جمل نيء لا يبقى منه سوى العظام عند شروق الشمس.

صناعة قالب للطاولة من مادة " السيلولويد"، ويفضّل أن يكون قالباً لطاولة "لويس السادس عشر"، ويجب على المرء أن يصنع هذا القالب كما لو أنه يصنع "سبيكة". وبدلاً من سكب الجصّ في القالب كما هي العادة، يسكب المرء كمية كافية من بياض البيض، ثم يغمر الكتلة كلها في الماء الساخن، وعندما يقترب البياض من حالة التصلّب، يضع المرء صفار البيض في هذا الخليط عبر أنبوب. وعندما يتصلب المزيج كله، يُكسر القالب الخارجي، ويُستبدل بطلاء من مسحوق قشر البيض الممزوج مع مادة راتنجية أو لاصقة. وأخيراً، يجب أن يُصقل السطح بحجر الخفاف حتى يكتسب ملمسة قشرة البيضة. وبالطريقة ذاتها يمكن للمرء أن يصنع تمثالاً بالحجم الطبيعي لـ "فينوس" الذي نحته "ميلو"، ويكون مصنوعاً بالكامل من البيض. ويمكن حينها أن تستطيع كسر قشرة بيضة "فينوس" وسوف تجد بداخله بياض بيض مقسى مصنوع بالفعل من البيض. وإن حفرت أعمق فسوف تجد صفار البيض المقسى، مصنوع بالفعل من صفار البيض[1]. تخيل العطش المبهج التي تستطيع أن تُنتجه "فينوس" المصنوعة من البيض المسلوق القاسي جداً في ضحيّة انحراف "الإبقاء على العطش"، عندما يغمس هذا المنحرف، بعد نهار صيفيٍ طويل من الانتظار، ملعقة فضية زرقاء في أحد نهدي فينوس، معرّضاً صفار البيض المصنوعة منه إلى ضوء الشمس المائلة نحو الغرب، والتي بهذه الطريقة تجعله أصفر محمراً وبحالة عطش شديد!

لقد شعرتٍ بالعطش الشديد في ذلك الصيف. وأعتقد أن الكحول الذي كنت مجبراً على ابتلاعه في باريس كي أتغلّب على نوبات خجلي، كان له دور في الهيجان الحسي الذي أصاب معدتي، وشعرتُ بعطش عربي يصعد من الأعماق الحشوية لسلفيتي الشمال أفريقية، العطش الذي جاء

---

[1] ديلا بورتا، نابوليّ من أصل كاتالوني، عاش في القرن الثالث عشر، أعطى في كتابه "السحر الطبيعي" طريقة لصناعة بيضة بالحجم الذي يرغب به الإنسان.

على حصان أسود ليمدّن إسبانيا ويخلق ظلالاً وينابيع مياه. وعندما أغمضت عيني لأسمع ما يحدث بداخلي، كان الأمر كما لو أنه في صحراء بشرتي المتقدة، شعرتُ بدمدمات قصر الحمراء في غرناطة تطنّ في مركز فناء معدتي المظلل بأشجار السرو، المطلي بكلس الأدوية وفلزاتها، والتي علي أن أطلي جدرانها وأقسامها بها[1].

لكن بما أنني كنت أشعر بالعطش كعربي، فقد شعرت أيضاً بالولع بالقتال مثله. في إحدى أمسيات أول الخريف، غادرت أنا وغالا إلى برشلونة. وكنت قد دُعيت لألقي محاضرة، وقررت تجريب مواهبي الخطابية وألمس مقدرتي على إثارة الجمهور مرة واحدة وإلى الأبد. وكانت المحاضرة في النادي الثقافي الذي كان أكثر المراكز الثقافية إثارة للإعجاب في المدينة، وقررت الهجوم بأقصى درجات العنف على مثقفي الوطن الأصليين الذي كانوا ينمون في تلك الفترة كنوع من البرجوازية الصغيرة الوطنية المحلية غير المحدودة. وصلت متأخراً عمداً لأكثر من نصف ساعة، ووجدت نفسي على الفور في مواجهة جمهور في ذروة الإثارة بسبب الانتظار والفضول، وعلى أهبة الاستعداد تماماً.

ودخلت على الفور في موضوع محاضرتي مع اعتذار قصير مؤثّر من "الماركيز دي ساد" الذي رفعته بالتناقض مع العار الفكري المهين لـ "'Angel Guimera"[2]، الذي مات قبل سنوات، والذي كان الأكثر تبجيلاً واحتراماً للأدباء الكاتالونيين الوطنيين. وبالوصول إلى إحدى النقاط الحدية في خطابي قلت بنبرة دراماتيكية: "هذا الشاذ جنسياً، هذا القذر كثيف الشعر، 'Angel Guimera ......" وفي اللحظة التي أنهيت فيها

---

[1] كنت في ذلك الوقت أتناول دواء، وكان هذا الدواء معداً بحسب الطبيب الذي وصفه كي يطلي جدران معدتي.

[2] كان "Angel Guimera" (ودون أن يكون لي علم بذلك) تحديداً مؤسس التجمّع الذي أتحدث تحت رعايته. وهذا ضخّم الفضيحة إلى حد أنه كان على رئيس التجمّع أن يقدم استقالته في اليوم التالي. 341

هذه الكلمة، انتهت المحاضرة. وأُصيب الحضور بنوبة هستريا فظيعة، وألقوا الكراسي عليّ، وكنت سأتلقى ضرباً مبرحاً لو لم يأتِ الحراس لحمايتي من جنون هذا الحشد. لقد أحاط بي الحراس وأخرجوني إلى الشارع ووضعوني في سيارة أجرة وقال أحدهم: "أنت شجاع جداً". وأعتقد أنني قد تصرّفت في هذه المرة بهدوء تام، لكن الشجاعة الحقيقية كانت من الحراس الذين تلقوا بعض الضربات التي كانت موجّهة إلي.

وكان لهذه الحادثة تداعيات كبيرة. وبعدها بفترة قصيرة، تلقيت دعوة أخرى لألقي محاضرة أخرى امام المجموعة الثورية التي تميل بمعظمها "للفوضويين". وقال رئيسهم: "تستطيع في اجتماعنا هذا أن تقول لي أي شيء ترغب به — وكلما كان أكثر قوة كان أفضل". ووافقت على ذلك، وطلبت من المنظّمين أن يحضروا لي رغيف خبز فرنسي من أطول قياس ممكن، وأشرطة لربطه بها. وفي المساء الذي ستعقد فيه المحاضرة، وصلت قبل عشر دقائق لأعطي التعليمات حول ما كنت قد طلبته. وفي مكتب صغير مجاور لصالة المحاضرات، كان هناك رغيف خبز فرنسي كبير على طاولة المكتب، ومعه بعض الأشرطة الجلدية. وسألوني إن كان هذا ما أردته. "إنه ممتاز، والآن اصغوا إلي جيداً. في لحظة محددة من محاضرتي، سوف أومئ بيدي وأقول: "أحضروه!" وعندئذٍ، يجب على اثنين منكم أن يصعدوا إلى المنصة بينما أنا أتحدث ويثبتوا الرغيف على رأسي بهذه الأشرطة التي يجب أن تمرّ من تحت كل من ذراعيّ. وتأكدوا من أن يكون الرغيف أفقياً تماماً. يجب أن تتم هذهِ العملية بالجدية القصوى، حتى مع لمسة من الشرّ".

كنت قد ارتديت ملابس أنيقة بشكل استفزازي، وكان استقبالي عاصفاً عندما ظهرت أمام الجمهور. ومع ذلك، فقد تلاشى الصفير وصيحات السخرية بسبب التصفيق "المنظّم" وصوت آخر يقول: ، "دعه يتحدث أولاً!"

وتحدثت. ولم أقدّم هذه المرة اعتذار عاطفياً للماركيز دي ساد الذي تحدثت عنه هذه المرة، بل كانت خطبة من النمط الشعري اللاعقلاني التي تضمنت الكثير من عبارات الفحش الجلفة. ولم يكن أي شخص قد سمع مُسبقاً بعبارات فاحشة بهذا الشكل، كما أوصلتها بطريقة حقيقية عملية ضاعفت من شخصيته الإباحية بشكل يدعو إلى القلق. وسيطر على الحضور حالة من عدم الارتياح لأنهم كانوا من فئة الفوضويين الإنسانيين العاطفيين، وقد أحضر معظمهم زوجاتهم وبناتهم – لقد قالوا في أنفسهم: لقد أتينا الآن لنسلي أنفسنا بالاستماع إلى دالي غريب الأطوار، ذلك الودود الإيديولوجي البرجوازي الصغير الذي سمعنا الكثير عن موهبته في جعل البرجوازية نفسها تعوي.

وفجأة قاطعني بصوت عال فوضوي نحيل حاد النظرة ووسيم "كالقديس جيروم، وذكّرني بأننا لسنا في "مبغى" وبأن هناك النساء وأفراد العائلات جميعهم بين الحضور. أجبته بأن مركز الفوضويين ليس كنيسة أيضاً. وأضفت قائلاً أن زوجتي هي أكثر شخص أبجّله في هذا العالم، وهي تستمع إليّ الآن، ولهذا فليس هناك من سبب يمنع بقية الزوجات من الإصغاء الجيد لحديثي. لقد أعادت إجابتي هذه ترسيخ سلطي للحظة، لكن سلسلة البذاءات الجديدة التي تعززت بنموذج خاص من الواقعية هذه المرة، والتي كانت تجديفية أيضاً، جعلت الصالة تزأر كأسد، ولم أستطع أن أفهم أكان الزئير دليل فرح أم دليل غضب.

وتم الحكم علي في تلك اللحظة بأنني ناضج نفسياً، وبحركة نافدة الصبر بيدي، أعطيت الإشارة الخاصة برغيف الخبز. وتحوّلت الأعين كلها وفقاً لإشارة يدي، "كي يجلبوا الخبز لي". وتحولت الأعين كلها بالاتجاه الذي أشرت إليه بيدي، وتجاوزت المفاجأة التي حصلت بظهور شخصين يحملان رغيف الخبز كل ما أملت به. وبينما بدأ العمل على تثبيت الرغيف على رأسي، ازداد الشغب ملوّحاً بالأعراض

الأولى لمشاجرة عامة. وعندما انتهى العمل على الخبز، شعرت بنفسي فجأة مصاباً بحالة من الهستريا العامة، وبدأت بكل ما لدي من طاقة بقراءة قصيدي المشهورة "الحمار المتعفن". وفي هذه اللحظة تماماً أُصيب طبيب فوضوي بنوبة جنون حقيقية، وكان ذا وجه أحمر ولحية عريضة جعلته يبدو أمام العالم كله كالرمز "البوكليني". وعلمت لاحقاً أن هذا الطبيب كان كحولياً وكان يُصاب بنوبات جنون متكررة على الرغم من أنها لم تصل يوماً إلى المستوى الذي وقع الآن. لقد تعب الجميع من محاولاتهم الفاشلة للسيطرة عليه، وقد استطاع أحدهم أن يُمسك ساقيه بينما أمسك آخرون رأسه وذراعيه، لكن من دون أي فائدة تذكر. لقد تدبّر أمره مع حالة التشنج العنيفة التي لديه بأن يحرر إحدى ساقيه ويرفس مجموعة الفوضويين السود المتعرقين الذين يكافحون من أجل تثبيته. وبعد هذه الخطبة الفاحشة العصماء التي كانت لا تزال تزعج آذان الجميع، وظهور رغيف الخبز على رأسي، ونوبة جنون هذا الطبيب، انتهت الأمسية باضطراب عامٍ لا يمكن تخيّله.

وكان منظمو الاجتماعٍ سعداء جداً. وقالوا لي: "لقد شحطت قليلاً فقط، لكن ذلك كان جيداً".

وتمٍ فضّ الاجتماع وغادر الحاضرون. وفجأة اقترب مني رجل بدا متوازناً بشكل مثالي على الرغم من أن عينيه تطرفان بسخرية. وكان يمضغ بنشاط غصناً من أوراق النعنع كما لو أنه عنزة. وعندما انتهى منه سحب غصناً آخر كان يحتفظ به بين أوراق صحيفة. وكان سواد أصابعه كثيفاً جداً بحيث لم أتمكن من النظر إلى أي شيء آخر.

قال لي: "لقد كنت فوضوياً طوال حياتي، ولم أتناول طعاماً سوى الأعشاب ولحم الآرنب من وقت لآخر. لقد أحببتك، لكن هناك شخص آخر أحبه أكثر منك، وإن قلت لك من هو فلن تصدقني. أترى، لم يسبق أن تم بيعي إلى جوزيف (ويعني بهذا ستالين). أما هتلر، من

جهة أخرى، فإن خدشته قليلاً ووصلت إلى ما تحت السطح بقليل فسوف تجد نيتشه. وهذا الرفيق (لا زال يشير إلى هتلر) يستطيع أن يفجّر أوروبا بقدم واحدة. ولا فائدة من أوروبا، أتفهم ذلك؟"

وبكلامه هذا، أظهر لي كمية أوراق النعنع لديه وغمز بخبث. وعندما غادر. قال لي "وداعاً! لا تنسَ — 'الفعل المباشر'".

وكانت إيديولوجية برشلونة السياسية في تلك الفترة تصل إلى حالة تشوّش توشك فيها أن تؤلّه كتاب "برج بابل" المقدّس. لقد وُلِدَت الأحزاب السياسية، وأصبحت مقسمة يحارب أحدها الآخر، ثم هي تولد من جديد وتنقسم على نفسها إلى كثيرٍ من الأحزاب، وكل منها على الرغم من تفاهته النظرية، يخلق فوراً مسافات كبيرة وهاويات من الكراهية مع الباقي. وكان هناك ثلاثة أحزاب شيوعية يُعلن كلٌ منها بأنه الحزب الرسمي الصحيح، وثلاثة ظلال أو أربعة للتروتسكيين، وهناك النقابات السياسية والنقابات الاجتماعية وفوضويو الاتحاد الفوضوي الفيبيري، والانفصاليون الذين يسمون أنفسهم "نحن وحدنا"، واليسار الوطني، إلخ، إلخ، إلخ. الكثير من الأحزاب اليسارية، والكثير من أحزاب الوسط، وكانت أحزاب اليمين كثيرة وناشطة ومهتاجة. وشعر الجميع بأن شيئاً استثنائياً يوشك أن يحدث في إسبانيا، شيء أشبه بطوفانٍ كوني، لكن بدلاً من أن تهطل الأمطار فيه، سيهطل أساقفة وأجهزة بيانو كبيرة وحمير متعفنة. وقد أوجد فلاح من المنطقة المجاورة لفيغوراس التعبير المناسب لتلخيص الحالة الفوضوية للبلد: "إن استمرّ السياسيون على هذا النحو، سوف نصل إلى نقطة حتى لو نزل المسيح بلحمه ودمه إلى الأرض وساعته في يده، لن يكون قادراً أن يخبرنا كم هي الساعة الآن!"

وبعودتنا إلى باريس، انتقلنا من "7 Rue Becquerel" إلى "7 Rue Gauguet". وكان مبنى حديثاً وعملياً. وقد اعتبرت هذا النوع من

العمارة نوعاً من العقاب، عمارة الناس الفقراء — وكنا فقراء. وبالتالي، ومع عدم قدرتنا على أن نحصل على طاولة "لويس الرابع عشر" قررنا أن نعيش مع النوافذ الكبيرة والطاولات المصنوعة من الكروم، وبعض الزجاج والمرايا. وكان لغالا موهبة أن تجعل كل شيء "يلمع"، وفي اللحظة التي دخلت فيها إلى المكان، بدأ كل شيء يتألق بشكل باهر. لقد كانت صلابة رهبانية تقريباً وكانت تزيد من عطشي للفخامة في الوقت نفسه، وشعرت بأن شجرة سرو تنمو في حوض الاستحمام.

لقد أدركت للمرة الأولى أن الناس كانوا ينتظرونني في باريس، وأن غيابي قد ترك هناك "صحراء خاوية" لا يمكن ملؤها من دوني. لقد كانوا يعتمدون علي كي أريهم كيفية "الاستمرار" لكنني رفضت هذه المرة. وفضلت أن أتركهم لأنفسهم، لكي يذهبوا بطريقهم ويتغلبوا على أوهامهم مرة واحدة وإلى الأبد.

لقد ساعدتني المحاضرتان اللتان ألقيتهما في برشلونة على علاجي من بقايا خجلي المَرَضي. وعرفت أنني كنت قادراً على إثارة عواطف الناس وجنونهم بالطريقة التي أريدها بفعالية صورة معينة أستطيع أنا وحدي أن أخلقها وأتلاعب بها. وكان لدي رغبة متنامية بأن أشعر بنفسي في حالة اتصال مع "لحم جديد"، مع بلد جديد، لم يلمسه حتى الآن عفن أوروبا ما بعد الحرب. إنها أمريكا! أردت الذهاب إلى هناك لرؤية هذا البلد، وأجلب له خبزاً جديداً، وأقول للأمريكيين: "ما الذي يعنيه ذلك؟"

استملت للتو بعض قصاصات الصحف من نيويورك تتحدث عن معرض صغير نظمه "جوليان ليفي" خلال الصيف، وكانت فيه لوحة الساعات الرخوة مع لوحات أخرى أعرتها له. وكان المعرض ناجحاً على الرغم من واقع عدم بيع الكثير من اللوحات فيه. لكن المقالات التي ترجمتها عنه تكشف عن فهم موضوعي لأهدافي، والتعليقات التي ظهرت هناك تزيد مئة ضعف عن أفضل التعليقات التي ظهرت حول

أعمالي في أوروبا التي حاكمت أعمالي فقط من خلال علاقتها مع "المصالح الخاصة" التي يريدها كتّاب المقالات على منابرهم الإعلامية. في باريس، في الواقع، يحاكم كل شخص الأشياء من وجهة النظر الجمالية المتعلقة باهتماماته الفكرية. وهناك ناقد معين صارع، وهو مستمر بالصراع، وقد ضحى بحياته في سبيل الفن التكعيبي واللا رمزي. وعندما وصلتُ إلى المشهد بطريقة صارخة تخلق الأوهام، استقبلني هؤلاء المدافعون عن الفن التشكيلي النقي بوابل ناري من مدافع أفلاطونيتهم الجديدة. ولم يكونوا أولئك الذين دافعوا في الطرف المعاكس بنقاء وتلقائية، قادرين على تقبّل سيطرتي المكونة من الصرامة والمنهجية. وباختصار، لقد كنت مُحاطاً في أوروبا بالأنصار وحسب.

كانت أمريكا مختلفة. ولم يكن نموذجنا عن الحرب الأهلية قد لامس ذلك البلد إلا بطريقة إعلامية بحتة. وكان الموضوع الذي يحتوي على شيء من الكآبة الباطنية لدينا، يتخذ طابعاً ترفيهياً على الأغلب في أمريكا. ولم يكن للفن التكعيبي تأثير حقيقي عليها، كما تم اعتباره بحق تجربة لا غنى عنها، ويجب أن تودع بصورة صحيحة في الأرشيف الرسمي للتاريخ. وهكذا، ومع اتخاذهم جانب الحياد، وابتعادهم عن المعارك، ومع عدم وجود أي شيء له ميزة الكسب أو الخسارة، استطاعوا أن يكونوا واضحين مع أنفسهم ويروا بتلقائية ما هو الشيء الذي يترك لديهم أقصى انطباع ممكن من بين كل الأشياء التي تحدث في أوروبا. وعرفت أن من سيترك أقصى انطباع لديهم هو أنا، أنا الشخص الأكثر تحزّباً وعنفاً وإمبريالية وهذياناً وتعصباً من الجميع. لقد كان الأوروبيون مخطئين لأنهم اعتبروا أن أمريكا عاجزة عن امتلاك حس شعبوي فكري. ومن الواضح تماماً أن تجنبهم للأخطاء لم يكن عبر التقاليد أو عبر الشحذ الدائم "للذوق". لا، أمريكا لا تختار الحكمة

الرجعية لتجربة لم تمتلكها، أو تكهنات مصقولة لعقل منحط لا تملكه، أو حتى الدفق العاطفي لقلبها اليافع أكثر من اللازم.....

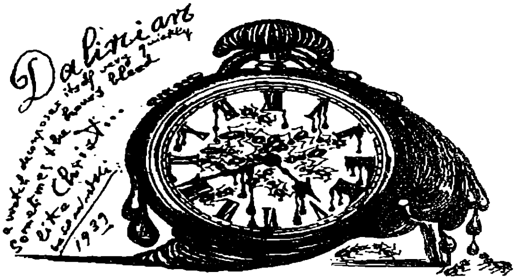

لا، إن أمريكا تختار بالتأكيد بشكل أفضل وأكبر من كل تلك الأمور مجتمعة. تختار أمريكا بكل القوى الابتدائية سحيقة الغور لبيولوجيتها السلمية الفريدة من نوعها. إنها تعرف ما الذي تفتقد إليه وما ليس لديها أكثر من أي مكان آخر. ولذلك فإن كل "ما لا تمتلكه" أمريكا على المستوى الروحاني، سأمنحه أنا لها متجسداً في مزيج هذياني لا يتجزأ من عملي الارتيابي، كي تستطيع ربما أن تلمس كل شيءٍ بيدي الحرية وتراه. نعم، إن ما لا تمتلكه أمريكا بشكل واضح جداً هو رعب الحمير المتعفنة في إسبانيا، والجانب الشبحي "لشخصيات مسيح" إل غريكو، والتفاف أقراص دوار الشمس الخاص بـ "فان كوخ"، ونوعية ياقات "تشانيل" الهوائية، وغرابة أثواب الفرو، وميتافيزيقة التماثيل السريالية الخاصة بواجهات عرض الملابس في باريس، وتأليه العمارة السمفونية الفاغنرية الخاصة بـ "غودي"، والكاثوليكية المتوسطية.......

إن الفكرة التي بدأت بتشكيلها عن أمريكا كانت معززة بانطباع بقي لدي بعد لقاء شخصي مع "ألفريد إتش. بار، جار"، مدير متحف مدريد للفنون في نيويورك. وقد التقيت به أثناء عشاء في منزل "فيكومت دي نواي". وكان شاباً شاحباً لديه هيئة شخص مريض. كان لديه

إيماءات قوية مستقيمة كتلك التي لعصافير تلتقط الحبوب بمناقيرها — وكان في واقع الأمر ينقر القيم المعاصرة، ويشعر المرء أن لديه موهبة نقر الحبوب الكاملة فقط وليس القش. وكانت معلوماته حول موضوع الفن الحديث هائلة جداً. وبالتناقض مع المدراء الأوروبيين لمتاحف الفن الحديث، فإن معظمهم لم يسمع عن بيكاسو حتى الآن، أما سعة معرفة "ألفريد بار" فقد أوشكت أن تكون رهيبة. وقد تنبأ "ألفريد بار" الذي يتحدث الفرنسية، بأنه سيكون لي مستقبل باهر في أمريكا، وقد شجعني كي أذهب إلى هناك.

لقد قررنا أن وغالا أن نسافر لكن لم يكن لدينا المال الكافي... وقد تعرّفنا في تلك الفترة على السيدة الأمريكية التي اشترت "Le Moulin du Soleil – طاحونة الشمس" في غابة "إيرمينونفيل" وكان الكاتب السريالي "رينيه كريفيل" هو من عرّفنا عليها عندما دعانا إلى الغداء في شقتها في باريس أحد أيام الصيف. وفي هذا الغداء كان كل شيء أبيض ما عدا مفرش الطاولة والخزف، بحيث أنه إن التقط أحدهم صورة للمكان، فسوف تظهر الخلفية على أنها الصورة. وكان كل شيء تناولناه على الغداء أبيض اللون. المشروب أبيض، الستائر بيضاء، والهاتف أبيض والسجادة أيضاً. وكانت ملابسها وأقراطها وحذاؤها وأساورها جميعها باللون الأبيض. لقد أصبحت هذه السيدة الأمريكية مهتمة بمجتمعي السرّي. وقررنا أن نبدأ ببناء فرن بطول خمسة عشر متراً في غابة "إيرمِينونفيل" كي نخبز فيه رغيف خبزي الفرنسي. وحاولنا أن نجعل خبّاز "إيرمينونفيل" مساعداً

لنا، إذ لاحظت مُسبقاً أن لديه ميلاً ملحوظاً نحو "ما هو غريب". وهذه السيدة الأمريكية البيضاء جداً، والتي صنعت خلفية سوداء كهذه كانت "كاريس غروسبي".

وكنا نذهب في كل عطلة أسبوع إلى "Moulin du Soleil". وأكلنا في "حظيرة الخيل" المليئة بجلود النمور والمحشوة بالببغاوات. وكان هناك مكتبة مذهلة في الطابق الثاني، وعدد هائل من زجاجات الشامبانيا المبرّدة، وأغصان النعنع في كل الزوايا، والعديد من الأصدقاء، وخليط من السرياليين وشخصيات المجتمع الذين جاؤوا إلى هنا لأنهم تحسسوا من مسافة بعيدة أن هناك "أشياء تحدث" في "Moulin du Soleil". وفي هذه الفترة لم يتوقف جهاز الراديو عن التأوه بأغنية "كول بورتر — نهار وليل"، وللمرة الأولى في حياتي قلّبت صفحات مجلة "The New Yorker and Town and Country". وكنت أشتمّ كل صورة تأتي من أمريكا، وأعني بذلك، بتلك الشهوانية التي يستقبل المرء معها النفحات العطرية الأولى لوجبة مثيرة يوشك المرء أن يشارك فيها.

أريد أن أذهب إلى أمريكا، أريد أن أذهب إلى أمريكا.... كان هذا الأمر يتخذ شكل نزوة طفولية. وواستني غالا قائلة: عندما نستطيع أن نجمع معاً ما يكفي من المال سنذهب إلى أمريكا! لكننا كنا نسير في تلك المرحلة من سيء إلى أسوأ. وانتهى عقدي مع "بيير كوليه" ولم تكن حالته المادية تسمح بتجديد العقد. وهكذا فإن أزمة مادية أخرى تلوح في الأفق بشكلها الحاد والمزمن. ومع حقيقة أن جامعي اللوحات الراغبين بشراء اللوحات الدالية لديهم الآن بعضٌ منها، فقد أصبح احتمال ترتيب بعض المبيعات ضعيفاً جداً ومحفوفاً بالمخاطر. والأكثر من ذلك أننا صرفنا كل مدخراتنا في "بورت ليغات"، وكلما حدثت صفقة غير متوقعة، تستغلّ غالا الفرصة لنشر كتبي التي لم تصل إلا إلى مجموعة صغيرة من شخصيات **المجتمع** الذين اشتروا لوحاتي. وهكذا

وجدت نفسي في اللحظة التي كانت فيها سمعتي وتأثيري في أعلى مراحلهما، ومواردي المالية في أخفض حالاتها.

ولم أكن من أولئك الذين يستسلمون للشدائد، وكانت ردّة فعلي هي الغضب. طوّرت موضوع ضبط النفس لدي حتى أصبح يظهر بصعوبة لكنه كان غضباً مستمراً. ومنذ أن كنا في "ملاجا" عندما قررت جمع المال، لم أنجح حتى الآن. سوف نرى! أنا أرغي وأزبد. وبينما أجتاز الشارع، قطعت أزرار معطفي ومضغتها. وكنت أنقر على الأرض بقدمي وبدا لي كما لو أنني كنت أغرق فيها.

في إحدى الأمسيات وفي طريقي إلى البيت في يوم من محاولاتي الفاشلة، قابلت في أسفل جادة "Edgar–Quinet" رجلاً أعمى بساق واحدة، يجلس في كرسيه المتنقل الصغير. وكان يحرك بيديه عجلات كرسيه بمزاج مرح جداً. وعندما وصل إلى حافة الرصيف ليجتاز الساحة، توقف قليلاً والتقط قصبة صغيرة من تحت وسادة الكرسي وبدأ ينقر على الرصيف بوقاحة، فاجأني بثقته التي لا حدود لها بنفسه. وبإصرار كبير كان يطلب من المارة الذين يعترضون طريقه ليمدّوا يد العون له ويساعدوه في عبور الساحة لحمايته من زحمة السير.

كان الطريق خالياً. ولم يكن هناك من عابرين للطريق بجانبي — كان هناك فتاة شقراء تمشي على مسافة بعيدة وبدت كأنها تنظر إلي. ذهبت إلى الرجل الأعمى ودفعت عربته من الخلف برفسة من قدمي بحيث انطلقت بسرعة وعبر الساحة كلها. وتوقفت العربة على الجانب الآخر، وكان سيسقط إلى الأمام من أثر الصدمة إلا أنه كان يمسك ذراعي الكرسي بقوة وحكمة بكلتا يديه. وبدوري عبرت الساحة ونظرت أثناء مروري إلى وجه الرجل الأعمى. وبشكل واضح لم يكن الرجل أصمّاً لأنه عندما سمع وقع خطواتي التي أدرك أنها لي، أصبح سلوكه المنتبه فجأة أكثر تواضعاً، ويتماشى مع ما يمليه وضعه الجسدي المتدهور.

ورأيت عنكبوت جُبنه أصفر اللون يجتاح نظرته الغائبة. وفهمت حينها أنني إن طلبت المال من هذا الأعمى، فعلى الرغم من الجشع المرعب الذي لا بدّ أن يكون لديه، فسوف يتخلى عنه من أجلي.

وهكذا اكتشفت كيف سأجتاز المحيط. لأنني لم أكن عاجزاً ولا أعمى ولا متدهوراً ولا بائساً. ولأنني لم أنقر بوقاحة بعصا "الإيثارية" من أجل إصدار صوت الشفقة الذي سيجلب شخصاً غريباً من دون مبرر ليساعدني على عبور المحيط الذي يفصلني عن أمريكا. لا، أنا لم أكن غارقاً في الحقارة. بل على العكس تماماً، كنت متألقاً بالمجد. وبناء عليه، ليس هناك من مساعدة لي — تماماً كما لا يطلب المرء المساعدة من نمر حتى ولو كان يتضوّر جوعاً. لذا، إن لم أستطع أن أستفيد من الموهبة السحرية لإيقاع عصا الأعمى لأحضر الناس كي يساعدوني، أستطيع على الأقل أن أسحب هذه العصا من يد الأعمى وأنقر بها من أجلي. وكما فعلت، كان بوسعي أن أخلّص نفسي من الشلل التقليدي الذي أثقل خطواتي.

مع القليل من المال الذي تركناه، حجزنا بطاقات على السفينة البخارية "Champlain" التي ستغادر إلى نيويورك بعد ثلاثة ايام. وبالتالي كان علينا أن نجد المبلغ المتبقي لاستكمال ثمن بطاقاتنا، ومبلغاً آخر صغيراً يكفينا على الأقل لأول أسبوعين من الإقامة هناك. وبقيت هذه الأيام الثلاثة متجولاً في باريس ومسلّحاً بعصا الأعمى الرمزية التي أصبحت بين يدي عصا سحرية لغضبي. وضربت بها يميناً ويساراً غير مكترث أين تأتي ضرباتها. وأهزّ جذع شجرة المال الشائك الذابل الذي لا يُسقط بعض القطع النقدية الصغيرة المتناثرة إلا بعد أن يشعر بأن جشع روحه يتعثر تحت غضب لسعات سياطي المسعورة. ومرة ثانية، وأخرى، وأخرى — سوف تتلقى العديد من الضربات، والعديد من الهزات التي تحتاجها لتجعلها تمضي، اعطِ، اعطِ، اعطِ، الآن، اعطِ، الآن، اعطِ الآن، اعطِ كل شيء، اعطِ كل

شيء! وتحققت أسطورة "Danae" وبعد ثلاثة أيام من هزّ "قضيب" الثروة، قذف دفقة من الذهب! وعندئذٍ شعرت بالإنهاك كما لو أنني مارست الحب ست مرات متوالية.

لقد جعلني خوفي من فقدان الرحلة أصل إلى الموقع قبل ثلاث ساعات من الوقت المحدد. وتركت عينيّ مسمرتين على الساعة وعلى الحمال الذي حاول أن يهرب كلما سنحت له الفرصة، وخشيت أن يخدعنا في اللحظة الأخيرة. وأمسكت غالا يدي لتخفف من عصبيتي وقلت لها: "لن أشعر بالاسترخاء إلا على ظهر الباخرة". وفي لحظة الصعود إلى القطار أراد الصحفيون أن ينزلوني مرة أخرى لأقف أمام القاطرة. لقد أرادوا أن يلتقطوا صورة لي عبر نافذة مقصورتي. وكنت خائفاً بالفعل من أن يرحل القطار بينما ننزل من أجل الصور، وهكذا قلت للصحفيين كي أعطيهم تفسيراً لرفضي:

"القاطرات غير مناسبة بالقياس معي — إما أنا كبير جداً، أو إنها صغيرة جداً".

ولم يتبدد خوفي الكامل من فقدان الرحلة إلى أمريكا بعد صعودنا إلى الباخرة. وما إن شعرت بنفسي فوق البحار العالية، سيطر عليّ خوف هائل من "الفضاء المحيط". لم يحدث في حياتي أبداً حتى هذه اللحظة أن أبحرت مبتعداً عن مشهد الأرض، وبدا لي صرير الباخرة مشكوكاً فيه بشكل كبير. شعرت أن المركب كان كبيراً جداً ومعقداً ليتمكن من عبور المحيط من دون كارثة. لقد حضرت كل تدريبات إنقاذ الحياة، وكنت دوماً في المكان المحدد قبل الموعد بدقائق، وكان حزام نجاتي معلّقاً بكل الأحزمة الموجودة في القوانين. وجعلت غالا تهتم مثلي بكل تلك الاحتياطات المزعجة التي إما أثارت اشمئزازها أو جعلتها تضحك حتى تسيل الدموع على وجنتيها. وفي كل مرة تدخل فيها إلى مقصورتنا، تجدني أقرأ مستلقياً على السرير، وأنا أرتدي حزام

النجاة. لقد توقعت في كل لحظة أن أسمع صوت صفارات الإنذار الحاد الحقيقي. وكنت أرتعش من فكرة أنني ربما أكون ضحية كارثة "ميكانيكية"، وكنت أنظر إلى قباطنة الباخرة وهم سعداء ومسترخون وكأنهم جلادون في طريقهم لتنفيذ حكم إعدامي.

وكنت أشرب الشامبانيا باستمرار، لأمنح نفسي الشجاعة وتحسباً من دوار البحر الذي لم يقع على أية حال. كانت "كاريس غروسبي" تسافر على المركب ذاته مُحبطة بسبب فشل مشروع صناعة رغيف خبز بطول خمسة عشر متراً في المراحل الأولى، وقد تحدثت مع القبطان عن أكبر رغيف خبز فرنسي يمكن تحضيره في فرن الباخرة. تواصلنا مع الخبّاز على سطح الباخرة ووعدنا أن يصنع لنا رغيفاً بطول مترين ونصف، لكن عليه أن يضع دعامة خشبية داخله بحيث لا ينكسر إلى قطعتين في اللحظة التي يبرد فيها. حافظ الخباز على كلمته، وحصلت على هذا الرغيف في مقصورتي مغلّفاً بطريقة فخمة بورق السيلوفان.

اعتقدت أنه سيكون موضوعاً مثيراً للاهتمام بالنسبة للصحفيين الذين يُحتمل أن يصعدوا إلى السطح لإجراء مقابلة معي عندما نصل. وتحدث الجميع عن هؤلاء الصحفيين باحتقار واشمئزاز. وقالوا: "هؤلاء الأشخاص المريعون غير المثقفين الذين لا يتوقفون عن مضع العلكة بينما يسألونك أسئلة حمقاء لا نهاية لها". واخترع كل شخص خدعته الخاصة كي يتفاداهم، لكن تحت هذا النفاق الصبياني، كان من السهل جداً رؤية أن كلا منهم يفكر بشيء واحد ويرغب به — فرصة أن تتم مقابلة معه. إنهم يدافعون عن أنفسهم مسبقاً ضد خيبة أمل محتملة جداً، عبر ردّة فعل معروفة جداً تقول: "عناقيد العنب العالية حامضة دوماً". ولهذا فقد اتخذت الموقف المعاكس وقلت: "أنا أحب الشعبية والشهرة، وإن كنت محظوظاً بما يكفي، ولكي أجعل الصحفيين يعرفون من أنا، سوف أقدم لهم بعضاً من خبزي، تماماً كما فعل

القديس فرنسيس بطيوره". واعتبر الجميع أن وقاحتي في هذا المجال تنمّ عن قلة ذوق إلى حدّ رفضوا فيه حتى أن يُظهروا تكشيرة.

أودّ أن أسأل جميع معارفي على المركب بشكل غير مفاجئ: "ما الذي تعتقد أنني أستطيع فعله لأجعل خبزي يترك أعظم انطباع لدى الصحفيين؟" لقد قررت في النهاية أن أستبدل ورق السيلوفان الذي يغلف الخبز بورقة صحيفة وأربطها من الوسط وأترك النهايتين بارزتين: أردت أن يظهر في الواقع بأنه رغيف خبز فرنسي دون أي شك بذلك، وأريد أن أكون قادراً على فضّ الغلاف بنفسي وأمام أعين الجميع.

ووصلنا إلى نيويورك، وبينما كنا نستعدّ من أجل الإجراءات القانونية المتعلقة بالدخول إلى أمريكا، سمعت كلمات تقول أن الصحفيين يريدون إجراء حديث معي. وأسرعت إلى مقصورتي لإحضار رغيف الخبز، وأعود إلى مقصورة أخرى حيث كانت مجموعة الصحفيين بانتظاري.

وعندئذٍ حدث معي شيء مُقلق تماماً، وشعرت كما شعر "ديوجينيس" ملك الفلاسفة الساخرين عندما خرج عارياً في أحد الأيام وحوض الاستحمام حول وسطه ويحمل شمعة مضاءة بيده، ولم يجد أحداً في طريقه يسأله "ما الذي تبحث عنه؟" ربما يبدو هذا مدهشاً لكن في الحقيقة، لم يسأل أي من الصحفيين سؤالاً واحداً حول الرغيف الذي أحمله بشكل واضح خلال المقابلة كلها سواء أكان بيدي أو بوضعه جانباً على الأرض كما لو أنه عصا كبيرة.

ومن جهة أخرى، كان جميع الصحفيين يعرفون بشكل هائل من أنا. ليس هذا فقط. إنهم يعرفون التفاصيل الغبية المتعلّقة بحياتي. وسألوني فوراً إن كان صحيحاً أنني رسمت لوحة وجهية لزوجتي مع قطعتي لحم مشوي على كتفيها. وأجبت بالموافقة مشيراً إلى أنه كان لحماً نيئاً وليس مشوياً. فسألوني: لماذا كان نيئاً؟ وأجبتهم بأن زوجتي نيئة أيضاً. لكن لماذا يكون اللحم مع زوجتك في اللوحة؟ وأجبت بأنني

أحب زوجتي وأحب اللحم، ولم يكن لدي أي شيء يمنعني من أن أرسمهما معاً.

لقد كان هؤلاء الصحفيون متفوقين بشدة على الصحفيين الأوروبيين. وكان لديهم حاسة حادة في تقدير "الهراء"، والأكثر من ذلك أن المرء يشعر أنهم يعرفون عملهم بشكل جيد جداً. لقد عرفوا مُسبقاً وبالتحديد نوعية الأشياء التي تجعل لديهم "قصة صحفية". كان لديهم أسلوب لا يرحم نحو الشيء المثير الذي يجعلهم ينقضّون فوراً على نواة كل سؤال مما يمكنهم في خضمّ التشوش الهائل من الاختيار بشكل صحيح تماماً فقط الأحداث اليومية التي تحتوي الفيتامينات الضرورية للحمية الصحفية التي تغذي الفضول العفوي للملايين من النفسيات التي تكون في حالة جوع. أما في أوروبا فإن الصحفيين يبدؤون مقابلاتهم بعناوين معدّة سلفاً في جيوبهم، وتحتوي سلفاً على أسس ظروف وأحداث من كل نوع، وموجّهة لقارئ سوف يقرأ فقط يحاكم إن كان ما يقال له الآن مطابقاً لما يعرفه سلفاً أم لا. إن لدى أوروبا حسّ تاريخي وليس حس الصحافة. الصحفي الأمريكي، من جهة أخرى، يبدأ بمعيار مبني على الفورية التي تعمل بها غريزة المنافسة البيولوجية القوية لديه أولاً، وتمكنه من إطلاق النار على طيور الواقع الحقيقي النادرة العابرة التي يستعيدها دافئة نازفة ويرميها على مكتب رئيس التحرير — مكتب مغطى بشحوب الترقب لأوراق بيضاء تنتظر الأخبار، وبقتامة الأمل الأسود لأخبار مُقفل عليها في هاتفه الأسود.

في اليوم الذي وصلت فيه إلى أمريكا، عاد الصحفيون من صيدهم الصباحي وألقوا في الهواء بحالة من الانتصار زوجاً من شرائح اللحم النيء. وفي تلك الليلة تحديداً، كانت نيويورك كلها تتناول شريحتي اللحم تلك، وحتى اليوم، في الزوايا البعيدة من القارة، أعرف أن الناس لا زالوا يقضمون البقايا الأخيرة من عظام شريحتي اللحم.

صعدت إلى ظهر سفينة "Champlain" وقابلت نيويورك. لقد رسمت أمامي باللون الأبيض العاجي الوردي الصدئ. وبدت كقطعة جبن "روكفور" هائلة. أنا أحب جبن "روكفور" ولهذا قلت: "نيويورك ترحب بي!" لكن فخر دم كريستوف كولومبوس الكاتالوني الذي يجري في عروقي صرخ بي على الفور: "الحاضر!" وأنا بدوري أديت التحية لعظمة العلم الأمريكي الكونية وأصالته البكر.

نيويورك، أنت مصر! لكنك مصر انقلب باطنها ظاهرها. لأنها بنت الأهرامات من العبودية حتى الموت، وبنيت أنت أهراماتك من الديمقراطية مع أنابيب برتقال عمودية من ناطحات سحاب تلتقي جميعها في نقطة الحرية التي لا نهاية لها! نيويورك، حارسٌ غرانيتي يواجه آسيا، بعثُ الحلم الأطلسي، أطلنتس الوعي الباطن. نيويورك، الحماقة الحقيقية لمن تنخر أزياؤهم التاريخية التراب المحيط بالأساسات، وتنفخ القباب المقلوبة لأديانكم الألف الجديدة.

نيويورك، إن كاتدرائياتك تحيك الجوارب في ظلال البنوك الضخمة، جوارب وقفازات لتوائم الزنوج الخمسة الذين سيولدون في فيرجينيا، جوارب وقفازات لطيور السنونو التي ثملت "بالكوكا كولا"، التي ضاعت في مطابخ الأحياء الإيطالية القذرة وتعلّقت بحواف الطاولات مثل ربطات العنق اليهودية السوداء الغارقة في المطر، تنتظر ضربة مفاجئة من "مكواة" الانتخابات القادمة لتجعلها مقرمشة مثل قطعة من لحم الخنزير المقدد.

نيويورك، إن دمى عرض أزيائك مقطوعة الرأس غارقة في النوم سلفاً، وتريق كل "دمها الدائم" الذي يتدفق مثل "النوافير الجراحية للدعاية" داخل واجهات العرض المتألقة بالأضواء الكهربائية، الملوثة بـ "السريالية التي تغط في نوم عميق". وعلى الجادة الخامسة أشعل الكوميدي "Harpo Marx" الفتيل الذي يعرض من الخلف قطيعاً من

الزرافات المتفجرة المحشوة بالديناميت. وركضت في كل الاتجاهات تنشر الرعب وتلزم الجميع بدخول المحلات، واختلط الحابل بالنابل. وتم تشغيل جميع صفارات الإنذار في المدينة، لكن الوقت قد تأخر. بوم! بوم! أنا أحييك، يا زرافات نيويورك المتفجرة، وجميعكم يا رواد اللاعقلانية — ماك سينيت، هاري لانغدون، وأنت أيضاً يا بوستر كيتون الذي لا يُنسى، أيها التراجيدي الواهن مثل حميري المتعفنة الأسطورية، وأزهار صحراء إسبانيا!

واستيقظت في نيويورك في السادسة صباحاً على القصة السابعة من فندق مارتيز، بعد حلم طويل يحتوي الأيروتيكية والأسود. وبعد أن أستيقظت بشكل كامل، كنت متفاجئاً بدوام زئير الأسود الذي كنت قد سمعته أثناء نومي. كان هذا الزئير مندمجاً مع صراخ البط وحيوانات أخرى يصعب تفريقها. وتَبع ذلك صمت كامل تقريباً. لم يكسر هذا الصمت سوى زئير وصرخات وحشية، مخالفة تماماً للضجيج التي توقعته — الضجيج المرافق لمدينة "ميكانيكية حديثة" هائلة — بحيث شعرت بالضياع الكامل، واعتقدت لبعض الوقت أن مخيلتي الصاحية لا تزال تحت تأثير حلمي. ومع ذلك فقد سمعت بالفعل زئير أسود لأن النادل الذي أحضر لي طعام الإفطار، الكندي الذي يتحدث الفرنسية بطلاقة، أخبرني أن هناك حديقة حيوانات بعد هذا الشارع في "السينترال بارك". وعندما نظرت من نافذتي استطعت رؤية الأقفاص والفقمات التي تثير الرذاذ في أحواضها. لكن كل تجاربي لبقية اليوم استمرت فقط بشكل منهجي لتكذيب الصورة النمطية "للمدينة الميكانيكية الحديثة" التي حاول جماليو حراس الطليعة الأوروبيون، والمدافعون عن جمال الوظيفية العقيم، أن يفرضوا علينا مثال عذرية مناهضة الفن. لا، لم تكن نيويورك مدينة حديثة. لأنها، بكونها كانت حديثة في البداية، وقبل أي مدينة أخرى، أصبح لديها الأن سلفاً رعب

من كل ذلك. بدأت سلسلتي من حفلات الكوكتيل المسائية في منزل في "Park Avenue" أظهرت معاداة الحداثة فيه نفسها بأكثر الأزياء إثارة بدءاً من واجهة المبنى تحديداً. طاقم عمال يحملون أدوات تنشر دخاناً أسود يصفر كتنانين مرعبة، كانوا يستخدمون "ألوان التعتيق" على الجدران الخارجية للمبنى بغية منح ناطحة السحاب الحديثة جداً مظهراً "قديماً" باستخدام ميزات الدخان الأسود الموجود على المنازل القديمة في باريس. وفي باريس من جهة أخرى، كان المعماريون الجدد على غرار "كوربوزييه" يشغلون أدمغتهم لإيجاد مواد جديدة مبهرجة، مناهضة بالمطلق للباريسيين، ولا يعلق السواد عليها أبداً، وذلك لمحاكاة "الألق الحديث" المفترض لمدينة نيويورك. وعندما دخلت المصعد تفاجأت تماماً بأنهم يستخدمون الشموع بدلاً من الكهرباء. على جدران غرفة المصعد، كان هناك نسخة من لوحة "إيل غريكو" معلقة بشريط من المخمل الإسباني الأحمر المزخرف بشكل كبير — كان المخمل حقيقياً وربما يعود إلى القرن الخامس عشر. وبعد واجهة المبنى المسودة بالدخان، مصعد "كنيسة توليدو"، لم أعد أعتقد أن من الضروري متابعة توصيف الشقة، التي سأخبركم بشكل عابر فقط، أنها احتوت على النهضة القوطية الفارسية الإسبانية، ودالي وبرتقالتين.

وطوال فترة بعد الظهر، زرت سلسلة كاملة من شقق أخرى وغرف فنادق. وذهبنا من حفلة كوكتيل إلى أخرى، وحدث العديد منها في المبنى ذاته، وهذا ما أدى إلى فوضى عارمة جعلها جهلي الكامل باللغة الإنكليزية أكثر غموضاً وإزعاجاً. لكن من بين جميع الرؤى العابرة، بقي انطباع وحيد واضح راسخ في عقلي ويتعلق بمدينة نيويورك من دون كهرباء. إن المصعد المضاء بالشمع لم يكن حالة فريدة، بل كان الحالة النموذجية. وفي كل مكان، كان النور الكهربائي يختنق بملابس لويس السادس عشر، بالمخطوطات القوطية المتعددة الألوان، بمخطوطات نوتات

بيتهوفن الموسيقية التي تُستخدم كغلاف خارجي للمصابيح. وكان لشخص ما انطباع بأن اللبلاب الاصطناعي الذي ينمو في جميع الزوايا المشغولة بالخشب، وتلك الخفافيش الاصطناعية أيضاً وغير المرئية، كانت ترفرف باستمرار في عتمة الصالة. وفي المساء زرت معبد الصور المتحركة المدهش. لقد كان مزيناً بأعمال فنية برونزية منوعة، من " Victory of Smothrace" إلى "Jean-Baptiste Carpeaux"، مع لوحات نادرة جداً بالألوان الزيتية فعلاً، ومؤطرة بالخيل الكثيف لقالب ذهبي، وفي وسط كل هذا، يرى المرء أعمدة نافورة تتألق بألوان قوس قزح بذوق سيء. ومرة أخرى، البرتقال — برتقال في كل مكان، برتقال برتقال....

وقبل أن أذهب للنوم في تلك الليلة، شربت كأساً أخيراً من الويسكي مع الصودا في فندق مورتيز برفقة "Quaker"[1] يرتدي قبّعة عالية، وكان يبذر المال بتكتم في ملهى ليلي رديء في حي هارلم، والذي لم يرغب بأن يتركني منذ أن تعارفنا. كان يتحدث الفرنسية بما يكفي كي يجعلنا نخمن أنه يريد أن يخبرنا أو يعترف لنا بشيء ما. ولا بدّ أن الانطباع نفسه كان لدى غالا، لانها أخيراً قالت بأكثر الطرق استفزازية: "أنا واثقة أنك تعيش حالة عقلية قريبة جداً لحالة السرياليين العقلية". وكان ذلك كل ما نحتاج إليه لنجعله يكشف عن سرّه لنا. لقد كان "Quaker" وبالإضافة لذلك فقد انتمى إلى طائفة روحانية أصيلة تماماً. وليس هناك أي من أصدقائه، حتى الأكثر حميمية منهم يعرف شيئاً عن هذا. لكن أنا، السريالي، الذي رسمت آلات البيانو المعلقة على قمم أشجار السرو، جعلته يشعر بالثقة. لقد عرف أنني سأتفهمه. لقد تمكّن أعضاء طائفته، بفضل اختراع سرّي حديث، من إنشاء تواصل كلامي مع الموتى، لكن خلال الأشهر الأربعة

[1] الكويكرز (أو جمعية الأصدقاء المتدينين) هي حركة مسيحية تعترف بكهنوت جميع المؤمنين. المترجم.

التالية لموتهم وحسب، لأن الروح خـلال تلـك الفـترة لا تـترك الأمـاكن التي كان يرتادها الميت خلال حياته. وبشيء من التكـتّم، طلبـت غـالا المزيد من التفاصيل. وكان ذلك كل ما ينتظره "Quaker" الروحاني إذ قال: "إنه نوع من الأبواق النحاسية الصغيرة التي تعلّقها علـى الجـدار بعلاقة بلاستيكية. وفي كل ليلة وقبل الـذهاب إلى النـوم، أتحـدث مـع والدي الذي مات منذ شهرين". وعند تلـك النقطـة، اقترحـت أن هـذه كانت ربما الساعة المناسبة لحديثه، وأن الفكرة الجيـدة لنـا جميعـاً أن نذهب إلى النوم. ثم غادرنا المكان.

وقبل أن أذهب إلى النوم في ليلتي الثانية في نيويورك، شـطح عقلـي كما لو أنه أصبح يقفز في غشاوة النعاس فوق المعالم المتضاربة للصور التي كنت أراها على مـدى يـومي الأول. لا، وألـف مـرة لا — إن الشـعر في نيويـورك لم يكـن كمـا حـاولوا أن يخبرونـا عنـه في أوروبـا. الشـعر في نيويورك ليس في جماليات الخطـوط الزائفـة العقيمـة لصـلابة "روكفيلـر سنتر". الشعر في نيويورك ليس الثلاجات التي يُرثى لها والـتي يرغـب متـذوقو الجمـال الأوروبيـون البغيضـون أن يقفلوهـا علـى البقايـا غـير الصالحة لزيفهم الحديث الشاب! لا!

الشعر في نيويورك قديم وعنيف كالعالم بحد ذاته، إنه الشـعر الـذي كان موجوداً دوماً، إنه قوي مثل كل شعر آخر موجـود. وفي كـل مسـاء تتخذ ناطحات سـحاب نيويـورك أشـكال مجسـمة عملاقـة مـن لوحـة "ميليـت" المسـماة "أنجيلـوس" مسـتعدة لأداء الوظيفـة الجنسـية، وأن تفترس إحداها الأخرى كسرب من حشرات فرس النبي قبل الجماع. إن الرغبة الدموية غير المشبعة هـي الـتي تضـيئها وتسـبب دوران الحـرارة المركزية والشعر المركزي ضمن بنيتها العظمية الحديدية.

الشعر في نيويورك ليس جماليات هادئة بل هو مـادة حيـة هائجـة. الشعر في نيويورك ليس من النيكل بل هو رئات متشعبة. وطرق الأنفـاق

إلى نيويورك لا تسير على سكك حديدية بل تسير على سكك الرئات المتشعبة[1]!

الشعر في نيويورك ليس مزيفاً بل حقيقياً، وهو ليس ميكانيكي الإيقاع بل هو زئير الأسد الذي أيقظني أول صباح. إن الشعر في نيويورك هو أرغن وعُصاب قوطي وحنين الشرق والغرب، إنه مخطوطة عاكسة للنور في هيئة مقطوعة موسيقية، وواجهة مبنى يتصاعد منه الدخان، ومصاص دماء اصطناعي، وكِرسي ذو ذراع[2] اصطناعية. الشعر في نيويورك ذوق فارسيّ ينثر مع عطسته رذاذ معدن البرونز الذهبي، إنه أرغن، بوقٌ يجذبك بقوة حتى الموت، الشعر في نيويورك أرغن، أرغن، أرغن، أرغن رئات العجول، أرغن القوميات، آرغن بابل، آرغن ذوق الواقعية السيء[3]، أرغن ماقبل الخليقة العذري. الشعر في نيويورك هو ليس ذاك المرتبط بالأبنية الإسمنتية العملية التي تلامس السماء، الشعر في نيويورك هو ذاك الأرغن الضخم العاجي الأحمر – إنه لا يخدش السماء، بل يدوي فيها ببوصلة انقباض أنشودة علم الأحياء الأولى وانبساطها. نيويورك ليست براقة وليست بيضاء بل هي مدورة كلها وهي الأحمر الفاقع، إنها هرم دائري، كرة من اللحم المدبب الذي يشير إلى القمة، كرة أحشاء الألفية المتبلورة، والياقوت الأحمر التذكاري غير المصقول بمؤشر لومضاته الموجهة نحو السماء بينما تحاكي القلب بعض الشيء.

كنتً أذهب لأتمشى وحيداً وسط نيويورك في صباحات محددة مشرقة جداً من صباحات أوائل تشرين الثاني، ورغيف خبزي الفرنسي

[1] سكك الرئات التشعبة – فكرة تم اقتباسها عن "ريموند راسل" أعظم كاتب فرنسي تخيلي.

[2] ذراع الكرسي الذي يتنفس بواسطة مضخة ميكانيكية ووسادة يمكن أن تنفخ. ذراع الكرسي هذا الذي أسميه اصطناعياً بتمييزه عن "طبيعية" أذرع الكراسي المعروفة. ذراع الكرسي الاصطناعي مفيد جداً في مساعدة المسنِّين ليناموا، والأطفال وكل المتكبرين.

[3] لطالما اعتبرت "الذوق الجيد" هو أحد الأسباب الأساسية للعقم المتنامي للعقل الفرنسي، الذي لطالما دافعت عنه وبالمقابل ضد الذوق الفرنسي الجيد، و خصوبة الذوق البيولوجي السيء لفاغنر وغاودي وبوكلين.

تحت ذراعي. حالما دخلت متجر التجزئة في الشارع السابع والخمسين وطلبت بيضاً مقلياً أكلته مع قطعة صغيرة من رغيف الخبز الضخم الذي قطعته لذهول جميع من تجمع حولي ليراقبني ويسألني بعض الأسئلة. أجبت عن كل الأسئلة برفع كتفيّ وبابتسامات خجولة.

وبينما كنت أتمشى في أحد الأيام، أصبح الخبز جافاً كلياً وأصبح لديه ميل لأن يتفتت، فقطعته إلى قطعتين وقررت أن الوقت قد حان للتخلص منه. وحدث أنني كنت في الممر الجانبي أمام فندق "والدورف أستوريا". كانت الساعة الثانية عشرة تماماً، ساعة أشباح منتصف النهار، وقد قررت أن أذهب لتناول الطعام في الفندق. لكنني لحظة عبور الشارع تزحلقتْ قدمي وسقطتُ على الأرض. وأثناء سقوطي أفلتت قطعتا الخبز من يدي وارتطمت بالرصيف على مسافة بعيدة. ثم جاء رجل شرطة وساعدني كي أنهض. وشكرته وبدأتُ أعرج مبتعداً. لكنني بعد عشرات الخطوات التفتُّ بفضول لأرى ماحصل لقطعتَي الخبز أخيراً. لقد اختفتا ببساطة دون أن تتركا أي أثر، ولا تزال طريقة الاختفاء تلك تشكّل لغزاً بالنسبة لي. ولم أرِ الخبز لا مع الشرطي ولا مع أيٍ شخص آخر يسير في الشارع. لقد شكّل لدي ذلك الأمر انطباعاً محيّراً مقلقاً بأن ذلك كان ظاهرة هذيان ذاتي، وأن الخبز كان في مكان ما أمام ناظريّ لكني لم أستطع أن أراه لأسباب مهمة سأكتشفها لاحقاً، وهي أسباب مرتبطة بتواريخ طويلة لها صلة بالخبز.

وكان ذلك نقطة البدء نحو اكتشاف هام قررت إحالته إلى جامعة السوربون في باريس تحت اسم يحفز الذاكرة وهو "الخبز الخفي". وعرضت في هذا البحث وشرحت ظاهرة الاختفاء المفاجئ لأشياء محددة كنوع من الهلوسة السلبية المتكررة أكثر بكثير من الهلوسات الحقيقية، لكن كان من الصعب إدراكها بسبب خاصيتها المتعلقة بفقدان الشخص للذاكرة. إن المرء لا يرى الشيء الذي ينظر إليه فوراً، وهذه ليست ظاهرة

تركيز مُبتذلة، لكنها ظاهرة هلوسية وواضحة بشكل متكرر جداً. إن القدرة على تحفيز هذا النوع من الهلوسة إرادياً، من شأنه أن يطرح أسئلة عن احتمال الاختفاء ضمن إطار ظاهرة حقيقية تصبح أحد أكثر الأسلحة الفعالة لسحر الارتياب. يستدعي المرء العنصر "اللاإرادي" الذي يشكّل أساس كل الاكتشافات. لقد اكتشف كولومبوس أمريكا بينما كان يبحث عن "نصف الكرة الآخر". لقد تم اكتشاف معادن الرصاص والأنتيمون أثناء عمليات البحث عن حجر الفلاسفة. أما أنا، وبينما كنت أبحث عن أكثر طرق هوسي بالخبز استعراضية، اكتشفتُ إمكانية اختفائه. إنها إمكانية الاختفاء ذاتها التي لم أكن قادراً على حلها بطريقة مُرضية في موضوع **الرجل الخفي**، ما لا يستطيع الإنسان فعله، يستطيعه الخبز.

لقد نجح معرضي عند "جوليان ليفي" بشكل كبير جداً، وتم بيع معظم اللوحات، وكانت ردة الفعل الانتقادية مع احتفاظها بالنبرة الجدلية تعترف إجمالاً بمواهبي التخيلية التصويرية.

كان عليّ السفر ثانية إلى أوروبا على سفينة "نورماندي" التي تبحر في الساعة العاشرة من الصباح التالي. ولأجل الليلة الأخيرة لبقائنا أعدّت "كاريس كروسبي" ومجموعة من الأصدقاء حفلة "ولا في الأحلام" على شرفي في مطعم "كوك روج". هذه الحفلة التي تمت بعد الظهر، بقيت كنوع من "مؤسسة تاريخية" في الولايات المتحدة، لأنها أُعيدتْ لاحقاً وقُلدتْ في معظم المدن الأمريكية. لقد تجاوزت هذه "الحفلة السريالية" الأولى في غرابتها كل شيء رغب به منظموها أو تخيّلوه. وبالتأكيد، لقد اخرج "الحلم السريالي" جراثيم الخيال المجنون التي قبعت في أعماق عقول الجميع ورغباتهم بأعنف ما يمكن. أنا نفسي وعلى الرغم من أنني أُعتبر محصناً من الانحراف بشكل جيد، فقد فوجئت بالجانب المشاكس "لسبت العرّافات" في نوبة الخيال التي غرقتْ بها تلك الليلة في مطعم "كوك روج". لقد ظهرت نساء **المجتمع** برؤوسهن المحشورة في أقفاص

الطيور وبأجسامهن العارية تماماً. وقد رسم بعضهنّ جروحاً وتشوهات على أجسادهنّ، وثقبن أجسادهن بدبابيس، وهذا ما حطّ من قدر جمالهن بشكل ساخر. وكان لسيدة نحيلة جداً شاحبة الروح فم "حي" في منتصف معدتها، وينفذ من خلال نسيج ثوبها اللماع. كما ظهرت أعين على الوجنات والظهور وتحت الأذرع وبدت مثل أورام خفيّة. وحمل رجلٌ يرتدي قميص سهرة دموياً طاولة صغيرة تتوازن على رأسه، وطار منها بلحظة واحدة سرب طيور متعددة الألوان. وفي وسط الدرج، تم تعليق حوض استحمام مملوء بالماء، وكان يهدد في كل لحظة بسقوطه وإفراغ محتوياته على رؤوس الضيوف. وفي زاوية قاعة الرقص، تم تعليق قطعة بقرة كاملة مسلوخة الجلد، وتم تدعيم بطنها المتثاقل بعكازات، كما تم حشوها بنصف دزينة من أجهزة "الراديو – الفونوغراف". وظهرت غالا في الحفلة الراقصة مرتدية ما يشبه "جثة رائعة". وثبتتْ على رأسها دمية واقعية جداً تمثّل طفلاً التهمه النمل، والذي التُقطَتْ جمجمته بين كلّابات سلطعون بحر فوسفوري.

غادرنا إلى أوروبا ببراءة في اليوم التالي. وأقول "ببراءة" لأننا عند وصولنا إلى باريس عرفنا فضيحة حفلة "ولا في الأحلام". في هذا الوقت كان الانفعال المحموم على محاكمة قضية اختطاف طفل عائلة ليندبيرغ على أشدّه. قام المراسل الفرنسي لجريدة "Petit Parisien – الباريسي الصغير"[1] بالتوازي مع وقائع هذه المحاكمة، بربط الأخبار المثيرة التي تذكر أن زوجة الرسام السريالي الشهير سيلفادور دالي، قد ظهرت في حفلة راقصة بنسخة رهيبة طبق الأصل عن طفل عائلة ليندبيرغ مثبتة في رأسها، وهذا ما أثار "فضيحة كبيرة". والشخص الوحيد في نيويورك الذي كان يعرف بأمر هذه الفضيحة كان المراسل الفرنسي لصحيفة "Petit Parisien " مع أنه لم يكن في تلك الحفلة

[1] م. دو روسي دو ساليه.

الراقصة. وعلى أية حال، لقد انتشرت الفضيحة في باريس كالنار في الهشيم، وتم استقبالنا بحالة من الذهول.

لم أعد سيد أسطورتي، وستصبح السريالية من الآن فصاعداً معرّفة بي أكثر وأكثر، معرّفة بي فقط. لقد تغيّر الوضع الآن، ووجدت إبان عودتي أن المجموعة التي عرفتها من السرياليين وشخصيات المجتمع، كانت في حالة تفسخ كامل. لقد حوّلت الانشغالات السياسية الكثير منهم نحو اليسار، وكانت زمرة السرياليين التي تطيع شعارات "لويس آرغون" الشبيه "بروبسبير" الانفعالي الصغير، تتطور إلى حالة من القبول الكامل من المنبر الثقافي الشيوعي. ووصلت هذه الأزمة الداخلية للسريالية إلى الذروة في اليوم الذي اقترحت فيه بناء "آلة تفكير" مؤلفة من كرسي هزاز تتدلى منه كؤوس من الحليب الدافئ، واستشاط "آراغون" غضباً وقال: "لا مزيد من أخيولات دالي! حليب دافئ لأطفال العاطلين عن العمل!"

لقد قرر "بريتون" لاعتقاده أنه رأى خطر الظلامية في زمرة الشيوعيين المتعاطفين، أن يطرد "آراغون" ومناصريه من أمثال "بانيل وأونيك وسادول" وآخرين من المجموعة السريالية. وقد اعتبرت أن "رينيه كريفيل" الشيوعي الوحيد المخلص تماماً بين هؤلاء الذين عرفتهم في ذلك الوقت، ومع ذلك قرر ألا يتبع "آراغون" بـ "طريق الاعتدال الفكري" الذي صاغه. غير أنه بقي على مسافة من مجموعتنا وانتحر بعد ذلك بوقت قصير، يائساً من احتمال حلّ التناقضات الدراماتيكية للمشاكل الفكرية والأيديولوجية التي تواجه جيل ما بعد الحرب. لقد كان "كريفيل" ثالث سريالي ينتحر مؤكدين بذلك ردّهم الإيجابي لاستبيان تم تعميمه كواحد من أول قضايا مجلة "La Revolution Surrealiste – مجلة الثورة السريالية" التي طرحت سؤال: "هل الانتحار هو الحل؟" لقد أجبت بالنفي داعماً هذا الرفض بتأكيد عدم توقف نشاطي الفردي. لقد كان السرياليون الباقون

ينتحرون الواحد تلو الآخر، غارقين في ظلامية سبات عميق وثرثرة سياسية على أرصفة المقاهي اليسارية.

وبشكل شخصيٍ، لم تستهوني السياسة أبداً، وخاصة في ذلك الوقت لأنهم أصبحوا يوماً بعد يوم عبارة عن قلّة بائسة وأشباح خائفة. من جهة أخرى فقد تعهدت بدراسة منهجية لتاريخ الأديان، لاسيما الديانة الكاثوليكية التي بدت لي وكأنها "فن معماري كامل". وبدأت أعزل نفسي عن المجموعة وبدأت حالة من السفر المستمر: إلى باريس، بورت ليغات، نيويورك، العودة إلى بورت ليغات ولندن وباريس ثم بورت ليغات. واغتنمت فرصة وجودي في باريس للخروج والاندماج بالمجتمع. لقد أثر بي الناس الأغنياء جداً، وكذلك الناس الفقراء جداً مثل صيادي السمك في "بوت ليغات"، لكن لم يؤثر بي الناس العاديون مطلقاً. وهناك، حول الشخصيات السريالية الحقيقية، بدأ يتجمع الناس العاديون وكل الكائنات الحية من الهامشيين والبرجوازيين التافهين القذرين. لقد هربت منهم كما لو أنهم داء الكوليرا. وكنت أذهب لأقابل "أندريه بريتون" ثلاث مرات في الشهر، و"بيكاسو وإلوارد" مرتين أسبوعياً، ولم أتحرك نحو تلاميذهم أبدا. أما شخصيات **المجتمع**، فكل يوم وكل ليلة تقريباً.

كان معظم شخصيات المجتمع" غير أذكياء، وكان لدى زوجاتهم مجوهرات قاسية كقلبي، ويستخدمون عطوراً غير عادية ويعشقون الموسيقى التي أمقتها. لقد بقيتُ دوماً ذلك القروي الكاتالوني الساذج الماكر الذي يسكن جسده ملك. وكنت مغروراً ولم أستطع أن أخرج من عقلي الصورة المضطربة التي كانت على شكل بطاقة بريدية لامرأة عارية من **المجتمع** مثقلة بالمجوهرات، وترتدي قبعة باذخة، وتسجد عند قدميّ المتسختين...[1] لقد عاد هوسي الذي يعود إلى فترة مدريد بارتداء

---

[1] لقد سمعت رساماً كاتالونياً يقول عن شخص شديد الوساخة، "تخيل كم كان وسخاً فتلك الأشياء السوداء التي لدينا جميعاً بين أصابع أقدامنا كانت بين أصابع يديه!"

ملابس أنيقة إلى عقلي ثانية، وعندها فهمت أن "الأناقة هي تجسد طهارة مادية لحقبة معينة، وهي للسبب نفسه، الشيء الوحيد الملموس، وهي الزيف الحاد والنداء المرتفع للدين.

لا شيء في الحقيقة أكثر مأساوية وعبثية من الأزياء. وكما بالنسبة إلى ذكاء من الدرجة الأولى مثل ذكائي، تم تمثيل حرب 1914 بالآنسة شانيل، فإن الحرب التي كانت ستندلع قريباً والتي كانت ستصفّي ثورات ما بعد الحرب، لم تتمثل بالجدالات السريالية في مقهى الساحة البيضاء، ولا بانتحار صديقي العظيم "رينيه كريفيل" بل تمثّلت بمؤسسة إلزا شيباريلي التي أوشكت أن تفتتحها في ساحة الفاندوم. هنا حدثت ظواهر شكلية جديدة، هناك سيصبح جوهر الأشياء دم المسيح وجسده، وهنا ستهبط ألسنة النار للروح القُدس الخاص بدالي. (ولأنني على حق دوماً لسوء الحظ) فقد هاجم الجنود الألمان "بياريتز" بعد ذلك بفترة متنكرين بطريقة شيباريللي ودالي، مرتدين أزياء مموهة وسخيفة، مع أغصان وأوراق قُطعت حديثاً من تراب فرنسا. لكن كانت "بيتينا بيرجي" هي الروح والحيوية لمؤسسة شيباريللي، وهي إحدى نساء باريس الأعلى موهبة وخيالاً. إنها تشبه حشرة فرس النبيّ وهي تعلم ذلك. إن "بيتينا" و"روسي سيرت" (المولودة باسم الأميرة ميدفاني) هما الهيكلان العظميان لجنيات الشعر اللطيف، وهما مع "شانيل" فرنسية الفرنسيات، ترأسن من بقوا من أصدقائي المقربين على الرغم من الانفصالات والموت.

لقد جلبتْ لندن ومضة مما قبل الرافائيلية إلى باريس، ووجدتُ أنها الوحيدة التي أفهمها وأتذوقها. وكان "لبيتر واتسون" ذوق أكيد في الفن المعماري والمفروشات، وقد اشترى لوحات بيكاسو. وطلب الشاعر والطائر الطنان "إدوارد جيمس" الهاتف المثير بالسماعة السلطعونية، واشترى أفضل لوحات دالي وكان الأغنى بشكل طبيعي. كان "اللورد

بيرنرز" حاضراً باهتمام في حسّ فكاهته مع بزّة الغوص، وكذلك في الحفلات الموسيقية الراقية التي تقيمها الأميرة "دو بولينياك" في قاعة الرسم الضخمة التي صمم ديكوراتها "خوسيه ماريا سيرت" مع عواصف الفيلة الجنينية النبوية لدول أوروبا التي توشك أن تنفجر.

لقد تم تحضير أكثر الشائعات جوهرية في باريس عند "ميسيا سيرت" زوجة سيرت الأولى. وعند "ماري لويز بوسكيه" يشتم المرء بقايا صالونها الأدبي الاجتماعي حيث يتم الاستقبال أيام الخميس، ويقع هذا الصالون في الجهة السفلية من بحيرة هادئة رمادية الصخور، قرب المكان المسمى "قصر بوربون، وقد شهدت في هذا الصالون ماساً كهربائياً مذهلاً بين حبات كرز حقيقي وبين حبات أخرى مضاءة بأشعة الشمس ذات اللون الكرزي التي تسللت لتستقرّ على أنف أساس هذا الصالون، ذلك الأنف الليّن الوهمي للسيد "أمبروس فولارد" وأحياناً على "بول بواريه". وعبر الساحة مقابل ماري لويز. احتفظ "إيميليو تيري" بأعمال دالي الجديدة بين أدق شبكات عنكبوت في باريس.

وفي الربيع، كان السرور يسود منزل الكونتيسة "ماري بلانش دو بولينياك" حيث يمكن للشخص أن يستمع من الحديقة لسلسلة رباعيات عُزِفَت في الداخل الملتهب بالشموع ورسومات "رينوار"، وبالأثر المؤذيَ للوحة الباستيل التي لا يمكن تجاوزها "لفانتين لاتور"، وتستطيع أن تضيف إلى ذلك كمية من البيتيفور والكثير من السكاكر وأصناف أخرى من الحلوى.

أما عند الكونتيسة دو نواي، فكانت هناك الزاوية المعاكسة في الرسم والأدب. وكانت هناك تقاليد هيغل ولودفيغ الثاني وغوستاف دوريه وروبسبير ودي ساد، ودالي ولمسة من سيرج ليفار.

كذلك كان هناك ألعاب الكرة وعشاءات السيدة "ريجينالد فيل لوز"، حيث يمكن أن تعتمد على خيبة الأمل بعدم رؤيتها مرتدية ثوباً

من تصميم جان كوكتو، وسماع خطبة من غيرترود ستاين، وهذا كله لحسن الحظ مصحوب بخيلاء وأناقة من الطراز الرفيع.

وكان لدى الأمير والأميرة "دو فوسيني لوسينغ" "نبرة" لاجدال فيها. لقد كانت هذه النبرة شديدة ومستمرة تقريباً كما هي "شخصية" الإسبان. وكانت بقايا شجاعة رسومات "أوبري بياردلي" الغريبة والأنيقة جداً. وكان لهذه الأميرة دوماً لمسة خارج الموضة، وكانت قادرة على الاستبداد بالأزياء. كما كانت مفارقاتها متجددة دوماً وكانت من دون شك، واحدة من النساء اللواتي يمتلكن حسّ "الأناقة الباريسي" الأكثر دقة.

لقد أسس الكونت والكونتيسة "إتيان دو بومونت" المفتاح المسرحي لكل ذلك، وكان الدخول إلى منزلهما أشبه بدخول مسرح. وكان كل ما أنت بحاجة إليه لتدرك ذلك رؤية لوحة تكعيبية لبيكاسو من الفترة الرمادية معلقة على أنابيب أرغن فضية. لقد تحدث "إتيان دو بومونت" تماماً كالناس الذين وُلدوا للمسرح، مرتدياً حذاء أطفال غريب. كما أن جميع المؤامرات الإجرامية بطريقة ما، بين الشركات المختلفة للبالية الروسي التي تركها "دياغيليف" في يقظته، برزت ونمت وتفجرت في حديقته التي تم تعليق أزهار اصطناعية أحياناً على أشجارها. وفي منزله أيضاً، كان بإمكان المرء أن يقابل "ماري لوينسن، وكاردينال فيردييه، وكولونيل دو لاروك، وليوند ماسين، وسيرج ليفار، ومهراجا كابورتالا، والسفير الإسباني وشرذمة من السرياليين.

كان "مجتمع" باريس مجتمعاً فاسقاً جداً، وكان شبح هزيمة عام 1940 يرتفع فعلاً في الغيوم القرمزية لأفق فرنسا، ومع شعور الحلاوة الكارثي والمرارة التي تجسدت في لثتي فيرنانديل[1] الواقعيتين الدبقتين

---

[1] ممثل كوميدي من السينما الفرنسية، تم اكتشافه بواسطة جان رينوار، اعتبر بحق من قبل سلفادور دالي ليكون الأكثر واقعية والأفضل. لقد منعت الحرب دالي من تنفيذ بورتريه فيرنانديل متنكراً كقزم فيلاسكيه.

اللتين تحظيان بالشعبية، واللتين كانتا على نقيض واضح من الشحوب الشبحي الحيوي للأميرة الروسية "ناتالي بالي" التي ترتدي أفخم أثواب لولونغ، وقوامها مغطى بكل مساحيق تجميل حقبة 1900. لمسة أخرى تمت إضافتها بوجه هنري بيرنستاين الذي لايضاهى وسط تعبير عن الوضوح الانفعالي الساخر لإشاعة نبوءة أمام طبق معكرونة وكل ذلك تم إغراقه في ظلالية نبل جبنة البارميزان، التي أنارت نادي كازانوفا الليلي والتي كانت فقط بانتظار اللحظة المؤاتية لتنفجر لهباً مثل حلوى كريب سوزيت. إن لحية بيبي بيرارد التي من بعد شعيرات شاربيّ كانت من أكثر الرسامين ألمعية في باريس، تمشي الهوينى وتفوح برائحة الأفيون والإخوة لو نين والانحطاط الروماني، في باريس هذه الناضجة للراسبوتينية، وداندية بيبي، ودالينية غالا، مع التأكيد المغري والمريب كالرومانسية المعمارية تلك العائدة لنظرة بييرو ديللا فرانسيسكا. بمعزلٍ عن رسوماته كان لدى بيرارد ثلاثة أشياء كنت أظنها لطيفة جدا ومؤثرة هي قذارته ونظرته وذكاؤه. كذلك بوريس كوشنو، لديه لحية لطالما تمت حلاقتها بعشوائية، وكانت تنمو بمثابرةٍ وشجاعة القوزاقي. لقد "ألهب" الباليه الروسي، أكل بسرعة وغالباً غادر باستعجال كبير، مسامحاً نفسه حالاً بعد طبق الحلوى (كان يسرعٍ إلى طبق حلوى آخر). كان لحمه أحياناً يصبح أحمر اللون محتقناً: وعندها تتباين زرقة لحيته الحليقة والصلبة مع بياض مقدمة قميصه، وإن لم ينظر أحدهم بعناية كبيرة فقد يعطي انطباع العلم الفرنسي بكل ألوانه الأحمر والأبيض والأزرق.

الرسام "خوسيه ماريا سيرت"، الرجل ذا الخيال اليسوعي الإسباني الحقيقي — كان يغلفه بشكل رائع كما لو أنه بزّة غطس ذهبية — كان لديه منزل في "ماس جوني" التي تبعد ثلاث ساعات عن بورت ليغات، وهي من أفقر المناطق في أوروبا وأكثرها فخامة. وكنت أذهب

إلى هناك مع غالا كي نقضي عدة أسابيع كما أن المجموعة التي أعرفها كلها قد وجدت طريقها إليها، حيث كانت تقضي أيامها حتى نهاية الصيف، تلك الأيام السعيدة الآخيرة التي عاشتها أوروبا بسعادة لمرحلة ما بعد الحرب – بسعادة، وسوية فكرية رائعة في الوقت نفسه. وكل ذلك لا يعدو أن يكون الآن أكثر من ذكرى حنين لوقت مضى.

وانتهى سحر هذه الفترة التي يتم التحضير فيها لمهرجان رقصة "ساردانا" الكاتالونية ومهرجان "كوستا برافا" الإقليمي، بحادث سير قُتِل فيه الأمير "ألكس ميدفاني" والبارونة "فون تايسن" في سيارة رولز رويس على طريق فيغوراس. وأوشكت "روسي" أخت الأمير "ألكس" أن تموت من الحزن على مدى أربع سنوات لاحقة. ولأقول لكم كم أحببت هذه الإنسانة، عليّ أن أقول لكم إنها كانت تشبه "لؤلؤتا الموت" التي تشبه إحداهما الأخرى – رسم "فامير" لوحة وجهية لهذه الفتاة الشابة وهي في متحف مدينة هيغ.

يجب ألا يطلق أحد حكماً طائشاً على أنصار الرومانسية الجامحة التي لا حلّ لها في أوروبا. وربما ينتظر المرء قرناً من الزمن ليرى مثل هذه الشخصيات من جديد. وقد كان السرياليون وسيدات المجتمع يتوقون أيضاً إلى الوجدانيات! وبعض السياسيين المحترفين لم يستطيعوا أن يفعلوا ما فعله هؤلاء في المحن التي تلت. وبعيداً عن هذا الهرج والمرج للترف والارتباك الأخلاقي والاختلاط الوجداني والتجارب الأيديولوجية التي امتدت إلى نقطة مزقت جوهر أناقة كل فرد منا وأصله، فإن قلّة فقط كان مصيرها النجاة، لأن أوروبا التي نحبّها، كانت تغرق في أطلال تاريخ معاصر بلا ذاكرة ولا مجد، إنه التاريخ المعاصر المعادي لنا جميعاً، والمناهض للتاريخ الحقيقي بشكل واضح!

الفصل الثاني عشر

مجد بين الأسنان وألم بين الساقين، غالا تكتشف كلاسيكية روحي وتلهمها

كانت رحلتي الثانية إلى أمريكا هي ما يمكّن تسميته البداية الرسمية "لمجدي" بعد أن بيعت لوحاتي كلها أثناء افتتاح المعرض. وقد نشرت مجلة "التايم" على غلافها صورة لي التقطها المصور "مان ري" مذيّلة بالعنوان التالي: "**سلفادور دالي السريالي**: صنوبر متقد، رئيس الأساقفة، زرافة، وغيمة الريش التي خرجت من النافذة". كما أنني علمت عن الأمر من عدة مصادر فور صدور المجلة، وعندما استلمت نسخة منها، أُصِبت بخيبة أمل كبيرة لأنني اعتقدتُ أنها مجلّة "صغيرة". لكنني علمت لاحقاً بأنها من أفضل المنشورات في أمريكا وأكثرها أهمية.

لم أستوعب أبداً السرعة التي أصبحتُ بها مشهوراً. لقد أصبح بالإمكان التعرّف عليّ في الشارع، ويُطلب مني إعطاء توقيعي الشخصي باستمرار. كميات كبيرة من رسائل مدهشة وصلتني من أكثر الأماكن بعداً وتنوعاً في البلد. وتلقيت كمّا هائلاً من العروض التي كان كلٌ منها أكثر إدهاشاً من سابقه.

وفي مجال الدعاية والإعلان، قبلت عرضاً لتنفيذ واجهة عرض أحد محلات "بونويت تيلر" بطريقة سريالية. واستخدمتُ نموذجاً على

شكل جسد بشري يُصنع رأسه من ورود حمراء، وتُصنع أظافر أصابعه من فرو القاقم. وتحوّلت سماعة جهاز الهاتف الموجود على الطاولة إلى شكل سلطعون بحر، وكان معطفي الشهير المثير عبارة عن معطف أسود عُلِّقَت عليه ثمان وثمانون كأس شراب مملوءة حتى حافتها بكريم النعناع، وفي كل كأس ذبابة ميتة ومصاصة كوكتيل.

وتم عرض هذا المعطف المثير بنجاح كبير في معرض سريالي في لندن، حيثُ قدّمت المحاضرة وأنا أرتدي بزّة غوص. وكان اللورد "بيرنرز" هو المسؤول عن استئجار البزّة المذكورة وقد سألوه بدقة عن العمق الذي يرغب السيد دالي النزول إليه. وأجاب بأنني سوف أغطس إلى اللاوعي وسأعود منه على الفور إلى الأعلى ثانية. وبالطريقة الجدّية نفسها أجابَ المتحدث بأنهم سيستبدلون الخوذة في حالة كهذه بأخرى خاصة.

وارتديتُ بزّة الغوص، وأغلق الفني المسؤول عنها خوذتي بإحكام. وكان مع بذّة الغوص حذاء ثقيل يصعب رفعه، وكان عليّ أن أسير ببطء متكئاً على أصدقاء ساعدوني في التحرك كما لو أنني مشلول تماماً. وهكذا ظهرت أمام الحضور ممسكاً كلبي صيد روسيين يشبهان ذئبين أبيضين فاخرين موثوقين بسلسلة. ولا بدّ أن ظهوري الغريب في هذه البزّة سبب إرباكاً بدا من خلال الصمت الذي خيّم على الصالة. ثم قامت إحدى المرافقات بمساعدتي للوصول إلى الكرسي خلف الميكروفون. وكانت هذه هي اللحظة التي أدركت بها أنه سيكون مستحيلاً أن ألقي محاضرتي من خلال فتحة زجاجية في خوذتي. بل وأكثر من ذلك، فقد تم إحكام إغلاق البزة وارتفعت الحرارة بعد عشر دقائق فقط بسبب الجهد الذي بذلته أثناء سيري على المنصّة وصولاً إلى الكرسي وبدأت أقطر عرقاً وكنت أوشك أن أختنق.

بذلت ما استطعت من جهد كي أشير عبر إيماءة يدي طالباً نزع الخوذة. ثم جاءت غالا وإدوارد جيمس بسرعة متفهمين حالتي، ولنزع

الخوذة عن رأسي. لكن إغلاقها كان محكماً، ولم يكن هناك ما يمكن فعله، لأن العامل الذي ثبتها اختفى. لقد حاولا فتح شقٍ بين الخوذة والبزة بواسطة عصا البلياردو لأتمكن من التنفس. أخيراً أحضرا مطرقة وبدأا ضرب الأقفال بنشاط لتحريكها باتجاه الفتح. ومع كل ضربة ظننت أنني سأصاب بالإغماء. وكان معظم الحضور مقتنعين بأن ذلك جزء من العرض، وكانوا يصفقون بشدة مستمتعين بهذا العرض الإيمائي الذي نمثله بشكل واقعي جداً. وعندما خلعت البزّة أخيراً، دُهش الجميع بلوني الشاحب الشبيه بالأموات، وشكّل هذا الأمر المعيار الحقيقي لتلك العناصر الداليّة التي ما فتئت تحضر في أكثر أعمالي العادية، وفي عروضي التي أقدمها. وأظن أن الفضل في الأسطورة الداليّة التي تبلورت بعد عودتي إلى نيويورك يعود إلى الغرابة الشديدة لتلك المحاضرة التي قدّمتها في بزة الغوص، إضافة إلى تميز معرض لوحاتي التي قدمها السيد "مكدونالد" في صالة عرضه في لندن مترافقاً مع اثنين من الأسلاف المشهورين بعنوان (سيزان، كورو، دالي).

لكن كما أن كل شيء يسير بي نحو الأفضل، وقعت فجأة في قبضة الاكتئاب الذي لم أستطع تحديد أسبابه. وأردت العودة إلى إسبانيا بأسرع ما يمكن! لقد أثقل نوع معين من الإجهاد القاسي مخيلتي أكثر من أي وقت مضى، وأوصلني إلى حالة من الهستيريا. كنت قد اكتفيت من كل ذلك! لا مزيد من بزات الغوص والهاتف السلطعوني وملاقط المجوهرات والبيانو الطري ورئيس الأساقفة والصنوبر المتقد المرمي من النافذة، لامزيد من الإعلانات وحفلات الكوكتيل. أردت العودة إلى بورت ليغات بأسرع ما يمكن. وهناك، في المكان المعزول الذي امتلكناه أنا وغالا عبر ست سنوات من العمل الدؤوب، قلت لغالا: "سأكون قادراً أن أبدأ هنا بأشياء مهمة".

وصلنا إلى بورت ليغات نحو نهاية بعد ظهر ساطع جداً من شهر كانون الأول. لم أفهم أبداً كم كانت طبيعة بورت ليغات جميلة! وكنت

في حالة توق شديد لأن أكون سعيداً وأستمتع بأدق تفاصيل الحياة التي كنت أوشك أن أعيشها. لكن غمّاً غير واضح غمرني بضفائر أشعة الشمس، وأجبرني باستمرار على أن أتنهّد بعمق. ولم أستطع النوم ليلاً. وعندما يبزغ الفجر، كنت أسير على طول الشاطئ. إن ذكريات الحياة المترفة والبراقة التي كنت أعيشها في السنوات الأخيرة في باريس ولندن ونيويورك، فاجأتني الآن كأنما هي من عالم آخر بعيد غير حقيقي، زاد من شعوري بالغمّ غير المفهوم، وأطبق علي.

ما الذي يحصل معي؟ لقد حصلتَ على ماكنتَ تريدُه لست سنوات. أنتَ في بورت ليغات التي هي أكثر مكان تحبه في العالم. أنتَ مع غالا، وهي أكثر كائن تحبه في العالم. ولم يعد لديكَ معاناة من القلق المهين لتأمين المال. ويمكنك مع هذا الفائض من الوقت أن تبدأ بأعمال مهمة كنت ترغب بإنجازها أكثر من أي شيء في العالم. كما أنك لم تتمتع بصحة جيدة أبداً كما أنتَ الآن. ولديك خططٌ لمشاريع أعمال مسرحية وسينمائية تومئ إليكَ، ولديك كامل الحرية لتختار... غالا ستكون سعيدة إن لم تشغل بالها بقلقكَ غير المتوقع الذي يتلف عينيك حين ينحرف نظرك بجبن، مما يخدع خوفك... خوفك من ماذا ؟

كنتُ أطلق تنهيدة غضب على هذا الغمّ لأبدّدَ كل أوهامي، ويبدو ذلك الهواء البحري الذي يملأ رئتيّ، مشبعاً بالمرارة والتمزق المتداخلين بالدموع. قلت لنفسي بأن هذا بات سخيفاً، لكن على الرغم من الجدالات المؤكدة التي لجأت إليها للتغلب على هذه الحالة، كنت على يقين بأن غمَي في الساعة الأخيرة قد زاد أكثر. وقد أطلق هذا الافتراض طوفاناً من الغمّ أنهك جسدي كلّه في لحظة، وأغرقه في حالة تعرّق رهيب. وإذا استمرّ الحال على هذا النحو، فسوف أنهار قريباً وأنوح.... عليّ أن أنقضّ على غبائي. ونصحتني غالا أحياناً بأخذ

حمام سريع لأريح أعصابي. وكنت أغمر نفسي بالماء البارد والهادئ للشاطئ المنعزل الذي يخيم عليه السبات الشتوي.

خلعت ملابسي وبقيت وقتاً طويلاً واقفاً وعارياً تماماً. كانت حرارة الشمس تسفع كما في الصيف، لكنني لم أمتلك شجاعة النزول إلى الماء. عندها سمعت صوت خطوات كآبة تصعد درجات لحم جسدي العاري خطوة خطوة. لقد ذكرتني بحكاية مخيفة لطالما أخافتني عندما كنت ولداً صغيراً، إنها حكاية مارييتا الميتة التي عادت في ليلة دفنها إلى منزلها لتخيف زوجها.

"آي، آي!" صرختْ بنواح الحداد بينما كانت تصعد الدرج، " أنا على الدرجة الأولى!"

"مارييتا! مارييتا!" صرخ الزوج متوسلاً. "لاتأتي وتأخذيني! عودي إلى قبرك!"

"آي، آي!" أجابت مارييتا، "آي، آي، أنا على الدرجة الثانية!"

"مارييتا! مارييتا!..."

"آي، آي! الآن أنا على الدرجة الثالثة!"

"مارييتا!..."

في النهاية، عندما وصلت مارييتا المرأة الميتة إلى الدرجة الأخيرة، توقفت الممرضة لوسيا التي كانت تحكي لي الحكاية لتخلق التشويق الأقصى الذي يقشعر له البدن ، لتصرخ بعده بعنف غير متوقع قابضة على كتفي بيدها، "لقد نلت منك!"

سمعت غالا بعيداً في الخلف تدعوني إلى الغداء، وارتعشتُ بشكل هستيري، وبشكل غريزي واضعاً يداً على قلبي والأخرى على "قضيبي". عطر لطيف فاح من جسدي، يبدو لي كما لو أنه عطر موتي بالتحديد. ومنذ تلك اللحظة أحسست بثقل الغمّ كله ينتشر نازلاً بين رجليّ كأنه عملية قطع واليد القذرة لمصيري المتعفن أصلاً. عندما عدت للمنزل حاولت توضيح مزاجي لغالا.

"لا أعاني من أية مشكلة. أعلم بأن المجد في متناول اليد، ناضج مثل تين أولمبيا، عليّ فقط أن أطبق يديّ وأسناني لأحس بتدفق مادّي للعصير. لا أعاني من أية مشكلة، لا يوجد شيء لينتج هذا الغمّ. ومع ذلك أشعر بأنني عبدٌ لهذا الغمّ المتزايد، لا أعلم من أين يأتي أو إلى أين يذهب! لكنه قوي لدرجة تخيفني! هذا هو تماماً ما أعاني منه: ليس هناك مشكلة، لا شيء على الإطلاق يمكن أن يخيفني، لكنني خائف من أن أصبح خائفاً، والخوف بأنني قد أصبح خائفاً يخيفني!"

بدت لنا من بعيد هيئة ليديا "المزروعة جيداً" ترتدي ثياباً سوداء جالسة على عتبة باب منزلنا، بانتظار عودتنا. عندما اقتربنا قامت ليديا وأتت لملاقاتنا وكانت تبكي. دخلنا المنزل وكشفت لنا بأن حياتها مع ولديها الاثنين أصبحت لاتطاق لأنهما لا يذهبان للصيد، ويتحدثان دوماً عن مناجم الراديوم خاصتهما، ويقضيان معظم الوقت على سريريهما. وكانا يبكيان حيناً، وتسيطر عليهما ثورة غضب حيناً آخر فيضربانها. لقد أرتنا ندبة في رأسها بعد أن باعدت ضفيرتا شعرها الأبيض، ورأينا الكدمات الزرقاء على كامل جسدها. وبعدها بأسبوع، تم إرسال ولديها إلى مستشفى الأمراض العقلية في "جيرونا". وفي أوقات بعد الظهر كانت ليديا تأتي إلى المنزل وتبكي. بورت ليغات كانت منعزلة. منعت ريح عاصفة ومستمرة صيادي السمك من الذهاب للصيد، ولم يكن سوى القطط الجائعة التي تتسلل حول منزلنا الصغير. وكان "رامون" يسعل، وكان مغطى بالقمل دوماً وهذا ما جعلني أمنعه من الاقتراب منا. وكانت ليديا تجلب له بقايا الطعام كل مساء، وتبقى خادمتنا تتحدث إلى نفسها في المطبخ بلا توقف. وذات صباح، صعدَتْ إلى السطح عارية الصدر تضع قبعة غريبة مصنوعة من الجرائد وقطع من خيط مثبت على رأسها. لقد أصبحت مجنونة، وكان علينا الحصول على خادمة جديدة.

لقد تحول خوفي من أن أصبح خائفاً إلى خوف واحد محدد تماماً وهو أن أصبح مجنوناً وأموت! وقد مات أحد ولدي ليديا من الجوع. وفي الحال أصبحتُ فريسة خوف من عدم القدرة على أن أبتلع طعامي. وحدث ذلك ذات مساء: لم أستطع البلع! بالكاد كنت أستطيع النوم ليلاً، وخلال ساعات الظلمة الطويلة لم يرخِ الغمُّ قبضته عني للحظة واحدة. وكنت خلال النهار أذهب إلى الخارج بائساً وأجلس مع الصيادين الذين يأتون ليتحادثوا في بقعة محمية من الريح تدفئها أشعة الشمس، خارج ترامونتانا[1] التي لم يهدأ عنفها الجامح. وخلال الحديث عن المشاكل والصعوبات اليومية، نجح الكثير من الصيادين في صرف انتباهي قليلاً عن هواجسي. وكنت أسألهم أسئلة عن كل شيء، لأنني أحببت أن أنتشل منهم قطعاً حيةً من همومهم لأستطيع الوقوف بها لمواجهة همومي الخاصة. لكنهم لم يكونوا مهمومين، لم يكونوا خائفين من الموت. وقالوا لي: "نحن أكثر من نصف أموات أصلاً". لقد جلس أحدهم أمامي وبدأ يقطع ببطء قطعاً من جلد ميت من السماكة الصفراء أسفل قدمه بسكينة، وسلخ آخر قشور جرح يغطي ظهر يده حيث تنتبج الأوعية الدموية الزرقاء بسبب مرض تصلب الشرايين، وكان يتبع مسارها القاسي بين الشعيرات المنتصبة. وكانت بعض هذه القشور تتشبث بهذه الشعيرات، بينما ترمي عصفة الريح بعضها على مجلة "فوغ" التي كنت أتصفحها. وكانت غالا تأتي لاهثة وهي تحمل حزمة من المجلات الأمريكية والباريسية التي تعلم أنها قد تسترعي انتباهي للحظات قليلة. كانت هناك صورة لسيدة أنيقة جداً ترتدي مشابك مجوهرات مركبة مع زهور وقد ظهرت في حفلة في حديقة ترتدي ألماسة بشكل قطرة ضخمة من الماء تنساب من

[1] إن نوبات (*tramontana*) تستمر عواصفها أحياناً لمدة ثلاثة أسابيع بدون توقف، تكون السماء خلالها صافية، لكن الصيادين لايستطيعون الخروج للصيد في البحر.

وردة طبيعية. كان هناك إعلان عن أحمر شفاه جديد قيل عنه بأنه أحمر دالي الحقيقي، والذي كان يجب تطبيقه فوق طبقتين سائلتين.

وأطلق الصياد العجوز "باتو" غازات معدته بدفقات متعمدة وقال بعدها: "أنا لن أتناول المزيد من لحم الأخطبوط بعد اليوم، إن لدى زوجتي هوس العاهرات بإضافة الكثير من الثوم إليه، والنتيجة الوحيدة هي المغص!" وردّ صياد آخر: "الأمر ليس كذلك، إنها الفاصولياء التي تناولتها منذ يومين. وهي من تجعلك تطلق ريحاً بعد يومين".

عند الظهيرة كانت تشتد حرارة الشمس مهيجة النار الناعسة لجوع الجميع. وأرسلت في طلب بضع زجاجات من الشمبانيا التي شربناها بعد وجبة عامرة من قنفذ البحر. كان مايزال لدينا ثلاثة أيام أخرى من العاصفة!

"غالا، تعالي إلى هنا واجلبي لي الوسادة، وامسكي يدي بإحكام، أظن أنني سأنام. أحس بقلق أقل. إنه مبهج هنا الآن".

اندفعت سحلية صغيرة ذات رأس يتحرك بسرعة ووجه مثلث الشكل، لتنقضّ على ذبابة كانت تمتصّ عُصارة قنفذ بحر محطّم. لكن عصفة ريح أطلقت صفحة من إحدى مجلاتي وجعلت السحلية تعدو باتجاه شقّ الجدار المهدّم الذيَ تسللت منه. وشعرتُ بأن أحاديث صيادي السمك تذوي تدريجياً. ومع إزالة ثقل القيود الحسية للهضم، كانوا يسقطون في الأحلام الواحد تلو الآخر. وكنا جميعاً ملتجئين في هذا المكان كما لو أنه الأكثر قبولاً من فرن فترة بعد الظهر، والصفير الصاخب للريح التي لا تستطيع الوصول إلينا. بدا الأمر كما لو أن هذا الخليط من صيادي السمك الفقراء بثيابهم المحبوكة برقعات، والروح الملحمية والعطور الأساسية، كانت تتداخل في مزيج من "الواقع" الذي فاق في النهاية ثقل الهموم وتخيلاتي عندما شعرب بالرغبة القوية جداً بالنوم.

عندما استيقظت، كان كل الصيادين قد غادروا، توقفت العاصفة عن الهبوب، وكانت غالا[1] تنحني فوق مهجعي مثل حيوان من القلق يغوص فوق جسد "خادرة اليرقانة" الذي كنته. لأنني مثل خادرة اليرقانة أحطت نفسي بكفن حريري من مخيلتي، وكان لابد لهذا أن يتم ثقبه وتمزيقه لتتمكن الفراشة المرتابة لروحي أن تنبثق وتتحول لتصبح حيّة وحقيقية. لقد كانت "سجوني" حالات انسلاخي وتحوّلي، لكن من دون غالا كانت تنذر بأن تصبح أكفاني، ومرة أخرى كانت غالا هي التي أتت بأسنانها كي تمزق هذه الأغلفة المحبوكة بتأنٍ، والتي كنت قد بدأت أتعفّن داخلها.

" انهضْ وامشْ"!

لقد أطعتُها. لقد اختَبرت "نكهة" التقاليد للمرة الأولى بعد إحساسي بنفسي ألمس الأرض بأسفل قدمي.

"لم تنجز شيئاً بعد! لم يحن وقتك لتموت!"

كان مجدي السريالي عديم القيمة. يجب أن أدمج بين السريالية والتقاليد. يجب أن تصبح مخيلتي كلاسيكية ثانية. كان لديّ الكثير من العمل الذي قد لا تكفي بقية حياتي كي أنجزه. لكن غالا جعلتني أؤمن بهذه المهمة. وبدلاً من الخضوع لسراب نجاحي النادر، كان عليّ أن أبدأ القتال من أجل أمر "مهم". هذا الأمر المهم هو أن أعود بخبرتي في الحياة لتكون كلاسيكية، وأمنحها شكلاً من مركب نشأة الكون والفن المعماري للأبدية.

---

[1] حالما شفتني غالا غراديفا (السيدة التي تمشي) من الجنون بواسطة الواقعية المادية لحبها. وكوني قد أصبحت شخصاً عملياً، أصبحت قادراً على تحقيق "مجدي" السريالي. لكن هذا النجاح كان يهدد بانتكاس الجنون، لأنني كنت قد حبست نفسي في عالم من خيالي المدرَك. كان من الضروري تحطيم هذه الشرنقة. كان من الضروري لي حقاً أن أؤمن بعملي، بأهميته خارج نفسي! هي علمتني كيف أسير، عليّ أنا بدوري أن أسير قدماً كالسيدة التي تمشي (غراديفا). عليّ أن أمزق شرنقة همومي. مجنوناً أو حياً! لقد قلت مرة تلو الأخرى: حيٌّ ، أتقدم بالعمر حتى الموت، الفرق الوحيد بين نفسي وبين رجل مجنون هو حقيقة أنني لست مجنوناً!

الفصل الثالث عشر

التحول، الموت، البعث

دينـــــغ دونـــــغ، دينـــــغ دونـــــغ، دينـــــغ دونـــــغ....
ما هذا؟
هذا صوت ساعة التاريخ التي تدق
ماذا تقول ساعة التاريخ يا غالا؟

على قرص ساعة التاريخ، بعد ربع مرحلة "المذاهب[1]"، توشك ساعة الفرد أن تقرع! ساعتك يا سلفادور!

دينغ دونغ، دينغ دونغ، دينغ دونغ، دينغ دونغ! كانت أوروبا ما بعد الحرب على وشك أن تموت بسبب فوضى "المذاهب" وغياب الجمال السياسي والتصلب الإيديولوجي والأخلاقي. وكانت أوروبا على وشك أن تموت بسبب الشك والتعسف والكآبة ونقص الشكل ونقص التآلف، ونقص الفلسفة الكونية. كانت أوروبا ما بعد الحرب تموت بسبب نقص الإيمان. كانت تظن أنها تعرف كل شيء بعد تذوق فاكهة التخصص المحرمة. لكنها لم تؤمن بشيء ووثقت بكل شيء، حتى في أخلاقيتها وجماليتها، في المرونة المجهولة الاسم لـ "الجمعي".

---

[1] تتسم كل مرحلة ما قبل الحرب وما بعد الحرب بتكاثر المذاهب: التكعيبية، والدادنية، والتزامنية، والصفانية، والاهتزازية، والأورفيوسية، والمستقبلية، والسيرالية، والشيوعية، والاشتراكية القومية، وآلاف غيرها. كان لكل منها قادتها وأنصارها وأبطالها. تدعي كل منها معرفة الحقيقة، لكن "الحقيقة" الوحيدة التي قدمتها كانت أنه ما إن تُنسى هذه المذاهب (وكم كانت تنسى بسرعة!) لا يبقى بين أطلالها التي عفا عليها الزمن إلا حقيقة وجود بعض الأفراد الأصليلين.

تتحدد الفضلات دوماً بشكل أو بآخر بما يتناوله المرء. وكانت أوروبا ما بعد الحرب قد تناولت "المذاهب" والثورة بشكل مستمر. ولذلك ستكون فضلاتها مكونة من الحرب والموت. وكانت المعاناة الجمعية لحرب عام 1914 قد أدت إلى الوهم الطفولي بوجود "الرفاهية الجمعية" بناء على الإلغاء الثوري لكل القيود. أما ما تم نسيانه فهو الحقيقة التحولية التي تُعتبر الشرط الأساسي للرفاهية التي لا يمكنها إلا أن تكون فائقة الفردية، ومبنية على قوانين وقيود فائقة الفردية، قادرة على إنتاج "شكل من رد الفعل" الأصلي الخاص بكل روح. أوه، يا للفقر الروحي لحقبة ما بعد الحرب، فقر انعدام الشكل الفردي الذي ابتلعه انعدم شكل الجموع! فقر الحضارة الذي يدمر صراحة كل نوع من القيود، ويصبح عبداً للشك في حريته الجديدة، مقيداً بالضرورات الأكثر عملية وأساسية، ضرورات من النمط الميكانيكي والصناعي! فقر لمرحلة يستبدل الفخامة المقدسة للهندسة المعمارية، والبلورة الأسمى للحرية المادية للذكاء، "بالهندسة"، وهي المنتج الأكثر انحطاطاً للضرورة! فقر مرحلة تم فيها استبدال الحرية الفريدة للإيمان بطغيان اليوتوبيات المالية!... تقع مسؤولية الحرب التي كانت ستندلع على الفقر الإيدولوجي والمجاعة الروحية لحقبة ما بعد الحرب، التي كانت قد رهنت كل أملها على التخمينات المادية والميكانيكية المفلسة.

ليس هناك من فكر مادي ليس ميكانيكياً بشكل أساسي، حتى جدلية إنغلز ليس لها إلا قيمة ميتافيزيقية. لا يمكن أن تكون ثمة عظمة فكرية خارج معنى الحياة المأساوي والمتسامي: ألا وهو الدين. لقد قال كارل ماركس "الدين أفيون الشعوب". لكن التاريخ أوضح أن ماديته هي سمّ "الكراهية المركزة" التي يموت فيها الناس حقاً مختنقين بطرقات الحياة العصرية السفلية الوسخة النتنة المقصوفة بالقنابل. بينما جعل الدين معاصري ليوناردو ورافاييل وموزارت يبتهجون تحت مثالية قبب الروح البشرية المعمارية والسماوية!

كانت غالا قد بدأت تثير اهتمامي للذهاب برحلة إلى إيطاليا. وأبهرتني هندسة عصر النهضة وبالاديو وبرامانتي أكثر وأكثر بما أنها الإنجاز المثالي المفاجئ للروح البشرية في مجال الجمال، وكنت قد بدأت أشعر بالرغبة بالذهاب ورؤية هذه الظواهر الفريدة من نوعها ولمسها، منتجات الذكاء المتجسد التي كانت إسمنتية وقابلة للقياس وغير ضرورية على الإطلاق. وأيضاً، كانت غالا قد قررت بناء أجزاء إضافية في منزلنا الصغير في بورت ليغات- طابق جديد. كانت تعرف أن هذا سيلهيني عن نوب الألم، ويصرف انتباهي إلى مشاكل آنية صغيرة.

يوماً تلو الآخر، كانت غالا تعيد إنعاش ثقتي بنفسي. وكنت أقول: "من المستحيل حتى فلكياً، أن أتعلم ثانية كل بقايا التقنية التي اختفت كما فعل الأسلاف. ولم أعد أملك الوقت لأتعلّم كيف أرسم كما كانوا يفعلون من قبل! لا يمكنني أن أحسّن تقنية بوكلين!" وأوضحت غالا لي بآلاف الجدالات الملهمة المشتعلة بالثقة، أنني أستطيع أن أصبح شيئاً آخر عدا عن كوني "السريالي الأشهر على الإطلاق". كنا نشعر بإعجاب شديد حيال الأعمال المنسوخة عن أعمال رافاييل. وكان بوسع المرء أن يجد كل شيء هناك- كل شيء اخترعناه نحن السرياليين لم يشكل لدى رافاييل سوى جزء صغير من موهبته لكنه كان محتوى واعياً للأشياء غير المتوقعة المخفية والواضحة. لكن هذا كله كان مترابطاً ومكتملاً تماماً، ويشكّل "كلاً واحداً"، ولهذا السبب تحديداً يخفى على معاصرينا. إن قِصَر البصر التحليلي والميكانيكي الذي تتحلى به مرحلة ما بعد الحرب تخصص في آلاف الأجزاء التي يتألف منها "العمل الكلاسيكي"، مما جعل كل جزء تم تحليله نهاية تم رفعها بحد ذاتها كراية لاستبعاد البقية التي انطلقت كقذيفة مدفع[1].

[1]قذيفة مدفع التأليف، قديمة بقدم العالم... التكعيبية
قذيفة مدفع التلقائية- السريالية

كانت الحرب قد حوّلت الرجال إلى همجيين، وأصبحت حساسيتهم منحطة. وبعد حمية طويلة من النتروغليسرين، لم يعد أحد يدرك أي شيء لا ينفجر. لم يكن بالإمكان فهم السوداوية الميتافيزيقية المتأصلة في الإدراك إلا في مخططات كراريس رسوم شيريكو، بينما في الواقع كانت هذه العاطفة نفسها حاضرة بين آلاف الأحاسيس الأخرى لدى بيروجينو ورافاييل وبييرو ديلا فرانشيسكا. وكنا نجد لدى هؤلاء الرسامين والآلاف غيرهم أيضاً مشاكل التأليف التي طرحتها التكعيبية، إلخ، إلخ، إلخ. ومن وجهة نظر الإحساس- إحساس الموت، إحساس الشهوة الجنسية المتجسد في كل جزء ملون، إحساس اللحظية الخاص "بالابتذال" الأخلاقي- ماذا كان بوسع المرء أن يخترع خلافاً لما عاشه "فيمير" سلفاً بصفاءٍ بصري مفرطٍ فيه شِعرية موضوعية وأصالة محسوسة تفوق الأعمال العملاقة والمجازية للشعراء مجتمعين! أن تكون كلاسيكياً كان يعني أنه يجب أن يكونٍ هناك الكثير من "كل شيء"، وهذا الكثير في مكانه بشكل مثالي، ومنظم بتراتبية بحيث تصبح الأجزاء المطلقة في العمل مرئية بشكل أقل. وبهذا كانت الكلاسيكية تعني الدمج والترابط والكونية والإيمان، بدلاً من التقسيم والتجريبية والشك.

لقد تبلورت كل هذه الأفكار في محاضرة كنت أعدّ لتقديمها في برشلونة، وكانت ستترك أصداء تاريخية. ولم تكن حالتي هي حالة "عودة دورية ومحبطة إلى التقاليد" — الكلاسيكية الجديدة، التوماوية الجديدة التي كان

قذيفة مدفع ال... إلخ.

كل المذاهب لم تكن سوى قذائف مدافع، توجه كل منها إلى مشكلة موجودة في العمل الكلاسيكي. من الصحيح أن قذائف المدفع كانت وسيلة لجعل أي شيء مسموعاً بعد الحرب، وكلها ستفيد الأعمال الكلاسيكية القادمة. مثلاً، هناك احتمال كبير أنه في عناصر الزينة- النقوش، القوالب،أوراق الأقنثا، الأفاريز وأجزاء مهمارية أخرى من لوحة- سيتم الشعور بتأثير معين للتلقائية السريالية في النماذج المستقبلية. لكن سيكون من السذاجة أن تعرض مشكلة الأسلوب بالطريقة المعاكسة وتستمد لوحة من عنصر زينة من عهد لويس الرابع عشر! اللوحة تكون مكتملة وعبارة عن ظاهرة معقدة أكثر بكثير من الإلهام الذي يمكن أن يضعه المرء في رسمة لورقة الأقنثا!

المرء يسمع بها في كل مكانٍ، والتي تنشأ من تعب "المذاهب" وغثيانها. بل على العكس، كانت تأكيداً قتالياً لتجربتي الكاملة في روح تركيبة "غزو اللامنطقي" وتأكيد على الإيمان الجمالي الذي أعادته غالا إلي.

ولذلك كنا نستعد للذهاب إلى برشلونة، وقبل مغادرة بورت ليغات ذهبنا لتناول كأس من النبيذ مع البنائين الذين كانوا يعملون لإضافة طابق جديد إلى منزلنا، كي نودعهم. وكانوا يناقشون أموراً سياسية.

قال أحدهم: "أروع شيء في العالم- وأقصد الأروع ولا يهمني ما يقوله أي شخص- هو الفوضى وما يمكنك تسميته الشيوعية المتحررة. وعندما أقول: رائع، فأنا أقصد أنها فكرة رائعة جداً، لكنك لا تستطيع وضعها قيد الممارسة، لذا أرضى بالاشتراكية التحررية الجيدة، مع بعض التنويعات التي توصلت إليها بنفسي".

وقال آخر: "الشيء الوحيد الذي يعجبني في هذا كله هو الحبّ الحرّ، كل شيء سيئ يصدر عن الناس بسبب عدم حصولهم على كفايتهم من الحب". وغرس أسنانه بقناعة شديدة في ساق دجاجة.

وقال آخر: "أنا أشجع النقابية- التي تكون نظيفة ومجردة من دون تدخل السياسة فيها، ولن يوقفني أي شيء عن تحقيق هذه الفكرة، حتى أنني مستعد لقلب كل عربات الترام إن كان هذا ضرورياً". وبدأ يقوم بتمثيل إيمائي يوحي بأنه كان يعرف بالتجربة كيف يتم هذا.

وقال آخر: "لا تعجبني النقابية ولا الاشتراكية. الشيوعية هي الحل الوحيد، الشيوعية كما يفهمها ستالين. إنها الطريقة الوحيدة الواقعية".

وقال آخر: "الشيوعية، بالتأكيد، لكن يجب أن تعرف أي نوع تقصد، لأن ثمة خمسة أنواع منها، إن لم نشمل النوع الخاص بي، وهو النوع الصحيح. أُثبت أن الستالينيين يقتلون الناس الأحرار، إنه بمثل إجرام الفاشيين". لقد كانت مشكلة التروتسكية مشكلة حادة في مرحلة ما.

لكن كان الأمر الهام بالنسبة إليهم جميعاً هو القيام بالثورة. وبعد ذلك سنرى ما سيحدث. استمع رئيس البنائين بتركيز إلى هذا النقاش المتعلق بالمذاهب، ثم أومأ برأسه وقال لهم:

"أتريدونني أن أخبركم كيف سينتهي هذا كله؟ سينتهي بديكتاتورية عسكرية ستضعفنا جميعاً ولن تسمح لأي منا بالتنفس..."

إبان وصولي إلى برشلونة، بدأت المذاهب تنفجر على شكل قنابل حقيقية يطلقها الاتحاد الإيبيري اللاسلطوي، وكانت تنفجر في كل مكان. وفي ذلك العصر نفسه تم إعلان إضراب عام، واتخذت برشلونة فجأة شكلاً شريراً. دالماو، تاجر الصور العجوز الذي كان أول من أدخل الفن الحديث إلى برشلونة، ومن نظم محاضرتي الحالية، رن جرس غرفتنا في الفندق الواقع على شارع كارمن في الساعة الخامسة بضغطتين حزينتين بيده النحيلة.

صرخت "ادخل". فانفتح الباب وبدت ملامح "دلماو" بشكل لا يمكن نسيانه. كانت لحيته البيضاء شعثاء وشعره منتصباً، وخمنت من تنفسه المتسرع أنه أتى بسرعة كبيرة ليطلعنا على نبأ عاجل. لكنه بقي بدون حراك عند العتبة. كان زمام سترته مفتوحاً تماماً ووضع فيه عدداً من مجلة كنت قد طلبت منه إحضارها لي. قرأت العنوان على الغلاف، الثورة السيرالية. بعد أن بقي ساكناً لبعض الوقت ليستمتع بالتأثير الذي تركه علي مظهره غير المرتب، قال:

"يجب أن تهرب إلى باريس بأسرع وقت ممكن. ستنفتح أبواب الجحيم هنا".

أمضينا العصر كله نبحث عن سائق مستعد لأخذنا إلى الحدود، والقيام بالمعاملات البيروقراطية الضرورية لنحصل على إذن الخروج والتحرك. وكانت شوارع برشلونة قد بدأت تمتلئ بمجموعات من المدنيين المسلحين بأسلحة ولم يتدخل بهم أحد. وكانوا يلتقون أحياناً بالحراس

المدنيين الخيالة النكدين الذين يدخلون من الاتجاه المعاكس. وكان كل منهم يتظاهر بأنه لم ير الآخر، وكانت كل مجموعة تنطلق في طريقها، وبدا أن كلاً منهم يقول للآخر ضمنياً "وداعاً، وداعاً!" . اضطررت للانتظار ساعتين طويلتين في وزارة الداخلية. كان الموظفون يتوقفون عن الطباعة على آلات الكتابة ليساعدوا في تجهيز البنادق الآلية التي كانت تُركب بهدوء عند كل نافذة. وكان كل شخص يضع خيطاً في فمه، لأن الجميع كانوا يخيطون- كانوا يخيطون شرائط للذراع عليها العلم الكاتالوني ونجمة الانفصاليين على أكمامهم. وانتشر الخبر عن طريق التناقل بين الناس أن "الكومبانيز" ستعلن الجمهورية الكتالونية. لقد كانت العاصفة التي أعلنها دالماو توشك أن تضرب برشلونة خلال ساعة أو أقل إن قرر الجيش تولي زمام الأمور. وازداد شكي بقدرتنا على الوصول إلى الحدود في الوقت المناسب. وبينما كنت أنتظر تأشيرة خروجي، عرفت أن قائدي حركة الانفصال الكتالونية هما الأخوان "باديا". وكان الأخوان باديا مثل نسختين من "باستر كيتون"، وكانا يقومان بالحركات المأسوية نفسها، ولديهما الشحوب الطبيعي نفسه، وأدركت على الفور أنهما سيموتان قريباً- وبالفعل قتلهما الفوضويون بعد أيام قليلة.

وعندما حصلت أخيراً على تأشيرة الخروج، ظهر دالماو من جديد، وأحضر لنا سائقاً من الفوضويين كان مستعداً لتعريض نفسه للخطر بنقلنا إلى الحدود مقابل مبلغ مالي محترم. وذهبنا أنا وغالا ودالماو والفوضوي وحبسنا أنفسنا في حمام الرجال لنناقش أجر رحلتنا وشروطها. وما إن تم الاتفاق على كل شيء حتى غمزنا الفوضوي وقال: "لقد احتطت بكل شيء"، ثم أخرج علماً كاتالونياً من جيبه وقال: "سأضع هذا على السيارة لنصل إلى هناك"، وأخرج علماً إسبانياً من الجيب الآخر وأضاف: "سيساعدني هذا في العودة في حال خسروا ثورتهم، وأنا واثق تقريباً أنهم سيخسرونها. لكن النزاع بين إسبانيا وكاتالونيا لا يهمنا نحن الفوضويين،

إضافة إلى أن "لحظتنا" لم تحن بعد. إن كل هـذه القنابـل الـتي تسـمعونها الآن هـي قنابلنـا فعـلاً، لكنهـا تنفجـر لإحـداث عـدد قليـل مـن الضـحايا والحفاظ على المظاهر. وأينما حدث قتل للناس لا بد أن نكون مطلعين علـى الأمر- كما أن أمر إحداث أكبر قدر من الضجيج منوط بنـا. لكـن هـذا كـل شيء. لم يحن الوقت بعد كي نكشف أنفسنا".

ثم ركبنا السيارة وانطلقنا. واحتجنـا إلى مـا يقـل عـن اثـنتي عشـرة ساعة لنكمل الرحلـة الـتي يمكـن قطعهـا عـادة بسـاعتين. لقـد كانـت مجموعات من الرعاع المسلحين يوقفـون سـيارتنا كـل لحظـة ويطـالبون برؤية تصريح المرور. وكان مزاج هذه المجموعات يختلف بشكل كـبير، مثل حالة ثملهم، وفي عدة مناسبات لم يُسمح لنـا بـالانطلاق في طريقنـا إلا بفضل فصاحة سائقنا الفوضوي الذي تمكـن علـى الـدوام مـن إقنـاع هؤلاء الناس بشرعية وثيقتنا.

توقفنا في منتصف الطريق في بلدة ساحلية صغيرة للتزود بالوقود. وداخل "سـرادق"[1] كـبير كـان هنـاك حشـد يـرقص بجنـون علـى أنغـام موسـيقى "الـدانوب الأزرق". وكـان الفتيـان والفتيـات يسـيرون في الشـارع متشـابكي الأذرع. لقد أُريق برميل من النبيذ الأسود على الطريق المغبرّ الأبـيض الـذي ينيره قمر تشرين الأول، ورأينا في حانـة مشـرعة الأبـواب رجلـين راشـدين يلعبان كرة الطاولة. وبعـد أن تزودنـا بـالوقود قـال لنـا سـائقنا الفوضـوي: "اعذروني للحظة الآن. يجب أن أذهب وأغيّر ماء الزيتون، ثم سننطلق مـن جديد". اختفى في خلفية الحانة، وخرج وهو يـزرر ملابسـه بيـد، ويمسـح بظهر اليد الأخرى ذقنه الذي كان يقطر شراب "الأنيس ديـل مونـو" الـذي شربه على عجل. ثم دار حول الطاولة وأمسك كرة الطاولة التي كانت تقفـز عندما سقطت إلى الأرض، وطلب مضرباً من أحد اللاعبين ولعـب جولـة أو اثنتين بمهارة. ثـم تـرك المضـرب فجـأة، وأسـرع بـالخروج وقفـز إلى مقعـد

---

[1] خيمة مزينة بشكل فاخر تنصب من أجل الرقص في مهرجانات القرية.

السائق في سيارتنا. وصرخ "علينا أن نسرع، أعلن المذياع للتو أن "الكومبانيز" أعلنت الجمهورية الكتالونية وهم يقاتلون في شوارع برشلونة". وكانوا في داخل السرادق يعزفون موسيقى "الدانوب الأزرق" للمرة الثالثة. لقد بدا كل شيء عادياً تماماً باستثناء بعض الوقت الذي حدث فيه نقاش سرّي بصوت منخفض بين مجموعة من الرجال المسلحين، لكنه كان مرتفعاً بما يكفي لنسمع ما يقولونه بشأن ما إن كان من المناسب إطلاق النار علينا أم لا. وكانوا قلقين على وجه الخصوص بشأن كثرة حقائب غالا التي اعتبروها دليلاً مستفزاً على الرفاهية. وأخيراً نفد صبر سائقنا وبدأ يجدف بإلهام وعنف أثار لديهم الكثير من الاحترام، وتابعنا طريقنا.

استيقظنا في اليوم التالي في فندق صغير في بلدة سيربير الحدودية، وعرفنا من الصحف أنه تم إخماد الثورة، وتم قتل قادتها أو اعتقالهم. وكنا قد عشنا تلك "الليلة التاريخية" في السادس من تشرين الأول، ومنذ تلك الليلة حافظت في ذهني على صورة "الليلة التاريخية" ذاتها. الليلة التاريخية بالنسبة إلي هي ليلة حماقة تامة مثل أية ليلة أخرى، يعزف فيها الناس موسيقى "الدانوب الأزرق" عدة مرات، ويلعبون كرة الطاولة، وتخاطر فيها بأن تتعرض لإطلاق نار. ثم عرفنا بعد عدة أيام في رسالة تلقيناها من دالماو أن سائقنا تعرض لطلقات رشاش أثناء عودته عبر ضواحي برشلونة ومات. وبهذا لا بد أنهم غيروا ماء كرات البينغ بونغ البيضاء لزيتونه الأسود إلى دم طازج.

لم أكن رجل تاريخ بالتأكيد. بل على العكس، شعرت أنني مناهض للتاريخ وللسياسة. إما أنني كنت سابقاً لعصري، أو متخلفاً عنه كثيراً، لكنني لم أكن من معاصري الرجال الذين يلعبون كرة الطاولة. وكانت الذكرى المزعجة لرؤية إسبانيين قادرين على الانغماس في لعبة بلهاء ملأتني بشعور العار. وكانت نذير شرّ مريع: بدت لي كرة البينغ بونغ مثل رأس موت صغير- فارغة، لا وزن لها، وكارثية في عبثيتها- رأس

الموت الحقيقي، تجسد السياسة المسلوخة بالكامل. وفي الصمت المهدِّد الذي أحاط بصوت توك، توك، توك، توك الذي تصدره الجمجمة الخفيفة لكرة البينغ بونغ التي تتقافز إلى الأمام والخلف عبر الطاولة، أحسست باقتراب وحشية تاريخنا المسلحة العظيمة، وحشية حربنا الأهلية القادمة، وأصبحت ذكرى صوت كرة البينغ بونغ الذي سُمع في ليلة السادس من تشرين الأول التاريخية كافية لإثارة الترقب في داخلي.

عندما وصلت إلى باريس، رسمت لوحة كبيرة أسميتها "نذير الحرب الأهلية". وعرّضت في هذه الصورة جسماً بشرياً هائلاً تخرج منه ناميات هائلة من الأذرع والسيقان تمزق إحداها الأخرى في هذيان من الخنق الذاتي. وفي خلفية هذه الهندسة من اللحمِ المسعور الذي تلتهمه جائحة نرجسية وبيولوجية، رسمت منظراً طبيعياً جيولوجياً، أُحدثت فيها ثورة لآلاف السنوات بدون فائدة، وتحجر في "مساره الطبيعي". كما زخرفت البنية الطرية لكتلة اللحم في الحرب الأهلية ببعض الفاصولياء المسلوقة، لأنه لا يمكن لأحد تخيل ابتلاع كل هذا اللحم غير الواعي من دون وجود بعض الخضار الشاحبة والحزينة (مهما كانت غير ملهمة).

ولم يتأخر وصول الأخبار الأولى عن الحرب الأهلية الإسبانية التي تنبأت بها في لوحتي. وقد عرفت بالأمر في لندن في "السافوي" بعد أن حضرنا حفلا لموسيقى الحجرة. وكنت قد طلبت بيضة مسلوقة، وذكرني هذا على الفور بكرة البينغ بونغ التي كانت صورتها تطاردني بشكل متقطع. وكانت قد أخذت وقتها لتنضج، إن جاز التعبير. كما أخبرت المؤلف الموسيقي "إيغور ماركيفتش" عن فكرتي عن التأثير المحبط بشدة الذي يمكن أن ينتج عن لعب لعبة بينغ بونغ ببيضة مسلوقة- سيكون هذا أسوأ تقريباً من لعب كرة المضرب (التنس) بطائر ميت. وقد جعلتني البيضة المسلوقة في حالة ترقب لأنني اكتشفت أنها تحتوي على الرمل، بشكل غير مفهوم. وأنا واثق أن هذا ليس ذنب رئيس طهاة السافوي، بل

إن الرمل الأفريقي في تاريخ إسبانيا هو ما وصل إلى فمي. ومقابل الرمل، كانت الشمبانيا! لكنني لم أشرب أياً منها. كانت حقبة من التقشف الصارم والعنف الحقيقي في الأسلوب ستسيطر على تفكيري وعلى حياتي المعذبة، ولا تضيئها إلا نيران إيمان الحرب الأهلية ونيران الجمال الخاصة بعصر النهضة- التي ولد فيها الذكاء ذات يوم من جديد.

كانت الحرب الأهلية قد اندلعت! كنت أعرف ذلك، كنت متأكداً من ذلك، لقد تنبأت بهذا! وإسبانيا، التي لم تعانِ من الحرب الأخرى، كانت أول بلد استُقطبت فيه كل الدراما الإيديولوجية وغير القابلة للانحلال لأوروبا ما بعد الحرب، وكل القلق الأخلاقي والجمالي للمذاهب في كلمتين "الثورة" و"التقاليد"، وكانت ستتعرض الآن للانحلال في الواقع الفظ للعنف والدماء. لقد انطلق الفوضويون الاسبان إلى الشوارع المدمرة بالكامل ومعهم لافتات سوداء كتبت عليها عبارة "يحيا الموت!". وانطلق آخرون يحملون علم التقليد الأحمر الذهبي لأسبانيا السحيقة في القِدَم، وتحمل كلاماً لم يكن بحاجة إلا إلى حرفين "**FE** – الإيمان". وفي الحال، في جيفة إسبانيا التي التهمت نصفها ديدان الإيديولوجيات الغريبة والمادية، كان المرء يشهد الانتصاب الإيبيري الهائل، مثل كاتدرائية هائلة مليئة بديناميت الكراهية الأبيض. لتدفن ولتنبش! لتنبش ولتدفن! لتدفن كي تنبش من جديد! هنا تكمن كل الرغبة الجسدية للحرب الأهلية الخاصة بأرض إسبانيا، التي بقيت سلبية غير مشبعة لزمن طويل جداً، والتي صبرت طويلاً على معاناتها من لعب الآخرين لعبة بينغ بونغ السياسة الخسيسة على النبلاء الارستقراطيين الذين تحملهم على ظهرها. يا أرض إسبانيا، أنت التي كنت قادرة على تلقيح الدين نفسه! وكان هذا ما سنشهده الآن- ما تستطيع أرض إسبانيا فعله- قدرة كوكبية على تحمل المعاناة وإلحاق المعاناة، وعلى الدفن والنبش، وعلى القتل والإنعاش. لأنه سيكون من الضروري أن تخدش

مخالب ابن آوى الثورة لتصل إلى الطبقات الرجعية للتقاليد، وعندما تتعرض للحت والتشويه بوحشية على الصلابة الغرانيتية لعظام هذه التقاليد التي كانت تدنسها، يمكن للمرء أن يصاب بالذهول من جديد أمام النور القوي لكنوز "الموت المتقد"، والروائع المذهلة والمنبعثة من جديد، والتي حفظتها أرض إسبانيا مخبأة في أعماق أحشائها. كان الماضي قد نُبش ورُفع لينهض على قدميه، وسار الماضي بين الأموات الأحياء، وكان مسلحاً — لقد تم بعث اللحم في نبش عشاق "مدينة تيروال"، وتعلّم الناس أن يحبّ أحدهم الآخر بأن يقتل أحدهم الآخر. لأنه ليس هناك ما هو أقرب إلى قبضة الموت من العناق. وكان رجل ميليشيا الإيمان يأتي إلى المقهى وهو يحمل على ذراعه مومياء راهبة من القرن الثاني عشر كان قد نبشها للتو، ولم يكن يرغب بأن يتركها بل كان يريد أن يحضرها معه إلى خنادق جبهة أرغون مثبتة على أشرطته وكأنها "تعويذته"، ويموت معها إن اقتضت الضرورة. كما يدّعي أحد أصدقاء المهندس المعماري "غودي" القدامى أنه رأى جثة المهندس العبقري المنبوشة يتم جرها عبر شوارع برشلونة بحبل ثبته الأولاد حول عنقها. وأخبرني أن "غودي" كان محنطاً بشكل جيد، وأنه بدا كما كان يبدو في الحياة "بالضبط"، لكن لم يكن يبدو أنه بخير تماماً. وكان هذا طبيعياً في النهاية، إن أخذنا حقيقة أن غودي دفن منذ عشرين سنة تقريباً بعين الاعتبار. في "مدينة فيك" لعب الجنود كرة القدم كل يوم مع رئيس أساقفة "مدينة فيك"، في "مدينة فيك"...

وانبعثت من جميع أجزاء إسبانيا الشهيدة، رائحة البخور وأردية الكهنة ودهن القساوسة المحترق، واللحم الروحاني المقطع: تلك الرائحة التي امتزجت مع رائحة الشعر الذي يقطر بعرق الاختلاط والدم القادم من اللحم الآخر الشَبق للرعاع الذين يتضاجعون فيما بينهم، ومع الموت. وارتفع كل هذا إلى السماء مثل رائحة نشوة الرعشة الجنسية للثورة.

عاش الفوضويون حلمهم الذي لم يؤمنوا به بالكامل يوماً. والآن، دخلوا بالفعل إلى مكتب كاتب العدل وأدوا وظائفهم الحميمة على طاولة مكتبه التي كانت رمزاً للملكية. وفي القرى العديدة التي تم تطبيق مذهب الحرية الشاملة، تم إحراق كل الأوراق النقدية.

لم تغير الحرب الأهلية أفكاري. بل على العكس، لقد أكسبت تطورها صرامة حاسمة. واكتسب الرعب والنفور من أي نوع من الثورات في داخلي شكلاً يكاد يكون مرضياً. ولم أكن أريد أن أدعى رجعياً. ولم أكن كذلك: لم "أرتد"– وهذه سمة من سمات المادة غير المفكرة. لأنني تابعت التفكير ببساطة، ولم أكن أريد أن أدعى بأي اسم سوى دالي. لكن ضبع الرأي العام كان قد بدأ يتسلل حولي ويطالبني بتهديد أسنانه المترقبة أن أحزم أمري أخيراً، وأن أصبح ستالينياً أو هتلرياً. لا! لا! لا! وألف مرة لا! كنت سأبقى كما كنت وإلى أن أموت، داليني، ولست سوى دالـيني! لم أؤمن بالثورة الشيوعية ولا بالثورة القومية الاشتراكية، ولا بأي نوع من الثورات. كنت أؤمن فقط بالواقع السامي للتقاليد.

إضافة إلى أن الثورات لم تثر اهتمامي مرة بما "تفعله" من أشياء مهلكة دوماً ومُهددة على الدوام بأن تصبح عكس ما كان في البداية. وإن كانت الثورات مثيرة للاهتمام، فالسبب الوحيد هو أنها تنبش الأرض وتستعيد شظايا التقاليد التي اعتقد الناس أنها ماتت وأصبحت طي النسيان، وكانت بحاجة فقط إلى تشجنات الاختلاجات الثورية لجعلها تُبعثُ وتعيش من جديد. ومن خلال ثورة الحرب الأهلية الإسبانية، ما كان بالإمكان إعادة اكتشاف أي شيء سوى التقليد الكاثوليكي الأصيل الغريب على إسبانيا، تلك الكاثوليكية القطعية والمتعصبة، وذلك الشغف المبني من الحجارة، الهائل بالواقع الغرانيتي والكلسي الذي يشكل إسبانيا[1]. أما في الحرب الأهلية الإسبانية فكان الشعب الإسباني

[1]"اسبانيا هي منبسط غرانيتي أو كلسي بارتفاع متوسط يصل إلى 700 متر" (قاموس اللاروس الصغير)

عندما يلتهم أحدهم الآخر، يقاتلون دون وعي منهم وبشكل جماعي، من أجل أمر واحد فقط وهو التقاليد المتقدة التي تشكّل إسبانيا. إن الجميع - الملحدون والمؤمنون والقديسون والمجرمون ونابشو القبور وحفارو القبور والجلادون والشهداء- كانوا يقاتلون جميعاً بشجاعة وفخر صليبيي الإيمان. لأنهم كانوا جميعاً إسباناً، حتى في أكثر أعمال التدنيس شراسة، وفي تظاهرات الإلحاد الكثيرة التي أنارت العته المظلم للشغف المتحرر الكلي القدرة بومضات من الجنّة.

ثمة قصة تروى كثيراً عن فوضوي أندلسي خلال الحرب الأهلية، صعد درجات كنيسة مسلوبة ومنتهكة برشاقة مصارع ثيران، ورفع نفسه إلى كامل طوله أمام صليب عليه مسيح ذو شعر طبيعي طويل، وبعد أن أهانه بأبشع أنواع كلمات التجديف، بصق على وجهه وهو يمسك بيد واحدة شعره الطويل الذي كان يوشك أن ينتزعه. وفي تلك اللحظة، انفكّت يد المسيح من على الصليب، وسقطت ذراعته على كتف الجندي الأندلسي الذي وقع ميتاً في الحال. يا له من مؤمن!...

عند اندلاع الثورة، مات صديقي العظيم، شاعر الموت البشع "فيديريكو غارسيا لوركا". وتم استغلال موته لأغراض دعائية. وكان ذلك تصرفاً خسيساً لأنهم كانوا يعرفون كما أعرف أنا، أن لوركا كان في جوهره الشخص الأبعد عن السياسة على الارض. ولم يمت لوركا كرمز لإحدى الإيديولوجيات السياسية، بل مات ضحية استرضائية لتلك الظاهرة الشاملة التي تمثّل التشوش الثوري الذي خرجت منه الحرب الأهلية. ومن أجل ذلك، كان الناس يقتل أحدهم الآخر في الحرب الأهلية ليس من أجل الأفكار حتى، بل من أجل "أسباب شخصية"، بسبب تمتع المرء بالشخصية، وكان لوركا يتمتع بشخصية مميزة مثلي تماماً، ولذلك كان يرغب الإسبان بقتله أكثر من معظم الإسبان الآخرين. لقد تمتع حس الحياة المأسوي لدى لوركا بنفس المكون المأسوي الذي يتمتع به مصير الشعب الإسباني برمته.

لقد جعلني موت لوركا، وعواقب الحرب الأهلية التي بدأت تخلق مناخاً خانقاً من التحزب في قلب باريس، أقرر أن أغادر هذه المدينة لكي أكرّس كامل طاقة تفكيري لعملي الجمالي الإبداعي والتآلفي الذي "ألهمتني" إياه غالا في مرحلة عذابي المهلك في بورت ليغات. انطلقت في رحلة عبر إيطاليا.

وقد عززت كوارث الحرب والثورة التي غاصت فيها بلادي العنف البدئي لشغفي الجمالي، وبينما كانت بلادي تستجوب الموت والدمار، كنت أستوجب أبا الهول الآخر، الخاص "بالصيرورة" الأوروبية الوشيكة، وهي **النهضة**. عرفت أن أوروبا كلها ستغوص في الحرب بعد اسبانيا، كنتيجة للثورتين الشيوعية والفاشية، ومن الفقر وانهيار العقائد اليسارية، وستنشأ حقبة قروسطية تعود فيها القيم الفردية والروحية والدينية. وأردت أن أكون الأول في هذه القرون الوسطى الوشيكة، الذي يفهم بشكل كامل قوانين حياة الجماليات وموتها، والذي سيتمكن من لفظ كلمة "نهضة".

تم تفسير رحلتي عامة كرمز لعبثية روحي الشهيرة. ولم يستطع سوى الأصدقاء القلائل الذين تابعوا عملي أن يلاحظوا أنه أثناء رحلتي هذه إلى إيطاليا حدثت أكثر معارك الحسم الخاصة بروحي. وكنت أسير في روما وأنا أحمل كتاب ستاندال في يدي. ومن أجلي ومن أجل ستاندال أصبحت ساخطاً على مفهوم "روما العصرية" البرجوازي وغير المبدع الذي يدّعي إنعاش روما القياصرة بينما يكيفها مع الضرورات الحضرية لمدينة معاصرة، مدمّراً بهذه الحقيقة تحديداً الأسطورة الإلهية، وروما الخالدة الأخرى، روما الحقيقية الحية، وذلك الخليط الفوضوي والمتناقض غالباً الذي كان، ويجب أن يستمر- وسيستمر، بالرغم من كل شيء- في أن يكون روما الحقيقية الكاثوليكية في الجوهر. إن روائع روما لم تكن في العظام المكشوفة لأعمدة القيصر القديمة بل اللحم الزاخر المنتصر للروح الذي انتهى به المذهب الكاثوليكي بتغطية

الجيف البربرية للهندسة المعمارية للانتصارات الإقليمية. وتم افتتاح جادة عصرية عريضة تصل إلى مدخل الفاتيكان، وبدلاً من الوصول إليه فجأة، بعد سلسلة تشبه المتاهة من الشوارع الضيقة ذات الدناءة السائغة التي لا بديل لها، والشعور بالمفاجأة الصاعقة أمام الأبعاد المهيبة، أصبح المرء الآن يرى الفاتيكان قبل ربع ساعة من الوصول إليه، واقعاً في نهاية جادة بدت أنها نتاج مخيلة دماغ أحد هؤلاء المنظمين المؤسفين للمعارض العالمية. روما القديس بطرس، أنت التي بُنيت من أجل المساحة الفريدة التي تقع بين الذراعين المفتوحين لأعمدة برنيني، أو من أجل المساحة الخاصة بكل السماء والأرض!...

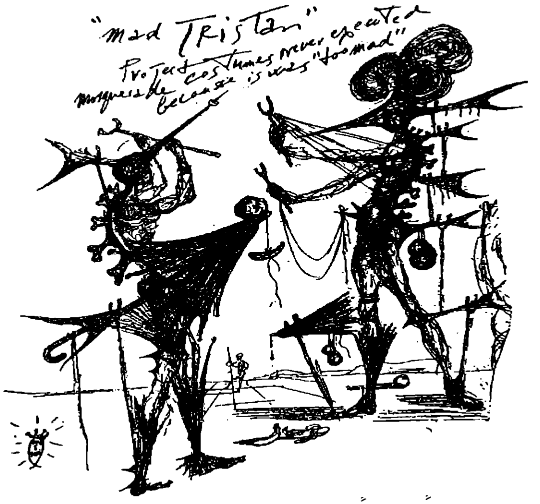

لقد أمضيت وقتاً طويلاً في فيلا سيمبروني قرب أمالفي، ودعوت إليها الشاعر إدوارد جيمس، على مسافة قريبة من المكان الذي يبدو أن فاغنر وجد إلهامه فيه لمسرحيته "بارسيفال". وفي هذه المرحلة تخيلت لوحتي الفاغنرية تماماً "تريستان المجنون". وأنشأت لاحقاً مرسمي في المنتدى الروماني، في منزل اللورد برنرز، حيث أمضيت شهرين

ورسمت لوحة "انطباعات أفريقيا" التي كانت نتيجة رحلتي الوجيزة إلى صقلية، حيث وجدت تذكارات لكاتالونيا وأفريقيا. ولم تكن لدي أية علاقة بالحياة الاجتماعية في روما. كانت عزلتي مع غالا تامة تقريباً. ولم أر إلا بعض الأصدقاء الإنكليز.

كانت هناك ممثلة شهيرة تسافر في إيطاليا بصحبة موسيقي شهير، وذات مساء التقيت بها وحدها في متحف المجوهرات "الإترورية" في فيلا البابا يوليوس. وفوجئت بمظهرها الذكي ومعطفها الرث. لكن جرت أحاديث في اليوم السابق في منزل آل برنز عن افتقادها لحس الأناقة. ولم أكن أعرفها شخصياً، ولم ألق عليها التحية. لكنها أخذت المبادرة وألقت علي التحية بابتسامة ساحرة للغاية بحيث انحنيت أمامها بتهذيب، وتابعت جولتي في المتحف. عندما غادرت المتحف أصبحت مدركاً تماماً أنها تلحق بي. واتخذت طريقاً غير اعتيادي عن عمد عبر بعض الشوارع الجانبية كي أختبر صحة انطباعي، ولاحظت أنها كانت لا تزال ورائي على مسافة ستة أو سبعة أمتار. وجدت أن هذا الموقف منافياً للمنطق. هل يجب أن أستدير وأواجهها، أم أستمر بالهرب؟

كان هناك حشد كبير يتجه نحو ساح فينيزيا، حيث كان موسيليني يلقي خطبة، وخلال لحظة علقنا في طوفان الناس الذين يتحركون بيننا وحولنا، والذين زادوا المسافة التي تفصلنا. وعندما وصلنا إلى ساحة فينيزيا لم يعد باستطاعتنا التحرك إلى الأمام ولا إلى الوراء. وكان موسيليني قد وصل إل نهاية خطبته، وصفق الحشد له عدة مرات وبدأت ألاحظ الحماس الذي رفعت به ذراعها بالتحية الفاشية. لقد كانت تسمر عينيها باستمرار تقريباً علي، وبدت كأنها توبخني بنظرتها لأنني لا أفعل كما يفعل الآخرون جميعاً. وبدت كأنها تقول لي "يا لك من متذمر، أي فرق في أن تحيي بهذه الطريقة أو تلك؟". تخلت فجأة عن عصبيتها التي دل عليها تقلص حاجبيها القابلين بشدة للحركة، واللذين يميزانها، ونظرت مباشرة

إلي بودية لا تقاوم، وانفجرت في نوبة ضحك، بينما بدأت تشق طريقها بحيوية عبر الحشد الكثيف، ونجحت في الوصول إلى مسافة متر من حيث كنت أقف. وهناك علقت ثانية، وأصبحت محاطة بكتيبة من الرومان ذوي الكروش الذين شكلوا حاجزاً لا يمكن تجاوزه. لكنني استطعت أن أرى بوضوح الإيماءات التي كانت تقوم بها نحوي بيدها. من الواضح أنها كانت تجذب انتباهي إلى مجموعة من البطاقات البريدية التي عليها مشاهد من روما والتي كانت ترفعها كي أراها بين كل هذه الأذرع المرفوعة. بدا كل هذا لي معذباً وغير طبيعي. ونظرت بغباء إلى مشاهد روما التي فتحتها أمامي مثل مروحة، وفجأة شعرت بالقشعريرة. ولمحت من بين مشاهد المدينة الخالدة صورة إيروتيكية، تبعتها صورة أخرى. وبحركة خجولة أخفت هاتين البطاقتين بسرعة عن الأنظار وخبأتهما بين البطاقات البريدية التقليدية الأخرى، مؤكدة بذاءتها الأولى بسلوك براءة مختلقة، أرادت أن تجعل بواسطته تصرفها الفاضح المفاجئ وغير المفهوم كوميدياً.

ثم نظرت في عينيها مباشرة وتفحصتها عن قرب، واتضح لي الخطأ الذي ارتكبته فجأة. لم تكن الممثلة الشهيرة إطلاقاً، إلا في مخيلتي الجامحة. ثم ميزت على الفور أن شبهها الجسدي بالممثلة السينمائية كان بسيطاً جداً. لقد كانت عارضة للفنانين، وصديقة لعارضة استخدمتها في عملي. وكانت صديقتها قد دلتني عليها في الشارع، وأخبرتها أنني أجمع صوراً فاحشة. وكانت تشير إلى مجموعة من صور التعري الممتازة التي اشتريتها في تارومينا، كانت مثبتة على جدران مرسمي. وعندما التقت بي في متحف المجوهرات "الإيترورية" في فيلا البابا يوليوس، خطر لها أن تعرض علي بيعي مجموعتها، ولهذا كانت تلاحقني، على أمل أن تلفت انتباهي وتريني خلسة بضاعتها الممنوعة.

سبب لي سوء الفهم الفظ هذا قلقاً لعدة أيام، لأنه بدا لي كأنه عرض لاختلال عقلي. وكنت قد عانيت في الواقع في الأشهر القليلة

الماضية ازدياداً في حوادث الخطأ والالتباس. شعرت أنني منهك، وأخذتني غالا إلى الجبال قرب الحدود النمساوية. ونزلنا في تري كروسي قرب كورتينا في فندق معزول. واضطرت غالا إلى الذهاب إلى باريس لاثني عشر يوماً، وبقيت هناك وحيداً تماماً.

وفي ذلك الوقت تماماً وصلتني أخبار مأسوية من كاداكيس. كان الفوضويون قد قتلوا ثلاثين شخصاً، كلهم من أصدقائي، ومن بينهم ثلاثة صيادين من بورت ليغات، كانوا مقربين جداً إلينا. هل علي أن أحزم أمري وأعود إلى إسبانيا، وأقاسم المقربين مني مصيرهم؟

لكنني لازمت غرفتي طوال الوقت، مع شعور بالذعر من أن أصاب بالزكام وأمرض وأنا وحدي هناك، من دون غالا. والأكثر من ذلك، لم يكن منظر الجبال العالية يمتعني يوماً، وازداد نفوري من المناظر الطبيعية الألبية: ثمة قمم تحيط بي أكثر مما أتحمل! ربما علي العودة إلى إسبانيا. في هذه الحالة، يجب أن أعتني بنفسي! لأنه إن حدث هذا، أريد أن يكون الحد الأقصى من حياتي تحت تصرفي كي أقدمه أضحية. وبدأت أنتبه لصحتي بصرامة هوسية. وعندما كنت ألاحظ أبسط تغيير في لزوجة المجاري التنفسية لدي، كنت أسرع إلى مستحضر الإلكتارغول وأضع قطرات منه في أنفي. وأصبحت أتغرغر بالمطهرات بعد كل وجبة، ويراودني شعور بالقلق لدى ظهور أبسط علامات تهيّج البشرة، وكنت أضع المراهم باستمرار على كل بثرة مهما كانت غير ملحوظة إذ كنت أخشى أن تصبح سرطانية أثناء الليل.

وأثناء نوبات أرقي المتكررة كنت أستمع إلى الآلام غير الموجودة التي كنت أتوقع صدورها عن أمراض لا بدّ أن تنقضّ علي قريباً. وكنت أتحسس زائدتي الدودية بحثاً عن أبسط علامة على التهيج. كما كنت أتفحص بدقة شديدة "برازي الذي كنت أنتظر خروجه وقلبي في حلقي مع أن حركة أمعائي كانت في الواقع بدقة الساعة.

لحوالي خمسة أو ستة أيام لاحظت بينما كنت في مرحاض نظيف للغاية قطعة كبيرة من المخاط الأنفي عالقة بالجدار الخزفي الأبيض القريب من حيث كنت أجلس. لقد كانت منفرة جداً بالنسبة إلي على الرغم من أنني حاولت ألا أراها وأن أنظر إلى مكان آخر. لكن يوماً بعد يوم، ازدادت صعوبة قدرتي على تجاهل هذه القطعة من المخاط. لقد كانت مثبتة إلى الخزف الأبيض بشكل افتضاحي وخجول بحيث أصبح من المستحيل علي ألا أراها، وحتى ألا أنظر إليها باستمرار. وبدت أنها قطعة مخاط نظيفة وجميلة جداً وبلون رمادي لؤلؤي مخضر قليلاً، يصبح أقرب إلى البني عند المركز. وانتهت كتلة المخاط هذه بنقطة مستدقة، وتميزت عن الجدار بإشارة تطلبت تدخلاً بصوت تفاهتها الحاد. وبدت كأنها تقول لي "كل ما عليك فعله هو لمسي، وسأفلت وأسقط على الأرض: وسينهي هذا شعورك بالاشمئزاز".

لكنني كنت أنهض عن المرحاض بنفاد صبر، ومسلحاً بالصبر، دون أن ألمس عذرية المخاط التي لم تمس، وأطبق الباب بعنف في نوبة من الحقد والغل.

وذات يوم، لم أعد أستطيع تحملها، وقررت أنني انتهيت مرة وإلى الأبد من هوسي بحضور قطعة المخاط مجهولة الاسم التي كانت تُفسد بحضورها المقرف إحساس الرضا الذي كان يمدّني به "برازي" الشخصي. لكنني استجمعت شجاعتي وقررت أن أمسح المخاط عن الجدار. ولأفعل ذلك، لففت سبابة يدي اليمنى بورق المرحاض، وأغمضت عيني وعضضت بغضب على شفتي السفلى، وبحركة من العنف الوحشي صببت فيها كل طاقة روحي التي فاقمها القرف نزعت المخاط عن الجدار.

لكن على عكس توقعاتي، كانت كتلة المخاط أقسى من الإبرة الفولاذية المقساة، ومثل إبرة، نفذت بين ظفر ولحم سبابتي، ووصلت

حتى العظم! أصبحت يدي مشبعة بالدم على الفور تقريباً، وسبب ألم حارق عنيف دموعاً قسرية في عيني. وعدت إلى غرفتي لأطهر إصبعي المجروح بهدروجين البيروكسايد، لكن أسوأ ما في الأمر هو أن الجزء السفلي والمدبب من المخاط كان قد بقي مغروساً في ظفري، بشكل عميق إلى درجة أنني لم أجد طريقة لإخراجه. وخف الألم الأولي الحاد، لكن سرعان ما حل محله ذلك النبض الإيقاعي العميق جداً الذي عرفت أنه الموسيقى الغدارة والمميزة للإنتان! وعندما توقف النزيف ذهبت إلى غرفة الطعام، شاحباً مثل شبح، وشرحت الأمر لرئيس الندل، الذي كان يحاول دوماً أن يدخل في حوار معي– وكنت أتجنبه دوماً بنبرة صوت جافة وغير محببة لم تعترف باستجابة سوى الصمت. لكن في ذلك اليوم، جعلني جبني إنسانياً ومنفتحاً في الكلام بحيث أنه استغل الأمر ليسكب مكنونات قلبه الوافرة المخزنة. تفحص إصبعي عن قرب.

صرخت قائلاً "لا تلمسها! انظر إليها من دون لمسها. ما رأيك؟ هل الوضع خطير؟"

"يبدو أنها تغلغلت إلى العمق، لكن الأمر مرهون بماهيتها– هل هي شظية، أم إبرة، ما هي؟" لم أجب. لم أستطع إخباره بالحقيقة المريعة. لم أستطع أن أقول له:

"هذا الشيء المسود الذي اخترق سبابة يدي اليمنى هو قطعة مخاط!"

لا، لا أحد سيصدق هذا. لا يحدث أمر كهذا إلا لدالي. لكن ما الجدوى من شرح الأمر، والواقع المؤكد هو أن ثمة يداً مخضبة بالأرجواني ومن الواضح أنها بدأت تتورم؟ يد الرسام سلفادور دالي كلها، وسيكون من الضروري بترها، مصابة بإنتان بسبب قطعة مخاط– إن لم تقض علي بالكامل، بعد أن تجعلني تافهاً تماماً وسط الاختلاجات البطنية المتشجنة لداء الكزاز.

صعدت إلى غرفتي واستلقيت على السرير، مستعداً لشهادتي. أمضيت واحدة من أكثر ساعات حياتي ظلمة وقسوة. لا يمكن مقارنة أي من عذابات الحرب الأهلية في حدتها مع العذاب المتخيل الذي تحملته في ذلك المساء الألبيني المخيف. وشعرت أن الموت يثقل يدي مثل كيلوغرامين شائنين من الديدان المتلوية. وتخيلت أن يدي قد انفصلت عن ذراعي وأصبحت ضحية الأعراض الأولى المزرقة للتحلل. ماذا سيفعلون بيدي المقطوعة؟ هل سيدفنونها؟ هل ثمة توابيت للأيدي؟ سيكون من الضروري دفنها، لأنها اتخذت منذ الآن "المظهر الفاسد" للجثث التي أصبحت في حالة متقدمة من التحلل، التي تم الإمعان بها أكثر مما يجب "للمرة الأخيرة"، بحيث أن أقرب أحباء المتوفى لا يعودون يفكرون سوى بتخبئتها بذعر- لأنه لم يعد هو! بدأت تصبح مخيفة! إنها تهدد بالبدء بالحركة! لا يمكن للمرء تحمل النظر إليها بعد الآن! إنها الجثة الإمبريالية غير المدفونة التي تهدد المرء كل لحظة بشبحها المنتفخ اللزج، أسوأ من أي شيء يمكن أن يتخيله المرء!

لكن رغم أنها ربما تكون قد بدأت بالتعفن، لم أكن أريد الانفصال عن يدي! لم أستطع الاستسلام لتخيلها بعيدة عني، بعد أن يهبط الليل، وقد سُجنت أخيراً في الحاوية التي تتصارع فيها الغازات النتنة الناتجة عن المراحل المتعاقبة لتحلل الجثة. قربت يدي من فمي، وكان المنظر أسوأ مما سيكون لو أن شخصاً قد سحق جثة جندب ثقيل بشدة مقطوع الرأس على تلك المنطقة نفسها!

نهضت، مصاباً بالجنون بسبب المعاناة المعنوية، ومبللاً بعرق عذاب الموت، واندفعت إلى المرحاض، حيث جثوت على الأرض على ركبتي لأتفحص بقية قطعة المخاط التي لا بد أنها لا تزال هناك. وعثرت عليها بالفعل، وتفحصتها بدقة. لا! لم تكن قطعة مخاط! بل كانت قطرة غراء لا بد أنها سقطت هناك، متعلقة بخزف الجدار، عندما كان

الدهانون يطلون سقف المرحاض. ما إن اتضح لي هذا الأمر، اختفى ذعري. انتزعت شوكة الغراء المتصلب التي بقيت داخل ظفري بذلك الدوار الغريب الحسي الذي خُلّد بمهارة في المنحوتة الشهيرة "صبيّ يستخرج شوكة من قدمه". وما إن خرجت بقية "المخاط الزائف" من إصبعي حتى غرقت في نوم ثقيل هانئ.

عندما استيقظت عرفت أن عليّ أن أعود إلى إسبانيا.

كنت قد ذهبت إلى هناك بالفعل. وكما اختبر "ديز إيسينتس، بطل مسرحية "عكس الطبيعة" لمؤلفها "هيوزمانز" تعب واقع رحلته إلى لندن حتى قبل أن يبدأ بها، ومن دون مغادرة محطة بريستول حيث تخيّل كل تجارب السفر وإقامته في لندن بقوة هائلة بحيث استطاع أن يعود إلى المنزل بانطباع كامل وكأنه قام بالرحلة بالفعل، هكذا اختبرت "الحرب الأهلية" في جسدي الذي قُطِعَ منه الجزء الأهم وهو يدي اليمنى.

الكائنات التي تفتقد المخيلة تقوم بالأسفار حول العالم بدون كلل، إنهم يحتاجون جميعاً إلى حرب أوروبية كاملة كي يشكلوا فكرة مبهمة جداً عن الجحيم. كل ما كنت بحاجة إليه، كي أغوص في "الجحيم"، هو قطعة من المخاط، والأكثر من ذلك، قطعة من المخاط لم تكن واقعية حتى- قطعة من المخاط المزيف! إضافة إلى ذلك، فإن إسبانيا التي كانت تعرفني، والتي تعرف أنه: إن كنت سأموت، مهما كانت طريقة موتي، حتى إن مت بسبب قطعة من المخاط أو المخاط الزائف، فسأموت من أجلها دوماً، من أجل مجدها. لأنه على عكس "أتيلا" الذي لم يكن العشب ينمو تحت خطواته، كل حبة تراب وطئتها قدماي هي حقل من المجد.

الفصل الرابع عشر

فلورنسا، ميونخ، مونت كارلو، برونويت تيللر، الحرب الأوروبية الجديدة، العودة إلى إسبانيا، لشبونة، اكتشاف آلة تصوير الفكر، نظرية نشأة الكون، الانتصار الخالد لأوراق نبات الأقنثا، عصر النهضة.

صاغ "بول إيلوار" وسيلة "العيش بواسطة الأخطاء والعطور". وبعد "خطأي" مع المثلة المزيفة، وخطأي مع المخاط المزيف، اختبرت عطر الاستبصار غير المحسوس. كان الأمر وكأن هناك قانون تعويض فيزيائي مثيراً للفضول يقضي بأنني كلما أخطأت أكثر في عالم الأشياء الآنية التي تحيط بحياتي اليومية والعملية، "رأيت" إلى مسافة أبعد وحتى إلى المستقبل.

كنا قد استأجرنا للتو فيلا محاطة بأشجار السرو قرب فلورنسا، حيث استعدت حالة هدوء نسبي. وكانت صديقتي المقرّبة "الآنسة شانيل" في صقلية في ذلك الوقت. راودتني ذات مساء فكرة مفاجئة لا مبرر لها وهي أن "شانيل" قد أُصيبت بالحمّى فراسلتها فوراً قائلاً: "أخشى أنك تعانين من الحمى التيفية". ثم تلقيت في اليوم التالي برقية من "ميسيا سيرت" تعلمني فيها أن "شانيل" في فينيسيا وهي تعاني من مرض شديد. وذهبت إليها مسرعاً! وكانت بالفعل مصابة "بالحمى

نظيرة التيفية" وتعاني بشكل دائم، ومعنّدة على العلاج. وفي تلك الفترة في فينيسيا، أصاب موت "دياغليف" الجميع بالرعب.

على طاولة سريرها كانت هناك صَدَفَة كبيرة ملونة أُهديت إليها في كابري، وكنت أسمي هذه الجزيرة دوماً بـ"الحمى العظيمة". وكنت أردد "يعاني المنظر الطبيعي في كابري دوماً من حمى الجياد. ويجب أن تُعالج كابري من كهوفها". ثم قمت بتجربة قياس حرارة شانيل. كانت قد انخفضت إلى الحد الطبيعي تقريباً. ومنذ ذلك الوقت أصبحت مهووساً على الدوام بهذا السؤال: "هل كانت هناك صَدَفَة من كابري عندما مات دياغليف؟"

أنا أؤمن بالسحر، كما أنني مقتنع أن كل الجهود الجديدة المبذولة في علم الكون وحتى الميتافيزيقيا يجب أن تكون مبنية على السحر، ويجب أن تعيد اقتناص الحالة الذهنية التي أرشدت عقولاً مثل "باراسيلوس ورامون لول". إن التفسير النقدي الارتيابي للصور التي تظهر في إدراكي بشكل غير إرادي عن الأحداث التصادفية التي تحدث خلال مسار أيامي، عن الظواهر المتكررة والعنيفة لـ "الخطر الموضوعي" الذي يلقي أشعة غامضة من الضوء على تصرفاتي الأقل أهمية- أكرر أن تفسير هذا كله ليس إلا القراءة التفسيرية القادرة على منح ترابط موضوعي للإشارة والفأل والعرافة والشعور السبقي والخرافة التي هي المصدر المغذي لكل "السحر الشخصي".

لكن إن كان بوسعي أنا نفسي قراءة نتيجة أحداث قريبة معينة بوضوح شديد خلال فترات قصيرة، فإن غالا هي وسيط حقيقي بالمعنى العلمي للكلمة. غالا لا تخطئ أبداً، أبداً، أبداً. إنها تقرأ ورق اللعب بيقين عجيب، وقد تنبأت لوالدي بمسار حياتي حتى اللحظة الراهنة، وتنبأت بمرض "رينيه كريفل" وانتحاره، وبيوم إعلان الحرب على ألمانيا بدقة.

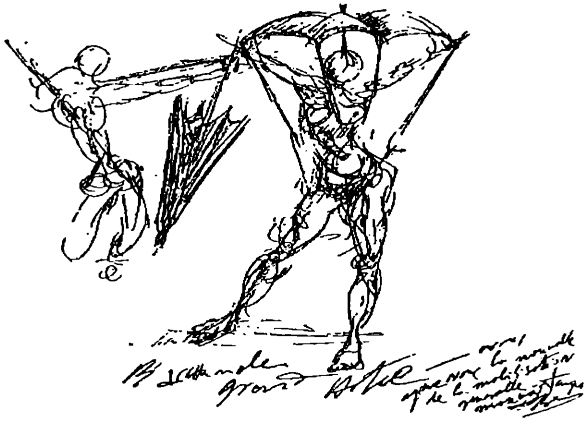

إنها تؤمن بخشبتي– وهي قطعة خشب وجدتها في بداية تعارفنا بين الصخور في (كاب كرو) في ظروف استثنائية. ومنذ ذلك الوقت لم نفارق هذا "الصنم الداليّ الصافي" يوماً، رغم أننا أضعناها عدة مرات. لقد أضعناها في "كوفينت غاردن" في لندن، وعثرنا عليها ثانية في اليوم التالي. ثم ذهبت مرة أخرى إلى غرفة الغسيل مع ملاءات السرير، وكان من الضروري التفتيش بدقة في كل غسيل فندق "سينت مورتيز" لكننا وجدناها أخيرا. وقد اتخذت قطعة الخشب هذه في ذهني شكل عصاب هوسي قهري. وعندما تخطر في بالي فكرة أن عليّ أن أذهب وألمسها، لا يمكنني مقاومة القيام بهذا. في هذه اللحظة بالذات، علي الذهاب ولمسها...

ها قد لمستها، وبهذا هدأ قلقي الذي كان سيتفاقم بشكل مؤلم لو لم أفعل. وقبل الذهان الهوسي القهري الذي يتعلق الآن بخشبتي بشكل حصري، كان لدي الكثير من أنواع الهوس والطقوس العصابية المرهقة للغاية. لقد كان طقس الذهاب إلى السرير مثلاً، طقساً طويلاً ودقيقاً. كان يجب أن يوضع كل شيء في غرفتي بطريقة معينة مصممة مسبقاً– الباب مفتوح بزاوية محددة تماما، فردتا جرابي مرتبتان بشكل متناظر على جزء محدد تماماً من الكرسي، بالطريقة نفسها دوماً. وكان أي خرق لهذه الطقوس سيضطرني إلى النهوض من السرير لتصحيحه،

حتى لو كان هذا مزعجاً جداً بالنسبة إلي، وإن اضطررت إلى النهوض عدة مرات. ومنذ أن وجدت خشبتي عام 1931، تحررت من كل أنواع الهوس والطقوس. أصبحت قادراً على القيام بكل شيء كما أريد، شرط أن تكون خشبتي الصنمية[1] موجودة معي في كل مرة أفكر بها فيه. على أية حال خشبتي هناك، وهناك، وهناك! إنها صلاتي....

اعتدال أيلول كان سيجلب لنا أزمة ميونخ. وعلى الرغم من حقيقة أن ورق لعب غالا تنبأ بأن الحرب لم يحن أوانها بعد، فقد غادرنا إلى إيطاليا، وأمضينا أزمة ميونخ في لابوزا على تلال مونت كارلو، مع الآنسة شانيل، المسمرة على الدوام إلى المذياع. لقد دام هذا "الاعتدال" أربعة أشهر بقيتُ أثناءها في منزل شانيل بصحبة الشاعر الفرنسي العظيم "بيير ريفيردي" الذي تركتْ كاثوليكيته التي تدخل في تركيبته الأساسية والبيولوجية انطباعاً عميقاً لدي. لقد كان "ريفيردي" هو الشاعر المتكامل لجيل التكعيبيين. إنه الروح التي تحمل المجموعة الأكثر عنفاً ورقة من الأسنان التي عرفتها يوماً، ولديه موهبة من الغضب الروحي أجدها نادرة جداً. لقد كان "هائلاً" ومناهضاً للفكر ونقيضي في كل شيء، وقدّم لي مناسبة ممتازة لتعزيز أفكاري. وكنا نتشاجر جدلياً مثل ديكين كاثوليكيين وأسمينا هذا الشجار " تفحّص المسألة".

كنت خلال هذه الفترة أحضّر لمعرضي القادم في نيويورك، وأكتب المخطط العام لكتاب "الحياة السرية" وأرسم لوحة "لغز هتلر" وهي لوحة يصعب تفسيرها بشدة ولا يزال معناها خافياً عليّ. إنها تتألف من تقرير مكثف عن سلسلة من الأحلام التي من الواضح أن أحداث ميونيخ هي التي استحثتها. وبدت لي مشحونة بالقيمة النبوئية، حيث تعلن حقبة قروسطية ستنشر ظلها على أوروبا. وظهرت مظلة "تشامبرلان" في اللوحة بشكل شرير، يحددها الخفاش، وسببت لي العذاب الشديد عندما كنت أرسمها...

---

[1] الصنم: هو تجسيد ملموس وموضوعي ورمزي للرغبة، بالتسامي، إنه أمنية، "صلاة".

أبان وصولي إلى نيويورك، أذهلتني عروض واجهات المحلات التجارية في الجادة الخامسة التي كانت تحاول كلها تقليد "دالي" بشكل من الأشكال. تلقيت على الفور عرضاً آخر من متجر "بونويت تيلر" يطلب مني تزيين اثنتين من واجهات عرضه. وقبلت العرض لأنني اعتقدت أنه سيكون مثيراً للاهتمام إظهار الفرق العلني بين أسلوب دالي الحقيقي وأسلوبه المزيف. وفرضت شرطاً واحداً فقط: أن يُسمح لي بالقيام بما يخطر في بالي تماماً. تم قبول هذا الشرط، وتم وصلي بالشخص المسؤول عن الأمر وهو السيد "لي" الذي كان ملتزماً بشدة طوال الوقت.

كنت أكره دمى العرض العصرية المريعة الصلبة جداً وغير القابلة للأكل، بأنوفها المرفوعة للأعلى بشكل أحمق. وكنت أريد في هذه المرة لحماً اصطناعياً قديم الطراز قدر المستطاع. ولذلك فقد أحضرنا من عليّة متجر قديم دمى عرض شمعية مخيفة من فترة العقد الأول من القرن العشرين، وكان لديها شعر طبيعي طويل لنساء موتى. وقد كانت هذه الدمى مغطاة بشكل ساحر بغبار السنوات وشباك العنكبوت. وقلت لـ "لي": "احرص على ألا تسمح لأي شخص بأن يلمس هذا الغبار، إنه جمالها الأساسي. وسأقدم دمى العرض هذه لجمهور الجادة الخامسة كما يقدم المرء زجاجة أرمانياك تم إحضارها للتو من القبو بإجراءات احتياطية لا تنتهي". نجحنا بنقلها بالحالة التي وجدناها عليها تقريباً بعناية شديدة. وكنت أعرف أن حالتها ستشكل تبايناً مجفلاً مع إطار الحرير المبطن والمرايا التي فكرت بوضعها.

كان موضوع العرض تافهاً بشكل متعمد. وكان أحد العروض يرمز للنهار، والآخر يرمز لليل. في عرض "النهار" كانت واحدة من دمى العرض هذه تدخل "مغطس حمام كثير الشعر" مبطناً بفرو الحمل الصغير، وكان مملوءاً بالماء حتى الحافة، كما استحضر أسطورة نرسيس ذراعان شمعيان جميلان يحملان مرآة. وكانت أزهار النرجس الطبيعي تنمو مباشرة من أرض غرفة النوم ومن الأثاث. أما "الليل" فقد تم تمثيله بسرير تتألف

عتمته من رأس أسود ناعس لثور بوفالو يحمل حمامة نازفة في فمه، وكانت أرجل السرير مصنوعة من أرجل البوفالو الأربعة. وكانت ملاءات السرير المصنوعة من الحرير الأسود محروقة بشكل مرئي، وتستطيع من خلال الثقوب أن ترى جمر فحم اصطناعي. وقد كانت الوسادة التي تريح دمية العرض رأسها عليها تتألف بكاملها من الجمر، ويجلس إلى جانب السرير شبح النوم متخيلاً بالشكل الميتافيزيقي الخاص بـ "شريكو". لقد كان مزخرفاً بكل المجوهرات اللامعة للرغبة التي كانت تحلم بها امرأة الشمع النائمة. وكان هذا التوضيح للشعر السريالي البسيط في الشارع، سيلفت انتباه المارين بشكل حتمي ويذهلهم عندما يرفع الغد الستار عن هذا القدر من السريالية المتعلّقة بإحدى رؤى دالي الأصلية.

عند مغادرتنا أنا وغالا لدار أوبرا ميتروبوليتان، حيث حضرنا عرضاً للهوهنغرين، ذهبنا إلى متجر بونويت تيلر حيث يتم تجهيز واجهتي العرض اللتين صممتهما. وتوصلت حالاً إلى سلسلة كاملة من الاختراعات العاطفية، وبقينا لوضع اللمسات الأخيرة على واجهتي العرض حتى السادسة صباحاً. وكانت غالا قد مزقت ثوبها بالكامل في حمية تثبيت المسامير وتعليق المجوهرات الزائفة في كل مكان. ثم ذهبنا إلى السرير ونحن منهكان تماماً.

وكان علينا في اليوم التالي حضور حفل غداء كبير، وقررنا حوالي الساعة الخامسة أن نذهب لرؤية تأثير واجهتي العرض. يمكنكم أن تتخيّلوا حالة غضبي عندما اكتشفنا أن كل شيء قد تغير، لقد تم تغيير كل شيء على الإطلاق، من دون حتى التصرف بلباقة وإعلامي بالأمر! وتم استبدال دميتي العرض الشمعيتين بدميتين تقليديتين، وتمت إزالة السرير والدمية النائمة عليه! ولم يبق من فكرتي إلا الجدران المبطنة بالحرير- بعبارة أخرى، ما وضعته من باب المزاح! فهمت غالا من شحوبي ومن رزانة رد فعلي أنني أصبحت خطيراً فجأة.

وتوسلت إلي قائلة: "اذهب وتحدث معهم، لكن كن متعقلاً، اطلب منهم إزالة كل هذه التفاهة، ولننس الأمر!"

ثم عادت إلى الفندق لأنها شعرت أن أية نصيحة في هذه اللحظة ستفاقم حالتي وحسب. وذهبت إلى مدير متجر بونويت تيلر، وبعد أن أجبروني على الانتظار في ممر لحوالي ربع ساعة، استقبلني سيد عبر عن سعادته بمعرفة فنان عظيم مثلي. ثم أخبرته من خلال مترجم وبتهذيب شديد، أنني لاحظت أثناء مروري في الشارع أنه تم تغيير عملي من دون إعلامي بالأمر، ولذلك أريد محو اسمي عن نافذة العرض وتغيير نافذة العرض بالكامل لأن الغش في عملي سيسيء إلى سمعتي. أجاب السيد بأن لهم الحق بالإبقاء على "ما يعجبهم" من أفكاري، وسيكون أمراً محرجاً أن يسدل المتجر ستائره في وضح النهار ليقوم بالتعديلات التي طلبتها. لم تكن تلك التعديلات ستحتاج أكثر من عشر دقائق، وكنت على وشك تقديم شرح عملي لحقيقة أن الأمر برمته يمكن أن يتم خلال لحظة واحدة. لكن الطريقة الفظة التي قوبل بها طلبي المنطقي والشرعي جعلتني أطلق إنذاراً على الفور، وأعلنت للسيد أنني أطالب بإزالة اسمي والأجزاء المعروضة من أفكاري التي لا تزال باقية في نافذتي العرض. قلت "إن لم يتم هذا خلال عشر دقائق، سأتخذ إجراءاً متطرفاً".

لقد قررت تماماً ماذا سأفعل. كنت سأدخل غرفة العرض وأثير اضطراباً في المغطس المليء بالماء وأجبرهم على إسدال الستائر ونزع كل شيء بعد أن يصبح المكان كله مغموراً بالماء. وبدا لي أن هذا هو الحل الوحيد لأنني وجدت أن فكرة رفع دعوى قضائية ضد "بونويت تيلر" فكرة طفولية.

وشرح لي السيد أنهم غيروا واجهتي العرض اللتين صممتهما لأنهما كانتا أنجح من اللازم، وكانت هناك حشود تتجمع باستمرار حولهما مما أدى إلى إعاقة حركة المرور، وأنهما أصبحتا الآن مناسبتين تماماً، وأنه لا يمكن أن يزيلهما بعد كل النفقات التي تكبدوها.

أحنيت رأسي بشعور تام بالصواب وخرجت، وتركت كلاً من السيدين وقد ارتسمت على وجههما ابتسامة تنمّ عن ريبة شديدة. ثم نزلت إلى الطابق الرئيسي واتجهت بهدوء تام إلى نافذة العرض حيث يوجد المغطس ودخلتها. وتوقفت للحظة لأستمتع بالتصرف الذي كنت أوشك أن أقوم به، ونظرت من النافذة إلى الحشد الغريب الذي غمر أرصفة الجادة الخامسة تماماً. لا بد أنه كان هناك أمر غير اعتيادي بوجودي في النافذة، لأن حشداً كبيراً تجمع لمشاهدتي.

أمسكت بالمغطس بيدي الاثنتين، وحاولت رفعه كي أقلبه. شعرت أنني أشبه بشمشون التوراتي بين أعمدة المعبد. وكان المغطس أثقل مما حسبت، وقبل أن أستطيع رفع أحد الجانبين انزلق وصدم النافذة بحيث أنه في اللحظة التي نجحت فيها أخيراً في قلبه بجهد هائل، اصطدم باللوح الزجاجي وحطمه إلى آلاف القطع. تراجع الحشد على الفور وشكل نصف دائرة واسعة بحركة تنم عن رعب غريزي متفاديا شظايا الزجاج والماء المنسكب من المغطس الذي انسكب الآن على الرصيف. ثم قمت بتقييم الموقف بهدوء، وحكمت أنه من المنطق أن أغادر من فتحة النافذة المليئة بنوازل وصواعد غضبي بدل العودة من خلال الباب الموجود في خلفية نافذة المتجر. وما إن قفزت عبر الإطار وهبطت على الرصيف، حتى انفصلت قطعة كبيرة من الزجاج لا بدّ أنها كانت متماسكة بإعجوبة، وخرقت الفتحة التي عبرتها للتو- وكانت أعجوبة أخرى أنها لم تقتلني، لأنه بالنظر إلى أبعادها ووزنها فقد كان بوسعها أن تحطم رأسي تماماً بكل سهولة.

وعندما وصلت إلى الرصيف، ارتديت بسرعة المعطف الذي كنت أحمله على ذراعي، لأن الهواء كان قارس البرودة وكنت أخشى من الإصابة بالزكام، واتجهت إلى فندقي بخطوات بطيئة. ولم أكن قد قطعت مسافة عشر خطوات حتى وضع شخص يرتدي ملابس مدنية يده على كتفي بتهذيب شديد وشرح لي معتذراً أنه مضطر لاعتقالي.

وسارعت غالا وأصدقائي إلى مخفر الشرطة الذي أخذوني إليه، وقدم لي المحاميّ خيارين: إما أن يتم إطلاق سراحي بكفالة على الفور، وستتم المحاكمة بعد مدة طويلة من الزمن، أو إن كنت أفضل الأمر، يمكنني البقاء لفترة قصيرة في السجن، مع الأشخاص الآخرين الذين تم اعتقالهم، وستتم مناقشة قضيتي خلال ساعات قليلة. كنت متشوقاً للانتهاء من الأمر بأسرع وقت ممكن، واخترت الخيار الثاني.

لقد أرعبني خليط السجناء الآخرين الذي اضطررت للعيش معه في السجن. وكان معظمهم من السكيرين والمتسولين المحترفين الذين تقيأوا وتشاجروا فيما بينهم بتفاؤل يثير الإعجاب. وكنت أستمر بالهرب من زاوية إلى أخرى لأتجنب رذاذ كل ذلك الإذلال المتراكم حولي، وكان هناك سيد ضئيل البنية مثقل بالخواتم والسلاسل الذهبية التي كانت تتدلى بتباهٍ من جميع جيوبه، والذي كان على الرغم من ضآلة حجمه ومظهره المخنث يحظى باحترام جميع أولئك الرجال المفتولي العضلات العنيفين، وقد لاحظ هذا السيد ضيقي فقال:

"أنت إسباني، لقد عرفت هذا على الفور، أنا من بورتو ريكو. لما أنت هنا؟"

أجبت "لقد كسرت نافذة"

"هذه مشكلة تافهة. سيغرمونك ببضعة دولارات، وهذا كل شيء. لقد فعلت ذلك في حانة، أليس كذلك؟ في أي جزء من المدينة كسرت النافذة؟"

"لم تكن حانة، بل متجراً في الجادة الخامسة"

"الجادة الخامسة!" هتف السيد الضئيل من بورتو ريكو بنبرة تشير إلى أن تقديره لي قد ازداد فجأة. وأخذني على الفور تحت حمايته وأضاف: "يمكنك إخباري الأمر برمته لاحقاً. حالياً، ابق قريباً مني ولا تخش أي شيء. لن يلمسك أحد طوال وجودك هنا".

لا بد أنه كان شخصية هامة جداً في محيطه هذا.

وقد كشفت الملامح القاسية للقاضي الذي حاكم قضيتي عن مقدار التسلية التي وفرتها له قصتي. وحكم بأن تصرفي كان "عنيفاً بإفراط" وأن عليّ أن أدفع ثمن النافذة التي كسرتها، لكنه حرص على إضافة أن كل فنان يملك الحق بالدفاع عن "عمله" ضمن الحدود المنطقية.

واستجابت الصحافة في اليوم التالي وقدّمت لي دليلاً مؤثراً عن تعاطفها معي، وانهمرت البرقيات والرسائل من فنانين وشخصيات اجتماعية أخرى من جميع أنحاء البلاد يقولون فيها أنني لم أكن بتصرفي هذا أدافع عن "قضيتي الشخصية" وحسب، بل عن استقلال الفن الأمريكي الذي يتعرض إلى الكثير من تدخلات الوسطاء غير الكفوئين بطريقة صناعية وتجارية. وكنت بهذا قد لمست عن غير قصد، أحد جراح البلاد المفتوحة.

بعد أن كسرت نافذة العرض التي صممتها في بونويت تيلر، تلقيت على الفور عرضاً "لأصمم نافذة أخرى"، وفقاً لذوقي بالكامل- نافذة مميزة ليس من الضروري أن تُكسر، في معرض نيويورك العالمي الذي سيتم افتتاحه بعد شهر ونصف، ووقعت عقداً مع شركة[1] بدا لي أنه يضمن "حرية مخيلتي الكاملة" بشكل لا لبس فيه.

كان سيطلق على الجناح اسم "حلم فينوس" لكنه كان في الواقع كابوساً مخيفاً لأنني أدركت بعد فترة قصيرة أن الشركة المذكورة كانت تنوي صنع حلم فينوس بمخيّلتها الخاصة، وأن ما أرادوه مني هو اسمي الذي أصبح مُذهلاً من وجهة النظر الدعائية. وكنت حتى ذلك الحين لا أجيد الانكليزية على الإطلاق، وتوجّب على سكرتيري أن يترجم كل صراعي لفرض الحد الأدنى من أفكاري، وقد بذلت جهداً هائلاً! كان ثمة انفجار جديد كل يوم.

---

[1] بالفرنسية societeanonyme مما تلاعب دالي التالي على عبارة anonymous- ملاحظة المترجم. (أي مجهول الاسم)

وكنت قد صممت أزياء للفتيات السابحات من وحي أفكار "ليوناردو دا فنشي"، بينما كانوا مستمرّين بإحضار أزياء حوريات بحر مريعة مع زعانف ذيلية مطاطية! وأدركت أن هذا كله سينتهي بشكل سيء. وكنت قد أعلنت بشكل واضح أكثر من مرة أنني لا أريد أن أسمح بذيول الحوريات التي أرادت الشركة أن تفرضها عليّ بأي ثمن مدّعية أنني لم أكن أعرف سيكولوجيا الشعب الأمريكي. ثم صرخت وفقدت أعصابي وكل ذلك عبر السكرتير. وكانت ذيول الحوريات تختفي لبعض الوقت ثم تظهر من جديد، كالمذاق المتأخر المرّ لبعض الأطعمة الدسمة التي لا يمكن أن تُهضم.

أدركت أن تأثير التفسيرات ورسائل الاحتجاج التي كان يطبعها السكرتير كل مساء، كان يقل تدريجياً، وطلبت منه أن يوقف التفسيرات كلها وأن يشتري لي مقصّاً أكبر حجماً. وظهرت في الصباح التالي في ورشة العمل التي يتم تجهيز "حلم فينوس" فيها. لقد كان عقدي يضمن لي الإشراف بأقصى درجاته، وكنت سأستخدم هذا الحقّ وأستغلّه بقوة مقصي. وكان أول ما فعلته تقطيع ذيول الحوريات الاثني عشر وجعلها غير صالحة للاستخدام أبداً. ثم هاجمت "الشعر المستعار" الذهبي والفضي الذي لم أطلبه أبداً — لم يكن سوى خيال "مجهول الاسم" ولا مبرر له من خيالات الشركة. لقد قطعتها إلى ضفائر، وغمستها في القار لتعلق على مظلات مقلوبة من الداخل إلى الخارج كانت ستوضع على سقف الجناح. وبهذا بدت تلك المظلات كأنها مغطاة بطحالب اسبانية حدادية. وبعد أن حولت "شعر الحوريات المستعار" إلى طحالب إسبانية، استخدمت مقصي الذي لم يكن سوى الرمز التقطيعي لانتقام شخصيتي، لأقطع كل شيء وأثقبه وأخربه مُقحماً إياه في قلب الشركة "مجهولة الاسم"، التي صرخت في النهاية "آخ"، ورفعت راية استسلامها بيدها.

ثم استسلموا لمشيئة إرادتي الملكية ووافقعوا على كل شيء، لكن صراعاتي لم تكن قد انتهت، لأن التخريب أوشك أن يبدأ. لقد فعلوا ما

طلبته منهم "تقريباً" لكن بشكل سيئ وبنية سيئة بحيث أن الجناح أصبح كاريكاتورا بائساً لأفكاري ومشاريعي. ونشرت بياناً عن هذا الموضوع: "إعلان استقلال المخيلة وحقوق الإنسان لجنونه الخاص (نيويورك، 1939)" وذلك لأخلص نفسي من المسؤولية الاخلاقية عن عمل سيء كهذا، لأن لم يكن وارداً أن أكسر الواجهات للمرة الثانية (على الرغم من أن الفكرة كانت مغرية جداً بسبب أبعاد حوض السباحة الذي سيتم العرض فيه، وكانت ستترك أثرا رائعاً).

ثم عدتُ إلى أوروبا وأنا أشعر بالاشمئزاز من "حلم فينوس" قبل أن ينتهي بمدة طويلة– كي لا أرى عملي منتهياً أبداً. وعرفت لاحقاً أنني ما إن عدت من أمريكا حتى استغلت الشركة غيابي لملء "كابوس فينوس" بالذيول مجهولة الاسم للحوريات مجهولات الاسم مما جعل القليل من دالي مجهول الاسم.

وعلى سفينة "تشامبلين" التي أعادتني إلى أوروبا، كان لدي الوقت لأراجع مشاعر إعجابي بالقوة البدئية والسليمة بيولوجياً لـ"الديمقراطية الأمريكية"، وأحددها بشكل أكثر فلسفية، وهي مشاعر إعجاب غالباً وتظهر بشكل متقد وشاعري في هذا الكتاب، وهي لم تتأثر بأي شكل بالظروف المؤسفة لرحلتي الأخيرة، بل على العكس من ذلك، لأنه حيث يستطيع المرء أن يحاور وهو يحمل مقصاً مفتوحاً في يده، يكون هناك لحم معافى ليقطعه، ويكون هناك حرية لكل أنواع المجاعات. لكن للأسف، فإن أوروبا التي أعود إليها الآن، كانت مُستهلكة بتنقية ذاتها الاستمنائية العقيمة، والفشل في مؤالفة التناقضات الإيديولوجية التي أصبحت أرضاً فكرية خصبة تميل بالفعل إلى حلّ فريد عنوانه الحرب والهزيمة.

في رحلة عودتي إلى فرنسا على متن "التشامبلين" كان لدي الوقت أيضاً للتأمل في أمريكا الأخرى المخفية– ذات الذكاءات النيرة والمعزولة التي منحتنا نحن الأوربيين دروساً متكررة في "التعليم الفائق". كان التعصب

الذي كشفت عنه بعض المتاحف وبعض المجموعات الخاصة دليلاً حاسماً على أنه يشكّل في أمريكا، وليس في أي بلد آخر، جواً مُسبقاً من الفرضية والتركيب. وصادف أن "جيمس ثرول سوبي" الذي قمت بتقوية روابطي الفكرية معه، والذي انضم إلينا في رحلتي الأولى إلى أمريكا، هو أول من قام بتجميع القيم الجمالية وفقاً لبيكاسو، بإشارة جلية من الاستبعاد المطلق للفن التجريدي وغير الرمزي، صاهراً في رغبة للدمج والتركيب التفسيري التطلعات نحو "نهضة" كامنة في القطاع المفرط الرمزية للسريالية الارتيابية والرومانسية الجديدة. وكان الأمر واضحاً، لكن كان من الضروري أن يتم "تصنيفه". وكان محور "برنارد-دالي" أكثر واقعية حتماً من الناحية الروحانية، من محور الانتماءات السريالية السطحية التي ربطت الشخصيات الفردية السريالية فيما بينها بروابط المذهب التقليدية. وأصبحت لوحات "إيوجين بيهرمان" "رومانسية مع كلاسيكية"[1] غامضة بشكل أصيل وفيها نوعية مخيلة متفوقة حتماً على من يتبعوني حرفياً، وأعني "السرياليين الرسميين". كانت منصة "سوبي" الفكرية مشابهة للمنصة التي تبناها "جوليان ليفي" بشكل قاطع، بطريقة موازية، مع أسلحة العمل التي في يديه، وهذا واضح في الاتجاه الروحاني الذي وجه إليه نشاط صالته منذ البداية- وهي منصة الهرمية والتركيب. وكان "سوبي" أيضاً من الأوائل الذين فكروا بـ"النشاط الارتيابي الانتقادي" الذي قدر له أن يتبع الحماس جول التجارب التلقائية التي كانت تستهلك نفسها في تكرار ممل وفي إضاعة متفاقمة متطاولة للوقت.

وكان لدي تأكيد محزن على إضاعة الوقت عندما علمت إبان وصولي إلى باريس، أن المجموعة السريالية لم تجد ما تفعله أثناء غيابي سوى الاستمرار الذي لا يكلّ للعبث التلقائي النقي، مقابل بحثي الجديد عن الهرمية الجمالية للمخيلة غير المنطقية. وكان الجواب عن بحثي عن

---

[1] أو كلاسيكية بشكل رومانسي

الهرمية عبارة عن معرض سريالي تم ترتيب اللوحات المشاركة فيه وفقاً لمعيار الأبجدية اليساري تماماً! معرض سريالي عن بحثي عن الهرمية، ولم يكن هذا العمل كله ضرورياً لإحداث ثورة في كل شيء من القمة إلى القاعدة وصولاً إلى مرحلة تبني ترتيب كهذا! كما أنني لم أنجح بحفظ الأبجدية غيباً، وكنت عندما أحتاج إلى كلمة في القاموس، أفتحه بشكل عشوائي دوماً وأجد ما أبحث عنه. لم يكن ترتيب الأبجدية من اختصاصاتي، وقد تمتعت بموهبة البقاء خارجه دوماً. وكنت حينها سأضع نفسي خارج نظام السريالية لأنني "كنت السريالية" ذاتها شئت أم أبيت.

كما الحال في كل شيء آخر، لم يكن بالإمكان عرض مسرحيتي "تريستان المجنون" مع أنها أفضل أعمالي المسرحية، وتم تحويلها إلى "فينوسبرغ" ثم تم تحويل "فينوسبرغ" إلى "الباكانالي" التي أصبحت النسخة النهائية لها. وكانت عبارة عن رقصة باليه اخترعتها من أجل مسرح الباليه الروسي في مونت كارلو. وقد انسجمت مع "ليونيدماسين" الذي كان دالياً مئة بالمئة لوقت طويل — كان من المقدر له أن يصمم حركات رقصة العكازات. ونفّذ الأمير "تشيرفاتشيدز" الذي كان مع "الفيكونت دي نواي" أنقى تمثيل للأرستقراطية الأصلية في أوروبا، وكان تصميماً مسرحياً بضمير مهني يكاد عصرنا الحديث المبهرج التافه لا يستحقّه، هذا العصر الذي يبقى دوماً مُفتقداً للدقة وعلى عجلة من أمره، ويتم إنجاز كل شيء بشكل سيء ودون أن يكتمل. وقد خالفني الحظ أيضاً بأن "شانيل" نفسها صممت الأزياء، عملت معي بحماس شديد، وأبدعت أفخم أزياء المسرح على الإطلاق. كما استخدمت فرو القاقم الحقيقي ومجوهرات حقيقية، وكانت قفّازات لودفيغ الثاني ملك بافاريا موشاة بشدة بحيث أننا قلقنا من أن الراقص قد لا يتمكن من إتمام رقصته وهو يرتديها.

لكن العمل فشل مرة أخرى. وما إن اندلعت الحرب حتى أسرعت شركة الباليه في الرحيل إلى أمريكا قبل أن ننهي أنا وشانيل عملنا. وعلى

الرغم من البرقيات التي أرسلناها لتأجيل العرض ظهرت باليه "الباكانالي" في دار أوبرا الميتروبوليتان بأزياء مرتجلة من دون أن أشاهد عرض تدريب واحد عليها! وعلى الرغم من ذلك فقد حققت نجاحاً هائلاً.

وبعد أن أنهكتني أنا وغالا مغامرات الرحلة الأخيرة إلى أمريكا، قررنا السفر لنستريح في جبال البرينية، قرب الحدود الإسبانية، حيث توقفنا في فندق غراند في "فون روميو". وكانت الاستراحة تعني بالنسبة إلي أن أبدأ حالاً بالرسم لاثنتي عشرة ساعة في اليوم. أما الشقة التي حجزتها وخططت أن أقيم فيها مرسمي لأنها كانت الأفضل في الفندق، فكانت الشقة ذاتها التي شغلها الجنرال "غاملن" رئيس أركان الجيش الفرنسي، وكان قد وصل بشكل غير متوقع في جولة تفتيش على تحصينات الحدود. ولذلك فقط اضطررنا للانتظار بنفاد صبر رحيل "غاملن" قبل أن نشغل غرفته وفعلنا هذا من دون تأخير. وفي الليلة التي استلقيت فيها على سرير الجنرال "غاملن"، قرأت غالا ورق اللعب قبل أن تنام ورأت الموعد المحدد لإعلان الحرب. وألقت الملابس التي تركناها على الكرسي بدون انتظام ظل هيئة مذهلة على الجدار، وكانت تشبه الشكل الجانبي للجنرال غاملن. يا له من نذير شر!

ثم تمت التعبئة العامة وأُغلق فندق غراند.

في باريس، تفحصت خريطة فرنسا، ودرست حملتي الشتوية، وحاولت التخطيط لها بحيث نأخذ بعين الاعتبار احتمال الغزو النازي فيما يتعلق بالاحتمالات الغذائية لأن الطعام في "فونت-روميو" كان سيئاً. وأصبت بنوبة هوس بالأطباق الشهية، وضعت أخيراً إصبعي على أقرب نقطة ممكنة من الحدود الاسبانية وعلى النقطة العصبية للمطبخ الفرنسي في الوقت نفسه: وهي بوردو. ستكون هذه المدينة أحد آخر الأماكن التي سيصل إليها الألمان إن فازوا، ويبدو لي هذا الاحتمال بعيداً جداً. والأكثر من ذلك، بوردو تعني نبيذ بوردو، وطاجن الأرنب البري، وكبد البط بالزبيب، والبط بالبرتقال،

ومحار أركاتشون... أركاتشون! وجدتها! هذا هو المكان المناسب تماماً لتمضية أيام الحرب، على بعد كيلومترات قليلة من بوردو.

بعد ثلاثة أيام من وصولنا إلى أركاتشون تم إعلان الحرب، وبدأت أجهز مرسمي في فيلا كبيرة تشرف على بحيرة أركاتشون الشهيرة، والتي استأجرناها من السيد "كولبيه".

كان للسيد كولبيه أكبر قدرة في العالم على الكلام. أصبح لدي دليل على هذا خلال الفترة التي أتت فيها الآنسة شانيل لزيارتنا، لأنني حتى ذلك الحين كنت أظن أن شانيل هي أكثر شخص يتكلم من دون ملل. وذات مساء، أمام طبق من السردين المقلي وكأس من "الميدوك"، جمعت "كوكو" الصغيرة (وهذا هو الاسم الذي كان أصدقاء الآنسة شانيل المقربين ينادونها به) مع السيد كولبيه لأعرف من منهما سيتفوق على الآخر. ودام الصراع بدون حسم لأكثر من ثلاث ساعات، لكن مع نهاية الساعة الرابعة بدأ السيد كولبيه يتفوق، وانتصر أخيراً. ويعود الفضل في انتصاره إلى تقنيته في التنفس بشكل رئيسي. لقد كانت طريقة تنفسه أثناء الكلام مذهلة، حيث أنه حتى في أكثر اللحظات احتداماً لم يتخل للحظة عن الإيقاع المتوازن وغير القابل للتعديل للشهيق والزفير المميز لأولئك الذين عزموا أمرهم على المضي لفترة طويلة. ومن جهة أخرى، كانت كوكو تترك نفسها بين الحين والآخر لتعلق في شرك فصاحتها الخاصة وتضطر للتوقف للحظة أو اثنتين لتأخذ نفساً عميقاً- آآآآه! وحينها يغدرها السيد كولبيه ويستخدم ميزته ويستمر بمسار قصته التي تكون مجال مشاحنة بطريقة ما حتى ذلك الحين، ويغير في الوقت نفسه الحديث باتجاه مواضيع ومسائل يشعر أنها تسبب خلخلة توازن الآنسة شانيل بازدياد. وعندما طُرح موضوع النمل الأبيض، مثلاً، فقدت شانيل توازنها، إذ ليست لديها آراء حاسمة بما يكفي حول هذا الموضوع. ثم ينطلق السيد كولبيه بجرأة ويروي قصصه الكثيرة المأخوذة

من تجارب شخصية خلال أسفاره في أفريقيا. كان هناك شعور أن بوسعه أن يستمر في التحدث عن هذا الموضوع طوال بقية السهرة.

وبهذا كله، كانت القوات الألمانية تفتح جبهة تلو الأخرى. وكانت كوكو أشبه ببجعة بيضاء تقوس جبينها الرصين قليلاً، وتمضي قُدماً على مياه التاريخ التي كانت قد بدأت تغمر كل شيء بالأناقة المميزة للذكاء الفرنسي ولباقته. وكان أفضل ما هو موجود في "العرق" الفرنسي، موجوداً في كوكو. وكان بوسعها أن تتحدث عن فرنسا بطريقة لا يستطيع أحد مضاهاتها بها، وقد أحبّت جسدها وروحها وكنت أعرف أنه مهما حلّ ببلدها فلن ترحل عنها إطلاقاً. لقد كانت كوكو مثلي، أحد التجسيدات الحية لأوروبا ما بعد الحرب، وقد تطورت روحانا بشكل متشابه جداً. وخلال الأسبوعين اللذين أمضتهما الآنسة شانيل معنا في أركاتشون، طُرحت جميع المواضيع البشرية والإلهية في حواراتنا التي لا تنتهي، والتي منحتها الحرب صرامة جديدة من الأصالة البارعة، لأن على المرء أن يبدأ بالنظر إلى الشكل بطريقة مختلفة تماماً.

لكن أصالتها كانت عكس أصالتي. وكنت أعرض أفكاري بلا خجل دوماً، أو أخفيها بنوع من النفاق. لكنها لم تكن كذلك: لم تكن تعرض أفكارها ولم تكن تخفيها بل كانت تلبُسها أزياء. وكان لإحساسها بالملابس معنى بيولوجي يقوم على الحشمة الذاتية ذات العنف القاتل. وكان لودفيغ الثاني ملك بافاريا، يرتدي ما تصممه شانيل سواء أكان من أجل المناسبات الرسمية أو من أجل ملابس الشارع، وكانت بذلك "تُلبِسُ" أحاسيسها الشابة والمريرة غير المعلنة! لقد كان حسّها في الأناقة والأزياء "مأساوياً" — كما هو لدى الآخرين "تهكّمياً". والأهم على الإطلاق أن شانيل تملك أفضل "جسد وروح" تم إلباسهما على الأرض.

بعد كوكو، أتى "مارسيل دوشامب" لزيارتنا. وكان مصاباً بالذعر بسبب قصف باريس الذي لم يحدث بعد. وكان "دوشامب" مناهضاً

للتاريخ أكثر مني، واستمر بتكريس نفسه لحياته الرائعة الزاهدة، كما مدّني التواصل مع فتوره بتحفيز شديدٍ لعملي. أنا لم أعمل بهذا الجد من قبل، أو بهذا الإحساس الحاًرق من المسؤولية الفكرية، كما فعلت أثناء الحرب في أركاتشون. لقد سلمت نفسي جسداً وروحاً إلى صراع التقنية والمادة. وأصبح هذا أشبه بالخيمياء. لقد كنت أسعى إلى ذلك الشيء الذي لا يمكن العثور عليه، من المادة التي سأرسم بها، والمزيج الدقيق من زيت الكهرمان، من الصمغ والورنيش، من قابلية التمدد التي لا يمكن قياسها، وتركيبة مادية فائقة الحساسية تمنح حساسية روحي القدرة على التجسّد أخيراً. كم أمضيت من ليالي الأرق بسبب قطرتين زائدتين انسكبتا في مادة الرسم خاصتي! غالا وحدها هي الشاهدة على نوبات غضبي ويأسي ونشوتي الهاربة، وغرقي في أكثر حالات التشاؤم مرارة. وهي وحدها تعرف إلى أية درجة أصبح الرسم بالنسبة إلي في هذه المرحلة سبباً قوياً للعيش، بينما أصبح في الوقت نفسه سبباً أقوى وغير مشبع لحبها، غالا، لأنها هي، وهي وحدها كانت الواقع، وكل ما كانت تراه عيناي كان "هي"، وكانت لوحة بورتريه تمثلها هي ما سيشكل عملي وفكرتي وواقعي.

لكن كي أنجز بورتريه "غالارينتي" كما كنت أدعوها، ربما سيتعين علي أن أموت من التعب مثل حمار كاثوليكي حقيقي نصف متعفن–كما كنت بالفعل– حمار يكاد ينهار لأنه يحمل وحده على ظهره المغطى بالتقرحات والذبابات الزائفة كل وزن نقائص عصرنا المرتاب عديم الشكل والتقاليد وتفاهاته وثوراته!

ومن مشاكل المطبخ الفيزيائي للتقنية، عدت إلى "كل" ما كان يشكل روح ليوناردو– كل شيء، كل شيء، كل شيء. بدء الكون، بدء الكون، بدء الكون! غزو كل شيء، التفسير المنهجي للمتافيزيقيا والفلسفة والعلم كلها وفقاً لذخيرة التقليد الكاثوليكي الذي لا يمكن لصرامة المنهج النقدي

الارتيابي إنعاش سواه. وبقي كل شيء ليتم دمجه وهندسته وتشكيله. كان قاتلاً! ووحدها غالا مكنتني من الحياة. أحضرت قناني نبيذ بوردو، وأخذتني مع الرسامة "ليونور فيني" التي منحتني عذاباتها الجمالية بعض الراحة، لنتعشى في "شاتو ترومبيت" في بوردو أو إلى مطعم تشابون فين. وكانت تضع قطعة فطر بصلصة بوردو مع الثوم على طرف لساني، وتقول لي "كلها! إنها شهية!" وكنت أهتف من دون أن يتوقف دماغي عن الطرق، بدء الكون، بدء الكون، بدء الكون! وأحياناً كانت دمعة تفور من عيني، وهي نتيجة المزيج الصحيح من بدء الكون والثوم.

إضافة إلى هذا كله، بدت لي الحرب الأوروبية أشبه بعراك أولاد على زاوية شارع. لكن ذات يوم، بدأ هذا الشجار يصدر الكثير من الضجيج، وأصبح واقعياً أكثر مما يجب، لأن أولاد القوات الألمانية السعداء وقليلي الكلام الذين كانوا قريبين جداً، وصلوا في عربات مصفحة تشبه عربات الحكايات الخرافية المغطاة برسوم طفولية ومموهة بالأغصان. وقلت لنفسي: "أصبح هذا تاريخياً أكثر مما يجب بالنسبة إلي". وفي نوبة غضب، توقفت عن رسم اللوحة التي كنت أرسمها، ورحلنا.

أمضينا في بوردو يوماً سيئاً، يوم أول قصف تعرضت له، ودخلنا إسبانيا قبل يومين من احتلال الألمان لجسر هينداي. ورحلت غالا مباشرة إلى لشبونة حيث كنت سألتقي بها ما إن تصبح أوراقي جاهزة كي نرتّب موضوع رحلتنا إلى أمريكا التي بدت لي أنها تبالغ في روتينها الحكومي.

من إيرون ذهبت إلى فيغوراس- أي أنني قطعت إسبانيا كلها. وجدت بلادي مغطاة بالأطلال، معدمة بشكل نبيل، وقد استعادت إيمانها بمصيرها، وبحالة حداد مزينة بحبة الماس في كل قلب.

"دق، دق!"

"من هنا؟ من يقرع الباب؟"

"هذا أنا".

"من أنت؟"

"أنا، سلفادور دالي، ابنك".

هكذا قرعت باب والدي في منزله في كاداكيس في الساعة الثانية فجراً. وعانقت عائلتي، أبي وعمتي وأختي. وأعدوا سمك الأنشوفة والنقانق والبندورة بالزيت من أجلي. ومضغت طعامي مذهولاً ومذعوراً: لأنني لم أر أي أثر للثورة.

"لم يتغير أي شيء" خلال إحدى عشرة سنة، وبقي كل شيء على حاله بالرغم من مرور ثلاثة أعوام من الحرب الأهلية والثورة! أوه، يا للخلود، يا للقوة، يا لمقاومة الشيء الحقيقي للدمار! العنف الذي لا يمكن تخيله للأشياء المحسوسة والرسمية، الذي يزهق التاريخ، تفوق القوة المرعبة والدائمة لـ "الصلابة المادية" على الزوال الباطل للثورية الإيديولوجية!

في الليلة التي أمضيتها في فيغوراس اعتقدت أنني أحلم وأنا مستيقظ تماماً. وقبل أن أنام، مشيت جيئة وذهاباً لوقت طويل في غرفتي، تلك الغرفة التي عشت فيها قبل أن يتم طردي من منزلي، والتي عشت فيها طفولتي. وهناك أيضاً، بقي كل شيء على حاله كما كان سابقاً. وبحالة من التأثر وصلت حدّ البكاء، ذهبت إلى مكتب صغير من خشب الكرز الذي كنت أعرفه غيباً، ولمست قلبه. سأفسر لكم الأمر، كان قلبه عبارة عن نظام صغير من الأدراج التي ربما كانت مصممة لوضع ورق الكتابة والمغلفات، لكن بما أن هذا المكتب لم يستخدم للكتابة عليه، بقيت هذه الأدراج خالية عدا عن حجيرة خلفية بالكاد تصل إليها اليد بأطراف الأصابع. وكان بوسع المرء أن يجد هناك دوماً الأشياء نفسها- مفتاحاً أو مفتاحين، أزراراً، قطعة خمسة سنتيمات مجوّفة كما لو أنها تعرضت لضربة (وبهذا يشكل التقعر بروزاً من الجانب الآخر مدبباً ولامعاً مثل ورم معدني)، دبابيس أمان، كتل أرجوانية من الغبار، وربما أرنباً عاجياً صغيراً أو منحوتة صغيرة أخرى، غالباً من العاج

ومكسورة دوماً مع بعض الغراء المستخدم لإصلاحها الذي يغطيها ويتجاوز حافة السطح المكسور، وتنتصب عليها شعيرات صغيرة سوداء ولامعة جداً، وتكون كلها دبقة تعطي المنحوتة العاجية مظهراً مروعاً من القذارة والنفور الذي يتعذر إصلاحه. وعرفت من التجربة أنه حتى عندما تتمكن أمي، التي تحب النظافة بشدة، من إفراغ هذا الدرج المصبغ وإزالة كل ذرة غباره من قاعه، تظهر أشياء أخرى، لكن من النوع نفسه، و وتظهر كتل الغبار الأرجوانية نفسها على الفور في المكان نفسه. لذلك زلقت يدي مع خفقان قلبي إلى أعماق القلب الغامض لهذا المكتب، وشعرت بأطراف أصابعي على الفور بوجود كل ما توقعته. كان كل شيء هناك: المفتاحان أو المفاتيح الثلاثة، أحدها صدئ والآخر الأصغر حجماً لامعاً جداً، دبابيس الأمان. وبأطراف أصابعي، نجحت بمداعبة الأزرار، وذلك الشكل المخروطي لقطعة السنتيمات الخمسة المحدبة، والمنحوتة العاجية المكسورة التي شعرت أنها دبقة على ندبتها، وقذرة كما يجب أن تكون وعليها الشعيرات السوداء اللامعة الصغيرة. وضغطت بين أصابعي عدة كتل من كتل الغبار الصغيرة ذات اللون الأرجواني القاتم وقربتها إلى الضوء الذي استمر بإضاءتها بالشحوب الذي كان يضيئها به أثناء مراحل نقاهة طفولتي، ثم تفحصتها بعناية. كانت كتلة الغبار هذه أقوى من أي شيء آخر، لأنها كانت خارج التاريخ، كانت ديناميت الزمان بحد ذاته، قادرة على تفجير التاريخ بحد ذاته، زهرة بنفسج التقاليد!

ثم استدرت. وكنت أعرف أن خلفي لوحة منسوخة في إطار دائري، فوق السرير، أخفت بقعة رطوبة مدورة في هذا الموقع نفسه. عندما كنت صغيراً كنت أرفع هذه اللوحة أحياناً، وكان يهرب من ورائها عنكبوت صغير. لقد جرّبت هذا الآن. كانت البقعة قد اختفت، لكن عنكبوتاً صغيراً خرج مسرعاً، كما كان يحدث في طفولتي تماماً.

صحيح أن أختي تعرضت للتعذيب على يد لجنة الاستخبارات العسكرية[1] وكادت تصاب بالجنون، لكنها تعافت تماماً. وصحيح أن قنبلة هدمت شرفة من منزلنا، لكن لم ينظر أحد إلى تلك الشرفة تحديداً من قبل. وصحيح أن بلاط الأرضية في غرفة الطعام قد سودته النار التي كان الفوضويون يشعلونها ليطبخوا وجباتهم وسط الغرفة، لكن ذلك هو المكان الذي توضع فيه طاولة الطعام. ولترى الضرر الحاصل هنا، عليك أن تحرّك الطاولة التي اختفت لشهرين وتم العثور عليها على بعد عشرين كيلومتراً عن فيغوراس في عيادة طبيب أسنان. ومثل فيلم عن كارثة مدمرة يتم تشغيله بشكل معكوس، عاد كل شيء إلى مكانه الأصلي التقليدي بعد الانفجار الثوري وكأنما بتأثير السحر. وكان البينانو الذي اعتقدوا أنه اختفى إلى الأبد لا يزال "موجوداً"، وعاد تدريجياً إلى مكانه الأصلي. وذات صباح، كان هناك حيث يجب أن يكون! وعاد كل شيء إلى سابق عهده! وكان الأمر وكأن عملية "الصيرورة" تخضع للقوانين الفيزيائية للأسطح التقليدية الساكنة لبحيرات التاريخ الميتافيزيقية التي تستعيد هويتها بعد كل جيشان، وتناقض بهذا مبادئ الجدلية الهيغلية بحد ذاتها، بينما الدوائر المتحدة المركز لأمواج التطور الإنساني الوهمية، على الرغم من أنها تبدو وكأنها تكبر، كانت تصل في واقع الأمر إلى النسيان على الشطآن النائية للمصير الإنساني، وتجعل العين الميكانيكية المحدودة بالمنطقة تنسى الرضّ الذي لا أثر له لحجر الثورة اللامرئية التي نُسيت بالفعل، والذي بدا عندما تم رميه على أنه قادر على إيصال الرذاذ إلى السماء نفسها بهيجانه المتنوع. وإن كان هيرقليطس محقاً في ادعائه أن المرء لا يستطيع الاستحمام مرتين في الجدول نفسه، فإن دالي محق في ادعائه أن مياه التقاليد الراكدة، على عكس مياه النهر، ليست لديها أية

[1] لجنة الاستخبارات العسكرية التي كانت تعمل أثناء حالة الذعر التي عمت برشلونة.

حاجة لتتحرك أو تجري إلى أي مكان كي تعكس أصالة السماء الأزلية، أو كي تتعفن بكرامة ومن دون السماء، إن دعت الحاجة إلى ذلك...

قبل مغادرة باريس، التقيت بأحد أصدقاء طفولتي والذي كان ثورياً طوال حياته. كان قد كافح بمرارة لسنوات كإرهابي متحمس لتأسيس الجمهورية الإسبانية. وقاتل أثناء الحرب الأهلية كالأسد من دون كلل حتى اللحظة الأخيرة مع الميليشيات المناهضة للفاشية. ثم أصبح لاجئاً في باريس، ولم يكن يملك المال ولا يتمتع بصحة جيدة، وكان يهجر موقف اللاتوافقية. ولم يكن قد فقد الأمل بإسبانيا فقال لي بصوت منخفض سراً كما لو أنه تحت وطأة اعتراف مؤلم كلفه الكثير ودفع ثمنه بدم لم يكن دمه: "ما تحتاج إليه بلادنا هو التخلص من فرانكو، وأن تصبح ملكية دستورية من جديد!- ملك!" هتف هذا الرجل الذي كان ثورياً صادقاً طوال حياته.

كنت أعرف أيضاً بعض الرسامين الذين كانوا ثوريين بعنف، محطمين لكل القوالب الجصية الخاصة بالتقاليد الأكاديمية، وكانوا قد بدؤوا في عمر شعرهم الأشيب- بعد أن فات الأوان- يلتزمون بالرسم بأكبر قدرٍ ممكن من الأكاديمية ومع شعورهم بالعار من القوالب الجصية التي تحطمت خلال تسخيفهم اللامسؤول للتقاليد في شبابهم.

لكن دالي ليس من هؤلاء أيضاً. دالي لا يعود إلى أي شيء، ولا يتبرأ من أي شيء، لأنه بدلاً من أن ينكر حقبة ما بعد الثورية التي يشجبها ويكرهها ويقاتلها، كمثال، فهو يريد أن يؤكدها ويجعلها سامية لأنها كانت الواقع، ولأن فقدان التقاليد في تلك المرحلة هو بحد ذاته تقليد يجب دمجه في الحقبة التالية. لأن بدء الكون هو "كلّ حصري". بدء الكون ليس رد فعل ولا ثورة- بدء الكون هو نهضة، ومعرفة هرمية وحصرية لكل شيء.

وبعد يوم من عودتي إلى كاداكيس عانقت ليديا البطلة، "المزروعة جيداً"، والتي نجت من كل شيء. وكانت في عمرها المتقدم لا تزال "مزروعة جيداً". وكان "رامون" مزروعاً بشكل سيء، ولم تستطع شجرة كسله الصمود في وجه محنة الازدراء. قالت لي ليديا:

"أثناء الثورة أحبني الجميع. وفي تلك اللحظات حين يوشك المرء على الموت فهو يرى بوضوح أين توجد الروحانية".

سألتها: "لكن كيف تمكنت من العيش من دون أبنائك، ومن دون رجال يساعدونك، في مثل سنك؟"

ابتسمت أمام براءتي.

"لم أعش حياة أفضل، كان لدي كل شيء وأكثر مما أريد، روحانيتي، أتفهم؟"

"لكن مما تتألف هذه الروحانية، لأن على المرء أن يأكل في وقت ما بالتأكيد!"

"بالضبط، بالضبط- كانت روحانيتي تعمل في موعد الوجبة تماماً. كان رجال مليشيا الإيمان يأتون في الشاحنات. وكان الجو حاراً جداً، وكانوا يخيمون على الشاطئ. كانوا يتجادلون ويتشاجرون باستمرار فيما بينهم. لم أقل كلمة لأحد. كنت أنتقي أفضل بقعة، وأذهب بهدوء وأشعل النار التي تعد بكثير من الجمر الذي لا يجيد أحد إشعاله مثل "المزروعة جيداً". ثم تحين ساعة الوجبة تدريجياً، وأسمع بعد مدّة أحد رجال الميليشيا يهتف: "من هذه المرأة؟" ويجيب أخر: "لا أعلم، إنها تعدّ نارها منذ وقت طويل!" وكانوا يتابعون نقاشاتهم التي لا تنتهي — ما كان عليهم أن يقتلوا كل سكان القرية لأنهم جميعاً كانوا أولاد عاهرات، وما كان عليهم الاستيلاء على السلطة قبل نهاية الأسبوع، وما كان عليهم إحراق كنيسة مع قسيسها في ذلك العصر.

في هذه الأثناء، كنت أستمر بتغذية النار بأغصان العريشة التي كانت تطقطق مثل شعر الملائكة. وحينها يبدأ أحد رجال المليشيا بالاقتراب من ناري ويقول: "علينا أن نفكر بالعشاء". وأنا لا أقول شيئاً بل أرمي كومة من الحطب في النار، وتكون رائحتها بمثابة البلسم للأرواح العارية لهذه الحفنة من المجرمين. ويقول آخر: "تعالوا، يجب أن نذهب ونحضر شيئاً

ما للأكل"، وشيئاً فشيئاً تظهر قطعة لحم، وساق أرنب، وتبدأ حمامة بالنضج وتتحول إلى اللون البني الذهبي. وتئزّ وتصبح لامعة.

وبينما يتناولون طعامهم، يصبحون وديعين كالحملان، ويصرّون على مقاسمتي كل شيء. كانوا بمحاولتهم الحسنة لـي يحاولون أن يعوّضوا عن كل السوء الذي ارتكبوه، وهم لا يبخلون على ليديا بأي شيء، ويبدؤون بإظهار شتى أنواع الاهتمام. وعندما أكتشف منهم من يستطيع أن يفهمني، أروي له سرّ "المعلم" وسرّ "المزروعة جيداً". وكان هذا أشبه بحياة "كوكاجين". كانوا يحضّرون أطباقاً جديدة دوماً في منازل السادة لأنهم لا يغسلونها أبداً، وكانوا عندما ينهون وجبة من وجباتهم، يلقون بالأطباق والكؤوس والملاعق في البحر.

لكن كل هذا لم يدم طويلاً، لأن جماعة الفريق الخصم كانوا يتفوقون عاجلاً أم آجلاً. وأثناء تناولنا للطعام، يأتي أحد الفوضويين راكضاً، ووجهه يشبه وجه جثة تم نبشها، يحمل أخباراً سيئة. قمع الجمهوريون اليساريون حركة الفوضويين وانطلقت شاحنات محملة بحرس الهجوم والبنادق الآلية باتجاه كاداكيس. كان الجميع ينهضون، ويرمون قطعة اللحم غير المنتهية في الهواء، ويستعدون للرحيل. كان أحدهم يترك زوجاً من الأحذية، وآخر يترك بطانية صوفية، وغيره فونوغرافاً مسروقاً، وغيره وسادة. "هيا! لنذهب! انتهت الحياة الرغيدة! انهضوا جميعكم! حان وقت الهرب. إنهم قادمون! يجب أن نذهب ونموت!"

يصبح الشاطئ مهجوراً من جديد، وليس فيه أي مخلوق حي. لكن في منتصف العصر تصل قوات الهجوم الخاصة بالانفصاليين. كانوا يصرخون ويشتم أحدهم الآخر ويجذفون مثل الآخرين، ومثل الآخرين، لم يفكر أي منهم بالعشاء أو بالموت. لكنني أحضرت بعض الخشب الجديد وبدأت أشعل النار. يقول أحدهم: "من تلك المرأة التي ترتدي

السواد؟" ويقول آخر: "لا أعلم. إنها تشعل ناراً"... يأتي أحدهم ثم آخر. ويراقبونني بصمت. لا أنبس ببنت شفة، وأرمي حفنة أخرى من أغصان الكرمة لتطقطق بصوت رائع يسرّ الأسماع. ويهتف شخص ما "يجب أن نفكر بالعشاء" ويصرخ آخرون: "هيا بنا لنجد شيئاً ما".

وبدورهم يأتي جنود من نوع آخر ويطاردون هؤلاء. بالمختصر، كنت أحصل بهذه الطريقة على كل ما أحتاج إليه، وأخيراً أتى الـ "Tercio de Santiago"، وحتى العرب. وكان العرب مزروعين جيداً جداً. كانوا يأتون جميعاً ويجلسون في دائرة حول ناري، وكانوا يحبونني كأم لهم. لأن الطيبين والأشرار يجب أن يأكلوا عندما يحين موعد الطعام، ويفضلون الطعام الساخن، أنا نفسي لم يكن بوسعي أن أموت جوعاً. سيكون لديهم كثير من الوقت ليأكلوا الطعام البارد في المقبرة، لأنني متأكدة من أن كثيرين منهم سيُقتلون، لكنهم كانوا يافعين جداً! أما بالنسبة إلي- في الوقت القليل المتبقي في حياتي....

عثرت من جديد على صيادي السمك الطيبين في بورت ليغات. واحتفظوا جميعهم بذكرى أشبه بالكابوس عن حقبة الفوضويين. "لا، لا، لا نريد هذا ثانية. كان هذا أسوأ من أي شيء: سرقة، قتل، لا شيء أكثر. عادت الأمور إلى ما كانت عليه دوماً الآن: تذهب إلى المنزل، وتكون سيد نفسك!"

وفتحت باب منزلي. وكان كل شيء قد اختفى. لم يبق شيء من مكتبتي، ولا أي شيء، فقط الجدران المغطاة برسوم فاحشة وشعارات سياسية متناقضة. وتحت كل هذه الكتابات، معظمها بقلم رصاص وتشير إلى المرور المتعاقب للفوضويين والشيوعيين والانفصاليين والجمهوريين والتروتسكيين، إلخ، تمت كتابة أحرف كبيرة بالقطران:

"تحيا الفوضوية! الاتحاد الإيبري اللاسلطوي! ثلث سنتياغو(؟)- إسبانيا العربية!"

بعد أن أمضيت أسبوعاً في مدريد سافرت جواً إلى لشبونة حيث انتظرني غالا لنتابع رحلتنا إلى أمريكا. وفي مدريد صادفت النحات "ألادرو"، أحد أصغر أعضاء مجموعة أيام مراهقتي في مدريد. ووجدت في منزل الشاعر ماركينا إحدى لوحاتي من المرحلة الكلاسيكية الأولى لي في كاداكيس. وتواصلت مع المفكرين، ومن بينهم "إيوجينو مونتيس" الذي أمضيت معه اثنتي عشرة سنة قبل علاقاتي الروحانية المقربة، وهو من أكثر فلاسفة العصر حدة وشاعرية. لقد عانقت المعلم "بترونيوس الباروك"، ومخترع "Ben Plantada" المتوسطية، وأحضرت له رسائل من ليديا المزروعة جيداً من كاداكيس. كان حاجبا "إيوجينو دور" الكثيفان الطويلان بشكل ملفت للنظر، ومع اللون الأشيب لعمره، يجعلانه مشابهاً لأفلاطون بشكل كبير. كما التقيت "بديونيزيو ريديخو" الشاعر الأصغر سناً وصاحب الأسلوب الغنائي الأكثر حماساً وعنفاً. أما بالنسبة "لرافاييل سانشيز موروس" المناهض للغونغورية، فقد فهمت من شكله الكاثوليكي وميكيافيلية نظرته بأنه قد تم تلقينه أسرار النهضة الإيطالية، وتلقن الكثير من أسرار النهضة الغربية القادمة.

لكن قبل ولادة نظرية بدء الكون التي كانت تضغط وتنمو وتركلني في أعماق أحشائي المنطقية لتسع سنوات، عليّ أن أكمل طريق حياتي التي يمكن أن تعيقها حرب أوروبا بشكل غير إرداي، كي أتمكن من الاستمرار في تلبية "احتياجاتي" الأخلاقية والمادية والنزوية، كما تفعل المرأة الحامل- وكنت كذلك، ولا أزال كذلك من أجل شرف ومجد الجميع. وكنت بحاجة إلى أن أهرب فوراً من تصادمات التاريخ الجمعية العمياء والهائجة، وإلا سيتعرض جنين أصالتي الأثري نصف المقدس إلى الإصابة بالأذى والموت قبل الولادة في ظروف مهينة لإجهاض فلسفي يحدث على أرصفة الحكاية. لا، لست ممن يصنعون أنصاف أولاد. الطقوس أولاً وأخيراً! أنا مهتم منذ الآن بمستقبلها،

بملاءات ووسائد مهدها. كان علي العودة إلى أمريكا لكسب مال جديد من أجل غالا ومن أجله ومن أجلي...

ووصلت إلى لشبونة. لشبونة التي تكمن تحدت الأغنية المسعورة لصراصير الليل في تلك الفترة الحارة الصيفية، وكانت أشبه بمقلاة عملاقة يفور فيها زيت الظروف الذي يغلي، ويُطهى فيها مستقبل آلاف الأسماك المهاجرة والهاربة التي أصبح عليها آلاف اللاجئين من جميع الأنواع والجنسيات والأعراق. في ساحة ديل روسيو التاريخية التي كان يفوح منها عبق لحم ضحايا محاكم التفتيش المحترق وزناختها، ارتفع من جديد دخان الشهداء الجدد الذين وقعوا ضحية كماشات تأشيرات الدخول وجوازات السفر، برائحة سببت الاختناق والتي كانت تحديداً الرائحة المثيرة للغثيان لسمك المصير المقلي. ومن سمك ذلك المصير تذوقت قطعة من الذيل كان الواقع الأوروبي قد وضعها في فمي قسراً. ومضغتها وأعدت مضغها، لكنني لم أبتلعها، وفي اللحظة التي شعرت فيها بقدمي مثبتتين بقوة على سطح سفينة "أكزكامبيون" التي كانت ستأخذني إلى أمريكا، بصقتها بقرف ممزوج بالغضب والحقد إلى تلك اليد التي كنت سأتخلى عنها. وفي الكتف الأيمن من شبه الجزيرة الإيبرية المثقل بكيس السوداوية الرجعية وعدم الجدوى لمدينة لشبونة الرائعة، كانت الدراما الحزينة الأصيلة للحرب الأوروبية تُمثّل (في مسرح خال من المتفرجين، ومن المجد والمتعة معاً). لقد كانت دراما منزوية، ومن دون تدفق، تلك التي تُمثل في غرف الفندق التي نام فيها اللاجئون المحتشدون مثل أسماك سردين متعفنة، والتي عادوا إليها كل مساء بعد يوم من الجهود العقيمة، ولم يعودوا مثبطي العزيمة، بل يبتسمون بكراهية، حيث تلتهم الإجراءات البيروقراطية اليائسة المتفسخة نسيج صبر حميرهم المتشح بزرقة الموت! لقد كانت دراما الذين سيستغلّون الراحة البسيطة التي تقدمها محطة الراحة الوحيدة في المرحاض الملوث بالرذاذ المخزي الذي كان

عليهم أيضاً الوقوف في طابور، كي يتمكنوا أخيراً من جرح عروق حريتهم القصوى بشفرة، من دون شرف!

لكن إقامتي في لشبونة بدت لي شيئاً غير واقعي على الإطلاق. كان لدى المرء دوماً انطباع بأنه يلتقي بوجوه مألوفة في الشارع. ويستدير المرء ويجد أنهم كذلك. "لا تبدو شبيهة بالآنسة شياباريلي؟" وتجد أنها هي. "إنه يشبه رينيه كلير تماماً!" وتجد أنه رينيه كلير بالفعل! يغادر الرسام "سيرت" حديقة الحيوانات بعربة الترام بينما يعبر "دوق وينسور" الشارع ويكون "باديرويسكي" جالساً على مقعد مقابل ليستمتع بالشمس. وعلى حافة الرصيف، يجلس موظف البنك الشهير، ملك المصرفيين، وهو يحمل صحيفة ويستمع إلى أغنية صرصار ليل مسجون في قفص ذهبي اشتراه للتو، وقربه رجل مبتور الساق كان يراقبه ويمكنك أن تقسم أنه نابليون بونابرت بلحمه ودمه، ذلك الحاجب المرير والأنف المثلثي الشكل يشبهان ملامح الامبراطور بشدة. في الطرف البعيد من الساحة، يقف في طابور أمام مكاتب شركة الملاحة، الشخص الذي تراه من بعيد، يرتدي بزة بنية ويشبه سلفادور دالي.

ولدى وصولي إلى أمريكا، ذهبت مباشرة إلى منزل صديقتنا من مرحلة "مولان دي سوليه"، "كاريس كروسبي"، في عزبة هامبتون. وكنا سنحاول معاً إحياء شمس فرنسا التي كانت تغيب بعيداً، ما وراء إيرمينونفيل. وعزلت نفسي لخمسة أشهر، وأمضيت وقتي في العمل في تأليف كتابي والرسم- مخبأ في قلب فيرجينيا التي كانت تجعلني أفكر دوماً بتورين التي لم أزرها في حياتي. وقرأت غالا أعمال بلزاك لي من جديد، وفي بعض الليالي كان طيف "إدغار آلان بو" يأتي إلي من ريتشموند في سيارة مكشوفة جميلة جداً مبقعة بالحبر. وذات ليلة سوداء، قدم لي هدية وهي هاتف أسود مزخرف بقطع سوداء من أنوف سوداء لكلاب سوداء، ثبت في داخلها بخيط أسود جرذاً أسود ميتاً وجورباً أسود، وكل ذلك مغمس

بالحبر الهندي. كان الثلج يهطل. وضعت الهاتف على الثلج، وكان الانطباع الناتج يفوق بكثير انطباع الأسود على الأبيض.

ثم بدأت أؤمن أكثر فأكثر بمنطق ذلك الشيء العجائبي الذي يدعى العين! في مرحلة ما قبل النوم، بعد أن أغمض عينيّ، أنظر إلى عيني، بعيني من أعماق عيني، وأبدأ "برؤية" عيني واعتبارها كجهاز تصويري طري حقيقي، ليس للعالم الموضوعي بل لفكري الصلب، ولفكري بشكل عام. ووصلت على الفور إلى استنتاجات مكنتني من تأكيد أن المرء يستطيع تصوير الفكر وبدأت القواعد النظرية لاختراعي. وأصبح هذا الاختراع اليوم حقيقة منجزة، وما إنْ يتم إتقانه بشكل ميكانيكي سأقدمه للبحث العلمي في الولايات المتحدة.

سيصبح من الممكن تحقيق ما كان يبدو عجائبياً دوماً: التصور الموضوعي للصور الافتراضية لفكر المرء ومخيّلته. هذا هو مستقبل السينما الحقيقي، ذلك الشيء المجهول الذي طال البحث عنه الذي يحمله كل إنسان عند ولادته بشكل كامن مغلفاً بالتعقيد النسيجي لدماغه، والذي حاولت البشرية منذ بداية الزمن وفي كل العصور تجسيده بشكل مادي بوسائل تقريبية خاصة بالنشاط الفني، وكانت هذه على الدوام ميزة يتمتع بها عدد محدود جداً من البشر الفانين.

سأكرس بقية حياتي كلها لتحقيق اختراعي وإتقانه، بمساعدة رجال العلم الذين علي التعاون معهم بدافع الحاجة. لقد خطرت لي فكرة اكتشافي المفاجئة في ليلة الثامن من أيار في نيويورك بالضبط، في غرفتي في فندق سينت ريجيس أثناء مرحلة استيقاظ دامت لنصف ساعة بين السادسة والسادسة والنصف صباحاً. وعندما استيقظت، دونت النتائج الرائعة لفكرتي التي بالكاد تجرأت على الإيمان بها. لكن تأملاتي الطويلة في الخطة الأصلية لهذه الملاحظات المكتوبة بعجلة، وبدافع الخوف من أن أنسى شيئاً ما، أصبحت أكثر تبلوراً، ووصلت إلى مرحلة

اليقين الحالي بأن اختراعي ليس مجرد شذرة من مخيلتي، وأن إنجاز الجهاز الأول من هذا النوع ليس احتمالاً بعيداً إن نجحت في إحاطة نفسي بسرعة بالتقنيين والاختصاصيين الذين سأحتاج إليهم طبعاً كي أعطي شكلاً متجسداً لواقع اكتشافي...

يوشك هذا الكتاب أن ينتهي.

يبدأ الكتّاب عادة بكتابة مذكراتهم "بعد أن ينتهوا من عيش حياتهم"، ومع اقتراب نهاية حياتهم وتقدمهم في العمر. لكن مع نقيصتي التي تملي علي القيام بكل شيء بشكل مختلف عن الآخرين، بل القيام بعكس ما يفعله الآخرون، اعتقدت أنه سيكون من الذكاء أن أبدأ بكتابة مذكراتي، ثم أعيشها بعد ذلك. أعيش! أصفي نصف حياتي كي أعيش النصف الآخر غنياً بالتجربة، وحراً من سلاسل الماضي. لأنه كان من الضروري بالنسبة إلي أن أقتل ماضيّ من دون شفقة ولا تردد، وكان علي أن أخلص نفسي من جلدي، ذلك الجلد البدئي لحياتي الثورية والعديمة الشكل في مرحلة ما بعد الحرب. وكان من الضروري أن أغير جلدي بأي ثمن، وأن أستبدل بتلك البشرة المتهالكة التي ارتديتها وخبأتها وعرضت نفسي بها، وكافحت وقاتلت وانتصرت بها، ذلك الجلد الجديد، لحم رغبتي، ونهضتي الوشيكة التي ستبدأ من غد اليوم الذي سيصدر فيه هذا الكتاب تحديداً. أنا في هذه اللحظة، بينما أكتب هذه السطور، منغمس في القيام بالتشنجات الأخيرة التي تشكّل في الواقع نهاية هذا الفصل، والتي ستسمح لي بالتملص وفصل نفسي بالكامل عن سجن جلدي القديم، كما تفعل الأفاعي بالضبط، وكما تفعل آلات البيانو المرنة التي تخيلها دالي أيضاً، عندما، في نهاية أيام شفافة معينة من تشرين الأول، تترك على صخور شاطئ مونتيري القطع الممزقة لبشراتها الشاعرية القديمة التي تعتقد الفقمات- التي تشبه بدورها آلات البيانو الطرية- أنها بقايا أسلافها القطبيين، بسبب الاحترام الذي يستحضره فيها السمو المنتظم

والمتوازن للأسنان العاجية لآلات البيانو الطرية، عندما تقارنها بأسنان فيلتها البحرية الفاشلة.

جلد جديد، أرض جديدة! وأرض الحرية، إن كان هذا ممكناً! اخترت جيولوجيا أرض جديدة بالنسبة إلي، وهي أرض يافعة وبكر ومن دون دراما، أرض أمريكا. لقد سافرت في أمريكا، لكن بدلاً من أن أفرك جلد جسدي على نتوءات تضاريسها مباشرة وبشكل رومانسي، فضّلت أن أقشّر جلدي محمياً ضمن الدرع الأسود اللامع القشري لسيارة كاديلاك قدمتها هدية لغالا. وعلى أية حال. فإن كان الرجال المعجبين بجلدي القديم، والنساء المغرمات به، سيتمكنون من العثور على بقاياه على شكل قطعة ممزقة بأحجام متعددة مبعثرة في الرياح على طول الطريق من نيويورك عبر بيتسبرغ إلى كاليفورنيا. لقد قشرت جلدي مع كل اتجاه للرياح، بقيت قطع جلدي عالقة هنا وهناك على طول الطريق، مبعثرة على طوال "الأرض الموعودة" والتي هي أمريكا، وبقيت بضع قطع من جلدي معلقة في النباتات الشوكية لصحراء أريزونا، على طول الدروب التي خببت فيها على ظهر جواد، حيث تخلصت من "مفاهيمي الكوكبية" الأرسطوية. وبقيت قطع أخرى من جلدي منتشرة مثل أغطية طاولات من دون طعام على قمم الكتل الصخرية التي يصل المرء عبرها إلى سالت ليك، التي استحضر فيها شغف المورمون القوي شبح أبولينير الأوروبي. وبقيت قطع أخرى معلقة على طول جسر سان فرانسيسكو "السابق لعهد الطوفان"، حيث رأيت مرور أجمل عشرة آلاف عذراء في أمريكا، عاريات بالكامل، يقفن في صف على جانبيّ وأنا أمر، مثل صفين من أنابيب الأرغن المكونة من اللحم الملائكي بشفاه فروج من أصداف كوري البحرية. وبقيت قطع أخرى ضائعة في طيات ليلة المستقبل تلك المنارة بخمسة عشرة نجماً بحجم قبضة مغلقة مليئة ببذور الحرية، وتهزها الرياح الوطنية القادمة من خمس عشرة دولة وتجعل، صفاء الأعلام المنتصبة الملقحة الجامدة أكثر مجداً...

إن تحولي هو التقاليد، لأن التقاليد هي تحديداً- تغيير الجلد هذا، واختراع جلد أصلي جديد يكون نتيجة حتمية للقالب البيولوجي للجلد الذي سبقه. إنها ليست عملية جراحية ولا تشويهاً، ولا هي ثورة- إنها نهضة. أنا لا أنبذ شيئاً، بل أتابع. وأتابع بأن أبدأ، بما أنني بدأت بأن انتهيت، كي تصبح نهايتي بداية ونهضة.

هل سأتقدم في العمر أخيراً؟ لطالما بدأت بالموت كي أتجنب الموت. الموت والبعث، الثورة والنهضة- بما أن هذه هي الأساطير الدالية لتقاليدي. لقد بدأت قصيدتي الرعوية، "قصة حبي" مع غالا بنية قتلها. واليوم، في نهاية "سيرتي الذاتية"، وبعد أن عشت معها لسبعٍ سنوات، وفي لحظة تحولي إلى دالي الغد، قررت الزواج من جديد، منهياً الجزء الرومانسي من كتابي بزواج حقيقي. لكن بدلاً من الزواج من جديد بطريقة "ثورية" من امرأة أخرى، أريد أن أتزوج المرأة نفسها، غالا، زوجتي، من جديد، وهذه المرة أريد أن تثبته الكنيسة الكاثوليكية وتجعله مقدساً.

وعندما وصلت إلى باريس، أردنا أنا و"ميرو" أن نغتال الرسم. أما اليوم، فالرسم هو من يغتالني لأنني لا أريد إلا إنقاذه، ولا أجد أية تقنية في العالم كافية لجعله يحيا من جديد! وبهذا تبين أن دالي مساوٍ لدالي، وأنني أنا نفسي على الدوام، وأن تقاليدي المتناقضة هي القوة الحقيقية وراء أصالتي.

أتابع...

أوروبا أيضاً...

أن أنظر إلى أوروبا من منارة الحرية ذات الألف واجهة. تجربة حياتي المشوشة كلها، وثورتي السريالية في باريس، وفترات عزلتي المعذبة والزاهدة في إسبانيا، ورحلاتي الجمالية إلى إيطاليا، اتضحت كلها واتخذت صفاء موضوعياً يأتي مع المسافة والحكمة العاطفية لوجهات النظر المأسوية. أنا لا أفهم ما حدث وحسب، بل أرى المستقبل أيضاً.

الحضارة الإغريقية- الرومانية القديمة، بعد المرور بكل تلك الثورات التي لا طائل منها، وتحت الكرب والمحن التي جعلتها الحرب تغرق فيها، هي أيضاً تغير جلدها بشكل مؤلم، وتجد جلدها الجديد، جلد تقاليدها الذي لا يزال مدفوناً تحت الجحيم الفوضوي. لقد كانت أوروبا ما بعد الحرب تموت بسبب تجاربها الثورية السياسية والجمالية والأخلاقية التي التهمتها بالتدريج وأضعفتها وسحقتها. كانت تموت بسبب نقص الصرامة ونقص الشكل، كانت تموت مختنقة بالريبة المادية للنظريات السلبية والعدمية، بسبب "المذاهب" من جميع الأنواع. كانت تموت بسبب التعسف والبلادة والإكرامية والعربدة السيكولوجية، وعدم المسؤولية الأخلاقية لفساد الأخلاق وانعدام الهرمية وتوحيد الميول الاجتماعية. كانت تموت بسبب خطأ التخصص والتحليل الجسيم ونقص التركيب ونقص الإيمان.

لقد صحت أوروبا من معاناة الحرب الأخيرة مع السراب الخاص بمسيح منتظر، والسراب الخيالي "للثورة" التي كانت ستغيّر كل شيء في العالم. لقد أصبحت آمالها حرباً من جديد. إن أوروبا ستصحو من كابوس عذاب الحرب الحاضرة الفظيع مضللة "بطيبة" الثوار، وستكون قد دفعت ثمناً باهظاً. أكرر أنها ستصحو، وقد أصبحت عيناها مفتوحتين وجافتين، لأنها قد استنفدت دموعها على واقع استمرارية التقاليد التي تم إحياؤها. إن الحرب الحالية تؤكد إفلاس الثورات قبل أي شيء آخر. بالتأكيد، إن اليوتوبيات اليسارية والملحدة والوثنية الجديدة للشيوعية والاشتراكية القومية، ما إن كانت كلاً منها تساعد الأخرى أو تلتهمها، مقدر لهما، هما الاثنتين، أن تبادا وتُقهرا على يد التحقق الفرداني الجديد للتقاليد الكاثوليكية الأوروبية المتوسطية. إنني أؤمن أكثر من أي شيء بالقوة الحقيقية التي لا يسبر غورها للكاثوليكية الفلسفية الخاصة بفرنسا، وبالكاثوليكية المحاربة الخاصة بإسبانيا.

وبعد كارثة تجربة الحضارة المادية ما بعد الآلية لحقبة ما بعد الحرب، ستغوص أوروبا في حقبة تشبه القرون الوسطى، وستعتمد من جديد خلالها على الأساسات الأزلية للقيم الدينية والأخلاقية وقوى ماضي حضارتها الروحانية. وسيظهر أفراد يقومون بالنهضة القادمة من خلال الأزمة الروحانية الوشيكة لحقبة العصور الوسطى العابرة هذه.

سأكون أول بشائر هذه النهضة! لا يمكن لأية وحدة لأوروبا أن تصبح أكثر ثباتاً وتماسكاً وتهديداً من محنتها المشتركة، وحتى إن أبادت وثنية الإيديولوجي النازي "روزينبرغ" الجديدة الإلحاد الروسي، فمن الممكن "لوحدة أوروبا" أن تمتص بدورها الوثنية الجديدة وتبيدها، تلك "الوحدة الأوروبية" التي كانت طموحاً للغازي ونتيجة له بشكل متناقض، لكنها تقوم بشكل مؤكد بإبادة وثنية الأخير وإيديولوجيته الجرمانية[1]. لأن وحدة أوروبا ستتم، ولا يمكن أن تتم، إلا تحت شعار انتصار الكاثوليكية. وإن سألتني اليوم ثانية أين يمكن العثور على قوة أوروبا الحقيقية، سأجيب مرة أخرى على الرغم من كل المظاهر السطحية، أنها تكمن أكثر من أي وقت مضى في فردانية روحها، تلك الفردانية المتجسدة بصفي أعمدة برنيني[2]، والذراعين المفتوحين للغرب، ذراعي القديس بطرس في روما، قبة الإنسان، الفاتيكان.

عندما اختار الرجال الذين وضعوا الأساسات الأزلية للجماليات الغربية منذ بدء تاريخ الحضارة، ومن بين العدد الكبير من أوراق الأشجار عديمة الأشكال، شكل ورقة "الأقنثا" الفريد من نوعه، فقد جسّدوا بعملهم هذا الرمز المورفولوجي الخالد الذي قُدِّر له أن يصبح الثابت البدئي للحضارة

---

[1]تنسب هذه الملاحظة الذكية لتريستان برنار، يوم احتلال باريس: "امضينا حقبة الحرب كاملة نهتف عن الألمان'سننال منهم! سننال منهم! سننال منهم!'"

[2]تم إيضاح أنه لا يمكن تعريف البلاد بخطوط ماجينو المنشأة بمادة زائفة وسياسات زائفة التي شقتها الثورة. لكن الجندي الفرنسي الذي يأتي من معسكر الاعتقال ويبكي قد أصبحت من جديد "حجراً كاثوليكياً"، حجراً في كاتدرائية تشارتر، تقليداً وقوة.

الإغريقية- الرومانية، مقابل رمز زهرة اللوتس الخاص بآسيا والشرق. إن "لفة النبتة الحلم" لورقة الأقنثا التي تم تثبيتها في رؤوس الأعمدة الكورنثية الأولى، ولم تتوقف من حينها عن كونها تقليد الذكاء الجمالي، والقوة المستمرة لمنيرفا في تقلبات التاريخ العمياء والغامضة. ورقة الأقنثا، التي أصبحت مقدسة من خلال قوة فكرة تحجرها التزييني الأول، لم يكن مقدراً لها أن تموت. بل عاشت في كل الهندسات المعمارية المستقبلية للروح، وبينما تغير جلد أحلام نموها، فقد التفت وتجعدت وأصبحت ثقيلة وانفتحت وعاشت، ثم عاشت من جديد وتبرعمت وتبرعمت من جديد من خلال الأحداث الاختلاجية للغرب. غالباً ما كانت تختفي تحت العواصف الثورية، كي تظهر من جديد أكثر إتقاناً من الناحية الجمالية من أي وقت مضى، في هدوء صفاء النهضات...

يقتل البشر بعضهم البعض، يعض الناس التراب تحت نير المنتصرين، وينتفخ آخرون مثل قملة عملاقة بالجغرافيا الدامية للفتوحات الإقليمية. يبدو أن الثورة والعصور الوسطى قد دمرا "الحياة الصغيرة" المناهضة للتاريخ الخاصة بورقة الأقنثية التي لا يفكر بها أحد. لكن عندما لا يفكر بها أحد تحديداً، انظروا كيف تولد هذه الورقة من جديد، خضراء وغضة ولامعة، بين شقوق أحد الأطلال الجديدة. وكأن الكوارث التاريخية، وكل معاناة الإنسان وعواصف البَرَد وفيضانات روح الغرب وفوضاها مقدر لها، بحضورها واختفائها العابر والعاصف، مقدر لها فقط أن تأتي طوال الوقت لتغذي أزلية ورقة الأقنثية، كي تحافظ فقط على الخلود المتجدد دوماً للتقاليد لتبقى خضراء وجديدة وبكر وأصلية...

نهاية حرب، تداعي امبراطورية، ومئة سنة من الفوضى لم تفعل إلا أن عدلت ميلان الشكل التزينيي لورقة الأقنثية وحدودها قليلاً، كي تظهر من جديد في القوالب الأولى التي لا تزال غضة، للحم الحضارة الجديدة

الناشئة. وتستمر ورقة الأقنثية. إن حياة التقاليد من رؤوس الأعمدة الكورنثية هي حياة ورقة الأقنثية، تموت في عصر المسيح، تولد ثانية ثقيلة وملقحة بالكلاسيكية مع بالاديو، زفافية في روما، تأليهية بأسلوبها في عصر لويس الرابع عشر، هستيرية في عصر لويس الخامس عشر، عربيدية ومثيرة للشهية الجنسية في عصر الباروك، مقتولة بالمقصلة في الثورة الفرنسية، متواضعة ومتجبرة في امبراطورية نابليون، عصابية ومجنونة في الأسلوب العصري، محتجزة في مصح عقلي طوال مرحلة ما بعد الحرب، منسية من قبل الجميع اليوم في الحرب الحالية الجديدة!

لكنها ليست ميتة! لأنها تعيش في مكان ما، لأنها تفتح برعم جمالها الشائك الجديد في ملجأ الأسلاك الشائكة للأحداث اليومية الأكثر تحديداً في دماغ سلفادور دالي. نعم! أنا أعلن حياتها، أعلن الولادة الجديدة لأسلوب...

كل الذين يستمرون بتقليدي بإعادة "السريالية الأساسية" مقدر لهم قضاء عمرهم في يمبوس نقص الأسلوب، لأنك كي تصل إلى إبداع لأسلوب معين، وبدلاً من الاستمرار بالتفكك، من الضروري أن تقوم بالدمج، وبدلاً من محاولة استخدام السريالية لأهداف تخريبية بعناد، من الضروري أن تحاول أن تجعل من السريالية شيئاً متماسكاً وكاملاً وكلاسيكياً كأعمال المتاحف.

انتهى، انتهى، انتهى، انتهى، انتهى- ما قد انتهى!

يوم ذهبت لزيارة سيغموند فرويد في منفاه في لندن عشية موته، فهمت من درسٍ التقاليد الكلاسيكية لعمره المتقدم كم من الأشياء قد انتهت أخيراً في أوروبا مع نهاية حياته الوشيكة. وقال لي:

"في اللوحات الكلاسيكية، أبحث عن الوعي الباطن- في لوحة سريالية، أبحث عن الوعي".

كان هذا إعلاناً بحكم الموت على السريالية كعقيدة وطائفة ومذهب. لكنه أكد واقعية تقليدها "كحالة من حالات الروح"، حدث الأمر نفسه

مع ليوناردو- "دراما الأسلوب"، إحساس مأسوي بالحياة والجماليات.
في هذه اللحظة كان فرويد يشغل نفسه بشكل رئيسي بـ"الظاهرة الدينية وموسى". وأذكر الحماسة التي لفظ بها كلمة "تسامي" في عدة مناسبات. "موسى هو جسد التسامي". لقد أصبحت العلوم المتفردة لعصرنا متخصصة في هذه الثوابت الثلاثة الأزلية والحيوية- الغريزة الجنسية، معنى الموت، والقلق الزماني- المكاني. والآن بعد تحليلها، وبعد التخمين التجريبي، أصبح من الضروري تساميها. يجب أن تتسامى الغريزة الجنسية بالجماليات ومعنى الموت بالحب، والقلق الزماني- المكاني بالميتافيزيقيا والدين. يكفي إنكاراً لأن على المرء أن يجزم. يكفي محاولات العلاج، لأن على المرء أن يتسامى! يكفي تفككاً، لأن على المرء أن يقوم بالدمج والدمج. وبدلاً من التلقائية، يجب أن يكون هناك الأسلوب، وبدلاً من العدمية، يجب أن تكون هناك التقنية، وبدلاً من الريبة، يجب أن يكون هناك الإيمان، وبدلاً من الاختلاط، يجب أن يكون هناك الصرامة، وبدلاً من الجمعية والتوحيدية، يجب أن تكون هناك التفردية والتمايز والهرمية، وبدلاً من التجريب، يجب أن يكون هناك التقاليد. وبدلاً من رد الفعل أو الثورة، يجب أن تكون هناك **النهضة!**

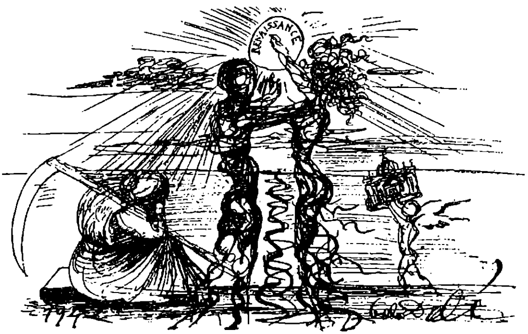

الخاتمة

عمري سبع وثلاثون عاماً. اليوم هو الثلاثون من تموز عام 1941، يوم وعدت ناشري أن أنهي هذه المخطوطة.

أنا عار تماماً ووحيد في غرفتي في عزبة هامبتون. اقتربت من مرآة خزانة الملابس ونَظرت إلى نفسي، شعري لا يزال أسود كالأبنوس، قدماي لم تعرفا بعد وصمة عار مسمار قدم واحد، ولا يزال جسدي مماثلاً لما كان عليه في المراهقة، عدا عن معدتي التي أصبحت أكبر. أنا لست في عشية رحلة إلى الصين، ولا أنا أوشك أن أطلق زوجتي، ولا أفكر بالانتحار، ولا القفز عن جرف صخري متمسكاً بالمشيمة الدافئة لمظلة حريرية في محاولة لأولد من جديد، ولا أرغب في المشاركة في نزال مع أي شخص ولا أي شيء، ولا أريد إلا أمرين: الأول، أن أحب غالا، زوجتي، والثاني، ذلك الأمر الذي لا مهرب منه، الصعب جداً وغير المرغوب- أن أتقدم في العمر.

وأنت أيضاً يا أوروبا، ربما أجدك أبان عودتي قد هرمت أكثر قليلاً بسبب كل "ذلك". عندما كنت طفلاً كنت خبيثاً، ونشأت تحت ظل الشر، وما زلت أسبب المعاناة. لكن منذ سنة مضت، أعرف أنني بدأت أحب الكائن الذي تزوجني منذ سبع سنوات، وبدأت أحبها كما تطلب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الرسولية، وفقاً لمفهومها عن الحب. قال أنامونو عن الحب الكاثوليكي: "إن كانت زوجتك تعاني ألماً في ساقها اليسرى، ستشعر بالألم نفسه في ساقك اليسرى".

أنهيت كتابة هذا الكتاب الطويل عن أسرار حياتي، لأن هذه الحياة التي عشتها، هذه الحياة وحدها، تمنحني سلطة ليتم سماعي. وأريد أن يتم سماعي. أنا التجسد الأكثر تمثيلية لأوروبا ما بعد الحرب، لقد عشت كل مغامراتها، وكل تجاربها، وكل أحداثها الدرامية. وكشخصية رئيسة في الثورة السريالية، عرفت أبسط الأحداث الفكرية اليومية وانعكاساتها في التطور العملي للمادية الجدلية والعقائد الفلسفية المزيفة بناء على

أساطير الدم والعرق للقومية الاشتراكية. درست مطولاً علم اللاهوت. وفي كل اختصار إيديولوجي اضطر دماغي لسلوكه كي يكون الأول دوما، واضطررت إلى دفع ثمن باهظ بالعملة السوداء لعرقي وشغفي. لكن إن كنت قد شاركت بميزة التعصب الواعي للإسباني الذي أنا عليه في كل الأبحاث التأملية، حتى أكثرها تناقضا، فلم أكن في حياتي مستعدا من جهة أخرى للانتماء إلى أي حزب سياسي أياً كان. وكيف يمكنني أن أكون مستعداً لذلك الآن بعد أن كاد الدين يلتهم السياسة.

منذ عام 1929، درست من دون توقف عمليات العلوم واكتشافاتها الخاصة في المائة سنة الأخيرة. وإن لم يكن من الممكن لي أن أستكشف كل زواياها بسبب تخصصها الهائل، لكنني فهمت معناها مثل أفضل المختصين بها! هناك أمر مؤكد: لا شيء، لا شيء على الإطلاق في الاكتشافات الفلسفية والجمالية والمورفولوجية والبيولوجية والأخلاقية لعصرنا ينكر الدين بل على العكس تماما، لقد فتحت عمارة معبد العلوم المتخصصة كل نوافذها للسماء.

السماء هي ما كنت أسعى إليه طوال الوقت ومن خلال كثافة لحم حياتي المشوش والشيطاني- السماء! آسف على من لم يفهم هذا بعد! في أول مرة رأيت إبطي امرأة منزوعي الشعر، كنت أسعى إلى السماء. وعندما حركت بعكازي كتلة القنفذ الميت المتحللة التي أكلتها الديدان، كنت أبحث عن السماء. وعندما نظرت من قمة "برج الطاحونة" بعيداً إلى الفراغ الأسود، كنت أيضاً، ولا أزال، أبحث عن السماء!

غالا، أنت واقع!

وما هي السماء؟ أين توجد؟ "السماء لا توجد في الأعلى ولا في الأسفل، توجد السماء بالضبط في مركز صدر إنسان لديه إيمان!"

النهاية

في هذه اللحظة، لا أملك الإيمان بعد، وأخشى أنني سأموت من دون السماء.

سلفادور دالي

عزبة هامبتون: الساعة الثانية عشرة ظهراً